شرح كتاب التوحيد

لسماحة الشيخ العلامة
عبد الله بن محمد ابن حميد
(رحمه الله رحمة واسعة)

قدم له وراجعه
معالي الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله ابن حميد
إمام المسجد الحرام وخطيبه
عضو هيئة كبار العلماء
رئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي

اعتنى به
خالد بن ماجد بن عبد الرحمن الرشيد العمرو
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم معالي الشَّيخ صالح ابن حميد ـ حفظه الله ـ

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، والصَّلاة والسَّلام على النَّذير البشير الذي ختم الله به رسالاته، وأوضح به معالم دينَهُ، فكان النَّاصح الأمين؛ أقام به التَّوحيد، وأرشد إلى حقِّ الله على العبيد، فاتضحت به الحجَّة والمحجَّة، وكملت به الشَّريعة، وعلى آله وصحبه الغُرِّ الميامين، الذين درجوا في محاسن التشريع، ودعوا الخلق إلى سبيل المؤمنين، فانتشر بهم الحقُّ، ورحم الله بهم الخلق، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فإنَّ بني الإنسان حين يضلُّون عن سبيل الله يتخبطون في فوضى التَّديُّن، ويغرقون في ألوان الشِّرك، وأوحال الجاهليَّة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

فالبشر عقولهم قاصرة عن أن تدرك طريق الصَّلاح بمفردها، أو تستبين سبيل الرَّشاد بذاتها، إنَّها لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعاً أو تدفع ضرّاً.

فلا يرتفع عن النُّفوس الشَّقاء، ولا يزول عن العقول الاضطراب، ولا ينزاح عن الصُّدور القلق والحرج إلَّا حين توقن البصائر، وتسلِّم العقول بأنَّهُ سبحانه هو الله الواحد الأحد، الفرد الصَّمد، الجبَّار المتكبِّر، له الملك كلُّهُ، وبيده الأمر كلُّهُ، وإليه يرجع الأمر كلُّهُ، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

[البقرة: ١١٢]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

إنَّ إسلام الوجه لله، وإفراده بالعبادة يرتقي بالمؤمن في خُلُقه وتفكيره، وينقذه من زيغ القلوب وانحراف الأهواء وظلمات الجهل وأوهام الخرافة، ينقذه من المحتالين والدجَّالين وأحبار السُّوء ورهبانه، ممَّن يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، التَّوحيد الخالص المخلص يحفظ الإنسان من الانفلات بلا قيد أو ضابط.

إنَّ توحيد الله هو العبودية التامَّة له سبحانه، تحقيقاً لكلمة الحقِّ: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله ﷺ، تحقيقاً لها في لفظها ومعناها، والعمل بمقتضاها، يقيم المسلم عليها حياته كلَّها، صلاته ونسكه، ومحياه ومماته، توحيدٌ في الاعتقاد، وتوحيدٌ في العبادة، وتوحيدٌ في التَّشريع، توحيدٌ تُنَقَّى به القلوب والضمائر من الاعتقاد في الألوهيَّة لأحد غير الله، وتُنَقَّى به الجوارح والشَّعائر من أن تُصرف لأحد غير الله، وتُنقَّى به الأحكام والشَّرائع من أن تتلقَّى من أحد دون الله ﷻ.

التَّوحيد هو أوَّل الدِّين وآخره، وظاهره وباطنه، وقطب رحاه، وذروة سنامه، قامت عليه الأدلَّة، ونادت عليه الشَّواهد، وأوضحته الآيات، وأثبتته البراهين، نصبت عليه القبلة، وأُسِّست عليه الملَّة، ووجبت به الذِّمَّة، وعُصِمت به الأنفس، وانفصلت به دار الكفر عن دار الإسلام، وانقسم به الناس إلى سعيدٍ وشقيٍّ، ومهتدٍ وغويٍّ.

لقد كانت **عناية القرآن** بتوحيد الله عظيمة، فهو القضيَّة الكبرى، وهو مهمَّة رسل الله الأولى، وجاء في محكم التنزيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

القرآن كلُّهُ حديث عن التَّوحيد، وبيان حقيقته والدَّعوة إليه وتعليق النَّجاة والسَّعادة في الدَّارين عليه، حديث عن جزاء أهله وكرامتهم على ربِّهم، كما

أنَّهُ حديث عن ضدِّه من الشِّرك بالله وبيان حاله وأهله وسوء منقلبهم في الدُّنيا وعذاب الهُون في الأخرى، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

والأوامر والنَّواهي ولزوم الطَّاعات وترك المحرَّمات هي حقوق التَّوحيد ومكمِّلاته، القرآن العظيم يخاطب الكفَّار بالتَّوحيد ليعرفوه ويؤمنوا به ويعتنقوه، قال ـ جلَّ ثناؤه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذَّاريات: ٥٠ ـ ٥١].

وكُلُّ نبيٍّ يقول لقومه: كما حكاه ـ سبحانه ـ في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والتَّوحيد يخاطَب به المؤمنون ليزدادوا إيماناً، وليطمئنوا إلى تحقيق توحيدهم، وليحذروا النَّقص فيه أو الخلل قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [النساء: ١٣٦]، ومن صفات عباد الرَّحمٰن ما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]، ومن نعوت أهل الإيمان الموعودين بالتمكين في الأرض: قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

بل لقد خاطب الله أنبياءه ورسله بنبذ الشِّرك، والبراءة من أهله، والإعراض عنه وعنهم، فقال ـ عزَّ وتبارك ـ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦].

وقال ﷻ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ

لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال ـ جلَّ شأنه ـ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص: ٨٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦].

قال أهل العلم ـ رحمهم الله ـ تعليقاً على هذه الآيات وأمثالها: «فإذا كان يُنْهَى عن الشِّرك مَن لا يمكن أن يباشره، فكيف بمن عداه؟!».

ولقد قال إمام الحنفاء إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

قال إبراهيم التَّيميُّ: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!».

أمَّا السُّنَّةُ: فإنَّ بِعثةَ رسول الله ﷺ ورسالتَه وسيرتَه مِن أوَّلِها إلى آخرِها، مكيِّها ومدنيِّها، حضرَها وسفرَها، سِلمَها وحربَها، كلُّها في التَّوحيد، منذ أن أُمِرَ بالإنذار المطلق في سورة المدثر: قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ٥] إلى الأمر بإنذار العشيرة الأقربين: قال ﷻ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣، ٢١٤] إلى الأمر بالصَّدع بالدَّعوة قال ـ جلَّ ثناؤه ـ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤].

ثُمَّ من بعده الأمر بالهجرة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، والإذن بالقتال والجهاد، قال ـ تعالى ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] إلى فتح مكة حين كسر رسول الله ﷺ الأصنام بيديه، وتلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

[الإسراء: ٨١] إلى الإعلام بدنو الحِمَام قال ـ تعالى ـ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣].

لم تخلُ فترة من هذه الفترات البتة من إعلان التَّوحيد وشواهده، ومحاربة الشِّرك وظواهره، ويكاد ينحصر عرض البعثة كلِّها في ذلك، فما ترك عليه الصلاة والسلام تقرير التَّوحيد وهو وحيد، ولا ذهل عنه وهو محصور في الشِّعب، ولا انصرف عنه وهو في مسالك الهجرة والعدوُّ مشتدٌّ في طلبه، ولا قطع الحديث عنه وأمرُه ظاهر في المدينة بين أنصاره وأعوانه، ولا أغلق باب الخوض فيه بعد فتح مكَّة الفتح المبين، ولا اكتفى بطلب البيعة على القتال عن تكرار عرض البيعة على التوحيد ونبذ الشِّرك، فهذه سيرته المدوَّنة وأحاديثه الصَّحيحة، والقرآن من وراء ذلك كلِّه.

من أجل هذا كان التَّوحيد أوَّلاً، ولا بُدَّ أن يكون أوَّلاً في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ مصرٍ.

أما أركان الإسلام الخمسة الكبرى ومعالمه العظمى، فشُرِعت لتعلن التَّوحيد وتجسِّده، وتقرِّرَهُ وتؤكِّدَهُ، تذكيراً وتطبيقاً، وإقراراً وعملاً.

فالشَّهادتان: إثبات للوحدانيَّة، ونفيٌ للتَّعدد، وحصر للتَّشريع والمتابعة في شخص المرسَل المبلِّغ محمَّد ﷺ.

والصَّلاة مفتتحة بالتَّكبير المنبئ عن طرح كلِّ مَن سوى الله عزَّ شأنُهُ، واستصغار كلِّ من دون الله ﷻ، ناهيك بقرآن الصَّلاة وأذكارها في منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

أمَّا الزَّكاة فهي قرينةُ الصَّلاة في التَّعبد والاعتراف للربِّ بجليل النعم، وإخراجها خالصة لله طيِّبة بها النَّفس براءة من عبادة الدِّرهم والدِّينار، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦، ٧].

أمَّا الصِّيامُ الحقُّ فهو الذي يدع الصَّائم فيه طعامَهُ وشرابَهُ وشهوتَهُ من أجل ربِّه ومولاه.

وأمَّا الحجُّ فشعار الأمَّة كلِّها في هذه البطاح والبقاع، فهو التَّلبية بالتَّوحيد، ونفي الشِّرك.

يقول أبو إسحاق الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ في ذلك كلِّه: «نحن نعلم أنَّ النُّطق بالشَّهادتين والصَّلاة وغيرهما من العبادات إنَّما شرعت للتقرُّب إلى الله، والرُّجوع إليه، وإفراده بالتعظيم والإجلال، ومطابقة القلب للجوارح من الطاعة والانقياد».

وفي مأثور نبيِّنا محمَّد ﷺ في الورد اليومي الذي يجعله المسلم في حزبه: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيِّنا محمَّد ﷺ، وملَّة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»، وفي الدُّعاء النَّبويِّ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

ما كانت هذه الأدلَّة المتكاثرة، والحجج المتظاهرة، والبراهين المتواترة، إلَّا لعظم الأمر، وخطر شأن القضيَّة، وشدَّة شأن الخوف على النَّاسِ من الانحرافِ، والقلوبِ من الزَّيغِ.

ولماذا لا يُخاف عليهم والشَّياطين ما فتئت تترصد لبني آدم تجتالهم وتغويهم؟! وفي الحديث القدسيِّ: «**خلقت عبادي حنفاء كلَّهُم، وإنَّهم أتتهُم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهِم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً**».

كيف لا يكون خوفٌ والرَّسول ﷺ خاطب أصحابه الصَّفوة المختارة من الأمَّة: «**أخوف ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر**»؟!

ويزداد الخوف حين يتأمَّل المتأمِّل قوله ﷺ: «**الشِّرك أخفى في الأمَّة من دبيب النَّمل**»، بل لقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنَّ فئاماً من الأمَّة تعبد الأوثان، وقبائل تلحق بالمشركين.

والحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ يعلق على قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨] قال رَحِمَهُ اللهُ: «فيه: تشديدٌ لأمر الشِّرك، وتغليظٌ لشأنه، وتعظيمٌ لملابسته».

لماذا لا يُخاف الخللُ في التَّوحيد والنَّقصُ في صدق التَّعبد والتَّعلُّق، لماذا لا يُحذر من الشِّرك وأنواعه وأسبابه، والله ﷻ يقول في محكم تنزيله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]؟!

قال بعض أهل العلم: «في هذه الآية دلالة على ما يتخلَّل بعض الأفئدة، وتنغمس فيه بعض النُّفوس من الشِّرك الخفيِّ الذي لا يشعر به صاحبه غالباً، فمثل هذا وإن اعتقد وحدانيَّة الله، لكنَّه لا يخلص له في عبوديته، فيتعلَّق بغير ربِّه، ويعمل لحظِّ نفسِهِ، وطلب دنياه، أو ابتغاء رفعة أو منزلة، أو قصد إلى جاه عند الخلق، فللَّه من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وهواه نصيب، وللشَّيطان نصيب، وللخَلْق نصيب، والله أغنى الشُّركاء عن الشِّرك».

إنَّ الأمر خطير ودقيق، شرك خفي في المحبة والتألُّه والخضوع والتَّذلل، مَن أعطى حبَّه وذُلَّه وخضوعه وتسليمه وانقياده وطاعته لغير الله، فكيف يكون محقِّقاً للتَّوحيد؟! قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال ـ جلَّ شأنه ـ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

هذا مشركٌ في الخوف والرَّجاء، وآخر في الجهاد والتَّضحية، وذاك مشركٌ في باب الأسباب، وآخر في باب النَّفعِ والضُّرِّ، وانظروا في السِّحر والشعوذة، والتَّطير والتَّشاؤم، والرُّقى والتَّمائم، والحلف بغير الله، في صور لا تكاد تحصر، ناهيك بدعاء غير الله، والغوث من المقبورين، والغلوِّ في الصَّالحين، والطواف حول الأضرحة، يدعون عندها ثم يدعونها، ويعلِّقون عليها القناديل والسُّرج والسُّتور، ويذبحون عندها ولها، ويتمسَّحون بها، ويتطوَّر الحال حتَّى يتخذوها منسكاً وأعياداً، فلا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وثمة صورةٌ جديدة من صور الخلل في التَّوحيد، باءت بها فئات من المنتسبين إلى الإسلام، تزعم الثَّقافة والاستنارة، لا ترضى بحكم الله ولا تسلِّم له، بل إنَّ في قلوبها لحرجاً، وفي صدورها لغيظاً وضيقاً، إذا أقيم حدٌّ من حدود الله ارتعدت فرائصهم، واشمأزَّت قلوبهم، قاموا وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، ولهم إخوان يمدُّونهم في الغيِّ، يزعمون الحفاظ على حقوق

الإنسان، وما ضاعت حقوق الإنسان وحقوق الأمم إلَّا بهم وبأمثالهم، الإسلام عندهم: ظَلَمَ المرأةَ وهَضَمَ حقوقَهَا، والحدود: قسوة وبشاعة وتخلُّف، وحكم الرِّدة: تهديد لحريَّة الإبداع والفكر، وكلُّ أحكامِ الشَّرعِ: عودة إلى عصور الظَّلام والتَّعصُّب والانغلاق، بل لقد أدخلوها في نفق الإرهاب المقيت، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

الله أكبر! التوحيد صعب على الأذلَّاء، ومن سيم الخسف والذلَّ والتَّبعيَّة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، صعب على من استمرؤوا الفساد، وولغوا في الأوحال، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، إنَّهم لا يعرفون التَّوحيد، ولا يعرفون صفاء الدِّين، مستعبَدون في فكرهم، مشركون في تفكيرهم، وكأنَّهم قالوا للذين كفروا وكرهوا ما نزَّل الله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ﴾ [محمد: ٢٦]، بل لعلَّهم قالوا: سنطيعكم في كلِّ الأمر!

إنَّهم حين لم يعرفوا التَّوحيد ولم يحقِّقوه أصبحوا وكأنَّهم فئة منفصلة عن الأمَّة، فئة منفصلة عن أمَّة الإسلام بفكرها وسمتها ورؤيتها وغايتها، مشدودة من خارجها من الشَّرق والغرب في السِّياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب، وقد تجلَّى ذلك في تجاهلهم بل تمرُّدهم على تاريخ الأمَّة وأصالتها وتراثها.

فإنَّ نعمة التَّوحيد يخرج بها قلب العبد من ظلمات الشِّرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، يخرج من التِّيه والحيرة والضَّلال والشُّرود إلى المعرفة واليقين والطمأنينة والرِّضا والهداية، يخرج من الدَّينونة المذلَّة لأرباب متفرِّقين إلى الدَّينونة الموحِّدة لربِّ الأرباب: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

إنَّ تحقيق التَّوحيد يحتاج إلى يقظة قلبيَّة دائبة دائمة، تنفي عن النَّفس كلَّ خاطرة تقدح في عبوديَّة العبد لربِّه، وتدفع كلَّ خالية شيطانيَّة في كُلِّ حركة أو تصَرُّفٍ ليكون ذلك كلُّهُ خالصاً لله وحده دون مَن سواه.

ومع شديد الأسف فإنَّ قوادح التَّوحيد ونواقضه صارت عند كثير من النَّاس من أخفى المعاصي معنىً، وإن كانت من أجلاها حكماً، فلظهور حكمها ترى المسلمين عامَّتهم يتبرؤون منها، ويغضبون كل الغضب إذا نُسبوا إليها، وهم في هذا الغضب محقُّون، ولكن لخفاء معناها وقع فيها من وقع وهم لا يشعرون.

ولقد قرَّر أهل العلم أنَّ الخوض في قوادح التَّوحيد والحديث عن مظاهر الشِّرك هو طريقة القرآن، وذلك من أجل تحذير المسلمين وليس الحكم عليهم به، فأهل السُّنَّةِ والجماعة لا يُكَفِّرون أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلَّه، ولا زال أهل العلم يتكلَّمون عن أحكام الرِّدَّة وأسبابها، وطرق الزَّيغ والضَّلال، ومسالك الابتداع، والتَّحذير منها، فمن عَلِمَ العقائد الصَّحيحة وعلَّمها ودلَّ عليها، ونبَّه إلى طرق الزَّيغ والكفر والبدع؛ فقد سلك مسلك حقٍّ، ونهج منهج نصحٍ.

وإنَّ ممَّا ينبغي التَّنبيه إليه أنَّ من الخطأ في المنهج، وعدم التوازن في العرض وطرق التَّعليم أنَّ ترى كثيراً من الكتب والمؤلفات تفصِّل في الفروع وأحكام المسائل حتَّى النادر منها وبعيد الوقوع، وهذا شيء في بابه حسن، ولكنَّهم لا يُعْنَون بالأصول ممَّا يحتاجه النَّاس والنَّاشئة، فلا يفصِّلون في التَّوحيد وأنواعه وحقوقه، ولا يبيِّنون ضدَّه من الشِّرك وأنواعه ومظاهره وأسبابه.

وثمَّة خطأٌ منهجيٌّ آخر، وهو أنَّ بعض المتقدِّمين ـ رحمهم الله ـ سلكوا في باب العقائد مسالك كلاميَّة، ومصطلحات منطقيَّة، فخفي على النَّاس كثير من مهمَّات العقائد وأصول الدِّين، ولو سلكوا مسلك القرآن في البيان، لكان المتعلِّمون والنَّاس أحرى بهداية الله وفضله في هذا الباب.

يقول ابن حجر الهيثميُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يتعيَّن على ولاة الأمر منع من يُشْهِر علم الكلام بين العامَّة لقصور أفهامهم، ولأنَّهُ لا يؤمَن عليهم من الزَّيغ والضَّلال، ولا بُدَّ من أخذ الناس بفهم الأدلَّة على ما نطق به القرآن ونبَّه عليه؛ إذ هو بيِّنٌ واضحٌ يُدْرَكُ ببداهة العقل».

كما هو متقرِّر في أصول الشَّريعة ومعالمها أنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء، فعن أبي الدَّرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً؛ سلك الله به طريقاً من طرق الجنَّة، والملائكة تضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنَّ العالم يستغفر له من في السَّماوات، ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه؛ أخذَ بحظٍّ وافرٍ**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**إنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثوا العلم**» هذا من كمال الأنبياء، وعظم نصحهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أنَّ الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدُّنيا وملكها، فحماهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من ذلك أتمَّ الحماية.

ثمَّ لمَّا كان الغالب على النَّاس أنَّ أحدهم يريد الدُّنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده؛ سدَّ هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله، وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيراً من النُّفوس التي تقول: فلعلَّه إن لم يطلب الدُّنيا لنفسه؛ فهو يحصِّلها لولده، فقال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا هو صدقة**»، فلم تورِّث الأنبياء ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثوا العلم.

وأمَّا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، فهو ميراث العلم والنُّبوَّة لا غير، وهذا باتِّفاق أهل العلم من المفسِّرين وغيرهم؛ وهذا لأنَّ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال؛ لم يكن سليمان مختصّاً به.

وأيضاً؛ فإنَّ كلام الله يُصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنَّهُ بمنزلة أن يقال: مات فلان، وورثه ابنه، ومن المعلوم أنَّ كلَّ أحدٍ يرثُهُ ابنُهُ، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضاً؛ فإنَّ ما قبل الآية وما بعدها يبيِّن أنَّ المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنُّبوَّة، لا وراثة المال.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

وإنَّما سيق هذا لبيان فضل سليمان، وما خصَّه الله به من كرامته، وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو: العلم والنُّبوَّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ﴾ [مريم: ٥، ٦] فهذا ميراث العلم والنُّبوَّة والدَّعوة إلى الله، وإلَّا فلا يظنُّ بنبيٍّ كريم أنَّهُ يخاف عصبتَهُ أن يرثوا مالَهُ، فيسأل العظيمَ ولداً يمنعهم ميراثَهُ، ويكون أحقَّ بهِ منهم.

وقد نزَّه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبُعداً لمن حرَّف كتاب الله وردَّ على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزَّهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته».

والعلماء يبلغُون الشَّرفَ والفضيلةَ إذا جمعوا بين القوَّة العلميَّة والعمليَّة، ومجمعُ ذلك: أن يكون العالم عالماً بالله وأمره، قال علي بن خشرم: «سمعت ابن عيينة يقول: قال بعض الفقهاء: كان يقال العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله، وعالمٌ بأمر الله، وعالمٌ بالله وبأمر الله.

أمَّا العالم بأمر الله: فهو الذي يعلم السُّنَّةَ ولا يخاف الله.

وأمَّا العالم بالله: فهو الذي يخافُ الله، ولا يعلم السُّنَّةَ.

وأمَّا العالم بالله وبأمر الله: فهو الذي يعلم السُّنَّةَ، ويخاف الله؛ فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السَّماوات».

فعناية العالم بالله وأمره هو مدار الفضيلة، ومحلُّ الثَّناء في نصوص الوحي، وهذا القدر والمقام الذي جاء في النُّصوص تقابله المسؤوليَّة في البيان والتَّبليغ، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]، فالعالم يتحرَّك بين الغُنم والغُرم؛ حيث عظمت فضيلته واتسعت مسؤوليَّته، فإخلاله بالمسؤوليَّة مُؤذِنٌ بانحلال عقد فضيلتِهِ؛ وما ذاك إلَّا أنَّ العالم يعمر

القلوب ويطبِّب الأرواح بالرِّسالة المحمديَّة أصولاً وفروعاً، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرِّسالة روح العالم ونوره وحياته، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الرُّوح والحياة والنُّور، والدُّنيا مظلمةٌ ملعونةٌ إلَّا ما طلعت عليه شمس الرِّسالة، فكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرِّسالة ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة وهو من الأموات؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرِّسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في النَّاس، وأمَّا الكافر فميت القلب في الظُّلمات، وسمَّى الله تعالى رسالته روحاً، والرُّوح إذا عدمت فقد فقدت الحياة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]».

وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فالأنبياء سعوا إلى بثِّ روح الرِّسالات في أقوامهم، والتي من أصولها: التَّوحيد، ودرج العلماء من بعدهم على هذا؛ فبذلوا جهودهم لتقرير العقيدة وبيانها في النَّاس بالدَّعوة إليها ونشرها بالقول والعمل، بياناً باللِّسان والبنان، فعرضوها بملفوظهم ومكتوبهم، ورقموا مسائل التَّوحيد وأصَّلوها بأدلَّتها، فبيَّنوا بذلك مباني التَّوحيد وأسسه ومكمِّلاته، وحذَّروا من نواقضه والمخلَّات بجنابه.

ومن هؤلاء العلماء: الإمامُ المجدِّد محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب بنِ سليمان آل مشرَّف التَّميميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي سعى في تقرير التَّوحيد علماً وعملاً تجريداً للواقع وتخلية للنُّفوس من درن الشِّرك وذرائعه، وهذا الجهد منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحبَهُ توفيقٌ من الله وتسديدٌ فتقبَّلت العقول والقلوب مضامن دعوته القائمة على الكتابِ والسُّنَّةِ والاعتصام بهما وإعمالهما، مؤيَّدة بقوَّة الحكم والسُّلطان: سلطان الإمام محمَّد بنِ سعودٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من هذا الجهد والشَّواهد عليه: تأليفه لكتاب «التَّوحيد» الذي ابتدأ جمعه وتحرير الدَّلائل لمسائله في البصرة، ثُمَّ لما رجع إلى بلده حرَّر الكتاب وأكمله.

وقد كان لهذا السِّفر منهجه المقصود صياغة وترتيباً وفق ما رآه ﷺ، فتناوله العلماء بالبيان والتَّوضيح من خلال حواشي وشروح من علماء عصره ومن بعدهم، ووضع الله لكثير منها القبول، فكانت مادَّة للدَّرس والتَّعليم في المساجد والمدارس النظاميَّة، وقد اعتنى به أئمَّةُ الدَّعوة وعلماؤها درساً، وتدريساً، وشرحاً، وتعليقاً.

وممَّن عُني بشرحِهِ: سماحة الوالد الشَّيخ عبد الله بن محمَّد ابن حميد ﷺ؛ حيث شرحه لطلَّابه في حلقات الدَّرس، وقد سُجِّلت مادَّته صوتيّاً ولم يطبع، فنهضت همَّة فضيلة الشَّيخ خالد بن ماجد الرُّشيد العمرو ـ وفقه الله ـ إلى ذلك؛ حيث اعتنى بالشَّرح: تدقيقاً، وتحقيقاً، وتخريجاً، وفق مسلك عرضه في مقدِّمته.

وأمَّا ما يتعلَّق بشرح سماحة الوالد الشيخ عبد الله بن محمَّد بن حميد ﷺ فهو شرحٌ عُني فيه سماحته ببيان أبواب الكتاب ومسائله ودلائله، وثمَّة سمات في شرح سماحته لكتاب التَّوحيد، وهي على النَّحو الآتي:

أوَّلاً: أنَّ الشَّرح عبارة عن درسٍ علميٍّ صوتيٍّ شفهيٍّ، قدَّمه سماحته لطلَّابه، وهذا النَّوع من الشُّروح يعتريه من الأمر ما يجعله مختلفاً عن الشَّرح المدوَّن المكتوب وفق مسارات التَّأليف المتَّبعة، التي يُعنى فيها الشَّارح بالتَّحرير اللَّفظي والصِّياغي وفق قواعد التَّأليف القارَّة عند أربابه، ولكن قد سُعي إلى المقاربة بين الصُّورتين في هذا الشَّرح، وخاصَّة أنَّ سماحته له عناية في عرض العلم من حيث ضبط الألفاظ وحسن السَّبك، ولذلك قد يلحظ القارئ الحرص على إبقاء ألفاظ الشيخ بحروفها ما أمكن.

ثانياً: اشتمال الشَّرح على جملة ليست بالقليلة من المسائل الفقهيَّة ذات العلاقة، وقد أطال الشَّارح النَّفس في بعضها، ممَّا جعل بعضها يرقى إلى الخلاف العالي؛ حيث إنَّ الشَّارح ذو كعب طويل في علم الفقه، وهذا جعله يتوسَّع في بعض المسائل في بعض المناسبات، كما أنَّ الشَّارح يعنى بتأصيل طلَّابه وتعليمهم الخلاف الفقهيَّ وخاصَّة أصول المسائل الخلافيَّة؛ ليقرِّر حسن التَّصوُّر والتَّصوير لدى طلَّابه، وتهيئة التكييف والتوصيف في ملكاتهم، وتعزيز الاستدلال للمسائل، وحسن تنزيل الدَّلائل عليها.

ثالثاً: عناية الشَّارح بالتَّنظير العلميِّ من حيث ذكر القواعد والضَّوابط الحاكمة للتعامل مع مسائل العقائد، وهذا يلحظه القارئ في مناقشة الشَّارح لجملة من المسائل العلميَّة التي يخالف فيها أهل السُّنَّةِ والجماعة غيرهم من الفرق، كمسائل الأسماء والصِّفات ومسائل القدر ونحوها.

رابعاً: استيعاب الشَّارح لما يُطرح في عصره من المسائل والأفكار ذات العلاقة بمسائل الكتاب، ومناقشتها وفق مسلك يُظهِر به مواطن الإشكال وعرض الجواب.

خامساً: اتسم هذا الشَّرح بكثرة النُّصوص الشَّرعيَّة والشِّعريَّة، وهذا من دلائل تيسير الله للشَّارح الحفظَ والضَّبطَ وسعةَ الاطلاع.

سادساً: المزاوجة بين المسائل والأحداث التاريخيَّة، حيث اعتنى الشَّارح بالأحداث التاريخيَّة بفصولها وشخوصها، ويوردها في موضعها ممَّا أفاض على الشَّرح المتعة في القراءة لما يظهر من التَّناسب بين المسألة والواقعة التاريخيَّة ذات العلاقة.

سابعاً: احتواء الشَّرح على اللَّطائف اللغويَّة والنَّحويَّة، فالشَّارح له عنايةٌ بعلم اللُّغة والنَّحو، ممَّا جعله يعرب بعض النصوص ويجلي ذلك لما له من أثر في فهم النَّصِّ واستيعابه، وهذا مزجٌ بين اللُّغة والنَّحو بالشُّروح العلميَّة في العقيدة والفقه، وخاصَّة أنَّ الخلاف في بعض مسائل اللُّغة والنَّحو هي سبب من أسباب الخلاف في فهم بعض النُّصوص أو توجيه بعض الأحكام الشَّرعيَّة.

وفي الختام فهذا شرح الشَّيخ لهذا الكتاب الجليل، رحم الله المصنِّف والشَّارح، وأجزل لهما المثوبة، وحفظ على هذه الأمَّة والبلاد عقيدتها، وقيادتها، وإيمانها؛ إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

د. صالح بن عبد الله بن محمد بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام
عضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للورى، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومن لشرعه المطهَّر اقتفى، وإلى دينِهِ الحنيفيِّ انتمى.

أمَّا بعدُ: فأعظمُ الفرائضِ: توحيدُ اللهِ، وأعظمُ الذُّنوبِ: الشِّركُ بهِ ـ سبحانه ـ، ولإقامة التَّوحيدِ وحربِ الشِّركِ أرسلَ اللهُ المرسلينَ مُبشِّرينَ ومُنذرينَ، وقامَ سوقُ الجنَّةِ والنَّارِ.

وقد جعلَ اللهُ في كلِّ زمانِ فترةٍ مِنَ الرُّسُلِ بقايا من أهلِ العلمِ، يدعونَ من ضلَّ إلى الهدى، ويُبصِّرُونَهُم الأذى، يحيون بكتابِ الله الموتى، فكلَّما قويت ظُلَمُ الجهالةِ، وخاضَ النَّاسُ لُجَجَ الباطلِ، وخيَّمَت سُحُبُ البِدَعِ؛ قيَّضَ اللهُ رجالاً يدعونَ إلى اللهِ على بصيرةٍ، يُقيمونَ التَّوحيدَ، ويُنيرونَ الطَّريقَ، ويُحيونَ السُّنَنَ، فتَصلُح على أيديهم ـ بإذن الله ـ القلوبُ والدِّيارُ.

وقبلَ ثلاثةِ قرون غَشيت الدِّينَ غاشيةٌ سوداءُ، فإذا التَّوحيدُ الذي جاء به محمَّد ﷺ قد تلبَّسته ـ في بعض البلادِ ـ أنسجةُ الخرافَةِ، وقشورُ التَّصوُّفِ، وكَثُرَ دعاةُ الباطلِ، وتلبَّدت عقولُ فئام من المسلمينَ بالذِّلَّةِ للمخلوق؛ فأحاطت بأعناقِهُم التَّمائمُ، وقيَّدت سواعِدَهُم الخيوطُ، واستولَتْ على قلوبِهِم الأوهامُ، وتعلَّقَ قومٌ بالقبورِ، وفشا التَّنجيمُ والسِّحرُ والتَّطيُّرُ والكِهانَةُ، وغابَت شمسُ الحقِّ عن كثيرٍ من النُّفوسِ حتَّى هبطوا مهبطاً بعيدَ القرارِ.

في هذه الأحوالِ المظلمَةِ قامَ بدعوةِ الحقِّ: الإمامُ الصَّالحُ المصلحُ شيخُ الإسلامِ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ ـ أجزلَ اللهُ لَهُ الأجرَ والثَّوابَ ـ؛ فدعا إلى قطعِ العلائقِ عن جميعِ الخلائقِ، والاتِّصالِ بالخالقِ، وتمسَّكَ بالدَّليلِ وبتحكيمِ شرعِ اللهِ، فحُورِبَ وكُذِبَ عليهِ، وطُرِدَ وقُوتِلَ، ولا يزالُ أهلُ البدعِ

والهوى يفترونَ على هذه الدَّعوةِ المباركَةِ إلى يومنا هذا، ولكلٍّ قومٍ وارثٌ!

ولم يكن ليحصل الظَّفر لهذه الدَّعوة إلَّا بتوفيقِ اللهِ، ثُمَّ مؤازرةِ الإمامِ الصَّالحِ محمَّدِ بنِ سعودٍ رَحِمَهُ اللهُ، فتعاهدَ المحمَّدانِ، وعضدَ القرآنَ السِّنانُ، واجتمع السَّيف والبيان على نُصرَةِ الإسلامِ.

ولقد شاء الله تعالى أن يُريَ عبديهِ ثمارَ غرسِهِمَا، ونتاجَ عملِهِمَا؛ فكان توحيدُ الدِّينِ، وتوحيدُ البلادِ، وبسطُ الأمنِ، ونشرُ العلمِ، واتِّساعُ الرِّزقِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

وإنَّ من أجلِّ ما ورَّثَهُ الإمامُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ: «كتابَ التَّوحيدِ الذي هو حقُّ اللهِ على العبيدِ»؛ فهو مُصَنَّفٌ عظيمُ النَّفعِ، حسنُ الوضعِ.

وهذا شرحُهُ لشيخِ شيوخِنَا، العلَّامةِ الفهَّامةِ، شيخِ الحنابلةِ، وحافظِ المذهبِ، أبي محمَّد، عبدِ الله بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ العزيز بنِ عبدِ الرَّحمٰن ابنِ حُمَيدٍ ـ طيَّبَ اللهُ ثراهُ، وجعلَ الفردوسَ مأواهُ ـ.

نشأ يتيماً فبزَّ أقرانَهُ، شُهِرَ برجاحَةِ عقلِهِ، وبُعْدِ نظرِهِ، حتَّى قال الملكُ المؤسِّسُ رَحِمَهُ اللهُ: «لو صَلُحَ أحدٌ للعلمِ والإمارةِ جميعاً لكانَ الشَّيخ عبد الله ابن حميدٍ».

آثارُ السَّكينةِ عليهِ باديةٌ، وسيما الصَّالحينَ على وجهِهِ مناديةٌ، فيه أناةٌ وحلمٌ، مع قوَّةٍ وحزمٍ، وذكاءٍ وزكاءٍ، وفطنةٍ وحسنِ إيرادٍ، وقوَّةِ حُجَّةٍ، فبحرُ علمِهِ زاخرٌ، وسحابُ فهمِهِ ماطرٌ.

لَهُ تحقيقٌ متينٌ في مضايقِ الأفهامِ، ومزالِّ الأقدامِ، مع إحاطةٍ بالأدلَّةِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، إذا سُئِلَ فكأنَّما نُشِرَت الكتبُ بين عينيهِ!

«هذه المسألَةُ فيها روايتان عن الإمام أحمد، اختارَ أبو بكر عبد العزيز غلام الخلَّال كذا. .

قرَّر هذا ابن تيميَّة في آخر المنهاج. .

هذه المسألة تكلَّم عليها النَّوويُّ في شرح حديث كذا. .

قد أشار إلى هذا ابنُ القيِّم في أوَّل (الهدي)..
أحسنُ من تكلَّم على هذه الآية الألوسي في تفسيره..
ذُكِرَ عن الخليفة المنصور أنَّه..
هذه أفتى فيها ابنُ معمَّر..
في هذا قصَّة لابن حزم..
سئل الشيخ عبد الله أبا بطين عن هذا فأجاب بقوله: ..».

مع استحضارٍ تامٍّ لمواقعِ الإجماعِ، ومواردِ النِّزاعِ، أمَّا مذهبُ السَّادةِ الحنابلةِ فهو ابنُ بجدتهِ، وكنت قد سألتُ شيخنا ابن عقيلٍ ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة الأحد ٢٠ ذو القعدة ١٤٣٠هـ عن «منتهى الإرادات» هل يحفظه؟

فقال: «لا نعرف أحداً يحفظُهُ، إلَّا أن يكونَ الشَّيخ عبد الله بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلا نعرفُ مثلَهُ في فقه المذهبِ».

وقال العلَّامةُ ابنُ سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الشَّيخَ محمَّدَ بنَ إبراهيم، والشَّيخَ عبدَ العزيز بنَ باز، والشَّيخَ عبدَ الله بنَ حميد، والشَّيخَ عبدَ الله القرعاوي لا يُوجدُ لهم مثيلٌ في تصدِّيهم لنفع النَّاسِ، ودعوتِهم وإرشادِهم»[1].

وفي رسالة من الشَّيخ ابن سعدي لتلميذه ابن عقيل ـ رحمهما الله ـ بتاريخ: ٥ شعبان ١٣٦٧هـ ما نصُّه: «الشَّيخُ عبد الله بن حميد يوم تأخَّر استرابوا أهل بريدة، وكتبوا للملك يطلبون منه ويترجَّون أنَّهم ما يبون إلَّا هو؛ لأنَّه نافعٌ للقضاءِ والتَّعليمِ، ونسمعُ أنَّ الملكَ مُطمِّن خواطرَهُم، أنَّهُ يبي يردُّهُ عليهم»[2].

وللشَّارح يدٌ طولى في البلاغة والأدب، يأتي في كلامه بعذبِ الألفاظِ، وبديعِ المعاني، ولَهُ معرفةٌ بالفلكِ ومنازلِ القمرِ والأبراجِ، مع اطِّلاعٍ على أحوال الخلق، ودعواتِ المستشرقين، وحملات اليهود والنَّصارى على المسلمين.

وبالجملة: فقد كانَ من حملَةِ الحُجَّةِ، ومن سالكي المحَجَّةِ، طنَّتْ

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل سيرته ومراسلاته (١/ ٢٠٤).
(٢) الأجوبة النَّافعة (ص٢١١).

بذكرِهِ الأمصارُ، وضنَّتْ بمثلِهِ الأعصارُ[١].

ومن فضل الله عليَّ ـ وهو ذو الفضلِ العظيمِ ـ أن أوكل إليَّ معالي شيخنا الكبير المفضال الفقيه د. صالح بن عبد الله ابن حميد ـ حفظه الله ورعاه، وبارك في جهده ومسعاه ـ تحقيقَ هذا الشَّرحِ، فشرفتُ بذلكَ، واجتهدتُ فيهِ، ومن المتقرِّرِ: أنَّ نتاجَ اللِّسانِ ابنُ لحظتِهِ، وأنَّ تحويلَ المسموعِ إلى مقروءٍ يقتضي تقديماً وتأخيراً، وحذفاً للمكرَّرِ وتحريراً، فكان المنشود إخراج المادَّة العلميَّة كما هي دون الأسئلة والمناقشات، ولمعالي الشَّيخ صالح تنبيهاتٌ لطيفةٌ، ونكتٌ شريفةٌ أثبتُّها في الحاشيةِ مذيَّلة بالإشارة إلى أنَّها منهُ ـ متَّع الله به ـ، ولم أقف على شرح بعض الأدلَّة في بعض الأبواب ـ ويأتي بيانها ـ، ولا على شرح باب: (النَّهي عن سبِّ الرِّيح) كاملاً، فتفضَّل معالي الشَّيخ صالح ـ أحسنَ اللهُ إليهِ ـ بشرحِ البابِ شرحاً دلَّ على طول باعه وسعة اطلاعه، وأمَّا الأدلَّةُ التي لم يُوقَف على شرحها فشرحُ نظائرِها يُغني عن شرحها ـ إن شاء الله ـ.

وإنِّي أقول: قد حوى هذا الشَّرح في تضاعيفه من الفرائد شيئاً كثيراً، أكثر من أن تعدَّ، وأعظم من أن تحدَّ، فهو شرحٌ عظيم الفوائد جليل العوائد، ولا غرو؛ فإنَّ الشَّارح بحرُ العلمِ الزَّاخرِ، وبدرُ المجدِ الزَّاهرِ، الصَّادقُ عليه المثلُ السَّائرُ: (كم تركَ الأوَّلُ للآخرِ؟!).

وهنا أرفعُ القلمَ، وأختمُ بسؤال الله ﷻ أن يجمعنا بالماتن والشَّارح في جنتِهِ، ودارِ كرامتِهِ، وأن يبارك في ذريَّتهما، وأن يجزي الشَّيخ صالحاً خيراً كثيراً، وأن يصلح أحوالنا وأحوالَ المسلمين، وأن يحسن العاقبة لعباده المستضعفين، وأن يهدينا سواء السَّبيل.

وكتبه
خالد بن ماجد بن عبد الرحمن الرُّشيد العمرو
حامداً مصلِّياً مسلِّماً
عشيَّة الجمعة منتصف رمضان ١٤٣٥هـ

---

(١) ينظر في ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: علماء نجد للبسَّام (٤/ ٤٣١)، (الشَّيخ عبد الله بن حميد كما عرفته) لشيخنا محمَّد العبودي، (تاج القضاة) للدكتور سليمان العثيم.



الإسناد إلى المتن

وقعت للعبد الفقير إلى الله رواية هذا السِّفر الجليل: «كتاب التوحيد» عن جماعة من شيوخ العلم وحملة الرِّواية، فمن ذلك:

ما أخبرنا به شيخُنا المعمَّر المسند محمَّد بن عبد الرَّحمٰن بن إسحاق، قال: أخبرنا سعد بن حمد بن عتيق، عن أبيه، عن عبد الرَّحمٰن بن حسنٍ، عن جدِّه الشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب سماعاً إلى (باب ما جاء في بيان بعض أنواع السِّحر)، وإجازة بباقيه.

وأنبأنا شيخنا الفقيه المسند عبد الله ابن عقيل، أنبأنا الشَّيخُ عبدُ الحقِّ الهاشميُّ، عن أحمد بن عبد الله البغداديِّ، عن عبد الرَّحمٰن بن حسنٍ به.

وأخبرنا عالياً درجة الشيخ محمَّد بن عبد الرحمٰن بن إسحاق، قال: أخبرنا حمد ابن فارس، قال: أخبرنا عبد الرَّحمٰن بن حسن به.

بيانٌ بالمواضع التي لم يوقف على شرحها

١ ـ الآيةُ الثَّانيةُ من البابِ الأوَّلِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢ ـ الآيةُ الرَّابعةُ من البابِ الأوَّلِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

٣ ـ أثرُ ابنِ مسعودٍ وحديثُ معاذٍ رضي الله عنهما في البابِ الأوَّلِ.

٤ ـ الآيةُ الأولى من البابِ الثَّاني: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٥ ـ حديثُ عبادةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه في الباب الثَّاني.

٦ ـ حديثُ عتبان رضي الله عنه في البابِ الثَّاني.

٧ ـ حديثُ ثابتِ بنِ الضحَّاك رضي الله عنه في باب: (لا يُذبَحُ للهِ بمكانٍ يُذبَحُ فيهِ لغيرِ اللهِ).

٨ ـ الآيةُ الثَّانيةُ من بابِ (الشَّفاعة): ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

٩ ـ حديثُ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما في باب: (ما جاء أنَّ الغلوَّ في قبور الصَّالحين...).

١٠ ـ الآيةُ الأولى في بابِ: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

١١ ـ حديثُ أنسٍ رضي الله عنه في باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

١٢ ـ بابُ (النَّهي عن سبِّ الرِّيح).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبِهِ وسلَّمَ

كتابُ التَّوحيدِ

وقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذَّاريات: ٥٦].

وقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية [النَّحل: ٣٦].

وقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣].

وقولِهِ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقولِهِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «مَنْ أرادَ أن ينظرَ إلى وصيَّة محمَّدٍ ﷺ التي عليها خاتمهُ فليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ـ إلى قولِهِ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ رديف النبيِّ ﷺ على حمارٍ فقالَ لي: «**يا معاذ أتدري ما حَقُّ الله على العباد، وما حقُّ العباد على الله؟**».

فقلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلم.

قال: «**حقُّ الله على العباد أن يعبدوهُ ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العبادِ على الله أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئاً**».

فقلتُ: يا رسول الله أفلا أُبشِّرُ النَّاسَ؟

قال: «**لا تُبشرهُم فيتَّكِلُوا**». أخرجاهُ في الصَّحيحين.





كتابُ التَّوحيدِ

هذا الكتاب يُذكَرُ فيه: التَّوحيد، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له.

ويُذكَرُ فيه: الشِّرك الأكبر المنافي للتَّوحيد.

ويُذكَرُ فيه: الشِّرك الأصغر المنافي لكمال التَّوحيد.

ويُذكَرُ فيه: الذرائع والوسائل المقربة إلى الشِّرك أو الموصلة إليه.

ويُذكَرُ فيه: البدع القادحة في التَّوحيد.

ويُذكَرُ فيه: المعاصي المنقِّصة لثواب التَّوحيد، هذا موضوع الكتاب.



۞ وقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

اللَّام في الآية الصَّحيح أنَّها لام التعليل وليست لام العاقبة، لا يلزم أن تحصل العبادة من جميع الناس، بل ذكر الربُّ الأوَّلَ ـ وهو خَلْقهم ـ لا ليفعل بهم كُلَّهم الثَّاني ـ وهو: العبادة ـ بل ليفعلوا هم الثَّاني؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فهل كُلُّ رسول يطاع بكُلِّ حال؟

منهم من يطاع ومنهم من يُعصى، فاللَّام هنا لم تكن للعاقبة؛ لأنَّنا لو جعلناها للعاقبة لكانت العبادة واقعة من الخلق بكُلِّ حال، وهذا غلطٌ، وإنَّما هي للتعليل.

وأمَّا تعريف العبادة فقد قال ابن تيميَّة: «العبادة طاعة الله بامتثال أوامرِهِ بمقتضى ما جاء على ألسنة رُسُلِهِ»(١).

وقال: «العبادةُ: اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ من الأقوالِ والأفعالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ»(٢).

والحنابلة يقولون ـ كما في الرَّوض(٣) ـ: «العبادة: ما أُمر به شرعاً، من غير اطِّراد عرفيٍّ، ولا اقتضاءٍ عقليٍّ».

وقبل بيان معنى تعريف الفقهاء للعبادة نقول: البدع والأشياء التي شاعت في وقتنا هذا يرى من يفعلها أنَّها سُنَّةٌ، كالاحتفال بالمولد، يخاصمك شخص فيقول: «المولد عبارة عن إظهار الشُّكر بوجود خاتم النَّبيين وإمام المرسلين، ودلالة وعلامة على محبَّته، نقيم الاحتفال لمحبته، ونحن لانقصد إلا الخير!».

ويقول(٤): «ننطق باللِّسان، نريد أنَّ أفعالنا تنطبق مع أقوالنا ونياتنا».

فماذا نقول؟

نقول: لو كان خيراً لسبقونا إليه.

---

(١) جامع الرسائل (٢/ ١١٠).
(٢) العبودية (ص٤٤).
(٣) الرَّوض بحاشية ابن قاسم (١/ ٤٢).
(٤) من يتلفَّظ بالنيَّة.

فيقولون ورد حديث: «**ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ**»[(١)].

ننظر في هذا الحديث، فنقول: هذا ليس حديثاً، هذا موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يقول المخالف: بما أنَّهُ موقوفٌ على عبد الله بن مسعود، فحسبك به فهو من أفاضل الصَّحابة، ولم يفعله الصَّحابة، لكن هذا من باب الاستحسان! ونحن لا حلَّلنا حراماً ولاحرَّمنا حلالاً! إنَّما هو تعظيم محمَّد ﷺ!

نقول: لو سلَّمنا جدلاً فمعنى: «ما رآه المسلمون» ـ يعني: مجموع المسلمين المجتهدين منهم ـ فيؤخذ بقول المجتهدين في هذه المسألة، ومع ذلك فلا يقرُّهم أكثر المسلمين، أكثر علماء الإسلام الذين لا يُقرُّون الخرافات لا يرون هذا، كما أنَّ الرسول ﷺ أخبر أن أُمَّتَهُ لا تجتمع على ضلالة وهؤلاء منفردون بهذا، هذا على تقديرِ صحَّتِهِ وإلَّا فالحديثُ موضوعٌ[(٢)]، أثبتوا أنَّ كلَّ المسلمين رأوه؛ لأنَّ لفظه يقتضي العموم، ونحن من المسلمين ولا نراه، وخلقٌ كثيرٌ من المسلمين لا يرونه، إذا اجتمع المسلمون كُلُّهم وأطبقوا عليه نأخذ به، هذا على تقديرِ صحَّة الحديث.

ثانياً: نقول: هذا بدعة؛ لأنَّ العبادة هي: (ما أُمر به شرعاً من غير اطِّراد عرفيٍّ)، فالعرف ليس له دخلٌ في هذا كأن تقول: عمل المسلمين منذ أزمان طويلة، وهذا جرى عليه المسلمون، وهذا عمل الناس، هذا لا دخل له في العبادة.

(**أو اقتضاءٍ عقليٍّ**): تقول: العقل يؤيِّد هذا؛ تعظيماً للرسول ﷺ، وتنويهاً بشرفه، وتنبيهاً على فضله.

نقول: العقل ليس له دخل في هذا، وعُرْفُ الناس وكونه موجوداً في كثير

---

(١) أخرجه الطيالسي (١/ ٩٩) (٢٤٣)، والإمام أحمد (٦/ ٨٤) (٣٦٠٠) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

(٢) أي: «**ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ**» بإسناده المرفوع؛، فإنَّ في طريقه سليمان بن عمرو النَّخعي وهو كذَّابٌ، قد رواه مرفوعاً من طريق سليمان الخطيب في تاريخه (٥/ ٢٧٠) وهو من مسند أنس رضي الله عنه.

ينظر في ترجمة سليمان: الكامل (٤/ ٢١٩)، ميزان الاعتدال (٢/ ٢١٦).

من الأمصار ليس له دخل ـ أيضاً ـ، إنَّما العبادة ما أَمر اللهُ به من طاعته على ألسنة رسله، فأعطونا على ألسنة الرُّسل أنَّهم أمروا بالاحتفال بالمولد!، ومثله الأعياد المحدثة ـ أيضاً ـ كعيد جلوس الملك على العرش الفلاني، وعيد الوطن، وعيد كذا، يقيمون الاحتفال بالأعياد، والتنويه بالصُحُف والإذاعات، كُلُّ هذا من أبطل الباطل، ليس عند المسلمين أعياد غير عيد الفطر وعيد الأضحى، ليس عندنا أعياد غير هذا، وكُلُّ هذا من مشابهة أهل الكتاب.

كذلك التلفُّظ بالنيَّة وإن ذهب إليه متأخرو الحنابلة والشَّافعية وبعض الحنفيَّة، ويقولون: لأنَّ النيَّة شرط لصحَّة الصَّلاة، وينبغي أنَّ اللِّسان ينطق بها؛ ليكون النطقُ مواطئاً للقلب، فالنيَّة في القلب وأكدَّها اللِّسان، فقولي: «نويت كذا»، ما جئتُ بشيءٍ جديدٍ، فأنا أعبِّر عمَّا في قلبي فقط، وأنتم تقولون: إن الصَّلاة لا تصحُّ إلَّا بالنيَّة لحديث: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**»[1]، فأنا أنطقُ بلساني معبراً عمَّا في قلبي مؤكِّداً لتلك النيَّة أني أريدُ الصَّلاة خلف هذا الإمام صلاة العشاء أربع ركعات أداءً، لذلك قالوا: إنَّها تستحب.

فبماذا نردُّ عليهم من تعريف الفقهاء الذي سبق ذكره في قولهم: «ما أُمر به شرعاً من غير اطِّراد عرفيٍّ ولا اقتضاء عقليٍّ»؟

نقول: عقلك ليس ميزاناً، فليس له دخل في العبادة، ولهذا قال ابن تيميَّة في مسألة التلفُّظ بالنيَّة: «والله لو بقي أحدهم عمر نوح يفتِّش هل تكلَّم الرسول ﷺ بقول: (نويت) أو أحد من الصَّحابة فلن يجد، لا في حديثٍ صحيحٍ ولا حسنٍ ولا ضعيفٍ ولا موضوعٍ»[2].

وقال: وعمومُ القرآن يردُّهُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦] يقول: نويت كذا! كأنَّ الله لم يطَّلع عليه! والمقصودُ من هذا كُلِّهِ بيانُ تعريف العبادة.

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٢١٤)، مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٤٦)، إصلاح المساجد للقاسمي (ص٧٣).

۞ وقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣].

أي: وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، والإحسان بالوالدين هو برُّهما وطاعتهما وتنفيذ أوامرهما وعدم الغلظة عليهما والرِّفق بهما، هذا هو الإحسان، لا سيَّما عند الكبر: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] قال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تنفض بيديك في وجههما».

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أي: ليِّناً طيِّباً سهلاً.

ثُمَّ تذكَّر حالتهما معك حينما كنت صغيراً وقد ربياك وعطفا عليك، فاعطف عليهما حال الكبر.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] كانت العرب تقتل البنات خشية العار وخشية الفقر، ورُبَّما قتلوا الذكور خشية الفقر، وذلك أنَّ الإنسان إذا كثر عياله وأولاده احتاج إلى أن يطعمهم ويقوم بشؤونهم، فيخاف من الفقر فيقضي عليهم، فالله ﷻ نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ﴾ خشية الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] فما خلق الله مخلوقاً إلَّا وقد تكفَّل برزقه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]، وكما قال ابن زُريق في قصيدته المعروفة لمَّا ذهب للأندلس يبتغي الغنى ولكن مات هناك، لم يحصل على شيء، سأل عنه أمير المؤمنين قال: أين المشرقيُّ؟

فطلبوه، فإذا هو ميِّتٌ، والقصيدة مكتوبة عند رأسِهِ، وكان قد جاء يطلب من السُّلطان بعض المساعدة ولكن لم يعطه شيئاً، فلمَّا قرأ السُّلطان القصيدة قال: «لو كان حيّاً لشاطرته ملكي»، يقول في أوَّلها:

لا تعذليه فإنَّ العذل يولعُهُ ... قد قلتِ قولاً ولكن ليس يسمعُهُ

وفيها يقول:

واللَّه قسَّم بين الخلقِ رزقَهُمُ   لم يخلقِ اللَّهُ مخلوقاً يضيِّعُهُ(١)

فالله ـ سبحانه وبحمده ـ لم يخلق مخلوقاً يضيِّعُهُ أبداً، بل تكفَّل بأرزاق العباد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] لكن هل يدخل في هذا استعمال حبوب منع الحمل ويسمَّى قتلاً للأولاد؟ فلولا المنعُ لحملت المرأة وجاءت بأولاد.

قد يقول قائل: استعمالها ليس لأجل الإملاق ولكن لأمر آخر، لا يريد كثرة العيال.

نقول: هذه المسألة تكلَّم عليها شيخ الإسلام ابن تيميَّة، ولا تدخل في معنى الآية؛ لأنَّ الولد لم يوجد فهو لايزال معدوماً؛ ولهذا قال ابن تيميَّة وغيره: يجوز للمرأة أن تستعمل الدَّواء الذي يمنعُ المنيَّ من النفاذ في مجاري الرَّحم بشرط ألَّا يضرَّ(٢)، فإذا استعملتْهُ لأجل منع الحمل وهو لا يضرُّها فلا مانع حينئذٍ.

هذا رأي شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وكذلك الأصحاب قرَّروا جواز هذا بشرط ألَّا يضرَّ بها، فإن أضرَّ بها ذلك فلا يجوز.

---

(١) مصارع العشَّاق (١/٢٣)، طبقات الشَّافعيَّة (١/٣٠٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/٢٩٧)، وفيه: أنَّ الأحوطَ تركُهُ.

۞ قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: مَنْ أرادَ أن ينظرَ إلى وصيَّة محمَّدٍ ﷺ التي عليها خاتمهُ فليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ـ إلى قولِهِ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣][(١)].

جاء أنَّ النبي ﷺ لما مَرِضَ واجتمع عنده الصحابة، قال: «**ائتوني ببطاقة أعهد لكم فيها عهداً**»، فكثرت الأصوات عند الرَّسول ﷺ، فبعضهم يقول: ائتوه ببطاقة يعهد لنا فيها وصيَّة.

والبعض منهم يقول: لا تُشغلوا رسول الله ﷺ فقد أشغله المرض، فتوفي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وهو لم يكتب لهم، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنَّ الرزية كُلَّ الرزيَّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتب الوصيَّة»[(٢)].

قال الحبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **(من أراد أن ينظر إلى وصيَّة محمَّد ﷺ التي عليها خاتمه)** لم تُغيَّر ولم تُبدَّل **(فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾)**، وذلك لعلم ابن مسعود أنَّ الرَّسول ﷺ لو وصَّى لم يوص إلَّا بما ما وصَّى به الله ﷻ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) رواهُ الترمذيُّ (٣٠٧٠)، وابنُ أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٤١٤) (٥٨٠٥) من طريق محمَّد بن فضيل، عن داود الأودي، عن الشَّعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، به.
قال الترمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ غريبٌ».
وداود هذا إن كان ابن عبد الله فهو ثقة، وإن كان ابن يزيد فلا يحتجُّ به، وكلاهما يروي عن الشَّعبي ويروي عنهما محمَّد بن فضيل، لكن جاء تمييزه بابن يزيد عند الطبراني في الأوسط (١١٨٦) إلَّا أن الإسناد إلى داود فيه لينٌ، فإنَّ فيه خالد بن يوسف السمتي، وهو ضعيفُ الحديثِ، ينظر: الجرح والتعديل (٣/ ٤٢٧)، لسان الميزان (٣/ ٣٥٠).
(٢) رواهُ البخاريُّ (١١٤)، ومسلمٌ (١٦٣٧).

تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣].

﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة في سياق النَّهي فتعمُّ القليلَ والكثيرَ.

والشِّرك قسمان: أصغر وأكبر، وضابطُ (الشِّرك الأصغر) هو: ما ورد في النُّصوص تسميته شركاً ولم يصِل إلى حَدِّ الشِّرك الأكبر، وذلك مثل يسير الرِّياء، ومثل قول: ما شاء الله وشئت، ومثل الحلف بغير الله، ما لم يقع في قلب الحالف تعظيم المحلوف كتعظيم الله فيصل إلى حَدِّ الشِّرك الأكبر ـ حينئذ ـ.

وضابط (الشِّرك الأكبر): تسويةُ غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.



بابُ
فضلِ التَّوحيدِ وما يكفِّرُ من الذنوبِ

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من شهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» أخرجاهُ.

ولهما في حديثِ عتبانَ رضي الله عنه: «**فإنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إلٰه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قالَ: «**قال موسى: يا رب، علِّمني شيئاً أذكركَ وأدعوك به.**

قال: يا موسى: قل «لا إلٰه إلَّا الله».

قال: يا رب كُلُّ عبادك يقولون هذا.

قال: يا موسى، لو أنَّ السماوات السَّبع وعامرُهُنَّ غيري، والأرضين السَّبع في كِفَّة، و«لا إلٰه إلَّا الله» في كِفَّةٍ، مالَتْ بهنَّ «لا إلٰه إلَّا الله»» رواهُ ابنُ حِبَّانَ، والحاكمُ وصحَّحَهُ.

وللترمذيِّ وحسَّنَهُ عن أنسٍ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **«قالَ الله تعالى: يا ابنَ آدمَ؛ لو أتيتني بقُرابِ الأرضِ خطايا، ثُمَّ لقيتني لا تشركُ بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة»**.





بابُ
فضلِ التَّوحيدِ وما يكفِّرُ من الذنوبِ

۞ وقولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

وعن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«من شهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»** أخرجاهُ(١).

ولهما في حديثِ عتبانَ رضي الله عنه: **«فإنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»**(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قالَ: **«قال موسى: يا رب، علِّمني شيئاً أذكركَ وأدعوك به.**

قال: يا موسى: قل «لا إله إلَّا الله».

قال: يا رب كُلُّ عبادك يقولون هذا.

قال: يا موسى، لو أنَّ السماوات السَّبع وعامرُهُنَّ غيري، والأرضين السَّبع في كِفَّة، و«لا إله إلَّا الله» في كِفَّةٍ، مالَتْ بهنَّ «لا إله إلَّا الله»» رواهُ ابنُ حِبَّانَ، والحاكمُ وصحَّحَهُ(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٣٥)، وصحيح مسلم (٢٨).

(٢) صحيح البخاري (٤٢٥)، صحيح مسلم (٣٣).

(٣) أخرجَهُ النسائيُّ في الكبرى (١٠٦٠٢)، وابن حبَّان (٦٢١٨)، والحاكم (٢/ ٥٣٤) (١٩٥٧)، من طريق درَّاج أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، به مرفوعاً.
درَّاج في حديثه مناكير لا سيَّما في روايته عن أبي الهيثم، وقد نصَّ على تضعيف هذه =

هي كلمة التَّوحيد، من أجلها خُلقت الخليقة، ومن أجلها أُنزلت الكتب، وأُرسلت الرُّسل، وجُرِّدت لأجلها سيوف الجهاد، ومن أجلها حَقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، ومن أجلها قام سوق الجنَّة والنَّار، ومن أجلها نُصبت الموازين.

هي دعوة الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم، وموسى عليه السلام خفي عليه عظم هذه الكلمة! ولهذا قال: **(كُلُّ عبادك يقولون هذا)** كأنَّهُ قال: «يا رب، أردتُ شيئاً تخصُّني به من بين العباد»، فهو يريد أن يختصَّ بدعاء دون غيره من بقية العباد، وذلك لأنَّهُ كليمُ الله، ولأنَّهُ من أولي العزم من الرُّسل، فلمَّاخفي عليه فضل **(لا إله إلَّا الله)** نبَّهَهُ الربُّ ـ سبحانه ـ بقوله: **(يا موسى لو أنَّ السَّماوات السَّبع وعامرُهنَّ غيري)**؛ يعني: ساكنها غيري **(والأرضين السَّبع في كفَّة، ولا إله إلَّا الله في كفَّة، مالت بهنَّ لا إله إلَّا الله)**، بيَّن الله له عظم هذه الكلمة، وأنَّ السَّماوات بما فيها من الأفلاك والسُّكَّان، وأنَّ الأرضين بما فيها من السُّكَّان والجبال والبحار لو جعلت في ميزان وهذه الكلمة في كفَّة أخرى لرجحت هذه الكلمة بجميع هذه المخلوقات، فهذا يدلُّ على فضل هذه الكلمة العظيمة.

وفي هذا فوائد:

الأولى: أنَّ هذه الكلمة خفي فضلُها وعظمُ شأنها حتَّى على أفاضل الأنبياء كموسى عليه السلام حتَّى نبَّهه الله عليها.

الثَّانية: فيه دليل على أنَّ هذه الكلمة هي من أفضل الدُّعاء وأعظمه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«أفضل ما قلتُ أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلَّا الله»**[1].

= السِّلسلة المصرية الإمام أحمد كما في «الكامل» لابن عدي (٤/ ١٠)، وأبو داود كما في «سؤالات الآجري» (٢/ ١٦٥)، ورواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٤٢) (٣٠٠٧٦) بإسناد جيِّد عن كعب الأحبار موقوفاً عليه.

(١) رواه الإمام أحمد (٦٩٦١)، والترمذيُّ (٣٥٨٥) من طريق حمَّاد بن أبي حميد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّهِ به مرفوعاً.
وقد أعلَّهُ الترمذيُّ بقوله: «هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه، وحمَّاد ليس هو بالقوي عند أهل الحديث».
ورواه الإمام مالك (٢٤٦)، ومن طريقه عبد الرزَّاق (٨١٢٥)، والبيهقيُّ (٥/ ١٩٠) =

قولك: (لا إلٰه)؛ يعني: لا معبود في الأرض ولا في السَّماء بحقٍّ (إلَّا الله)، فأيُّ معبود عُبد من دون الله من قبرٍ أو نبيٍّ أو ملكٍ فعبادتُهُ باطلةٌ، وصرفها له هو محضُ الشِّرك؛ لأنَّ هذا من خصائص الله، والعبادة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله، لا لملَكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ.

وفي قوله ﷺ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيُّون من قبلي: لا إلٰه إلَّا الله**»: الرَّدُّ على الصوفية القائلين إنَّ ذكر الخاصَّة هو (الله، الله) وذكر خاصة الخاصَّة هو: (هو، هو) فكُلُّ هذا من البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، كيف يقال هذا مع قول النبيِّ ﷺ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيُّون من قبلي: لا إلٰه إلَّا الله**»؟!

وفيه أنَّ مجرَّد النُّطق بها لا ينفع ولا يؤثِّر إذا تخلَّف العمل، فلا بُدَّ أن يعرف معناها ويعمل بمقتضاها، وإن حصل عند الإنسان ذنوب وارتكب جرائم فهو تحت المشيئة، لا نُكفِّرُهُ ولا نخرجُهُ من الإسلام، بل نقصَ من قوله: (**لا إلٰه إلَّا الله**) بقدر مخالفته.

أمَّا إذا صرفَ شيئاً من العبادة لغير الله، فهذا قد أبطل عمله، وهو مشركٌ الشِّرك الأكبر الذي يُحِلُّ دمَهُ ومالَهُ، أمَّا مجرَّدُ الكبائر وارتكاب الصَّغائر فهذا لا يُخرج من الملَّة؛ لأنَّهُ يقول: (**لا إلٰه إلَّا الله**) ويعمل بمقتضاها بصرف العبادة لله وحده لا شريك له، فهو تحت المشيئة إن شاء الرَّبُّ ـ سبحانه ـ غفر له وإن شاء عذَّبه في النَّار بقدر جرائمه ثُمَّ مآله إلى الجنَّة؛ كما هو قول جمهور أهل السُّنَّةِ خلافاً للمرجئة وخلافاً للخوارج والمعتزلة وغيرهم من المبتدعة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وكما في حديث الشَّفاعة الطويل: «**أخرجوا من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»[1] إلى آخر الحديث المعروف.

وفيه فضل هذه الكلمة إذا قالها الرَّجل بصدق وإخلاص ويقين فإنَّها ترجح بجميعِ المخلوقات؛ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه

= (٩٤٧٣) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كَريز به مرسلاً، وقد صوَّب البيهقيُّ الإرسال.

(١) رواه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يُصاح برجلٍ من أُمَّتي فيؤتى به على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له** ـ يعني من سيئاته ـ **تسعة وتسعون سِجلاً، كُلُّ سِجلٍّ منها مد البصر، فيهاب الرَّجل، فيقال له: هل لك من حسنة؟**

فيهاب، فيقول: لا.

فيقال له: لا ظلمَ عليكَ، بلى إنَّ لك عندنا حسنة، فتخرج له بطاقة ـ ورقة صغيرة ـ **وفيها: «أشهد ألَّا إلٰه إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً عبده روسوله»، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع السِّجلَّات؟**

فيقال: لا ظلم عليك، فتوضع هذه البطاقة في كفَّة وتلك السِّجلَّات في كفَّة، فإذا وضعت رجحت تلك البطاقة وطاشت تلك السجلات ـ أي: خفَّت ـ»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «هذا رجلٌ قالها بصدقٍ وإخلاص ويقين»[(٢)].

فالأعمال لا تتفاضل بالصُّور ولا بالعدد، وإنَّما تتفاضل بمصدرها من القلب، فقد يصلِّي الإنسان وقد يتصدَّق ويكثر العبادة لكن الآخر أقل منه عبادة إلَّا أنَّ عبادته صدرت من قلب حيٍّ، فهذا الذي صدرت عبادته من قلب حيٍّ وإخلاص لله ـ تعالى ـ أفضل من الآخر؛ وقد يكون بينهما كما بين السَّماء والأرض، وكما بين المشرق والمغرب، لكن هذا الحديث مُطْلَقٌ وقيَّدَه المصنِّف بما سيأتي في حديث أنس: «**لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً**» أي: أنَّ **(لا إلٰه إلَّا الله)** لا تنفعك إلَّا بشرط أن تلقى الله وأنت سالمٌ من الشركِ قليله وكثيره وقد مُتَّ على التَّوحيد.

وفيه دلالةٌ على علوِّ الله على خلقه، والأدلَّة على ذلك كثيرة؛ لأنَّهُ قالَ: **(وعامرهنَّ)**؛ يعني: السَّماوات، والسَّماوات معلوم أنَّها أعلى من الأرض وأرفع، وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦]؛ أي: أأمنتم من على السَّماء، والآيات كثيرة، كُلُّها تدلُّ على إثبات العلوِّ لله.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦٩٩٤)، والتِّرمذيُّ (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبَّان (٤٦١)، والحاكم (١/ ١٥) (٩) من مسند عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وإسنادُهُ صحيحٌ.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٢).

۞ وللترمذيِّ وحسَّنَهُ عن أنسٍ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**قالَ الله تعالى: يا ابن آدم؛ لو أتيتني بقُرابِ الأرضِ خطايا، ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة**»(١).

أنس رضي الله عنه خدم النبيَّ ﷺ، وقد دعا له الرَّسول ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ أكثر مالَهُ وولدَهُ وأطل عمرَهُ وأدخله الجنَّة**»(٢)، فكان من آخر من مات من الصَّحابة، توفي سنة اثنين وتسعين أو ثلاث وتسعين.

وقالوا: إنَّ له من الولد نحو مئة وعشرين، فهذا ببركة دعاء النبيِّ ﷺ، وهو من أفاضل الصَّحابة رضي الله عنه.

قوله: (**قال الله تعالى**): هذا حديثٌ قدسيٌّ؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ يحكيه عن الله، فهذا من كلام الله.

والله يقول: (**يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**): فالإنسان ينبغي أن يكثر من الدُّعاء وأن يلحَّ في الدُّعاء؛ فإنَّ الله أمر عباده أن يدعوه في آيات كثيرة، ووعدهم أن يستجيب لهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ - يعني: عن دعائي - ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾ [غافر: ٦٠] يعني:

---

(١) رواهُ التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وقال: «حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه».
وفي إسناده كثير بن فائد لم يوثقه سوى ابن حبَّان، ينظر: الثِّقات (٩/ ١٥)، إلَّا أنَّ له شاهداً من مسند أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم (٢٦٨٧). فيستغنى به عنه.
وقد اقتصر المصنِّف رحمه الله على محلِّ الشَّاهد من الحديث للترجمة، ولفظ الحديث: «**قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السَّماء ثُمَّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنَّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**».

(٢) رواه البخاري (٦٣٣٤)، ومسلم (٦٦٠).

صاغرين ذليلين حقيرين، فقد توعدهم ـ سبحانه ـ إذا لم يدعوه أن يدخلهم جهنَّم صاغرين ذليلين حقيرين.

اللَّه يغضبُ إن تركتَ سؤاله وبُنَيُّ آدمَ حين يُسألُ يغضب

فأنت إذا سألت الآدميَّ فإنه يَمَلُّكَ ويسأمُ منك ويغضب، أمَّا الرَّبُّ ـ سبحانه ـ فإنَّهُ يغضب إذا لم تسأله ولم تَدعُهُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] كلُّ هذا يدل على مشروعية الدُّعاء، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «إنِّي والله لا أحمل هَمَّ الإجابة وإنَّما أحمل هَمَّ الدُّعاء، لعلمي أنِّي إذا وُفِّقت للدُّعاء حصلت الإجابة»[1].

فمن علامات الإجابة: أن يوفِّقك الله للدُّعاء، ولكن الدُّعاء لا يكون من طرف اللِّسان، بل لا بُدَّ أن يصدر من صميم القلب، فإذا صدر من صميم القلب، من قلب حيٍّ مقبلٍ على خالقه وباريه فالله لا يخيب دعاءه ولا يرده.

بل إمَّا أنَّهُ يعطيك سؤلك، ويجيب دعاءك، أو أن يدَّخر دعاءك هذا في الآخرة، أو يصرف عنك من البلاء ببركة دعائك ما لا تعلمه.

فالدُّعاء إذا صدر من قلب حي مستجمعٍ لشروط قبول الدُّعاء فإنَّ الله لا يخيِّب دعاء الدَّاعي أبداً، إلَّا أنَّ الدُّعاء المستجاب له شروطٌ، كما قال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله ادع الله أن أكون مجاب الدَّعوة.

فقال ﷺ: «**يا سعد أطِبْ مطعمك تكُن مجابَ الدَّعوة**»[2]، فالحرام إذا خالط البدنَ والقلب والدَّم فحريٌّ ألَّا تجاب دعوة مَن هذا حاله، ولهذا حرَّم الله الميتة، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣].

قال العلماء: الحكمة في تحريم الميتة؛ أنَّ الرُّطوبات بقيت فيها، ولها

---

(١) ذكره شيخ الإسلام (الاقتضاء ٢/ ٢٢٩)، وابن القيِّم (الدَّاء والدَّواء ٢٩) ولم أقف عليه مسنداً.

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في الأوسط (٦/ ٣١٠) (٦٤٩٥) وإسنادُهُ ضعيف جدّاً، وفي صحيح مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة: «**ثُمَّ ذكر الرَّجل أشعث أغبر يمد يديه إلى السَّماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟!**».

تأثير في القلب؛ فإنَّ الإنسان إذا أكل الميتة فإنَّها تؤثِّر في الدَّمِ وتؤثِّر في القلب بالقسوة والبعد عن الله ـ سبحانه ـ، وذكر العلماء أشياء كثيرة من هذا النَّوع.

«يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»: هذا يدلُّ على كرم الرَّب وعظيم إحسانه وأنَّهُ ينبغي أن تُلِحَّ بالدُّعاء، ولكن الدُّعاء أفضله أن تكون ساجداً، كما في الحديث: «**وأمَّا السُّجود فأكثروا فيه من الدُّعاء فَقَمِنٌ أن يُستجاب لكم**»(١)؛ أي: حريٌّ أن يستجاب لكم، إلى غير ذلك.

ثُمَّ قال: «**يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السَّماء**»؛ أي: السَّحاب، لو كان لك ذنوب من الأرض حتَّى السَّحاب وما يقاربه «**ثُمَّ استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**» يعني: متى دعوت الله وطلبته واستغفرته من قلبٍ حيٍّ فإنَّ الله يغفرُ لك، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، والآيات في هذا كثيرة، إلَّا أنَّ الاستغفار مشروطٌ بأداء الواجبات، وأن يكون من قلبٍ حيٍّ، أمَّا إذا كان من طرف اللِّسان ولم يصدر من القلب فهذا وجودُهُ كعدمِهِ؛ كما في الحديث: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢)، يعني: ما في القلب لا بُدَّ أن يُصدِّقَهُ العملُ، فالعمل إذا كان صادراً من القلب فهذا الذي ينفعُ.

ثُمَّ قال: (**يا ابن آدم لو أتيتني**)، يعني: يوم القيامة، (**بقراب الأرض**): وهو ملؤها أو ما يقارب مِلأها ذنوباً وخطايا (**ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة**)؛ أي: لأتيتك بملء الأرض أو بما يقارب ملأها مغفرة.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في هذا الحديث فوائد:

الأولى: شرطُ غفران الذنوب أن تلقى الله لا تشرك به شيئاً، سالماً من الشرك قليله وكثيره، فإذا متَّ على التَّوحيد وهو حقيقة: **(لا إله إلَّا الله)** فإنَّ مآلك إلى الجنَّة بكُلِّ حالٍ، ولو كان هناك ذنوب، لكن هذه الذنوب إن شاء الرَّبُّ ـ سبحانه ـ غفرها لك وإن شاءَ أدخلك النَّار وعذَّبك بقدرِ ذنوبِكَ وجرائمك، ثُمَّ المآلُ إلى الجنَّة، وهذا التَّوحيد باللِّسان وبالقلب وبالجوارح، ليس باللِّسان فحسب، بل لا بُدَّ أن يكون من القلب، ومن اللِّسان، ومن الجوارح، فاللِّسان يقولُ، والقلبُ يعتقدُ، والجوارحُ تعملُ، فإذا كان كذلك فهذا هو الموحِّد.

والشِّرك المنافي للتَّوحيد هو: تسويةُ غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، هذا الشِّرك الأكبر، وصاحبُهُ كافرٌ حلالُ الدَّمِ والمالِ ما لَمْ يتُبْ.

والشِّرك الأصغر وهو الذي ينافي كمال التَّوحيد ضابطه: ما ورد في النُّصوص تسميته شركاً ولم يصِلْ إلى حَدِّ الشرك الأكبر، كيسير الرياء، ومثل قول: «ما شاء الله وشئت»، ومثل: «لولا الله وفلان»، وما أشبَهَ ذلك، فإذا لقيت الله سالماً من هذا كُلِّهِ، صافياً توحيدك، عملك لله، واعتقادك لله، وقولك لله، فإنَّ الله ـ سبحانه ـ يقابل ذنوبَكَ بالمغفرة، ورُبَّما أنَّ الذُّنوب تنقلب حسنات إذا صفيَ توحيدُكَ وقويَ؛ لأنَّ توحيد النَّاس يختلف كما أنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ على حسب ما وقرَ في القلب، يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية، وقد دلَّ على هذا القرآنُ، خلافاً للمرجئة والأشاعرة؛ فإنَّ المرجئة يقولون: الإيمانُ مجرَّدُ التصديق، فإذا صدَّق الإنسانُ بقلبِهِ يعني: وحَّد الله بقلبه كفى، وإن لَمْ ينطِقْ لسانُهُ، ولم تعمَلْ جوارحُهُ!

لو كان هذا صحيحاً لكان أبو جهل من جملة المؤمنين! لأنَّهُ مصدِّقٌ بقلبِهِ، إلَّا أنَّهُ جحدَ ذلك عناداً وكفراً، كما حكى الله عنه في القرآن: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثُمَّ ـ أيضاً ـ العمل مع اختلال العقيدة لا ينفع، والعقيدة والقول مع تخلُّف العمل لا تنفع، بل لا بُدَّ من هذا، وهذا، وهذا، قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فإذا مات الإنسان على هذا، فإنَّ الله يغفِرُ لَهُ ما حصلَ لَهُ من الذُّنوبِ؛ كما في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

الفائدة الثَّانية: في الحديث ردٌّ على الخوارج، فالخوارج يكفِّرون بالذُّنوب ويقولون: من ارتكب كبيرة فهو كافرٌ، حرامٌ عليه الجنَّة، حلالُ الدَّم والمالِ حتَّى لو صلَّى وصامَ، ولو جاء بشعائر الإسلام كُلِّها، وهذا لا شَكَّ أَنَّهُ خطأٌ وذنبٌ عظيمٌ من الخوارج، ومذهبٌ فاسدٌ، والحديثُ يردُّ عليهم، والرَّبُ ﷻ يردُّ عليهم كما في هذا الحديث: (**لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**)، الخوارج يقولون: هذا ليس صحيحاً، ما دام أَنَّهُ صدرت منه كبيرة فهو من أهل النَّار، وهو كافرٌ حلالُ الدَّمِ والمالِ!

ثُمَّ ـ أيضاً ـ قاربهم المعتزلة القائلون بالمنزلة بين المنزلتين، لا يحكمونَ عليه بالكفرِ، فالزَّاني وشارب الخمر وآكل الرِّبا في منزلة بين المنزلتين، لا نُسمِّيه كافراً ولا نُسمِّيه مؤمناً بل هو فاسقٌ، ويحكمون أَنَّهُ خالدٌ مخلَّدٌ في النَّار، وفي كتبهم ألحقوا بهذا النوع عثمان ﷺ، قالوا: إِنَّهُ في المنزلة بين المنزلتين وإِنَّهُ خالدٌ مخلَّدٌ في النَّار! في حين أَنَّ الرَّسول ﷺ شهد لَهُ بالجنَّة[١]، وهو من أفاضل الصَّحابة، ومن الخلفاء الراشدين ﷺ، وقال عنه الرَّسول ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟!**»[٢]، لمَّا دخل وقد بدا بعض من فخذه فغطَّاه فقيل له: دخل أبو بكر وعمر ولم تغطّ ودخلَ عثمان فغطَّيتهما.

وهو ذو النُّورين، وجاءت أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ ثابتةٌ تدلُّ على فضلِهِ،

---

(١) كما في خبر أبي موسى ﷺ عند البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (٢٤٠٣)، وقد اشترى الجنَّة مراراً رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) رواهُ مسلمٌ (٢٤٠١).

ومع ذلك قالوا فيه ما قالوا، وقابلهم الأشاعرة، فالأشاعرة عندَهُمْ أنَّ من فعل كبيرةً فقدَ إيمانَهُ حتَّى يُقلِعَ من تلك الكبيرة، وأنَّ الإيمان لا يزيدُ ولا ينقصُ فيقولون: الإنسان إذا فعل كبيرة ذهب عنه الإيمان ما دام مقارفاً لهذه الكبيرة، وصار إيمانه كالظُلَّةِ فوقَهُ، خلعَهُ كما يُخلع الثَّوب، فإذا انتهى من فعل الكبيرة عاد إليه، بل إيمانه كإيمان جبريل عليه السلام وإيمان النبيِّ ﷺ وإيمان أبي بكر رضي الله عنه، كُلُّ ذلك على السَّواء، هذا عند الأشاعرة، ولا يُميِّزون أنَّ الإيمان يزيد وينقص، والله ـ سبحانه ـ ردَّ عليهم في القرآن، فإنَّهُ ذكرَ ذلك في مواضع كثيرة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وغيرها من الآيات التي لا تحصى، كُلُّها تثبِتُ أنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعَةِ، وينقصُ بالمعصيَةِ.

فانظر إلى تباين هذه الفرق، هؤلاء كَفَّروا مرتكب الكبيرة وهم الخوارج، وهؤلاء لم يُكَفِّروا وحكموا عليه بأنَّهُ خالدٌ مخلَّدٌ في النَّار، والآخرون قالوا: مؤمنٌ كامل الإيمان، أمَّا أهل السُّنَّةِ والجماعةِ فيقولون في مثل هذا: نحنُ لا نسلبُ عنهُ مسمَّى الإيمان، بل معَهُ أصلُ الإيمان، ولكن لا نعطيه الإيمان المطلق، بل نقول: مؤمنٌ بإيمانِهِ فاسقٌ بكبيرتِهِ، أو: مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، فلا نعطيهِ الإيمان المطلق، ولا نسلبُ عنهُ مطلقَ الإيمان، والمرادُ بالإيمان هنا: هو التَّوحيد، وهذا معنى الحديث: **(يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)**، وهذا هو الذي عليه جماهير أهل السُّنَّةِ كما حكاه الإمامُ النَّوويُّ[١] وغيرُهُ.

والحديثُ القدسيُّ كلامُ الله بمقتضى ما قرَّرَهُ شُرَّاحُ الحديثِ، وهو الذي

(١) شرح صحيح مسلم (٢/ ٤١).

يحكيه الرَّسول ﷺ عن الله، فالذي يحكيه الرَّسول ﷺ عن الله وينسبه لله هو (الحديثُ القدسيُّ).

وروايةُ الحديث بالمعنى جاءَ ذكرُهَا في المصطلح وذكرَهَا شُرَّاح الحديثِ وغيرُهُمْ، بعضُهُم يجيزُهُ، ولا مانع من رواية الحديث بالمعنى ما لم يُغيِّر فيه(١).



(١) وهو مذهب الجمهور، قال العراقيُّ رَحِمَهُ اللهُ (الألفية ص١٤٩):

وليرو بالألفاظ من لا يعلمُ ... مدلولها، وغيره فالمعظمُ
أجاز بالمعنى وقيل: لا الخبر ... والشيخ في التصنيف قطعاً قد حظر

بابٌ

من حقَّقَ التَّوحيدَ دخلَ الجنَّة بغيرِ حسابٍ

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وعن حصين بن عبد الرحمٰن قالَ: كنتُ عند سعيدِ بنِ جبيرٍ فقالَ: أيُّكُمْ رأى الكوكَبَ الذي انقضَّ البارِحَةَ؟

فقلتُ: أنا، ثُمَّ قلتُ: أمَّا إنِّي لم أكُنْ في صلاةٍ، ولكنِّي لُدِغْتُ.

قال: فما صنعتَ؟

قلتُ: ارتقيتُ.

قالَ: فما حملكَ على ذلكَ؟

قلتُ: حديثٌ حدَّثناهُ الشعبيُّ.

قال: وما حدَّثَكُمْ؟

قلتُ: حدَّثنا عن بريدةَ بنِ الحُصيبِ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: «**لا رُقيةَ إلَّا من عينٍ أو حُمَةٍ**».

قالَ: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سَمِعَ، ولكن حدَّثنا ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ،**

فرأيتُ النَّبيَّ ومعهُ الرَّهطُ، والنَّبيَّ ومعَهُ الرَّجلُ والرَّجلانِ، والنَّبيَّ وليس معه أحدٌ، إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنَّهُم أُمَّتي، فقيلَ لي: هذا موسى وقومُهُ، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيلَ لي: هذه أُمَّتُكَ ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ» ثُمَّ نهضَ فدخل منزلَهُ.

فخاض النَّاس في أولئك، فقال بعضهم: لعلَّهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ.

وقال بعضهم: فلعلَّهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء فخرجَ عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذينَ لا يسترقونَ ولا يكتوونَ ولا يتطيَّرونَ وعلى رَبِّهم يتوكَّلونَ» فقام عُكاشةُ بنُ محصنٍ فقالَ: ادعُ الله أن يجعلني منهم.

قال: «أنت منهم».

ثُمَّ قامَ رجلٌ آخر فقالَ: ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقالَ: «سبقك بها عكاشة».





بابٌ
من حقَّقَ التَّوحيدَ دخلَ الجنَّة بغيرِ حسابٍ

تحقيقُ التَّوحيد: تخليصُهُ وتصفيتُهُ من شوائب الشِّرك والبدع والمعاصي، فمن المعلوم أنَّ الشِّركَ الأكبر ينافي التَّوحيد بالكليَّة، والشِّركَ الأصغر ينافي كمال التَّوحيد، والشِّرك الأصغر هو أكبر من الكبائر، والبدعُ قادحةٌ في التَّوحيد، ومن أمثلتها: الاحتفال بالمولد، أو مثل قول: «**أسألك بجاه نبيك محمَّد ﷺ**»، فهذه بدعة، والبدع تُنقِّص ثواب التَّوحيد، فإذا كان معك أصل التَّوحيد فإنَّ هذه البدع تقدحُ في توحيدك، والبدع أعظم من المعاصي؛ والعبدُ مأمور بألَّا يسأل إلَّا الله، يسأل الله بأسمائه وصفاته، لا أن يسأله بأحد من خلقه، فهذا دعاء، والدُّعاء عبادة، وقد شاب هذا الدُّعاء بهذه البدعة وهي قوله: «أسألك بجاه محمَّد»، أو «بجاه نبيِّنا»، أو «بجاه فلان»، وما أشبه ذلك.

وقد يقول قائل: نَجِدُ المجوِّزين لهذا يستدلون بأنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإنَّ جاهي عند الله عظيمٌ**»(١).

نقول: هذا الحديثُ لا أصل له، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «هذا الحديث ليس له أصلٌ لا في الصِّحاح ولا في السُّنن ولا في المسانيد»(٢).

أو مثلاً يسأل الله ويطلبه عند قبر رجل صالح، ظنًّا منه أنَّ هذا المكان مكانٌ فاضلٌ، دُفِنَ فيه رجلٌ صالحٌ، هذا من البدع، وسيأتي هذا في كلام المصنِّف عند قوله: (**باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!**).

والتوسُّل إلى الله بأحدٍ من خلقه من البدع، فلا يجوز أن تتوسَّل إلى الله إلَّا بأسمائه وصفاته، وبالأعمال الصَّالحة.

---

(١) ينظر: قاعدة جليلة (ص١٧٤)، السلسلة الضعيفة (٢٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٩).

فإن قلتَ: ما معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥]؟

نقول: الوسيلة هنا هي العمل الصَّالح؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فعطفَ الوسيلة على تقوى الله، من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، فالتَّقوى كلمةٌ جامعةٌ، وهي: فعل المأمورات وترك المنهيات.

فصلاتنا وسيلةٌ، وقراءة القرآن وسيلة، نتوسَّل بها إلى الله، والصَّوم وسيلة، وطلب العلم بغرض الخروج من ظلمات الجهل إلى نور العلم وسيلة، فلا نتوسَّل بذوات المخلوقين، بل نتوسَّل إلى الله بالأعمال الصَّالحة، أمَّا ما يقوله عُبَّاد القبور من التوسُّل بفلان أو بجاه فلان، فهذا كُلُّهُ من البدع القادحة في التَّوحيد.

ولو قال قائلٌ: «أسأل بجاه الله»، فقوله هذا من الاعتداء في الدُّعاء، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وكذلك نتوسَّل إليه بشهادة: (أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)، وهي داخلة في العمل الصَّالح، أمَّا التوسُّل بألفاظ لم ترِدْ فلا.

وحديثُ الأعمى أنَّهُ جاء إلى الرَّسول ﷺ وسأله بأن يدعو الله أن يرُدَّ عليه بصره، فقال له: «**إن شئتَ صبرتَ ولك الجنَّةَ، وإن شئتَ دعوتُ لكَ**».

قال: ادع الله لي.

فأمره أن يذهب ويتوضأ ويسأل الله أن يقبلَ دعاء النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ إنَّ الرَّسولَ ﷺ دعا له.

هذا الحديث ليس فيه دلالة على جواز التوسُّل ـ وإن استدلُّوا به ـ، وفي سندِهِ مقالٌ[1].

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٢٨/٤٧٨) (١٧٢٤٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٧٨)، وغيرُهُما من طريق =

ولو قلنا: إنَّ الحديثَ صحيحٌ على سبيل التنزُّل، فليس فيه ما يدلُّ على أنَّهُ توسُّلٌ بالرَّسول ﷺ، فإنَّ ذلك كان في حالة حياته، فلو كان الرَّسول ﷺ حيَّاً جئناه وقلنا: ادع الله لنا، مثل ما أقول لك: ادعُ الله لي، أو أنا أدعو لك، لا شيء في هذا، فالأعمى جاء إلى الرَّسول ﷺ وهو حيٌّ حاضرٌ، وأمرَهُ أن يتوضأ ويُصلِّي ويدعو الله بأن يقبل شفاعة الرَّسول ﷺ، ثُمَّ الرَّسول ﷺ ذهب يدعو لهذا الأعمى فدعا له، فرَدَّ الله عليه بصره، هل في هذا أنَّ الأعمى جاء بعد وفاته أو جاء وهو غائب؟!

جاء حيَّاً حاضراً وطلب منه أن يدعو له عند الله، مثل حديث ربيعة بن كعب رضي الله عنه، حيث كان يخدم الرَّسول ﷺ فقال له الرَّسول ﷺ: «**سل**».

قال: أسألك مرافقتك في الجنَّة.

قال: «**أو غير ذاك؟**»

قال: قلت: هو ذاك.

قال: «**أعنِّي على نفسك بكثرة السُّجود**»[١].

لاحظ قوله: «**أعنِّي على نفسك بكثرة السُّجود**»، فالرَّسول ﷺ لم يدع له عند الله إلَّا إذا كان الرَّجل ممَّن توسَّل إلى الله بالأعمال الصَّالحة: بالصَّلاة والدُّعاء، ولم يُنقلَ أنَّ الصَّحابة جاءوا بعد وفاته وقالوا له: ادع لنا.

أمَّا طلبُ الدُّعاء من الحيِّ فلا مانع منه، مثل ما قال النبيُّ ﷺ لعمرَ:

= شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف، به.
وقد ظنَّ جماعة أنَّ أبا جعفر هذا هو الخطمي عمير بن يزيد فصحَّحوا الحديث، ويُشكل على ذلك أنَّ الحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب ٤/ ٥٠٤) قال: «أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة وعنه شعبة، قال الترمذيُّ: ليس هو الخطمي».
وقولُ الترمذيِّ هذا مثبتٌ في بعض النُّسخ التي بين أيدينا بعد هذا الحديث، [ينظر: طبعة الرسالة (٦/ ١٧٥)]، فعلى هذا يكون في إسناد الخبر من لا يُعرف، ويشكل عليه أنَّ المزيَّ في (التحفة ٧/ ٢٣٦) نقلَ أنَّ التِّرمذيَّ قال: «لا نعرفه إلَّا من حديث أبي جعفر الخطمي»، وقد اعتنى المزيُّ بضبطِ نُسَخِهِ وتحرِّي العتيق منها، إلَّا سنن ابن ماجه فلم يتيسر له ذلك، والله أعلم بالصَّواب.

(١) رواه مسلمٌ (٤٨٩).

«لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك»[١].

وكذلك قصَّة عمر رضي الله عنه في استسقائه بالعبَّاس ليس فيها أي دلالة على جواز التوسُّل، وهم يستدلُّون بها، ويقولون: إنَّ البخاري روى في «صحيحه» أنَّ عمر رضي الله عنه توسَّل بالعبَّاس رضي الله عنه[٢].

نقول: نعم توسَّل بدعاء العبَّاس؛ لأنَّهُ عمُّ الرَّسول ﷺ، ولو كان التوسُّل بالأموات جائزاً لَمْ يَعدلْ عمرُ عن الرَّسول ﷺ إلى العبَّاس رضي الله عنه، لكن عمر يعرف أنَّ التوسُّل بالأموات ممنوعٌ.

ثُمَّ هذا التوسُّل فسَّره عمر بقولِهِ: «اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا نتوسَّل إليك بنبيِّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا»، لاحظ: «قم يا عبَّاس فادع الله».

فسَّر هذا التوسُّل بقوله: «قم يا عباس فادع الله»، هذا هو التوسُّل، فجعل يدعو الله، وهذا ليس فيه دلالة على التوسُّل الممنوع، وإنَّما نتوسَّل إلى الله ـ كما قلنا ـ بأسمائه وصفاته، ونتوسَّل إلى الله بالأعمال الصَّالحة من صلاة وزكاة وصوم وحجٍّ، والائتمار بما أمر الله به، والانتهاء عمَّا نهى الله عنه، كُلُّ هذا من الوسائل التي تُقرِّب إلى الله، أمَّا أن نطلب من الرَّسول ﷺ الشَّفاعة، فنقول: يا رسول الله اشفع لنا، اشفع لنا يا عبد القادر، فلا، نحن لا ننكر شفاعة الرَّسول ﷺ بل هي حقٌّ، لكن لا نطلبها منه، فهذا منافٍ للتَّوحيد؛ لأنَّ الطلب دعاء، بل نحن الذين نشفع للأموات وليس هم الذين يشفعون لنا، بدليل ما في صحيح مسلم من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«ما من مسلم يموت يقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلَّا شفَّعهم الله فيه»**[٣]، فنحن إذا قمنا نصلِّي على الميِّت نقول: «اللَّهُمَّ اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله»، الحقيقة أنَّنا نشفع له بدعائنا هذا، لا أنَّنا نطلب من الميت أن يشفع لنا، مع أنَّنا لا نُنكر شفاعة الصَّالحين والأنبياء

(١) ينظر: ثلاثة الأصول ضمن مؤلفات الشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله (١/ ١٨٩).
(٢) صحيح البخاري (١٠١٠).
(٣) رواهُ مسلمٌ (٩٤٨).

والأفراط يوم القيامة، لكن لا نطلبها منهم، بل نطلبها من الله، ولذا تجد أنَّنا عندما نُصلِّي على الفرط ونحن نعتقد أنَّهُ يشفع لوالديه، لا نقول: «اشفع لوالديك»، بل نقول: «اللَّهُمَّ اجعله ذخراً لوالديه، وفرطاً وأجراً وشفيعاً مجاباً»[1]، نطلب منَ اللهِ أن يكون هذا الفرطُ شفيعاً مجاباً لوالديهِ، هذا هو التحقيقُ في هذه المسائل.

والحاصلُ: أنَّ البدعَ تقدحُ في التَّوحيد، والمعاصي تُنقِّص ثوابَ التَّوحيد، فكُلَّما كثُرَتْ ذنوبُ العبدِ نقصَ ثوابُهُ، وصار توحيدُهُ ناقصاً من جهة الثَّواب.

فلهذا نقول: تحقيق التوحيد: تخليصُهُ وتصفيتُهُ من شوائب الشِّركِ والبدَعِ والمعاصي، فالشِّركُ الأكبرُ ينافي التَّوحيد، والشِّركُ الأصغَرُ ينافي كمالَ التَّوحيد، والبدعُ قادحةٌ في التَّوحيدِ، والمعاصي مُنقِّصَةٌ لثواب التَّوحيدِ.

(١) روى البيهقي (٤/ ١٥) نحوَهُ عن أبي هريرة موقوفاً، وعلَّق البخاريُّ (٢/ ٨٩) نحوَهُ عن الحسن.

۞ وقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

هذا ثناءٌ من الله ـ سبحانه ـ على عبده وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، وخليل الرَّحمٰن، وقد أُمر نبيُّنا ﷺ باتِّباع ملَّة إبراهيم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

(الأُمَّةُ): هو من يُقتدى به في الخير ويُعَلِّمُ النَّاسَ الخير، فإذا كان يعلِّمُ النَّاسَ الخيرَ ويُقتدى به فهو الإمام، وهذه صفة إبراهيم عليه السلام.

(﴿قَانِتًا﴾): القنوتُ: هو دوامُ الطاعة، فإنَّهُ دائماً مطيعٌ لله، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩] وقال: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالإنسان إذا قام يُصلِّي وأطالَ القيام يقال عنه: (قانت)، فهذه من صفات إبراهيم التي أُمر نبيُّنا ﷺ باتِّباعه فيها.

(﴿حَنِيفًا﴾): للعلماء فيها تفسيران ـ ولكن المعنى واحد ـ، وإن تنوَّعت العبارات:

التَّفسيرُ الأوَّلُ: أنَّ **(الحنيفَ)**: هو المقبلُ على الله، المعرضُ عن كُلِّ ما سواه.

التَّفسيرُ الثَّاني: أنَّ **(الحنيفَ)**: هو المائلُ قصداً إلى التَّوحيد عن الشِّرك، والمعنى واحدٌ.

(﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾): نفى الله عنه الشِّرك قليلَهِ وكثيرَهِ، وَلَمْ يَكُنْ ممَّن عمل أيَّ شركٍ.

وقال المصنِّف في كلامه على الآية في إمامة إبراهيم عليه السلام ودوام قنوته وأنَّهُ حنيف وأنَّهُ لم يكن من المشركين، قال: «لئلا يستوحش السَّالك من قلَّة السَّالكين»[1].

(١) ينظر: إبطال التنديد (ص٢٩).

يعني: أنَّ إبراهيم عليه السلام وحدَهُ ولم يستوحش من قلَّةِ السَّالكين، بل هو يعبدُ اللهَ وحدَهُ، وجميع قومِهِ على غير هداه، كما حكى الله عنه في القرآن ومناظرته لقومه وتكسيره لأصنامهم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩] فهو سلك الطريق وحده، فلا تستوحش من قلَّة السالكين.

فارق المشركين ببدنِهِ وعملِهِ واعتقادِهِ، وحصلت له الاستقامة في العلم والعمل والدَّعوة، هذا هو إبراهيم عليه السلام، ولهذا السَّبب حصلت له الخُلَّةُ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

قال المفسِّرون: إنَّ إبراهيم حصلت له هذه الخُلَّةُ التي أثنى الله عليه بها لأمور ثلاثة:

الأوَّل: أنَّهُ بذلَ نفسَهُ لله، فإنه لمَّا كسَّرَ أصنامَ قومِهِ وناظَرَهم وأقامَ الحُجَّةَ عليهم عمدوا إلى أن يُوقِدُوا له ناراً ويلقوه بها فلم يقل: أنا مُكرَهٌ، ولم يوافقهم، فلمَّا ألقوه في النَّار قال الله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩] ولولا أنَّ الله أتبع قولَهُ: ﴿بَرْدًا﴾ بقولِهِ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لمات من شِدَّةِ بردها.

الثَّاني: أنَّهُ بذل ولدَهُ لله؛ ليَسْلَمَ قلبُهُ للهِ، ولا يكون فيه شِرْكَةٌ لسواه: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أهوى إلى حلقه بالسِّكين فأدركته رحمة رب العالمين: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصَّافات: ١٠٢ ـ ١٠٥]، ولذا فُدِيَ بذبحٍ عظيم.

الأمرُ الثَّالثُ: أنَّهُ وهو على شظفٍ من العيش جاءه الملائكة فظنَّ أنَّهم ضيوف فقرَّبَ إليهم أعظم ما يملك، جاءهم بعجل سمين فقال: ألا تأكلون؟ فلمَّا رأى أنَّهم كفُّوا أيديَهُمْ ولم يأكلوا أوجسَ منهم خيفة.

فبذل عليه السلام مالَهُ ونفسَهُ وولدَهُ لله، لهذا صار خليل الرَّحمٰن، وهو إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، وهو الذي حقَّقَ توحيدَهُ عن علمٍ وصبرٍ ويقينٍ واستقامةٍ ودعوةٍ.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون: ٥٩].

أثنى الله عليهم بهذه الصِّفات الحميدة، وهؤلاء ـ أيضاً ـ حقَّقوا توحيدهم وهم الصِّنف الثَّالثُ المذكورُ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، هؤلاء هم السَّابقونَ بالخيرات، وذلك أنَّ المسلمين ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: الظالمُ لنفسِهِ، وهو: من عنده حسنات وسيِّئات، وقد حقَّقَ شهادة: (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمداً رسول الله)، إلَّا أنَّ عندَهُ شيئاً ممَّا ظلمَ بهِ نفسَهُ.

الثَّاني: المقتصِدُ: وهو العامِلُ بالمأموراتِ، التاركُ للمنهيَّاتِ، ولكن ليس عندَهُ كمالٌ وزيادةُ عملٍ.

الثَّالثُ: هم السَّابقون بالخيرات: الذين أدَّوا المأمورات والمستحبَّات، وابتعدوا عن المحرَّمات والمكروهات، بل وبعض المباحات، فهؤلاء هم السَّابقون وهم المذكورون في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ الآية [المؤمنون: ٥٧].

وقولنا: (**إنَّ البدعَ تقدحُ في التَّوحيدِ**) يترتَّب عليه أنَّ توحيد المبتدع ناقصٌ، لكن لا نُخرجه من الإسلام، هو مؤمنٌ ومسلمٌ، لكن توحيدَهُ ناقصٌ بما ارتكبه من تلك البدع؛ لأنَّ البدع لا تنافي أصلَ التَّوحيد، بل هي قادحةٌ في التَّوحيدِ، وإلَّا فأصل التَّوحيد موجود، مثل ما قالوا في حديث الكسوف في خطبة النبيِّ ﷺ، فإنَّهُ خطب النَّاس بعدما صلَّى الكسوف فقال: «**يا أُمَّةَ محمَّد، ما أحدٌ أغير من الله من أن يزني عبدُهُ أو تزني أَمَتُهُ**»(١).

(١) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلمٌ (٩٠١) من حديث عائشة ﵂.

ما هي الحكمة من ذكر الزِّنا في موعظة الكسوف؟ لَمْ يذكرْ قتل النَّفس، ولَمْ يذكر الرِّبا، ولَمْ يذكر شربَ الخمرِ، ولَم يذكر الكفرَ والشِّركَ، وإنَّما ذكر الزَّنا.

قالوا: لأنَّ القلب كالشَّمس مشرقٌ بالإيمان، فالشَّمسُ حصلَ عليها هذا الكسوف فغيَّرها وأحدث فيها نكتة سوداء، فالزَّاني عندما يزني يحصلُ في قلبِهِ الذي هو كوكب من نور نكتة سوداء، إن تاب ورجع ذهبت تلك النُّكتة السَّوداء، وإن استمرَّ في المعاصي انطمس هذا النُّور، والبدعة نكتة في توحيد العبد.

۞ وعن حصين بن عبد الرَّحمٰن قالَ: كنتُ عند سعيدِ بنِ جبيرٍ فقالَ: أيُّكُمْ رأى الكوكَبَ الذي انقضَّ البارِحَةَ؟

فقلتُ: أنا، ثُمَّ قلتُ: أمَّا إنِّي لم أكُنْ في صلاةٍ، ولكنِّي لُدِغْتُ.

قال: فما صنعتَ؟

قلتُ: ارتقيتُ.

قالَ: فما حملكَ على ذلكَ؟

قلتُ: حديثٌ حدَّثناهُ الشَّعبيُّ.

قال: وما حدَّثَكُمْ؟

قلتُ: حدَّثنا عن بُريدةَ بنِ الحُصيبِ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: «**لا رُقيةَ إلَّا من عينٍ أو حُمَةٍ**».

قالَ: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سَمِعَ، ولكن حدَّثنا ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، فرأيتُ النَّبيَّ ومعهُ الرَّهطُ، والنَّبيَّ ومعَهُ الرَّجلُ والرَّجلانِ، والنَّبيَّ وليس معه أحدٌ، إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنَّهُم أُمَّتي، فقيلَ لي: هذا موسى وقومُهُ، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيلَ لي: هذه أُمَّتُكَ ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ**» ثُمَّ نهضَ فدخل منزلَهُ.

فخاض النَّاس في أولئك، فقال بعضهم: لعلَّهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ.

وقال بعضهم: فلعلَّهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء فخرجَ عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «**هم الذينَ لا يسترقونَ ولا يكتوونَ ولا يتطيَّرونَ وعلى رَبِّهم يتوكَّلونَ**» فقام عُكاشةُ بنُ محصنٍ فقالَ: ادعُ الله أن يجعلني منهم.

قال: «**أنت منهم**».
ثُمَّ قامَ رجلٌ آخر فقالَ: ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقالَ: «**سبقك بها عكاشة**»(١).

(**أيُّكُمْ رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟**): لا غرض لسعيد في الكوكب ولكن يريدُ بذلك أن يفتح باب المذاكرة في العلم.

(**الذي انقضَّ البارحة**)؛ أي: الذي رُمِيَ البارحة، و(البارحة): أقرب ليلةٍ مضَتْ، ولا يقالُ (البارحة) إلَّا بعد الزوال، وأمَّا قبل الزَّوال فتقول: اللَّيلة؛ أي: اللَّيلة الماضية.

و(البارحة) مشتقٌّ من (بَرَحَ) وهو الشيءُ الذي مضى، تقول: برحَ زيدٌ؛ أي: راحَ.

قال حصين: (**أنا**) ثُمَّ خَشِيَ أن يَفهَمَ الحاضرونَ أنَّهُ كان قائماً يُصلِّي ويتعبَّد فخشي أن يُمدحَ بما لَمْ يفعلْ فيدخل في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فقال: (**أمَّا إنِّي لم أكن في صلاةٍ ولكنِّي لُدِغْتُ**)، فدخلوا في الغرض الذي يريدون.

وقوله: (**لدغت**)، يقالُ: لُدِغَ الرَّجُلُ إذا لدغتْهُ عقربٌ أو حيَّةٌ أو زُنبورٌ أو غيرها من ذوات السُّمُومِ.

فقال سعيدٌ: (**ما صنعت؟**).

قال: (**ارتقيت**)؛ يعني: طلبتُ من يرقيني.

قال سعيدٌ: (**ما حملك على ذلك؟**)

قال حصينٌ: (**حديثٌ حدَّثناهُ الشَّعبيُّ**) فاستدلَّ حصينٌ على ما فعله من طلب من يرقيه بهذا الحديث.

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٧٠٥)، ومسلمٌ (٢٢٠).

والشَّعبيُّ: هو عامرُ بن شراحيل الأنباري، وهو من أجلَّة العلماء، ومن ثقات التَّابعين، ومن أحفظ النَّاس، قال: «والله ما كتبتُ سوداء في بيضاء»؛ أي: من شِدَّةِ حفظِهِ[١].

قوله: (**لا رقية إلا من عينٍ أو حُمَةٍ**)، (العين) هي: عينُ العائن، تخرج من نفس شريرة فتصيب المعايَن، فتؤثِّر فيه بإذن الله.

و(**الحُمَةُ**): هي السُّمُّ.

قد يُظَنُّ أنَّهُ يفيدُ الحصرَ، ولكن **المعنى**: لا رقية أشفى وأولى من رقية عينٍ أو حمةٍ، وإلَّا فالرُّقيةُ تجوزُ ولو من غير العين أو الحُمة، كمرضٍ أو وجعٍ أو غير ذلك.

والعينُ حَقٌّ وإن أنكرها بعضهم ممَّن لا علمَ لديهِ، فقد ورد في الحديث: «**لو أنَّ شيئاً سبقَ القَدَرَ لسبقتْهُ العينُ**»[٢]، وهذا أمرٌ معلومٌ دَلَّ عليه القرآنُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ [القلم: ٥١]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١]؛ أي: يعاينونك، تخرج من أنفسهم عينٌ شريرةٌ فتؤثِّر في النبيِّ ﷺ، هذا معنى الآية؛ ولهذا ذكر ابن كثير في (تفسيره)[٣] على هذه الآية الأحاديثَ المتعلِّقةَ بالعين، وأنَّها حَقٌّ، وكذلك ـ أيضاً ـ ممَّا يدلُّ عليها قوله ـ سبحانه ـ في قصَّةِ يعقوب مع أولاده يوسفَ وإخوتِهِ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾ [يوسف: ٦٧]، الغرض من هذا خشية إصابتهم بالعين لكثرتهم، كما قالَهُ جمعٌ من المفسِّرينَ[٤].

كُلُّ هذا يدلُّ على أنَّ العينَ حَقٌّ وأنَّها تصيبُ الإنسانَ بإذن الله، حتَّى من

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٦)، تاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٧).
(٢) رواه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) (٧/ ٣٥٥).
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٨).

غير اختيارِ العائن، فرُبَّما أنَّ الشَّخص يصيبُ ولدَهُ ويصيبُ أقرب النَّاس إليهِ، فلهذا أُمِرَ أن يقول الإنسان: «ما شاء الله»، أو يذكر الله، حينما يرى ما يعجبه، وقد تكلَّم العلماء في مسألةٍ وهي: إذا قتل إنسانٌ آخرَ بعينٍ، فهل يُقاد به؟ ثبت أنَّ هذا الشَّخص أرسل عينه على شخص آخر، حتَّى قتلَهُ بعينِهِ، وهو لَمْ يُباشر ذلك لا ببندقيةٍ ولا سيفٍ، ما حكمه؟ هل يُقاد به؟

الفقهاء من الحنابلة يقولون: يُحبسُ هذا العائن حتَّى يموت؛ لأنَّهُ أثَّرَ فيه بسببه وأماتَهُ وإن لم يحصل منه فعلٌ حِسيٌّ، لكنَّهُ فعلٌ روحانيٌّ عَمِلَ بهِ هذا العملَ.

وقيلَ: بل يقتلُ، ولكن المعروف أنَّهُ يُحبس(١)، وقد ذكر ابن عبد البر في «التَّمهيد»(٢) بعض الحكايات المتعلِّقة بالعينِ ومن جملتها أنَّها تقَعُ ولو في أتفهِ شيءٍ، ليس من لازمها أن يكون المعايَنُ عنده أمرٌ كبيرٌ يختصُّ بهِ دُونَ غيرِهِ أو أمرٌ مهمٌّ أو شيءٌ مستحسنٌ، قد تقع على الإنسان بأدنى سببٍ، فمن جملة ما ذكرَهُ ابن عبد البر: أنَّ شخصاً جلسَ يبولُ في أرض دمثة وكان لضربِ بولِهِ صوتٌ في هذه الأرض الدمثة، فمرَّ به شخصٌ، فسمِعَ صوتَ بولِهِ، فأصابه بالعين فسقط مغشياً عليه!

ويدلُّ أيضاً على وقوع العين قصَّةُ سهلِ بن حنيفٍ، فإنَّهُ كانَ يغتسِلُ فجاء عامرُ بن ربيعةَ، فرآه وقال: «كأنَّهُ جلدُ مُخَبَّأةٍ»، فسقطَ مغشيَّاً عليهِ، فقيل للنبيِّ ﷺ فغضب وقال ﷺ: «**علامَ يقتلُ أحدُكُمْ أخاهُ؟**» فأمرَهُ أن يتوضأ فصبَّ على سهلٍ الماء الذي توضأ به عامر فبرئ(٣).

---

(١) ينظر: الفروع (١٠/ ١١٥)، الإنصاف (٢٥/ ٣٠).

(٢) (٢/ ٢٦٦).

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ (٥/ ١٣٧٣) (٧٣٥)، والإمام أحمد في المسند (٢٥/ ٣٥٥) (١٥٩٨٠) من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

و(**المخبَّأة**) «بضمِّ الميم، وفتح الخاء، وشدِّ الباء هي: البكر؛ لأنَّ عادتهنَّ التَّستر تحت الحجال، وأن يُخبَّأن من الرِّجال، فهُنَّ ناضرات الجسوم؛ إذ لا يصيبهنَّ شمس ولا ريح يغيِّر بشرتهنَّ»، قاله القاضي عياض، (مشارق الأنوار ١/ ٢٢٨، وينظر: النهاية ٣/ ١٠٩٩).

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»؛ أي: عن النبيِّ ﷺ، أحسنت فيما فعلت؛ لأنَّك لم تعمل إلَّا بمقتضى ما بلغك.

(حدَّثنا ابن عبَّاس) : ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو من أفاضل الصَّحابة ومن علمائهم ودعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ فقِّههُ في الدِّين، وعلِّمهُ التأويلَ**»[(١)]، وقد قيل لابن عبَّاس: بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسانٍ سؤولٍ، وقلبٍ عقولٍ[(٢)].

وقد عمي في آخر عمره ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

(فرأيت النَّبيَّ ومعه الرَّهط) : (الرَّهطُ): هو ما بين ثلاثة إلى عشرة.

(والنبيَّ ومعه الرَّجُلَ والرَّجُلانِ)؛ يعني: أنَّ من الأنبياء من لم يقبل ما جاء به إلَّا رجلٌ واحدٌ أو رجلان فقط.

(والنبيَّ وليس معه أحد): بُعِثَ إلى النَّاس ولم يستجب له أحدٌ، هذا فيه دليل على قلَّة من استجاب للأنبياء، وأنَّ أهل الخير هم الأقلُّون، وأنَّ الأكثر هم الضالون كما دل عليه القرآنُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣**﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿**فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩**﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال: ﴿**وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ**﴾ [الأنعام: ١١٦]، فهذا كُلُّهُ يدلُّ على أنَّ الأكثر هم مخالفون لما جاءت به الرُّسل، ويدلُّ على ذلك ـ أيضاً ـ حديث: «**وإنَّ أُمَّتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كُلُّها في النار إلَّا واحدة، وهي: الجماعة**»[(٣)].

---

(١) روى البخاريُّ (١٤٣)، ومسلمٌ (٢٤٧٧) شطره الأوَّل، وأما قوله: (وعلِّمه التَّأويل) فقد رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٢٥) (٢٣٩٧) بإسناد جيِّدٍ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٩٧٠) (١٩٠٣)، ـ ومن طريقه البيهقي في «المدخل» (٤٢٧) ـ وفي سندِهِ انقطاعٌ.

(٣) هذا الحديث رُوي في السُّنن والمسند من عدَّة أوجه، وأمثل ذلك **ثلاثة أحاديث**:
الأوَّلُ: ما رواهُ الترمذيُّ (٢٦٤٠)، وأبو داود (٤٥٦٦)، وابن ماجه (٣٩٩١) من طرقٍ عن محمَّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
وليس فيه قوله: «**كلُّها في النَّار إلَّا واحدة**»، وإسنادُهُ جيِّدٌ، ولم يُصِبْ من ضعَّفَهُ بمحمَّد بن عمرو؛ فإنَّهُ صدوقٌ صالحُ الحديثِ، قد احتمل الأئمَّةُ حديثَهُ، لا سيَّما إذا =

(فقيل: هذا موسى وقومه): فيه فضيلة موسى عليه السلام وبني إسرائيل؛ فإنَّ التابعين له منهم كثير، ولكن ليسوا كأتباع نبيِّنا ﷺ.

(ثُمَّ نظرتُ، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمَّتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ): فيه فضيلة هذه الأُمَّة، وأنَّ هذه الأُمَّة أفضلُ الأمم، كما أنَّ الرَّسولَ ﷺ أفضلُ الرُّسل، كما في الصَّحيحين: «**أنَّ اليهودَ عملوا إلى الظُّهر بقيراطٍ، والنَّصارى إلى العصر بقيراطٍ، وهذه الأُمَّة من العصر إلى غروب الشَّمس بقيراطين، فهم أقلُّ عملاً وأكثرُ أجراً**»(1)، ممَّا يدُلُّ على فضل هذه الأُمَّة، لكن هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يقعَ فيها نظيرُ ما وقعَ في الأُمم قبلها من اليهود والنَّصارى، فكُلُّ ما وقع في اليهود والنَّصارى لا بُدَّ أن يقع نظيرُهُ عند هذه الأُمَّة، وإنَّما المراد أنَّ هذه الأُمَّة أكثر اتِّباعاً لنبيِّها من غيرها.

= لم يخالف، ولم يأتِ بما يستنكر، قال التِّرمذيُّ بعد إخراجِهِ: «حديثُ أبي هريرة حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

الثَّاني: ما رواهُ الإمامُ أحمدُ (٢٨/ ١٣٤) (١٦٩٣٧) ـ ومن طريقه أبو داود (٤٥٩٧) ـ والدَّارميُّ (٢٥٦٠) من حديث صفوان بن عمرو، عن أزهر بن عبد الله، عن أبي عامر عبد الله بن لحي، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وفيه: «**كلّها في النار إلّا واحدة**»، وإسنادُهُ جيِّدٌ، أزهرُ بن عبد الله صدوقٌ ولم يُتَكَلَّمْ فيه إلَّا من جهة اعتقادِهِ كما قال الحافظ في التهذيب (١/ ١٠٦)؛ فإنَّهُ رُمي بالنَّصب، وقد أثبتَ سماع صفوان منه البخاري في التَّاريخ الكبير (١/ ٤٥٩).

الحديث الثَّالث: ما رواه ابن ماجه (٣٩٩٣) وغيره من حديث الوليد بن مسلم قال: حدَّثنا أبو عمرو الأوزاعي، حدَّثنا قتادة، عن أنس بن مالك، به مرفوعاً.

وإسنادُهُ حسنٌ، صحَّحَ الخبرَ الترمذيُّ، وابنُ حبَّان، والحاكمُ، ونقل أبو العبَّاس ابن تيميَّة ذلك عن أكثر أهل العلم (الفتاوى ٣/ ٣٤٥ ـ ١٦/ ٤٩١)، وكذلك صحَّحَهُ ابنُ كثيرٍ في (البداية والنِّهاية ١٩/ ٣٧)، والحافظُ العراقيُّ في (الباعث على الخلاص ص١٦)، وابنُ حجرٍ في (اللِّسان ٨/ ٩٧)، والسَّخاويُ في (الأجوبة المرضية ٢/ ٥٦٩)، في آخرين من أهل العلم، وروي هذا الحديث من مسند سعد بن أبي وقاص، وعوف بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبي أمامة، وعبد الله بن سلام، وفي بعضها ضعف، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٥٠٢١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال ﷺ: «**لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حتَّى لو دخلوا جحرَ ضَبٍّ لدخلتموهُ**»(١).

هذا يدلُّ على أنَّهُ لا بُدَّ أن يقعَ في هذه الأُمَّة نظير ما وقع في الأمم، وكذلك لا بُدَّ أن يوجد فيها من الشِّرك كما وقع في الأمم قبلها، فإنَّ كثيراً من النَّاس زعموا أنَّ هذه الأُمَّة لا يقع فيها شرك، وأنَّ الله عصمها ببركة نبيِّها ﷺ بدليل هذا الحديث أنَّ أُمَّتَهُ قد سدَّتِ الأفقَ، وأنَّهُ استزادَ ربَّهُ فزادَهُ مع كُلِّ ألفٍ سبعينَ ألفاً(٢)، وسكت عن الباقين ممَّا يدلُّ على أنَّ هذه الأمَّة لا يقع فيها شرك.

كما استدلُّوا بحديث رواهُ مسلمٌ وهو قوله ﷺ: «**إنَّ الشَّيطانَ أيس أن يُعبد في جزيرة العرب**»(٣) قالوا: هذا يدلُّ على فضل هذه الأُمَّة وأنَّ هذه الأُمَّة امتازَتْ على غيرِهَا من سائر الأمم.

نقول لهم: نعم هذه الأُمَّة أفضلُ الأممِ، وهي أكثرُ اتِّباعاً لنبيِّها من بقية الأمم، لكن لا يلزم أنَّ هذه الأُمَّة لا يقع فيها شركٌ، بل هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يقعَ فيها نظير ما وقعَ في اليهود والنَّصارى من فساد العلماء والعبَّاد، وأنَّهم لو وجد فيهم من يأتي أمَّه علانية لوجد في هذه الأُمَّة من يفعل ذلك، وأنَّ الشِّرك يقع في هذه الأُمَّة؛ كما قال البخاريُّ: «باب تغيُّر الزَّمان حتَّى تُعبدَ الأوثان»، وساق بسندِهِ حديثَ أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتَّى تضطرب أليات نساء دوسٍ عند ذي الخلصة**»(٤)، تعودُ الخلصة ويعبدونها كما كانوا من قبل، وأمَّا حديث: «**إنَّ الشَّيطان أيس أن يعبد في جزيرة العرب**» فالله لم يُيْئِسْهُ، بل هو الذي أيس بنفسِهِ لما رأى انتشار الإسلام ودخول النَّاس في

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) جاءت هذه الزِّيادة في أحاديث كثيرة، أمثلها ما رواه الإمام أحمد (٣٧/٩٨) (٢٢٤١٨) من مسند ثوبان رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم (٢٨١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٤) صحيح البخاري (٩/٥٨) (٧١١٦).

هذا الدين أفواجاً؛ أيسَ أن يُعبد في جزيرة العرب، فاليأس وقع من الشَّيطان نفسه، وذلك أنَّ الله طرده، فوقوع اليأس من الشَّيطان لا يستلزم عدم وقوع عبادة الشَّيطان(١).

(ثُمَّ نهضَ فدخلَ منزلَهُ فخاضَ النَّاسُ في أولئك): خاضَ النَّاس في أعمال هؤلاء الذين يدخلون الجنَّة بلا حسابٍ ولا عذابٍ، ما أعمالهم؟

فيه: حرصُ السَّلف على عمل الخير وجِدِّهم في ذلك، يريدون معرفة أعمال هؤلاء من أجل أن يعملوا مثل عملهم، حتَّى يكتسبوا من الخير والأجر والفضل العظيم نظير ما اكتسبوا.

(فقال بعضهم: لعلَّهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً): تنوعت آراؤهم، وفيه دليل على جواز البحث في المسائل العلمية وإن لَمْ يكُنْ عند الإنسان فيها علم متيقَّنٌ، لا بأس أن تقول: لعلَّ الحكم كذا ـ لكن لا تجزم ـ بل تقول: (لعلَّهُ يجوزُ)، (لعلَّهُ يحرمُ) لا مانع، أمَّا أن تجزم بأنَّ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ بدونِ دليلٍ فهذا لا يجوز؛ لقولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، بل جعل القول على الله بلا علم أعظم من الشِّرك كما في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] أن يقول على الله في أسمائه وصفاته وفي شرعه ودينه ما لا يعلم؛ لأنَّ الآية جاءت بطريق التَّرقي.

والشِّرك أعظم من الفواحش، والقول على الله بلا علم أعظم من الشِّرك

(١) ويردُّ استدلالهم بهذا الحديث على منع وقوع الشِّرك في هذه الأمَّة وجهٌ آخر وهو: أنَّه لو قيل بالتَّسليم بهذا الاستدلال فالمذكور في الحديث جزيرة العرب وأكثرُ الأُمَّة خارجها!

الأكبر، فإذا احتاج الإنسان للبحث ينبغي ألَّا يجزم، كما فعل هؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم.

هذه أعمال السَّبعين ألفاً الذين يدخلون الجنَّة بلا حساب ولا عذاب.

ومعنى **(لا يسترقون)**؛ أي: لا يطلبون من يرقيهم، بل يعتمدون على الله ويتوكَّلون عليه.

(ولا يكتوون)؛ أي: لا يتداوون بالكي بالنَّار.

(ولا يتطيَّرون)؛ أي: لا يتفاءلون بالطيرة، كما كانت جاهلية العرب تصنع، إذا أراد أحدهم أن يسافر تطيَّرَ فينظر: إن ذهبَ الطائرُ أمامَهُ قال: «ناطحٌ ونطيحٌ» أو: «قاعدٌ وقعيدٌ»، وإن ذهب عن يساره أو خلفه تشاءموا بهذا السَّفر، وإن كان عن يمينه تفاءلوا، كُلُّ هذا من الأمور الباطلة.

ثُمَّ ذكر الأصل الجامعَ لهذا كُلِّهِ فقالَ: **(وعلى ربِّهم يتوكَّلون)**؛ أي: يُفوِّضون أمورهم إليه ويعتمدون عليه.

ولا يلزم من هذا أنَّ الاسترقاء ممنوع، ولا أنَّ الكيَّ ممنوعٌ، بل ذلك جائز، ولكن إذا تركه الإنسان توكُّلاً على الله واعتماداً عليه وصبراً على البلاء، فهذا من تحقيق التَّوحيد، وإن فعل شيئاً من ذلك فلا مانع، فهو من باب تعاطي الأسباب؛ فإنَّ تعاطي الأسباب جاءت به الشَّريعة مع الاعتماد على الله، لا تعتمد على السبب نفسه، بل اعتمد على الله، والأنبياء كُلُّهم تعاطوا الأسباب، كما دلَّ عليه القرآن، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥] فلم يأمر الله بالأكل من الرِّزق إلَّا بعد تعاطي الأسباب، وهو: (المشي في مناكبها)؛ أي: طرقها وطلب الرزق، وأخبر الرَّسول ﷺ عن الطير بقوله: **«لو أنَّكم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطَّير تروح خماصاً وتغدو بطاناً»**(١)، هذا من باب تعاطي الأسباب، فإنَّ الطَّير إذا طلع الفجر

(١) أخرجَهُ الإمام أحمد (١/ ٣٣٢) (٢٠٥)، والترمذيُّ (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

=

واتَّضح طارَ من وكرِهِ يلتمس الرِّزقَ ويعمل الأسباب ويرجع وقد شبع، وقال يوسف وهو في السِّجن حين خرج صاحباه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، هذا من باب تعاطي الأسباب، فيوسف تعاطى السبب قال: «اذكرني عند الملك»؛ لأنَّ السِّجن طال عليه، وكما في قصَّة مريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥] هذا من باب تعاطي الأسباب.

ولهذا قال المحقِّقون: إنَّ الاعتمادَ على الأسبابِ شركٌ، وتركَ الأسبابِ قدحٌ في الشَّريعة، فالنَّافع الضارُّ هو الله، وترك السبب قدح في الشريعة، فالله ـ سبحانه ـ ربط الأسباب بمُسَبِّباتها، لا يمكن دفع العطش إلَّا بالشُّرب، ولا دفعُ الجوع إلَّا بالأكل، ولا وجود الولد إلَّا بزوجة.

لو دعوتَ الله وسألته أن يعطيك ذريَّةً صالحةً دون أن تتزوَّج! لاعتُبِرَ هذا سَفَهاً، فالله أمرَكَ بتعاطي الأسباب ثُمَّ اسأل.

والرُّقية لا بأس بها، قال النبيُّ ﷺ: «**اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**»[(١)]، وقد رقى النبيُّ ﷺ ورُقي له.

وكذا الكيُّ، فالرَّسول ﷺ فعله وقال: «**لا أحبُّهُ**»، ونهى عنه، لكن لمَّا فعله حين كوى أُبيَّ بن كعب وسعد بن معاذ[(٢)] دلَّ على أنَّهُ لا مانع منه، لكن إذا تركَهُ اعتماداً على الله فهو أولى، وإن فعلَهُ فهو جائزٌ، لا شيء فيه، وفي الحديث: «**الشِّفاء في ثلاث** ـ وذكر منها ـ: كيَّة نار»[(٣)].

والطِّيرة عقد لها المصنِّف: «باب ما جاء في الطِّيرة» وذكر فيه ما كانت تفعله العرب من تطيُّرهم بصفر، وكذلك ـ أيضاً ـ بالطائر، وإذا

= في إسناد التِّرمذيِّ وابن ماجه (ابنُ لهيعة)، لكن تابعه غير واحد من الثِّقات، منهم: بكر بن عمرو كما في مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) رواه مسلمٌ (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٧ ـ ٢٢٠٨).

(٣) رواه البخاري (٥٦٨٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

سمعوا طائراً قالوا: «خير خير»، قال طاوس: (لا خيرَ ولا شَرَّ، وأيُّ خيرٍ عند هذا؟».

الأمور بيد الله، إنَّما الطِّيرة ما أمضاكَ أو ردَّكَ، والإنسان إذا وقع في قلبه شيء فلا ينبغي أن يتطيَّر، بل يقول: «**اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السَّيئات إلَّا أنت، ولاحول ولا قوة إلَّا بك**»[١]، وهذا لا ينافي الفأل كما يأتي بيانه.

وفيه: علوُّ همَّة عكاشة بن محصن رضي الله عنه، لمَّا سمع بهذا بادر وطلب من الرَّسول ﷺ أن يدعو الله لَهُ، فقال: «**أنت منهم**». نستفيد من هذا:

أوَّلاً: فضل عكاشة رضي الله عنه.

ثانياً: مشروعيَّة طلب الدُّعاء من الصَّالح، لا مانع من ذلك، بل ينبغي إذا وجدت رجلاً عليه آثار الخير أن تقول له: «ادع الله لي»، هذا إذا كان حيَّاً حاضراً، فيقول: «**اللَّهُمَّ اغفر لي ولأخي**»، وليس فيه دلالة على طلب الدعاء من الأموات الصالحين، أو من الأنبياء بعدما ماتوا، أو من الملائكة، بل كُلُّ هذا من الشِّرك.

وعكاشة من فرسان العرب وشجعانهم، قُتل على يد طُليحَةَ الأسديِّ حينما ادَّعى النبوَّة، وذكر علماء السِّير أنَّهُ حضرَ يومَ بدرٍ، وأنَّهُ قاتلَ ومعَهُ سيفٌ ولكن سيفه انكسر فذهب للنبيِّ ﷺ وطلب منه سيفاً فأعطاه جزلة حطب، فأخذها فهزَّها فصارت سيفاً، فذهب يقاتل في سبيل الله، كما ذكره علماء السِّير[٢].

(سبقك بها عكاشة) هذه الجملة من حَسَنِ المعاريض التي سَدَّ بها النبيُّ ﷺ البابَ، فلم يقل: «أنت منهم» فيتسلسل الأمر فيقوم فيطلبها من ليس لها بأهل فيردَّهُ، فيعرفه الحاضرون.

---

(١) يأتي خريجه في: (باب ما جاء في التَّطيُّر).
(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١٨٨).

ولم يقل: «لستَ منهم»، خشية أن يعرفه الحاضرون، بل قال: «**سبقك بها عكاشة**». وبقي هذا السَّائل الذي بعد عكاشة لا يُدرى هل هو منهم أو ليس منهم؟ هذا من باب استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.



بابُ
الخوفِ مِنَ الشِّركِ

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث: «**أخوفُ ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر**»، فسُئِلَ عنه فقالَ: «**الرِّياء**».

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**مَن ماتَ وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخلَ النَّارَ**».

وَلِمُسْلِم عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِك بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ**».



بابُ
الخوفِ مِنَ الشِّركِ

لمَّا ذكر المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ التَّوحيدَ ذكرَ فضلَهُ، وذكرَ تحقيقَهُ، ثُمَّ ذكرَ الخوفَ من ضِدِّهِ؛ لأنَّهُ لا يكفي أن تعرف التَّوحيدَ، بل لا بُدَّ أن تعرِفَ ضِدَّهُ، كما قيلَ:

ضدَّان لمَّا استجمعا حسُنا والضدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضدُّ[1]

وكما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما تُنقضُ عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأَ في الإسلام من لا يعرف الجاهليَّة»[2]، فلا بُدَّ من معرفة الشِّرك التي كانت عليه الجاهليَّةُ، لتعرف التَّوحيد وتعرف ما يناقضُ التَّوحيدَ، ولهذا كانت الدَّعوة لا تختَصُّ بالأمر بالمعروف، بل تشمل ـ أيضاً ـ: النَّهي عن المنكر، كما في الآيات الكثيرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، لا بُدَّ أن تعرف المعروف وتعرف المنكر، فتأمر بهذا وتنهى عن هذا، وقال ـ سبحانه ـ في وصف المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، لهذه الأسباب قال المصنِّفُ عَقِبَ ذكرِ التَّوحيدِ وفضلِهِ وتحقيقِهِ: (**بابُ الخوفِ مِنَ الشِّرِكِ**).

---

(١) شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٢٢).

(٢) لَمْ أقف عليه مسنداً، وقد ذكرَهُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١)، وابنُ القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٤٩٦)، وروى ابن أبي شيبة (١٧/ ٣٣٢) (٣٣١٣٩)، وابن سعد في الطَّبقات (٦/ ١٢٩)، والحاكم (١٠/ ٢١٠) (٨٥٢٣)، والبيهقيُّ في الشُّعب (١٠/ ٢٨) (٧١١٩) من طريق شبيب بن غردقة، عن المستظلِّ بن الحصين، قال: سمعت عمر بن الخطَّاب يقول: «**قد علمتُ وربِّ الكعبة متى تهلك العرب! إذا ساس أمرَهم من لم يصحب الرَّسول ﷺ ولم يعالج أمرَ الجاهليَّة**»، وإسنادهُ صحيحٌ.

والشِّرك معلومٌ أنَّهُ وقعَ في هذه الأُمَّة كثيراً، وقد أُلِّفَتِ المؤلَّفات العديدة في الدَّعوة إلى الشِّركِ، والحَثِّ عليه، والترغيب فيه باسم: (التوسُّل) تارةً، وباسم: (الشَّفاعة) تارة أخرى؛ أي: التوسُّل بالأولياء والصَّالحين وطلب الشَّفاعة منهم، أن يشفعوا عند الله، والمشركون الأوَّلون لا يعتقدون أنَّ الأموات والغائبين يستطيعون أن يجلبوا النَّفع ويدفعوا الضُّرَّ، بل هم معترفون أنَّهُ لا قدرة لهم على شيءٍ من ذلك، وإنَّما القادرُ على النَّفعِ والضرِّ هو الله ـ سبحانه ـ، ولكن يريدونهم وسائط بينهم وبين الله، كالوزراء وسائط بينك وبين السُّلطان، فقد يقول: أنا لا أصل إلى السُّلطان ولا قدرة لي على الدُّخول على السُّلطان، فلا بُدَّ من واسطة بيني وبين السُّلطان، وهو هذا الوزير، يرفع حاجتي إلى السُّلطان، كذلك هؤلاء نأتيهم ونطلب منهم أن يكونوا وسائط بيننا وبين الله.

نقول: هذا من الغلط، ومن المعلوم أنَّ السُّلطان قد يقبل قول الوزير لأجل حاجته إليه، فلو لم يقبل شفاعة هذا الوزير لتنكَّرَ عليه وهو محتاجٌ إليه في كثيرٍ من أمورِهِ، بخلاف الرَّبِّ فإنَّهُ لا يحتاج أحداً، هو الغنيُّ عن كُلِّ ما سواه[1].

ثُمَّ إنَّ السُّلطان لا يعرِفُ طلبك ولا حاجتك إلَّا بواسطة هذا الوزير الذي رفعت الحاجة عن طريقه، أمَّا الرَّبُّ ـ سبحانه ـ فيعلَمُ كُلَّ شيءٍ، فكيف يجعلونه نظيراً لهذا، ويقولون: «هؤلاء صلحاء يرفعون حوائجنا إلى الله»؟!

وقد قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة: «من جعل بينه وبين خالقه واسطة كفر إجماعاً»[2]؛ لأنَّ الله أمرك أن تسألَهُ، ولم يجعلْ بينكَ وبينه واسطة كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

---

(١) وفي هذا أنشد أبو عبد الله ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ (الكافية الشَّافية ص٢٥١):

فالشِّركُ تعظيمٌ بجهلٍ من قيا ... سِ الرَّبِّ بالأُمراء والسُّلطانِ
ظنُّوا بأنَّ الباب لا يُغشى بدو ... ن توسُّطِ الشُّفعاء والأعوانِ
ودهاهُمُ ذاكَ القياسُ المستبينُ ... فسادُهُ ببديهةِ الإنسانِ
فالفرقُ بينَ اللَّهِ والسُّلطان من ... كُلِّ الوجوهِ لمن لَهُ أُذنانِ

إلى آخر الأبيات.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٢٤).

دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولم يقل: «وإذا سألك عبادي عني فإنِّي جعلتُ بيني وبينهم وسائط!».

هذا يدلُّ على أنَّهُ لَمْ يرضَ أن يكون بينَهُ وبين خلقِهِ واسطةٌ، ولهذا جاء في الحديث أنَّ اللهَ قالَ: «**قسمتُ الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال الله: مجَّدني عبدي**»(١)، فما أجلَّ هذه العبودية وما ألذَّها على القلب حيث أضافك إليه وجعلك عبداً من عباده.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ لأنَّهُ يعلم السِّرَّ وأخفى، ولكن وقع الشِّركُ في هذه الأُمَّةِ بهذه الشُّبهة، بُنيت القبابُ على القبورِ، وجعلوا يسألونها من دون الله، وأُلِّفت المؤلَّفاتُ في هذا؛ فقد ألَّف بعضهم كتاباً سمَّاهُ: «حجَّ المشاهد»، يريد أن تحجَّ إلى المشاهد وأن تسألها! ويستدلُّون بحديث أبي هريرة: «**لا تجعلوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً**»(٢)، قالوا: فيه الحثُّ على أنَّكَ تتردد إلى قبر النبيِّ ﷺ، وأنَّك لا تهجره؛ كما أنَّ العيدَ لا يأتي في السَّنة إلَّا مرَّة، هذا هو التأويل عندهم.

وهذا غلطٌ، وهو من التأويل الفاسد؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»، والعيد: هو ما يعود ويتكرَّرُ مجيئهُ سواءٌ كان في السَّنة أو الشَّهر أو الأسبوع، وممَّا يدلُّ على بطلان ما ذهبوا إليه أنَّهُ في نفس الحديث قال: «**ولا بيوتكم قبوراً**»؛ يعني: أشغلوها بالصَّلاة وقراءة القرآن؛ فإنَّهُ متى تُرِكَتْ وصارت لا يُصلَّى فيها ولا يقرأ فيها القرآن صارت كالمقبرة؛ إذ إنَّ المقبرة منهيٌّ عن الصَّلاة فيها، ومنهيٌّ عن قراءة القرآن فيها، فالبيتُ الذي لا يُصلَّى فيه ولا يُتلى فيه القرآن هو شبيهٌ بالمقبرَةِ، ويُبطلُ هذا ـ أيضاً ـ آخر الحديث: «**وصلُّوا عليَّ؛ فإنَ تسليمكم يبلغني حيث كنتم**»، وبهذا نعرف أنَّهُ لا دلالة لهم في هذا، وإنَّما هي تُرَّهات وخرافات.

---

(١) رواهُ مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) سيأتي تخريجه في باب: ما جاء في حماية المصطفى جناب التَّوحيد.

۞ وقـــولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

تضمَّنت هذه الآية:

بيان صحَّة ما عليه أهل السُّنَّةِ والجماعةِ الذين يقولون: إنَّ العبد إذا مات على التَّوحيد سالماً من الشِّرك قليلِهِ وكثيرِهِ فهو تحت المشيئة، إن شاء الرَّبُّ عفا عنه، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه ومعاصيه ثُمَّ أدخله الجنَّة؛ بدليل هذه الآية: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾)؛ أي: ما دُون الشِّرك (﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾) والذي هو دُون الشِّرك يدخل فيه الكبائر وغيرها، هذا مذهب أهل السُّنَّةِ، وقول جمهورهم كما قالَهُ النَّوويُّ في «شرح صحيح مسلم»[1].

وفي الآية الرَّدُّ على القبوريين الذين يطلبون المدد من غير الله، كعبد القادر والدسوقي، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤]، والآية هذه نظير آية الأحقاف: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وكما في آية سورة الأعراف: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢]، ووجه الدَّلالة من هذه الآيات:

في سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣﴾؛ يعني: هذا الذي تسأله وترجوه وتطلبه ما يملكُ حتَّى القطمير، والقطمير هو:

(١) (٢/ ٤١).

اللُّفافَةُ الرَّقيقةُ التي تكون على النَّواةِ، فإذا كان عاجزاً عن ملك هذا الشيء التَّافه، فكيف تجعله نِدَّاً لله وتسأله كما تسأل الله وتصرف له من حقوق الله؟! هل مثل هذا يُساوى بربِّ العالمين؟!

الوجه الثاني: قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] لا يسمع دعاءك، ولا علم له بك.

الوجه الثَّالث: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] على سبيل الفرض والتَّقدير أنَّ الميِّتَ سمع دعاءك وطلبت منه الشَّفاعة، وأن يرفع حاجتك لله، فلا يقدر أن يُجيبك ولو فرضنا أنَّهُ يسمع، لا قدرة لهذا الميت على ذلك، والله لا يقبل شفاعة شافع إلَّا بعد إذنه له، ثُمَّ الله لا يأذن إلَّا لأهل التَّوحيد، فاطلبها من الله.

الوجه الرَّابع: قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] هذا الذي تدعوه وتسأله، يتبرأ منك، ويقول: يا ربنا ما أمرناهم بعبادتنا، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]، هذه أربعة أوجه، كُلُّها تنفي التعلُّق بغير الله ﷻ.

قال ابن القيِّم: «إذا سلم الإنسان من ثلاثة أمور فليهنأ بالسَّلامة:

الأوَّل: تعلُّق القلب بغير الله.

الثَّاني: طاعة القوَّة الغضبيَّة.

الثَّالث: طاعة القوَّة الشَّهوانيَّة»[1].

أمَّا **الأُولى** وهي: تعلُّق قلبه بغير الله، فهو الوارد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وأمَّا **الثَّانية** وهي: طاعة القوَّة الغضبيَّة، فهي الواردة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، لا يطيع قوَّته ومقدرته الغضبيَّة في التَّعدي على النَّاس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم.

---

(١) الفوائد (ص١١٦).

وأمَّا **الثَّالثة** وهي: طاعة قوَّته الشَّهوانيَّة، فهي الواردة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فإذا سلم من تعلُّق القلب بغير الله، بل تعلَّق بالله في جميع أموره، وقطعَ العلائق عن جميع الخلائق واتَّصل بالخالق، وقمع قوَّته الغضبيَّة بألَّا يتعدَّى على أحدٍ في دمٍ أو مالٍ أو عرضٍ، ووطَّدَ نفسَهُ من الناحية الشَّهوانيَّة من زنا وتقبيل وما لا يجوز له إذا سلم من ذلك كُلِّهِ فليهنأ بالسَّلامة، وأخطر هذه الأمور وأعظمها هو: التعلُّق بغير الله.

وفي الآية الرَّدُّ على المعتزلة في مسألة الكبائر، فالمعتزلة ومثلهم قسمٌ من الخوارج، يخلِّدون في النَّار من فعلَ الكبيرةَ.

والمعتزلة يقولون في السَّارق والزَّاني وشارب الخمر ونحوهم: ليس بكافر إلَّا أنَّهُ في منزلةٍ بين المنزلتين، غير أنَّهُ في الآخرة خالدٌ مخلَّدٌ في النَّار، والآية تردُّ عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] ماذا يعملون بهذه الآية؟!

الآية تدلُّ على أنَّ الشِّرك لا يُغفر إلَّا بالتَّوبة منهُ، وأنَّ ما دُون الشِّرك صاحبُهُ تحت المشيئة، إن شاء الله غفرَ لَهُ، وإن شاء عذَّبَهُ بقدر ذنوبِهِ ثُمّ مآله إلى الجنَّة.

۞ وقال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

(**اجنبني**)؛ أي: أبعدني، من المجانبة وهي: المباعدة، هذا سؤالٌ من الخليل عليه السلام يسألُ الله أن يُبعده من عبادة الأصنام، وإذا كان هذا خليلُ الرَّحمٰنِ وإمامُ الحنفاء ووالدُ الأنبياء خاف على نفسِهِ من الشِّركِ ووقوعِهِ في عبادَةِ الأصنام، فما ظَنُّكَ بغيرِهِ؟!

هذا الخليل صفَّى قلبَهُ لله، وبذلَ نفسَهُ لله، حتَّى أوقدوا له ناراً لما كسَّر أصنامَهُم، وألقوهُ فيها، فمنَّ الله عليه بالسَّلامة، أمرَ الله النَّار أن تكون برداً وسلاماً، وأُمر بذبحِ ولدِهِ ليسلمَ قلبُهُ لله، ولا يكون فيه شِركَةٌ لسواهُ، وبذلَ مالَهُ وقرَّبَهُ لهؤلاء الضيوف، فصار خليلاً وأثنى عليه ربُّهُ بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النَّحل: ١٢٠ ـ ١٢١]، ومع ذلك يقول: (﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾) أيُّ شيءٍ أبلغُ من هذا؟!

إذا كان هذا إبراهيم يخشى على نفسِهِ الوقوعَ في عبادَةِ الأصنام، فما ظَنُّكَ بغيره؟!

في حين أنَّ كل عاقل حينما يتأمَّل في هذه الأصنام وعبادة الأموات، وهذه الأبنية وهذه الأشجار التي يعتقدون فيها يعرف أنَّها لا تنفعُ ولا تضرُّ، وأيُّ نفعٍ عند هذه؟! وأيُّ نفعٍ في هذا الصَّنم؟!

و(الصَّنم) هو: ما نُقِشَ على صورةٍ وعُبِدَ من دون الله.

و(الوثن) أعمُّ، فكُلُّ صنمٍ وثنٌ، وليسَ كل وثن صنماً، ومشركو العرب بعضهم ـ وهم قلائل ـ عندما يضعون هذا الحجر الذي يذبحون له، وينذرون له، ويجعلون له السَّمن والذبائح، يعرفون أنَّهُ لا شيءَ عندَهُ، ولهذا جاء رجلٌ من العرب بإبلِهِ يريدُ البركةَ من صنمٍ للعرب يُسمَّى (سعداً)، لما جاءَ تفرَّقَتْ إبلُهُ، فأنشدَ يقول:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتَّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سعدِ(١)

وجاء آخر بإبله يريدُ البركة، فلمَّا رأى الثَّعلب يلعبُ على ظهر الصَّنمِ ثُمَّ بالَ عليهِ تعجَّبَ! ثعلبٌ يلعبُ على ظهر صنمٍ حتَّى بال عليه!!

وهو جاء يريد خيره وبركته، والانتفاع به، فلمَّا رأى ذلك أنشأ يقول:

أربٌّ يبولُ الثَّعلبان برأسِهِ؟! لقد ذلَّ من بالت عليه الثَّعالبُ(٢)

فالعاقل بمجرَّد تأمُّله يعرف بطلان عبادة غير الله، وقد كان عند أهل مكَّة شجرة العُزَّى، وأهل الطائف عندهم مناة، حتَّى مَنَّ الله ببعثة النبي ﷺ، فهدم ذلك كُلَّهُ.

والمصنِّفُ عقدَ هذا الباب لينبِّهَ أنَّ على المسلم أن يعرف التَّوحيد وما ينافيهِ، فلا بُدَّ أن تعرف ما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة غير الله، ثُمَّ تعرف التَّوحيد، ولهذا كان حذيفة رضي الله عنه يقول: «كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني»(٣).

وعندما تقرأ تراجم الأولياء الذين يعتقدون فيهم وما يذكرونه في ترجمة هذا الولي الذي ينذرون له ويذبحون له ويطلبون منه المدد، تجِدُ في ترجمته ما تستحي العقول منه لو كانت العقول حيَّةً، لكنهم نشأوا على هذا ولا يعرفون التَّوحيد، من ذلك ما ذكر الشَّعرانيُّ(٤) في ترجمة بعض الأولياء، فقد ذكر حكاية يستحي المرءُ أن يقولها، ذكرَ: أنَّ الوليَّ الواصل بالولاية والكرامة ما لا يصله غيره من مناقبه: أنَّهُ كان يزني بأتان في الشَّارع في مكَّة!

هذا من مناقبه! هل هذا معقول؟! هل هذا وليٌّ؟! يجعلها من أفضل الكرامات، بمعنى: أنَّهُ تجاوز التكليف، ليس هذا مكلَّفاً.

وكذلك النَّبهاني ألَّف كتاباً سماه: «شواهدُ الحقِّ بالاستغاثة بسيِّد الخلقِ»

---

(١) القصَّة والبيت في كتاب الأصنام للكلبي (ص٣٧).
(٢) الطبقات لابن سعد (١/٣٠٨)، البداية والنِّهاية (٣/٦٠٦).
(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٦٠٦)، ومسلمٌ (١٨٤٧).
(٤) الطبقات الكبرى (٢/٨٨ ـ ١٢٩).

ذكرَ أشياء من هذه التُّرهات، حتَّى إنَّهُ ذكرَ أنَّ هناك بقرة مباركة فيها حليبٌ كثيرٌ، وأنَّ النَّاس بنوا على قبرها قُبَّةً، وكانوا يرتادونها ويطلبون منها الوساطة بينهم وبين الله! هل مثل هذا فيه عقل؟! من كان له أدنى مسكة عقل فضلاً عن العاقل يعرف بطلان ذلك، وقد ضلَّ من ضلَّ بسبب هذا.



۞ وفي الحديث: «**أخوفُ ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر**»، فسُئِلَ عنه فقالَ: «**الرياء**»(١).

هذا الذي يتخوَّفه النبيُّ ﷺ على أُمَّته، فانظر إلى نصحه وشفقته على أُمَّته، فإنَّهُ جاء في الحديث: «**ما من نبيٍّ إلا حقّاً عليه أن يدُلَّ أُمَّته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شَرِّ ما يعلمه لهم**»(٢)، وهو ﷺ قد بلَّغ الرِّسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأُمَّة وجاهد في الله حقَّ جهادِهِ، كما قال في خطبة الوداع عشيَّة عرفة: «**ألَّا هل بلَّغت؟ ألَّا هل بلَّغت؟**».

قالوا: نعم.

فأشار بأصبعه إلى السَّماء وقال: «**اللَّهُمَّ فاشهد**»(٣).

وقال ﷺ: «**تركتكم على المحجَّة البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغُ عنها إلَّا هالكٌ**»(٤).

وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: توفي رسول الله ﷺ وما من طائرٍ يُقلِّب جناحيه إلَّا ذكرَ لنا منه علماً(٥).

والأحاديثُ في هذا كثيرة، والله لم يقبض نبيَّه ﷺ إلَّا بعد أن أكمل بـه الـدِّيـن: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالدِّين قد كمُلَ، وما بقي شيء إلَّا وقد أوضحه

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٩/ ٤٣) (٢٣٦٣٦) وغيره من مسند محمود بن لبيد رضي الله عنه وإسنادُهُ جيِّدٌ.
(٢) رواهُ مسلمٌ (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) رواهُ البخاريُّ (١٠٥)، ومسلمٌ (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجَهُ الإمام أحمد (٢٨/ ٣٦٧) (١٧١٤٢)، وابن ماجه (٤٣)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وإسنادُهُ حسنٌ.
(٥) رواهُ وكيعٌ في (الزُّهد ٥٢٢)، والطيالسيُّ (٤٧٩)، والإمامُ أحمدُ (٣٥/ ٢٩٠) (٢١٣٦١) من طرقٍ يعضد بعضها بعضاً.

الرَّسول ﷺ وأمرهم بهِ وحثَّهم عليه ورغَّبهم فيه، ونهاهم عمَّا ينبغي نهيهم عنه.

(أخوف): صيغة أفعل التفضيل عبَّر بها للمبالغة.

(فسُئل عنه): أي: الشِّرك الأصغر، **(فقال: الرِّياء)**: الرياء: هو أنَّ يعملَ الرَّجلُ الطَّاعة من صلاة أو صدقة أو حجٍّ أو صوم أو غيره لله، لكن وقر في قلبه محبَّةُ محمدةِ النَّاس له وثنائِهم عليه، فيحبُّ أنَّ النَّاس يطَّلعون على عمله من أجل أن يثنوا عليه أو لأجل أن يمدحوه، فصار هذا العمل مشوباً غير خالص لله، فما دام أنَّ العمل غير خالص لله، فإنَّ الله لا يقبله، وقد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ العبادة تنبني على أصلين، فإذا تخلَّف أحدُ الأصلين، فالعمل مردودٌ:

الأوَّل: تجريدُ الإخلاص لله، فإذا قصد بعمله مدح النَّاس، أو قصد بعلمِهِ أو تعلُّمِهِ نيلَ وظيفةٍ أو دراهم، أو قصدَ بعمله الصَّالح صرفَ وجوهِ النَّاس إليه فعمله مردودٌ عليه، لا يقبل الله منه شيئاً؛ لأنَّ الأصل الأوَّل الذي هو تجريد الإخلاص لله قد تخلَّف، فلا بُدَّ أن يكون قد استقرَّ في قلبك أنَّك لا تريدُ إلَّا التقرُّب إلى الله، أمَّا إذا كان هناك رياء أو إرادة حظٍّ من حظوظ الدُّنيا كرئاسة أو وظيفة فقد تخلَّف الإخلاص، وقد تكلَّم على ذلك الحافظ ابن رجب[1] فقالَ فيمن قصدَ بعملِهِ الصَّالح مصلحة دنيوية، وضرب لهذا أمثلة كمن تعلَّم العلم وبذل النَّفيس في تحصيله، وسهر اللَّيالي، وتعب في تحصيل العلم، ولكن قصد بهذا نيل وظيفة أو دراهم أو رئاسة، فقال: «هذا والله قَد باعَ جوهرةً عظيمة بدمنة بعير!»؛ يعني: بعت عملاً صالحاً عظيماً بدمنة بعير لا قيمة لها، فلو أخلصت نيَّتك لله حصل لك ما تريد، فما تريد يساق إليك، فالله لا يقبل أيَّ عملٍ أُشرك فيه معه غيره.

الأصلُ الثَّاني: تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، فلو كان عملك خالصاً لله تريد به وجه الله، لكن لَمْ يكُنْ على مقتضى ما جاء به الرَّسول ﷺ فعملك لا

(١) جامع العلوم والحكم (ص٦٥).

يقبلهُ اللهُ، وهذا معنى قوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[١]، وهذانِ الأصلان هما تحقيق شهادة: (أن لا إلٰه إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله)، فشهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله) تقتضي الإخلاص، وشهادة (أنَّ محمَّداً رسول الله) تقتضي أنَّ عملك على وفق ما جاء به الرَّسول ﷺ.



(١) رواهُ البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ (١٧١٨) من حديث عائشة ﵂.

۞ وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**مَن مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخلَ النَّارَ**»(١).

النِّدُّ: هو المثيلُ والشبيهُ والنظيرُ، فإذا مات الإنسان وقد جعل لله ندّاً يدعوه ويرجوه ويخافه فقد أشرك شركاً أكبر، وقد قال ابن القيِّم في «النُّونيَّة»(٢) في هذا المعنى:

والشِّرك فاحذرهُ فشركٌ ظاهرٌ ... ذا القسمُ ليس بقابل الغفرانِ
وهو اتِّخاذ النِّدِّ للرَّحمن أيّاً ... كان من حَجَرٍ ومن إنسانِ
يدعوهُ أو يرجوهُ ثُمَّ يخافُهُ ... ويحبُّهُ كمحبَّة الدَّيَّانِ

(**والشِّركُ فاحذره فشركٌ ظاهرٌ... ذا القسم**)؛ يعني: أنَّهُ قسمان، وهذا الشِّركُ الظَّاهر هو الذي نسمِّيه: (الأكبر)، (**ليس بقابل للغفران**)، ثُمَّ بيَّنه بأنَّه اتِّخاذ النَّدِّ سواء كان من حجر أو من شجر أو إنسان أو أيٍّ مخلوق جعلته مثيلاً لله.

فالله لا يغفر الشِّرك أبداً إلَّا بالتَّوبة منه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١]، كُلُّ هذا يدلُّ على أنَّ من مات على الشِّرك فمآله إلى النَّار لا محالة، أمَّا إذا تابَ فاللهُ يقبلُ توبةَ عبدِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٧).
(٢) (ص٢٢٠).

۞ ولمسلم عن جابرٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**مَن لقيَ اللهَ لا يشركُ بهِ شيئاً دخلَ الجنَّةَ، ومن لقيهُ يُشرِكُ بهِ شيئاً دخلَ النَّارَ**»(١).

من ماتَ على التَّوحيد سالماً من الشِّركِ قليلِهِ وكثيرِهِ، فهذا مآله إلى الجنَّة يدخلها في أوَّل وهلة إن كان سالماً من الكبائر، فإن كان له كبائر فهذا تحت المشيئة، إن شاء الرَّبُّ ـ سبحانه ـ غفرَ له بما له من الحسنات أو بمحض فضلِهِ ومنَّتِهِ وإحسانِهِ وأدخلَهُ الجنَّة، وإلَّا سيُعَذِّبه بالنَّار قدر جرائمه وذنوبه ثُمَّ مآله الجنَّة، كما تقدَّم في حديث أنس ﷺ: «**يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»(٢).

(**ومن لقيَ الله يشرك به شيئاً دخل النَّار**): إذا ماتَ الإنسان وقد جعل لله نِدًّاً يرجوهُ ويدعوهُ ويخافُهُ فهذا مآله النَّار؛ لأنَّهُ لا توحيدَ له، بل صرفَ محضَ حَقِّ الله لهذا المخلوق الضعيف، جعلَ يدعو ويندب عبد القادر أو العبَّاس أو ابن عبَّاس أو السَّيِّدة زينب، أو ما أشبه ذلك، وكُلُّ هذا من الأمور الباطلة التي ابتُليَ بها كثيرٌ من النَّاس، بل جعلوا يُعظِّمون من اتَّخذوهم أنداداً لله أشدَّ من تعظيم الله، فلو قُلتَ لَهُ: «احلف بالله»، حلف في هذه اللَّحظة.

وإذا قيل له: «احلف بسيِّدك» توقَّف، فلا يمكن أن يحلف به كاذباً مهما كان.

وهذا لِما وقرَ في قلبِهِ من تعظيمِ محلوفِهِ، هذا هو الشِّركُ الأكبرُ الذي لا يُغفر أبداً إلَّا بالتَّوبة منه.



(١) صحيح مسلم (٩٣).
(٢) سبق تخريجه.

بابُ
الدُّعاءِ إلى شهادَةِ أن لا إلهَ إلَّا اللَّه

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الآية [يوسف: ١٠٨]

وَعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا بعث معاذاً إلى اليمن قالَ لَهُ: «**إنَّك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكُنْ أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله** - وفي روايةٍ: **إلى أن يُوحِّدوا الله** -، **فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمس صلواتٍ في كُلِّ يوم وليلةٍ، فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنَّهُ ليس بينها وبين الله حجابٌ**» أخرجاهُ.

ولهُما عن سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قالَ يوم خيبر: «**لأعطينَّ الرَّاية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، يفتحُ اللهُ على يديهِ**».

فباتَ النَّاسُ يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها.

فلمَّا أصبحوا غَدَوا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يرجو أن يعطاها، فقالَ: «**أين علي بن أبي طالب؟**».

فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتِي به فبصقَ في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الرَّاية فقالَ: «**انفُذ على رسلِك حتَّى تنزِلَ بساحتهم، ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجِبُ عليهم من حَقِّ الله ـ تعالى ـ فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**» يدوكون: يخوضون.



بابُ
الدُّعاءِ إلى شهادَةِ أن لا إلهَ إلَّا اللَّه

لمَّا ذكر المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ التَّوحيدَ الذي من أجلِهِ خُلقَت الخليقةُ، ومن أجلِهِ أُرسلت الرُّسلُ، ومن أجلِهِ أُنزلت الكتبُ، ومن أجلِهِ جُرِّدت سيوفُ الجهادِ، ومن أجلِهِ حقَّت الحاقَّةُ ووقعت الواقعةُ، ومن أجلِهِ نُصبت الموازين، ومن أجلِهِ قامَ سوقُ الجنَّة والنَّار، ومن أجلِهِ صارَ النَّاسُ فريقين: فريقاً في الجنَّة وفريقاً في السَّعير.

ذكر بعد هذا فضلَ التَّوحيد وما للمُوحِّدين من الأجرِ والثَّواب الجزيل، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، ثُمَّ ذكر تحقيقَ التَّوحيد، ثُمَّ ذكر الخوف من ضِدِّهِ وهو الشِّرك.

وبعد هذا بقي على الإنسان أمرٌ واحدٌ، وهو: أنَّهُ إذا عرف الأمر الذي خلقه الله لأجله، وعرف فضل التَّوحيد، وكذلك حقَّق توحيده، وعرف ما يُنافي التَّوحيد، وابتعد عنه في نفسِهِ، وأدَّى ما عليه، بقيَ عليه أمرٌ آخر وراء ذلك كُلِّهِ وهو: الدَّعوة إلى الله، فلا بُدَّ أن يدعو النَّاس إلى الله، فبما أنَّهُ عرف التَّوحيد وعمل به، وعرف ما ينافي التَّوحيد وابتعد عنه؛ لا بُدَّ أن يدعو النَّاس إلى ذلك، ولهذا ذكر هذه الترجمة: (**باب الدُّعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**).

والدَّعوة هي طريقَةُ الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكذلك هي دعوة نبيِّنا محمَّد ﷺ؛ كما في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلا بُدَّ من الدَّعوة، ثُمَّ إذا تأمَّلت آيات الدَّعوة وجدتها أكثر بكثير من آيات الصَّوم والحجِّ، اللَّذينِ هما من أركان الإسلام، فتجد آيات الحجِّ: أربع آيات، وكذلك الصَّوم، أما الدَّعوة فكثيرة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]؛ أي: يوصي بعضكم بعضاً، يأمر بعضكم بعضاً بالحَقِّ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، والآيات في هذا كثيرة جدّاً، كُلُّها تحثُّ على الدَّعوة وترغِّب فيها.

ثُمَّ إذا تأملنا سيرةَ النبيِّ ﷺ ودعوتَهُ، وكذلك دعوة الصَّحابة، تجدهم صبروا على ما أصيبوا في سبيل الدَّعوة، فهذا النبيُّ ﷺ جعل يدعو النَّاس إلى عبادة الله وحدَهُ، ويأمرهم بتركِ الأوثانِ، ويأمرهم بإفراد الله بالعبادة، حتَّى إنَّ عُقبةَ بنَ أبي معيطٍ أخذ النبيَّ ﷺ من رأسِهِ وخنقَهُ(١)، وبصقَ أميَّةُ بنُ خلفٍ في وجهِ النبيِّ ﷺ(٢)، كُلُّ هذا في سبيل الدَّعوة، ولكن كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وهذا أبو بكر رضي الله عنه لمَّا قام يدعو النَّاس في المسجد الحرام، وكانت قريش ذلك الوقت على شِدَّتها وشرِّها وتمسُّكها بكفرها فضربوه حتَّى غُشي عليه، فلم يَعرفْ أنفَهُ من وجهِهِ، حتَّى جاءت قبيلته بنو تيم فحملوه في ثوب لا يشكُّون أنَّهُ قد مات(٣)، كُلُّ هذا في سبيل الدَّعوة، فالدَّعوة أمرٌ لازمٌ، كُلٌّ بحسَبِهِ.

والذي فعلَ جريمة ننصحُهُ برفقٍ ولينٍ، ونعمل الطُّرق التي ينبغي

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٨٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) ينظر: الروض الأنف (٣/ ٥٣).
(٣) ينظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم (٦/ ٣٤٩)، أسد الغابة (٧/ ٣١٤).

اتِّخاذها، ولا ينبغي للدَّاعية أن يتسرَّب اليأسُ إلى نفسِهِ، ويقولُ: «النَّاس انحرفوا وفرَّطوا فلا فائدة من استصلاحهم»، بل عليه أن يدعو ويجد ويجتهد، وإذا علِمَ اللهُ منه صدق النِّيَّة فإنَّ الله يثيبُهُ ويعطيهِ الأجرَ الجزيلَ، كما في الحديث: «**فوالله لأن يهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النَّعم**»(١)، والحياةُ ما هي إلَّا أيَّام معدودة، فينبغي أنَّ الإنسان يقضيها في هذا السَّبيل، أوَّلاً في نفسه فيتمسَّك بدين الله وشرعه، ثُمَّ يدعو النَّاس على حسب قدرتِهِ، ولا يقول: «ما لي وللنَّاس؟!» فالله يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]؛ أي: يدعو النَّاس ويرشدهم وهو في نفسه صالحٌ وعاملٌ بما علم.

ثُمَّ إنَّ الدَّعوة لا يمكن أن تُقبل حتَّى يقوم بها الإنسان نفسُهُ، فيعمل بما يدعو إليه؛ لأنَّ النَّاس متى رأوك تعمل بما تدعو إليه قبلوا منك، أمَّا إذا رأوك تأمرهم وأنت تخالِفُ ما تأمر به فلا يكون لكلامك أثر.

وكان النَّبيُّ ﷺ يعرِضُ نفسَهُ على القبائل ويأتيهم في منازلهم، ويقول: «**من يؤويني حتى أُبلِّغ رسالات ربي؟**»(٢).

وينبغي البدء بالأهمِّ قبل المهمِّ، فأعظم ما يدعو إليه الإنسان هو الدَّعوة إلى التَّوحيد والعقيدة السَّليمة التي درج عليه سلفنا الصَّالح ـ رحمهم الله ـ، لا بُدَّ من تنبيههم وإرشادهم، وهذا غرض المصنِّف حيث عقد هذا الباب فقال: **(باب الدُّعاء إلى شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله)**.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٢/٤٦) (١٤٤٥٦)، وابن ماجه (٦٢٧٤) من حديث جابر ﷺ، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

۞ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ الآية [يوسف: ١٠٨].

يقول الله لعبده ورسوله محمَّد ﷺ: (﴿قُلْ﴾) يا محمَّد (﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾)؛ أي: طريقتي التي أنا عليها وهي الصِّراط المستقيم، عبادة الله وحده لا شريك له، أُرشدُ النَّاس وأُبيِّن لهم وأحثُّهم وأرغِّبهم على سلوك هذا السَّبيل الذي أنا عليه.

(﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾)؛ أي: على علم ويقين من ذلك.

(﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾): يدعو إليه ـ أيضاً ـ أتباعي، فأنت متى دعوت إلى السَّبيل الذي جاء به الرَّسول ﷺ وهو الصِّراط المستقيم فأنت من أتباع الرَّسول ﷺ.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ أي: أُنزِّه الله وأُجِلُّهُ وأُعظِّمُهُ من أن يكون له شريكٌ أو مثيلٌ أو نديدٌ في عبادته أو في أسمائه وصفاته.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨]: بل أفارقهم، قال المصنِّف في المسائل: فيه إبعاد المسلم عن المشركين؛ لأنَّ المخالطة تؤثِّر، فمتى خالطت المشرك ولم تنكرْ عليه فإنَّك ستتأثَّر فيكون قلبك حينئذٍ لا يُغيِّر منكراً ولا يعرف معروفاً، حتَّى ولو كنت أنت في نفسك لا تُشرك ولو كنت في نفسك صالحاً، لكن متى واكلتَهُ وجالستَهُ ورافقتَهُ فأنت حينئذٍ يُخشى أن تكون مثله وإن لم تكن مثله في العقيدة، فالذي يفعل هذا مجرمٌ بهذا الصَّنيع، وعليه إثمٌ كبيرٌ، فلا بُدَّ من مفارقته؛ لأنَّ مخالطتَهُ لا بُدَّ أن تؤثِّر عليك بأيِّ حالٍ، كيفَ والنبيُّ ﷺ يقول: «**مَن تشبَّه بقومٍ فهو منهم**»[١]، أقلُّ ما يفيدُهُ هذا

(١) رواهُ الإمام أحمد (٩/ ١٢٣) (٥١١٤)، وأبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفي إسناده: عبد الرَّحمٰن بن ثابت بن ثوبان تكلَّم فيه جماعةٌ، وقد جوَّد إسنادَهُ أبو العبَّاس ابن تيمية في (الاقتضاء ١/ ٢٦٩)، ورواه معمرٌ في جامعه (٢٠٩٨٦) =

الحديث التحريم، وإلَّا فظاهرُهُ يفيدُ الكفر، وتكلَّم ابن تيميَّة على هذا الحديث كلاماً بديعاً حاصلُهُ: أنَّك متى تشبَّهت بهم، بأن تعلَّمت لغتهم ـ مثلاً ـ، أو شابهتهم باللِّباس أو بشيءٍ ممَّا ينفردون به، فإنَّهُ ينجذِبُ قلبك نحوَهُم، ثُمَّ ضرب لهذا أمثلة: كما لو كنت في بلاد أوروبا ـ مثلاً ـ أو غيرها، وأنت تجيدُ الإنجليزية أو الفرنسية، فعندما تجِدُ شخصاً يجيدُ الإنجليزية فإنَّ قلبك ينجذِبُ إليه؛ لأنَّهُ جمعت بينكما اللُّغة وربطت بينكما بنوعٍ من التشابه، كما لو وجدت في بلاد أخرى شخصاً مشابهاً لِلباسك، كُلُّهم يلبسون بنطالاً إلَّا أنت، تلبس هذا اللِّباس، وأنت في بلادهم رأيت شخصاً يلبسُ لباسَكَ فإنَّك تميل إليه وتودُّ أن تُكلِّمه لأجلِ أنَّهُ جمعَ بينكُما مجرَّدُ اللِّباس، لهذا قال ابن تيميَّة: «لا ينبغي مشابهتهم بكُلِّ ممكنٍ»[(١)].

أمَّا بالنسبة لتعلُّم لغتهم، فهذا تكلَّم العلماء فيه، ومنعوه إلَّا في حالات الضرورة، كالإمام يحتاج من يكتب له، أو من يقرأ له، وإن كان بعض المتأخرين يرى الجواز مطلقاً، فإنَّ شخصاً ألَّف رسالةً سمَّاها: «الدلائل البيِّنات في جواز تعلُّم اللُّغات»[(٢)]، أجازها مطلقاً، أمَّا الشيخ تقي الدِّين وابن القيِّم وكثير من المحقِّقين، فهم لا يجيزون تعلُّمها إلَّا حيث اقتضت الحاجة لذلك وإلَّا فلا، كما نبَّه على هذا في كتابه: «اقتضاء الصِّراط المستقيم»[(٣)].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨] بل أفارقهم وأبتعد عنهم؛ لأنَّ من سلك سبيلهم ففيه شعبةٌ من شعبهم مقلٌّ ومستكثرٌ، هذا هو معنى ما قالَهُ

= موقوفاً على أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ﷺ، ورجالهُ ثقاتٌ إلَّا أنَّ فيه انقطاعاً.

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٣٠).

(٢) هو: الشيخ المؤرِّخ عبد العزيز بن أحمد الرشيد النجديُّ ثُمَّ الكويتي، ورسالته هذه هي رَدٌّ على بعض علماء الأحساء، وقد طبعت قديماً، توفي ﷺ في مطلع ذي الحجة ١٣٥٦هـ.

(٣) (١/ ٦٠).

جمعٌ من العلماء الذين تكلَّموا في الدَّعوة وما يترتَّب عليها، فقالوا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] الدَّعوة مستلزمة لمعرفة ذلك السَّبيل، إذ لا يمكنك أن تدعو إلى هذا السَّبيل إلَّا وأنت عالمٌ به، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: بالعلم، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] بالرِّفق واللين، ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: أهل الكتاب أو غيرهم، ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] لأنَّهُ أدعى للقبول، كما قال الله كما في قصَّة موسى وهارون حيث بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤] لكن قد تقول: هذه الآيات تدلُّ على أنَّ الدَّاعية يدعو النَّاس برفقٍ ولينٍ وتؤدة، لكن إذا لم يؤثِّر ذلك بل تمادى من يدعوه في الطغيان والعصيان ولم ينفع فيه ذلك اللِّين، الذي قال الله فيه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فهل تسقط الدَّعوة حينئذٍ؟

نقولُ: لا، بل الآية الأخرى بيَّنت جواب هذا السُّؤال، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الذين من جملتهم محمَّد ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥] ولم يقل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٢] لأنَّ المقام مقام قوَّة، فلا بُدَّ من أطره على الحَقِّ أطراً، ولا بُدَّ من الضَّرب على يده إذا لم تنفع فيه الموعظة والدَّعوة، لا بُدَّ من إجباره ومنعه من تعاطي هذا الإجرام، هذا هو معنى الآية، وهذا يكون للسُّلطان، والشَّريعة أمرتنا بالسَّمع والطاعة لولاة الأمور كما في قوله ﷺ: «**اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك**»[1]؛ لأنَّ ضربه وظلمه أسهل ممَّا لو تُرك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فما أمرنا بالسَّمع والطاعة إلَّا من أجل قوَّته، فلا بُدَّ من سُلطان، كما قال حسان رضي الله عنه:

دعا المصطفى دهراً بمكَّة لم يُجَبْ ... وقـد لانَ مـنـهُ جـانـبٌ وخـطـابُ

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

فلمَّا دعا والسَّيف صلتٌ بكفِّه ... له أسلموا واستسلموا وأنابوا

فالأفراد والعلماء وطلبة العلم عليهم البيان وعليهم الإرشاد والإيضاح لولاة الأمور ولغير ولاة الأمور، كُلٌّ بحسبه، فلو قام كُلٌّ بما عليه أمراً ونهياً لاستقرَّ الخيرُ فينا، وامتنع فشوُّ المنكر بيننا، فإنَّ الله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، ولا تقوم ملَّة إلَّا بالدَّعوة إليها، فنجد المذاهب الباطلة كالقاديانيَّة والماسونيَّة والبهائية ما قامت وانتشرت - مع أنَّها باطلة فاسدة - إلَّا بالدعوة إليها، موَّهوها وأدخلوها على العامَّة، حتَّى انتشرت وكثرت، فدخلت في كثير من الأقطار، وما اختلَّ عرشُ مِلَّةٍ صحيحةٍ ولا تداعت أركانُها إلَّا بسبب عدم قيام أهلها بالدَّعوة إليها وتبصير الناس بها.

ولذا نقرأ في كتب المستشرقين ما يقوله (زويمر) - وهو رئيس إرساليات التبشير للنصارى - كان في مصر ثُمَّ في البحرين، وكان له دورٌ كبيرٌ في الدَّعوة إلى النَّصرانية ودورٌ كبيرٌ في الحطِّ على الإسلام والقضاء على المسلمين، وكان يبعث الدُّعاة من النَّصارى في البلدان الإسلامية، وأخذ مُدَّة يبعثهم، وينفق عليهم الأموال التي يأخذها من حكوماتهم، ثُمَّ جمعهم وقال: ماذا عملتم؟

قال شخصٌ: أنا نصَّرتُ مسلماً.

وقال آخر: أنا نصَّرتُ اثنين.

وقال آخر: أنا نصَّرتُ ثلاثة، فدعا لهم، وقال: بارك فيكم المسيح، ولكن لم تخدموا الغرضَ الذي نريده، ولم تنتبهوا للأمر الذي تريده البلاد المسيحيَّة، لا نريد أن يخرج المسلمون من الإسلام، هذا لا يمكن أن يحصل إلَّا من إنسان لم يدرك أبويه ولم يكن له من يعلِّمه الإسلام، أو إنسان مستهترٍ بدينهِ ولا يهمه إلَّا لقمة العيش فنتمكَّن من ذلك، لكن الذي نريده منكم أن تدخلوا الشُّكوك على المسلمين حتَّى يكونوا حيارى في دينهم، فبهذا تستعمرون البلاد المحمَّدية؛ بحيث إذا تعلَّم الولد من المسلمين بقي حيران شاكَّاً، إن تبوأ مركزاً ما ففي سبيل شهواته، وإن جمع مالاً ففي

سبيل شهواته، فيصبح لا صلة له بخالقه ولا معرفة له بأُمَّته، فهذا الذي نريدُهُ منكم.

ثُمَّ قال في خطبة أخرى: «إنَّ الإسلام كالشَّجرة، يجب قطعها بأغصانها»، يعني: ربُّوا أبناء المسلمين على ما نريد، وهم الذين يقطعون شجرة الإسلام لا أنتم، هذا قولهم.

ويقول أحد الفرنسيين: «يجِبُ بذرُ الشُّكوك في قلوب نشء المسلمين ما داموا في مدارسهم»، فإذا كانوا صغاراً لا بُدَّ أن ينشأوا على إيجادِ شُبَهٍ تعترضُ لهم دون دينهم ودون إسلامهم، حتَّى يستهتروا بالإسلام ولا يعرفون لهم ديناً بسبب هذه الشُّبه».

ويقول شخص آخر ألَّف كتاباً سمَّاه: «الغارة على العالم الإسلامي»: «ينبغي للمُبشِّر النَّصراني عندما يأتي للمسلمين ويريد أن يلقي كلمة أن ينظر إن كان عنده طلبة علم وعلماء المسلمين، فيسلك في محاضرته مسلك التاريخ فقط، فلا يتجاوز التاريخ، وإذا لم يكن عنده إلَّا العامة وَلَمْ يكن عنده أحدٌ من أهل العلم، فليُحَسِّن الإسلامَ ويذكر فضلَهُ ثُمَّ يُوقع الشُّبه ليظهرَ أمامهم مظهرَ المنصفِ المحِقِّ، فيقول مثلاً: ما أجلَّ الإسلام وما أحسنَهُ إذ يقول: «المشقَّةُ تجلِبُ التيسيرَ»، وما أعظم الإسلام وما أجلَّه حيث يقول: «الضَّرورات تبيح المحظورات».

وما أجلَّ الإسلام وما أحسنَ الإسلام حيثُ يقول: «درءُ المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح»؛ لأنَّهُ لو هاجم الإسلام قاموا عليه، لكن لا بُدَّ من مقدِّمة كاذبة، ثُمَّ يقول: إلَّا أنَّ الإسلام أخطأ في كون الرَّجل يتزوَّج المرأة باتِّفاق بينهما وبرضاهما، ثُمَّ يُطلِّقها دون اختيار منها، كيف لا يكون مثل البيع لا يُفسخ إلَّا عن تراضٍ؟!

كذلك الإجارة لا تُفسخ إلَّا باتِّفاق المتعاقدين، فكيف ينفسخ النِّكاح من جهةٍ واحدةٍ من دون رضى الآخر؟!

وأخطأ الإسلام في كونه فضَّل الذَّكر على الأنثى في الميراث حيث

يقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، الأنثى ضعيفةٌ مسكينةٌ، وكلاهما يمتُّون إلى الميتِ بصلةٍ واحدة، فما الذي فضَّل الذَّكر وجعل له سهمان، وللمرأة سهمٌ، وهي أضعفُ، وهذا القويُّ النشيطُ له سهمان؟!».

وهم لا يزالون يحطُّون على الإسلام من هذا القبيل، أمَّا المسلمون فهم نيامٌ، تجِدُ بعضهُم يسبُّ بعضاً، ويأكلُ بعضهم بعضاً، وبعضهم ـ أيضاً ـ لا يبالي بدينه، وبعضهم لا يبالي بعقيدته، وهذا من الامتحان.

وهذا معنى قول المصنِّف: (**باب الدُّعاء إلى شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله**)، إذا كان الإنسان موحِّداً فإنَّهُ يدعو إلى إزالة العِلَّة التي هي فيه، إمَّا معصية ارتكبها أو بدعة فعلها، فينبِّهه ويدعوه ويحثُّه، وإن غلب على ظنِّك أنَّهُ لا يقبل فينبغي دعوته وتنبيهه وإرشاده، إذا كان من طلبة العلم تزيل شبهته، أو تبحث عن شبهته، وإن كان من العامَّة فترشده وتحثُّه وترغِّبه، فأنت إذا رغَّبته وأنا جئتُ بعدك فدعوته، وجاء الثَّالث بعدي، ثُمَّ الرَّابع فلا بُدَّ أن يتأثَّر، إذا تكاتفنا جميعاً، فنكون بهذا من أتباع الرُّسل، ومن أتباع النبيِّ ﷺ حيث يقول الله: (﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾) ـ أي: على علم ويقين ـ (﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾) ويدعو إليه أتباعي، فأتباعه هم الذين يدعون إلى هذا السَّبيل الذي أناره النبيُّ ﷺ وأوضحه لأُمَّته وبيَّنه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]: المشرك مهما عمل فالله لا يقبل منه أيَّ عمل ما دام مشركاً، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، عمارة مساجد الله بالطَّاعة وبتلاوة القرآن والصَّلاة والأعمال الصَّالحة، فما دام أنَّهُ مشركٌ فعمله مردود عليه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

ولا ينفع النُّطق بالإسلام إذا لم يحقِّق شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله، والمسلمون اليوم المنتسبون للإسلام كلٌّ منهم يقول: «أنا مسلم»، ويكتفي بمجرَّد ما كتب في هويته وبطاقته: (الدِّيانة مسلم)، وربَّما أنَّهُ لا يعرف الله طرفةَ عينٍ، فهل هذا مسلم؟!

أقلُّ أحواله أنَّه لا يعرف الصَّلاة، أو يعبد القبور أو يستبيح الخمر، أو يستبيح الزِّنا، هذا ليس مسلماً؛ لأنَّ الإسلام ليس مجرَّد انتساب، وإنَّما الإسلام الحقيقي هو العمل بمقتضى شهادة: (أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله).

۞ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا بعث معاذاً إلى اليمن قالَ لَهُ: «**إنَّك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكُنْ أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة «أن لا إله إلا الله»** ـ وفي روايةٍ: **إلى أن يُوحِّدوا الله** ـ، **فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمس صلواتٍ في كُلِّ يوم وليلةٍ، فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدَقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنَّهُ ليس بينها وبين الله حجابٌ**» أخرجاهُ(١).

هذا الحديث عظيمٌ، جليلُ القدرِ، كثيرُ الفوائدِ، **فمن فوائدِهِ**:

أوَّلاً: أنَّهُ يتعيَّنُ على الإمام أنْ يبعثَ الدُّعاةَ إلى النَّواحي يُفقِّهون النَّاس ويُعلِّمونهم ويُبصِّرونهم في دينهم، فواجبُ الإمام على الرَّعية السَّمع والطاعة، وواجبُ الرَّعية على الإمامِ أن يقومَ بشؤون المسلمين ويُعلِّمهم ويبعث الدُّعاة إليهم؛ ليُفقِّهوهم ويخبروهم بما أوجب الله عليهم، كما فعل رسول الله ﷺ؛ فإنَّهُ كان يبعث الدُّعاة إلى النَّواحي، فقد بعث معاذاً إلى اليمن، كُلُّ هذا ليُعلِّمهم التَّوحيد وما أوجب الله عليهم.

ثانياً: فيه دليلٌ على فضل معاذ رضي الله عنه، فهو من أفاضل الصحابة وعلمائهم، وقد ورد أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أعلمُ أُمَّتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل**»(٢)، ووردَ عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**يحشر معاذٌ أمام العلماء**

---

(١) صحيح البخاري (١٤٩٦)، صحيح مسلم (١٩).

(٢) رواهُ الإمام أحمد (٢٠/٢٥٢) (١٢٩٠٤)، وابن ماجه (١٥٤) من حديث خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنسٍ، بهِ مرفوعاً.

وإسنادُهُ قويٌّ، إلَّا أنَّهُ اختلف فيه على خالد، فوصلَهُ عبدُ الوهَّاب الثقفيُّ، وأرسلَهُ غيره. =

برتوة»(١)؛ أي: برمية حَجَرٍ، هذا يدلُّ على فضل معاذ، وممَّا يدلُّ على فضله أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه إلى اليمن مُعلِّماً وقاضياً وقائماً مقام النبيِّ ﷺ.

ثالثاً: أنَّ الدَّاعية ينبغي أن يكون على مستوى لائق بالمدعوين، فإنَّ المدعوين هنا عندهم علمٌ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّكَ تأتي قوماً من أهل الكتاب**» ـ وهم اليهود والنَّصارى ـ عندهم علمٌ ومجادلةٌ فاستعدَّ لمناظرتهم، وتهيأ لمجادلتهم بالأدلَّة، بخلاف مشركي العرب عُبَّاد الأوثان، فإنَّهم جهلةٌ لا علمَ عندَهُم، أمَّا هؤلاء فإنَّهم عندهم شيءٌ من علوم التوراة والإنجيل وعلم الأوائل.

رابعاً: دلَّ الحديث على أنَّ الدَّاعية إذا بُعِثَ إلى هؤلاء يكون على أهبة واستعداد لمناظرتهم ويتهيأ للأجوبة على شُبهِهم، فيعرف شبههم ويفكِّر في الجواب عنها حتَّى يدحض حججهم ويُبيِّن لهم الحَقَّ.

خامساً: فيه دليلٌ على أنَّ أهمَّ المهمَّات وأوَّل الواجبات هو معرفة شهادة «أن لا إله إلَّا الله»، لا كما يقول المتكلِّمون أنَّ الواجب الأوَّل هو: النَّظر، أو: اعتقاد أنَّ الله هو القادر على الاختراع، هذا كلُّه باطلٌ، نعم الله قادرٌ على الاختراع ولكن هذا يُقِرُّ به المشركون، كلُّهم معترفون أنَّ الله هو الذي يخلق ويرزق ويدَّبر الأمور ويتصرَّف بخلقِهِ بما تقتضيه حكمتُهُ، لا ينكر هذا أحدٌ، لم ينكرهُ إلَّا شُذَّاذٌ قلائلُ من بني آدم، إنَّما المراد: فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه

= ولا يصِحُّ منهُ موصولاً إلَّا قوله ﷺ: «**وإنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ أمينٌ وأمينُ هذه الأُمَّة أبو عبيدة**»، وهذا القدر هو الذي اقتصر عليه الشيخان (صحيح البخاري٤٣٨٢، صحيح مسلم ٢٤١٩)، والله أعلم.

(١) رواهُ الإمام أحمد (١/٢٦٣) (١٠٨) من حديث شريح بن عبيد وراشد بن سعد، عن عمر بن الخطَّاب، به مرفوعاً، وهو منقطعٌ.
ورواه الإمام أحمد ـ أيضاً ـ في (فضائل الصحابة ٢/٩٢٧) (١٢٨٧) من طريق شهر بن حوشب، عن عمر، به، وإسنادُهُ منقطعٌ ـ أيضاً ـ.
وأخرجه الطبرانيُّ في (الصَّغير ٥٥٦) من مسند جابر، به مرفوعاً، ولا يصِحُّ؛ فيه مندل بن عليٍّ، ضعيفُ الحديث.
وأخرجه في (الكبير ٢٠/٢٩) من حديث محمَّد بن كعب القرظي، به مرسلاً.

شهادة «أن لا إلٰه إلَّا الله»، فإنَّها تقتضي خلع ما يعبد من دون الله وإثبات العبادة له وحده لا شريك له.

سادساً: فيه دليلٌ على أنَّ هذه الكلمة تعصمُ الدَّمَ والمالَ مع بقية أركان الإسلام كما في حديث: «**أمرتُ أن أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا: «لا إلٰه إلَّا الله»، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلَّا بحَقِّها**»(١)، فدلَّ على أنَّ لها حقوقاً، فلا بُدَّ أن يأتي بمعنى شهادة: (أن لا إلٰه إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله)، ويأتي بحقوقها ومكمِّلاتها، فلو جاء بها نطقاً ولكن جاء بما يناقضها عملاً فلا تنفعه، وهذا في مشركي العرب الذين يعرفون معناها، فإنَّ مشركي العرب يعرفون معنى (لا إلٰه إلَّا الله)، يعرفون أنَّها دلَّت على بُطلان ما يعبد من دون الله، وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وهم يعبدون الأشجار ويتقرَّبون إليها، كالعُزَّى بوادي نخلة في مكَّة، فهموا من هذه الكلمة أنَّها تثبت العبادة لله، وأنَّهُ ليس هناك وسائط بين الخلق والخالق، وهذه الكلمة وهي شهادة: (أن لا إلٰه إلَّا الله) تُبطل أيَّ واسطة بين العبد وبين ربِّه، بل تتصل بالله بدون واسطة.

كما قالوا ـ أيضاً ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهم معترفون أنَّ الخلق والرزق والنَّفع والضُرَّ من الله ـ سبحانه ـ، لكن شهادة ألَّا إلٰه إلا الله تقتضي إثبات العبادة، وهذا الذي يُدخِلُ العبدَ في الإسلام، إلَّا إذا كان تكفيرُهُ ليس بسبب هذا بل بأمرٍ آخرَ، فلو شهد (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله) ولكن جعل مع الله إلهاً آخر واسطة بينه وبين الله فإنَّهُ قد جاء بما يبطل شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله) ويناقضها؛ أو زعم أنَّ لله صاحبة أو أنَّ لله ولداً، فهذا لا يكفي في إسلامه وتوبته مجرَّد النُّطق بشهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله)، بل لا بُدَّ أن يتبرأ من الشيء الذي صار لأجلِهِ مُرتدّاً، أو جحد أسماء الله وصفاته، أو

(١) رواه البخاريُّ (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

اعتقد إباحة أمرٍ محرَّم مجمعٍ على تحريمِهِ، فلا يكفي أن ينطق بالشَّهادتين، بل لا بُدَّ أن يُصرِّحَ بالأمر الذي صار من أجله مُرتدًّا، ويتبرأ منه، ولهذا عقد العلماء في كل مذهب: (باب حكم المرتد)، وهو الذي يكفر بعد إسلامه؛ كما هو معروف.

(وفي رواية: **إلى أن يوحِّدوا الله**): فيه الرَّدُّ على المتكلمين كما قلنا، فإنَّهم يقولون: أوَّل ما يجب على العبد النظر، نقول: لا، بل أوَّل ما يجِبُ على العبد شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)، ثُمَّ لا يكفي مجرَّد النطق، بل لا بُدَّ أن ينطق بها ولا بُدَّ أن يعمل بمعناها، ولا بُدَّ أن يعرف مقتضاها؛ فإنَّ العبادة لها شروطٌ، فلا بُدَّ أن تقع العبادة من العابد ذالّاً خاضعاً لمعبودِهِ ممتثلاً لأوامرِهِ، منتهياً عن نواهيه، كما قال ابنُ القيِّم[1]:

وعبادة الرَّحمٰن غاية حبِّهِ ... مع ذُلِّ عابده هما قطبانِ
وعليهما فلك العبادة دائرٌ ... ما دار حتَّى قامت القطبانِ
ومدارُهُ بالأمرِ أمرِ رسولِهِ ... لا بالهوى والنَّفسِ والشَّيطانِ

قال: (**فإن أطاعوك**) يعني: قبلوا منك هذه الشَّهادة ونطقوا بها وعملوا بمقتضاها، (**فأعلمهم**) أنَّ هناك أمراً آخر وهو: (**أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللَّيلة**): هذا يدلُّ على أنَّ الدَّاعية يبدأ بالأهمِّ قبل المهمِّ، وأنَّه لا ينبغي أن ترى الرَّجل ارتكب الكبيرة وتسكت وتنكر عليه الصغيرة، لا، ولكن نبِّهه على الكبيرة، فمثلاً: لو رأيت رجلاً ترك الجماعة ـ وهي شرطٌ في صحَّة الصَّلاة؛ كما ذهب إليه ابنُ حزمٍ وابنُ عقيلٍ وابنُ تيميَّة وابنُ القيِّم[2]، أو واجبةٌ؛ كما ذهب إليه الحنابلة[3] ـ، ورأيته لا يتنفَّل، فهل تنكر عليه وتقول له: لماذا لا تتنفَّل؟!

---

(١) الكافية الشَّافية (ص٤٣).
(٢) وهذا القول رواية عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وهي من المفردات، ينظر: المحلَّى (٤/ ١٨٨)، الفروع (٢/ ٤٢٠)، الإنصاف (٤/ ٢٦٥)، مجموع الفتاوى (١١/ ٦١٥ ـ ٢٦/ ٢٢٣)، كتاب الصَّلاة لابن القيِّم (ص٢٤٦).
(٣) في مشهور المذهب، ينظر: الإنصاف (٤/ ٢٦٥)، كشَّاف القناع (٣/ ١٤١).

الرَّسول ﷺ لم يقل لمعاذٍ: «مرهم فليُصلُّوا، مرهم فليزكُّوا، مرهم فليصوموا» لا، بل لا بُدَّ من تصحيح العقيدة أوَّلاً وهي: شهادة **(أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله)**؛ لأنَّ غيرها ينبني عليها؛ هذا هو الأساس في أركان الإسلام، فمتى تخلَّفت الشَّهادة أو تخلَّف معناها أو تخلَّف العملُ بمقتضاها، فلا تنفع الصَّلاة ولا غيرها.

ودلَّ قولُهُ: **(فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللَّيلة)** ـ كما قال بعضهم ـ على أنَّ الكفَّار غير مخاطبين بفروع الشَّريعة، ولا دلالة عليه، بل الصَّواب أنَّ الكُفَّار مخاطبون بفروع الشَّريعة، فلو قلت: كيف يُخاطبون بالفروع وهم لو عملوا بها لم تقبل منهم، فمثلاً الصوم: لو صام لا يقبل منه؛ لأنَّه كافرٌ، أو حجَّ لم يصحَّ حجُّهُ؛ لأنَّه كافرٌ؟!

نقول: نعم مخاطبون بفروع الشَّريعة ولو عملوا بها لم تقبل منهم؛ لأنَّهم مطالبون بالدُّخول في الإسلام والعمل بمقتضى شهادة **(أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)**.

وفيه دليلٌ على أنَّ الواجب هو خمس صلوات في اليوم واللَّيلة، وأنَّ الوترَ ليس بواجبٍ، فالوترُ سُنَّةٌ مؤكَّدَةٌ.

قال الإمام أحمد: «المداوم على ترك الوتر رجلُ سوءٍ، لا ينبغي أن تقبل شهادتُهُ»(١)، واستدلَّ بعمومات منها: **«من لم يوتر فليس منا»**(٢).

---

(١) المغني (٢/ ٥٩٤).

(٢) رواهُ الإمام أحمد (١٥/ ٤٤٧) (٩٧١٧)، وابنُ أبي شيبة (٤/ ٥٠٥) (٦٩٣٢) من حديث خليل بن مرَّة، عن معاوية بن قرَّة، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
ولا يصحُّ، خليل منكر الحديث، ومعاوية لم يسمع من أبي هريرة.
ورواه الإمام أحمد ـ أيضاً ـ (٣٨/ ١٢٧) (٢٣٠١٩)، وأبو داود (١٤١٩) من طريق عبيد الله أبي المنيب العتكي، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، به مرفوعاً.
ولا يصحُّ، أبو المنيب ليِّن الحديث، وقد ساق ابن عديٍّ (الكامل ٥/ ٥٣٢) هذا الحديث من جملة مناكيره.

وبقوله ﷺ: «**أوتروا يا أهل القرآن**»[(١)]، إلى غير ذلك من الأحاديث.

والصَّلاة ذكرها في هذا الحديث عقب الرُّكن الأوَّل الأعظم، ممَّا يدلُّ على أنَّ الصَّلاة هي أعظم ركن بعد الشهادتين، **وسُمِيَّت الصَّلاةُ «صلاةً»**؛ لأنَّها صلةٌ بين العبد وربِّهِ، أما ترى أنَّك إذا قمت تُصلِّي وأردت أن تكبِّرَ تكبيرة الإحرام قائلاً: الله أكبر، ترفع يديك إشارة إلى كشف الحجاب بينك وبين ربِّك، كأنَّك مستشعرٌ عظمةَ من قُمت بين يديهِ، وتهيأت لخدمته، ولاحظ قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، هذا الخطاب كأنَّك وقفت بين يديه بعد حمدك له وتمجيدك له في قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

قال العلماء: هذا فيه حسن أدب، فمن كانت له حاجة عند شخص فينبغي أن يقدِّم بين يدي حاجته شيئاً من الثَّناء على هذا الشَّخص بذكرِ محاسنِهِ ثُمَّ يتقدَّم بحاجته؛ لأنَّ الله علَّمنا أن نحمدَهُ أوَّلاً، ونمجِّدَهُ ونثني عليه ثُمَّ نطلب حاجتنا.

وللصَّلاة من المزايا والخصائص ما ليس لغيرها من بقيَّة شرائع الإسلام:

أوَّلاً: الزَّكاة لا تجب إلَّا مرَّة في السَّنة، ثُمَّ هي لا تجِبُ إلَّا على الأغنياء، والصَّومُ لا يجب إلَّا مرَّة في السَّنة، ثُمَّ هو لا يجب إلَّا على القادر، والحجُّ لا يجِبُ إلَّا مرَّةً في العمر، ثُمَّ هو لا يجب إلَّا على المستطيع.

أمَّا الصَّلاة فتجبُ في اليوم واللَّيلة خمس مرات على المريض وغيره والمسافر والمقيم ممَّا يدلُّ على عظم شأنها.

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (٢/٤١٣) (١٢٦٢)، وأبو داود (١٤١٦)، والتِّرمذيُّ (٤٥٣)، والنسائيُّ (١٦٧٥)، وابن ماجه (١١٦٩) من طريق أبي إسحاق ـ وهو السَّبيعي ـ عن عاصم بن ضمرة، عن علي، به مرفوعاً.
قال التِّرمذي: «حديثٌ حسنٌ»، وعاصمٌ مختلفٌ فيه، وقد أشار إلى إعلالِ الخبر الحافظ ابن عبد الهادي في المحرَّر (ص٢٣١).
ورواه ابن ماجه (١١٧٠) وغيره من حديث عمرو بن مرَّة، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود، به.
وقد أعلَّهُ الدَّارقطنيُّ وذكر أنَّ المحفوظ إرسالُهُ، يُنظر: العلل (٥/٢٩١).

ثانياً: الصَّلاة تؤدَّى جماعة، يؤدِّيها المسلمون منتظمين صفوفاً خلف إمامهم، فلا يوجد شيءٌ من شعائر الإسلام يؤدَّى على هذه الكيفية، بل كُلٌّ يؤدِّي عبادته منفرداً، لا ترتبط بعبادة الآخر، فحجُّكَ منفردٌ، وصومُكَ منفردٌ، وزكاتُكَ منفردةٌ، بخلاف الصَّلاة؛ فإنَّ المسلمين يجتمعون في مكانٍ واحدٍ صفّاً هذا بجانب هذا، هذا منكبُهُ محاذٍ لهذا، يؤدُّونها منتظمين صفوفاً خلف الإمام، وهذا يدلُّ على عظمها وعظم شأنها.

ثالثاً: الرَّسولُ ﷺ أمرنا أن نُعلِّمها صبياننا إذا بلغوا من السِّنِّ سبع سنين، فقال: «**مروا أبناءكم بالصَّلاة لسبع**»[1]، ولم يقل: «مروا أبناءكم بالصَّوم لسبع»، أو: «مروا أبناءكم بالحجِّ لسبع»، بل قال: «**مروا أبناءكم بالصَّلاة لسبعٍ، واضربوهم عليها لعشرٍ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**» مع أنَّ صلاة ابن سبعٍ سنين لا تجِبُ عليه باتِّفاق المسلمين، فلو ترك ابن سبع سنين

---

(١) رواهُ ابنُ أبي شيبة (٣/ ٢٠١) (٣٥٠٠) ـ ومن طريقه الطبرانيُّ (٦٥٤٨) ـ والدَّارميُّ (١٤٧١)، وأبو داود (٤٩٤)، والتِّرمذيُّ (٤٠٧) من طرقٍ عن عبد الملك بن الرَّبيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه، عن جدِّهِ، به مرفوعاً.
قال التِّرمذيُّ: «حديثُ سبرة حديثٌ حسنٌ».
وقال أبو خيثمة (التَّاريخ الكبير ٢/ ٧٠١): «سُئل يحيى بن معين عن أحاديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جَدِّهِ؟ فقال: ضعافٌ».
وقد أخرجَ مسلمٌ (١٤٠٦) في المتابعات لعبد الملك، عن أبيه، عن جدِّهِ حديثاً واحداً في (المتعة).
وللخبر شاهد من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّهِ، به مرفوعاً، رواهُ الإمام أحمدُ (١١/ ٣٦٩ ـ ٢٨٤) (٦٦٨٩ ـ ٦٧٥٦)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠١) (٣٥٠١)، وأبو داود (٤٩٥) من طرق عن أبي حمزة سوَّار بن داود، عن عمرو، به.
وقد أعلَّهُ العقيليُّ (٤/ ١٧٦)، وسوَّار ليس هو بالقوي.
وله شاهدٌ آخر عند الطبراني في «الأوسط» (٤١٢٩) من حديث داود بن المحبَّر، عن أبيه، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن أنس بن مالك، به مرفوعاً وفيه: «**واضربوهم عليها لثلاث عشرة**»، وداود متروكٌ، وقد خالفَ سنداً ومتناً.
وجاء ـ أيضاً ـ من حديث أبي هريرة ولا يصِحُّ.
وأصحُّ ما في الباب حديث سبرة قالَهُ عبدُ الحق، قال ابن القطَّان (بيان الوهم والإيهام ٤/ ١٣٨): «وعسى أن يكون الحديث حسناً لا ضعيفاً».

أو ثمان سنين أو تسع سنين الصَّلاة فلا حرج عليه ولا إثم على وليِّهِ؛ لأنَّها لا تجِبُ عليه، لكن الرَّسولُ ﷺ أمر أن نعلِّمها صبياننا إذا بلغوا من السنِّ سبع سنين؛ لأنَّ الصَّلاة أمرها عظيمٌ، حتَّى يتربَّى الأولاد الصغار تربية طيبة، يعتادون المجيء إلى المساجد، وينغرس حُبُّ الصَّلاة في قلوبهم، وينشأوا نشأة طيِّبة صالحة؛ لأنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنَّها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ثُمَّ أمر الرَّسول ﷺ إذا بلغوا من السِّنِّ عشر سنين أن نضربَهُم، وهذا الضَّرب ليس بالعصا؛ بل ضربٌ يتناسبُ مع جسمه وعقله؛ كَفَرْكِ الأُذُنِ، والضَّرب باليد وما أشبه ذلك؛ لأنَّها لا تجب عليه، لكن خشيةَ أن ينشأ على التَّمادي في ترك الصَّلاة أو التساهل بها، كل هذا يدلُّ على عظم شأنها.

رابعاً: أنَّ الرَّبَّ هو الذي تولَّى فرضيتها بنفسِهِ على الرَّسول ﷺ، بخلاف بقيَّة الشَّرائع فإنَّ الله يأمرُ جبريل، وجبريل ينزل فيخبرُ النبيَّ ﷺ بما أمرهُ الله، أمَّا الصَّلاة فليست بواسطة جبريل؛ بل فرضت فوق السَّماء السَّابعة حينما عُرِجَ بهِ، ممَّا يدلُّ على عظمها، وأنَّها فرضت عليه في أعلى مكان وأرفعه.

خامساً: أنَّ الله فرضها على الرَّسول ﷺ في بدء الأمر خمسين صلاة، ممَّا يدلُّ على محبَّة الله لها وعظم شأنها وأنَّها تؤدِّي بالعبد إلى الذُّلِّ والخضوع والانكسار بين يدي ربِّهِ، لكن ما زال الرَّسول ﷺ بين ربِّه وبين موسى يتردَّدُ ويقول له موسى: «**ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف فإنَّ أُمَّتك لا تطيق ذلك**» حتَّى صارت خمساً، فقال موسى: «**ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف**» فقال الرسول ﷺ: «**راجعتُ ربي حتَّى استحييتُ**»، فنادى منادٍ: «**أن أمضيتُ فريضتي وخفَّفت عن عبادي**»(١)؛ فإنَّ الأجر لم ينقصْ، فكأنَّك تُصلِّي خمسين صلاة، إنَّما نقصَ العَدَدُ، كلُّ هذا يدلُّ على عظمها.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٤٩)، ومسلمٌ (١٦٣) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

سادساً: الصَّلاة هي أكثر الفرائض ذكراً في القرآن، فنجد آيات الصَّوم والحجِّ أقل بكثير، فقد ذُكرا في نحو أربع آيات، أمَّا الصلاة فتُذكر كثيراً؛ فإنَّ الله ذكرها بانفرادها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١٤] وقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقرنها تارة مع الزَّكاة كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقرنها مع النُّسك في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ومع الصبر في قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وتارة ذكرها بعد ذكر العبادة إجمالاً فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] فهو خصوصٌ بعد عموم، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] ففعل الخيرات يدخل فيه إقامة الصَّلاة، ولكن ذكرها بخصوصها من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ مما يدلُّ على عظمها، وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: ٣١] فإنَّ الصَّلاة داخلةٌ في التقوى؛ لأنَّ التَّقوى امتثالُ أوامر الله واجتناب نواهيه، كل هذا يدلُّ على عظمها وعظم شأنها.

ثُمَّ لمّا ذكر المؤمنين وأعمالهم الزَّكيَّة، وأخلاقهم الشَّريفة، بدأها بالصَّلاة، وختمها بالصَّلاة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى أن قال بعد هذا كُلِّهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩].

سابعاً: الصَّلاةُ هي عمود الإسلام، فحظُّكَ من الإسلام بقدر حظِّكَ من الصَّلاة، فلا يستقيم بيتٌ بدون عمود، فالخيمة لا يمكن أن تقوم بغير عمود، فإذا سقط العمود سقطت الخيمة، فشبَّه النبيُّ ﷺ كما في حديث معاذ رضي الله عنه الصَّلاة بالعمود[1].

(١) رواهُ معمر في جامعه (١١/ ١٩٤) (٢٠٣٠٣)، ومن طريقه الإمام أحمد (٣٦/ ٣٤٤) (٢٢٠١٦)، والترمذيُّ (٢٦١٦)، والنسائيُّ في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣) =

ثامناً: أنَّ الله أوجبها على الذَّكر والأنثى، والحُرِّ والعبدِ، والغنيِّ والفقيرِ، والمقيم والمسافرِ، والصَّحيح والمريض، لا يُعذر أحدٌ بتركها، المسافر لا بُدَّ أن يُصلِّي ومع هذا يجوزُ لَهُ الإفطار، الفقير لا بُدَّ أن يُصلِّي ومع هذا لا حَجَّ عليه ولا زكاة، المريض يجوزُ لَهُ أن يفطر في نهارِ رمضان، ولا يلزمه أن يحجَّ إلَّا إذا كانَ غنيًّاً فيقيم من يحجَّ عنه ويعتمر، كما هو معروفٌ، لكن يلزمه أن يصلِّي، إن استطاع أن يصلِّي قائماً فإن عجَزَ فعلى جنب، فإن عجزَ يومئ ولو بعينه، بل قال بعض العلماء: لا تسقط الصَّلاة عن المريض ما دام عقلُهُ ثابتاً، هذا كُلُّهُ يدلُّ على عظم الصَّلاة.

تاسعاً: أنَّها من آخر ما وصَّى بها النبيُّ ﷺ عند وفاته بقولِهِ: «**الصَّلاة الصَّلاة وما ملكت أيمانكم**»[(١)].

= من طريق عاصم بن أبي النَّجود، عن أبي وائل، عن معاذ، به مرفوعاً.
أعلَّه الحافظ ابن رجب بأنَّ أبا وائل شقيق بن سلمة لم يسمع من معاذ، وأن الصَّواب من طرقه ما رواه حمَّاد بن سلمة، عن عاصم، عن شهر بن حوشب، عن معاذ، به، وهو منقطعٌ.
وأخرجه الطيالسيُّ (٥٦١) ـ ومن طريقه البيهقيُّ في الشُّعب (٢٥٤٩) ـ، والإمام أحمد (٣٦/ ٣٦١) (٢٢٠٣٢) من طريق شعبة، عن الحكم، عن عروة بن النزَّال أو النزَّال بن عروة، عن معاذ، به.
وأخرجه الطبرانيُّ في الكبير (٢٠/ ٥٥) من طريق عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن معاذ، به.
وقد أورده ابن عديٍّ (٨/ ٤٤) في مناكير عثمان، وفي إسنادِهِ ـ أيضاً ـ: علي بن يزيد الألهاني، ليِّن الحديثِ، وينظر: ميزان الاعتدال (٣/ ١٦١).
وقد ضعَّف الخبر بجميع طرقه الحافظ ابن رجب رحمه الله، ينظر: جامع العلوم والحكم (ص٥٠٧).

(١) رواهُ الإمام أحمد (٢/ ٢٤) (٥٨٥)، وأبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨) من حديث أم موسى، عن علي، به.
وأم موسى وثَّقها غير واحد، والأصل في النساء الستر.
وجاء الخبر من مسند أمِّ سلمة ومن مسند أنسٍ وأصلهما حديثٌ واحدٌ، اختلف فيه على قتادة، ثُمَّ اختلف فيه على سليمان التيمي، والذي صوَّبَهُ الرازيَّان رواية همَّام عن قتادة عن أبي الخليل عن سفينة عن أمِّ سلمة، وهي منقطعةٌ، أبو الخليل لم يسمع من سفينة. =

عاشراً: الصَّلاة هي أوَّل ما يُنظر الله من أعمال العبد يوم القيامة[1]، لا ينظر في زكاة ولا في صوم ولا في حجٍّ ولا في أيِّ شيء حتَّى ينظر في الصَّلاة.

الحادي عشر: أنَّ الله لا يقبل من تارك الصَّلاة زكاةً ولا صوماً ولا حجَّاً ولا جهاداً ولا أمراً بمعروفٍ ولا نهياً عن منكرٍ، ولا صلةً لرحمِهِ، ولا بِرَّاً بوالديهِ، بل جميع أعماله مردودةٌ عليه إذا كان لا يصلِّي.

الثَّاني عشر: أنَّ تاركها يُقتل كافراً ـ على قول طائفة من أهل العلم ـ ولو كان مُقرَّاً بالوجوب، كما هو مذهب أهل الحديث ومذهب الإمام أحمد، وعلى هذا إذا قُتل: لا يُغسَّل ولا يُكفَّن ولا يُصلَّى عليه ولا يُدفَنُ مع المسلمين في مقابرهم، بل يُرمى في أيِّ حفرةٍ، لا قيمة له، الكلبُ أحسن منه.

هذا شأن الصَّلاة.

= وأما رواية سليمان التيمي فقد سلكَ فيها الجادَّة مرَّة، فقال: عن قتادة عن أنس، وفي روايته اضطراب شديدٌ، ينظر: سنن النسائي الكبرى (٦/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، علل ابن أبي حاتم (٢/ ١٨١)، علل الدَّارقطني (١٢/ ١٣٣).

(١) روي من أوجه، منها: ما أخرجَهُ الإمام أحمد (٢٧/ ١٦٠) (١٦٦١٤) من حديث يحيى بن يعمر، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ به مرفوعاً، ورجالُهُ ثقاتٌ.

۞ ولهُما عن سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قالَ يوم خيبر: «**لأعطينَّ الرَّاية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، يفتحُ اللهُ على يديهِ**».

فباتَ النَّاسُ يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها.

فلمَّا أصبحوا غَدَوا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يرجو أن يعطاها، فقالَ: «**أين علي بن أبي طالب؟**».

فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتِي به فبصقَ في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الرَّاية فقالَ: «**انفُذ على رسلِك حتَّى تنزِلَ بساحتهم، ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجِبُ عليهم من حَقِّ الله تعالى فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**»(١) يدوكون: يخوضون.

قولُهُ: (**لأعطينَّ الرَّاية**): اللَّام هنا موطِّئةٌ للقسمِ، كأنَّهُ قال: «واللهِ لأعطينَّ الرَّاية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله».

و(**الرَّاية**): هي ما ينصب للقوم عند كَرِّهم وفرِّهم عندما يقاتلون العدوَّ، يحمِلُها رجلٌ من شجعانهم وأبطالهم حتَّى تكون علماً للجيش يأتون إليها، ويعرفون أنَّ هذا جيشهم وهذا عسكر المسلمين، حتَّى لا يغيب عنهم أو يختلطوا مع جيش العدو من غير ما يشعرون.

قوله: (**غداً**)؛ أي: صبيحة اليوم الذي يلي تلك الليلة، يوم خيبر، وهو قتال النبيِّ ﷺ لليهود، وكانوا مقيمينَ في خيبر، وقصَّتهم وقصَّةُ الفتح معروفةٌ في كتب السِّير والتواريخ.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٩٤٢)، ومسلمٌ (٢٤٠٦).

قوله: **(يدوكون)**؛ أي: يخوضون ويبحثون وينظرون، كُلٌّ منهم يتمنى أنَّ الرَّاية تُدفع إليه، لا لأجل الإمارة والرِّياسة، بل لأجل هذا الوصف العظيم الذي فيه أنَّ من دفعت إليه تلك الرَّاية فهو يحبُّ اللهَ ورسولَهُ ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، ولأجل هذا لما أصبحوا ذهب النَّاس كُلُّهم إلى الرَّسول ﷺ، كُلٌّ منهم يرجو أن يعطاها، قال عمر: «فإنِّي أتطاول في تلك السَّاعة لرسول ﷺ لينظر إليَّ فيدفعها إليَّ».

وقالَ: «واللهِ ما تمنيت الإمارة إلا يومئذٍ»[1]، من أجلِ هذا الوصف لا لشيءٍ آخرَ.

(فقال: أين علي بن أبي طالب؟ قيل: هو يشتكي عينيه): من رَمَدٍ كان في عينيه، والرَّمَدُ: هو الألم الحارُّ المؤلم للعينين والمانع لها من النَّظر.

(فأرسلوا إليه فجيء به فبصق في عينيه): فأبرأ اللهُ بريقِهِ الشَّريف هذا الوجع الحارَّ فأبصر من ساعتِهِ، حتَّى قال عليٌّ: «والله ما شكيتُ عينيَّ منذُ بصق فيهما رسول الله ﷺ». فدفع إليه الرَّاية وقال: **(انفذ على رسلك)**.

وقولُهُ: **(يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ)**: **فيه من الفوائد:**

أوَّلاً: إثباتُ الصِّفات لله خلافاً للأشاعرة الذين يُؤولون المحبَّةَ بمعنى: (الإنعام)، أو (الإثابة) أو ما أشبه ذلك، فالله ـ سبحانه ـ أثبت أنَّهُ يحِبُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وهذه المحبَّة وغيرها من الصِّفات يثبتها أهل السُّنَّةِ والجماعة لله إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا نفيٌ مجملٌ. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ هذا إثباتٌ مفصَّلٌ.

فإثباتُ الصِّفاتِ لله جاء على طريق التفصيل، ونفيها جاء على طريق الإجمالِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٥).

ففيه دليلٌ على أنَّ الله ـ سبحانه ـ يحبُّ، ومحبَّته ليست كمحبَّة المخلوقين، فالأشاعرة وغيرهم يقولون: إذا أثبتم أنَّ الله يحِبُّ، فمن لازم ذلك أنَّهُ يكون مشابهاً لخلقه، إذ المحبَّة إذا أُطلقت فتنصرف إلى ميل المحِبِّ قلبيّاً إلى المحبوب، فيكون حينئذٍ قد شُبِّهَ بخلقِهِ.

نقول: لا يلزمنا هذا، نثبتُ لله أنَّهُ يحبُّ كما أثبته لنفسِهِ، ولا يلزم من هذا أنَّ محبَّتَهُ كمحبَّة المخلوقين أبداً، فهل أنت أيُّها الأشعريُّ أو المعتزليُّ تثبتُ أنَّ لله ذاتاً؟

يقول: نعم ـ لأنَّهُ لو لم يثبت له ذاتاً كان عدماً ـ.

نقول له: هل ذاتُهُ تشبه ذوات المخلوقين؟

يقول: لا.

نقول: كما أنَّك تثبتُ ذاتاً لا تُشبه الذَّوات، فكذلك نثبتُ لله صفاتاً لا تشبه الصِّفات، **فإنَّ الصِّفات فرعٌ عن الذَّات**، فينقطعُ حينئذٍ.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] هذا مجملٌ، نفى أن يكون لله شبيهاً في أسمائه وصفاته أو في ذاته وأفعاله، وهذه الآية مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥] كُلُّ هذا نفيٌ مجملٌ.

أمَّا طريقُ الإثبات فقد جاء على التفصيل: أنَّ الله سميعٌ، بصيرٌ، غفورٌ، رحيمٌ، يغضبُ ويرضى، يحبُّ ويتكلَّم وينادي، هذا معنى قولهم: «بعث الله رسلَهُ بنفيٍ مجملٍ وإثباتٍ مفصَّلٍ».

ثانياً: يدلُّ هذا الحديث على فضلِ عليٍّ رضي الله عنه؛ فإنَّ عليّاً من أفاضل الصَّحابة وعلمائهم وأجلائهم، وقد ذهبت النَّواصب إلى تكفير عليٍّ وهم أهلُ الشَّام من أتباع معاوية رضي الله عنه، بدَّعوهُ وضلَّلوه وتكلَّموا في حقِّهِ بما لا يجوزُ.

وأمَّا معاوية وغيرُهُ من الصَّحابة فهم يعرفون فضل عليٍّ، ولم يتكلَّموا

فيه، إنَّما فعلَ ذلك رِعاعُ النَّاس، فسُمُّوا «نواصب» لبغضهم لعلي.

أمَّا الصَّحابة ﷺ فلا يمكن لأحد منهم أن ينكرَ فضلَ عليٍّ ﷺ، وإنَّما الذي أنكرَهُ الخوارجُ والنَّواصبُ، أمَّا الصَّحابة ومن أخذ عن الصَّحابة فهم مجمعونَ على فضلِ عليٍّ ﷺ، والرَّوافض غلوا في عليٍّ وألصقوا بالنَّواصب ما هم بريئون منه، ونجِدُ في كتب الرَّافضة ـ قبَّحهم الله ـ أكاذيبَ ينسبونها إلى بعض الصَّحابة في حَقِّ عليٍّ، وهم كذبَةٌ مردَةٌ، فمنها أنَّهم يقولون: إنَّ معاوية دفعَ إلى سَمُرَةَ بنِ جندبٍ مئة ألف درهم على أن يحدِّثَ أحاديث في ذمِّ عليٍّ، فأبى سمرة.

ثُمَّ دفعَ له مئتي ألف، فأبى.

ثُمَّ دفع له ثلاث مئة ألف فأبى.

ثُمَّ دفع له أربع مئة ألف فوافق سمرة، وحدَّث بما يدلُّ على ذَمِّ عليٍّ والحَطِّ من فضلِهِ، قالوا: إنَّ سمرة حينئذٍ فسَّر قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥] أنَّ هذه الآية نزلَتْ في عليٍّ ﷺ، وأنَّ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزل في معاوية ﷺ، وهذا كلُّه كذبٌ، حاشا أنَّ سمرة أو غيره من الصَّحابة يحدِّثُ بهذا، ويؤولون القرآن على غير تأويله؛ فإنَّ علياً كما قال عنه الرَّسول ﷺ في هذا الحديث: (**يحِبُّ الله ورسولَهُ ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ**)، لكن الرَّوافض يريدون الرَّدَّ على النَّواصب، ويريدون تكذيب الصَّحابة، وهم الكذبة، فإنَّهم لم يرووا هذا بسندٍ صحيحٍ بل ولا ضعيفٍ، والحديث هذا يردُّ عليهم.

قال ابن تيميَّة: «لا يمكن أنَّ مثل هذا الوصف العظيم يطلقهُ الرَّسول ﷺ على من علمَ اللهُ أنَّهُ يبتدعُ أو يموتُ على غير الإسلام»[1].

---

(١) منهاج السُّنَّة (٥/ ٤٤).

ثالثاً: فيه الرَّدُّ على الرَّوافض القائلين: «إنَّ عليّاً هو الله»؛ كما قالت النَّصارى في عيسى عليه السلام، أو: «إنَّ عليّاً أفضل من أبي بكر وعمر»؛ كما قاله معتدلُهم، وعليٌّ لا شكَّ أنَّهُ من أفاضل الصَّحابة، وأنَّهُ رابعُ الخلفاء، ولا شَكَّ أنَّ أبا بكرٍ أفضل منه، وعمر أفضل منه، وعثمان أفضل منه، وعليٌّ في الدَّرجة الرَّابعة؛ كما جاءت بذلك النُّصوص، إلَّا أن التفضيل بين عليٍّ وعثمان فيه الخلاف بين أهلِ السُّنَّةِ، بعضُهُم يفضِّلُ عليّاً على عثمان، وبعضهم يفضِّلُ عثمان على عليٍّ، أمَّا الخلافة فأهلُ السُّنَّةِ مجمعون على أنَّ الأحقَّ بالخلافة هو عثمان رضي الله عنه، ومن زعمَ أنَّ عليّاً أولى بالخلافة فقد طعن في الصَّحابة، وقال ابن تيميَّة: «هو أضلُّ من حمار أهلِهِ»[1]، من زعم هذا فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار الذين قدَّموا عثمان رضي الله عنه.

فالخوارج والرَّوافض في طرفي نقيض، هؤلاء فرَّطوا وظلموا عليّاً وبدَّعوهُ وضلَّلوه، وهؤلاء غلوا في عليٍّ وتجاوزوا الحدَّ، والطائفتان مخطئتان ضلَّتا عن الصِّراط المستقيم، والقولُ الحقُّ هو ما قالَهُ أهل السُّنَّةِ والجماعة في حَقِّ عليٍّ وفضلِهِ، وأنَّهُ من أكابر الصَّحابة ومن علمائهم وفضلائهم، وشهد النبيُّ ﷺ له بالجنَّة، فهو من العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وجاء في الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليه عليٌّ فقال: «**يهلك فيك رجلان: محبٌّ، ومبغضٌ**»[2]، وقد قال لنا بعض علماء مكَّة: إنَّ الشريف عوناً كان من عادتِهِ أن يُقيم وليمةً للعلماء الحُجَّاج ويدعو إليها علماء مكَّةَ، وقد أقام وليمةً كُبرى ودعا إليها العلماءَ، وحضروا عنده بعد المغرب مجيبين دعوته لتناول طعام العشاء عندَهُ، وكان من جملةِ الحاضرين رئيسُ علماء الشِّيعة، وكان على يمين الشريف،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٨).

(٢) أخرجَهُ عبدُ الله في «زوائد المسند» (٢/ ٤٦٨) (١٣٧٦)، والنسائيُّ في «خصائص عليٍّ» (١٠٣) من حديث الحكم بن عبد الملك، عن الحارث بن حصيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن علي رضي الله عنه، به مرفوعاً.
الحكم ضعيفٌ، وأبو صادق وأخوه ربيعة لا يكادان يعرفان كما قال الذهبيُّ، والحارث ذكر ابنُ عديٍّ أنَّ رواية أهل الكوفة عنه هي في فضائل أهل البيت، وأنَّه شيعيٌّ محترقٌ (الكامل ٢/ ٤٥٤).

ورئيس علماء الإباضية ـ الخوارج ـ على يسارِهِ، فدخلَ رجلٌ من الحنابلة يقال له: (صالحُ بنُ عبدِ الله الدُّومي)، وكان مُحرِمَاً جاء من المدينة فسلَّمَ على الشَّريف، وكان الشَّريفُ يحِبُّ أن يربط بين العلماء فيبحثون حتَّى يظهر ما عندهم.

فقال له الشَّريفُ: هذا رئيس علماء الشِّيعة سَلِّمْ عليه، وهذا رئيس علماء الإباضيَّة سَلِّمْ عليه.

فقال الحنبليُّ الدُّوميُّ: هذا رئيس علماء الشيعة؟

قال الشَّريف: نعم.

ثُمَّ قال الدُّوميُّ: وهذا رئيس علماء الإباضيَّة؟

قال الشَّريف: نعم.

فقال الدُّوميُّ: قال الإمام أحمد: ـ وساق الإسناد ـ أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليه عليٌّ، فقال ﷺ: «**يا علي: يهلك فيك رجلان محبٌّ**» ـ وأشار إلى الشِّيعيِّ ـ «**ومبغض**» ـ وأشار إلى الإباضيِّ ـ.

فقال له الشَّريف: أسألك بالله هل هذا حديث؟

قال: نعم.

فقال الشَّريف: أقيموهم والله لا يأكلون طعامي، فأخرجهم وطردهم.

وهذه تُعَدُّ من مناقبِهِ، لم يجامل ولم يقل هؤلاء وفود علماء، وهؤلاء وفود حجَّاج، بل أبعدهم وطردهم ثُمَّ أمر بمائدة وقُدِّمَتْ للحاضرين.

رابعاً: في هذا معجزة للرَّسول ﷺ، حيثُ أبرأ الله بريقه الشَّريف هذا الوجع الشَّديد.

ولو قال قائل: أين هذه المخترعات ـ كما يقول بعضهم ـ من معجزات النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الشخص يتكلَّم من بلاد بعيدة ويُسمع صوته، وتتوزع ملايين الأصوات، ومع هذا لا يؤثِّر هذا على هذا؟!

قلنا له: هذه آلة وصنعة، تعلُّمها ومعرفتها يسيرٌ، لكن معجزات الرَّسول ﷺ لا تُدرك بالتعليم أبداً، من الذي إذا أمرَّ يدَهُ على الأقرع ينبت شعره؟!

ومن الذي إذا بصق في البئر جاشت ماءاً؟!

ومن الذي إذا بصق في عيني الأرمد برئ حالاً من ساعته وما اشتكى عينيه؟!

ومن الذي إذا قُدِّمَ له الطعام القليل صدرَ عليه الخلقُ الكثير؟!

ومن الذي إذا قُدِّمَ لَهُ قليلٌ من الماء ووضعَ يدَهُ فيه فاض الماء وصار ينبع من أصابعه ويتوضأ منه أكثر من ألف وأربع مئة؟!

مثل هذا لا يمكن أن تجده أبداً، أمَّا هذه الصِّناعات فأيُّ شخص يتعلَّمها يعرفها، أمَّا معجزات الأنبياء لا يمكن أن يصلوا إليها أبداً، وأعظمها القرآن ـ لو كان النَّاس يفهمونه ويعرفون بلاغته وفصاحته ومعانيه ـ.

خامساً: فيه دلالة على نبوَّته ﷺ إذ أخبر بالشيء قبل وقوعه، إذ قال: (**يفتح الله على يديه**)، ووقع كما أخبر، وما أخبر ﷺ به من العلوم المغيَّبة كُلُّها دالَّةٌ على نبوَّته، فإنَّ ما أخبر به على ثلاثة أقسام:

الأوَّل: أشياء أخبر بها في وقته وحصلت في وقته.

الثَّاني: أشياء أخبر بها من المغيَّبات ولكن حصلت فيما بعد، مثل قوله: «**يخرج في آخر الزمان نار تضيء لها أعناق الإبل ببُصرى**»[(١)]، فقد خرجت سنة أربعة وخمسين وست مئة في المدينة، وأخذت شهراً حتَّى أضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى، ومثل قوله: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى يلعن آخرُ هذه الأُمَّة أوَّلَها**»[(٢)]، وهذا وقعَ، فإنَّ الرَّوافض يلعنون أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعائشةَ وأبا هريرةَ وعدداً من الصَّحابة، هذا أخبر به ووقع بعده عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواهُ الطبرانيُّ في «الأوسط» (٥/ ٢٥٤) من حديث إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر، عن عبد الملك بن عمير، عن مسروق، عن عائشة به مرفوعاً.
إسماعيل ضعيفٌ.
وجاء الخبر من مسند أبي أمامة كما في «أمالي ابن بشران» (١/ ١٠٦)، ضعَّفَهُ الحافظ في «المطالب العالية» (١٨/ ٢٩٨).

الثَّالث: أشياء أخبر بها ولم تقع وستقع.

(انفذ على رسلك): هذا من جوامع الكلم الذي أُعطيه النبيُّ ﷺ وخُصَّ به، الكلمة القليلة تجمع الفوائد الكثيرة التي لا حصر لها، فقوله: **(انفذ على رسلك)** جمعت آدابَ الحربِ كُلَّها، فكأنَّهُ قال: لا تكن في مسيرك عجلاً طائشاً، بل عليك بالصَّبر والتأني والتثبُّت، وإيَّاك ورفع الأصوات والضجيج.

وقوله: **(حتَّى تنزل بساحتهم)**: ساحة القوم ما قرُبَ منهم، لا تكن كالجبان تبعد عنهم، بل كن قريباً منهم، ففيه عدم الضعف والقوَّة مع العزيمة.

(ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام): قبل أن تقاتلهم لا بُدَّ من دعوتهم إلى الإسلام؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يُبعث لجمع المال ولم يُبعث للسيطرة ولا للمُلك، إنَّما بُعث لأجل أن تكون كلمةُ الله هي العليا ودينُهُ هو الظَّاهر، ليس له غرض غير إدخال النَّاس في الإسلام وإبعادهم عن الشِّرك.

وهكذا كان سلفنا الصَّالح من الصَّحابة ﷺ في جميع قتالهم، فإنَّ المسلمين لمَّا جاؤوا إلى العراق بعثوا ربعيَّ بن عامر لكسرى فدخل عليه فعرض عليه كسرى بأن يدفعوا إليه شيئاً من الأموال، فقال: «قد علمت أنَّكم في بلادكم جياع، وأنَّهُ لا شيء عندكم، ولكن ارجعوا إلى بلادكم، ولكُلِّ واحد منكم كذا من الذَّهب وكذا من الطَّعام وكذا من الكسوة فارجعوا».

فقال ربعيُّ بن عامر: «أيُّها الملك لم نأتِ لطلَبِ المال، فقد كنَّا معشر العرب متفرِّقين متشتتين فبعث الله فينا محمَّداً ﷺ، فأمرنا أن ندعو النَّاس؛ لنُخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ظُلمة الجور والشِّرك إلى نور التوحيد والهداية»[١]، ولهذا قال الرَّسول ﷺ لعليٍّ: **«ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام»**: قبل كل شيء لا بُدَّ أن تدعوهم إلى الإسلام، والإسلام هو: حقيقة شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله)، ثُمَّ الدَّعوة تارةً تكون بالقتال إذا كان لهم شوكة ومنعة، وتارةً تكون بالنَّصيحة، وتارةً تكون بأفعال الدَّاعي وهو أنَّ الدَّاعيَ يعمَلُ العملَ في نفسه حتَّى يقتدي به غيره من الخير والطَّاعة، كُلُّ هذا من باب الدَّعوة.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥١٨)، البداية والنِّهاية (٩/ ٦٢١).

وكثيرٌ من أهل المذاهب الباطلة يدعون إلى مذاهبهم بشتى أنواع الدَّعوة: بالمال تارةً وبالقتال أخرى، وبالدِّعاية وتأليف الكتب تارةً، كما هو واقع القاديانيِّة والماسونيَّة والبهائيَّة والشيوعيَّة وأمثالهم، هي مذاهب باطلة، ومع هذا قاموا على قدمٍ وساقٍ يدعون إلى مذهبهم، فما قامَتْ مِلَّةٌ وإن كانت فاسدة إلَّا بالدَّعوة إليها، والتشمير عن ساعد الجِدِّ في سبيل بيانها، وتحسينها للنَّاس وإن كانت باطلةً، وما اندثرت مِلَّةٌ وسقطَتْ بعد قيامها وانهدَّتْ بعدَ ارتفاع أعلامها إلَّا بسبب ترك الدَّعوة، حتَّى مشركي العرب كانوا يدعون إلى باطلهم، قاموا بالدَّعوة إلى وثنيَّتهم، من ذلك ما ذكرَهُ المؤرِّخون أنَّ القيصر ملك الرُّوم أرادَ تنصير جزيرة العرب وأن يبعث إلى مكَّةَ من يدعوهم إلى النصرانيَّة بدلاً من الوثنيَّة، واختار أفضل القساوسة ممَّن عنده عقلٌ ودهاءٌ ومعرفةٌ، فبعث إلى ملك العرب النُّعمان بن المنذر فقالَ: قد علمتَ أنَّ العربَ عُبَّادُ أوثانٍ ونريد أن نخرجهم من وثنيَّتهم إلى ما هو أصلح وأنفع وهو دينُ المسيح، وقد بعثتُ إليك فلاناً ـ أحد القساوسة ـ فساعِدْهُ وسَهِّلْ لَهُ طريقَهُ.

فحبَّذ النُّعمانُ الفكرة ووعدَ بالنُّصرة ومساعدة القسِّ، وجاء القِسُّ إلى النُّعمانِ على أنَّه سيبعثُ معَهُ من يُدخلُهُ جزيرة العرب ويدلُّهُ في البلاد ويذهب به إلى مكَّةَ، والقِسُّ من أعقل القساوسة ومن دُهَاتهم، ومن أشدِّ الناس صبراً على شظف العيش وشِدَّةِ الحَرِّ كما هو واقع بلاد العرب، النُّعمان لا يريدُ النَّصرانيَّة في جزيرةِ العربِ أبداً، لكن لا قُدرة له على حرب ملك الروم وعلى الامتناع، وإلَّا فلا يريدُ النَّصرانيَّة، ففكَّر ماذا يعمل في سبيل رَدِّ هذا الدِّين الجديد، فقال لرجلٍ عندَهُ: إذا جاءَ الغَدُ تأتي وتُكلِّمُنِي بعدما تأتي وفود العرب ويتكامل النَّاس.

قال: ما أقول؟!

فقالَ: تكلَّم في أذني من غير أن يسمعوا.

فلمَّا جاء الصَّباح وجاءت وفودُ العربِ للنُّعمان، وجاء القِسُّ وجلس بجانبِهِ وتكامل الناس، جاء هذا الشَّخص وهمسَ في أذنِ النُّعمانِ قليلاً، ثُمَّ تغيَّر وجهُ النُّعمان، وتنفَّس الصُّعداء وتباكى.

فقال له القِسُّ: ما الخبرُ أيُّها الملك؟!

قالَ: الخبرُ عظيمٌ.

قال: ويحكَ ما الخبرُ؟!

قال: الخبرُ عظيمٌ، جاء هذا وأخبرني أنَّ رئيس الملائكة تُوفي.

قالَ القِسُّ: هذا يكذب، رئيس الملائكة لا يمكن أن يُتوفَّى والملائكة لا يموتون.

قال: بلى قد جاءني وأخبرني.

قال: أبداً هذا كذِبٌ.

قال النُّعمان: لماذا؟! عيسى هو الله أو ابن الله يموت ورئيس الملائكة لا يموت؟! فأُسقِطَ في يد القِسِّ، وقالَ القِسُّ: لا حيلةَ فيكم أيُّها العرب، فرجع إلى قيصر وقال: مهما عملتَ فلا تستطيع أن تنصِّرَ العرب.

ردَّهُ بهذه الحيلة، كُلُّ هذا في سبيل الوثنيَّة، محافظة على دينه ودين آبائه وأجدادِهِ، لمَّا لم يستطع أن يردَّهُ بالقوَّة عمل هذه الخُطَّة فردَّهُ، فما من مذهبٍ باطلٍ ولا صحيحٍ إلَّا وقام بالدَّعوة، لكن من كان عندَهُ بصيرة وعلم يعرف أنَّ هذا مذهب باطلٌ، أمَّا العوام الذين لا خبرة لهم ولا معرفة أتباع كُلِّ ناعق، الذين ليس عندهم علم ولا بصيرة، إذا دُعي تبع، مذهب صحيح أو غير صحيح، فهم كما قال ابن عقيل الحنبلي حين سُئل عن العزلة وقيل له: إنَّ النَّاس كثر عندهم الشَّر والفتن والبلاء، فهل الأفضل أنَّ الإنسان يخالطهم أو الأفضل أن الإنسان يلزم بيته ويدع النَّاس؟

فقال: إن كان من أهل العلم فينبغي أن يخالطهم، ويغشاهم في بيوتهم ويغشونه في بيته وإن كان في وقت فتن وبلوى وشرٍّ، أمَّا إن كان من العوام فلا، قيل: وما ذاك؟

قال: لأنَّ العالم مثل ضالَّة الإبل، في قوله ﷺ: **«دعها، فإنَّ معها سقاءها وحذاءها تردُ الماء وتأكل الشَّجر»**[1]، أمَّا العاميُّ فيدخل في المذاهب

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٤٢٧)، ومسلمٌ (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

الباطلة من غير أن يشعر، مثل ضالة الغنم لك أو لأخيك أو للذئب.

ولهذا نجد في القرآن آيات الدَّعوة أكثر بكثير من آيات الصَّوم والحجِّ اللَّذين هما ركنان من أركان الإسلام، فالحجُّ ليس في القرآن إلَّا أربع آيات ومثله الصَّوم، وأمَّا الدَّعوة فالقرآن مملوءٌ من أوَّله إلى آخرِهِ بآيات الدَّعوة: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى، كُلُّها في الدَّعوة، ممَّا يدلُّ على عظمها، وأنَّ الدِّين لا يقوم إلَّا بالدعوة بذكر محاسنِهِ وفضائله وتنبيهِ النَّاس على كُلِّ ما يخالفُهُ، وأعظم ما يخالفه هو الشِّرك بالله، ولهذا قال الرَّسول ﷺ: «**ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام**» الإسلام: هو حقيقة شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)، وعرَّف بعضهم الإسلام بقولِهِ: «الإسلام هو: الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرك وأهلِهِ»[(١)].

(**وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله تعالى فيه**): إذا دخلوا في الإسلام بأن شهدوا أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله، فأخبرهم بما يجب عليهم؛ يعني: من حقوق الإسلام التي هي الصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجُّ وبرُّ الوالدين إلى غير ذلك من شرائع الإسلام، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه لما ارتدَّ من ارتدَّ من العرب: «نقاتلهم»، فقال له عمر رضي الله عنه: نُقاتل قوماً يشهدون (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله) وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتَّى يقولوا لا إلٰه إلَّا الله**»؟!

قال أبو بكر: «**فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلَّا بحقِّها**»، والزَّكاة من حَقِّها، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها.

---

(١) ثلاثة الأصول [مؤلَّفات الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله ١/ ١٨٩].

قال عمر: فما رأيتُ إلَّا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنَّهُ الحقُّ(١).

هذا شأن الصَّحابة، فهم قاتلوا أهلِ الرِّدَّة، كما قاتلوا أهل اليمامة، وأهلِ اليمامة بنو حنيفة يشهدون (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)، ويؤذِّنون ويصلُّون ويصومون ويحجُّون ويتصدَّقون، إلَّا أنَّهم يقولون: «إنَّ مسيلمة نبيٌّ»، ومع هذا قاتلهم الصَّحابة، واستحلُّوا دماءهم وأموالهم.

وكذلك ـ أيضاً ـ بنو عبيد القدَّاح في مصر كانوا ينصبون القضاة والمفتين ويعملون بالشريعة إلَّا أنَّهم أظهروا أشياء مخالفة للدِّين الإسلامي، وأجمعَ المسلمون على قتالهم، وصنَّفَ ابنُ الجوزي كتاباً سمَّاه: «النَّصر على مصر»، كُلُّ هذا يدلُّ على قتال هؤلاء، وأنَّ مجرَّدَ النُّطق بالشَّهادتين لا يكفي إلَّا إذا قام بها ونطق بها وعرف مقتضاها وعمل بمعناها ظاهراً وباطناً، فهنا تعصم دمه وماله، وممَّا يدلُّ على هذا قصَّة الرَّجل الذي كان مع النبيِّ ﷺ في غزوة تبوك فإنَّهُ قالَ: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغبُ بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللِّقاء»؛ يعني: رسولَ الله ﷺ وأصحابه، فأُخبر النبيُّ ﷺ بذلك، ذهب عوفُ بن مالك ليخبره، لكن سبقَهُ القرآن نزلَ على الرَّسول ﷺ خبرهم، فجاء الرَّجلُ الذي تكلَّم بهذه الكلمة، وقال: يا رسولَ الله، والله ما قلتها إلَّا لنقطع بها عناءَ الطَّريق وإنَّا نخوض ونلعب، فأنزل الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥](٢)، فما نفعته شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)، ولا أنَّهُ غزا مع المسلمين؛ لأنَّهُ تكلَّم بكلمة صار بها كافراً، قال الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] وهم الذين سكتوا ولم ينكروا ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٦].

فالحاصلُ من قول الرَّسول ﷺ: **(فادعهم إلى الإسلام)**: هو معنى شهادة

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٣٩٩)، ومسلمٌ (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥٤٣).

(أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله) لفظاً ومعنى واعتقاداً وعملاً، وبما لها من المكمِّلات والحقوق؛ ثُمَّ إنَّ النبيَّ ﷺ رغَّبَ في الآخرة وحذَّر من الطمع في الدُّنيا والقتال لأجل الدُّنيا، فحلفَ الرَّسولُ ﷺ ـ وهو الصَّادق ولو لم يحلف ـ حلف يُرغِّب في الآخرة، قائلاً: **(فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعم)**، لا يكُن مقصدك الغنائم ولا ما تأخذه من أهل خيبر، وليكن قصدك إسلامهم وخروجهم من الشِّرك، ولا يعلَقْ بقلبِكَ ما يحصل لك وللجيش من المغانم، ولذا قال: **(فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعمِ)**، حلف للتأكيد، وفيه جواز الحلف على الفتيا.

وقوله: **(خيرٌ لَك من حُمْرِ النَّعم)**؛ أي: خيرٌ لك من كُلِّ ناقةٍ حمراءَ على وجهِ الأرضِ، وفيه فضل ثواب من دعا إلى الله، فإذا هدى الله على يديك رجلاً ودخل في الإسلام فهو خيرٌ لك من الأرض وما في الأرض من ذهبٍ وفضَّةٍ، بل وخير من أمثال أمثال الدُّنيا عشرات المرَّات، وإنَّما خصَّصَ النُّوقَ الحُمْرَ لأنَّها إذ ذاك أنفس أموال العرب، فإنَّهم يتنافسون فيها؛ فما عندهم شيءٌ أنفس من النُّوقِ الحُمْرِ، فهدايةُ رجلٍ على يديك وما يحصل لك من الثَّواب بسبب ذلك، خيرٌ لك من كلِّ ناقةٍ حمراءَ على وجهِ الأرضِ، وذكر النَّوويُّ أنَّ هذا من باب التقريب للأفهام، وإلَّا فذرَّة من ذرَّات الآخرة خيرٌ من الدُّنيا وأمثال الدُّنيا[1].

وهنا مسألة ـ في قصَّة المستهزئين ـ: وهي حكم الاستهزاء والانتقاص من العلماء؟

نقول: إن كان الاستهزاء بهم من باب الانتقاص لما حملوه وما انتموا إليه فهذا تكلَّم عليه النوويُّ في مقدِّمة «شرح المهذَّب» في مسألة الاستهزاء، واستدلَّ بحديث: **«من عادى لي وليّاً»**[2]، وقال: «من ابتلي بسبِّ العلماء

---

(١) شرح صحيح مسلم (٥/١٧٨).
(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وثلبهِم ابتلاهُ الله بموت القلبِ»، وذكر شيئاً من هذا، ونقل عن ابن عساكر(١).

أمَّا الاستهزاءُ باللِّحية وما أشبهها فالحقيقة أنَّ هذا تشويهٌ للإسلام وحربٌ على الإسلام، ليس على الشَّخص الذي استهزئ به، كون الإنسان يتمسَّكُ بالسُّنَّةِ جعلوا يرمونه بكبَرِ لحيتِهِ وأنَّهُ كذا وكذا، هذا يدلُّ على ضعف الإيمان، وأنَّ القلب فيه شيء من الانحراف، هذا الرَّجلِ لـمَّا تمسَّك بالسُّنَّةِ، وعمل بقول الرَّسول ﷺ: «**أحفوا الشَّوارب وأرخوا اللِّحى**»(٢)، جعلوا يتهكَّمون به ويصفون لحيتَهُ؛ يعني: من جنس المشركين سواء بسواء، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] لماذا لما تمسَّكَ بالسُّنَّةِ تضحك عليه وتغمزه؟! يُخشى على الإنسان من المروق من الدِّين والعياذ بالله، ليست المسألةُ بسيطةً.



(١) المجموع شرح المهذَّب (١/ ٢٤).
(٢) رواهُ البخاريُّ (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بابُ
تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلَّا اللَّه

وقول الله - تعالى -: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وفي «الصَّحيح» عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**من قال: لا إله إلَّا الله وكفرَ بما يُعبد من دونِ الله حرمَ مالُهُ ودمُهُ، وحسابُهُ على اللهِ** ﷻ»، وشرحُ هذه التَّرجمة ما بعدها من الأبواب.



بابُ
تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلَّا اللَّه

تقدَّم لنا بيانُ التَّوحيدِ، وبيانُ فضلِهِ، وبيانُ الخوفِ من ضِدِّهِ، وبيانُ الدَّعوة إليه، وأنَّ كُلًّا منَّا لا بُدَّ أن يُبيِّن للنَّاس محاسنَ التَّوحيد، ويحرِص على إنقاذهم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشِّرك إلى نور التَّوحيد، كما تقدَّم في البابِ قبلَهُ.

ذكر المصنِّف هنا تفسيرَ التَّوحيد الذي هو: شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله)، فقولُهُ: (**بابُ تفسيرِ التَّوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلَّا الله**)؛ من باب عطف الدَّال على المدلول، فالمدلولُ هو التَّوحيد والذي دَلَّ عليه هو شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله)، والكفر بالطاغوت والإيمان بالله هو مقتضى هذه الشَّهادة، والتَّوحيد ليس معناه ـ كما يقولُهُ بعض المتكلِّمين وبعض من لا معرفة له بالتَّوحيد ـ يقولون: التَّوحيد هو أن تعتقدَ أنَّ الله هو الخالق الرَّازق المحيي المميت المعطي المدبِّر لهذا العالم المتصرِّف فيه، إذا اعترفت بهذا فهذا هو التَّوحيد، وهذا غلطٌ كبيرٌ، فهذا توحيد الرُّبوبيَّة، وقد أقرَّ به المشركون الذين بُعِثَ فيهم النبيُّ ﷺ، كلُّهم معترفون أنَّ اللهَ هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يخفِضُ ويرفَعُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، وينفعُ ويضُرُّ، فلا قُدرة لأحدٍ على إيجادِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ، كُلُّهم معترفون بهذا، ومعَ هذا لم يُدخلهم هذا في الإسلام؛ لأنَّهم اتَّخذوا الوسائط بينهم وبين الله، فبعض مشركي العرب اتَّخذ الملائكة وسائط بينه وبين الله، وبعضهم جعل الشَّمس والقمر وسائط بينه وبين الله، والبعض منهم جعل الأنبياء وسائط بينهم وبين الله، وبعضهم جعل الأحجار والأشجار وسائط بينهم وبين الله، وهؤلاء كُلُّهم كفَّرهم القرآن، وقاتلهم النبيُّ ﷺ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠]، ما داموا أنَّهم جعلوهم وسائط فهم في الحقيقة أربابٌ لهم، وبالنسبة للشَّمس والقمر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ

وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، فالله لم يرضَ أن يكون بينك وبينه واسطة لا بسجودٍ ولا بدعاءٍ حيثُ تصرف له شيئاً من العبادة التي لا يصلح صرفها إلَّا لله، والبعض منهم اتَّخذ الأشجار والأحجار؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ ـ أي: جائرة ـ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

وكما في حديث أبي واقد اللَّيثي قال: خرجنا معَ النبيِّ ﷺ ونحن حدثاء عهد بكفر: وهذا اعتذارٌ ممَّا وقعَ منهم؛ أي: لم نعرف الإسلام حقيقة بل نحن قريبون من الكفر.

«فمررنا وللمشركين سدرةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم»؛ أي: يرجون خيرها وبركتها، فقلنا: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتِ أنواط»؛ أي: اجعل لنا سدرة نعلِّق عليها أسلحتنا ونرجو خيرها وبركتها كما كان أولئك يرجون خيرها وبركتها ويعلِّقون عليها أسلحتهم، فقال النبيُّ ﷺ: «**الله أكبر إنَّها السُّنَنُ**»؛ أي: الطُّرق. «**قلتم والذي نفسي بيدِهِ كما قالت بنوا إسرائيلَ لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنَّكم قومٌ تجهلون**»[(١)]، هم لم يقولوا: اجعل لنا إلهاً، بل قالوا: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، لكن الرَّسول ﷺ شبَّهَ الطِّلبَةَ بالطِّلبَةِ، واعتبرَ المعنى والحقيقة ولم يعتبر اللَّفظَ، الخيرُ عند الله والبركة من الله، تدعوه وتسأله، وأيُّ خيرٍ وبركةٍ عند هذه الشَّجرة؟!

وبهذا تعرف أنَّهم وإن كانوا قالوا: هذا وسيلة، نحن لا نعبدهم، وإنَّنا لا نريد منهم أنَّهم ينفعون أو يضرُّون، وإنَّما نريد أنَّهم وسائط بيننا وبين الله؛ لأنَّهم صلحاء، وهذا من باب الوسيلة.

---

(١) سيأتي تخريجه في موضعه من المتن.

قل لهم: (وسيلة) أو (صلحاء) أو (قربة) أو (واسطة) مهما قلتم، فقد جعلتموهم أنداداً لله وجعلتموهم أرباباً من دون الله.

قالوا: لم نجعلهم إلهاً، بل الإله الربُّ.

قلنا: هذا الرَّسولُ ﷺ شبَّه الطِّلبَةَ بالطِّلبَةِ، والمعنى بالمعنى، وإن اختلف اللَّفظُ.

وهؤلاء المعبودون من الجِنِّ أسلموا وبقوا على إسلامهم، وهؤلاء متمسِّكون بهم يعبدونهم، قالَ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧] فكيف لا تصنعونَ مثل صنيعهم.

فالذين تعبدونهم من جِنٍّ أو أنبياء أو ملائكة لا يستطيعون رفعَ ضررٍ حلَّ بكم، ولا يستطيعون إيصال النَّفع إليكم، ولا تحويلكم من حالٍ إلى حالٍ؛ كأن ينقلوا الضَّرر عنكم إلى غيركم، أو يأتوا إليكم بالنَّفع، فإنَّهم لا قدرة لهم، وإذا كانوا عاجزين فكيف ترجونهم وتسألونهم، وتساوونهم برب العالمين؟!

ثُمَّ قال: أولئك الذين تزعمون أنَّهم ينفعونكم ويضرُّونكم هم بأنفسهم يتقرَّبون إلى الله بالأعمال الصَّالحة، فأعظم ما يتقرَّب به العبد إلى الله ويتوسَّل به: هو الإيمان به والعمل بمقتضى شهادة (أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله)، هذا من أعظم ما نتوسَّل به إلى الله، مع بقيَّة شرائع الإسلام، فصلاتك وسيلة، وتتوسَّل إلى الله بقراءة القرآن والصَّلاة والصَّوم وطلب العلم، إذا كان طلبك للعلم بنيَّةٍ خالصةٍ لم يشبها شيء، تتوسَّل إلى الله بالدُّعاء، كُلُّ هذا تتوسَّل به، هذا معنى قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أمَّا عُبَّاد القبور فهم يقولون: هم وسائل بيننا وبين الله، ونحن نتوسَّل بهم ليرفعوا حوائجنا إلى الله؛ لأنَّنا قومٌ مذنبون وقومٌ مجرمون، فنحن لا نصل إلى اللهِ بل لا بُدَّ لنا من هؤلاء؛ لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله، وهذا هو الخطأ، وقد وقع هذا الشِّرك، كما قال

النبيُّ ﷺ: «**لتَتَبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ**»[(١)]، واللَّام موطِّئةُ للقسَمِ؛ أي: ممهِّدة للقسم، المعنى: «والله لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم»، وجاء في بعض ألفاظ الحديث: «**حتَّى لو وُجِدَ فيهم من يأتي أُمَّهُ علانية وُجِدَ فيكم من يفعل ذلك**»[(٢)]، فما وُجِدَ في اليهود والنَّصارى من الفساد لا بُدَّ وأن يُوجَدَ نظيرُهُ في هذه الأُمَّةِ، وقد وُجِدَ من علمائهم من فضَّل الطاغوت وفضَّل الشِّرك وحَطَّ على الإسلام والإيمان، فلا بُدَّ أن يوجد في هذه الأُمَّة نظيرُ ذلك؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١] مدلول هذه الآية في اليهود ولا بُدَّ أن يوجد نظيرُهُ في هذه الأُمَّةِ.

ومعنى الآية: أنَّ مشركي العرب لمَّا بُعث فيهم النبيُّ ﷺ وجعل يأمرُهُم وينهاهُم نابذوهُ وعادوهُ، فبَعثوا وفداً لعلماء اليهودِ في المدينة: حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، جاء الوفد إلى هذين العالمين وهُما من الأكابر، فقالوا: إنَّكم أهلُ علمٍ وأهلُ كتابٍ، وبعثَنَا قومُنا إليكم لنسألَكُم عنَّا وعن محمَّدٍ.

فقالوا: ما أنتم وما محمَّد؟

قالوا: محمَّدٌ وحدَهُ، لم يتبعه إلَّا سُرَّاق الحجيج من غفارٍ ومزينةَ، ونحن نذبحُ الإبل، ونطعمُ الحُجَّاجَ، ونسقي اللَّبن، أنحنُ خيرٌ وأهدى سبيلاً أم محمَّد؟

فقال الكافرانِ الكاذبانِ الجاحدانِ الملعونانِ: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً من محمَّد! فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٤٥٦)، ومسلمٌ (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواهُ التِّرمذيُّ (٢٦٤١)، والطبرانيُّ (٦٢)، والحاكم (٤٤٤) من حديث عبد الرحمٰن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، به مرفوعاً.
عبد الرحمٰن بن زياد هو ابن أنعم الإفريقي، صالحٌ، عابدٌ، إلَّا أنَّهُ «منكرُ الحديثِ» كما قالَ الإمامُ أحمد، وسئل عنه مرَّة أخرى فقال: «ليس بشيء»، ينظر: سؤالات المروزي (٢٠٤)، الجرح والتعديل (٥/ ١١١١).

لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ [النساء: ٥١، ٥٢][(١)]، **المعنى**: أنَّهُ لا بُدَّ أن يوجد مثل هؤلاء في هذه الأُمَّة مثل ما وُجِدَ في اليهود ككعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، وهم يعلمون حقيقة أنَّ محمَّداً رسول الله، لكن جحدوا ذلك حسداً وبغياً.

(١) سيأتي تخريج الخبر عند ذكر الآية في المتن.

۞ وقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧].

جمعوا بين الرَّجاء والخوف، فالمؤمن لا يجوزُ لَهُ أن يُغَلِّبَ جانبَ الرَّجاء ولا أن يُغلِّبَ جانبَ الخوف، إن غلَّبْتَ جانبَ الرَّجاء هلكتَ ووقعتَ في الأمن من مكرِ الله، وإن غلَّبت جانبَ الخوف وقعت في القنوطِ من رحمة الله، وكلا الأمرين حرامٌ، تفعلُ المناكيرَ وتقول: «الله غفورٌ رحيمٌ» هذا لا يجوز، أو لا تعمل الصَّالحات لأنَّ الله شديدُ العقاب هذا لا يجوز، نعم، الله شديد العقاب، والله غفور رحيم.

لا يتغلَّب على قلبك الرَّجاء فتقعُ في الأمن من مكرِ الله، ولا يتغلَّب عليه الخوف فتقعُ في القنوط من رحمة الله، بل فيه الرَّجاء والخوف مستويان، كجناحي طائر، فترجو رحمةَ ربك وتخافُ ذنوبك، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩] هذا فيمن غلَّب الرَّجاء، وقال فيمن غلَّب الخوف: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

والله جمع بينهما في آياتٍ كثيرة: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فالإنسانُ لا يجوزُ لَهُ أن يغلِّب أحد الأمرين، فإنَّهُ إن غلَّب جانبَ الرَّجاء هلكَ، وإن غلَّب جانبَ الخوف هلكَ، بل يخاف ويرجو، يخافُ ذنوبَهُ وجُرْمَ ما ارتكبَهُ، ويرجو رحمة ربِّهِ؛ كما دلَّ عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧] جمعوا بين الأمرين، وهذان ركنان من أركان توحيد الألوهيَّة، وأركان توحيد الألوهيَّة هي: الخوف والرَّجاء والمحبَّة.

الخوف والرجاء: دلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ

عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، والمحبَّة دلَّ عليها مع الرَّجاء والخوف أوَّل سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]: هذه المحبَّة، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣]: هذا الرَّجاء، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]: هذا الخوف.

۞ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧].

إبراهيم تبرّأ من جميع المعبودين واستثنى منهم ربَّهُ الذي فطره وأوجده.

وقولُهُ: (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) تضمَّنت معنى كلمة الإخلاص.

فقوله: (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾) هذا نفي وهو معنى: (لا إله)، وقولُهُ: (﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) فيه الإثبات وهو معنى: (إلَّا الله)، تبرأ من المعبودين كُلِّهم عدا الله ـ سبحانه ـ، فهو إلٰهُهُ ومعبودُهُ، وهذه الكلمة هي مقتضى شهادة: (أن لا إله إلَّا الله)، وهي دعوة الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم، فكلُّهم يتبرأون من جميع ما يُعبد من دون الله، ويستثنون من المعبودين ربَّهم الذي فطرهم وأوجدهم، قال ـ تعالى ـ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] فإنَّهُ اعتزلهم واعتزل معبوديهم من دون الله، ودعا ربَّهُ فأفرده بالدُّعاء، والدُّعاء هو مُخُّ العبادة، هذه دعوة إبراهيم عليه السلام إمام الأنبياء وخليل الرحمٰن.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] يسأل الله أن تبقى هذه الكلمة في ذُريَّته، ولا شَكَّ أنَّ كلمة التَّوحيد باقيةٌ في ذُريَّته، وإن كفرَ من كفرَ من مشركي العرب وممَّن كان قبلهم، كما في وقتنا هذا من يعبد القبور، يذبحون وينذرون لها، ويسألونها تفريج الكُربات وإغاثة اللَّهفات، هؤلاء في الحقيقة جعلوهم معبودينَ من دُونِ الله شاؤوا أم أبوا، وإن زعموا أنَّهم وسائط، فإنَّهم صرفوا لهم حَقَّ الله.

وليس المراد بقوله: (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) إثبات أنَّهُ ـ تعالى ـ هو الذي خلقني وأوجدني، فهذا شيءٌ أقرَّ به جميع بني آدم، ولا ينكرهُ منهم إلَّا من شَذَّ، وإنَّما المراد إفراد الله بالعبادة، هذا هو المعنى، وهذا وجه مطابقة الآية للتَّرجمة؛ فإنَّ التَّرجمة: (**باب تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلَّا الله**).

۞ وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

(﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾)؛ أي: علماءهم، (﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾) أي: عُبَّادهم، (﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾): جعلوهم أرباباً لهم من دون الله، وهذا يُسمَّى شرك الطَّاعة، حيث يُحلُّون لهم ما حرَّم اللهُ، ويُحرِّمون عليهم ما أحلَّ اللهُ، هذا هو الشِّرك بعينهِ، ويدخل في هذا القوانين الوضعيَّة التي انتشرت في كُلِّ مكانٍ، وما زالت كثير من الدول المنتسبة للإسلام تحكم بها في الدِّماء والسَّرقات وتحكم بها في الحدود، وتحكم بها في جميع شؤونها بدلاً من كتاب الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ؛ فإنَّ الآية تنطبق عليهم وهم داخلون في معناها، فيُحلُّون لهم ما حرَّم اللهُ، ويحَرِّمون عليهم ما أحلَّ اللهُ، والله يقول: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص: ٥٠]، فالآية قسَّمت الناس إلى قسمين لا ثالث لهما: إمَّا الاستجابة للرَّسول ﷺ، وإما اتِّباع الهوى، فهذه القوانين الوضعيَّة داخلةٌ في اتِّباع الهوى.

ثُمَّ قال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ [القصص: ٥٠] يعني: لا أحد أضلُّ ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ لأنَّهم حلَّلوا وحرَّموا وافتروا وجاءوا بأشياء من قِبَلِهِمْ، فقالوا: «إنَّ الشَّرع لا يصلح لهذا الوقت»، وما أشبه ذلك، وكُلُّ هذا من الأمور الباطلة.

وهنا مسألة وهي: هل يجوز للقاضي أو المفتي أن يأخذ قولاً من أقوال أهل العلم فيقضي به أو يفتي به من غير نظرٍ ولا ترجيحٍ، ومن غير معرفة للدَّليل؟

نقول: لا يجوز ذلك، بل حكى شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة إجماع أهل

العلم على تحريم الحكم بقولٍ أو وجهٍ لم يُعرف له دليلٌ»[١].

لا بُدَّ أن يعرف وجهَهُ ودليلَهُ، سواءٌ أصابَ أو أخطأ إذا كان بذلَ جهدَهُ واستفرغَ وسعَهُ في طلب الحقِّ، فهو معذورٌ، أمَّا أن يأخذ هذا القول من غير نظرٍ في التَّرجيح ومن غير معرفة دليله فهذا لا يجوز إجماعاً على ما قالَهُ ابنُ تيميَّة، وربَّما دخل في عموم هذه الآية: (﴿**ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ**﴾) لكن اختلاف العلماء لا يدخل في هذه الآية، فلو قلتَ مثلاً: نجد العلماء يختلفون في المسائل الفرعية التي أمرها عظيمٌ وشأنها كبير كالصَّلاة، فهؤلاء يقولون بصحَّة الصَّلاة، وهؤلاء يقولون ببطلان الصَّلاة ـ مثلاً ـ، والصَّلاة هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسلام الخمسة، فهل ذلك داخل في هذه الآية؟

نقول لك: لا، ما داموا اجتهدوا، وكُلٌّ منهم لَهُ حظٌّ من الأدلَّة سواء أصاب أو لم يصب، فهؤلاء لا يدخلون؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا اجتهد الحاكمُ فأصاب فله أجرانِ، وإذا اجتهد فأخطأ فلَهُ أجر**»[٢]، وقد صنَّف ابنُ تيميَّة كتاباً من أجمل الكتب وهو: «رفع الملام عن الأئمَّة الأعلام»، وقال ما معناه: لا يمكن أنَّ أحداً من أهل العلم يريد مخالفة الرَّسول ﷺ أبداً، لكن إمَّا أن يكون الحديثُ لم يبلغهُ، أو يكون بلغه لكنَّهُ عندَهُ غيرُ صحيحٍ، أو يكون صحيحاً، لكن لا يدلُّ على هذه المسألة، أو لَهُ معارضٌ، أو أنَّهُ منسوخٌ[٣].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٥٥)، الفروع (١١/ ١٠٧).
(٢) رواهُ البخاريُّ (٧٣٥٢)، ومسلمٌ (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٣) رفع الملام (ص٢١).

۞ وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

المعنى: قيل: اتَّخذوا أنداداً يُحبُّونهم مثل محبَّتهم لله، فهم يحبُّون الله، لكن يحبُّون أندادهم ومعبوديهم محبَّةً مماثلةً لمحبَّةِ اللهِ، فساووهم في المحبَّة.

قال المصنِّفُ: فما ظنُّكَ بمن أحبَّ النِّدَّ أكثر من حُبِّهِ لله، وما ظنُّكَ بمن أحبَّ النِّدَّ وحدَهُ دُون محبَّةِ الله؟!

والمحبَّة الطبيعيَّة أنت معذورٌ فيها ولست مُكَلَّفاً، كمحبَّة الرَّجل لمالِهِ وأولادِهِ وأهلِ بيتِهِ، هذا ليس داخلاً في هذا المعنى، بل قال النبيُّ ﷺ: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم النِّساءُ والطِّيبُ**»[(١)]، إنَّما معنى المحبَّة التي يقع فيها الشِّرك، هو أن يُحِبَّ النِّدَّ كمحبَّة الله، كما لو أحبَّ هذا القبر أو المدفون كعبد القادر، وجعلَهُ في المحبَّة نظيراً أو مثيلاً لله، فالمحبَّة هنا: هي المستلزمة للائتمار والإخلاص في العمل له.

لو قال قائلٌ: أنا أحبُّ الله أكثرَ من حُبِّي لعبد القادر أو البدوي ولا أساويهم بمحبَّة الله.

نقول: ماذا عملت له؟

قال: سأذبح للبدوي وأطوف به وأحبُّهُ، لكنِّي أحبُّ الله أعظم من حبِّي له.

---

(١) أخرجَهُ الإمام أحمد (١٩/ ٣٠٥) (١٢٢٩٣)، والنسائيُّ (٣٩٣٩) من طريق سلَّام أبي المنذر، عن ثابت، عن أنس ﵁، به.
سلَّام هو: ابن سليمان، صدوقٌ، وقد تابعَهُ جعفر بن سليمان الضبعيُّ كما عند النسائي (٣٩٤٠)، قال الذَّهبيُّ في الميزان (٢/ ٢٧٧): «إسنادُهُ قويٌّ»، وصحَّحَ إسنادَهُ ابنُ الملقِّن (البدر المنير ١/ ٥٠١)، وحسَّنَهُ الحافظُ (التلخيص ٣/ ٢٤٩).
إلَّا أنَّ حمَّاد بن زيد ومحمَّد بن عثمان روياه عن ثابت مرسلاً عن النبيِّ ﷺ.
قال الدَّارقطنيُّ (العلل ٦/ ٤١): «والمرسل أشبَهُ بالصَّواب».

نقول: كذبتَ، ما دام أنَّك صرفت شيئاً من العبادة لهذا، فهذا نظير لله في المحبَّة؛ لأنَّ من لازم المحبَّة الائتمار بأمر المحبِّ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][١].

(١) فلو كنتَ تحبُّ اللهَ ـ تعالى ـ لأطعت أمره وأفردته بالعبادة.

۞ وفي «الصَّحيح» عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**من قال: لا إله إلَّا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله** ﷻ»(١).

معناه: أنَّ مجرَّد التلفُّظ لا يكفي، لا بدَّ أن يكفرَ بجميع ما يُعبد من دون الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنِّفُ في المسائل: «يا لها من مسألةٍ ما أجلَّها وأعظمها، ويا له من بيانٍ ما أوضحَهُ، وحجَّةٍ ما أقطعها للمنازع»؛ لأنَّ المنازعَ يقولُ: أنتم تكفِّرون النَّاس وهم يقولون: «لا إله إلَّا الله»؟!

نقول: نعم، الحديث: **(وكفر بما يُعبد من دون الله)**، فإذا قال: «لا إله إلَّا الله»، ولم يوجد منه ما ينافيها كان ذلك عاصماً لماله ودمه وليس لنا إلَّا الظَّاهر.

(وحسابه على الله): الله هو الذي يتولَّى السَّرائر، وهو العالم بالمخبئات التي في الصُّدور والضمائر.



(١) رواه مسلمٌ (٢٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه، به مرفوعاً.

بابٌ

من الشِّرك لبسُ الحلْقَةِ والخيطِ ونحوهِمَا لرفعِ البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: **«ما هذه؟»**

قال: من الواهنة.

فقال: **«انزعها فإنَّها لا تزيدُك إلَّا وهناً، فإنَّك لو متَّ وهيَ عليكَ ما أفلحتَ أبداً»** رواهُ أحمدُ بسندٍ لا بأسَ بهِ.

وَلَهُ عن عقبة بن عامر مرفوعاً؛ يعني: قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ اللهُ لَهُ، ومن تعلَّق ودعةً فلا ودعَ اللهُ لَهُ»**.

وفي روايةٍ: **«من تعلَّق تميمةً فقد أشركَ»**.

ولابن أبي حاتم عن حذيفةَ أنَّهُ رأى رجلاً وفي يدِهِ خيطٌ من الحمَّى فقطعَهُ، وتلا قولَهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

بابٌ
من الشِّرك لبسُ الحلْقَةِ والخيطِ ونحوهِمَا لرفعِ البلاءِ أو دفعِهِ

ذكرَ المصنِّف أوَّلاً: التَّوحيد الذي من أجلِهِ خُلِقَتِ الخليقَةُ، ومن أجلِهِ أُرْسلَتِ الرُّسُلُ، ومن أجلِهِ أُنزِلَتِ الكتبُ، ومن أجلِهِ جُرِّدَتْ سيوفُ الجِّهادِ، ومن أجلِهِ نُصِبَتِ الموازينُ، ومن أجلِهِ قام سُوقُ الجنَّة والنَّار، وهو: (عبادة الله وحده لا شريك له).

ثُمَّ ذكرَ بعدَهُ فضلَ التَّوحيد وتحقيقَهُ، ثُمَّ الخوف من ضِدِّهِ، ثُمَّ ذكرَ الدَّعوة إليهِ، فلا بُدَّ أن يدعو الإنسان إلى التَّوحيد ويبيِّن للنَّاس محاسنَهُ، ولا ينقذهم من النَّار إلَّا التمسُّك بالتَّوحيدِ.

ثُمَّ ذكرَ تفسيرَ التَّوحيد الذي هو حقيقة شهادة: (أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ)، وأنَّ مجرَّد النُّطق بها لا ينفعُ ولا يؤثِّرُ، وأنَّ كثيراً من المنافقين واليهود والنَّصارى وغيرهم يتكلَّمون وينطقون بها فلا تنفعهم؛ لأنَّهم يأتون بما ينقضها ويخالفها، كُلُّ هذا قد مرَّ.

ثُمَّ بعد ذلك كُلِّهِ جعلَ يذكر الشِّرك بنوعيهِ: الأصغر والأكبر، وأنَّ الشِّركَ شعبٌ، منها: عبادَةُ القبورِ، والاستنجادُ بها، وطلبُ المدَدِ منها.

ومنها: طلبُ الملائكة أو الأنبياء أو الأشجار أو الأحجار.

ومنها: الذَّبحُ لغيرِ اللهِ، والذَّبحُ في مكانٍ يُذبحُ فيه لغير الله.

ومنها: النَّذرُ لغير الله.

ومنها: الاستعانةُ والاستغاثةُ بغير الله، إلى غير ذلك ممَّا يأتي بيانُهُ.

ومنها هذا الباب: وهو أنَّ الإنسان يربط في عضدِهِ خيطاً يقولُ: إنَّهُ يمنعُ من الحُمَّى.

ومثلُهُ هذه الحلقة التي جاءت في هذا الوقت يجعلها في العضدِ؛ لأنَّها

تمنعُ من الحُمَّى، أو تمنع من الرُّوماتيزم[1] الذي يحصل في الرُّكَبِ، وهي حلقةٌ من نحاسٍ بزعمهم أنَّ لها خاصيَّةً تمنعُ من الرُّوماتيزم، وأنَّها تمتصُّهُ، وغير ذلك من التُّرَّهاتِ، كُلُّ هذا إمَّا أنَّهُ يُنافي التَّوحيدَ بالكُليَّةِ، فيكونُ الإنسانُ مُشركاً حلالَ الدَّم والمالِ إلَّا أن يتوبَ، وإمَّا أن ينافي كمال التَّوحيد، وذلك على حسَبِ ما يقَعُ في اعتقادِ العَبدِ، فلهذا بدأَ المصنِّفُ بذكرِ الشِّركِ؛ لأنَّكَ لا تعرفُ التَّوحيدَ إلَّا إذا عرفتَ ضِدَّهُ، فكما أنَّكَ لا تعرفُ الوضوء حتَّى تعرفَ نواقضَهُ ومفسداتِهِ، وكما أنَّكَ لا تعرف شُروط الصَّلاة حتَّى تعرف ما يُنافيها ويُناقضها، وهكذا تعرفُ ـ أيضاً ـ شروط الحَجِّ وما يناقضه وما ينافيه، وكذلك المعاملات، تعرفُ شروط البيع، ثُمَّ تعرف محترزاتها، فمن شروط البيع: أن يكون البائعُ جائزَ التَّصرُّف، فالمجنونُ ونحوُهُ غيرُ جائزِ التَّصرُّفِ، فلا بُدَّ أن تعرف حقيقة المجنون والصَّبيِّ والمحجورِ عليه، ولا بُدَّ أن يكون البيع من مالكٍ، أو من يقومُ مقامَهُ، فتعرف أنَّ غيرَ المالك لا يصِحُّ تصرُّفُهُ في ملكِ غيره بغيرِ إذنِهِ، ولا بُدَّ أن يكونَ المبيعُ مقدوراً على تسليمه؛ فبيعُ الشَّارد لا يصِحُّ، لا بُدَّ أن تعرِفَ الأضدادَ، وكذا التَّوحيد لا بُدَّ أن تعرف ضدَّهُ وهو الشِّركُ بأنواعه، كما قيل:

ضدَّان لمَّا استجمعا حسُنا ... والضِّدُّ يظهرُ حُسنَهُ الضِّدُّ[2]

وكما قال عمر ﵁: «إنَّما تُنقضُ عرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليَّة»[3]، فلا بُدَّ أن تعرفَ الشِّركَ لأجلِ أن يستقرَّ في قلبكَ التَّوحيدُ.

(**بابٌ منَ الشِّرك لبسُ الحلْقَةِ والخيطِ ونحوهما لرفع البلاء**) بعد نزولِهِ (**أو دفعِهِ**) قبل أن ينزل؛ يعني: أنَّهُ يربط على عضدِهِ خيطاً يقولُ: إنَّهُ يمنعُ من الحُمَّى، أو يتَّخذ على عَضُدِهِ حلْقَةً من حديدٍ بزعمه أنَّها تمنعُ الحمَّى وأنَّ لها

---

(١) هو: التهاب يصيب المفاصل.
(٢) شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٢٢).
(٣) سبق الكلام على هذا الأثر.

خاصيَّةً بذلك، كُلُّ هذا من الأمور الباطلةِ، وأيُّ خاصيَّةٍ عندَ هذه الحديدة؟! هذا من وسائل الشِّرك وذرائعِهِ، أمَّا لو اعتقدَ أنَّها بذاتها هي التي تدفع البلاء وتجلب النَّفع، فهذا كافرٌ مُنكِرٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة، حيثُ اعتقد أنَّ هذه الحلْقَةَ تنفعُ وتضُرُّ.

فإذا قالَ: أنا لا أعتقد أنَّها تنفعُ أو تضُرُّ، لكن فيها خاصيَّة تمتصُّ الروماتيزم وما أشبه ذلك.

نقول: هذا من الوسائل، وأيُ خاصيَّة عند هذه؟!

لو قال: هذا من الأسباب.

نقول: نحن لا ننكرُ الأسبابَ، لكن الأسباب على حسب ما جاءت به الشَّريعة، أمَّا أنَّك تأتينا بوسائل الشِّرك وتقول: هذا من الأسباب! إذن تذهب للقبر وتقول: هذا من الأسباب! وتذهب ـ أيضاً ـ إلى المكان الفلاني وتقول: إنَّهُ تِرياقٌ مجرَّبٌ! وتقول: هو من الأسباب!

الأسبابُ: ما دلَّ الدَّليلُ على إباحتِهِ منها فهذا لا بأس، فالله خلقَ الأسبابَ ورتَّبَ عليها مُسَبَّباتِهَا، لهذا عقد المصنِّفُ هذا الباب، وكما سيأتي في حديث عمران رضي الله عنه وحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

والصَّحابة عرفوا أنَّ هذا لا ينفع، فحذيفة لما رأى رجلاً علَّق خيطاً قال: «ما هذا؟!».

قال: من الحمَّى، فقطعه حذيفة وتلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

وكذلك الحديث: «**من تعلَّق تميمة فلا أتمَّ الله له ومن تعلَّق ودعة فلا ودع الله له**»[(١)]؛ يعني: لا جعله الله في دَعَةٍ، بل حرَّك عليه كُلَّ وجع ومؤذٍ وبلاءٍ؛ لتعلُّقه بغير الله، حتَّى لو قال إنَّها سبب، كُلُّ هذا من الأمور الباطلة، نعم، دعاءُ الله سببٌ، والقرآن والأدوية المباحة سببٌ، أمَّا مثل هذه الأشياء فلا تمتُّ للأسباب بصلة، بل هي من وسائل الشِّرك.

---

(١) يأتي تخريجه قريباً.

۞ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

(﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾)؛ أي: قل يا محمَّد لهؤلاء المشركين: أرأيتم ما تدعون من دون الله، من اللَّات والعُزَّى ومناة الذين اتَّخذتموهم آلهة، تريدون أنَّها تجلِبُ لكم نفعاً أو تدفع عنكم ضرراً أو من هو فوقهم وأفضل منهم كالملائكة أو الأنبياء أو الصَّالحين، فهؤلاء الذين تجعلونهم أسباباً ووسائط بينكم وبين الله لإيجاد نفع أو دفع ضرٍّ (﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾): إذا أراد الله العباد بمرضٍ أو فقرٍ أو بلاءٍ أو جدبٍ أو قحطٍ فهل تستطيع أن تدفع هذه الضَّرر؟! أبداً لا تستطيع.

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨]: صحَّة، عافية، سعة رزق، أمن، هل تستطيع هذه الآلهة إمساك هذه الرَّحمة وإبقاءها على أن لا تزول؟! لما نزلت هذه الآية على الرَّسول ﷺ وتلاها على المشركين لم يستطيعوا أن يجيبوا.

ثُمَّ قال: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]؛ أي: كافيني الله، فالله هو الذي يكفيك من البلاء والشَّر والمرض والفقر، والله يعطيك الصحَّة والرِّزق والعافية، فهو القادر على ذلك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢] فالله إذا أعطانا صحَّة وعافية فلا قدرة لأحدٍ على إزالتها إلَّا هو، وما يمسك من ذلك فلا قدرة لأحد على إيجاده وإيصاله للنَّاس إلَّا هو، الأمور بيد الله، كيف تُدعى مثل هذه وتُسأل؟! ويقال: إنَّها من الأسباب الجالبة للنَّفع أو الدَّافعة للضرر، بل ذلك كلُّهُ لله وحده.

وهذه الكلمة: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] هي كلمة النبي محمَّد ﷺ وكلمة إبراهيم الخليل عند الشَّدائد؛ فإنَّ إبراهيم لما أُلقي في النَّار لم يزد على قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] والرَّسول ﷺ لمَّا قيل

له يوم أُحد: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ أي: كافينا الله ونعم الموصول إليه، أمور عباده هو الذي يدبِّرها، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، وقد ألَّف بعض العلماء[١] رسالة على هذه الكلمة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، سمَّاها: «السِّرُّ الجليلُ في خواصِّ حسبنا الله ونعم الوكيلُ»، وذكر ما فيها من الخصائص والفضائل وما تتضمَّنه من الاعتماد والتَّوكُّل على الله ـ سبحانه ـ، وأنَّ هذا هو قول الأنبياء؛ كما قال هود لما دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قابلوه بهذه المقابلة السَّيئة، قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]؛ أي: إن نقول إلَّا اعتراك بعض معبوداتنا بجنون، فأنت مجنونٌ؛ لأنَّهُ بزعمهم أن ما يعبدونه بعثَ الجنَّ أو الجنونَ وسلبَ هوداً عقلَهُ ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] فهو ﷺ لما قال له قومُهُ ما قالوا حينما دعاهم إلى الله وأمرهم بعبادته وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة الآباء أجابهم بهذه المقالة، وأنَّهُ متوكِّلٌ على الله ومعتمِّدٌ عليه، وأنَّ آلهتهم لم تصبه بسوءٍ لا بجنونٍ ولا غيرِهِ، بل فهموا ما جاء به؛ كما في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾ الآية [الأعراف: ٧٠].

وفي الآية: اللُّجوء إلى الله، فإذا تأمَّلت القرآن والأدعية الثَّابتة عن النبيِّ ﷺ تجد فيها اللُّجوء إلى الله ﷻ، واعتقاد أنَّ الله هو الذي يجلِبُ النَّفعَ ويدفعُ الضُّرَّ كما في حديث سيِّد الاستغفار: «**اللَّهُمَّ أنت ربي لا إله إلَّا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي؛ فإنَّهُ لا يغفر الذنوب إلَّا أنت**»[٢]؛ يعني: أقرُّ لك بذنبي وأقرُّ لك بنعمتك عليَّ، وكما في الدُّعاء

---

(١) وهو أبو الحسن الشاذلي، ورسالته مطبوعة.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٠٦) من حديث شدَّاد بن أوس رضي الله عنهما.

المعروف الذي رواه ابن مسعود ﷺ: «**اللَّهُمَّ إنِّي عبدك وابن عبدك**» إلى أن قال: «**أسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري**»(١)، شبَّه قلبه بالأرض والقرآن بالمطر، فالمطر إذا نزل على الأرض أنتجت ونبتَ العشبُ والكلأ والخير الكثير ممَّا له روائح طيِّبة وممَّا هو نافع، فالقرآن إذا نزل على القلب روى القلب حينئذٍ؛ لأنَّهُ بمنزلة الأرض استنتج منه العلوم والإيمان بالله والتعلُّق به دون من سواه.

كلُّ هذا يدلُّ على أنَّ هذه التعلُّقات لا أصل لها، مع أنَّنا لا ننكر الأسباب الشرعيَّة التي جاءت بها الشَّريعة؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**عباد الله تداووا، ولا تداوو بحرام؛ فإنَّ الله لم يجعل شفاء أُمَّتي فيما حرَّم عليها**»(٢)، فلو قال هذا الذي علَّق الحلقة: هذا من باب التداوي.

نقول: لا، بل هذا من وسائل الشِّرك وذرائعه، لا من باب التداوي، فالتداوي معروفٌ.

ولو قال ـ مثلاً ـ: أنا آخذ من تراب هذا القبر من باب التداوي، ومن باب تعاطي الأسباب.

نقول: لا، فالأسباب الجائزة هي ما دلَّ الشَّرع على إباحته، ولهذا قالَ الرَّسول ﷺ: «**ولا تداووا بحرام**»، فإذا كان قد نُهي عن التَّداوي بالحرام فما ظنُّكَ بالتَّداوي بما هو من وسائل الشِّرك وذرائعه؟!

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٧١٢) وغيره، وفي إسنادِهِ من لا يعرف حالُهُ، ينظر: علل الدَّارقطني (٥/ ٢٠١)، تعليق الذَّهبي على المستدرك (١/ ٥١٠).

(٢) رواهُ أبو داود (٣٨٧٤) ـ ومن طريقه البيهقيُّ (١٩٦٨١) ـ من حديث إسماعيل بن عيَّاش، عن ثعلبة بن مسلم، عن أبي عمران سليمان بن عبد الله الأنصاري، عن أُمِّ الدرداء، عن أبي الدرداء به مرفوعاً.
وإسنادُهُ حسنٌ؛ فإسماعيل إذا روى عن أهل الشَّام فحديثه محتجٌّ به، وثعلبة شاميٌّ صدوقٌ، روى عنه جماعة.

۞ عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفر، فقال: «**ما هذه؟**».

قال: من الواهنة.

فقال: «**انزعها فإنَّها لا تزيدُك إلَّا وهناً، فإنَّك لو متَّ وهيَ عليكَ ما أفلحتَ أبداً**» رواهُ أحمدُ بسندٍ لا بأسَ بهِ(١).

الحديث فيه فوائد:

أوَّلاً: دلَّ على أنَّهُ لا يجوز تعليق الأوتار ولا التَّمائم ولا الودع ولا الحلق لغرض الاستشفاء والتَّداوي؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ أنكر عليه، وفي الرِّواية الأخرى أنَّ المنكَرَ عليه هو عمران بن حصين نفسه، وأنَّهُ هو الذي دخل على النبيِّ ﷺ وفي عضده حلقة فأنكر عليه ﷺ إنكاراً شديداً، فدلَّ على أنَّها لا تغني ولا تنفع.

---

(١) رواه الإمامُ أحمدُ (٣٣/ ٢٠٤) (٢٠٠)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبَّان (٦٠٨٥)، والطبرانيُّ (٣٩١) من حديث مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن عمران به مرفوعاً.
مبارك فيه لينٌ، وقد تابعه صالح بن رستم عند الحاكم (٤/ ٢٤٠) إلَّا أنَّ صالحاً فيه ضعفٌ ـ أيضاً ـ، والحسن لم يسمع من عمران كما قال جماعةٌ من النُّقَّاد، ينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (ص٤٠).
أمَّا مبارك فإنَّهُ وإن كان مُدلِّساً إلَّا أنَّ عنعنته الظَّاهر أنَّها محتملة منه؛ فإنَّهُ قد لازم الحسن بضع عشرة سنة وأكثرَ عنهُ، وروايته عنه هي من أقوى حديثه كما قال الإمام أحمد، ينظر: سؤالات المروذي (١٨٢).
وأمَّا ما جاء في مسند الإمام أحمد من تصريح الحسن بسماعه من عمران فغلطٌ من مبارك؛ فإنَّ الإمام أحمد ذكر أنَّ مباركاً يروي عن الحسن فيقول: «أخبرنا أبو بكرة... أخبرني عمران...» وأصحاب الحسن لا يقولون ذلك، ينظر: الجرح والتَّعديل (٨/ ٣٣٩)، الضُّعفاء للعقيلي (٤/ ٢٢٤).
وقد وقع في الخبر اختلافٌ، فقد رواه الثِّقات الأثبات معمر بن راشد ويونس بن عبيد ومنصور بن المعتمر عن الحسن عن عمران موقوفاً عليه، رواية معمر في (جامعه ١١/ ٢٠٩)، ورواية يونس ومنصور أخرجها ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٠ ـ ٤١) (٢٣٩٢٦ ـ ٢٣٩٢٧)، وهو الصَّواب، وبقي الانقطاع بين الحسن وعمران، والله أعلم.

ثانياً: أخبر أنَّها لا تزيده إلَّا وهناً؛ فإنَّ الإنسان إذا اتَّخذ شيئاً لا يجوز فإنَّهُ يزيدُهُ مرضاً على مرضه عقوبةً له ونقيضاً لقصدِهِ، وإن كانت تلك الحلقة لا ضرر فيها ولا نفع، بل وجودها كعدمها، ولكن لما رأى الرَّسولُ ﷺ الرَّجُلَ اتَّخذها من أجل الواهنة أخبره بأنَّهُ لا تزيده إلَّا وهناً، عقوبةً له ونقيضاً لقصده، والذي يزيد الوهن هو الله.

ثالثاً: (الوهن) هو: عِرقٌ يأخذ بمنكب اليد فيحصل شيء من الألم أو الفتور.

رابعاً: فيه دليلٌ على أنَّ الإنسان يُنكر إذا رأى المنكر، ويكون الإنكار على حسب المنكر، فالنبيُّ ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيدِهِ فإن لم يستطع فبلسانه**»[1]، والرَّسولُ ﷺ يستطيع الإنكار بيدِهِ ولكن عَلِمَ أنَّ بإنكاره بلسانه يمتثل المنكَرُ عليه، فإذا كان يمتثل باللِّسان فلا داعي لليد، ولهذا قال: (**انزعها فإنَّها لا تزيدك إلَّا وهناً**).

وقوله: (**انزعها**) فيه دليلٌ على شِدَّةِ التَّخلُّص منها بقوَّة، ممَّا يدلُّ على الابتعاد عن التعلُّق بغير الله.

خامساً: أنَّ الإنسان لا يُعذَرُ بالجهل لا سيَّما في الشِّركِ ووسائلِهِ، فهذا عمران ما اتَّخذها إلَّا لغرض أنَّها من الواهنة؛ أي: تنفعه ممَّا به من الواهنة، ومع هذا قال له الرَّسول ﷺ: (**لو متَّ وهي عليك ما أفلحتَ**)، وإلَّا فمعلومٌ أنَّهُ لا يمكن أن يخالف عمران النبيَّ ﷺ وهو يعلم، فالإنسان لا يُعذر بالجهل، بل لا بُدَّ أن يسأل ويتعلَّم، كي لا يقع في الشِّرك من غير ما يشعر، بل يبحث ويسأل أهل العلم، وينظر هل هذا من الأمور الجائزة أو غير الجائزة؟ فالشِّركُ ووسائلُهُ لا يُعذر أحدٌ بالجهل فيها؛ لأنَّ المسلمين مُتَّفقون على أنَّها لا تجوز، ولأنَّ القرآن والسُّنَّة دلَّا على المنع من ذلك، وليس هذا من باب الفروع الذي يختلف فيه العلماء ويكون المجتهد فيه إمَّا مصيباً له أجران وإمَّا مخطئاً له أجرٌ واحدٌ، هذه عقيدة لا يُعذر أحدٌ بتركها؛ لأنَّهُ يتعلَّق

(١) رواه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

بغير الله ـ سبحانه ـ، حتَّى لو قال: «إنِّي أعتقدُ أنَّ النَّافع الضَّار هو الله»، ما دام أنَّهُ اتَّخذ ما هو من وسائل الشِّرك وذرائعه فهو لا يعذر، وإن زعمَ أنَّ النَّافع الضَّار هو الله.

سادساً: قولُهُ ﷺ: **(لو متَّ وهي عليك ما أفلحت)** (الفلاح): هو الفوز والظَّفر والسَّعادة، فإذا ماتَ وهو على تلك الحالة انتفى عنه الفوزُ والظَّفَرُ والسَّعادةُ.

وكلُّ ما يتعلَّق به الإنسان من غير الله، أو من الأسباب التي لم يُجزها الشَّارع، مثل تعليق الوتد على الدَّواب أو تعليق التَّمائم أو تعليق الودع أو تعليق الحلق أو تعليق الخيوط، وما أشبه ذلك، كُلُّها ممنوعةٌ وهي من وسائل الشِّرك، وإن كانت من الشِّرك الأصغر إلَّا أنَّ الشِّرك الأصغر أكبر من الكبائر، أكبر من الزِّنا، وأكبر من شرب الخمر.

روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده، والإمام أحمد هو: أحمد بن محمَّد بن هلال، إمامُ أهل السُّنَّة وعالمهم، وهو الذي قال فيه ابنُ النَّحَّاس: «عن الدُّنيا ما كان أصبرَهُ، وبالماضين ما كان أشبهَهُ، أتتهُ الدُّنيا فأباها، والشُّبه فنفاها»(١).

(عن الدُّنيا ما كان أصبره): لا يلتفت للدُّنيا وليس عنده شيء منها، ولا يبالي بشيء منها، فمن ذلك ما ذكرَهُ ابنُ الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»(٢) ذكر ما معناه: أنَّ سفينة كانت في البحر غرقت فبقي منها لوحٌ وعليه رجلٌ تُقلِّبه الأمواج، قال: «فجاءني رجلان وقالا: إن شئتَ نجَّيناك من هذا البحر بشرط أن تبلِّغ سلامنا أحمد بن حنبل».

فقلت لهما: «نعم أبلِّغه».

وأنا لا أعرف أحمد، فقال أحدُهُمَا: «أنا الملَكُ الموكَّلُ بالبحارِ»، وقال الآخر: «أنا الملَكُ الموكَّلُ بالجبالِ»، فأنقذاه حتَّى ألقياه على السَّاحل،

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٢٣)، وابن النَّحَاس هو: عيسى بن محمَّد الرملي، محدِّثٌ ثقَةٌ.
(٢) (ص١٩٠).

قال: «فجئت لأبحث عن أحمد وأُخبرتُ أنَّهُ ببغداد، فذهبت إلى بغداد وطرقت عليه الباب فقابلني تلميذُهُ أبو بكر المرُّوذي، فقلت له: «غريبٌ أحملُ رسالةً لأحمدَ».

فأذن لي فدخلتُ، فأخبرته بما قيل لي، وأنَّ الملَكَ الموكَّلَ بالبحار والملَكَ الموكَّلَ بالجبال أنقذاني بشرط أن أبلِّغك السَّلام.

فبكى، وذهب إلى بيته فجاءني من بيته بكسرة رغيفٍ وقال: «هذه بشارتُكَ، والله لا أملك غيرها، ولو كنت أملك غيرها لواسيتك».

هذا معنى: «عن الدُّنيا ما كان أصبره»، لم يجد إلَّا كسرة خبزة، هذا شأن الإمام أحمد.

(وبالماضين ما كان أشبهَهُ): كأبي بكر رضي الله عنه؛ فإنَّهُ صبرَ يوم المحنة كما صبرَ أبو بكرٍ يوم الرِّدَّة، قال ابنُ المديني: «أحيا الله هذا الدِّين برجلين: أبي بكرٍ يوم الرِّدَة وأحمد يوم المحنة»[١].

وقال بعضُهُم: أبو بكر كان عنده من يساعده من الصَّحابة، قاتل بهم أهل الرِّدَّة، وأمَّا أحمد فليس عندَهُ أحدٌ، وقد مكث في السِّجن، سنتين وأربعة أشهر، يُخرَجُ فيُجلدُ ليقول بخلق القرآن ويُحمل له أربعة آلاف كاتب لعلَّهُ يقول بخلق القرآن ومع هذا يمتنع مع أنَّهُ مُكرَهٌ، لكن خشي أن يتناقل النَّاسُ أنَّ الإمام أحمد يقول بخلق القرآن فيضِلَّ النَّاسُ، صبر على الضرب العظيم والمحن، في أيَّام المأمون والمعتصم والواثق، حتَّى خُفِّفَ عنه بسبب رجل من أهل مصيصة اسمه محمَّد بن عبد الرحمٰن الأذرمي على ما ذكرَهُ المؤرِّخون، وذلك أنَّهُ جاء إلى الواثق فسلَّمَ عليه وكان عنده ابن أبي دؤاد الذي يقول بخلق القرآن والذي دعا النَّاس إلى هذا، وهو رئيسُ القضاة في وقتِهِ، فدخل عليه الرَّجُلُ، فسلَّم عليه فقال: «السَّلام عليك يا أمير المؤمنين».

فلم يردَّ عليه!

(١) رواه الخطيب في تاريخه (٥/ ١٨٤).

فقال: بئسَ الأدبُ يا أمير المؤمنين، فالله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦] فردَّ عليه السَّلام.

فقال: «يا أمير المؤمنين أريد أن أسأل القاضي أحمد بن أبي دؤاد عندك» ـ وكان الإمام أحمد في السِّجن ـ.

قال له: «نعم».

فقال الرَّجلُ: «يا أحمد بن أبي دؤاد، هذا الذي تدعو النَّاس إليه ـ وهو القول بخلق القرآن ـ، هل عَلِمَهُ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي؟».

قال: «لا، لم يعلموه».

قال: «أعلمتم شيئاً لم يعلمه رسولُ الله ولا الخلفاء الأربعة؟!».

فخجل وقال: «لا، بل علموهُ».

قال: «هل دعوا النَّاس إليه؟».

قال: «لا».

قال: «أما وَسِعَكُمْ ما وَسِعَهُمْ؟!».

فانتبَهَ الواثقُ ودخل واستلقى على سريرِهِ وجعلَ يقولُ: «أما وَسِعَكُمْ ما وَسِعَهُمْ؟! لا وسَّع الله على من لم تسعْهُ طريقة محمَّد ﷺ وأصحابه»، فعند ذلك خفَّفَ المحنة عن الإمام أحمد، إلَّا أنَّهُ لم يخرج إلَّا بعد وفاته حين استُخلف المتوكِّلُ على الله(١).

قوله: «والشُّبه فنفاها» بالأدلَّة الواضحة القاطعة.

وللإمام أحمد أخبارٌ ومناقب كثيرة، وقد ألَّف العلماء في ترجمته المؤلَّفات العديدة، وله المصنَّفات العديدة، ومذهبه هو المذهب الحنبلي، وكاد أن ينقرض ويتلاشى ويذهب مثلما ذهب مذهب ابن جريرٍ ومذهب سفيان الثَّوري، لكن الذي قام بنصرته وجمع الأدلَّة له ونشره وجمع الروايات عنه هو

(١) ينظر: تاريخ بغداد (٥/ ٢٣٣)، تاريخ دمشق (٧١/ ١٢٣).

القاضي أبو يعلى، فهو الذي قام ببيان مذهب الإمام أحمد ونشرِهِ، وأخذَهُ عنهُ أصحابُهُ، وألَّف فيه المؤلَّفات، فمن ذلك الحين انتشر، إلَّا أنَّ انتشارَهُ لم يكن كالمذاهب الأخرى، الحنفي أو الشَّافعي، والسَّبب في ذلك كما قال غير واحد أنَّ النَّاسَ يتمذهبون بمذهب الخلفاء أو الملوك، فالأتراكُ أحنافٌ، فصار أكثرُ النَّاس أحنافاً تبعاً للدَّولة التركيَّة، فمذهب الإمام أبي حنيفة هو أوسع المذاهب انتشاراً، وكذا مذهب الإمام مالك انتشرَ في المغرب، وقد ذكر ابن خلدون أنَّ من أسباب انتشاره في المغرب أنَّ أهل المغرب فيهم شيءٌ من البداوة، والحجاز فيهم شيء من البداوة، فتشاكلوا فصاروا يذهبون إلى المدينة فيتعلَّمون من مذهب الإمام مالك، فتمذهبوا بمذهب الإمام مالك(١).

والإمام الشَّافعي ـ أيضاً ـ له أتباعٌ في العراق ومصر إلَّا أن مذهبَهُ هو قوله الأخير وهو الذي يطلق عليه عند الشَّافعية: (القول الجديد)، وهو ما قالَهُ في مصر، والقديم في العراق.

أمَّا الإمام أحمد فإنَّ أتباعه ليسوا بالكثير؛ لأنَّهُ لم يكن أحدٌ من الملوك ولا من الخلفاء اعتنق هذا المذهب، وأكثر أتباع الإمام أحمد هم أهل الحديث الذين يعملون به، ولذا تجد مؤلَّفات الحنابلة لا سيَّما في الفروع مملوءة بالأدلَّة بخلاف المذاهب الأخرى، تجدها عبارات مجرَّدة إلَّا ما كان في الكتب المطوَّلة، انتشر في نجدٍ وعلى قلَّة في بلاد أخرى كالعراقِ والشَّامِ ومصرَ، لم ينتشر إلَّا في البلاد النَّجديَّة، ولذا قال ابن بدران في بعض مؤلَّفاته لما كتب شيئاً من الحواشي في كتب الحنابلة: «لولا أهل نجدٍ لما حركت في مذهب أحمد قلماً»(٢).

(١) مقدِّمة ابن خلدون (ص٥٦٨).
(٢) المدخل (ص٤٢٣).

۞ وَلَهُ عن عقبة بن عامر مرفوعاً؛ يعني: قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ اللهُ لَهُ، ومن تعلَّق ودعةً فلا ودعَ اللهُ لَهُ»[(١)].
وفي روايةٍ: «من تعلَّق تميمةً فقد أشرك»[(٢)].

(**من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له**)، (**التَّميمة**): شيءٌ يعلَّقُ خوفاً من العين، يزعمون أنَّها تمنع عن العين، وتُعلَّقُ على الأطفال وعلى غيرهم، كانوا في الجاهليَّة يفعلون هذا اتِّقاء العين، فأخبر النبيُّ ﷺ بأنَّ هذا لا يجوز، وأنَّهُ من تعلَّق بمثل هذه التَّميمة فلا أتمَّ الله له مرادَهُ، بل ينعكس عليه أمرُهُ، فإن قلت: أليس هذا من الأسباب؟

نقولُ: الأسباب لا يجوز تعاطيها إلَّا إذا كانت الشَّريعة الإسلاميَّة تبيحُها كالتَّداوي بما هو جائزٌ ـ مثلاً ـ، هذا لا مانع منه، أمَّا تعاطي الأسباب الممنوعة شرعاً والتي هي وسائل للشِّرك فهذا لا يجوز، وكما تقدَّمَ أنَّ الاعتماد على الأسباب المباحة شركٌ، وتركها قدحٌ في الشَّريعة، فإذا كان هذا في الأسباب المباحة فما ظنُّكَ في الأسباب الممنوعة؟ أما إذا اعتقد أنَّ السَّبب هو المؤثِّر، فلا شكَّ أنَّ هذا شرك أكبر.

وأمَّا تعليق التَّمائم من القرآن؛ كما لو كتب آيات قرآنيَّة وأدعية نبويَّة وخرزها في جلد كما يفعله بعض النَّاس وعلَّقها على طفله، وهي خالية من الطلاسم، وخالية من الحروف المقطَّعة، وخالية من الأسماء المجهولة، بل

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٨/٦٢٣) (١٧٤٠٤)، والحاكم (٤/٢١٦) وغيرهما من حديث خالد بن عبيد، عن مِشرح بن هاعان، عن عقبة بن عامر، به مرفوعاً.
وإسنادُهُ حسنٌ، وخالد ليس بالمشهور.

(٢) أخرجها الإمام أحمد (٢٨/٦٣٦) (١٧٤٢٢)، والحاكم (٤/٢١٩) وغيرهما من حديث يزيد بن أبي منصور، عن دخين الحجري، عن عقبة، به مرفوعاً.
وإسنادها جيِّدٌ، يزيد ودخين ثقتان.

كُلُّها آيات كالفاتحة وآية الكرسي وما أشبه ذلك، فالعلماء اختلفوا في حكم تعليقها، والصَّواب المنعُ حتَّى ولو كانت التَّميمة من القرآن، حسماً لمادة الشِّرك وذرائعه، ولئلَّا يُدخَل في القرآن ما ليس منه، ولأنَّهُ يدخل بهذه التميمة الأمكنة القذرة وأماكن قضاء الحاجة، والقرآن منزَّهٌ عن هذا.

أمَّا قراءة القرآن على المريض فلا مانع منها، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وإن كان شفاء للقلوب فلا يمنع من أن يكون شفاء للأبدان.

(ومن تعلَّق ودعة فلا ودع الله له)، **(الودْعة)**: شيء يشبهُ الصَّدف يُخرَجُ من البحر، يُعلِّقونه ويرون أنَّ هذه لها خاصيَّة تدفع العين، وهذا لا يجوز، قال الرَّسول ﷺ: «**ومن تعلَّق ودعة فلا ودع الله**»؛ أي: حرَّكَ الله عليه كُلَّ مؤذٍ ومؤلمٍ ولا جعله اللهُ في دَعةٍ وهدوءٍ؛ لأنَّهُ طلب الشِّفاء من غير الله وتعلَّق بغير الله، فلا يجوز استعمال مثل هذه الأشياء، ومثل ذلك الحلقة النحاسية التي يُعلِّقونها الآن ويقولون: إنَّها تمنع من الرُّوماتيزم، وأنَّ لها خاصيَّة، كلُّ هذا لا أصلَ له، بل أُحيلت تلك الحلقة إلى المختبرات وحتَّى الآن لم يصلوا إلى شيء والظَّاهر أنَّهُ ليس فيها شيء بالكليَّة، وإنَّما هو تعلُّق بغيرِ الله.

عليه أن يدعو بالأدعية النبويَّة، كقوله ﷺ: «**أذهب الباس ربَّ النَّاس، واشف أنت الشَّافي، لا شفاء إلَّا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»[1]، ومثل قوله: «**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التَّامات من شَرِّ ما خلق لم يضرَّهُ شيءٌ حتَّى يرحل من منزله ذلك**»[2]، فالتعلُّق بالله والالتجاء إلى الله هو الذي ينفع، ويكفي العبدَ شرَّ كُلِّ شيء، أمَّا تعلُّقه بالخيوط والودع والتَّمائم والحروف المقطَّعة والطلسمات، فكُلُّ هذا لا أصل له.

وبالنسبة للحروف يستخرجون بها المغيَّبات، ويقولون: إذا كان قابل هذا زوج أو هذا فرد أو هذا وتر أو هذا كذا فإنَّهُ يحدثُ عليك كذا، مثلاً: تحسب

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٦٧٥)، ومسلمٌ (٢١٩١) من حديث عائشة ﵂.
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم ﵂.

اسمك واسم أمك بحروف الجُمَّلِ، ثُمَّ تخصِمُ أو تطرح منه بعدما يجتمع عدداً معيَّناً، فإذا بقيت البقيَّة عُرِفَ المغيَّب، مثلاً:

في أيِّ برج أنت ولدت؟ في برج الحوت أو في برج الحمل أو الثور أو الدلو؟

ثُمَّ يقولون: إنَّك إذا ولدت في برج الحوت ـ مثلاً ـ يكون عمرك ستِّين أو سبعين سنة، ويكون لك من الأولاد كذا ويجري عليك كذا، ويكون بيتك كذا، ويجري عليك من المصائب كذا، وكُلُّ هذا من الأمور الباطلة لتعلُّقهم بغير الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

فقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: يُبطِلُ كُلَّ ما زعموا من تنجيم أو حسابٍ أو حروفٍ مقطَّعةٍ أو ما أشبه ذلك، وقد ألَّفوا في ذلك مؤلَّفات كثيرة، ككتاب أبي معشر الفلكي، و«شمس المعارف الكبرى»[1]، وكُلُّها لا أصل لها، تعلَّقوا بغير الله، إلَّا أنَّهم يختلفون في كيفيَّة استخراج المغيَّبات، كما قال الشَّاعر[2]:

لعمرك ما تدري الطوارقُ بالحصى ... ولا زاجرات الطَّير ما اللَّهُ فاعلُ

والآخر يقول في الذين يريدون استخراج المغيَّبات بما يفعلونه من حساب أو تنجيم أو غير ذلك:

أطُلَّاب النُّجوم أحلتمونا ... على علم أرقَّ من الهباءِ

كنوز الأرض قد خفيت عليكم ... فكيف علمتم علم السَّماءِ؟!

أيُّ شيء عند هذا الخيط؟! أيُّ مصلحة فيه؟! هل عنده من القدرة ما يدفع عنك العين؟!

هذه الودعة التي يعلِّقها الإنسان أو هذه التميمة والحروف المقطعة أو الطلسمات، أيُّ خيرٍ فيها؟! أيُّ نفعٍ لديها؟!

---

(١) للبوني، كتابُ شعوذةٍ وسحرٍ.

(٢) وهو: طرفة بن العبد، ينظر: جمهرة أشعار العرب (ص٩٣).

كُلُّها ليست بشيءٍ، إنَّما هي خرافاتٌ وتُرَّهاتُ، ولذا دعا النَّبيُّ ﷺ على من تعلَّقها بأنَّ الله لا يُتِمُّ مرادَهُ وأن يعكسَ عليه أمرَهُ، ودعا على من علَّقَ الودعة أن يُحرِّكَ الله عليه كُلَّ مؤذٍ، وألَّا يجعله في دعةٍ وسكونٍ وهدوءٍ لتعلُّقِهِ بغيرِ اللهِ.

والمؤمن يعلِّقُ قلبه بالله ويوكِّلُ جميعَ أمورِهِ إليه، وهذا لا يُنافي تعاطي الأسباب المباحة من التَّداوي واتِّقاء الشَّرِ وما أشبَهَ ذلك، كُلُّ هذا لا مانع منه، بل جاءت به الشَّريعة.

وذكر بعض المؤرِّخين(١) أنَّ الواثق مَرِضَ ودعا المنجِّمين من أنحاء مملكتِهِ، وقال: «انظروا في اسمي وطالعوا كم بقيَ في عمري»، وهم نحو خمسين مُنجِّماً، وفرَّقهم بحيث لا يَطَّلِعُ أحدٌ على الآخر، ولا يعلم بما يكتبُهُ الآخرُ، فجعلوا يحدسون ويكتبون ويحسبون، وكُلُّهم أجمعوا من غير أن يعلمَ أحدٌ بأحدٍ بأنَهُ بقيَ من عُمْرِ أمير المؤمنين خمسين سنة ففرِحَ وسُرَّ، ثُمَّ لم يمكث إلَّا عشرة أيَّام ومات! الأمور بيد الله، هذا شأن التعلُّق بغير الله.

---

(١) ينظر: تاريخ الطَّبري (٩/ ١٥١)، الكامل (٦/ ١٠٧).

۞ ولابن أبي حاتم عن حذيفةَ أنَّهُ رأى رجلاً وفي يدِهِ خيطٌ من الحمَّى فقطعَهُ، وتلا قولَهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦][(١)].

نزلت الآية في الشِّرك الأكبر، لكن استُدِلَّ بها على الشِّرك الأصغرِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ لا يعتقد أنَّ الخيط هو المؤثِّر، وإنَّما يعتقد أنَّ الخيط سببٌ، وأنَّهُ من الأدوية المباحة، وأنَّ الله هو المؤثِّر، لكن يُستدلُّ بالآيات النَّازلة في الشِّرك الأكبر على الشِّرك الأصغر.

ومعنى الآية: يؤمنون بوجود الله ويؤمنون بأنَّ الله يخلق ويرزق ويعطي ويمنع؛ لكنَّهم يُشركون في عبادتِهِ، فهم مؤمنون بتوحيد الرُّبوبيَّة ويشركون في توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الربوبيَّة هو: أن نُوحِّد الله بأفعاله، وتوحيد الألوهيَّة هو: أن نُوحِّدَهُ بأفعالنا، فهؤلاء قد وَحَّدُوهُ في أفعاله إلَّا أنَّهُمْ لم يُوحِّدُوهُ بأفعالهم حيثُ جعلوا لله شريكاً، وجعلوا لله وسائط بينهم وبين الله، ففي أفعالهم أشركوا، وأمَّا في أفعال الله فهم موحِّدون.

والحاصل: أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أن يتعلَّق بغير الله، ولا أن يعتمدَ على خيط أو حلقة أو ودع أو تميمة أو طلسمات أو تنجيم أو حروف مقطَّعة أو كتابٍ من كتب الضَّلال؛ ككتابِ أبي معشر وما أشبَهَ ذلك، فكُلُّها من الأمور الباطلة التي إمَّا أنَّها تنافي التَّوحيد بالكُليَّة أو أنَّها تنافي كماله على التفصيل السَّابق بيانه، وأنَّ تعاطي الأدوية المباحة والأسباب المباحة لا تمنعُ منه الشَّريعةُ، فما أحسن ما جاءت به الشَّريعة الإسلاميَّة، ما أحسنها وأنفعها

(١) أخرجَهُ ابنُ أبي حاتم في تفسيره (٧/٢٢٠٨) (١٢٠٤٠) من حديث عزرةَ بن عبد الرحمٰن الخزاعي، عن حذيفة، وإسنادُهُ منقطعٌ.

للمتمسِّك بها دون هذه الخرافات، وهذه الخيوط التي يستعملها كثير من الناس، أو الكتب التي تبحث في هذه المواضيع وتكتب عن هذه الأشياء، وفي كتاب: «حياة الحيوان» للدَّميري أشياء من هذا في ذكر الخواصِّ، وكُلُّها أو معظمها لا أصلَ لها.



بابُ
ما جاءَ في الرُّقى والتمائم

في «الصَّحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنَّهُ كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسلَ رسولاً أن لا يُبقينَّ في رقبةِ بعيرٍ قلادةً من وترٍ أو قلادةً إلا قُطِعَتْ.

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ الرُّقى والتَّمائم والتِّولة شركٌ**»، رواهُ أحمدُ وأبو داودَ.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «**من تعلَّق شيئاً وُكل إليه**»، رواهُ أحمدُ والترمذيُّ.

«التَّمائم»: شيءٌ يعلَّق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلَّقُ من القرآن، فرَّخص فيه بعضُ السَّلَفِ، وبعضهم لم يُرخِّص فيه، ويجعله من المنهيِّ عنهُ، منهم: ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه.

و(**الرُّقى**): هي التي تُسمَّى (العزائم)، وخصَّ منه الدَّليل ما خلا من الشِّرك، فقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ من العينِ والحُمَةِ.

و(**التِّولة**): شيءٌ يصنعونه يزعمون أنَّهُ يحبِّبُ المرأةَ إلى زوجها، والرَّجل إلى امرأتِهِ.

وروى الإمامُ أحمدُ عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«يا رويفع لعلَّ الحياة تطولُ بكَ، فأخبر النَّاس أنَّ من عقدَ لحيتَهُ، أو تقلَّدَ وتراً، أو استنجى برجيعِ دابَّةٍ أو عظمٍ، فإنَّ محمَّداً بريءٌ منهُ».

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواهُ وكيعٌ.

ولَهُ عن إبراهيمَ قال: «كانوا يكرهون التَّمائم كُلَّها، مِنَ القرآن وغير القرآن».



بابُ
ما جاءَ في الرُّقى والتمائم

(الرُّقى): جمعُ رقيةٍ، وهي: العزائم التي يُرقى بها الملدوغ أو المصاب بالعين أو ما أشبه ذلك.

ومقتضى ما جاءت به الشَّريعة أنَّ الرُّقى على ثلاثة أقسام:

الأوَّلُ: قسمٌ محرَّمٌ، وربَّما وصل إلى الشِّرك.

الثَّاني: قسمٌ جائزٌ لا خلاف فيه.

الثَّالث: قسمٌ فيه الخلاف بين أهل العلم والصَّواب المنع منه، ويأتي تفصيل ذلك كُلِّهِ.

۞ في «الصَّحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنَّهُ كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسلَ رسولاً أن لا يُبقينَّ في رقبةِ بعيرٍ قلادةً من وترٍ أو قلادةً إلا قُطِعَتْ[(١)].

(فأرسل رسولاً)، الرَّسولُ: هو زيدُ بن حارثة[(٢)].

قوله: **(ألَّا يبقينَّ في رقبةٍ بعير قلادةً من وترٍ)**: الوَتَرُ: بفتحتين، المراد به وَتَرُ القوسِ الذي يرمونَ بهِ، وهذا الوتر يكون من المصارين والكرش يجعلونها بالقوس ويرمون بها الصَّيد، وبها يقتتلون قبل وجود الأسلحة الحديثة وهي تقتل، فإذا اخلولق الوَتَرُ عندهم وارتخى أبدلوهُ بجديدٍ، وعلَّقوا هذا الوتر القديم على نفائس الخيل ونفائس الإبل، ظنّاً منهم أنَّها تمنعُ العينَ، فتكون

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٠٠٥)، ومسلمٌ (٢١١٥).

(٢) ينظر: الاستذكار (٣٩٦/٨)، ولم يقف على تعيينه سبط ابن العجمي في تنبيه المعلم (ص٣٦٣).

الإبلُ سليمةً وكذلك الخيلُ، فمنع النبيُّ ﷺ من ذلك، حتَّى لا يتعلَّقوا بشيء غير الله.

(إلَّا قُطِعَتْ): لا بُدَّ من إزالتها كُلُّ ذلك حسماً لمادَّةِ الشِّركِ وذرائعِهِ، فرُبَّما اعتقدوا أنَّ ذلك الوَتَرَ المعلَّق هو الجالب للخير والسَّلامة، والمانع من العين، فإذا اعتقدوا هذا فهو شركُ أكبرُ، وإذا اعتقدوا أنَّ الله هوالمؤثِّر، وهو الذي يجلِبُ النَّفعَ ويدفعُ الضررَ، ولكن الوتر سببٌ فهذا محرَّمٌ؛ لأنَّ الأسباب لا تكون مباحةً إلَّا بإذن الشَّارع بها، فاتَّضح من هذا أنَّ ما يجعله بعض السَّائقين على سيَّاراتهم من أشياء بزعمهم أنَّها تمنع العين تجِبُ إزالتها بكُلِّ حالٍ، وأيُّ نفعٍ عند هذا؟! هذا ممَّا كانت تفعلُهُ جاهليَّةُ العربِ.

الأمور بيد الله، والشَّيطان يتدرَّجُ بهم عندما يعلِّقون هذه الأشياء إلى أن يعتقدوا أنَّ المعلَّق هو المؤثِّرُ بنفسِهِ، فالنبيُّ ﷺ حسمَ مادَّة الشِّركِ وذرائعَهُ، ومنع من وسائله مراعاة للغاية.

والرُّقية على ثلاثة أقسام:

الأوَّلُ: الرُّقى الممنوعة، ومنها ما يعلَّقُ من الأوتار أو الخيوط أو ما أشبه ذلك، زعماً أنَّها تجلِبُ الخير والبركة وتمنع العين.

الثَّاني: الرُّقى من القرآن والسُّنَّة، مثل حديث: «**أذهب الباس ربَّ النَّاس**»[(١)]، ومثل: «**أعوذ بكلمات الله التَّامات من شَرِّ ما خلق**»[(٢)]، ومثل: قراءة الفاتحة؛ كما في حديث أبي سعيد في قصَّة النَّفر من الصَّحابة الذين استضافوا رئيس الحيِّ فلم يضفهم فلُدِغَ، فقالوا: أفيكم من يرقي؟

قالوا: نعم، ولكنا استضفناكم فلم تضيفونا فلا نَرقي حتَّى تجعلوا لنا قطيعاً من الغنم، فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم، فجاء أحدُهُم فجعلَ ينفثُ ويقرأُ سورة الفاتحة فكأنَّما نُشِطَ من عِقَالٍ، وقَبضوا الغنم، وقالوا: لا نفعل فيها شيئاً حتَّى نأتي رسول الله ﷺ، فجاؤوا فأخبروه ﷺ، فقال ﷺ: «**وما يدريكم**

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أنَّها رقيةٌ، اضربوا لي معكم سهماً»[1]، فهذه من الرُّقية الجائزة التي لاخلاف فيها.

الثَّالث: الرُّقية التي فيها خلافٌ، وهيَ أنَّكَ ترقي المريض بالقرآن وتكتبه له وتُعلِّقه على عضدِهِ، وهي آياتٌ قرآنيَّةٌ وأدعيةٌ نبويَّةٌ لم يكن فيها أيُّ شبهةٍ ولا شركٍ ولا طلاسمَ، وهذا النَّوع أجازه بعض العلماء ومنعها آخرون مثل ابن مسعود وأصحابه، وهذا هو الصَّواب.

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٠٠٧)، ومسلمٌ (٢١٠١).

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ الرُّقى والتمائم والتولة شركٌ**»، رواهُ أحمدُ وأبو داودَ[(١)].

لهذا الحديث قصَّة وهو أنَّ زينب امرأة ابن مسعودٍ كانت تشتكي عينها وكانت قد علَّقت خيطاً، فقال لها ابنُ مسعودٍ: ما هذا؟

قالت: هذا خيط رقى لي به فلانٌ اليهوديُّ.

فقال: أنتم آلُ عبد الله لأَغْنياءُ عن الشِّرك.

وكان هذا اليهوديُّ إذا رقى على هذا الخيط سكنَتْ عينُهَا، فأخبرها ابنُ مسعود بأنَّ الشَّيطان ينخَسُ في عينها حتَّى تذهب إلى اليهوديِّ فيقرأ لها، ثُمَّ تسكنُ عينُهَا؛ ذلك لأنَّ اليهوديَّ يتوسَّل إلى الشَّيطان.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا اشتكى أحدكم فليقل: أذهب الباس ربَّ النَّاس واشف أنت الشَّافي لا شفاء إلَّا شفاؤك شفاءً لا يغادرُ سُقماً**»[(٢)]، يعني: أنَّك عندما تحسُّ بشيءٍ لا يجوز لك أن تعلِّقَ خيطاً ولا وتراً ولا جلدَ غزالٍ ولا أيَّ شيءٍ بزعمك أنَّهُ ينفعُ أو يردُّ العينَ، إذ لا نافعَ ولا ضارَّ إلَّا الله، وإنَّما تدعو الله بالأدعية القرآنيَّة والنَّبويَّة.

وأخذ الأجرة على الرُّقية ليس فيه مانع؛ كما في قصَّة الصَّحابة التي سبق ذكرها.

والذي أباحَهُ بعض الحنابلة من التَّمائم ليس هو الذي منعَ منهُ ابنُ مسعودٍ في هذا الحديث، فالذي منع منه ابن مسعود كافَّة العلماء يمنعون منه؛

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٦/ ١١٠) (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابنُ ماجه (٣٥٣٠) من طريق عمرو بن مرَّة، عن يحيى بن الجزَّار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله، عن عبد الله، به مرفوعاً.
وفيه قصَّةٌ ذكرها الشَّارح رحمه الله، وإسنادُهُ جيِّدٌ، وابن أخي زينب قال الحافظ في التَّقريب (٨٤٩٦): «كأنَّهُ صحابيٌّ».

(٢) سبق تخريجه.

لأنَّها علَّقت خيطاً على عضدها بزعمها أنَّها تسكن عينها، أمَّا الذي أجازه بعض الحنابلة أن تكتب آيات قرآنيَّة كالفاتحة والكرسي وآخر البقرة وسورة الإخلاص فتجعلها في ورقة ثُمَّ تعلِّقها، هذا الذي يجيزُهُ الحنابلة، فلا الخيط ولا الذي يفعلُهُ اليهوديُّ أو الطلاسم يجيزُهُ أحدٌ.

الذي أجازه بعض الحنابلة هو مرويٌّ عن بعض الصَّحابة، ، وابن مسعود وإبراهيم النَّخعي يرون المنع، والمانعون يقولون: بدلاً من أن تعلِّقَ القرآن اقرأ القرآن على المريض، أمَّا التعليق فممنوعٌ لأمورٍ:

أوَّلاً: المريض يدخل الأمكنة القذرة وهو حامل للقرآن، والقرآن يُجلُّ ويُنزَّهُ عن هذا.

ثانياً: لو فُتِحَ هذا الباب لجاء النَّاس وكتبوا مع القرآن طلاسم وأشياء لا تجوز وأُدخلت باسم القرآن، والشَّريعة جاءت بحسمِ موادِّ الشِّركِ وذرائعِهِ.

ثالثاً: أنَّهُ يخشى أن يعتقد المريض أن الذي يؤثِّر فيه بالشِّفاء هذا المعلَّق دون الله ـ سبحانه ـ؛ لأنَّهُ لبسه وتعلَّق به فيظنُّ أنَّهُ هو الذي يؤثِّر، فيقع في الشِّرك الأكبر.

والمعروف عن أئمَّةِ الدَّعوة الإنكار والمنع من هذا منعاً باتاً؛ حسماً لموادِّ التعلُّق بغير الله، وبالإمكان أن يقرأ على المريض كما قرأ الصَّحابي على اللَّديغ دون أن يعلِّق شيئاً، وكما كان الرَّسولُ ﷺ يعلِّمُ أصحابه أن يقولوا: «**أعوذ بكلمات الله التَّامات من شَرِّ ما خلق**»[١]، وكما علَّمهم في دعاء المريض: «**ربَّنا الله الذي في السَّماء أنزل رحمةً من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع واشف أنت الشَّافي**»[٢]، فالرَّسول ﷺ أوضح الأدعية التي تُقرأ على المريض دون تعليقٍ، ولم يُنقل عن أحدٍ من الصَّحابة أنَّهُ كانوا يُعلِّق، مع أنَّهُ نُسِبَ إلى بعضهم الجوازُ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٣٩/ ٣٧٩) (٢٣٩٥٧) من مسند فضالةَ بنِ عُبيدٍ، وفي إسنادِهِ من لَمْ يُسَمَّ.
ورواه أبو داود (٣٨٩٢)، والحاكم (١/ ٤٩٤) من حديث زيادة بن محمَّد، عن محمد بن كعب، عن فضالة، عن أبي الدَّرداء به مرفوعاً.
وزيادة منكرُ الحديثِ، ينظر: لسان الميزان (٩/ ٣٠٥).

۞ وعن عبد الله بن عكيمٍ مرفوعاً: **«من تعلَّق شيئاً وكل إليه»**، رواهُ أحمدُ والترمذيُّ(١).

قولُهُ: **(من تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه)**؛ أي: أنَّ الإنسان إذا تعلَّق بشيءٍ، فإنَّ الله يكلهُ إلى هذا الشَّيء الذي تعلَّق بهِ، كمن كتب ورقةً فيها طلاسم وأشياء واعتمد عليها فالله يكِلُهُ إليها؛ لأنَّهُ لم يفوِّض أمرَهُ إلى الله ولم يعتمدْ عليه، والله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

جاء عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لقيتُ وهبَ بنَ منبِّهٍ يطوفُ بالبيت الحرام فقلتُ لَهُ: حَدِّثني وأوجز بحديثك لعلَّ الله ينفعني بحديثك.

فقال وهب: أوحى الله إلى داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **«يا داود لو أنَّ عبداً من عبادي اعتصمَ بي دُونَ خلقي أعرِفُ ذلكَ من نيَّته فتكيدُهُ السَّماواتُ ومن فيهنَّ والأرضون ومن فيهنَّ إلَّا جعلت لَهُ من بينهنَّ فرجاً ومخرجاً»**».

المعنى: أنَّ الإنسان إذا اعتمد على الله واتَّكل عليه فلو تكيدُهُ السَّماوات ومن فيهنَّ والأرضون ومن فيهنَّ فلا بُدَّ أنَّ الله يجعل له فرجاً ومخرجاً ينجِّيه من هذه الخليقة كُلِّها ولا تضرُّهُ لاعتمادِهِ على اللهِ.

ثُمَّ قال: **«وما من عبدٍ يعتصِمُ بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيَّته إلَّا**

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٣١/٧٧) (١٨٧٨١)، وابن أبي شيبة (١٢/٣٩) (٢٣٩٢٣)، والترمذيُّ (٢٠٧٢) من حديث ابن أبي ليلى ـ محمَّد بن عبد الرحمٰن ـ، عن أخيه عيسى بن عبد الرحمٰن، عن عبد الله بن عكيم به مرفوعاً.
قال الترمذيُّ بعد إخراجه: «وحديثُ عبد الله بن عكيم إنَّما نعرفُهُ من حديث محمَّد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبيِّ ﷺ».
فأشار إلى تفرُّدِ محمَّدٍ بهِ ـ وهو ضعيفٌ من جهة حفظِهِ ـ، وإلى أنَّ رواية ابن عكيم عن النبيِّ ﷺ مرسلةٌ كما قالَهُ ـ أيضاً ـ الرازيَّان، وهاتان علَّتان، وينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٠١ ـ ١٠٤).

قطعتُ الأسباب من بين يديه وأسختُ الأرضَ من تحت قدميهِ ثُمَّ لا أبالي بأيِّ أوديتها هلكَ».

أي: إذا اعتصم بمخلوقٍ دون الله، واعتمد على مخلوقٍ دون الله فإنَّهُ يضيعُ ولا ينفعه ذلك المخلوق مهما عظُمَتْ حالتُهُ وعظُمَ شأنُهُ، فالتوكُّلُ على الله والتفويض لله والاعتماد على الله إذا صدرَ من قلبٍ حيٍّ فلا يضرُّهُ شيء أبداً، فمن يستطيع أن يضرَّك والله قد تكفَّل بحفظك ووقايتك؟! ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

۞ (**التَّمائم**): شيءٌ يعلَّق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلَّقُ من القرآن، فرَّخص فيه بعضُ السَّلَفِ، وبعضهم لم يُرخِّص فيه، ويجعله من المنهيِّ عنهُ، منهم: ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه.
و(**الرُّقى**): هي التي تُسمَّى (العزائم)، وخص منه الدليل ما خلا من الشِّرك، فقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ من العينِ والحُمَةِ.
و(**التِّولَة**): شيءٌ يصنعونه يزعمون أنَّهُ يحببُ المرأةَ إلى زوجها، والرَّجل إلى امرأتِهِ.

هو ما يُسمَّى بـ(الصَّرف والعطفِ)، تستعمله عجائزُ البادية ونحوهنَّ، فتعطي المرأة دواءً فتسقيه الزَّوج، ثُمَّ إنَّ الزَّوجَ يُحِبُّها حُبّاً شديداً، كُلُّ هذا من التِّولة وهي من الشِّركِ، ولا يجوزُ تعاطي مثل هذا، وكما قال ﷺ: «**إنَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرَّحمٰن يُقلِّبها**»(١).

وبقيت مسألة: وهي ما يفعلُهُ بعضُ النَّاس اليوم وهو أنَّهُ إذا سُحِر جاؤوا برصاصٍ وماءٍ وأحموا الرَّصاصَ حتَّى يذوب ثُمَّ صبَّوهُ على ماءٍ يُجعلُ على رأس المسحور، ويقال: إنَّهُ يُصَوِّرَ الذي سحرَهُ وأنَّ السَّحر ينفكُّ عنهُ، هل هذا جائزٌ؟

نقولُ: هذا ليس بجائزٍ، فكُلُّ سببٍ لم يأذَنْ الله بِهِ ولم يدلَّ عليه قرآنٌ ولا سُنَّةٌ لا يجوزُ، بل هذا من تعاطي السِّحر، فأيُّ منفعة في هذا الرَّصاص؟! وكيف يُبيِّن صورة الذي سحره؟!

هذا بواسطة الشَّياطين وهو لا يجوز، وقد منعَ منهُ كثيرٌ من أئمَّة الدَّعوة، وإنَّما إذا ابتلي الإنسان بشيء من هذا فعليه أن يتداوى بالآياتِ القرآنيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ والدُّعاءِ المعروفِ، وكذا الأدوية المباحة لا بأس بها، كما

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

سيأتي أنَّ من الأدوية المباحة: أوراق السِّدر، كما نُقِلَ عن وهب بن منبِّه رَحِمَهُ اللهُ يتداوى بها المسحور، وهو أنَّهُ يأخذُ سبعَ ورقاتِ سدرٍ خضرٍ يدُقُّها ويجعلُها في ماءٍ ويقرأُ فيها آية السِّحر التي في سورة يونس(١)، وكذلك يقرأ آية الكرسي وآيات السِّحر في طه وغيرها، ثُمَّ يشرَبُ منهُ ويصبُّ على رأسِهِ منهُ ويبرأ ـ بإذن الله ـ، هذا لا بأس به؛ لأنَّهُ لم يكُنْ فيه تعلُّقٌ بغيرِ اللهِ.

(١) وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١ ـ ٨٢].

۞ وروى الإمامُ أحمدُ عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا رويفع لعلَّ الحياة تطولُ بكَ، فأخبر النَّاس أنَّ من عقدَ لحيتَهُ، أو تقلَّدَ وتراً، أو استنجى برجيعِ دابَّةٍ أو عظمٍ، فإنَّ محمَّداً بريءٌ منهُ»**(١).

(**يا رويفع لعلَّ الحياة تطول بك**): هذا عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّةِ، حيثُ أخبرَ بالشيء قبل وقوعِهِ، فقد طالَتْ حياةُ رويفعٍ وتولَّى الإمارة في بعض الأراضي المصريَّة، فإنَّهُ تُوفي في بَرقَةَ أميراً عليها في خلافة معاوية سنة سِتٍّ وخمسينَ، وقيل غير ذلك، وهو ـ أيضاً ـ مسنٌّ قبل مجيءِ النبيِّ ﷺ إلى المدينة.

(**فأخبر النَّاس**): دلَّ هذا على أنَّ من كان عندَهُ علمٌ لا بُدَّ أن ينشرَهُ ويبيِّنَهُ للنَّاسِ ويحرُمُ عليهِ كتمانُهُ، ولم يكُنْ هذا خاصًّاً برويفع بل هو عامٌّ، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩] لا بُدَّ أن يبيِّن ما عندَهُ وأن يخبرَ النَّاس بما عندَهُ، واستُدلَّ ـ أيضاً ـ بهذه الآية على قبول خبر الآحاد وهي مسألةٌ أصوليَّةٌ معروفٌ حكمُهَا في محلِّهَا.

(**من عقدَ لحيتَهُ**): يعقد لحيتَهُ تكبُّراً، والمؤمن مأمورٌ بالتَّواضع وحسن الخلق ومأمور بمخالقة النَّاس بأحسن الأخلاق وأكملها، ولا يجوز له أن يتكبَّر في نفسه ولا هيئته كفتل شاربه أو عقد لحيته تعاظماً في قلبه، يرى النَّاس كُلَّهم دونَهُ، بل هو واحدٌ منهم، كما قيل: «ألم يكُنْ أوَّلُكَ نطفةً مذرةً، وآخرُكَ جيفةً قذرةً، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرةَ» فكيف تتكبر وتتعاظم؟!

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٢٨/ ٤٢١٠) (١٧٠)، وأبو داود (٣٦) من طريق مفضَّل بن فضالة، عن عيَّاش القِتباني، عن شُييم بن بيتان، عن شيبان القِتباني، عن رويفعٍ، بهِ.
وشيبان فيه جهالةٌ، إلَّا أنَّ النسائيَّ (٥٠٦٧) رواهُ من طريق حيوة بن شريح، عن عيَّاش، عن شييم أنَّهُ سَمِعَ رويفع... الحديث ـ دون ذكر شيبان ـ، وهذا إسنادٌ ظاهرُهُ الحسنُ.

(أو تقلَّد وتراً): بمعنى علَّق على نفسه وتراً أو على صبيانه أو دوَّابِهِ.

(أو استنجى برجيعٍ)؛ يعني: استجمرَ برجيعٍ أو عظمٍ، والرَّجيعُ هو: روثُ الإبلِ والغنمِ والبقرِ ممَّا هو طاهرٌ، لا يجوز أن يستجمر الإنسان بشيءٍ من ذلك لأنَّها طعام بهائم إخواننا من الجنِّ، فقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**جاءني وفد جِنِّ نصيبينَ فقرأتُ عليهم القرآن فأسلموا، ثُمَّ سألوني الزَّادَ لهم والعلف لدوابهم فسألتُ الله ألَّا يمرُّوا بعظمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه إلَّا عاد أوفر ما يكون لحماً، ولا روثاً إلَّا صار علفاً لدوابهم**»(١)، لذا نهى النبيُّ ﷺ عن الاستجمار بالعظام والأرواث.

وهنا مسألة: حكم الاستجمار بالعظم الذي لم يذكر اسم الله عليه؛ فالرَّسول ﷺ خصَّ العظم الذي ذُكر اسمُ الله عليه بأنَّهُ يعود أوفر ما يكون لحماً، ثُمَّ نهى عن الاستجمار به، فهل يُفهم منه أنَّ الذي لم يذكر اسم الله عليه، لا يكون لهم لحماً، فلا يأخذ نفس الحكم في منع الاستجمار به؟

الفقهاء يقولون: لا يجوز الاستجمار بالعظم حتَّى ولو لم يذكر اسمُ الله عليه، وعلَّلوا ذلك بقولهم: لما فيه من اللُّزوجة، فلا يُنقي المحلَّ، فالذي يُنقي المحلَّ لا بُدَّ أن يكون فيه شيءٌ من الخشونة.

(فإنَّ محمَّداً بريءٌ منهُ): قال النوويُّ: «**المعنى**: فإنَّ محمَّداً بريءٌ من فعلِهِ»(٢).

وأهلُ السُّنَّة والجماعة وسلفنا الصَّالح على خلاف هذا التَّفسير، فالذي درج عليه الإمامُ أحمدُ وسفيانُ الثوريُّ وسفيانُ بنُ عيينةَ وأمثالُهم في أحاديث الوعيد أنَّها تُجرى على ظاهرها دون تأويل؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في الزَّجر، مثل حديث: «**من غشَّنا فليس منَّا**»(٣)، لا يقال: «ليس من أهل سُنَّتِنَا»، أو «ليس من أهل طريقتنا»، وحديثُ: «**ليس منَّا من تكهَّنَ أو تُكهِّنَ**

---

(١) رواه مسلم (٤٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) شرح النَّووي على مسلم (٢/ ١١١).
(٣) رواه مسلمٌ (١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لَهُ أو تَطيَّر أو تُطيِّر لَهُ»[١]، لا ينبغي أن يقال: «أي: ليس على هدينا ولا طريقتنا» بل تُجرى على ظاهرها؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في الزَّجر، هذا رأيُ الإمام أحمد وكثيرٍ من سلف هذه الأُمَّة.

---

(١) يأتي تخريجُهُ في موضعه من المتن.

۞ وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواهُ وكيعٌ[١].

سعيدُ بنُ جبيرٍ هو: أحدُ الأئمَّة والمفسِّرين، روى عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وقتلَهُ الحجَّاجُ ظلماً.

(مَنْ قطعَ تميمةً كان كعدلِ رقبَةٍ): قالوا: هذا له حكمُ الرَّفعِ؛ لأنَّ مثل هذا لا مجال للرأي ولا مسرح للعقول فيه؛ أي: إذا قطعتها مُزيلاً لها من إنسانٍ علَّقها فلك من الأجر والفضل كما لو أعتقتَ عبداً، ومعلومٌ أنَّ من أعتق عبداً أعتقَ الله به بكُلِّ عضوٍ عضواً من النَّار، هذا يدلُّ على فضيلة العتق، والقاطع لهذه التَّميمة يحصل له من الأجر والثواب مثل من أعتق عبداً وحرَّره من الرِّقِ.

(رواهُ وكيعٌ): وكيعٌ هذا هو: أبو محمَّد، وكيعُ بن الجرَّاح، شيخُ الشَّافعي، وهو الذي يقول الإمامُ الشَّافعيُّ فيه:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأنَّ العلم نورٌ ... ونورُ اللَّهِ لا يُؤتاهُ عاصي

أي: أنَّ العلم لا يؤتاهُ في الغالبِ العصاةُ، وإن أُتوه فلا ينتفعونَ بهِ؛ لأنَّهُ نورٌ يضيءُ القلبَ وينوِّرُهُ، وهو إيمانٌ تخالِطُ بشاشته القلوب، فالعلم النَّافع يؤثِّر على الإنسان في سلوكه وأخلاقه وعبادته واستقامته.

ووكيع: ترجَمَ لَهُ عددٌ من الأئمَّةِ، وذكرَ الحافظُ الذَّهبيُّ أنَّهُ كان كثير اللَّحمِ، فقيل له: «يا أبا سفيان، نراك كثيرَ اللَّحم والشَّحم ضخماً، وما هكذا أجسامَ أهلِ العلم، ـ فإنَّ أجسام أهل العلم تكونُ نحيفةً ـ فما هذا؟!».

قال: «يا ابن أخي، هذا من شِدَّةِ فرحي بالإسلام»[٢].

---

(١) رواهُ ابنُ أبي شيبة (١٢/ ٤٣) (٢٣٩٣٩)، وفي إسنادِهِ ليثُ بنُ أبي سليمٍ، وهو من مشاهير الضُّعفاء.

(٢) تاريخ الإسلام (٤/ ١٢٣٠).

۞ ولَهُ عن إبراهيمَ قال: «كانوا يكرهون التَّمائم كُلَّها، مِنَ القرآن وغير القرآن»(١).

(ولَهُ)؛ أي: وكيع، عن إبراهيم النخعي.

(كانوا؛ أي: أصحاب ابن مسعود وغيرهم من السَّلف.

(يكرهون التمائم كُلَّها من القرآن وغير القرآن)؛ أي: يُحرِّمون التمائم، فالكراهة إذا أطلقت عند السَّلف يُراد بها التَّحريم، وأمَّا عند الخلف فَيُراد بها التنزيه، فإذا قال المتأخِّرون من الفقهاء: يكره، فهي كراهة تنزيه؛ أي: لو فعلها لا حرج عليه إلَّا أنَّ الأولى تركها، وأمَّا عند السَّلف فهم يستعملون الكراهة في التَّحريم، فيعبِّرون عمَّا يحرُمُ بقولهم: (يُكرَهُ)، وهذا معنى قول إبراهيم: **(كانوا يكرهون التمائم كُلَّها من القرآن...)**.

والقرآن دلَّ على إطلاق المكروه على الحرام، قال ـ تعالى ـ في سورة الإسراء: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ ثُمَّ بعد هذا قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ بعد هذا كُلِّهَ قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٠ ـ ٣٨]، فقوله: ﴿مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾؛ يعني: محرَّماً، فاستفدنا من هذا أنَّ الكراهة في القرآن وعند السَّلف تطلق على التَّحريم، وأنَّهُ يحرم ارتكاب هذه المنهيَّات وإن عبَّر عنها بالكراهة.

(من القرآن وغير القرآن)؛ أي: لا يجوز تعليق تميمة من القرآن وغير القرآن، للمحاذير الثَّلاثة التي تقدَّم بيانها.

---

(١) رواهُ أبو عبيد القاسم بن سلَّام في «فضائل القرآن» (ص٣٨٢)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢) (٢٣٩٣٣) من طريق هُشيم بن بشير، عن مغيرة بن مقسم، عن إبراهيم النَّخعي، وإسنادُهُ صحيحٌ.

بابٌ

مَن تبرَّك بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوِهِمَا

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ الآية [النجم: ١٩].

عن أبي واقد اللَّيثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حُدَثَاءُ عهدٍ بكفرٍ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرةٍ فقلنا: يا رسول الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ.

فقال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أكبر! إنَّها السُّنَنُ، قلتم ـ والذي نفسي بيدِهِ ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٨] **لتركبُنَّ سَنَنَ من كانَ قبلكُمْ**» رواهُ التِّرمذيُّ وصحَّحَهُ.



بابٌ
من تبرَّك بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوهِمَا

أو مغارة أو مكان أو قبر يرجو من ذلك الخير ودفع الضرر، هذا كفرٌ بالله؛ لأنَّهُ جعل تلك الشَّجرة أو ذلك الحجر شريكاً لله، يذبحُ له وينذرُ له ويطلب منه المدَدَ، وهذا يدلُّ على سخافة عقول مشركي العرب.

۞ وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ الآيات [النجم: ١٩].

(﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾) أضرَّت أو نفعت؟!

أمَّا اللَّات فهي صخرةٌ بُنِيَ عليها بيتٌ وجُعِلَتْ عليها أشجارٌ كانت ثقيف في الطائف تعبدها ومن كان بقربها من قبائل العرب، يذبحون لها وينذرون لها، يرجون نفعها وبركتها ظنَّاً منهم أنَّها تجلبُ النَّفعَ وتدفعُ الضَّررَ، وما هي إلَّا صخرة، وأيُّ نفع عند الصَّخرة؟! لكن سلبَ اللهُ عقولَهُمْ، سُمِيَّتْ بـ (اللَّات)؛ اشتقاقاً من اسم (الإله) كما قالَ الأعمشُ: «سمَّوا اللَّات من الإله، والعُزَّى من العزيز».

والقولُ الآخر: أنَّ رجلاً كان يلتُّ السَّويق عند تلك الصَّخرة، فإذا مرُّوا به أطعمهم، فلمَّا ماتَ أسفوا عليه وتذكَّروا ما كان عليه من الخير، فعظَّموا تلك الصَّخرة التي كان يلتُّ السَّويق عليها، وبنوا عليها البناية وجعلوا عليها الأستار، فكانوا يعبدونها من دُون الله، ولما جاء وفدُ ثقيفٍ إلى رسول الله ﷺ ليُسلِمُوا اشترطَ عليهم إقامةَ الصَّلواتِ وهدمَ اللَّاتِ، فأبوا فكفَّ يدَهُ، ثُمَّ وافقوا على هدم اللَّاتِ، وطلبوا منه أن يُمهلهم شهراً، فقال ﷺ: «**ولا ساعة واحدة**»، ممَّا يدلُّ على أنَّ أمكنةَ الشِّرك إذا قُدِرَ عليها فلا يجوزُ إقرارها ولا ساعةً واحدةً، طلبوا مدَّة شهرٍ، قالوا: مخافة أن تُفتتن النِّساءُ والسُّفهاءُ والصِّبيانُ، بعث لها المغيرة بن شعبة لهدمها، وكان المغيرة عندهُ شيءٌ من

المرَحِ، فلمَّا جاء لهدمها، اجتمعوا لينظروا ماذا يُفعَلْ بالمغيرة؟! ظنُّوا أنَّها تفتكُّ نفسَهَا، وأنَّها ستؤثِّرُ على المغيرة بحيث لا يستطيع هدمها، فلمَّا ضربَها بالمعولِ اندفعَ على قفاه، فضحكوا وفرحوا، ظنُّوا أنها دفعته، ثُمَّ قام وهدمها ولم يصبْهُ شيءٌ[1].

هذا يدلُّ على أنَّ أمكنة الكفر إذا قُدِرَ عليها لا يجوز إبقاؤها ولا ساعةً واحدةً كما فعلَ النبيُّ ﷺ.

(العُزَّى): شجرةُ سمرٍ، وقيل: ثلاثُ سمراتٍ يُعلِّقون عليها السُّتور ويتبرَّكون بها، وكانت لقريش في مكَّةَ ومن التحق بهم من قبائل العرب، ولما فتح النبيُّ ﷺ مكَّةَ كان أوَّل شيء بدأ به أن بعث خالد بن الوليد لهدمها، فذهب خالد فقطعها وهدم ما عليها، ثُمَّ رجع للرَّسول ﷺ فأخبره، فقال: «**لم تصنع شيئاً، ارجع فاهدمها**»، فرجعَ فلمَّا أقبل رأى امرأةً ناشرةً شعرها وهي تُولول، والسَّدنة ذهبوا إلى الجبال، فشملها بالسَّيف فقتلها، ثُمَّ جاء وأخبر النبيَّ ﷺ فقال: «**تلك العُزَّى ولا عُزَّى بعد اليوم**»[2].

اشتقُّوا (العُزَّى) من اسم (العزيز)، تعظيماً لها، وكانوا ينذرون لها ويُعظِّمونها ويتبرَّكون بها ويعلِّقون عليها رجاء خيرها وبركتها.

والوثن الثالث هو: **(مناة)**، وكان بالمشلَّلِ عند قُديدٍ، فبعثَ النبيُّ ﷺ إليه من يهدمهُ، وسُمِيَّت (مناة) لكثرة ما يُمنى عندها من الدِّماء؛ أي: يُهراق، وقيل: سمَّوا (مناةَ) من (المنَّان)، وهي لبني هلالٍ وبني كنانةَ والأوسِ والخزرجِ يعبدونها ويذبحون لها، هذه الثَّلاثة هي أعظم الأوثان المعبودة في الحجاز في ذلك الوقت، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢١]؛ لأنَّ هذه

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (٣/ ٩٧٢)، سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤٠)، دلائل النبوَّة للبيهقي (٥/ ٣٠٣).

(٢) رواه النَّسائيُّ في «الكبرى» (١١٤٨٣) وإسنادُهُ حسنٌ.

الثَّلاثة: اللَّات، والعُزَّى، ومناة، كُلُّها أسماء إناث، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝﴾ [النجم: ٢٢]؛ أي: جائرةٌ، عادلةٌ عن الحقِّ.

وهناك أوثانٌ كبيرةٌ في غير الحجاز، مثل صنم كبير يُسمَّى: (ذو الكعبات) كان لأهل نجدٍ، يأتونه فيطوفون ويستغيثون به، وكذلك: (ذو الخلصة) لأهل بيشة ومن قاربهم من العرب، هذه الأوثان المعبودة إذ ذاك، والنبيُّ ﷺ بعثه الله لهدم الشِّرك وإزالته، وليدعوا النَّاس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يقطعوا العلائق عن جميع الخلائق ويتَّصلوا بالخالق، هذا محض التَّوحيد.

وعندما تقرأ في كتب القوم الذين ضلَّ سعيهم عن الخير وهم يحسبون أنَّهم يُحسنون صنعاً؛ تجدهم يُعظِّمون ما دون ذلك، فهذا النَّبهانيُّ لَهُ كتابٌ سمَّاه: «شواهدُ الحقِّ في الاستغاثة بسيِّدِ الخلقِ»، ذكر فيه أشياء غريبة وعجائب، منها أنَّ فلاناً كانت عنده بقرةٌ وكانت مباركةً وكان لبنُهَا كثيراً وماتت، فدفنها وصنع عليها قُبَّة، وصاروا يسألونها؛ لتشفع لهم عند الله، وترفع حوائجهم إلى الله! إلى هذه الدَّرجة!

ثُمَّ أخذ يتكلَّم عن الوهابيَّة وعن ابن تيميَّة؛ لأنَّهم خالفوا هذا ولم يُقرُّوه، والقوم لهم أشياء كثيرة من هذا النَّوع.

۞ عن أبي واقد اللَّيثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حُدَثَاءُ عهدٍ بكفرٍ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرةٍ فقلنا: يا رسول الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ.
فقال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أكبر! إنَّها السُّنَنُ، قلتم ـ والذي نفسي بيدِهِ ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨] **لتركبُنَّ سَنَنَ من كانَ قبلكُمْ**» رواهُ الترمذيُّ وصحَّحَهُ[١].

(**أبو واقد**): هو من مُسلمة الفتح، وهم: الذين لم يسلموا إلَّا بعد أن فتح الله مكَّة على رسوله ﷺ، ومعلوم أنَّهُ ﷺ حينما فتح مكَّةَ في رمضان خرج إلى الطَّائف[٢].

(**ونحنُ حدثاءُ عهدٍ بكفرٍ**): قدَّم هذا اعتذاراً منه لما وقعَ منهم، حيث لم يتمكَّن التَّوحيدُ من قلوبهم.

قال المصنِّفُ: «فيه أنَّ المنتقل من الباطل الذي اعتادَهُ قلبُهُ لا يؤمن أن يكون في قلبه بقيَّة من تلك العادة».

(**وللمشركين سدرةٌ يعكفون عندها**): العكوف هو: البقاء واللُّبث، كما

---

(١) رواهُ معمرٌ في جامعه (٢٠٧٦٣)، والحميديُّ في مسنده (٨٧١)، والطيالسيُّ (٢/ ٦٨٢) (١٤٤٣)، والإمامُ أحمدُ (٣٦/ ٢٢٥) (٢١٨٩٧)، والتِّرمذيُّ (٢١٨٠)، والنسائيُّ في الكبرى (١١١٢١) من طرقٍ عن الزهريِّ، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد، وإسنادُهُ صحيحٌ.

(٢) قال أبو عمر ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ (الاستيعاب ٤/ ١٧٧٤): «قيل: إنَّهُ شهد بدراً معَ النَّبيِّ ﷺ، وكانَ قديم الإسلام، وكانَ معه لواء بني ليث وضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح، وقيل: إنَّهُ من مُسلمة الفتح، والأوَّلُ أصحُّ وأكثرُ».

قال ـ تعالى ـ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢]؛ أي: مقيمون، فهم يقيمون عند السِّدرة رجاء خيرها وبركتها.

(وينوطونَ بها أسلحتهم): يُعلِّقون عليها أسلحتهم رجاء خيرها وبركتها.

(**يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط**)؛ أي: لو أذنت لنا بهذه السِّدرة الخضراء أن نعلِّق عليها أسلحتنا رجاء خيرها وبركتها، كما للمشركين مثل ذلك، فعند ذلك غضِبَ الرَّسول ﷺ وقال: (**اللهُ أكبر، إنَّها السُّنَنُ**)؛ أي: إنَّها الطُّرقُ، فهو أراد أن يُعلِّمهم، واقترن التعليمُ بالغضَبِ؛ ليكون أوقعَ في نفسِ السَّامعِ، لا سيَّما إذا انتُهِكَتْ محارِمُ اللهِ، وأعظمُ محارمِ اللهِ: الشِّركُ.

(**قلتم والذي نفسي بيده**): هذه عادته ﷺ، فهو كثيراً ما يحلف، وهو الصَّادق ﷺ لو لم يحلف.

(**كما قالت بنو إسرائيل لموسى**: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾): شبَّهَ الطِلبةَ بالطِلبَةِ، والحكمَ بالحكم، مع أنَّهم لم يقولوا: (اجعل لنا إلٰهاً)، إنَّما قالوا: (**اجعل لنا ذات أنواط**)، لكنَّهُ ﷺ اعتبر المعاني والحقائق ولم يعتبر الألفاظ والأسماء، ممَّا يدلُّ على أنَّ من الشِّرك الأكبر أن تعتقِدَ أنَّ هذه النَّخلة أو الحجر أو الشَّجر تجلب لك خيراً وتعطيك البركة، وأنَّ فيها نفعاً أو دفعَ ضُرٍّ، هذا لا يجوز.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠] هذا جوابُ موسى عليه السلام لقومِهِ عندما قالوا له هذا المقالة.

(**لتركبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم**)؛ أي: لا بُدَّ أن يوجد فيكم مثل ما وجد في اليهود والنَّصارى سواء بسواء، لا بُدَّ أن يتخذ قوم منكم الأشجار والقبور إلهاً، ولكنَّكم تُسمُّونها توسُّلاً أو شفعاء أو واسطة، ولكن الطِلْبَةَ كالطِلْبَةِ، والحُكْمَ كالحُكْمِ، هذا يدلُّ على أنَّ مَن ذبحَ لغير اللهِ أو تقرَّب إليه فقد جعلَهُ مثلَ اللهِ سواءً بسواءٍ، وكانَ السَّلَفُ ـ رحمهم الله ـ يحذِّرون من هذا، ويحرصون على قطع كُلِّ ما يتعلَّق به العامَّة.

يقول: «أنا لا أشرك، وإنَّما أتبرَّك بالصَّالحين، وهذه الأشجار أنا أتبرَّك بها، فهي أشجارٌ مطيعةٌ لله ليست عاصيةً، وهذا رجلٌ صالحٌ أتبرَّك بعَرقِهِ ـ مثلاً ـ».

نقول: هل اطلعت على ما في قلبه، هل هو رجل صالح؟! لا يطَّلع على ما في القلوب إلَّا الله، وهل تجزم أن يختم له بالصَّلاح؟!

أفضل هذه الأُمَّة بعد نبيِّها: أبو بكر، فهل كان الصَّحابة يتبرَّكون بفضل وضوء أبي بكر؟! ويتبرَّكون بعرقه؟! ويأخذون لباسَهُ يستشفون به للمرضى؟! فدلَّ على أنَّ هذا من خصائصه ﷺ لأمور:

أَوَّلاً: أنَّ أيَّ صالحٍ لا يصِلُ إلى درجة النبوَّة.

ثانياً: أنَّ القلوب لا يعلم ما فيها إلَّا الله، فلا ندري هل هذا الرَّجل صالحٌ حقًّا؟! ـ وإن ظهر لنا من حاله أنَّهُ صالحٌ ـ.

ثالثاً: لو كان صالحاً لا ندري بماذا يُختم له.

رابعاً: أنَّ التبرُّك به فيه فتنة له.

خامساً: لم يكن الصَّحابة الذين هم أعلم النَّاس يفعلون هذا مع فضلائهم وصلحائهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فدلَّ على أنَّ هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.



بابُ
ما جاءَ في الذَّبحِ لغيرِ اللَّهِ

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآيتين [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقولِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢].

عن عليٍّ رضي الله عنه قالَ: حدَّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: **«لعنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ، لعنَ اللهُ مَنْ لعنَ والديهِ، لعنَ اللهُ من آوى مُحْدِثاً، لعنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ منارَ الأرضِ»** رواهُ مسلمٌ.

وعن طارق بنِ شهابٍ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: **«دخلَ الجنَّةَ رجلٌ في ذبابٍ، ودخلَ النَّارَ رجلٌ في ذبابٍ»**.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟!

قالَ: **«مرَّ رجلان على قوم لهم صنمٌ لا يجوزُهُ أحدٌ حتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شيئاً، فقالوا لأحدِهِمَا: قَرِّبْ.**

قال: ليس عندي شيءٌ أقرِّبُ.

قالوا لَهُ: قَرِّبْ ولو ذباباً، فقرَّبَ ذُباباً، فخلَّوا سبيلَهُ، فدخل النَّار.

وقالوا للآخر: قرِّبْ.

فقال: ما كنتُ لأقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقَهُ فدخل الجنَّةَ» رواهُ أحمدُ.

باب
ما جاءَ في الذَّبحِ لغيرِ اللَّهِ

كأن يذبحُ للجِنِّ ليمنع إيذاءهم له، فلا يصلون إليه، هذا شركٌ بالله مناف للتَّوحيد، وأيُّ ذبيحة تذبح لغير الله فهي حرامٌ، لا يجوز أكلها، وهي شركٌ، قال ـ تعالى ـ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣]؛ أي: ما ذُبِحَ لغيرِ اللهِ، فلو ذبحَ إنسانٌ تعظيماً للسُّلطان عند مَقْدَمِهِ فذبيحته لا تُؤكلُ ـ وإن ذُكِرَ اسمُ الله عليها ـ، وهل هي شركٌ أو لا؟

إن قصدَ بها التعظيم فلا شكَّ أنَّها شركٌ، وقد أفتى علماءُ بخارى بتحريم أكلها، والأدلَّة على أنَّ الذَّبحَ عبادةٌ كثيرةٌ.

۞ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الآية صريحةٌ في أنَّ الذَّبح لله، والصَّلاة لله، فلو صلَّى لغير الله صار بذلك كافراً، فكذلك متى ذبحَ لغير الله صار كافراً.

وفي هذا الآية جمع بين العبادتين عبادة بدنيَّة، وهي: الصَّلاة، وعبادة ماليَّة، وهي: الذَّبح، (﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾) هذه عبادة بدنيَّة، (﴿وَنُسُكِي﴾) هذه عبادة ماليَّة، كأنَّ المعنى أنَّ بدنك ومالك وما يصدرُ منك من الأقوال والأفعال كُلُّها لله، وذلك لأنَّ الصَّلاة جمعت بين نوعي الدُّعاء كما تقدَّمت الإشارَةُ إليه، ونوعا الدعاء هما: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، وكِلا النَّوعين عبادَةٌ للهِ، فالصَّلاة منذ ترفع يديك عند تكبيرة الإحرام قائلاً: «الله أكبر، سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك..» إلى نهايتها واختتامها بقولك: «السَّلام عليكم ورحمة الله»، هذا كُلُّهُ قد تضمَّن نوعي الدُّعاء، دعاء العبادة مثل: «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك وتبارك اسمك»، ومثل: «الحمد لله رب العالمين»، «الرَّحمن الرَّحيم»، «مالك

يوم الدِّين»، «سبحان ربي العظيم» في الركوع، «سبحان ربي الأعلى» في السُّجود، والتشهُّد: «أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله...»، إلى غير ذلك.

وأمَّا دعاء المسألة فمثل قولك: «رب اغفرْ لي وارحمني واهدني وارزقني»، وما أشبَهُ ذلك.

(﴿وَمَحْيَايَ﴾): وما أنا عليه في الحياة، (﴿وَمَمَاتِي﴾): وما أنا عليه في الممات. (﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾)؛ أي: لا أجعل مع الله شريكاً في ذلك كُلِّهِ، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾، قد تقول: إنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ أوَّلُ المسلمين، ومعلومٌ أنَّهُ قد سبقه أنبياء ومسلمون، كما في قصَّة موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]؟

نقول: هذا صحيحٌ، ولكن قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾؛ يعني: من هذه الأمَّة؛ فإنَّ كُلَّ نبيٍّ يتقدَّم إسلامُهُ على إسلامِ أُمَّتِهِ، فأوَّلُ من يسلم من الأمم هم الأنبياء، هذا معنى الآية، وليس المراد أنَّهُ أوَّلُ المسلمينَ من هذه الخليقة.

۞ وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢].

أي: أنَّ المسلمَ يجبُ أن تكون أفعالُهُ وأقوالُهُ لله ولأجل الله، هذه الآية مثل الآية التي سبقتها وهو أنَّهُ ﷺ جمع فيها بين العبادتين: العبادة البدنيَّة التي هي: (الصَّلاةُ)، والماليَّة التي هي: (الذَّبح)، وما في معنى الذَّبح كالصَّدقة وغيرِهَا.

وقد اجتمعت هاتانِ العبادتان: الماليَّة والبدنيَّة في الخليل إبراهيم عليه السلام، وامتاز بأمرٍ ثالثٍ استحقَّ به الخُلَّةَ، بذلَ مالَهُ للضِّيفان، وبدنَهُ بذلَهُ لله، فكسَّر الأصنام حتَّى أُلقي في النَّار، ثُمَّ أُمِرَ بذبحِ ولدِهِ وفلذَةِ كبدِهِ ليَسْلَمَ قلبُهُ للهِ ولا يكون فيه شِرْكَةٌ لما سواهُ، فعند ذلك بادرَ وعزمَ على قتلِ ابنِهِ؛ امتثالاً لأمرِ الله حتَّى أدركتْهُ رحمةُ أرحمِ الرَّاحمينَ، كما في قولِهِ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصَّافات: ١٠٤ ـ ١٠٦].

ومنَ الذَّبح لغير الله: الذَّبحُ للجِنِّ، إذا كان الإنسان يريد أن يسكُنَ بيتاً كما كانت تفعلُهُ بعضُ جاهليَّة العربِ، وكان يُفعل في مكَّةَ فعندما يريدون أن يسكنوا داراً يذبحون للجِنِّ من أجل ألَّا يؤذوهم وألَّا يتعرضوا لصبيانهم بشيءٍ، وهذا من الذَّبح لغير الله، والله حرَّم هذه الذَّبيحة، فلا يجوزُ أكلُهَا؛ لأنَّها ممَّا أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بهِ.

وكذلك ـ أيضاً ـ ما يفعلُهُ بعضُ المشعوذين الدَّجَّالينَ عندما يؤتى إليه بالمريض يقول: «اذبح تيساً أسودَ»، أو «خروفاً أدهمَ».

كُلُّ هذا لا يجوز أكلُهُ، وهو داخلٌ في الذَّبحِ لغير الله، والذَّابح ـ والحالة هذه ـ إذا ذبحَ تقرُّباً للمذبوح لَهُ من أجلِ أن يدفع ضررَهُ أو يجلِبَ نفعَهُ فهو مشركٌ شركاً أكبرَ، وكذا الذَّبح عند قدومِ السُّلطان تعظيماً له لا من باب الإكرام لا يجوز بكُلِّ حالٍ، وإن ذكرَ الشَّارحُ عن بعض العلماء أنَّهُ إذا ذبحَ

لقدوم السُّلطان من باب الاستبشار والفرح بقدومِهِ أنَّهُ لا بأسَ بهِ ـ، نقول: لا شكَّ أنَّ هذا وسيلة للشِّرك، فالأولى حسمُ المادَّةِ[١]، وما كان وسيلة فإنَّهُ يمنع[٢].

(١) أي: ذبحَهُ بقصد الذَّبح المحض، فهي تُذبَحُ ولا تؤكل، وليس ضيافته وإكراماً له، هذا هو مراد الشيخ في المنع، ومن المعلوم من حال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّهُ كريمٌ مضيافٌ، يدخل بيتَهُ الكُبراء ومن دُونهم، ويُكرِمُهُم ويذبَحُ لهم ـ الشيخ صالح ـ.

(٢) **الحاصلُ** من كلام الشيخ أنَّ الذَّبح للسُّلطان ونحوِهِ على **ثلاثة أحوالٍ**:
الأولى: تقرُّباً لَهُ وتعظيماً، وهو شركٌ ظاهرٌ.
الثَّانية: لإكرامِهِ، وهو جائزٌ، ـ وهذان القسمان لا إشكال فيهما ـ.
الثَّالثة: فرحاً واستبشاراً بقدومه، فيقصد الذَّبح لا الإكرام، وهذا مختلفٌ فيهِ، نقلَ الشيخ سليمان بن عبد الله في التَّيسير (١/ ٤٢٤) الجوازَ عن بعض أهل العلم، واختارَ الشَّارحُ الشَّيخُ عبد الله المنعَ حسماً للمادَّةِ، وسَدَّاً للذَّريعَةِ، والله أعلم.

۞ عن عليٍّ رضي الله عنه قالَ: حدَّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: **«لعنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ، لعنَ اللهُ مَنْ لعنَ والديهِ، لعنَ اللهُ من آوى مُحْدِثاً، لعنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ منارَ الأرضِ»** رواهُ مسلمٌ[(١)].

قولُهُ: (**«لعنَ الله من لعنَ والديهِ»**) في الحديث الآخر: قالوا: يا رسول الله أيلعنُ الرَّجل والديه؟!

قال: «**نعم، يسبُّ أبا الرَّجل فيسُبُّ أباهُ، ويسُبُّ أُمَّهُ فيسُبُّ أُمَّهُ**»[(٢)]، فيكون البادئ هو المتسبِّبُ، كما لو لعنَ إنساناً فقال: «لعنةُ الله على أمِّك»، فقال له: «ولعنَ اللهُ أُمَّكَ»، فالواقع أنَّ البادئ هو الذي لعن أُمَّهُ وإنْ لم يباشر ذلك باللَّفظ، ولكن هو المتسبِّبُ، فهذا حال المتسبب أنَّهُ: ملعونٌ، فما ظنُّكَ بمن يباشر لعنَ أبيهِ أو لعنَ أُمِّهِ؟! وهما السَّببُ في وجودِهِ، واللهُ قد قرنَ حقَّ الوالدين مع حَقِّهِ في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]: احتراماً لهما وتعظيماً لحقوقهما.

وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، فكيف يتسبَّبُ الرَّجُلُ بلعن أبيه أوأُمِّهِ؟!

جاء اللَّعن في هذا الحديث ونظائرِهِ من الأحاديث، مثل: «**لعن الله السَّارق يسرقُ البيضة فتُقطع يدُهُ**»[(٣)]، وحديث: «**لعنَ الله الخمر وشارِبَها**»[(٤)]، اللَّعنُ معناه: الطَّرد والإبعادُ عن الرَّحمة.

(١) صحيح مسلم (١٩٧٨).
(٢) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) رواه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) رواهُ أبو داود الطيالسيُّ (٣/ ٤٦٢) (٢٠٦٩) من حديث محمَّد بن أبي حميد، عن أبي توبة المصري، عن ابن عمر، به.
وفي بعض ألفاظِهِ نكارةٌ، ومحمَّدٌ سيئُ الحفظِ، والمصريُّ لا يَكاد يُعرف.
ورواهُ الإمامُ أحمدُ (١٠/ ٩) (٥٧١٦) من حديث فُليح ـ وهو: ابن سليمان ـ، =

(لعن الله من آوى محدثاً): معناهُ: أنَّ الرَّجُلَ يرتكِبُ جنايةً، فيكونُ بها مجرِمَاً، سواءٌ كانت جنايةً ماليَّةً أو بدنيَّةً على معصومٍ، أو بدعيَّةً في الدِّين، ثُمَّ يلتجئُ إلى من يجيرُهُ من ذلك، فالذي أجارَهُ ملعونٌ على لسانِ الرَّسولِ ﷺ، كما لو ارتكب إنسانٌ حَدَّاً كالزِّنا وثبت عليه، أو شرب الخمر وثبت شربُهُ للخمرِ، أو سرقَ وأُريد لإقامة الحَدِّ عليه ثُمَّ ذهبَ إلى سُلطانٍ فمنعَ إقامة الحَدِّ عليهِ، أو التجأ إلى من يجيرُهُ من ذلك، فهذا الذي أجارَهُ قد آوى محدثاً! بمعنى: ضمَّهُ إليه ومنعَ إقامة الحَدِّ عليه، فهو ملعونٌ على لسانِ النبيِّ ﷺ، وقد جاءَ في الحديثِ الآخَرِ: «**إذا بلغَتِ الحدودُ السُّلطانَ فلعنَ اللهُ الشَافِعَ والمشفِّعَ**»[(١)].

فمتى ثبتَ عليه الحَدُّ ووصلَ السُّلطانَ، ثُمَّ ذهب رجلٌ إلى السُّلطانِ يطلب منه أن يعفو عن هذا المحدود فسمح وتركه من أجله، فالشَّافع والسُّلطانُ ملعونان على لسانِ النبيِّ ﷺ.

فالإنسان إذا ارتكب جريمةً وفعلَ ما يُوجِبُ الحَدَّ فلا بُدَّ من إقامَةِ الحَدِّ عليه، وأيُّ إنسانٍ يسعى لإسقاط الحَدِّ الشَّرعيِّ بعد وصولِهِ السُّلطانَ هو متعرِّضٌ إلى لعنَةِ الله وغضبِهِ وسخطِهِ.

(لعن الله من غيَّر منار الأرض): (المنارُ) هي: المراسيم التي تفرِّقُ بينَ حَقِّكَ وحَقِّ جارِكَ، فتغييرها بتقديم أو تأخيرٍ لا يجوز؛ ومن فعل ذلك فهو ملعونٌ؛ كما في الحديث: «**من ظلَمَ قيد شبرٍ من الأرض طوَّقه اللهُ إيَّاه يوم**

= عن سعيد بن عبد الرَّحمٰن بن وائل الأنصاري، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، به مرفوعاً.
سعيدٌ مجهولٌ، وفليحٌ متكلَّمٌ فيهِ من قِبَلِ حفظِهِ (لسان الميزان ٩/ ٣٤)، وبوَّب البخاريُّ في صحيحه (٨/ ٢٥٨): (باب ما يُكرَهُ من لعنِ شاربِ الخمرِ).

(١) رواهُ الطبرانيُّ في «الصغير» (١٥٨) من حديث أبي غزيَّة محمَّدِ بنِ موسى المدني، عن عبد الرحمٰن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه أنَّ الزُّبيرَ... فذكرَهُ مرفوعاً وفيه قصَّةٌ.
إسنادُهُ ضعيفٌ، تفرَّدَ به أبو غزيَّة، وهو ضعيفُ الحديثِ.
ورواه مالكٌ في (٥/ ١٢٢١) (٣٠٨٧) موقوفاً على الزُّبير، إلَّا أنَّهُ منقطعٌ.

القيامة من سبعِ أرضينَ»[١]، وقال: «**إنَّ دماءكُم وأموالَكُم وأعراضكُم عليكم حرامٌ، كحرمةٍ يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا**»[٢]، وقال: «**كُلُّ المسلم على المسلم حرامٌ، دمُهُ ومالُهُ وعرضُهُ**»[٣]، فجعلَ المالَ قريناً للدَّمِ في الحُرمَةِ.

وقيل: معنى (المنار): العلامات التي في الطرق، يهتدي بها المسافرون، فيأتي إنسانٌ فينقلها من مكانٍ إلى مكانٍ يُضِلُّ المسافرَ بذلك، وقد قال هذا القول طائفةٌ من العلماء، والأوَّلُ هو المعروفُ، ولكن كلا الأمرين لا يجوز.

واستفدنا من الحديث: جواز لعن أهل المعاصي على سبيل العموم: «**لعن الله من ذبح لغير الله**»، ولم يعيِّن، «**لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غير منار الأرض**»، «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده عليها**»[٤]، «**لعن الله آكل الرِّبا ومُوكِلَهُ**»[٥].

أما حكم لعن المعيَّن: زيد أو خالد أو عمرو تعرف أنَّهُ يشربُ الخمرَ ـ مثلاً ـ، هل يجوز أن تقول: «لعنةُ الله عليه»؟

ابنُ الجوزي جوَّزهُ[٦]، لكن الصَّواب المنع؛ لأنَّك لا تدري ماذا يختم له، ولا تدري ما عاقبته، فلا ينبغي لعنه، وقد جيء إلى النبيِّ ﷺ برجلٍ يشربُ الخمرَ وقد تعدَّدَ المجيء به إليه، فقالَ رجلٌ: «لعنة الله عليه، ما أكثرَ ما يؤتى به»، فقالَ الرَّسولُ ﷺ: «**لا تلعنوه؛ فإنَّهُ يحِبُّ اللهَ ورسولَهُ**»[٧]، هذا يدلُّ على أنَّ لعنَ الشَّخص بعينِهِ لا ينبغي؛ لأنَّهُ رُبَّما تابَ ورجعَ، واللَّعن ـ

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٥٢)، ومسلمٌ (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (١٠٥)، ومسلمٌ (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٣) رواهُ مسلمٌ (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) رواهُ مسلمٌ (١٥٩٧) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.
(٦) الآداب الشَّرعيَّة (١/ ٣٤٥).
(٧) رواهُ البخاريُّ (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

كما ذكرنا ـ هو: الطَّرد والإبعاد عن مواقع الرَّحمة، فأنت تدعو عليه بأن يطردَهُ اللهُ ويبعدَهُ عن مواقع الرَّحمة، هذا لا ينبغي، بل ادع الله له بالهداية، ولا ينبغي أن تدعو عليه، وهذا ما اختارَهُ أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام وغيرُهُمْ[(١)]، وأمَّا لعنُ أهل المعاصي على سبيلِ العموم دونَ تعيين شخصٍ بعينِهِ، فلا مانعَ؛ كما كان النبيُّ ﷺ يلعنُهُم في هذا الحديث وغيرِهِ، فالذين يأكلون الرِّبا ويتعاملون بها لا شكَّ أنَّهم معرَّضون لسخط الله، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] ومن يستطيع أن يحارب الله ورسوله؟!

ولم يأت هذا في عقوبة الزِّنا ولا عقوبة الخمر، ممَّا يدلُّ على عظم ذنب الرِّبا وقبحِهِ.

قال ابنُ دقيق العيد: «إنَّ أكلَةَ الرِّبا مُجَرَّبٌ لهم سوءُ الخاتمَةِ»[(٢)].

فالغالِبُ أنَّ من تعاطى الرِّبا لا يُختم له بخير، في الغالب أنَّهُ يموت على شَرٍّ؛ لأنَّ دمَهُ ولحمَهُ نبتَ على سُحْتٍ، فحريٌّ ألَّا يُوفَّقَ ولا يُختم له بخيرٍ.

والرِّبا محرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، ثُمَّ لاحظ عقوبةَ آكل الرِّبا في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، كالمصروعِ كلمَّا قامَ سقطَ، يعرفهُ أهلُ الموقفِ بأكلِهِ من الرِّبا، لكن يا للأسف! يا للمُصيبة! كَثُرَ الرِّبا، والنبيُّ ﷺ ذكر أنَّ في آخر الزمان: «**من لم يأكل الرِّبا نالَهُ من غبارِهِ**»[(٣)]، وأظنُّ أنَّ الحديث ينطبقُ على

---

(١) منهاج السُّنَّة (٤/ ٥٦٩)، الآداب الشَّرعيَّة (١/ ٣٤٥).
(٢) فيض القدير (١/ ١٥٣).
(٣) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (١٦/ ٢٥٨) (١٠٤١٠)، وأبو داود (٣٣٣١) من طريق عبَّاد بن راشد، عن سعيد بن أبي خيرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
عبَّادٌ ضعيفٌ، وسعيدٌ مجهولٌ، والحسنُ لم يسمع من أبي هريرة، وقد تابع عبَّاداً داود بن أبي هند كما عند أبي داود والنسائي (٤٤٥٥)، وابن ماجه (٢٢٧٨)، فبقيت علَّتان: الجهالة والانقطاع.

كُلِّ أحد اليوم، لا أحد يسلمُ، لو لم تأكل لا بُدَّ أن يأتيك من غبارِهِ؛ لأنَّ الإنسانَ اجتماعيٌّ، رُبَّما يضيفك إنسانٌ على قهوة، وهو يأكلُ الرِّبا، شَرِبْتَ قهوتَهُ وما تدري عن حالِهِ، أو تأكل طعامه، لا بُدَّ أن الإنسانَ يصيبُهُ من غبارِهِ، كما أخبرَ النبيُّ ﷺ، وهذا كناية عن فشوِّ الرِّبا وانتشارِهِ في آخر الزَّمان، ثُمَّ للأسف أن هناك من يدَّعي العلمَ وجعل يحاولُ إباحةَ الرِّبا الذي هو محرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، يقول: «إنَّهُ جائزٌ إذا كانت الفوائد من أجل التَّنمية والتِّجارة»! لا بأس أن تأخذ ـ مثلاً ـ ألفاً عن ألفٍ ونصفٍ، أو مئةَ ألفٍ على أنَّك تُسَلِّمُهَا مئة وعشرة آلاف، إذا لم تأكلها، وإنَّما أقمت بها مصنعاً ـ مثلاً ـ، كُلُّ هذا باطلٌ، ومن التَّعاليم الفاسدة، فالله ـ سبحانه وبحمده ـ حرَّم الرِّبا، وهذا هو ربا الجاهليَّة، وهؤلاء جاؤوا بأشياء لا دليل لها، ولكن كما قال الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]!

يقولون: «الرِّبا يجوز؛ لأجل مصلحة الفقير»، إذا كنت أنت صاحب مال وجاءك الفقير يريد أن يأخذ منك ألفاً بألف ومئة إلى السَّنة المقبلة، فلا يجوز، وإذا كان غنيَّاً تعطيه الآن ألفاً ويعطيك إيَّاها ألفاً ومئة يفتح بها مشروعاً فهذا لا بأس به، هذا تفريقٌ بين المتماثلين، هذا الذي يقولُهُ كثيرٌ من العصريِّين، لكن هذا كُلُّهُ لا أصلَ لَهُ، هل القرآن فرَّق بين هذا وهذا؟! هل الرَّسول ﷺ فرَّق بين هذا وهذا؟!

الله حرَّم الرِّبا من حيثُ هوَ، وحثَّ على الإقراضِ، وحثَّ على الصَّدقةِ، ورغَّب في الإنفاق والإحسان إلى النَّاس، وبعد هذا كُلِّهِ ذكر تحريمَ الرِّبا، فتحريم الرِّبا جاء في آيات البقرة بعد قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، يحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]: تتصدَّقُ على الفقيرِ وتحسِنُ إليه ولا تؤذيهِ ولا تمنَّ عليه بأنَّك أعطيتَهُ، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ثُمَّ بعدها قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ

صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ثُمَّ قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ثُمَّ بعدها قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ثُمَّ قال بعد هذا: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثُمَّ قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]، كُلُّ هذا قطعاً لدابرِ الرِّبا، ثُمَّ بعد هذا كُلِّهِ قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟...﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لا تعطِ أيَّ إنسانٍ بطلبِ الفائدَةِ، بل أعطِهِ لله، والله يُعوِّضُكَ خيراً.

۞ وعن طارق بنِ شهابٍ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**دخلَ الجنَّةَ رجلٌ في ذبابٍ، ودخلَ النَّارَ رجلٌ في ذبابٍ**».
قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟!
قالَ: «**مرَّ رجلان على قومٍ لهم صنمٌ لا يجوزُهُ أحدٌ حتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شيئاً، فقالوا لأحدِهِمَا: قَرِّبْ.**
قال: ليس عندي شيءٌ أقرِّبُ.
قالوا لَهُ: قَرِّبْ ولو ذباباً، فقرَّبَ ذُباباً، فخلَّوا سبيلَهُ، فدخل النَّار.
وقالوا للآخر: قرِّبْ.
فقال: ما كنتُ لأقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله ﷻ، فضربوا عنقَهُ فدخل الجنَّةَ» رواهُ أحمدُ[1].

(**مرَّ رجلانِ على قوم لهم صنمٌ**): (**الصَّنَمُ**) هو: ما نُحِتَ على صورةٍ وعُبِدَ من دُونِ الله، و(**الوَثَنُ**) أعمُّ، فهو: كُلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ، فَكُلُّ صنمٍ وثنٌ وليسَ كل وثنٍ صنماً.

(**لا يجاوزُهُ أحدٌ حتَّى يُقرِّبَ لَهُ شيئاً، فقالوا لأحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قال: ليس عندي شيءٌ أقرِّبُ**): اعتذَرَ اعتذاراً، فقبلوا منهُ مجرَّد العمل الظَّاهر فقالوا: (**قرِّب ولو ذباباً، فقرَّب ذباباً**) إذ من المعلوم أنَّهم لا حاجة لهم في هذا الذُّباب، ولا خير فيه، بل هو حيوان مستقذرٌ خسيسٌ، ولكن أرادوا بذلك أن يعرفوا باطِنَهُ، هذا قصدُهُمْ، وإلَّا الذُّباب لا يؤكل، ولا ينتفعُ فيه بشيءٍ.

فلمَّا قرَّبَ ذلك الذُّباب إلى صنمهم (**دخل النَّار**)، فدلَّ على أنَّ الشِّركَ لا يُغفرُ.

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ في «الزُّهدِ» (١٥)، وابنُ أبي شيبة (١٧/ ٥٣٧) (٣٣٧٠٩) من حديث طارقِ بن شهابٍ، عن سلمان ؓ موقوفاً عليه، وإسنادُهُ قويٌّ.
وقد تبع المصنِّفُ في حكاية رفعِهِ ابنَ القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٧٦).

وأمَّا الآخرُ فمع أنَّهم لم يطلبوا منهُ إلَّا طلبة حقيرة، **(قالوا: قرِّب ولو ذباباً)**، قال: **(ما كنتُ لأقرِّبَ لأحدٍ شيئاً دُون اللهِ ﷻ)**.

فيه: عظِمُ الشِّركِ بالله، وكون هذا الرجل بذلَ نفسَهُ لله، وصبر على القتل، في حين أنَّهم لم يطلبوا إلَّا ذباباً.

وفيه: أنَّ المقصود الأعظم حتَّى عند عبدة الأوثان هو: عملُ القلبِ، فيستدلُّون بالظَّاهرِ على الباطنِ.

(فضربوا عُنقَهُ فدخلَ الجنَّةَ): دلَّ على أنَّ الإنسان يقي دينَهُ وتوحيدَهُ حتَّى بنفسِهِ.

لو قالَ قائلٌ: هذا الذي قرَّب ذُباباً، ألم يدخُلْ في حَدِّ المكرَهِ؟ قرَّبَ الذُّبابَ وقايةً لنفسِهِ، والله يقول: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فما الجواب؟

يتحصَّلُ لنا ثلاثة أجوبة:

الأوَّلُ: أنَّ هذا شرعُ من قبلنا، فإنَّهُ لا يُعذرُ في شرعهم بالإكراه، أمَّا في شرعنا فالله أباحَ النُّطق بالكفر للمكرَهِ الذي قلبه مطمئنٌ بالإيمان.

الثَّاني: أنَّ الإكراهَ إنَّما هو لمن اطمئنَّ قلبُهُ بالإيمان، فاللهُ يقولُ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وهذا أصبح قلبه غير مطمئنٍ بالإيمان، بل مطمئناً بما قرَّبَ، هذا الجوابُ الثَّاني.

وهذا هو الظَّاهر أنَّ الرَّجلَ قلبُهُ غير مطمئنٍ بالإيمان؛ لأنَّهُ استمرَّ على تقريبِهِ، ولمْ يبالِ، وإلَّا لو تابَ ورجعَ فالله يتوبُ عليه.

الثَّالثُ: أنَّ الإكراهَ يُقبَلُ إذا كان بالقولِ، أمَّا بالفعل فلا، وهذا فعلٌ، واللهُ يقولُ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ﴾ هذا يتعلَّقُ بالقول وهو الذي يُعذَرُ فيه بالإكراه، أمَّا الفعلُ فلا.

والظَّاهرُ أنَّ المكرَهَ معذورٌ، سواءٌ أُكرِهَ على قولٍ أو فعلٍ، خلافاً لمن فرَّقَ[١].

قال المصنِّفُ: (رواهُ أحمدُ): الإمامُ أحمدُ لم يخرجْهُ في (المسندِ)، والإطلاق عند المحدِّثين إذا قيلَ: «رواهُ أحمدُ» ينصرِفُ إلى المسنَدِ، فإذا كانَ قد رواهُ في «الزُّهد»، أو في «السُّنَّةِ» أو في غيرها من كتبه فإنَّهُ يقال: «رواهُ الإمامُ أحمدُ في كتابِ الزُهدِ» أو «في كتابِ السُّنَّةِ» لكن المصنِّفَ تابعَ ابنَ القيِّم؛ لأنَّ ابنَ القيِّمِ نقلَ هذا الحديثَ بهذا السَّياق عازياً لَهُ بقولِهِ: «رواهُ الإمامُ أحمدُ»[٢].



(١) يؤيِّدُ الجواب الثَّاني أنَّ الذي قرَّب لم يمتنع من أصل التَّقريب وإنَّما اعتذر بأنَّهُ لا يجد ما يقرِّبه، أمَّا الآخر فأبى أصل التقريب ولو كان معه ما يُقرِّبُهُ، والله أعلم.

(٢) الدَّاء والدَّواء (ص٧٦).

بابٌ

لا يُذبح للَّه بمكانٍ يُذبح فيهِ لغيرِ اللَّه

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٨].

عن ثابتِ بنِ الضحَّاك رضي الله عنه قالَ: نذرَ رجلٌ أن ينحرَ إبلاً ببُوانةَ، فسألَ النبيَّ ﷺ فقالَ: «**هل كانَ فيها وثنٌ من أوثانِ الجاهلية يُعبَدُ؟**»

قالوا: لا.

قال: «**فهل كان فيها عيدٌ من أعيادِهِمْ؟**»

قالوا: لا.

فقال رسول الله ﷺ: «**أوفِ بنذرِكَ، فإنَّهُ لا وفاءَ لنذرٍ في معصيةِ الله، ولا فيما لا يملكُ ابنُ آدم**» رواهُ أبو داود، وإسنادُهُ على شرطِهِمَا.



باب
لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيهِ لغيرِ الله

معنى هذه الترجمة: أنَّ المكانَ إذا كان مُعدّاً للذَّبح فيه لغيرِ اللهِ، أو أنَّ فيهِ صنماً يذبحُ لَهُ، أو موضعاً يجتمعُ فيه المشركون ويعظِّمونه أو يقيمونَ فيه أعيادَهُمْ، فلا يجوز لك أن تُخَصِّصَهُ بالعبادَةِ، وأن تنذرَ لله بأن تذبحَ في هذا المكان المعيَّن حتَّى ولو كانت نيَّتُكَ خالصَةً وقصدُكَ صحيحاً لا يجوز لك ذلك؛ لوجودِ المشابهَةِ الظاهِرَةِ للمشركين، فالمسلِمُ ممنوعٌ من هذا؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**من تشبَّهَ بقومٍ فهو منهم**»[1]، وذلك لأنَّ المشابهة في الأعمالِ الظَّاهِرَةِ مؤذِنَةٌ بالمشابَهَةِ في الأعمالِ الباطِنَةِ.

۞ وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٨].

أوَّلُ الآيــة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨]، سببُ نزول هذه الآيات على ما قالَهُ جمعٌ من المفسِّرينَ[2] هو: أنَّ رجلاً يقالُ لَهُ: (أبو عامر الرَّاهب) كان مشهوراً بالمدينة، ويُسمَّى (الرَّاهب) لكثرة عبادتِهِ، ولمَّا جاء النبيُّ ﷺ للمدينة وانتشرَ الإسلام شَرِقَ بالدَّعوةِ، ونابذَ الرَّسولَ ﷺ، فعند ذلك سافرَ إلى الشَّامِ وجعل يكاتبُ المنافقينَ بالمدينَةِ، ويَعِدُهُمْ بأنَّهُ سيأتي بجنودٍ من الرُّومِ لاستئصالِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ، وكانت

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ٩٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٦).

الرُّوم تساعدُهُ، فعند ذلك أمرَهُمْ أن يبنوا محلَّاً يُعَسْكِرُ فيه، وقد سمَّاهُ النبيُّ ﷺ: «**أبا عامر الفاسق**»[(١)]، بنوا مسجداً وقصدُهُمْ في هذا المسجد ليس لله، وإنَّما قصدُهُمْ أنَّهُ إذا جاء أبو عامر الفاسق يُعَسْكِرونُ فيه ويقومونَ بالحملَةِ ضِدَّ الرَّسولِ ﷺ وأصحابِهِ، فيُخرجونَهُ من المدينَةِ، ولمَّا تكامَلُ بناؤُهُ جاءوا إلى الرَّسولِ ﷺ فقالوا: «يا رسول الله، إنَّا بنينا هذا المسجد للصَّلاة فيه، وليُقيم فيه أهلُ العِلَّةِ ولِليلَةِ الشَّاتيَةِ، فصلِّ لنا فيه»، وكانت العادة إذا رأى النَّاس مسجداً صلَّى فيه الرَّسول ﷺ حرصوا على الصَّلاة فيه، كما في قصَّةِ عتبان بن مالك ﷺ؛ فإنَّهُ كانَ ضريرَ البصرِ، لا يستطيع الوصول للمسجد للعذرِ الذي قام به، فأراد أن يتَّخِذَ مسجداً في بيته يُصلِّي بقومه، فجاء إلى النبيِّ ﷺ يطلب منه أن يصلِّي في بيته، فجاءه النبيُّ ﷺ وقال: «**أين تحِبُّ أن أصلِّي في بيتك؟**»، فأشار إلى مكانٍ فصلَّى فيه النبيُّ ﷺ واتَّخذَهُ عتبانُ مسجداً[(٢)]، فهؤلاء المنافقون جاءوا إلى الرَّسول ﷺ يطلبون أن يصلِّي في مسجدهم، والرَّسولُ ﷺ لم يعلم بما عندهم، وكان ذلك عند سفرِهِ إلى تبوك، فقالَ ﷺ: «**إنَّا على سفر، ولكن إذا قفلنا إن شاء الله**»، ثُمَّ سافرَ إلى تبوك وأقام بها نحو عشرين يوماً، ثُمَّ لمَّا رجعَ ولم يبقَ بينَهُ وبينَ المسجدِ إلَّا مسيرة يوم أو بعض يوم، نزلَ عليهِ خبرُ المسجدِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨] فعرفَ أنَّ هذا هو مسجد الضِّرار، وما بُنِيَ لأهل العلَّة في اللَّيلةِ الشَّاتيَةِ ولأهل الأعذار، وإنَّما يريدون بهذا المسجد أنَّ من حارَبَ اللهَ ورسولَهُ ﷺ - وهو: أبو عامرٍ الفاسقُ ومن يأتي معه - يبقون فيه لأجل تفريق المؤمنينَ وإخراجِهِمْ منَ المدينَةِ.

ثُمَّ قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ حلفوا أنَّهم لا يريدون

---

(١) ينظر: علل ابن أبي حاتم (٦/ ٣٨٥).
(٢) رواه البخاري (٤٢٤)، ومسلم (٣٣).

إلَّا الخير، ولكنَّ الله شَهِدَ بأنَّهُمْ كَذَبَةٌ فَجَرَةٌ، بنوهُ لأجل هؤلاء الكفرة الذين سيأتي بهم أبو عامرٍ الفاسقُ، ولمَّا نزل على الرَّسول ﷺ خبر المسجد بعثَ إليه من يهدمه، فهُدِمَ ونهى النبيُّ ﷺ عن الصَّلاة فيه أبداً.

وجهُ مطابقَةِ الآية للتَّرجمة: أنَّ المسجد بُنِيَ لمعصية الله، وبُنِيَ للإضرار بالمؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، فصارَ الموضعُ موضعَ معصيةٍ، ومُعَدّاً للمعصيةِ، لذا نهى النبيُّ ﷺ عن الصَّلاة فيه، فاستفدنا من ذلك: أنَّ كُلَّ موضعٍ هُيِّءَ وأُعِدَّ للمعصيةِ فلا تنبغي العبادة فيه، واستفدنا أنَّ الطَّاعةَ تؤثِّرُ في الأرضِ وكذا المعصيةُ.

ثُمَّ قالَ سبحانَهُ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو مسجدُ قباء، أُسِّسَ على طاعة الله ورسولِه ﷺ، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بُني ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، قال بعضُ العلماء: إنَّ المسجد الذي أُسِّسَ على التَّقوى هو مسجِدُ النَّبيِّ ﷺ، وقيلَ: هو مسجِدُ قباء، ولكن لا منافاةَ بينَ الأمرينِ؛ فإذا كان مسجد قباء أُسِّسَ على التَّقوى فلأن يكونَ مسجدُ الرَّسولِ ﷺ أُسِّسَ على التَّقوى من باب أولى.

وذلك أنَّ بني عمرو بن عوفٍ كانوا إذا توضأوا يستنجونَ بالماء فأثنى الله عليهم، فقالَ لهم النبيُّ ﷺ: «**ما هذا الطَّهور الذي أثنى الله به عليكم؟**» فأخبروه بأنَّهُمْ يتبعون الحجارَةَ الماءَ، قال: «**فذاك فالزموه**»[(١)].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾: إثبات صفة المحبَّة لله ـ تعالى ـ، خلافاً للأشاعرة الذين ينكرون إثبات المحبَّة لله، ويقولون: إنَّ المحبَّة هي: الرِّضا أو الإثابة؛ أي: أنَّ الله يحِبُّ المطَّهرين بمعنى: أنَّ الله يثيبُ المطَّهرين

---

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٢٤/ ٢٣٥) (١٥٤٨٥)، والطبريُّ (١١/ ٦٩٠)، وابنُ خزيمةَ (٨٣)، والحاكمُ (١/ ٢٥٨)، من طريق أبي أويس عبد الله المدني، عن شرحبيل بن سعد، عن عويم بن ساعدة الأنصاري، به مرفوعاً.

أبو أويس فيه كلامٌ من جهَةِ حفظِهِ، وشرحبيلُ ضعيفٌ وفي سماعه من عويم نظرٌ كما قال ابن حجر في (التَّهذيب ٢/ ١٥٨)، وقد جاء الخبرُ من مسند أبي أمامةَ وابن عبَّاسٍ وأنسٍ وجابرٍ ﷺ وجميعها لا تخلو من ضعفٍ.

ويؤتيهم الأجورَ، ولكن أهل السُّنَّةِ والجماعة يثبتون لله ما أثبتَهُ لنفسِهِ إثباتاً يليقُ بجلالِهِ حقيقةً على حَدِّ قولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، إثباتاً بلا تمثيلٍ، وتنزيهاً بلا تعطيلٍ، لا نحرِّف، ولا نكيِّف، ولا نمثِّل، ولا نشبِّه، بل نثبتها كما أثبتها الله لنفسِهِ، ونُنزِّه الله عن مشابهة خلقه، لا نقول: كيف المحبَّة؟ كيف السَّمع؟ كيف البصر؟ بل نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وكيف نُنزِّه الله عن شيءٍ أثبته لنفسِهِ؟! هذا غلطٌ، الله أخبر أنَّهُ يحِبُّ المطَّهرين، ويحِبُّ التَّوابينَ، ويحِبُّ المحسنينَ، ويحِبُّ المتقينَ، فكيف ننفي ذلك عنه؟!

ولا ننكر أنَّ من لازم إثبات المحبَّة: الإثابة، لكن لا نُفسِّرها بالإثابة، وإنَّما نقولُ: الإثابةُ من نتائجها.

والرَّحمة نثبتها له ومن ثمرتها: الإنعام، لكن لا نفسِّر الرَّحمة بالإنعام.

۞ عن ثابتِ بنِ الضحَّاك رضي الله عنه قالَ: نذرَ رجلٌ أن ينحرَ إبلاً ببُوانةَ، فسألَ النبيَّ ﷺ فقالَ: **«هل كانَ فيها وثنٌ من أوثانِ الجاهليَّة يُعبَدُ؟»**

قالوا: لا.

قال: **«فهل كان فيها عيدٌ من أعيادِهِمْ؟»**

قالوا: لا.

فقال رسول الله ﷺ: **«أوفِ بنذرِكَ، فإنَّهُ لا وفاءَ لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملكُ ابنُ آدم»** رواهُ أبو داود، وإسنادُهُ على شرطِهِمَا[1].

(العيد): اسمٌ لما يعود ويتكرَّر مجيئُهُ، سواءٌ كان العَودُ في السَّنةِ أو الشَّهرِ أو الأسبوعِ، يوم معلوم عندهم في السَّنة يجتمع فيه الكُفَّارُ ويتناشدون فيه الأشعار، أو يذبحونَ، أو يقيمون فيه شيئاً من شعائرهم.

(وإسنادهُ على شرطها)؛ أي: على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ.



(١) رواهُ أبو داود (٣٣١٣)، وأصلُهُ عند البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠)، والحديث قوَّاهُ شيخُ الإسلامِ في الاقتضاء (١/ ٤٣٧)، وصحَّحَهُ ابنُ عبد الهادي في الصَّارم (ص٣٠٩)، وابنُ حجرٍ في البلوغ (ص٤٦٨ «١٢٨٦»).

بابٌ
مِنَ الشِّركِ النَّذرُ لغيرِ اللَّه

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي «الصَّحيح» عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«من نذرَ أن يطيع الله فليطعْهُ، ومن نذرَ أن يعصي اللهَ فلا يعصه»**.



بابٌ
مِنَ الشِّرك النَّذرُ لغيرِ اللَّه

النَّذرُ لغةً: الإيجابُ، وذلك أنَّ النَّاذِرَ يُوجِبُ في ذمَّتِهِ ما لم يكُنْ واجباً عليه قبلَ ذلك، والنذر إذا كان لله فهو على خمسة أقسام:

القسمُ الأوَّلُ: نذرٌ مباحٌ، ويكون النَّاذرُ مخيَّراً بين فعله وبين كفَّارة اليمين، مثالُهُ: لو قال: «لله عليَّ أن أشتري هذه الدَّار»، أو: «لله عليَّ أن أشتري هذا البشت»[1]، أو: «لله عليَّ أن ألبس هذا الثَّوب»، هذا ليس بطاعةٍ بل هو مباحٌ، إن شاء لبس الثَّوب وإن شاء تركه، إن شاء اشترى الدَّار أو تركها، وعليه عند عدم فعله: كفَّارة يمين؛ لأنَّ النَّذر هنا بمنزلة اليمين، كأنَّه قال: «والله لألبسنَّ هذا الثَّوب»، «والله لأشترينَّ هذه الدَّار».

القسمُ الثَّاني: نذرٌ مكروهٌ، وحكمه أنَّهُ يستحَبُّ ألَّا يفعله وأن يكفِّر عنه، مثالُهُ: لو نذر إنسان فقال: «لله عليَّ أن أطلِّق زوجتي إذا لم يكن كذا وكذا»، فتحقَّق ما نذر عليه فالمستحبُّ له أن يكفِّر كفَّارة يمين ولا شيء عليه، وإن شاء فعل المكروه، والتكفير أفضل.

القسم الثَّالث: نذرُ اللِّجاجِ والغضبِ، وهو أنَّ الإنسان في حالَةِ الغضَبِ واللِّجاج ينذرُ أن يضربَ فلاناً، وهذا ينبغي أن يكفِّر ولا يفعل ما نذر عليه.

القسمُ الرَّابع: نذرُ معصيةٍ، كقوله: «لله عليَّ أن أقتل فلاناً»، أو: «لله عليَّ أن أشرب الخمر»، أو: «لله عليَّ أن أزني بفلانة»، وهذا حرامٌ لا يجوز الوفاء به؛ لأنَّهُ معصيةٌ، لكن هل عليه كفَّارة يمين؟

فيه خلافٌ بين العلماء، والمعروفُ أنَّ عليه الكفَّارة؛ لحديث عمران بن حصين أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا نذرَ في معصيةٍ، وكفَّارتُهُ كفَّارةُ يمينٍ**»[2].

(١) عباءةٌ يلبسها الرَّجل.
(٢) يأتي تخريجه قريباً.

القسمُ الخامسُ: نذرُ التَّبرُّرِ، وهو: الذي أُريد به البِرُّ والطَّاعةُ، وهذا يجِبُ الوفاء به، وهو المقصودُ في هذا الباب، كما لو قال: «إذا شفى الله ولدي من هذا المرض فللَّه عليَّ أن أتصدَّق بألف ريال»، وشُفي الولدُ فيلزمُهُ أن يتصدَّق بألف ريال، وليس فيه كفَّارة، أو قال: «إن سلَّم الله مالي الغائب فللَّه عليَّ أن أذبح شاة»، يلزمُهُ إن سَلِمَ مالُهُ أن يوفي بنذرِهِ؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**من نذرَ أن يطيع الله فليطعه**»(١)، وهذا خاصٌّ بالفقراء، والنَّذر من حيث هو لا ينبغي، وقد جاء في الحديث: «**إنَّ النَّذرَ لا يأتي بخيرٍ، وإنَّما يُستخرج به من البخيل**»(٢)، فالذي قدَّرَهُ اللهُ من موتٍ أو شيء لا بُدَّ أن يقع، لكن النَّذر والوفاء به هو عبادة لله، فصرفه حينئذٍ لغير الله شركٌ، والدَّليل على أنَّهُ عبادةٌ قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧].

---

(١) رواه البخاريُ (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواهُ البخاريُّ (٦٦٠٨)، ومسلمٌ (١٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

۞ وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

(﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾)؛ أي: طويلاً، فالله مدح الموفين بالنَّذر.

ووجهُ الدَّلالة من الآية على أنَّ النَّذر عبادة: هو أنَّ الله مدحَهُم على الوفاء بنذورهم، إذ لو كان مباحاً لم يمدحهم الله عليه، وإنَّما مدحهم الله لأداء واجبٍ أو لفعلِ مستحَبٍّ، أو تركِ محرَّم أو مكروهٍ، وكما تدلُّ عليه الآية من وجهٍ آخر وهو أنَّه سبحانه قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ والخوف من ذلك اليوم عبادة؛ فالمؤمن مطلوب منه أن يخاف الله وأن يخاف مما سيؤول إليه أمره(١).

(١) أي: لمَّا كان الخوف من ذلك اليوم عبادة وقُرن بالوفاء بالنَّذر دلَّ بدلالة الاقتران على أنَّ الوفاء بالنَّذر عبادة.

۞ وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

دلَّ على أنَّ النَّذر عبادة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا أنفق نفقةً يريدُ بها وجهَ الله فهي عبادةٌ، حتَّى إنَّ سعداً ﷺ سأل النبيَّ ﷺ عمَّا ينفقُهُ على أهلِهِ، فقال: «**حتَّى اللُّقمة تجعلها في في امرأتك تؤجر عليها**»[1].

وإذا ثبت أنَّ النَّذر عبادة فالنَّذر للقبور أو للمشايخ أو للأنبياء هو صرف للعبادة لهم، كما لو نذر أن يذبح للرَّسول ﷺ متقرِّباً، أو نذرَ ـ مثلاً ـ دراهم لقبر أحمد البدوي لأجل إيجاد الكهرباء على قبره، أو لتحلية قبره بالذَّهب، أو للبناء أو التَّرميم، أو للسَّادن، هذا من الشِّرك الأكبرِ المنافي للتَّوحيد، فاللهُ أمرَ ألَّا يكون النَّذرُ إلَّا له، وكثير ممَّن طغى عليهم الشِّرك وافتتنوا بعبادة القبور جعلوا ينذرون ويذبحون لها مريدين التقرُّب بذلك إليها، وما أكثر هذا في البلاد المنتسبة للإسلام، وقد ذكرَ صاحبُ المنار: (محمَّد رشيد رضا) في مجلَّته كتاباً نشرَهُ، وجَّهه إليه شخصٌ يقالُ له: (سيف الدِّين اليماني)، كان بينه وبين المنار مكاتبات، وكان في سنغافورة، كتب كتاباً حاصله: أنَّهُ تكلَّم عن حالة الإسلام في الجزر الهنديَّة وسنغافورة والشَّرق الأقصى وهل عندهم إسلام؟!؛ لأنَّهم كانوا يهتمُّون بالإسلام في أوَّل هذا القرن، ومن جملة ما ذكرَ أنَّهُ قال: جئتُ جزيرةً من جزر الهند وكانت في وسط بحر، دخلتُ تلك الجزيرة وإذا فيها قبر والنَّاس يطوفون حوله وينذرون له وعندهم سادنٌ، فدخلت لأنظر إلى هذا القبر وماذا يفعل الناس؟! فأقبل إلي السَّادن ومعه شيءٌ من الزَّيت يريد أن يرشَّ به ثيابي للبركة فصِحْتُ به بأعلى صوتي: «لا توسِّخ ثيابي»، فقال: أنت وهابيٌّ؟!

(١) سبق تخريجه.

فقلت: «نعم أنا وهابيٌّ».

فامتاز الوهابيَّةُ بعدم النَّذر للقبور حتَّى في الجزر الهنديَّة التي لم يصل إليها أحدٌ! هذا شأن الكثير افتتنوا بالقبور وعبادة القبور والنذر للقبور(١).

ويقولون في كتبهم عندما يريدون عبادة صاحب القبر: «إنَّ هذا الميت رجلٌ صالحٌ وإذا وجَّهت إليه روحك بقلب حيٍّ؛ فإنَّ روحه تقابل روحك، ثُمَّ هو يشعُّ على قلبك بالأنوار التي تنبعث من روحه كالمرآة التي تعكس ضوء الشمس وتدخله!».

تعاليم فاسدة، من أين لكم هذا؟! هل هذا معقول؟! هل دلَّ عليه كتاب؟! هل دلَّت عليه سُنَّةٌ؟! هل دلَّ عليه قولُ صحابيٍّ؟!

لا ينفع القلوب إلَّا الإقبال على الله ـ سبحانه ـ، كما في الدُّعاء المعروف الذي رواه ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ وفيه: «**أسألك بكُلِّ اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقكً، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري**»(٢)، هذا هو الذي ينفع القلب، لا روح هذا الميت، ومعنى: «**أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي**»: أنَّ القرآن بمنزلة المطر، وقلبك بمنزلة الأرض، فالمطر إذا وقعَ على الأرض أنبتت وجاءت بأنواع الثِّمار الجميلة النافعة، فالقرآنُ إذا حَلَّ في قلبك أنتج الإيمان وأنتج الخوف من الله وعظمة الله والإقبال عليه، واستنارَ قلبُكَ وذهبَ همُّكَ وجلَّى حزنَكَ.

أمَّا هذه الخرافة ـ وهي من آراء الفارابي ـ فقد فُتنوا بها لهذه العبارات

---

(١) ينظر: مجلة المنار (٢/ ٤٢٥).

(٢) رواهُ الإمام أحمد (٦/ ٢٤٦) (٣٧١٢)، وابنُ أبي شيبة (١٥/ ١٦٠) (٢٩٩٣٠)، والبزَّار (١٩٩٤)، وابنُ حبَّان (٩٧٢)، والطبرانيُّ (١٠٣٥٢)، والبيهقيُّ في «الدَّعوات» (١٨٤) من طريق أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمٰن بن مسعود، عن أبيه، عن جَدِّهِ به مرفوعاً.
أبو سلمة لا يَكاد يُعرف، وليس هو موسى الجهني، ينظر: علل الدَّارقطني (٢/ ٤٠٣)، لسان الميزان (٩/ ٨٤).

الخلَّابة التي لا دليل عليها، ولا تمتُّ إلى الشَّريعة بصلة، هل مثل هذا يبيح صرف العبادة لغير الله؟!

ينذرون للأموات، ويبنون على القبور، ويزخرفونها؛ رجاء خيرها وبركة هذا الميت وشفاعته.

نقول: أنتم عكستم القضيَّة، وخالفتم الشَّريعة الإسلاميَّة، فالشَّفاعة ليست عندَ هذا الميِّت، بل هي عند الله، نحن الأحياء الذين نشفع لهذا الميِّت، ألا ترى أنَّهُ إذا مات قمنا نُصلِّي عليه منتظمينَ صفوفاً خلف إماماً، نقولُ: «**اللَّهُمَّ اغفر له وارحمه وعافه واعفُ عنهُ**»، وقد قال النبيُّ ﷺ كما في «صحيح مسلم»: «**ما من مسلم يموت فيقومُ على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلَّا شفَّعهم الله**»[(١)]، مع أنَّنا نقول: الصَّالحون يشفعون، والأنبياء يشفعون، نحنُ لا ننكر الشَّفاعة، لكن لا نطلبها منهم، حتَّى الرَّسول ﷺ لا نطلب الشَّفاعة منه، بل نطلبها من الله، فنقول: «**اللَّهُمَّ شفِّع فينا نبيَّك، اللَّهُمَّ لا تحرمنا شفاعته**»، ولا نقول: «يا رسول الله اشفع لنا».

والأفراط ـ أيضاً ـ يشفعون، ولا نطلب من الفرط أن يشفع، ولا من الصَّالح أن يشفع، بل ذلك من الله، ألا ترى أنّا إذا قمنا نصلِّي على الطفل قلنا في دعائنا: «**اللَّهُمَّ اجعله ذخراً لوالديه، وفرطاً لهما إلى الجنَّة وشفيعاً مجاباً**»[(٢)]، الفرطُ: أي: المقدَّم، ونطلب من الله أن يكون هذا الفرط شفيعاً لوالديه، ولا نقول للفرط: «أيُّها الفرط اشفع لوالديك»، بل الشَّفاعة ملك لله، لكن الله يكرم الصَّالح بأن يقبل شفاعته فيمن استحقَّ النَّار أن لا يدخلها، أو فيمن لم يدخل الجنة أن يدخلها، أو من دخلها أن يزاد ثوابه فيها.

فالنَّذر للقبور والذَّبح لها والبناء عليها وسؤالها المدد وتفريج الكربات وإغاثة اللَّهفات، كُلُّ هذا ينافي التَّوحيد الذي من أجلِهِ بُعثت الرُّسلُ، ومن

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٩٤٨) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) روى البيهقي (٤/ ١٥) نحوَهُ عن أبي هريرة موقوفاً، وعلَّق البخاريُّ (٢/ ٨٩) نحوَهُ عن الحسن.

أجلِهِ أُنزلت الكتبُ، ومن أجلِهِ جُرِّدَتْ سيوفُ الجهادِ، ومن أجلِهِ وقعت الواقعةُ وحقَّت الحاقَّةُ.

والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، نكرة في سياق النَّهي فتعمُّ أيَّ أحدٍ: نبيٌّ أو وليٌّ أو غيرهما، لا يجوز أن ندعو مع الله أحداً، فالدُّعاء عبادة، كذلك لا يجوز أن ننذر لأحد غير الله، فالنَّذر عبادة، والذَّبح عبادة، ولكن يا للأسف كثير من المنتسبين للإسلام افتتنوا بهذه القبور، بل وألَّفوا المؤلَّفات في ذلك، فقد ألَّف المفيد بن النُّعمان كتاباً سمَّاه: «حجَّ المشاهد»، فجعل للمشاهد منسكاً![1]، فحينما تذهب تزور الحسين أو علي بن أبي طالب، كيف تطوف؟! وكيف تسجد؟! وكيف تتقرَّب إليه؟! هذا من دعاة الشِّرك المنافي للتَّوحيد، ولكن هذه سُنَّةُ الله في هذا الكون: مؤمنٌ وكافرٌ، صالحٌ وطالحٌ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣] وكل من جاء بخلاف ما جاءت به الأنبياء فهو عدوٌّ للأنبياء، فالأنبياء جاؤوا بالتَّوحيد، فالذي يأتي بخلاف التَّوحيد فقد بارز بعداوة الأنبياء، مهما زخرفوا بأقوالهم وعباراتهم فالحَقُّ واضحٌ، فالنبيُّ ﷺ سيِّد الخلق وأفضلهم، لمَّا قيل له: «**ما شاء الله وشئتَ**» غضب وقال: «**أجعلتني لله نِدّاً؟!**»[2]، مع أنَّهُ ﷺ له مشيئة، وأنا لي مشيئة، وأنتَ لك مشيئة، وكُلُّ إنسان له مشيئة، لكن مشيئتنا تابعة لمشيئة الله، لما جاء بالواو التي تفيدُ مطلقَ الاشتراك والجمع أنكرَ عليه، وقال: «**أجعلتني لله نداً؟!**».

فانظر إلى قول الرَّسول ﷺ وحمايته حِمى التَّوحيد، حَمَى التَّوحيدَ، وَحَمَى جانبَ التَّوحيدِ، بل وحَمَى حِمى التَّوحيد، ومن تأمَّل القرآن والسُّنَّة وما درجَ عليه سلفنا الصَّالح علم أنَّ هؤلاء القوم الذين افتتنوا بهذه الكتب والبناء على القبور، ليسوا على صراط مستقيم.

---

(١) ينظر: منهاج السُّنَّة (١/ ٤٧٦).
(٢) سيأتي تخريجه.

۞ وفي «الصَّحيح» عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«من نذرَ أن يطيع الله فليطعْهُ، ومن نذرَ أن يعصي اللهَ فلا يعصه»**[١].

هذا يدلُّ على أنَّ أيَّ عبادة نذرتها يجب عليك الوفاء بها، وفيه الرَّد على الحنفيَّة الذين يقولون: «لا يجِبُ النَّذر إلَّا إذا كانَ جنس المنذور واجباً شرعاً»، كما لو قلت: «لله عليَّ أن أصوم شهراً»، قالوا: يلزمك؛ لأنَّ صيام شهر رمضان واجب، وهذا الذي نذرته لوجوبه أصل في الشَّرع.

ولو قلت: «لله عليَّ أن أصلِّي عشر ركعات صلاة الضحى»، فعند الحنفيَّة يلزمك؛ لأنَّ لها جنساً واجباً، وهو الصَّلوات الخمس.

بخلاف ما لو قلت: «لله عليَّ أن أعتكف في شهر رمضان»، يقولون: لا يلزمك؛ لأنَّ الاعتكاف لا يجب من أصله.

أمَّا الجمهور فيقولون: يلزمك الوفاء بالنذر ما دام أنَّهُ طاعة، وإن لم يكن له أصلٌ واجبٌ؛ لقول النبيِّ ﷺ: **(من نذر أن يطيع الله فليطعه)**، وهذه طاعة، وتقييدكم بأنَّهُ لا بُدَّ أن يكون لَهُ أصلٌ واجبٌ في الشَّرع لا دليل عليه.

ولو قلت: «لله عليَّ أن أزور فلاناً المريض» فالحنفيَّة لا يوجبونه، ويقولون: عيادةُ المريض ليست واجبةً، والجمهور يوجبونه؛ لأنَّ عيادة المريض طاعة، وقد حثَّ عليها النبيُّ ﷺ، وهي من حَقِّ المسلم على المسلم.

ولو قلت: «لله عليَّ أن أحجَّ»، فالجميع على وجوب الوفاء ـ حتَّى الحنفيَّة ـ؛ لأنَّ الحجَّ أصلُهُ واجبٌ.

والكافرُ يصِحُّ نذرهُ، لكن يوفي به بعد الإسلام، كما في قصَّة عمر رضي الله عنه؛ فإنَّهُ قال: يا رسول الله إنِّي كنت نذرتُ أن أعتكف ليلةً في المسجد الحرام.

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٦٩٦).

فقال ﷺ: «**أوفِ بنذرك**»[(١)]، فالنَّذر وقعَ في الجاهليَّة، ومع ذلك أمرَهُ الرَّسول ﷺ بالوفاء بعد الإسلام، قالوا: فهذا يدلُّ على أنَّ النَّذر ينعقد من الكافر ويبقى في ذِمَّته ولو أدَّاه حال كفره لم يصِحَّ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكفَّار مخاطبون بفروع الشَّريعة.

(**ومن نذرَ أن يعصي الله فلا يعصه**): معلومٌ أنَّ المعصية لا يجوز فعلها لا بنذرٍ ولا بغيرِهِ، مثل: لو نذر: «لله عليَّ أن أقتل عَمْراً»، حرامٌ عليه الوفاء، لكن هل عليه في هذا النَّذر كفَّارة؟

مذهبنا ومذهب بعض العلماء أنَّ عليه الكفَّارة ـ وإن كان الوفاء به لا يجوز ـ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**لا نذرَ في معصيةٍ، وكفَّارتُهُ كفَّارةُ يمينٍ**»[(٢)]، والقولُ الآخر: أنَّهُ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٠٣٢)، ومسلمٌ (١٦٥٦).

(٢) أخرجَهُ الطَّيالسيُّ (٢/ ١٧٧) (٨٧٨)، والإمامُ أحمدُ (٣٣/ ١١٨) (١٩٨٨٨)، والنَّسائيُّ، كتاب الأيمان والنُّذور، باب كفَّارة النَّذر (٧/ ٢٧) (٣٨٤٠)، والطبرانيُّ (٣٦٣)، والحاكمُ (٩/ ٤٨١ ـ ٤٨٢) (٨٠٣٥ ـ ٨٠٣٦ ـ ٨٠٣٧)، والبيهقيُّ (٢٠/ ١٤٦ ـ ١٨٩ ـ ١٩٠) (٢٠٠٠٧ ـ ٢٠٠٩٥ ـ ٢٠٠٩٨) من طريق محمَّد بن الزُّبير الحنظلي، عن أبيه، عن رجل، عن عمران بن الحصين ـ مرَّة ـ، وأخرى: عن أبيه عن عمران ـ بإسقاط الرَّجل ـ، وثالثة: عن رجلٍ عن عمران ـ بإسقاط أبيه ـ، ورابعة: عن الحسن، عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما، بِهِ مرفوعاً.
وإسنادُهُ واهٍ؛ الزُّبيرُ والحسنُ لَمْ يسمعا من عمران، والرَّجلُ مبهمٌ، ومحمَّدُ بن الزُّبير متروكٌ، كما أنَّهُ اضطَّرب فيه اضطراباً شديداً.
قال البخاريُّ (الضُّعفاء ص١٢٠): «محمَّدٌ منكرُ الحديثِ».
وقال النَّسائيُّ بعد إخراجِهِ: «محمَّدُ بنُ الزُّبير ضعيفٌ لا يقوم بمثله حجَّةٌ، وقد اختُلِفَ عليه في هذا الحديث»، وضعَّفَ الحديثَ أبو حاتم (العلل ٤/ ١٥٠)، والبيهقيُّ (المعرفة ١٤/ ٢٠٠).
ولَهُ شاهدٌ من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجَهُ الطيالسيُّ (٣/ ٨٧) (١٥٨٧)، والإمامُ أحمدُ (٤٣/ ٢٠٣) (٢٦٠٩٨)، وأبو داود (٣٢٩٠)، والتِّرمذيُّ (١٥٢٤)، والنَّسائيُّ (٣٨٣٤)، والبيهقيُّ (٢٠/ ١٨٥) (٢٠٠٨٦) من طريق يونسَ، عن الزهريِّ، عن أبي سلمة، عن عائشة، به مرفوعاً.
لَمْ يسمعْهُ الزُّهريُّ من أبي سلمة كما قال الحُفَّاظُ، فقد رواهُ أبو داود (٣٢٩٢)، والتِّرمذيُّ (١٥٢٥) من طريق ابن أبي عتيق وموسى بن عقبة، عن الزهريِّ، عن سليمان بن أرقم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عائشة، به مرفوعاً. =

لا كفَّارة عليه؛ لأنَّهُ لم ينعقد ولا يجوز الوفاء به، فكيف يكون فيه كفَّارة؟! فالكفَّارة لا تكون إلَّا عن ذنبٍ، ولهذا سُمِّيت (كفَّارة)؛ أي: تكفِّر ما ارتكبه الإنسان من ذنب، وهذا لم يرتكب ذنباً؛ فتكون الكفَّارة ليس لها هنا مقابل ـ هذا قولهم ـ.

لكن نردُّ عليهم فنقول:

أوَّلاً: الحديثُ صريحٌ.

ثانياً: وإن كان يحرم عليه الوفاء لكن مجرَّد قوله: «لله عليَّ أن أقتل فلاناً»، هذا التزام، وفعله هذا معصية، فيكفِّر هذا النَّذر الذي ابتداؤه معصية ـ وإن كان لا يجوز الوفاء به ـ.

= فبانَتْ علَّتُهُ، وظهرَ ضعفُهُ؛ فسليمانُ: متروكٌ ذاهبُ الحديث كما قال البخاريُّ (العلل الكبير ص٢٥٠)، ولما أبانَ إمامُ الشَّأن أبو عبد الله أحمد بن حنبل ضعفَ الخبرِ قالَ: «أفسدوا علينا هذا الحديث..» (سنن أبي داود ٣/ ٢٣٢، ومسائله ص٤٠١).
وَقَدْ حكى النَّوويُّ (الرَّوضة ٣/ ٣٠٠) اتِّفاق الحفَّاظ على ضعف الحديث، وتعقَّبه الحافظُ (التلخيص ٤/ ٣٢٤) فقال: «قد صحَّحهُ الطحَّاويُّ وأبو علي ابن السَّكَنِ فأين الاتِّفاق؟!»، وينظر: علل الدَّارقطنيّ (٨/ ٣٠١)، معرفة السُّنن والآثار (١٤/ ١٩٩).
ولَهُ شاهدٌ آخر من مسند ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، رواهُ أبو داود (٣٣٢٢) من حديث طلحة بن يحيى الأنصاريِّ، عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن بكير بن عبد الله بن الأشجِّ، عن كريب، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، به مرفوعاً.
قال أبو داود: «رواهُ وكيعٌ وغيرُهُ عن عبد الله بن سعيد فأوقفوهُ على ابن عبَّاس».
وروايةُ الوقف أخرجها ابنُ أبي شيبة (٧/ ٥٢٧) (١٢٣١٣)، وصوَّبها الرازيَّان (العلل لابن أبي حاتم ٤/ ١٥١)، وذكرَ الحافظ ابن حجرٍ أنَّ الحفَّاظ رجَّحوا وقفَهُ، ينظر: بلوغ المرام (ص٤٦٧ «١٢٨١»).
وطلحةُ فيهِ لينٌ (ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٣)، وقد ضعَّفَ المرفوعَ أبو محمَّد ابنُ حزمٍ (المحلَّى ٨/ ٦)، وأبو عمر ابن عبد البر (الاستذكار ٥/ ١٨٧).
وجاء موقوفاً ـ أيضاً ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رواهُ عبدُ الرزَّاق (٨/ ٤٣٣) (١٥٨١٣)، وابنُ أبي شيبة (٧/ ٥٢٢) (١٢٢٨٨)، من حديث زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، به موقوفاً.
وزيدٌ صدوقٌ، وأبو عبيدة حديثُهُ عن أبيه محمولٌ على الاتِّصال وإن كان لم يسمع منه، ينظر: شرح علل الترمذي (١/ ٥٤٤).
فتلخَّصَ أنَّ الخبرَ لا يصِحُّ مرفوعاً، وأنَّهُ جاء بإسنادين جيِّدين موقوفاً على عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهم، والله أعلم.

بابٌ
مِنَ الشِّركِ الاستعاذَةُ بغيرِ اللَّه

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نزلَ منزلاً فقال: «أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شَرِّ ما خلقَ»، لم يضرَّهُ شيءٌ حتَّى يرحلَ من منزلِهِ ذلكَ**» رواهُ مسلمٌ.



بابٌ
مِنَ الشِّركِ الاستعاذَةُ بغيرِ اللَّه

الاستعاذَةُ: هي الالتجاء والاعتصام، وهي عبادةٌ؛ فمن استعاذ بغير الله بما لا يقدر عليه إلَّا الله فقد جعلَهُ شريكاً لله.

فإذا قلتَ: «أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم»: فأنت بهذا تعتصم بالله، وتلتجئ إليه، وتتضرَّع إليه بأن يقيك هذا الشَّر الذي استعذت بالله منه، والعياذ واللِّياذ بمعنى واحد، إلَّا أن اللِّياذ في طلب الخير، والعياذ في دفع الشَّر، كما قيل:

يا من ألوذُ به فيما أُومِّلُهُ ... ومن أعوذُ به ممَّا أحاذِرُهُ(١)

أنت المستعيذ، والله هو المستعاذ به، والمستعاذ منه هو ذلك الشَّر: من جنٍّ أو غير ذلك، وجاءت آيات كثيرة في أنَّ المسلم لا يستعيذ إلَّا بالله، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، فالاستعاذة لا يجوز صرفها لغير الله، فالله هو الذي يقيك ويحفظك من كُلِّ شَرٍّ، فمتى التجأت إليه واعتصمت به وصدر ذلك من قلبٍ حيٍّ فالله يحفظك ويعيذك ممَّا استعذت منه.

---

(١) ينظر: شرح ديوان المتنبي للواحدي (١/٣٨)، وكان شيخ الإسلام رُبَّما قالها في سجودِهِ، ينظر: البداية والنهاية (١٥/٣٧٨).

۞ وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

هذه الآية نزلَتْ في مشركي العرب وذلك أنَّهم كانوا إذا نزلوا وادياً مقفراً أو مكاناً موحشاً قالوا: «نعوذُ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه»، يظنُّون أنَّ الجِنَّ تُنفِّرُ إبلَهُمْ إذا نزلوا الوادي، وأنَّها تعبثُ بأمتعتهم وتسخر بهم، فهم يلتجئون ويعتصمون بعزيز هذا الوادي ـ أي: عظيم الجنِّ ـ من سفهاء قومه، بأن يمنع عنهم سفهاءهم، فإذا قال ذلك مشركوا العرب زادوا الجنَّ رهقاً؛ أي: تعاظماً وتكبُّراً، وقيل: زادهم الجنُّ خوفاً وشرّاً؛ لأنَّهم استعاذوا بغير الله، وعلى التقديرين: لا تجوز الاستعاذة بالجنِّ.

وفي الآية: إثبات وجود الجنِّ، وهم خلق من خلق الله، دلَّت على ذلك الآياتُ القرآنيَّةُ، والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ، خلافاً لجهلة النَّصارى وبعض الأطباء المنكرينَ لوجود الجنِّ، وقد حكى ابنُ حزمٍ[1] إجماعَ أهل العلم من اليهود والنَّصارى والمسلمين والصَّابئين على وجود الجنِّ، ولم ينكر وجودهم إلَّا شُذَّاذٌ قلائل من جهلة الفلاسفَةِ والأطباءِ، حتَّى عقلاء النَّصارى يُثبتون وجودَهُم، والآن كثيرٌ من الأطباء ينكرون وجود الجنِّ، لكن القرآن يردُّ عليهم، والسُّنَّةُ تردُّ عليهم، والواقع ـ أيضاً ـ يردُّ عليهم؛ فإنَّهم يبرزون لكثيرٍ من الإنس ويتحدَّثون معهم ويعرفونهم، وقد ذكرَ العلماءُ في كتبهم شيئاً من أحكام الجنِّ، هل تنعقد بهم الجماعة؟ وهل بولهم طاهرٌ؟ إلى غير ذلك ممَّا هو مذكور في محلِّهِ.

ثُمَّ إن الجنَّ أحد الثَّقلين الذين بعث اللهُ النبيَّ ﷺ إليهم، وكانت الجنُّ تتغنَّى ببعثته، وكذلك ـ أيضاً ـ كُهَّانُ العرب تأتيهم الشَّياطين وتخبرهم حتَّى

(١) الفصل (٥/ ٩)، وينظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٩٣).

أنزل الله القرآن ببعثة النبيِّ ﷺ فعند ذلك حُجبوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

والجنُّ خلقٌ من خلقِ الله، أجسامٌ لطيفةٌ، يتصوَّرون أحياناً للآدميِّ ويتشكَّلون، قال ابن تيميَّة: «من لطافة أجسامهم أنَّهُ يدخل مع الجدار وينفذُ من الجهة الأخرى، وإن كان الجدار محكماً»(١)، فهم أدقُّ من الرِّيح لطافة.

ومن أنكر وجودهم فهو كافرٌ مرتدٌّ حلالُ الدَّم والمال؛ لأنَّهُ أنكر ما دلَّ عليه صريحُ القرآن والسُّنَّة، وما أجمعت عليه الأُمَّةُ.

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (٣/ ١٣)، النُّبوات (١/ ٥٢٣).

۞ وعن خولة بنت حكيم ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من نزلَ منزلاً فقال: «أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شَرِّ ما خلقَ»، لم يضرَّهُ شيءٌ حتَّى يرحلَ من منزلِهِ ذلكَ»** رواهُ مسلمٌ[١].

أرشدهم النبيُّ ﷺ إلى أنَّهم إذا نزلوا وادياً مقفراً أو أرضاً موحشةً أن يقولوا: **(أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خلقَ)** بدلاً من قولهم: «نعوذُ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومِهِ»، فمتى استعاذَ المرء بالله فإنَّ الله يكفيه.

وقد ذكرَ القرطبيُّ ﵀ أنَّهُ كانَ يحافظُ على هذا الدُّعاء كُلَّ ليلة فنسيَهُ مرَّةً فلدغتهُ عقرب![٢].

وفي هذا الحديث: أنَّ القرآنَ كلامُ الله، منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، خلافاً للجهميَّةِ والمعتزلة، ووجَهُ الدَّلالة من الحديث: أنَّهُ لو كان القرآن مخلوقاً لم تجز الاستعاذة به، فالاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، وإنَّما تستعيذ بالله أو بصفَةٍ من صفاتِهِ، وكلام الله صفةٌ من صفاته، وكلماتُ الله هي القرآن.

(لم يضرَّهُ شيءٌ): هو بفتح الرَّاء، وإن كان قد دخل عليه جازمٌ من أدوات الجزم وهو «لم»، وذلك أنَّ الحرف المشدَّدَ هو عن حرفين، فإذا لقيَهُ ضميرٌ وقد دخلَ عليه جازمٌ فإنَّهُ يُفتح عند النحويين فتقول: «لم يضرَّهُ»؛ كما في حديث الصَّعب بن جثَّامة: **«إنَّا لم نَرُدَّهُ عليك إلَّا أنا حُرُمٌ»**[٣]؛ التقدير: «إنَّا لم نَرْدُدْهُ عليكَ...».

وكما في الحديث: **«ازهد في الدُّنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبَّك النَّاس»**[٤]، **(ازهد)**: فعل أمر، **(يحبَّك)**: فعلٌ مضارعٌ مجزوم في

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٨).
(٢) المفهم (٧/ ٣٦).
(٣) رواه البخاريُّ (١٨٢٥)، ومسلمٌ (١١٩٣).
(٤) رواهُ ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكمُ (٤/ ٣٤٨)، والبيهقيُّ في (الشُّعب ١٠٠٤٣) من =

جواب الأمر؛ التَّقدير: إن تزهد في الدُّنيا يحببك الله، وإن تزهد فيما عند الناس يحببك النَّاس، هذا قولُ أئمَّة اللُّغة.



= حديث خالد بن عمرو القرشي، عن سفيان الثَّوري، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد السَّاعدي، به مرفوعاً.

وإسناده واهٍ، خالدٌ قال فيه الإمام أحمد (العلل ٣/ ٢٥٤) (٥١٢٢): «ليسَ بشيءٍ... يروي أحاديث بواطيل»، ورماهُ ابنُ معين وصالحُ جزره بالكذب، وقال النسائيُّ (السُّنن الكبرى ١/ ٤٢٥): «منكر الحديث»، وقال أبو أحمد ابنُ عديٍّ (الكامل ٣/ ٤٦١): «كُلُّ أحاديثه أو عامَّتها موضوعةٌ، وهو بيِّن الأمرِ في الضعفاء».

وسئل الإمام أحمد عن هذا الحديث فقال: «لا إله إلا الله - تعجُّباً منه - من يروي هذا؟! عمَّن هذا؟!»، ينظر: المنتخب من علل الخلَّال (ص٣٧).

وقال العقيليُّ (٢/ ١٠): «ليسَ لَهُ من حديث الثوريِّ أصلٌ».

والحديث حسَّنَهُ النَّوويُّ في (الأربعين) وتعقَّبه ابن رجب في شرحِهِ (٢/ ١٧٤)، وعُلم بهذا ما في قول الحافظ الكبير أحمد بن علي ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ ومن تبعه على ذلك من المعاصرين: «رواهُ ابن ماجه وسندُهُ حسنٌ» (البلوغ ص٤٩٥) (١٣٧٦).

فإن قيل: قد تابع خالداً محمَّدُ بن كثيرٍ كما رواهُ البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٠٣٧)؟

فالجوابُ: أنَّ محمَّدَ بنَ كثيرٍ الصنعانيَّ فيه ضعفٌ (الجرح والتعديل ٨/ ٦٩)، وقد أخذ هذا الحديث عن خالدٍ فدلَّسه كما أشار إلى ذلك العقيليُّ في الضُّعفاء (٢/ ١٠)، وقد سُئِلَ أبو حاتم (العلل لابنه ٥/ ٧٥) عن هذا الحديث من طريق محمَّد فقالَ: «هذا حديثٌ باطلٌ»، والله أعلم.

بابٌ
من الشِّركِ أن يستغيثَ بغيرِ اللَّه أو يدعوَ غيرَهُ

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآيتين [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧].

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الأحقاف: ٥].

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الآية [النمل: ٦٢].

وروى الطبرانيُّ بإسنادِهِ أنَّهُ كان في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ منافقٌ يؤذي المؤمنينَ، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيثُ برسولِ اللهِ ﷺ من هذا المنافق.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّهُ لا يُستغاث بي، وإنَّما يُستغاث بالله** ﷻ».



بابٌ
من الشِّركِ أن يستغيثَ بغيرِ اللَّه أو يدعوَ غيرَهُ

أي: من الشِّرك الأكبر أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيرَهُ.

الاستغاثة: هي طلبُ الغوث في حالَةِ الشِّدَّةِ، وذلك أنَّ الطَّالب يكونُ في شِدَّةٍ وكُربَةٍ يطلبُ الغوث ممَّن بيدِهِ الضرُّ والنفعُ، والدُّعاءُ أعمُّ، فهو لا يختصُّ بحال الشِّدَّةِ والكُربَةِ، فيكون حينئذٍ عطف الدُّعاء على الاستغاثَةِ من باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فكُلُّ استغاثةٍ هي دعاءٌ، وليس كُلُّ دعاءٍ هو استغاثةٌ.

لو قالَ: قولي: «يا رسول الله»، هذا نداءٌ وليس دعاء، فأنا أنادي وأنتم خلطتم الدُّعاء بالنِّداء، ولم تُفرِّقوا بين الدُّعاء والنِّداء، أنا ما دعوت ميتاً وإنَّما أناديه.

نقولُ: ما دمت ناديت باسم الدُّعاء فالنِّداءُ دعاءٌ، فالله ـ سبحانه ـ سمَّاه دعاء، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكذلك في قصَّة زكريا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم: ٣ ـ ٤] سمَّاه دعاء، فهذا دليلٌ على أنَّ النِّداء دعاءٌ، والدُّعاء عبادة.

ثُمَّ إنَّ عبَّاد القبور يسألون الأموات والغائبين قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، ظنّاً منهم أنَّهم يشفعون عند الله، أو أنَّهم يتصرَّفون في الكون، وهذه بلوى، جعل هذا الميِّت شريكاً لله يتصرَّف في الكون، جعله شريكاً لله في الرُّبوبيَّة!

ورُبَّما قال: «لا يملك التصرُّف في الكون، وإنَّما له مكانةٌ وجاهٌ عند الله، فأنا أطلبه لأجل أن يشفع لي».

نقول: هذا عينُ شركِ المشركين الأوَّلين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨] سمَّاه: شركاً.

هل تظن أنَّ الله لا يعلم حاجتك حتَّى تجعل واسطةً بينك وبينه يرفع حاجتك إليه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾، فالله ليس بينه وبين خلقه أيُّ واسطة، وإنَّما أمرهم أن يدعوه.

كذلك الذين غلوا في مدح الملوك في قصائدهم، أو من أُعجب بنفسه فنزَّل نفسه منزلة الإله، كما وقع لبعض ملوك بني بويهٍ، وهو عضدُ الدَّولة، وذلك أنَّ القرامطة لمَّا عظم أمرهم وقويت شوكتهم بعثَ الخليفة العباسيُّ جيشاً من بغداد وهم في البحرين، فهزموا جيشَ الخليفة، فجهَّز لهم جيشاً آخر فهزموه ـ أيضاً ـ، فانتدبَ لهم عضدُ الدَّولة وطلبَ من الخليفة أن يُولِّيَهُ قتالهم، فولَّاه قتالهم، فجاء عضدُ الدَّولة، ومعه قوَّة، فحارَب القرامطة فكسرَهُمْ وشتَّتَ شملَهُمْ، فأُعجِبَ بنفسِهِ، فأنشأ يقول:

أنا عضدُ الدَّولةِ وابنُ ركنِهَا ... ملكُ الأملاك غلَّابُ القدرِ

بل أنت إبليس ولست غلَّاب القدر! أُعجب بنفسه لما نصرَهُ الله على القرامطة، وطمحت نفسه إلى أن ادَّعى أنَّهُ غلَّاب القدر، وقد قال هذا في أوَّل النَّهار بعد النَّصر، فما غربت الشمس إلَّا وهو مجنون يبولُ على ثيابه، مكبَّلٌ بالحديدِ(١).

هذا شأن ابن آدم، لا يقف عند حَدٍّ، ولا يعرف قدرَهُ، فإذا أعطاهُ الله وتفضَّل عليه ظنَّ أنَّ هذا بقوَّته، كما في قصيدة ابن هانئ لبعض ملوك الأندلس لمَّا حارب من حارب وانتصرَ، قالَ:

(١) وقيلَ: إنَّهُ لمَّا حضرته المنيَّةُ لم ينطق إلَّا بقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] ينظر: يتيمة الدَّهر (٢/ ٢٥٩)، وفيات الأعيان (٤/ ٥٤).

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهَّارُ(١)

فهؤلاء يعظِّمون الملوك ويرفعونهم ويجعلونهم في رتبة الله، والآخرون يرفعون الأموات ويجعلونهم في رتبة الله، ويطلبون منهم تفريج الكربات وإغاثة اللَّهفات، وفي نجدٍ قبل دعوة الشيخ محمَّد كثيرٌ من هذا، كانت المرأة إذا تأخَّر زواجها ذهبت إلى النخلة الفحَّال، وتضمُّها إلى صدرها وتقول: «يا فحل الفحول هات لي زوجاً قبل الحول!».

وهناك غارٌ في الدِّرعية يُسمَّى (غار بنت الأمير)، كانوا يهدون له السَّمن والأقط واللَّبن وتأتي الشَّياطين فتأكلُهُ فيقولون قُبِلَ.

وكان في (معكال)(٢) شخصٌ يدَّعون أنَّهُ يعلمُ الغيبَ، جاء شخص إليه ببقرته، فقال له: انظر إلى بقرتي هل فيها عجل أو ثور؟

فأجابه فكان كما قال، فافتتنوا به، هكذا وقوع الشِّرك.

والله أبطل هذا كُلَّهُ، وأمر العباد أن يتوجَّهوا إليه في جميع مُلِمَّاتهم وحاجاتهم، وأخبرَ أنَّهُ هو الذي يجلِبُ النَّفع لهم ويكشف الضرَّ عنهم، وأنَّهُ لم يكل ذلك لا إلى مَلَكٍ مقرَّبٍ، ولا نبيٍّ مرسلٍ، وإنَّما الرُّسل واسطة بين الله وخلقه من جهة تبليغ الشَّريعة، وأوامر الله ونواهيه، دون أن يكون الرُّسل أو غيرهم واسطة بين العباد وبين الله في قضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم، وعباداتهم، فالله أمركَ أن تعبده وحدَهُ دون أيِّ واسطة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فالدُّعاء هو العبادة، وصرفُ شيءٍ من نوعي الدُّعاء لغير الله يُصيِّر الدَّاعي مشركاً كافراً، لكن ابتُليَ كثيرٌ من النَّاس بطلب الغوث والعون من

---

(١) ابن هانئ عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة، وقد كفَّرَهُ جماعةٌ منهم: القاضي عياض، وقال الذهبيُّ بعد نقل البيت المذكور: «فلعنَ اللهُ المادحَ والممدوحَ فليس هذا في القبح إلَّا كقول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]»، ينظر: الكامل (٧/ ٣٠٥)، تاريخ الإسلام (١٢/ ٣٦٧).

(٢) حيٌّ من أحياء الرِّياض.

الأموات، لا سيَّما من النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم جعلوا في أشعارهم يطلبون منه المدَدَ، ويسألونه التَّوفيق، وأن يكون أنيساً لهم إذا أُنزلوا في قبورهم، ويطلبون منه الرَّحمة، صرفوا للرَّسول ﷺ حقَّ الله، فالحقيقة أنَّهم جعلوه إلهاً، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النَّصارى ابن مريم، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١)؛ أي: لا تتجاوزوا الحَدَّ في حَقِّي، كما جاوزت النَّصارى الحَدَّ في عيسى ﵇ فجعلوه إلهاً، لا تصرفوا شيئاً من حَقِّ الإلٰه إليَّ.

لكن صار بعض هذه الأُمَّة مشابهاً للنَّصارى في ذلك سواء بسواء؛ كما قال ﷺ: «**لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم**»(٢)، وُجِدَ في هذه الأُمَّةِ نظير ما وُجِدَ في النَّصارى الذين جعلوا عيسى إلهاً، فهذه الأُمَّة صرفوا حَقَّ الإلٰه للرَّسول، وإن لم يسمُّوه إلهاً، ما دام أنَّهُ يُطلب منه الغوث وتُطلب منه الرَّحمة ويُطلب منه أن يكون أنيساً للإنسان في قبرِهِ، ويطلب منه التَّوفيق، فإذن جعلوه إلهاً!، رتبة الرَّسول ما هي؟

بيَّنها النبيُّ ﷺ في أحاديث كثيرة؛ فإنَّهُ قام خطيباً في النَّاس لمَّا أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «**واصباحاه**»، فاجتمع عنده أشراف قريش، فقال: «**يا معشر قريش ـ** أو كلمة نحوها **ـ لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، وهؤلاء الذين اتَّخذوه إلهاً يقولون: لا، لست بصادق، بل أنت تُغني عنَّا من الله شيئاً!

ثُمَّ قال: «**يا عبَّاس بن عبد المطَّلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيَّة عمَّةَ رسولِ اللهِ لا أغني عنك من الله شيئاً**» اشتروا أنفسكم بالإيمان بالله والعمل الصَّالح، «**يا فاطمة بنت محمَّد سليني من مالي ما شئتِ؛ لا أُغني عنك من الله شيئاً**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ﵁.
(٢) مضى تخريجُهُ.
(٣) رواهُ البخاريُّ (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة ﵁.

أبعدَ هذا يُقال: لا، بل أنت تنفعُ وتضرُّ وبيدكَ الدُّنيا والآخرة؟! ـ كما قالَ أحدُهُم ـ[١]:

فإنَّ من جودك الدُّنيا وضرَّتها ... ومن علومك علمَ اللَّوح والقلم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلَّا فقل: يا زلَّة القدم

وهو ﷺ يقول لأخلص النَّاس إليه لابنته التي هي بضعَةٌ منهُ: يا فاطمة بنت محمَّد اشتري نفسك بالإيمان بالله والعمل الصالح، لا أغني عنك من الله شيئاً، فإذا صرَّح وهو سيِّد المرسلين أنَّهُ لا يغني شيئاً عن سيِّدة نساء العالمين ـ وهي فاطمة ـ، ثُمَّ نظرَ المرء فيما وقعَ في قلوب خواصِّ النَّاس اليوم تبيَّن له التَّوحيد وغُربة الدِّين، أيُّ دلالةٍ أوضح من هذه؟!

ثُمَّ لمَّا شُجَّ النبيُّ ﷺ وكُسِرَتْ رباعيَّتُهُ، جعل يمسح الدَّم عن وجههِ، ويقول: «**كيف يُفلح قومٌ شجُّوا نبيهم؟!**»، فأنزلَ الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨][٢].

وكذلك جاء في البخاري[٣] أنَّهُ ﷺ لما رفعَ رأسَهُ في الرَّكعة الأخيرة من صلاة الفجر جعل يقول: «**اللَّهُمَّ العن صفوانَ بنَ أُميَّةَ، والحارثَ بنَ هشامٍ، وسهيلَ بنَ عمروٍ**»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فهؤلاء الذين لعنهم الرَّسولُ ﷺ تابوا وأسلموا وحسُنَ إسلامهم، فكيف مع هذا نطلب منهُ المدَدَ ونرفعه في رُتبة الله، ماذا بقي لله؟!

أين قولَهُ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]؟!

أين قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤]؟!

أين تذهب هذه الآية: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج: ٥٦]؟!

نعم؛ الرَّسولُ ﷺ هو سيِّد الخلق، وإمام المرسلين، ولكن ليس إلَّا

---

(١) وهو: البوصيري صاحب «البردة».
(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) صحيح البخاري (٤٠٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مُبلِّغاً، ونحن لا ننكر شفاعته بل هو الشَّافع المشفَّع ﷺ، بل له عدَّة شفاعات، لكن لا نطلب الشفاعة منه، بل نطلبها من الله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمر: ٤٤].

ثُمَّ الرَّسولُ ﷺ حرص على هداية عمِّه مع أنَّ عمَّهُ أيَّدَهُ وناصرَهُ وصبرَ معَهُ على حصار الشِّعب ثلاثَ سنين، فقاطعتهم قريش لا يناكحونهم ولا يبايعونهم ولا يشترون منهم، ولا يأتونهم، فصبر عمُّهُ أبو طالب على حصارِ الشِّعب من أجل الرَّسول ﷺ، لما جاءت قريش قالت: «يا أبا طالب، خذ لنا من ابن أخيك، إن كان يريد المال أعطيناه مالاً حتَّى يكون من أكثرنا مالاً، وإن كان يريد السُّؤددَ سوَّدناه علينا حتَّى لا نقطع أمراً دونه، وإن كان به رِئيٌّ من الجنِّ جمعنا له من أموالنا وعالجناه حتَّى لا يكون به بأس».

فقال أبو طالب للرَّسول ﷺ: «يا ابن أخي لقد أنصفك قومك».

فظنَّ الرَّسولُ ﷺ أنَّ عمَّهُ سيُخلِّي بينه وبين قومه، فقال ﷺ: «**والله لو وضعوا الشَّمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركتُهُ حتَّى يُظهرَهُ الله أو أهلِكَ دونَهُ**».

فقال أبو طالب: «اذهب يا ابن أخي، فقُل ما أحببت، فوالله لا أُسلِمُكَ لشيءٍ أبداً»[1].

أيَّدَهُ أبو طالب وناصرَهُ كما في قصائده المعروفة، ولكن لم يؤمن به ظاهراً ـ وآمن بقلبِهِ كما في أشعارِهِ ـ فلم ينفعه الرَّسول ﷺ؛ فإنَّ أبا طالب يقولُ في قصيدته المعروفة:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمَّدٍ ... من خير أديان البريَّة ديناً
واللَّه لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتَّى أُوسَّد في التُّراب دفيناً

أيَّدَهُ وناصرَهُ، ولكن لما قال له ﷺ: «**قل: «لا إله إلَّا الله»، كلمة أحاجَّ**

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (ص١٥٤)، سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٠).

لك بها عند الله»، ذكَّره أبو جهل وعبد الله بن أميَّة الحجَّةَ الملعونةَ وهي: تعظيم الأسلاف والأكابر، فقالا له: أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟!

فقال: «هو على ملَّة عبد المطَّلب»، وأبى أن يقول: «لا إله إلَّا الله»، فأنزل الله تسلية للرَّسول ﷺ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][(١)]، أبعدَ هذا يأتي الآتي ويقول: «يا محمَّد أغثني، ارزقني التَّوفيق، مُنَّ عليَّ بالعافية، مُنَّ عليَّ بالرَّحمة، خذ بيدي»؟!

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلَّا فقل: يا زلَّة القدمِ
فإنَّ لي ذمَّة منه بتسميتي محمَّداً وهو أوفى الخلق بالذِّممِ

قارِنْ بين هذا وبين الأحاديث الثَّابتة عنه ﷺ في قصَّة عمِّهِ، حين أبى أن يقول: «لا إله إلَّا الله»، فلم ينفعه، وإنَّما شفع له أن يُخرج من درك النَّار إلى ضحضاح من النَّار يلبسُ منها نعلين يغلي منهما دماغُهُ[(٢)].

أبعد هذا نقول: إنَّ الرَّسول ﷺ ينفعُ ويضرُّ، ويدخلُ الجنَّةَ من شاء، وبيدِهِ الرَّحمةُ، وبيدِهِ التوفيق؟! ماذا بقيَ لربِّ العالمين.

والمسلمونَ مجمعون على أنَّ الإنسان متى جعل بينَهُ وبين الله واسطة مَلَكاً مقرَّباً أو نبيَّاً مرسلاً فهو كافرٌ، لا يجوز لأحدٍ أن يسأل إلَّا الله، ولا يطلب المدد إلَّا منه؛ كما دلَّ عليه القرآن، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢] فالآية أبطلت ما يتعلَّقُ به عُبَّادُ القبور من أربعة أوجه:

الوجه الأوَّل: قولُهُ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾؛ يعني: صاحب هذا القبر أو النبي أو الملَكَ هل يستطيع إيجاد مخلوقٍ؟! أبداً لا يستطيع، فإذا كان لا يملِكُ إيجادَ مخلوقٍ فكيف تجعله نديداً وشريكاً لمن بيدِهِ الضرُّ والنَّفعُ، والذي تفرَّد بالخلق والإيجاد؟!

الوجهُ الثَّاني: قولُهُ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ كيف تجعل هذا المخلوق

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٨٨٣)، ومسلم (٣٥٧) من حديث العبَّاس رضي الله عنه.

المربوب المقهور في رتبة من أوجدَهُ وخلقَهُ؟! هذا هو الضَّلال.

الوجهُ الثَّالثُ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ يعني: أنَّ هذا المقبور أو الملَكَ المقرَّبَ أو النبيَّ المرسلَ لا يستطيع أن ينصر داعيه، ولا أن يكشف الضرَّ عنه، فكيف تجعلونهم في رتبة الله؟!

الوجهُ الرَّابعُ: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾: لا يستطيع أن يوجِدَ النَّفع لنفسِهِ ولا يدفع الضرر عنها، بل هو في قبرِهِ، ليس له إلَّا عمله فقط، فكيف مع هذا تجعله في رتبة الله، وتطلب منه المددَ؟!

هذا يدلُّ على بطلان ما يتعلَّق به عبَّادُ القبور.

وقد يقول لنا خصومنا: أنتم بهذا لا تعترفون بالأولياء، فهؤلاء الأولياء نحن ندعوهم ونطلب منهم المددَ لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله، وإنَّما نسألهم حوائجنا ليرفعوها إلى الله؛ لأنَّهُم أولياء، فهل أنتم تنكرون وجودَ الأولياء أو تنكرون كرامات الأولياء؟!

نقول: لا، لا نُنكر كراماتهم، بل نعترف بقول الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، وليس معنى هذا أنَّا ندعوهم ونسألهم، فنحن نؤمن بكراماتِ الأولياء ونترحَّم عليهم، لكن لا نرفعهم فوق رُتبتهم، بل علينا أن نقتدي بهم ونأخذ بآثارهم(١)، ونتعلَّم منهم، هذا هو الذي علينا، إذا كانوا أولياء حقيقة.

فإذا قال الخصم: أنت الآن اعترفت بالأولياء، فهل تعترف بكراماتهم أنَّهم يطيرونَ في الهواء، ويمشونَ على البحر، ويأتون بالعجائب، أتنكر هذا؟!

نقول: لا، لا ننكر، لكن لا نعترف بأنَّ كُلَّ من أتى بهذه الأشياء بأن طارَ في الجوِّ أو مشى على البحر، أنَّهُ وليٌّ؛ فإنَّهُ يحتمل أن يكون وليّاً،

---

(١) أي: نقتفي آثارهم ونسير على طريقتهم الصَّالحة. ـ الشَّيخ صالح ـ.

ويحتمِلُ أن يكون ذلك بإعانَةِ الشَّياطين، أمَّا كرامات الأولياء فلا أنكرها، وعندي ميزان أزِنُ به الوليَّ وغيره، فأعرِفُ به الكرامةَ وأعرِفُ بِهِ المخرقةَ الشَّيطانيَّةَ.

فإذا قال: ما هو الميزان؟

نقول: هو كتابُ اللهِ، وسُنَّةُ رسولِهِ ﷺ، فإذا جاءنا رجلٌ مؤتمِرٌ بأوامر القرآن، منتهٍ عن نواهيه، عاملٌ بالسُّنَّةِ، أَدَّى الواجبات، وابتعدَ عن المحرَّمات، وحافظَ على المأمورات، ورأيناهُ وهو يمشي على البحر فهذه كرامةٌ، ـ وليس معنى ذلك أنه أفضل من غيره ـ.

أمَّا لو رأيناهُ تاركاً للواجبات، فاعلاً للمحرَّمات، فنقول: هذه بإعانَةِ الشَّياطين، هذا الميزانُ عندنا، فتكونُ مخرقةً وسحراً لا نقبلها مهما فعل، ومهما جاءنا مثل هذا، وفي هذا قال بعضهم:

وبين السَّما والأرضِ لو طارَ عابدٌ ... وسار على ظهر المياه الدوافقِ
فزنهُ بميزان المطهَّر شرعُهُ ... فإن وافق الشَّرع الشَّريف فوافِقِ[1]

فإذا رأيته يسيرُ على المياهِ الدَّوافق، أو رأيتَهُ يطير فلا تعترف له بالولاية إلَّا إذا وزنته بهذا الميزان وهو ميزان الشَّريعة، إن كان مؤتمراً بأوامرها، منتهياً عن نواهيها، نقول: هذه كرامة ـ ولا يلزم من وجود الكرامة لهذا الولي أنَّهُ أفضل وأكمل من غيره ممَّن لم تقع له كرامة ـ، إنَّما هذا شيء أجراه الله ـ سبحانه وبحمده ـ، والله قادر على كُلِّ شيء.

كما في قصَّة العلاء بن الحضرمي الذي سيَّر خيله على البحر ومشت على البحر كما هو معلومٌ في السِّير والتَّواريخ[2]، هذا لا مانع منه، ولكن لا يلزم منه أن ندعوهم ونجعلهم وسائط بيننا وبين الله، فالله أبطل هذا كُلَّهُ، وأمرنا ألَّا ندعو ولا نسألَ إلَّا إيَّاه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) البيتان من قصيدة للشَّيخ راشد بن خنين الحنفي ت ١٢٠٦هـ رحمه الله.
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٣٦٣)، الاستيعاب (٣/ ١٠٨٧).

ولم يقُلْ: «وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي جعلت بيني وبينهم وسائط»، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]: أما تتذكَّرون تذكُّراً قليلاً ترجعون به إلى ربِّكم؟!

وبعضهم يقول: تُقصر الصَّلاة إذا سافر الإنسان لزيارة المشاهد والقبور! لو سافرت إلى قبر أحمد البدوي فإنَّك تقصر الصَّلاة!

والرَّسول ﷺ يقول: «**لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد**»(١).

وأمَّا زيارة قبر الرَّسول ﷺ فالمعتمد فيها هو: كتابُ اللهِ، وسُنَّةُ رسولِهِ ﷺ، وما درجَ عليه سلفُ هذه الأُمَّة الذينَ قالَ فيهم الرَّسول ﷺ: «**خيرُ أُمَّتي قرني ثُمَّ الذين يلونهم...**»(٢).

قال الحنابلة وغيرهم: تُستحبُّ زيارةُ قبرِ النبيِّ ﷺ.

يعني: أنَّكَ تشدُّ الرَّحل لزيارة قبرِ الرَّسول ﷺ، وهذه المسألة الخلاف فيها طويلٌ، والجماهيرُ يرون شَدَّ الرَّحل لزيارة قبر الرَّسول ﷺ، ويستدلُّون بأحاديث ضعيفة لا تقومُ بها حُجَّةٌ، مثل حديث: «**من زارني بعد وفاتي فكأنَّما زارني في حياتي**»، وهذا لا يصِحُّ، ومثل حديث: «**من حجَّ ولم يزرني فقد جفاني**»، نقول: هذا غير صحيح، لا من جهة السَّند، ولا من جهة المعنى، فجفاء الرَّسول ﷺ كفر، فمعناه: إذا حججتَ ولم تزر قبر النبيِّ ﷺ صرتَ كافراً!

كثيرٌ من العلماء تمسَّكوا بمثل هذه الأحاديث الضعيفة التي لا أصلَ لها، أمَّا المحقِّقون من أهل العلم: كابن عقيلٍ والقاضي عياض وابن بطَّةَ وابن تيميَّة وابن القيِّم وابن عبد الهادي وابن رجب فهم لا يرون شدَّ الرَّحل لقبرِ

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٨٨ ـ ١١٩٧)، ومسلم (٨٢٧ ـ ١٣٩٧) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٢٦٥١ ـ ٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣ ـ ٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين وابن مسعود رضي الله عنهم.

الرَّسول ﷺ أبداً، ويستدلُّون بحديث: «**لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجدِ الحرامِ، ومسجدي هذا، والمسجدِ الأقصى**»، فدلَّ هذا الحديث على تحريمِ شَدِّ الرَّحل لغير هذه المساجد الثَّلاثة، لكن لو شَدَّ الرَّحل لزيارة المسجد النبويِّ فلا بأس أن يسلِّم على الرَّسول ﷺ.

قد تقولُ: الجمهور ماذا يجيبون عن هذا الحديث؟ فالحديث صريحٌ.

نقول: يجيبون عن هذا الحديث بقولهم: في الحديث حذفٌ، وهذا الحذفُ يدلُّ عليه المستثنى، وتقديرُ الحديث عندهم: «**لا تُشَدُّ الرِّحال لمسجدٍ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد**»، فالمستثنى يدلُّ على أنَّ جنسَهُ هو المقصود بعدم شَدِّ الرَّحل، هذا قول الجمهور، فعندهم: لو شددتَ الرَّحل إلى مسجد الأزهر أو المسجد الأمويِّ في دمشق ـ مثلاً ـ فلا يجوز ذلك.

ماذا يقول المانعون؟

يقولون: أخطأتم في هذا التقدير، بل المستثنى منه أعمُّ ممَّا خصَّصتم، فتقدير الحديث: «**لا تُشدُّ الرِّحال لموضعٍ يُتقرَّبُ فيه إلى الله إلَّا إلى ثلاثة مساجد**»، هذا تقديرُهُ.

فقال الجمهورُ: على تقديركم هذا تمنعون شدَّ الرَّحل لعرفة ونحوها؛ لأنَّ هذه المواضع يتقرَّب فيها إلى الله.

يقول المحقِّقون: هذا جاءت النُّصوص بتخصيصه، ولهذا لا نجد أحداً من الصَّحابة مع شدَّة حرصهم على الخير شدَّ الرحل لقبر ولا لمشهد ولا غيره، فقد تفرَّق الصَّحابةُ في سائر الأمصار، وما نُقل أنَّهم شَدُّوا الرَّحل لقبر الرَّسول ﷺ، وإنما كان يأتون إلى المسجد في المدينة، ممَّا يدلُّ على أنَّ شَدَّ الرَّحل لغير المساجد الثَّلاثة لا أصلَ له، ثُمَّ هو وسيلة لشَدِّ الرَّحل لغيرِهِ من قبورِ الأولياء، أو قبور الأنبياء[1].

---

(١) سيأتي بيانُ المسألة مفصَّلة وتخريجُ الأحاديث الواردة فيها، وذلك في باب قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

وعلى رأي الجمهور الذين يقولون: تستحبُّ زيارة قبر النبيِّ ﷺ؛ لا تُستحبُّ زيارة قبور الأنبياء الآخرين ـ عندهم ـ.

وما قيل: أنَّ قبر هود في اليمن، وقبر زكريا في الشَّام، كُلُّهُ غيرُ صحيحٍ، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «لا يُعرف قبرُ نبيٍّ من الأنبياء ما عدا قبرين: قبر إبراهيم ـ وهو معروف ـ، وثابتٌ أنَّ قبرَهُ موجودٌ في فلسطين، وقبر النبيِّ ﷺ، أمَّا غيرهم من الأنبياء فقد خفيت قبورهم، ولم يوقف لها على خبر، ولم تعلم عينها، وإنَّما هذه دعاوى من الدجَّالين»[1].

ثُمَّ هنا مسألة أخرى يتعيَّن التنبيهُ عليها تتعلَّق بحديث: «**لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد...**»، وهي أنَّك قد تقول: نسمع في خطب المتعلِّمين والإذاعات والصُّحف عندما يذكرون المسجد الأقصى في القدس، يقولون: «ثالثُ الحرمين، أنقذوا ثالث الحرمين. . .» وما أشبه ذلك، فهل نوافقهم على هذا؟ هل هو ثالث الحرمين؟

نقولُ: قولُهُم هذا باطلٌ، ليس ثالث الحرمين باتِّفاق المسلمين، فالمسجد الأقصى ليس بحرم، بل قُل: «ثالث المسجدين»، هذا صحيحٌ، والصَّلاة فيه بخمس مئة صلاة، هذا صحيحٌ، ومسجد الخليل ـ أيضاً ـ يسمُّونه «الحرم الإبراهيمي»، كُلُّ هذا خطأ، إنَّما الحرم: حرم مكة، وحرم المدينة.

لأنَّ معنى (الحرم): هو الذي لا يُعضد شوكه، ولا يُختلى خلاه، ولا ينفَّر صيدُهُ، ولا تُلتقط لقطته إلَّا لمعرِّفٍ، هذه الأحكام لايوجد شيء منها بالأقصى.

ومع الأسف دار على الألسن في المؤتمرات وفي الخطب والصُّحف والإذاعات وعلى ألسنة الأساتذة قولهم: «ثالث الحرمين»[2].

---

(١) ينظر: اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٦٦)، الردُّ على الإخنائي (ص١٣٢)، الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ٣٤٦).

۞ وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآيتين [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

هذا نهيٌ من الله ـ سبحانه ـ لنبيِّه ﷺ، والمرادُ به جميع الأُمَّة، فلا يجوز لأحدٍ أن يدعو غير الله، فلا يملك كشفَ الضرِّ ولا جلبَ النفعِ إلَّا الله، فكيف تدعو أحمد البدوي؟! وكيف تدعو أشرف الخلق محمَّداً ﷺ؟! تأتي إلى قبره فتقول: «المدد المدد يا رسول الله، اشفع لي يا رسول الله»؟!

اسأل الله، لا تسأل الرَّسول ﷺ؛ فإنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يملكُ لنفسِهِ ضرَّاً ولا نفعاً، ألم تقرأ قولَهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]: (نفسٌ): نكرةٌ، (لنفسٍ): نكرةٌ، (شيئاً): نكرةٌ، والآية في سياق النَّفي فتعمُّ.

لا يملكُ أحدٌ لأحدٍ ضرَّاً ولا نفعاً أبداً، بل الملكُ لله، فإذا كان ذلك كذلك فكيف تدعو مع الله غيره؟! وكيف تطلب الشَّفاعة من غيره؟! لا تسأل إلَّا الله.

وقولُهُ: (﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾): دلَّ على أنَّ كُلَّ من لا يضرُّ ولا ينفع لا يصلح أن يكون مدعوَّاً.

(﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾)؛ أي: دعوت غير الله، (﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾)؛ أي: من المشركين، فالله نهانا أن ندعو الرَّسول ﷺ، أو أحداً من الصَّحابة، أو ندعو عبد القادر أو فلاناً...، إنَّما ندعو من يملك الضرَّ والنفعَ، والذي بيدِهِ أزمَّةُ الأمور يتصرَّف بما تقتضيه حكمتُهُ وإرادتُهُ.

(﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾): فإذا كان الله هو الذي يكشِفُ الضرَّ إذا وقع بك، فكيف تدعو غيره؟!

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]: لو اجتمعت الأُمَّةُ على إيصال نفعٍ لك والله لم يقدِّره فإنَّهُ لا يصل إليك، أو أرادوا أن يضرُّوك فلا يقدرون إلَّا إذا كتب الله هذا، فبهذا يتَّجِهُ القلبُ للخالق وينقطعُ عن الخلائق، ويعرف أنَّ الله هو الذي بيدِهِ الضرُّ والنَّفعُ، لكن يا للأسف كثيرٌ من البلاد المنتسبة للإسلام ابتُلوا بعبادةِ القبور والتعلُّق بغير الله ويقولون: هؤلاء صلحاء، يشفعون لنا عند الله، يرفعون حوائجنا إلى الله، وألَّفوا في ذلك المؤلَّفات السَّاقطة السَّخيفة التي قِراءتُها يندى لها الجبين، كما في كتاب: «طبقات الأولياء»، وغيره.

۞ وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت: ١٧].

(﴿فَٱبْتَغُواْ﴾): فعل أمر. (﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾): متعلِّق بقوله: (﴿فَٱبْتَغُواْ﴾) فتقديم المعمول على عاملِهِ يفيدُ الحصرَ، فدلَّ على أنَّ الله هو الذي يملك الرِّزق، فلا ينبغي أن تدعو غير الله ولا أن تطلب غير الله.

لو أنَّ شخصاً طلب من السلطان أو من غنيٍّ مبلغاً من المال، فهل في هذا منافاة لقوله: (﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾)؟

نقول: أوَّلاً السُّؤال من حيثُ هو ذمَّهُ النبيُّ ﷺ، ونهى عنه، وقالَ: «**لأن يأخذ أحدكُم حبلَهُ فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها فيكف بها وجهَهُ، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**»(١)، والأحاديث في هذا كثيرة، والصَّحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يسألون أحداً بل يتَّجرون ويعملون الأسباب في تحصيل الرِّزق لأجل القيام بعوائلهم ومن تحت أيديهم.

فإنَّ أبا بكر كان بزَّازاً؛ أي: يبيعُ البزَّ، وعمر بزَّازاً، وعمرو بن العاص جزَّاراً، والزُّبير كان جزَّاراً، وعتبة بن أبي وقَّاص كان نجَّاراً، وعثمان بن طلحة كان خيَّاطاً، هكذا شأن الصَّحابة، وهكذا شأن الأنبياء قبلهم، إبراهيم كانَ فلَّاحاً، وكذا ابن أخيه لوط، وآدم كان حرَّاثاً، ونوح كان نجَّاراً، وزكريا كان نجَّاراً، وموسى والنبيُّ ﷺ كانا يرعيان الغنم، كُلُّ هذا لأجل ألَّا يسألوا أحداً، ولأجل أن يُعرِّفوا أُمَمَهُم كيف يطلبون الرِّزق، وأن يغتنوا بأعمال أيديهم عن مذلَّة السؤال.

وكان بعض الصالحين يقول: «ليست العبادة عندنا أن تصُفَّ قدميك وغيرك يقوم بقُوتِكَ، ولكن أحرز رغيفَكَ ثُمَّ تعبَّد».

بقي السُّؤال عن معارضة الطلب من الخلق قوله: (﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٤٧١) من حديث الزُّبير رضي الله عنه.

ﵟٱلرِّزۡقَﵞ) نقول: لا مانع، ولا يعارض الآية، إلَّا أنَّهُ مكروهٌ، كما أنَّ الاستغاثة بغير الله قلنا: إنَّها شركٌ إذا كانت بغير قادر، كالاستغاثة بالأموات والغائبين، أمَّا لو استغثت بحيٍّ حاضرٍ يقدرُ أن ينقذك من هذا السَّبُعِ ـ مثلاً ـ فلا مانع؛ لأنَّ الله يقول في حَقِّ موسى عليه السلام: ﵟفَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦﵞ [القصص: ١٥]، وإنَّما الممنوع الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، فكذلك السُّؤال فلا يجوز أن يسأل المرء غير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، أمَّا لو سأل شخصاً وهو يقدِرُ على أن يعطيه فلا مانع، إلَّا أنَّ السُّؤالَ من حيث هو مذمومٌ، عليه أن يتطلَّب الرِّزق، إلَّا أن يكون به حاجة ضروريَّة، فهذا شيءٌ آخر، كما في حديث قبيصة أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**إنَّ المسألة لا تحِلُّ إلَّا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة، فحلَّت له المسألة حتَّى يصيبها، ثُمَّ يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتَّى يصيب قواماً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتَّى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولوا: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلَّت له المسألة حتَّى يصيب قواماً من عيش، فما سواهُنَّ من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً**»[1].

---

(١) رواهُ مسلم (١٠٤٤) من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه.
قال النَّوويُّ رحمه الله (٧/ ١٣٤): «هكذا هو في جميع النُّسخ: (سحتاً)، ورواية غير مسلم: (سحتٌ) وهذا واضح، ورواية مسلم صحيحة، وفيه إضمار؛ أي: اعتقده سحتاً، أو: يؤكل سحتاً».

۞ وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الأحقاف: ٥].

لا أحدَ أضلُّ من هذا، فإنَّ الضَّلالَ أنواعٌ، ولكن أعظمُ الضَّلالِ وأشدُّهُ وأكبرُهُ هو ما دلَّت عليه الآيةُ، يأتي للقبر فيقول: «أغثني»، «اكشف الشِدَّةِ عنِّي»، «أنا في حسبك»، «أنا في جوارك» وما أشبه ذلك، ميِّتٌ رميمٌ، هو محتاجٌ إليك أن تدعو له، عكستَ القضيَّةَ فجعلت تدعوه وتسأله!

وهذه الآية هي نظيرة الآية الأخرى في (الأعراف): ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، والتي في سورة فاطر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فآيةُ الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أبطلت ما يتعلَّق به عُبَّادُ القبور من أربعة أوجه:

الأوَّل: أنَّ هذا الميِّت لا يستجيبُ دعاء من دعاه، فإذا كان لا يستطيع أن يجيبه فكيف تدعوه وتجعله شريكاً لله وتصرف له ما هو حقُّ الله وحدَهُ؟!

الثَّاني: قولُهُ: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾، فهو غافلٌ عنك، لا يعلم بدعائك، بل هو رميمٌ لا يدري عنك، ووقوفك عند قبرِهِ وطلبكَ المددَ منهُ لا يعلم به.

الوجهُ الثَّالثُ: قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ [الأحقاف: ٦] فهذا الذي تدعوه يتبرَّأ منك يوم القيامة، هو عدوُّك؛ لأنَّك جعلته شريكاً لله فيتبرَّأ منك.

الوجهُ الرَّابعُ: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦] فهو يكفر بعبادتك ويقول يوم القيامة: «ربَّنا ما شهدنا بعبادتهم إيَّانا».

فأصحاب القبور المتعلِّقون بالأوهام، كما في مصر واليمن والعراق وغيرها في بلاد كثيرة منتسبة للإسلام، افتتنوا بالقبور، ينذرون لها ويطوفون بها ويستغيثون، كالنَّجف يزعمون أنَّ فيه قبر عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والعجيب أنَّهم بنوا عليه قُبَّةً من ذهبٍ ويهدون إليه هدايا، وقالوا: «عرفنا أنَّهُ قبرُ عليٍّ؛ لأنَّ الرَّشيدَ خرجَ للقنص ووجدَ ظبياً فأراد صيده، ولكن الظَّبي ذهبَ إلى هذه الرَّبوة، فجعل يتمرَّغ فيها»، فعرفوا أنَّ هذا قبر عليٍّ رضي الله عنه، فعند ذلك بنوا عليه القُبَّةَ؛ لأنَّ الظبيَ استجارت بالقبر، هذا دليلُهم على أنَّ هذا هو قبر عليٍّ!

فهم يتعلَّقون بمثل هذه الأوهام، فمن وفَّقه الله للعمل بالقرآن والسُّنَّةِ واتِّباع منهج سلف هذه الأُمَّةِ وأنَّهُ لا يعبد إلَّا الله، ولا يتعلَّق إلَّا بالله ـ سبحانه ـ عرفَ أنَّ هذه الأشياء تُرَّهاتٌ لا أصلَ لها، والقرآن يُبطلها، والسُّنَّةُ تَرَدُّها، والعقولُ السَّليمةُ تأنَفُ منها.

وقد ذكر صاحب كتاب: «حاضر العالم الإسلامي»[١] في مؤلَّفِهِ الذي ترجمَهُ شكيب أرسلان من اللُّغة الإنجليزيَّة إلى اللُّغة العربيَّة ما معناه: «إنَّ المعابد الإسلاميَّة الكبار ألف وثلاث مئة معبد، ما بين قبرٍ وغيرِهِ، يذبحونَ لها وينذرونَ ـ هذا غير المعابد الصغيرة ـ، ثُمَّ قال: ومن أراد الدِّينَ الحقيقيَّ المحمَّديَّ الذي يمتُّ إلى السَّماء والخالي من الخرافات فعليه بهضباتِ نجدٍ وتِلالها»[٢].

والحَقُّ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ، وإن كُنَّا في غنيةٍ عنهُ وعن شهادتِهِ؛ لأنَّ النَّاس على بيِّنَةٍ ونورٍ، لكن كما قيلَ:

وشمائلٌ شهد العدوُّ بفضلها والحقُّ ما شهدت به الأعداءُ[٣]

(١) (١/ ٢٥٩ وما بعدها).
(٢) مراده بعد دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله؛ نظراً لشدَّة إنكارها التَّعلُّق بالقبور والافتتان بها، وليس المراد خصوصيَّة المكان. ـ الشيخ صالح ـ.
(٣) ديوان المعاني (١/ ٧٢).

﴿ وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الآية [النمل: ٦٢].

القلوب مفطورةٌ على التوجُّه إلى خالقها وباريها لا سيَّما عند الشَّدائد، فإنَّ الإنسان إذا اضطَّر ووقعَ في مُلِمَّةٍ اتَّجه قلبُهُ إلى خالقه وباريه، فالرَّبُ يحتَجُّ عليهم: «إنَّكم تسألونني عند الحاجة والاضطرار ومع ذلك تكفرون بي في حالة الرَّخاء؟!».

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: يفعل ذلك؟! ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أمَّا تتذكَّرون ولو تذكُّراً قليلاً ترجعون به إلى ربِّكم، فالمشركون إنَّما يكفرون ويشركون في الرَّخاء، أمَّا في حال الشَّدائد فيخلصون لله، كما في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، فيخبر الرَّبُ بأنَّ المشركين يخلصون لله الدِّين عند الشَّدائد، أمَّا في الرَّخاء فإنَّهم يُشركون، فيحتجُّ عليهم الرَّبُّ بأنَّ الذين تدعونهم حال الرَّخاء هل تلتفتون إليهم حال الشِّدَّةِ؟! أم أنكم تنسونهم وتقبلون على الله؟!

هذا كله يدلُّ على بطلان عبادة القبور، إذا كان هذا حال مشركي العرب فما ظَنُّكَ بمشركي اليوم؟! فإنَّهم يدعون قبورهم في حال الرَّخاء والشِّدَّةِ! فصاروا أعظم شركاً من الأوَّلين؛ لأنَّ الأوَّلين يشركون في حال الرَّخاء، ويخلصون في الشَّدائد، أمَّا هؤلاء فشركهُم دائمٌ في الرَّخاء والشِّدَّةِ.

والآيةُ تدلُّ على أنَّهُ لا يجوزُ التَّوجهُ إلَّا لله ولا يُسأل إلَّا الله، كما دلَّت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة الكثيرة.

والمشركون يعرفون أنَّ معبوداتهم لا تنفع ولا تضرُّ، إلَّا أنَّهم ورثوا هذا عن آبائهم.

أمَّا المشركون في زماننا فيتعلَّقون بالأوهام وبالمنامات التي لا أصل

لها؛ مثل قولهم: إنَّ الرَّسولَ ﷺ أخرجَ يدَهُ لأحمد الرِّفاعي وأنَّهُ قبَّلها، ولذا اعتمدوا على أحمد الرِّفاعي وأنَّهُ واسطةٌ بينهم وبين الله، فوقع الشِّركُ من رؤيا منام.

ومثل ما في مصر من زعمهم أنَّ قبرَ الحسين بن علي فيها، ويعظِّمونه ويزورونه ويطوفون حوله، وبنوا عليه قُبَّةً، وبنوا عليه مسجداً سمَّوهُ: «مسجد الحسين»، وما هو إلَّا كذب في كذب، فقد ذكرَ ابن القِسطلَّاني: أنَّ قبر الحسين المشهور في مصر هو قبرُ رجل نصرانيٍّ، بنوا عليه قُبَّةً وقالوا: «هذا قبر الحسين»[1].

وألَّف ابن تيميَّة رسالةً سمَّاها: «رأس الحسين»، والحسين رضي الله عنه لم يأت مصرَ، ومع هذا جعلوا يطوفون بالقبر، وبنوا قُبَّةً عليه، زخرفوها بالذَّهب وصرفوا أموالاً عظيمة، فانظر إلى تلاعب الشَّيطان بهؤلاء.

وهذا الجبرتي مؤرِّخُ مصرَ كان ثقةً سلفيَّ العقيدة، ذكرَ في تاريخِهِ من خزعبلاتهم أنَّ سيِّد الخدم اسمه (عبد اللَّطيف)، في سنة ألف ومئة وثلاثة وسبعين جاءَ ومعه عنزٌ ويقول: إنَّ السيِّدة نفيسة أوصتني بالمحافظة على هذه العنز، والإحسان إليها لما فيها من الخير والبركة، فجعل النَّاس يُهدون لها قصبَ السُّكَّرِ واللَّوزَ والوردَ حتَّى امتلأ بيتُهُ من الخيرات!

يعتقدون أنَّ هذه العنز أوصت بها السيِّدة زينب، فعلم والي مصر فبعث إلى عبد اللَّطيف فقال: ما هذه العنز؟

قال: هذه أوصتني السيِّدة زينب بالمحافظة عليها.

فأكرَمَهُ الوالي وصنع له غداء، فلمَّا قدَّم الغداء وأكلَ، قال عبد اللَّطيف: «هذا لحمٌ طيِّبٌ، لم أذق مثلَهُ».

فقال: «هذا لحمُ عنزك»، وأخذ الجِلد وجعله على رأسه، وأمرَ من يطوفُ به، ويقول: «هذا دجَّالٌ»[2]، جزاهُ الله خيراً.

---

(١) ابن القسطلَّاني هو: أبو بكر، محمَّد بن أحمد، ينظر: مجموع فتاوى ابن تيميَّة (٢٧/ ٤٩٣).
(٢) عجائب الآثار (١/ ٤٠١).

وقع الشِّرك بالأموات والغائبين من هذا القبيل، لم يستندوا إلى شيء، لكن قد يتعلَّقون بأوهام؛ مثل قصَّة الأعمى[١]، أو بقصَّة: «**أسألك بحق السَّائلين عليك**»[٢]، وما أشبه ذلك.

---

(١) سبق تخريجها.

(٢) أخرجَهُ الإمام أحمد (١٧/ ٢٤٨) (١١١٥٦)، وابن ماجه (٧٧٨)، والطبرانيُّ في «الدُّعاء» (٤٢١)، والبيهقيُّ في «الدعوات» (٦٥) من طرق عن فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد، به مرفوعاً.

ولا يصِحُّ؛ لضعف عطية وفضيل.

وقد أخرجه من هذا الطريق ابن أبي شيبة (١٥/ ١٠٦) (٢٩٨١٢) إلَّا أنَّهُ موقوف، قال أبو حاتم (العلل لابنه ٥/ ٣٦٦): «الموقوف أشبه».

وله شاهدٌ عند الطبرانيِّ (٨٠٢٧) من حديث فضال بن جبير، عن أبي أمامة، به مرفوعاً.

وهو خبرٌ منكرٌ، قال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ١١٧): «فيه فضال بن جبير، وهو ضعيفٌ مجمعٌ على ضعفه».

وله شاهدٌ من حديث بلال رواهُ ابنُ السنيِّ في (عمل اليوم واللَّيلة ٨٤)، ولا يصِحُّ؛ فيه الوازع بن نافع العقيلي، قال البخاريُّ: «منكر الحديث»، وينظر: لسان الميزان (٦/ ٢٢٩)، (٨/ ٣٦٧).

۞ وروى الطبرانيُّ بإسنادِهِ أنَّهُ كان في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ منافقٌ يؤذي المؤمنينَ، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيثُ برسولِ اللهِ ﷺ من هذا المنافق.
فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّهُ لا يُستغاث بي، وإنَّما يُستغاث بالله** ﷻ»[(١)].

الاستغاثة بالرَّسول ﷺ جائزة في مثل هذا؛ ما دام أنَّه حيٌّ حاضرٌ قادرٌ، كما لو قال لك شخص: «أغثني من هذا الظَّالم»، وأنت تستطيع أن تمنع الظَّالم، كما في قوله ـ تعالى ـ في قصَّة موسى مع القبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: الإسرائيلي، ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ أي: القبطي، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ١٥] فهذا يدلُّ على جواز الاستغاثة بالحيِّ الحاضرِ القادرِ، والرَّسول ﷺ قادرٌ على ذلك، لكن مع هذا حَمى التَّوحيد، وحَمى حِمى التَّوحيد، فقال لهم: (**إنَّهُ لا يستغاث بي، وإنَّما يستغاث بالله**)؛ ليُعلمهم أنَّهُ لا ينبغي أن يستغيث أحدٌ بغير الله، فهذا من الأدب مع الله، أمَّا إذا استغاث المرء بمخلوقٍ بما لا يقدر عليه إلَّا الله، فهذا شركٌ، أو استغاث بغائب كأن يقول: «أغثني يا عبد القادر»، فهذا شركٌ أكبر منافٍ للتَّوحيد بالكليَّة، والذي في الحديث جائز إلَّا أنَّ الرَّسول ﷺ منع منه، حمايةً للتَّوحيد، وحمايةً لحمى التَّوحيد، ممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول ﷺ حَمى التَّوحيد، وحَمى جانب التَّوحيد، بل وحَمى حِمى التَّوحيد، وبيَّن للأُمَّةِ الشِّركَ المنافي للتَّوحيد، وبيَّن لهم الذَّرائع الموصلة للشِّرك، وبيَّن لهم البدع القادحة في التَّوحيد، وبيَّن لهم

(١) هو من الجزء المفقود من معجم الطبراني، لكن كفانا المؤونة الحافظ ابن كثير رحمه الله في (جامع المسانيد والسُّنن ٤/٥٦٨)؛ فإنَّهُ ساق إسناد الطبراني بتمامِهِ، وهو من طريق ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عبادة، به.
ولا يصِحُّ؛ لضعف ابن لهيعة، وقد رواه الإمام أحمد (٣٧/ ٣٨٠) (٢٢٧٠٦) من طريق ابن لهيعة، وفيه: عن علي بن رباح عن رجل، عن عبادة.
وقد ضعَّف الخبر ابنُ مفلحٍ (الآداب الشَّرعيَّة ٢/ ٣٣) وغيرُهُ.

المعاصي المنقِّصة لثواب التَّوحيد، فالشِّرك مناف للتَّوحيد بالكليَّة، والبدع تقدح في التَّوحيد، والمعاصي تنقِّص ثواب التَّوحيد.

لكن عبَّاد القبور يستدلُّون على ما ذهبوا إليه من دعاء غير الله بقصَّة الأعمى؛ فإنَّهُ جاء أعمى للنبيِّ ﷺ فقال: «يا رسول الله، ادع الله أن يعافيني».

فقال ﷺ: **«إن شئتَ دعوتُ لك، وإن شئتَ صبرتَ ولك الجنَّة، فأبى إلَّا أن يدعو له، فقال: اذهب فتوضأ وقل: اللَّهُمَّ إنِّي أتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّد...»**.

أوَّلاً: الحديثُ ضعيفٌ(١).

ثانياً: ـ على فرض صِحَّته ـ نقول: الأعمى طلب من الرَّسول ﷺ أن يشفع له بدعائه، فأمره أن يذهب ويتوضأ ويتقرَّب إلى الله من أجل أن يجيب الله دعاء النبيِّ ﷺ فيه، مثل ما في «صحيح مسلم» في قصَّة ربيعة بن كعب الأسلمي حينما كان يخدم النبيَّ ﷺ فقال له النبيُّ ﷺ: «**سل**».

قال: أسألك مرافقتك في الجنَّة.

قال: «**أوغير ذاك؟**».

قال: هو ذاك.

قال: «**فأعنِّي على نفسك بكثرة السُّجود**».

يعني: تقرَّب إلى الله بالأعمال الصالحة وأنا أدعو لك، وكما فعل عمر والصَّحابة في توسُّلهم بالعبَّاس في الاستسقاء، قال عمر: «**قم يا عبَّاس فادع الله**»، فَسَّرَ بهذه الجملة التوسُّلَ الذي ذكره بقوله: «**اللَّهُمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّل إليك بنبيِّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا**»(٢).

ومعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ أي: تقرَّبوا إلى الله بالوسائل، والوسائل جمع وسيلة، وهي العمل الصَّالح، فالصَّلاة وسيلة، والصَّوم وسيلة، لا أنَّك تتوسَّل بذوات المخلوقين والأموات والغائبين، هذا ما عليه المحقِّقون، أمَّا عبَّاد

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (١٠١٠) من حديث أنس ﵁.

القبور فإنَّما تمسَّكوا بحكايات مكذوبة، أو منامات موهومة لا أصل لها.

وفي الحديث المعروف عندما يخرج الإنسان من بيته قاصداً المسجد يقول: **«أسألك بحقِّ السَّائلين عليك وبحقِّ ممشاي هذا»**(١)، فهل هذا يدلُّ على جواز السُّؤال بالمخلوقين؟

نقول: لا.

وهل للمخلوقين حقٌّ على الله؟!

تقدَّم أنَّهُ ليس لك حقٌّ على الله، لكن الرَّب أخبر بأنَّ لك حقَّاً عندما تعمل الأعمال الصَّالحة ويسلم توحيدك، فهو حقُّ تفضُّلٍ وامتنانٍ، لا حَقُّ وجوب، كما في حديث معاذ: **«وحقُّ العباد على الله ألَّا يعذِّب من لا يشرك به شيئاً»**(٢)، حقُّ العباد على الله ليس حقَّاً واجباً وإنَّما هو تفضُّلٌ وامتنانٌ، كما قيل:

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ ... كلَّا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدلِهِ أو نُعِّموا ... فبفضلِهِ وهو الكريمُ الواسعُ

ثُمَّ إنَّ كثيراً من العصريِّين من المنتسبين للعلم ممَّن لا علم لديهم

---

(١) رواهُ الإمام أحمد (١٧/ ٢٤٧) (١١١٥٦)، وابن ماجه (٧٧٨)، وابن السُّنِّي (٨٥)، والبيهقيُّ في الدَّعوات (٦٥)، من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطيَّة العوفي، عن أبي سعيد رضي الله عنه، به مرفوعاً.
فضيل ضعَّفه ابن معين، والنسائيُّ، والحاكم، وقال ابن حبَّان (المجروحين ٢/ ٢٠٩): «كان ممَّن يخطئ على الثِّقات، ويروي عن عطيَّة الموضوعات».
وعطيَّةُ مشهورُ الضَّعفِ.
وأخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ١٠٦) (٢٩٨١٢) من طريق فضيل، به موقوفاً على أبي سعيد رضي الله عنه، قال أبو حاتم (العلل لابنه ٥/ ٣٦٦): «الموقوف أشبه».
وله شاهدٌ عند ابن السُّنِّيِّ (٨٤) من حديث بلال رضي الله عنه، ولا يصحُّ؛ في إسناده: الوازع بن نافع، منكر الحديث، ينظر: لسان الميزان (٨/ ٣٦٧).
وقد جاء ذكر حقِّ السَّائلين في حديثٍ رواه الطبرانيُّ في الكبير (٨٠٢٧) من طريق فضال بن جبير، عن أبي أمامة رضي الله عنه، به مرفوعاً.
ولا يصحُّ؛ فضال بن جبير ضعيفٌ، ينظر: ديوان الضعفاء (ص٣١٨).
(٢) سبق تخريجه.

يقولون: سؤال الله بجاه النبيِّ ﷺ مشروعٌ، ويروون في ذلك حديثاً: «**إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي؛ فإنَّ جاهي عند الله عظيمٌ**».

نقول: أخطأتم، لا يجوز أن تسأل الله بجاهِ أحدٍ.

ثانياً: هذا الحديث الذي يوردونه في كتبهم ليس صحيحاً، بل ولا حسناً، بل ولا ضعيفاً، بل لم يذكروه في كتب الموضوعات، قاله ابن تيميَّة[1]، فكيف مثل هذا يعتمد عليه ويقال: هذا يدلُّ على جواز التوسلُّ بجاه النبيِّ ﷺ؟! والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].



(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١/٣١٩)، اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/٣١٨).

بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى:
﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الآيتين [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ الآية [فاطر: ١٣].

وفي «الصَّحيح» عن أنسٍ رضي الله عنه قال: شُجَّ النبيُّ ﷺ يومَ أُحدٍ وكُسِرَتْ رَباعيتُهُ، فقال: «**كيفَ يُفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيَّهم؟!**»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وفيه عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: أنَّهُ سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ إذا رفعَ رأسَهُ من الرُّكوع في الرَّكعة الأخيرة من الفجر: «**اللَّهُمَّ العَنْ فُلاناً وفُلاناً**» بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربَّنا ولك الحمد**» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

وفي روايةٍ: يدعو على صفوانَ بنِ أُمَيَّةَ، وسهيلِ بنِ عمروٍ، والحارثِ بنِ هشامٍ، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين

أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: **«يا معشرَ قريشٍ - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عبَّاس بن عبد المطَّلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفيَّة عمَّةَ رسولِ الله ﷺ لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمَّد سليني من مالي ما شئت، لا أُغني عنك من الله شيئاً»**.



بابُ
قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الآيتين [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]

۞ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ الآية [فاطر: ١٣].

قصد بالتَّرجمة الردَّ على من تعلَّق بالأنبياء والملائكة والصَّالحين أو غيرهم؛ فإنَّ جميع الخلق لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، وهم مخلوقون مقهورون مربوبون لله، فكيف يساوون مع الله؟! وكيف يُصرف لهم حقُّ الله؟!

هذه الآية أبطلت ما يتعلَّق به المشركون من **أربعة أوجه**:

الوجهُ الأوَّلُ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أتجعلون في رتبة الله شخصاً لا يستطيع أن يخلق حتَّى ذباباً؟! تجعلونه مثيلاً ونظيراً لمن بيدِهِ الأمرُ كلُّهُ؟! هذا هو الضَّلال؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، حتَّى الرَّسول ﷺ لا يستطيع أن يخلق ولا ذباباً، وهو مخلوقٌ مقهورٌ مربوبٌ، فكيف تصرِفُ له من العبادة ما هو حقُّ الله ـ تعالى ـ؟! تطلبُ منه المددَ والغوثَ والنجاة من النَّار! هذا هو الضَّلال بعينه.

الوجهُ الثَّاني: قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ تجعلون المخلوق الموجود من العدم مثيلاً للخالق العظيم القائم بأرزاق عباده؟! هذا هو الضَّلال.

الوجهُ الثَّالثُ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الرَّسول ﷺ فمن دونَهُ لا يستطيعون أن ينصروك، ولا يستطيعون أن يجلبوا لك نفعاً، ولا يستطيعون أن

يدفعوا عنك ضرراً، أتجعلهم مثيلاً لمن يستطيع أن يضرَّ وينفعَ وبيدِهِ تدبيرُ الدُّنيا والآخرة؟! هذا هو الضَّلال.

الوجهُ الرَّابعُ: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ هو عاجزٌ عن أن ينصرَ غيرَهُ، بل هو عاجزٌ عن أن ينصرَ نفسَهُ أو ينفعَ نفسَهُ.

وبهذا نعرف أنَّ العبادة لا تصلحُ إلَّا لله، وأنَّهُ لا يجوزُ صرفُ شيءٍ منها لغيره، كما في آية فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤]، وآية الأعراف: ﴿أَيُشۡرِكُونَ...﴾ [الأعراف: ١٩١]، وآية الأحقاف: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ...﴾ [الأحقاف: ٥].

قد يقول قائل: أنا لا أدعوه، ولا أصرف له شيئاً من العبادة، وإنَّما أتوسَّل به لأجل أن يكون واسطةً بيني وبين الله، وإلَّا فأنا أعرف أنَّهُ لا يضرُّ ولا ينفعُ إلَّا الله، لكن لمكانة هذا الوليِّ ومنزلته أجعله واسطةً بيني وبين الله.

نقول: غلطتَ، فربُّكَ لم يرضَ أن يكون بينه وبين خلقه واسطة، بل أمركَ أن تدعوه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: ١٨]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والنبيُّ ﷺ يقول: «**إنَّ الذي تدعونه أقرب إلى عنق أحدكم من راحلتِهِ**»(١)، ويقول: «**وأمَّا السُّجود فاجتهدوا في الدُّعاء، فقَمِنٌ أن يُستجاب لكم**»(٢)، فربُّنا لم يرضَ أن يكون بينه وبين خلقه واسطة؛ كما في قوله ـ تعالى ـ عائباً على المشركين وذامَّاً لهم ومُبكِّتاً لهم في صنيعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزُّمر: ٣].

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٢) رواهُ مسلمٌ (٤٧٩) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

۞ وفي «الصَّحيح» عن أنسٍ رضي الله عنه قال: شُجَّ النبيُّ ﷺ يومَ أُحدٍ وكُسِرَتْ رَباعيتُهُ، فقال: «**كيفَ يُفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيَّهم؟!**» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

(**كيف**): كلمةُ استبعادٍ، استبعدَ فلاح وفوزَ وظفرَ هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنيع في نبيِّهم وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، استبعد سعادتهم في الدُّنيا والآخرة، فقال: (**كيف يفلحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهم؟!**)، فأنزلَ اللهُ معاتباً له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ فالأمور بيد الله، **المعنى**: امض في شأنك ودعوتك.

وقد استفدنا من هذه القصَّة: أنَّ الرُّسل تجري عليهم المصائب، فإذا جرى عليك مصيبة أو حَلَّ بك مرضٌ أو نكبة تذكَّر ما حصل للرَّسول ﷺ، فتخف عليك آلامك، وتتأسَّى به ﷺ وتقول: بما أنَّ هذا حصل لسيِّد الخلق فمن أنا؟! ومعلومٌ ما جرى له ﷺ؛ فإنَّهُ لما ذهبَ للطائف سلَّطوا عليه صبيانهم وجعلوا يرمونه بالحجارة، حتَّى أدموا قدميه، فكلُّ داعٍ إلى الله لا بُدَّ أن يمتحن، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، وكما في قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

وذلك لأنَّ الآمر بالمعروف والنَّاهي عن المنكر يسعى إلى الحيلولة بين العصاة وبين شهواتهم، فإذا حال بينهم وبين شهواتهم وما يريدون فلا بُدَّ أن يعملوا كُلَّ ما من شأنه أن يؤذيه، ولكن عليه الصَّبر.

وفي القصَّة أنَّ الأمراض والمصائب تجري على الرُّسل.

ومنها نعرف أنَّ الرُّسل لا يملكون لأنفسهم ضرَّاً ولا نفعاً، وأنَّ النَّفع

(١) رواهُ البخاريُّ معلَّقاً (٥/ ٩٩)، وهو عند مسلمٍ (١٧٩١) موصولاً.

بيد الله وحدَهُ، فلا نتعلَّق بهم ولا نسألهم ولا نرجوهم، إنَّما نقتدي بهم فيما يبلِّغوننا عن الله ونتأسَّى بهم، أمَّا أن نطلب منهم النَّفعَ والضرَّ فلا، إذ هم لا ينفعون أنفسهم، بل هم بشرٌ من جملة الخلق الذين خلقهم الله وأوجدهم، إلَّا أنَّ الله فضَّلهم وعظَّمهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

والرَّسول ﷺ نهى أن يُسأل من دون الله، أو يرفع إلى رتبة الله، كما في حديث: «**لا تطروني كما أطرت النَّصارى ابن مريم، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[١]، قارِن بين هذا وبين قول البوصيري في «البردة»:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العممِ

فإنَّ من جودك الدنيا وضرَّتها ... ومن علومك علم اللَّوح والقلمِ

يعني: الدُّنيا والآخرة من بعض جودك، ماذا بقي لله؟! هذا هو الشِّركُ بعينِهِ، لم يعرِفْ قول الرَّسول ﷺ: «**لا تطروني**»، وقوله ﷺ لابنته فاطمة: «**سليني من مالي ما شئت؛ فإنِّي لا أغني عنك من الله شيئاً**»[٢]، ولكن كما قالَ الرَّسول ﷺ: «**لتتبعُنَّ سننَ من كان قبلكم**»[٣]، ومن سنن من قبلنا أن قالوا: إنَّ عيسى هو الله، أو ابنُ الله، أو ثالث ثلاثة، فهل وُجِدَ في هذه الأُمَّةِ من قالَ: إنَّ الرَّسول ﷺ كذلك؟

نقول: نعم، وُجِدَ في تركيا أناسٌ يقولون: «إنَّ الرَّسولَ ﷺ نورٌ من الله وجزءٌ من الله، وليس بشراً»، ففي إحدى السَّنوات الماضية اجتمعنا بمفتي تركيا، وكان معَهُ أخو رئيس الوزراء واسمه: (سليمان)، وكان لا يجيدُ العربيَّة ومعهُ مترجمٌ، وسأل عن مسائل في الحجِّ تتعلَّقُ بمذهَبِ الحنفيَّة وأُجيب عنها، ثُمَّ انتقلَ فسأل عن الرَّسول ﷺ، فقال: ما رأيك بمحمَّد؟

فاستغربت هذا السُّؤال، وقلت: من أيِّ ناحية؟

قال: هل هو بشرٌ؟

قلت: نعم، بشرٌ ـ بهدوء حتَّى أعرف ما عنده ـ، وسقتُ لَهُ الآيات: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] ونحوها.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

فقال: هذا تنزُّلٌ منهُ وتواضعٌ، وإنَّما جاء على صورة بشر لأجل أن يكون مُشاكِلاً للمدعوين من البشر؛ فإنَّهُ إذا شاكلهم صار ذلك أحرى لقبول دعوته، وإلَّا فهو ليس ببشر.

قلتُ: ما يقول المفتي؟

فقال: إنَّهُ جزءٌ من الله!

كما قالت النَّصارى سواءً بسواء، لكن مثل هذا لا يُحتجُّ عليه بالقرآنِ والسُّنَّةِ، هذا لا يصلحُ معهُ إلَّا الحُجج العقليَّة.

قلتُ: (محمَّد) جزءٌ من الله؟!

فقال: نعم.

قلتُ: هل محمَّد ﷺ موجود أو تُوفيَ؟

فقال: لا، ليس بموجود، بل مات؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمر: ٣٠].

قلتُ: إذا كان محمَّد ﷺ ماتَ وهو جزءٌ من الله فيكون الرَّبُّ مشلولاً حينئذٍ!؛ لأنَّ جزءاً منه مات.

فبقي ساكتاً، ثُمَّ قالَ: أوقعتني في حيرةٍ، حسبي الله عليك.

لم يستطع الجوابَ، هذا شأنهم، وهذا مصداق ما قالَهُ الرَّسولُ ﷺ: **«لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم»**.

۞ وفيه عن ابنِ عمرَ ﵄ أنَّهُ سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ إذا رفعَ رأسَهُ من الرُّكوع في الرَّكعة الأخيرة من الفجر: «**اللَّهُمَّ العَنْ فُلاناً وفُلاناً**» بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربَّنا ولك الحمد**» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

وفي روايةٍ: يدعو على صفوانَ بنِ أُمَيَّةَ، وسهيلِ بنِ عمروٍ، والحارثِ بنِ هشامٍ، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[(١)].

في هذا فوائد:

الأولى: فيهِ دليلٌ على جواز القنوت في النَّوازل، فإذا قنتَ في الفجر عند نازلةٍ فلا مانعَ من هذا كما دلَّ هذا الحديث عليه، أمَّا القنوت دائماً فمعروفٌ خلافُ العلماءِ فيهِ، فقد ذهبَ إلى مشروعيَّته الشَّافعيَّةُ[(٢)]، واستدلُّوا بأنَّ النبيَّ ﷺ ما زالَ يقنتُ حتَّى فارقَ الدُّنيا[(٣)]، وقالوا: هذا صريحٌ في أنَّ الحكم لم يُنسخ.

أمَّا مذهبنا ومذهبُ كثير من أهل الحديث هو: أنَّ القنوت في الفجر ليسَ بمشروعٍ؛ فإنَّهُ جاءَ من حديث سعد بن طارق الأشجعي أنَّهُ قالَ: سألتُ أبي ﵁: أكَانَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي يقنتون في صلاة الفجر؟

فقال: أي بنيَّ! مُحدثٌ[(٤)].

فدلَّ على أنَّهُم ما كانوا يقنتونَ، وإنَّما جاء في الأحاديث أنَّهُ كان ﷺ يقنتُ إذا نزلت به نازلةٌ، كما في غزوة الأحزاب، فإنَّهُ جعلَ يدعو عليهم في

(١) صحيح البخاري (٤٠٦٩).
(٢) ينظر: الأم (٧/ ١٤٨)، الرَّوضة (١/ ١٥٣).
(٣) يأتي تخريجه.
(٤) رواهُ أحمدُ (١٥٨٧٩)، والترمذيُّ (٢٤٤)، وابنُ ماجه (١٢٤١)، وإسنادُهُ صحيحٌ.

صلاتِهِ، وعندما تنتهي النَّازلة فإنَّهُ ﷺ لا يقنت، بقي الجوابُ عمَّا استدلَّ بهِ الشَّافعيَّة وهو حديث: «**ما زال يقنت حتى فارق الدنيا**»، نقول لهم: الحديثُ فيه ضعفٌ[1]، لكن على تقدير صحَّته فالمرادُ بالقنوت هنا هو: طول القيام، فالرَّسولُ ﷺ كان يطيلُ صلاةَ الفجر أكثر من غيرها حتَّى فارق الدُّنيا؛ فإنَّ القنوت في لغة العرب يراد به طولُ القيام، كما قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقالَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، هذا يدلُّ على أنَّ المراد بالقنوت هو طولُ القيام، وهذه عادتُهُ ﷺ في الفجر أنَّهُ يطيلُ، وليس المراد أنَّهُ يدعو فيقول: «**اللَّهُمَّ اهدنا فيمن هديت...**».

الفائدة الثَّانية: في الحديث دليلٌ على أنَّ الإمام بعدما يرفع رأسه يجمعُ بين التَّسميع والتَّحميد، يقول: «**سمع اللهُ لمن حمده، ربَّنا ولك الحمد**».

ومعنى **(سمع الله لمن حمده)**: استجاب الله لمن حمده، ووجهُهُ: أنَّك في صلاتك قرأتَ القرآن بعد تكبيرة الإحرام وبعد الاستفتاح المتضمِّن لدعاء العبادة وهو قولك: «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك...» إلى آخره، فناسبَ أن تقرأ القرآن وأنت على أشرف حالة وأكملها وهي القيام، ولذا جاء في الحديث: «**ألا إني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً**»[2]؛ لأنَّ الرُّكوع والسُّجود حالة ذلٍّ وحالة خضوعٍ وحالة انكسارٍ، فلا ينبغي أن تقرأ كلام الله وأنت على تلك الحالة، وإنَّما تقرأ كلام الله وأنت على أشرف حالة وأكملها وهي: القيام، ثُمَّ بعد هذا تُكبِّر وتركع وفي حال ركوعك تقول: «سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم»، ثُمَّ ترفع قائماً فتقول: «سمع الله لمن حمده»؛ أي: قد حمدناك

---

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٢٠/ ٩٥) (١٢٦٥٧)، والدَّارقطنيُّ (١٦٩٢)، والبيهقيُّ (٣١٠٥) وغيرهم من حديث أبي جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس، عن أنس.
تفرَّد به أبو جعفر ـ وهو ضعيفٌ ـ ولا يحتمل منه لو لم يخالِف، فكيف وقد خالف؟!
وينظر: الكامل (٦/ ٤٤٨)، المجروحين (٢/ ١١٨).

(٢) سبق تخريجه.

يا ربَّنا وعظَّمناك وأثنينا عليك بالقرآن في حالة القيام، ثُمَّ عظَّمناك بقولنا: «سبحان ربي العظيم»، فربَّنا استجب ولك الحمد على ذلك.

وجاءت الأحاديث في: (**ربَّنا ولك الحمد**) على **أربعة أوجهٍ**:

الأوَّل: (ربَّنا ولك الحمد)، بالواو.

الثَّاني: (اللَّهُمَّ ربَّنا لك الحمد).

الثَّالث: (ربنا لك الحمد)، دون (اللَّهُمَّ)، ودون واو.

الرَّابع: (اللَّهُمَّ ربَّنا ولك الحمد).

قال ابن القيِّم: «لم يصحَّ الجمع بين (اللَّهُمَّ) والواو»، فلا يقال: «اللَّهُمَّ ربَّنا ولك الحمد»[(١)].

ولكن غَلِطَ ابنُ القيِّمِ، بل جاء في «صحيح البخاريِّ»[(٢)] الجمعُ بين (اللَّهُمَّ) والواو.

ثُمَّ (**الحمد**): ما هو؟

الحنابلة عرَّفوه بقولهم: فعلٌ ينبي عن تعظيمِ المنعمِ ـ وهو الله سبحانه ـ.

ولكن الصَّواب خلاف هذا؛ فإنَّ هذا يَرِدُ عليه إيرادات؛ منها: أنَّ الحمدَ قولٌ وليس فعلاً، والصَّواب في تعريف (الحمد) أنَّهُ هو: «**الثَّناءُ على المحمود مع حُبِّهِ وتعظيمِهِ وإجلالِهِ**»، وقد فرَّقنا بينه وبين المدح، فقولنا: «هو الثَّناء على المحمود» هذا يُسمَّى مدحاً، فزدنا: «مع حُبِّهِ وتعظيمِهِ» فهذا حمدٌ، فالمدحُ أن تذكرَ فضائلَ الممدوح وتثني عليه فإنْ أحببتَهُ وعظَّمته صار حمداً، وإن أثنيت عليه بذكر محاسنِهِ وفضلِهِ ـ فقط ـ فيكون مدحاً، فكُلُّ حمدٍ هو مدحٌ وليسَ كُلُّ مدحٍ حمداً.

قوله: (**اللَّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً**): قاله الرَّسول ﷺ بعدما رفع رأسه من الرَّكعة الأخيرة من صلاة الفجر، بعد قول: (**سمع الله لمن حمده، ربَّنا ولك الحمد**)، و(اللَّعنُ) هو: الطَّردُ والإبعادُ عن مواقع الرَّحمةِ، فهو يدعو عليهم

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢١٢).

(٢) صحيح البخاري (٧٩٥).

بأنَّ اللهَ يُبعدهم ولا يهيئ لهم أسباب الرَّحمة؛ لأنَّهم خرجوا يقاتلون الرَّسول ﷺ والمؤمنين معه في عقر دارهم؛ ولأنَّهم حينما حصلت الواقعة جعلوا يُمثِّلون بالمسلمين وأخذوا يقطعون أنوفهم ويبقرون بطن حمزةَ ﵁ إلى غير ذلك؛ ولأنَّهم لما حصل لهم ما حصل جعلوا يفتخرونَ بآلهتهم، فجعل أبو سفيان يقول:

«اعلُ هبل»، فقالَ الرَّسولُ ﷺ: **«ألا تُجيبوه؟»**.

قالوا: ما نقول؟

قال: **«قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ»**.

ثُمَّ قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم.

فقال ﷺ: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**(١).

لذا لعنهم النبيُّ ﷺ في صلاته من شِدَّةِ مبالغتهم في الكفر وإيذائهم وغدرهم وتمثيلهم بشهداء المسلمين؛ ولكونهم عظَّموا آلهتهم؛ وأنَّ النصر حصل بآلهتهم، فغضب الرَّسول ﷺ لما انتهكوا حرمة التَّوحيد، وتعرَّضوا لجانب الرُّبوبيَّة والألوهيَّة، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وهؤلاء في وقتهم هم رؤوس الكفر، وهم من أشدِّ النَّاس إيذاءً للرَّسولِ ﷺ، فالرَّسولُ ﷺ استبعد فلاحَهُم فأنزلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ ومع هذا هؤلاء الذين لعنهم الرَّسولُ ﷺ في صلاتِهِ وخلفَهُ ساداتُ المهاجرين والأنصار يُؤمِّنونَ على دعائه هؤلاء أسلمُوا وحسُنَ إسلامهم وصاروا من جملة المؤمنين ومن جملة أصحاب رسول الله ﷺ!

بهذا يتضح أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، وأنَّ الأمور بيد الله، كما قال الله عنه: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١ ـ ٢٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ﵄.

وأبو طالب هو أعلمُ من مشركي زماننا المعتقدين أنَّ الرَّسول ﷺ ينفعُ ويضرُّ، فأبو طالب مؤمنٌ بالرَّسول ﷺ مُصدِّقٌ لَهُ، كما تدلُّ عليه أشعاره، لكن مع هذا الرَّسول ﷺ لم ينفعْهُ، مع أنَّهُ صدَّقَهُ في قولِهِ وناصرَهُ وأيَّدَهُ وصبرَ معَهُ على حصار الشِّعب ولكن لم ينفعْهُ، لما صبر أبو طالب على حصار الشِّعب ثلاث سنين، وقاطعته قريشٌ بسبب الرَّسول ﷺ قال قصيدته المعروفة يستعطف بها أناساً من قريش؛ لأجل نقض تلك الصَّحيفة التي تعاهدوا فيها على مقاطعة بني هاشم ألَّا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يشاربوهم ولا يؤاكلوهم، أنشأ قصيدته المعروفة، وأوَّلها:

ولمَّا رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ   وقد قطَّعوا كُلَّ العُرى والوسائلِ
وقد صارحونا بالعداوة والأذى   وقد طاوعوا أمرَ العدوِّ المزايلِ

إلى أن قال:

كذبتم وبيتِ اللَّهِ نُبزى محمَّداً   ولمَّا نطاعِنْ حولَهُ ونُناضِلِ(١)

أي: (كذبتم) يا قريش، (نُبزى محمَّداً)؛ أي: نُسلِمُ محمَّداً تأخذونه من أيدينا؟! بل سنطاعن ونقاتل دونه.

وقالَ:

لقد علموا أنَّ ابننا لا مكذَّبٌ   لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل(٢)

وقال في قصيدته النونيَّة:

واللَّه لن يصلوا إليك بجمعهم   حتَّى أوسَّد في التُّراب دفينا

وقال:

ولقد علمتُ بأنَّ دين محمَّدٍ   من خير أديان البريَّة ديناً(٣)

هذا تصديقٌ منه، وماتَ على الكفر، وقد حرص الرَّسول ﷺ على هدايته لما حضرته الوفاة فقال: **«يا عم قل: «لا إله إلَّا الله» كلمةً أحاجُّ لك بها**

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٥).
(٢) ينظر: السِّيرة لابن هشام (١/ ٢٥٤)، الرَّوض الأنف (٣/ ٢٣).
(٣) ينظر: دلائل النبوَّة للبيهقي (٢/ ١٨٨).

عند الله»، وكانَ عنده أبو جهلٍ وعبد الله بن أبي أميَّة فقالا له: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ ـ ذكَّراه الحُجَّةَ الملعونةَ، وهي: تعظيمُ الأسلاف والأكابر ـ، فقال: «هو على ملَّة عبد المطلب»(١)، أبى أن يقول: «لا إله إلَّا الله»، تعظيماً لأسلافِهِ وأكابرِهِ، فأنزل الله تسليةً للرَّسول ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، لو كان الرَّسولُ ﷺ بيده النَّفعُ والضرُّ لما تركَ عمَّهُ الذي ناصره وأيَّده وصبر على الأذى معه يدخل النَّار، فكيف مع هذا يُقال: إنَّ الميِّت ينفعُ ويضرُّ، وأنَّهُ واسطة بينك وبين الله؟!

بنوا على القبور المشاهد والقباب، وزخرفوها وذبحوا لها ونذروا لها النُّذور ونسوا الله الذي بيده الملك، وصرفوا محضَ حقِّهِ لغيرِهِ، هذا هو الشِّركُ بعينِهِ، ولكن كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

ويقاس على وجوب الإنكار على قولهم: «اعلُ هبل» بعض النعرات مثل قولهم: «العزُّ للعُروبة»، هذا خطأٌ، وهذه ألفاظٌ خبيثةٌ، لا تجوز بكُلِّ حالٍ، لكن هذا مع الأسف كلامٌ جرى على الألسن، تناقلته الصُّحف، وكتبه الكتَّابُ وبعضُ المنتسبين للعلم، وإلَّا فالشَّريعَةُ الإسلاميَّة لا تعتبرُ العربَ شيئاً، إنَّما تعتبرُ الإسلامَ.

نعم؛ العرب لهم حقٌّ، ولهم فضلٌ وشرفٌ بنسَبِهِم(٢)، لكن إذا تخلَّفوا عن دينهم فلا خيرَ فيهم، ولا في نسبهم، ولهذا قولهم: «القوميَّة العربيَّة»، «الجامعة العربيَّة»، كلُّهُ خطأٌ، فانتسابهم للإسلام هو المتعيِّن، والدَّليل على ذلك أنَّ القرآنَ والسُّنَّةَ لا نجد فيهما أنَّ العرب لهم فخرٌ بسبب عروبتهم إنَّما بسبب إسلامهم، وأمَّا قبل الإسلام فهم أكفرُ الخلق، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولم يقُلْ: «إنَّما العربُ إخوة»، فلا

(١) سبق تخريجه.
(٢) كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ في الاقتضاء (١/ ٤١٩): «الذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة: اعتقاد أنَّ جنس العرب أفضل من جنس العجم...».

فرق بين العربيِّ والهنديِّ والجاويِّ وغيرهم إلَّا بالتَّقوى، وقال ﷺ: «**مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر**»[1]، ولمْ يقلْ: «مثلُ العرب في توادهم...»، وقال ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمن كالبنيان**»[2]، ولم يقل: «العربيُّ للعربيِّ كالبُنيان».

فالرَّابطة الحقيقية هي الإخوَّة الإسلاميَّة الإيمانيَّة، فإذا كنتَ عربيَّاً ولكن أبوك لم يكن على دين الإسلام فهو العدوُّ اللَّدودُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، إذا لم يكن على الدِّين القويم فأبعدَهُ اللهُ، ولا يشرُفْ لكونه عربيَّاً.

وأصل القوميَّة العربيَّة ـ وهذا الذي نسمعه ـ إنَّما جاء في سنة ١٩١٠م، يعني: منذ سبعين سنة تقريباً، وأسبابُهُ بمقتضى ما قرأناه: هو أنَّهُ لما حصلت الحركة في تركيا فكَّر ساسةُ الفرنسيين والإنجليز وعقدوا مؤتمراً في باريس، وقالوا: الأتراك ينتمون للإسلام، والعرب كذلك ينتمون للإسلام، فإذا اجتمعوا كوَّنوا جبهةً عظيمةً، فلا بُدَّ من التفرقة وإنزال العصبيَّة العرقيَّة منزلةَ الأُخوَّة الإيمانيَّة، فنفصلهم بقولنا هؤلاء: (عربٌ)، وهؤلاء: (أتراكٌ)، فلا يربط بينهم دينٌ، فأشاعوا هذا، وألَّفوا فيه مؤلَّفات، وهذا من أبطلِ الباطلِ، وفي الصَّحيح أنَّ رجلاً من المهاجرين كسعَ رجلاً من الأنصار فتنادوا، : «يا للمهاجرين»، والأنصاري يقول: «يا للأنصار»، مع أنَّها صفةُ مدح وخيرٍ غضب الرَّسولُ ﷺ، وقال: «**أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟!**»[3]، هذا يقول: «يا للأنصار»، وهذا يقول: «يا للمهاجرين». فكيف بالعروبة؟! وهذا البحث شرحناهُ مستوفىً في رسالةِ: «شرحِ صفة حجَّة الوداع»[4].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما.
(٢) رواهُ البخاريُّ (٤٨١)، ومسلمٌ (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٤) (الإبداعُ في شرح خطبة حجَّة الوداع)، وهي رسالةٌ مطبوعةٌ.

۞ وفيه عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: «**يا معشرَ قريشٍ** ـ أو كلمة نحوها ـ **اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عبَّاس بن عبد المطَّلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفيَّة عمَّةَ رسولِ الله ﷺ لا أُغني عنكِ من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمَّد سليني من مالي ما شئت لا أُغني عنك من الله شيئاً**»[1].

حين أنزل على الرَّسول ﷺ: (﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾) صعد الصَّفا فقال: «**يا معشر قريش، يا بني فهر، يا بني كنانة** ـ فاجتمعت عنده أشراف قريش ـ، **كلمة إذا قلتموها ملكتم العربَ، وأدَّت لكم العَجَمُ**».

قالوا: لك ولأبيك عشرة.

قال: «**قولوا: «لا إلٰه إلَّا الله»**»، فقال أبو لهب الشقيُّ: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟! فأنزلَ الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾...﴾ السُّورة[2].

فنذارة النبيِّ ﷺ قسمان: نذارةٌ عامَّةٌ، ونذارةٌ خاصَّةٌ.

أمَّا النِّذارة العامَّة: فقد جاءت في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالله بعث محمَّداً ﷺ لينذر النَّاس كافَّة، ويرشدهم إلى ما فيه هدايتهم، وعزّهم، وقالَ اللهُ لَهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وكانَ ﷺ يأتي القبائل في منى في منازلهم فيقول: «**من**

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٧٥٣)، ومسلمٌ (٢٠٦).

(٢) رواهُ البخاريُّ (١٣٩٤)، ومسلمٌ (٢٠٨) من حديث ابن عبَّاس ﷺ بنحوه.

يجيرني حتَّى أبلِّغ رسالات ربي»[(١)]، فهو يطلب من يمنعه ومن يأويه حتَّى يبلِّغ ما أمر به، وهذا التَّبليغ هو: النِّذارة.

أمَّا النِّذارة الخاصَّة: فهيَ كما جاء في هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] لأنَّهُم أحقُّ بنصحِهِ ونذارتِهِ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]؛ يعني: اجعلوا وقايةً تقيكم من النَّار، ووقايةً تقي أهليكم من النَّار، والوقاية هي طاعة الله ورسوله ﷺ، فالإنسان متى امتثل أمر الله وانتهى عن نواهيه فقد جعل له وقاية تقيه من النَّار.

أمَّا وقاية الأهل وهم: الأولاد والأقارب، فهي: نصيحتهم وإرشادهم والجِدُّ في إبعادهم عن كُلِّ ما يرديهم، لا سيَّما الأولاد فهم صفوة الأهل؛ فإنَّ الإنسان إذا ترك أهله وشأنهم ـ لا سيَّما الأولاد ـ خابت الآمال، وانعكست القضيَّة، فرُبَّما يتمنَّى وفاتهم ويقول: إنَّ وفاتَهُم خيرٌ من حياتِهِم، متى اقترنوا بقرناء السُّوء، وانتهكوا حرمات الله، وانحرفوا عن الجادَّة فموتهم خيرٌ من حياتهم.

وكان سلفنا الصَّالح يهتمون بنصيحة أولادهم وأقاربهم، كما في قصَّة إبراهيم النَّخعي قال: «كانوا يضربوننا على الشَّهادة والعهد ونحن صغار»[(٢)]، هذا من باب النِّذارة الخاصَّة.

وكذلك لا تغتر بالولد وإن أخذ شهادة الماجستير أو الدكتوراه أو غير ذلك من الألفاظ الأجنبيَّة التي لا نعرفها، إذا ساءت أخلاقهم، وفسدت أحوالهم، وقويَ عامل الشرِّ في نفوسهم؛ فالجهلُ خيرٌ لهم من هذا العلمِ السَّيئ الذي أرداهم[(٣)].

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٢٢/ ٣٤٦) (١٤٤٥٦)، والفاكهيُّ (٤/ ٢١٤)، وابنُ حبَّان (٦٢٧٤)، والبيهقيُّ (١٨/ ٣٠) (١٧٧٩٤).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٧١) (٢٦٥٢).

(٣) ليس مراد الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الحط على التَّعليم النِّظامي، والشَّهادات العليا، فالشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هو الذي أسَّس معهد الحرم المكي، وهو يمنح الشَّهادات النظاميَّة، وهو الآن كليَّة، =

إذا قوي عامل الشرِّ فيه فما ينفعه أن يقول: «أخذت شهادة كذا من أمريكا»، أو حصلت على الدكتوراه، أو أن يكون أستاذ كرسي إلى غير ذلك من الألفاظ التي لا حقيقة لها؟!

وقد ذكر أحد الفرنسين أنَّ الواجب على الغرب إلقاء الشُّبه على الأولاد الصِّغار في المدارس، أمَّا المسنون فلا طاقة له بهم.

ويقول شاتليه صاحب كتاب «الغارة عل العالم الإسلامي»: على المبشِّر إذا أراد أن يلقي محاضرة وفي الحضور أحد علماء المسلمين ألَّا يتعرَّض لدينهم لئلا يردَّ عليه، ولكن تكون المحاضرة في التاريخ وأخبار الأمم وما أشبه ذلك.

فإذا لم يكن في الحضور عالم فليبدأ المبشِّر بالثناء على الإسلام ليكون كالناصح المحب ويقول ـ مثلاً ـ: ما أحسن الإسلام؛ حيث أنَّ من شرائعه أنَّ الضرورات تبيح المحظورات، وما أعظم الإسلام؛ حيث فيه أنَّ درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، يا له من دين عظيم، وما أحسن الإسلام؛ حيث فيه أنَّ المشقَّة تجلب التيسير، إلَّا أن الإسلام أخطأ حيث جعل حظَّ الذَّكر في الميراث مثل حظ الأنثيين، مع أنَّهم يمتُّون للميت بصلةٍ واحدةٍ، هذا ابنه وهذه بنته!

وأخطأ الإسلام في أنَّ للرجل أن يطلِّق زوجته بغير اختيارها مع أنَّهم دخلوا هذا العقد بالتراضي فلا ينبغي أن يخرجوا منه إلَّا بالتراضي.

والجواب عن هذه المسائل واضحٌ والحمد لله، لكن هؤلاء يريدون القضاء على الإسلام.

وقد اجتمع زويمر كبير المنصِّرين بجماعة من أتباعه المنصِّرين فقال: ماذا صنعتم؟

قال أحدهم: أخرجت رجلاً من الإسلام إلى النصرانيَّة.

= إنَّما مرادُهُ أنَّ هذه الشَّهادات الجهلُ خيرٌ منها إذا كان حاملها فاسداً، سيئَ الخلق، رقيق الدِّيانة؛ لأنَّها تكون حُجَّةً عليه ـ والعياذ بالله ـ.

وقال الآخر: نصَّرت اثنين.

فقال الخبيث: «بارك فيكم المسيح، لكن نحن لا نريد أن يدخل المسلمون النصرانيَّة فهذا بعيد، ولا يتنصَّر إلَّا صغير ليس له أبوان يعلِّمانه الإسلام، أو مستهترٌ لا يهمه إلَّا لقمة العيش فإذا حصَّلها عاد إلى دينه، وإنَّما غرضنا أن تبعثوا الحيرة والشَّكَّ في نفوس أولاد المسلمين».

فإذا كانت الحالة هذه: فما ظنُّك بمن يبتعثون أبناءهم وهم صغار إلى الجهات المختلفة من بلاد الكفر، لم يعرف العقيدة، ولم يعرف الإسلام، ولم يعرف إلَّا ما برقَ أمام عينيه، يا للأسف ويا للمصيبة، أين قولَهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]!

كان الأحقُّ بالنِّذارة: الأولاد وأبناء الوطن، هم أولى بالنِّذارة والنصح من النَّاس البعيدين، عملاً بهذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

ثُمَّ قالَ النبيُّ ﷺ: (**يا عبَّاس بن عبد المطَّلب لا أغني عنك من الله شيئاً**)؛ يعني: اشتر نفسك بالإيمان بالله، والعمل الصَّالح؛ فإنِّي لا أغني عنك من الله شيئاً، ولو أنَّك عَمِّي، فهذا لا ينفعك شيئاً، وإنَّما ينفعك الإيمان والعمل الصَّالح، فمجرَّد القرابة لا تؤثِّر، ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ: «**سلمانُ منَّا أهل البيت**»[(١)]، وهو عبدٌ فارسيٌّ، لكن أسلم وصدَّق النبيَّ ﷺ وآمن بما جاء به حقّاً، بخلاف عَمِّهِ أبي لهب! كما قالَ الشَّاعر في هذا المعنى:

لقد رفع الإسلامُ سلمان فارسٍ كما وضع الشِّركُ الشقيَّ أبا لهب

---

(١) رواهُ ابنُ سعدٍ في الطبقات (٤/ ٨٢)، وابنُ جريرٍ في التَّفسير (١٩/ ٣٩)، والطبرانيُّ (٦٠٤٠)، والحاكمُ (٣/ ٦٩١) من طريق ابن أبي فديك، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جدِّهِ، به مرفوعاً.
وهو خبرٌ منكرٌ، كثيرٌ واهٍ، وأبوهُ فيه ضعفٌ، ينظر: الجرح والتعديل (٧/ ١٥٤)، الكامل (٧/ ١٨٧).
وقد ضعَّفَهُ الذَّهبيُّ في تعليقه على المستدرك (مختصر تلخيص الذَّهبي ٥/ ٢٣١٣).
وله شاهد من حديث أنس، رواهُ البزَّارُ (٥٦٣٤)، وأبو يعلى (٦٧٧٢) بسياقٍ طويلٍ، وأمارةُ الوضع عليهِ باديةٌ؛ في إسناده النَّضر بن حميد، وسعد الإسكاف؛ وهما متروكان، وينظر: ميزان الاعتدال (٢/ ١٢٢ ـ ٤/ ٢٥٦)، لسان الميزان (٨/ ٢٧٢).

ثُمَّ خصَّ بالنِّذارة عمَّته أخت أبيه فقال: (**يا صفيَّة عمَّة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً**)؛ أي: اشتري نفسك بالإيمان بالله والعمل الصَّالح فلا أغني عنك من الله شيئاً.

ثُمَّ خصَّ بالنِّذارة ابنته التي هي بضعةٌ منه فقال لها: (**يا فاطمة بنت محمَّد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً**)؛ أي: لا أملكُ إلَّا مالي الذي بيدي، فإذا قال هذا لابنته التي هي بضعة منه، وأنَّهُ لا ينفعها سوى الإيمان والعمل الصَّالح فما ظنُّكَ بمن قال: إنَّ من دونَ النبيِّ ﷺ كأحمد البدوي يكشف الضرَّ ويجلبُ النَّفعَ ويُستنصر به على الأعداء ويغيث المكروب ويُفرِّج الكروب؟! سبحان الله! أين هذا من قول الرَّسول ﷺ: (**يا فاطمة بنت محمَّد سليني من مالي ما شئت، فإنِّي لا أغني عنك من الله شيئاً**)؟!

قال المصنِّف: «فإذا صرَّح وهو سيِّد المرسلين بأنَّهُ لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنَّهُ ﷺ لا يقول إلَّا الحقَّ، ثُمَّ نظر فيما وقع في قلوب خواصِّ النَّاس اليوم؛ تبيَّن له التَّوحيد وغربة الدِّين».

انظر إلى ما وقع في قلوب كثير من المؤلِّفين المنتسبين إلى العلم والذين ألَّفوا في طبقات الأولياء والصَّالحين يستغيثون بهم من دُون الله، ويطلبون منهم المددَ، وكشف الضرِّ، ويقولون: إنَّهم ينفعون ويضرُّون، وأنَّ قبرَ فلان تِرياقٌ مجرَّبٌ، هذا هو الضَّلال بعينِهِ، ألَمْ يقلْ الرَّسولُ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ١٣]، وقالَ اللهُ لَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، أيُّ دلالةٍ أبلغ من هذه الآيات لمن كان له قلبٌ؟!

فالرَّسول ﷺ في دعوته عمَّ وخصَّ، عمَّ النَّاس كُلَّهم، وأمرَهُم ونهاهُم، وكتبَ إلى ملوك الأطراف، وبعثَ الدُّعاة، وخصَّ بالنِّذارة أقاربَهُ وأهل بلدِهِ الأدنين، فبلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصحَ الأُمَّة ـ صلوات اللهُ وسلامه عليه ـ.

ثُمَّ ينبغي أن يعلم ما عليه بعض النَّاس الآن من الانحراف الإلحادي، والميول عن الشَّريعة الإسلاميَّة إلى ما يقوله الغرب، وتأثُّر كثير من الشبيبة بالكتب العصريَّة، التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع، ولا أقول كُلُّها باطلة بل فيها: حقٌّ وباطلٌ، والحقُّ فيها قليل، تقرأ صفحات كثيرة وتخرج دون نتيجة، الأسلوب قد يكون شيِّقاً لكن دون ثمرة، أمَّا الكتب القديمة فجعلوا يُسمُّونها: «الكتب الصَّفراء»، و«كتب القرون البالية»، عباراتٌ توحي بالزَّيغ والإلحاد، ورُبَّما قصدوا بهذا كتب الحديث، فإن قصدوا بها هذا فهذا أشرُّ وأكبرُ وأطمُّ.

وقد كان أحدُ العلماء لَهُ ولدٌ، وكان ينصحُهُ، وأكثرَ النَّصيحة لَهُ، وحرص على هدايتِهِ وإصلاحِهِ ونفعِهِ، ولكن لم يُفلح فتأسَّف وأنشأ يقول:

كم حسرةٍ لي في الحشا ... من ولدي حين نشا
كنَّا نشا صلاحه ... فما نشا كما نشا[1]



---

(١) ينظر: البداية والنِّهاية (١٦/ ٣٧٨)، طبقات الشَّافعية (٧/ ١٦٤).

بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

وفي «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: **«إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقولِهِ، كأنَّهُ سلسلة على صفوانٍ ينفذُهم ذلك.**

حتَّى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟

قالوا: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير.

فيسمعها مسترقُ السَّمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكفِّهِ فحرَّفها وبدَّدَ بين أصابعه - **فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثُمَّ يلقيها الآخر إلى من تحته، حتَّى يلقيها عن لسان السَّاحر أو الكاهن، فرُبَّما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، ورُبَّما ألقاها قبل أن يدركَهُ، فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّقُ بتلك الكلمة التي سُمعت من السَّماء».**

وعن النَّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله - تعالى - أن يوحي بالأمر تكلَّم بالوحي أخذت**

السَّماوات منه رجفة ـ أو قال: رعدةً ـ شديدة خوفاً من الله ﷻ.

فإذا سمع ذلك أهل السَّماوات صُعقوا وخرُّوا سُجَّداً، فيكون أوَّل من يرفع رأسه جبريل، فيكلِّمه الله من وحيه بما أراد، ثُمَّ يمرُّ جبريل على الملائكة، كُلَّما مرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟

فيقول جبريل: قال الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ.

يقولون كُلُّهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره اللهُ ﷻ».



بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

أوَّل الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

هذه الآية هي التي قال فيها بعض سلف الأُمَّة: إنَّ هذه الآية تقطعُ عروقَ شجرَةِ الشِّرك من القلبِ.

وقطعها شجرة الشِّرك من القلب هو من **أربعة أوجه**:

الوجهُ الأوَّلُ: ﴿قُلِ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا كانوا لا يملكون حتَّى مثقال ذرَّة فكيف يُساوون بِمَنْ بيدِهِ الأمرُ كُلُّهُ والحكمُ والقضاءُ والتصرُّفُ؟!

قد يقول قائل: نفى الله أن يكون للمدعوين ملكُ ذرَّة لكن يحتمل أن يكون لهم شِرْكٌ في ملك ذرَّة.

نقول: نفى الرَّبُّ هذا فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، وهذا هو **الوجه الثَّاني**، نفى ـ سبحانه ـ أن تكون لهم شركة في ملك ذرَّة في السَّماوات والأرض، فكيف يساوون بالله ـ سبحانه ـ؟! يُطلب منهم المدَدُ ويُسألون تفريج الكربات وإزالة الغمِّ والهمِّ، وهذا حالهم، لا يملكون مثقال ذرَّة بل وليس لهم شركة في مثقال ذرَّة!

الوجهُ الثَّالثُ: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ يعني: أنَّ هؤلاء المدعوين

من أنبياء أو ملائكة وغيرهم ليس منهم أحدٌ هو مُعِينٌ لله ولا مُشِيرٌ، بل الرَّبُّ هو الذي يتصرَّفُ بهذا العالم بما تقتضيهِ حكمتُهُ وإرادتُهُ من غير أن يحتاج إلى معينٍ أو مشيرٍ، بل الأمرُ بيدِهِ.

الوجهُ الرَّابعُ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ لا أحد يشفع، لا مَلَكَ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ، إلَّا بعد أن يأذن اللهُ لَهُ، واللهُ لا يأذن إلَّا لأهل التَّوحيد، كما في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فالله لا يرضى إلَّا التَّوحيدَ، فالشَّفاعة هي ملك لله ـ سبحانه ـ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: زال عنهم الغشي، وهم الملائكة، ومعلومٌ أنَّهُم من أقوى خلق الله، وإذا كان الله نفى أن يكونوا معبودين معه، بل أخبر بما يحصل لهم من الخوف والرِّعدة والهيبة عندما يسمعون كلامَهُ، فكيف يُسألون من دون الله ويرجون من دون الله؟! ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠]، وفي الآية الإيمان بالملائكة، وهو أمرٌ لا بُدَّ منهُ، كما في حديث جبريل الذي عليه تدورُ عقائد المسلمين، حين سأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فمن جملة ما جاء في الحديث قال: «**أخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته...**»(١)، فإنكارُ الملائكة كفرٌ.

والإيمان بالملائكة هو أن تعتقد يقيناً بأنَّ الملائكة عبادٌ مكرمونَ، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فهذا الذي يجِبُ أن تعتقده في الملائكة، وإن تنوعَّت عباراتُ النَّاس ما بين مُحِقٍّ ومبطلٍ.

فالحقُّ أنَّ الملائكة عبادٌ مكرمون، وأنَّ الله أوجدَهُم وخلقَهُم لعبادَتِهِ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم.

والآياتُ في إثبات وجود الملائكة كثيرة جِدَّاً، وقال بعض العلماء:

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٠)، ومسلمٌ (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«إِنَّهُم أجسامٌ نورانيَّة»، ولكن نحن نقولُ: الله أعلم بحقيقة ذلك، بل نؤمِنُ بأنَّ الملائكة موجودون.

وفي الآية إثبات أنَّ الله يقول، والمراد أنَّهُ ـ سبحانه ـ يتكلَّم، خلافاً للأشاعرة، فالله أخبرَ أنَّهُ يتكلَّم ويقول حقيقة كما دلَّ عليه القرآن: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ولا نقول: إنَّ الله يتكلَّم من جنس كلام المخلوقين، بل نقولُ: إنَّ الله يتكلَّم على وجهٍ يليقُ بجلالِهِ.

فإذا قالَ الأشعريُّ الذي ينفي عن الله الكلام: لا يجوز لك أن تثبت أنَّ اللهَ يتكلَّم؛ لأنَّ من لازم الكلام أن يكون له لسانٌ وشفتان ويكون لَهُ لِثَةٌ، واللهُ منزَّهٌ عن هذا.

قل لَهُ: أنا لا أقول بإثبات ما ذكرته، بل أُثبت ما أثبتَهُ القرآنُ والسُّنَّةُ، وأنفي ما نفاهُ القرآنُ والسُّنَّةُ، وأسكتُ حيث سكت القرآنُ والسُّنَّةُ.

فيقولُ لَكَ: بل يلزمُكَ هذا؛ إذ لا نعرف في كلام العرب (كلاماً) دون هذه اللَّوازم.

فقُلْ لَهُ: أجيبك من **وجهين**:

أوَّلاً: هل أنت تثبِتُ أنَّ لله ذاتاً؟

يقول لك الجهميُّ والمعتزليُّ والأشعريُّ: نعم، نحن نثبت أنَّ لله ذاتاً يقيناً.

قل له: هل هي مشابهة لذوات المخلوقين؟! أنا لي ذات، فهل ذات الله مثل ذاتي؟!

يقول لك: لا، بل أثبتُ لله ذاتاً حقيقة ليست بعدم، لكن لا تُشْبِهُ ذوات المخلوقين.

قل: وأنا أثبت لله كلاماً حقيقة، لا يشبه كلام المخلوقين.

فالكلامُ في الصِّفات فرعٌ عن الكلام في الذَّات، فلا يستطيع أن يردَّ عليك حينئذٍ؛ لأنَّك تلزِمُهُ بإثبات نظير ما أثبتَهُ، فلا محيد له حينئذٍ، فكيف تثبتُ أنَّ لله ذاتاً لا تشبه ذوات المخلوقين، وتنفي عنه الصِّفات خشية المشابهة؟!(١).

ثُمَّ نقول للأشعريِّ ـ على سبيل التنزُّل معه ـ: لا يلزم من إثبات الكلام أن يكون المتكلِّمُ لَهُ لسانٌ وشفَةٌ، إنَّما هذا في الآدمي، فقد جاء في القرآنِ والسُّنَّةِ بأنَّ هناك من يتكلَّم دون أن يكون له شيء من ذلك، كما في «صحيح مسلم» في قصَّة الحجَرِ الذي كان يُسلِّم على النبيِّ ﷺ وهو في مكَّة، فإنَّهُ قال: «**إنِّي أعرف حجراً في مكَّة يسلم عليَّ**»(٢)، فهل له لسان وشفتان؟!

وكذا أخبر الرَّبُّ بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والتسبيح قولٌ، فهل لهذه المخلوقات لسان وشفتان، فيبطلُ حينئذٍ استدلالُهُ وتشبيهُهُ.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ فيه إثباتُ صفة العلوِّ لله ـ سبحانه ـ، فنقول: له علوُّ الذَّاتِ، وعلوُّ القدرِ، وعلوُّ القهرِ.

له علو الذات، وهو مستو على عرشه، بائن من خلقه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: على السماء ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال الله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، والجهميَّة والمعطِّلة يقولون: (استوى) بمعنى: (استولى)، ويستدلُّون ببيتٍ مولَّدٍ:

---

(١) وفي هذا المعنى قال العلَّامة محمد سالم بن عبد الودود في منظومته (جملة العقائد):
فإن يقل جهميُّهم: كيف استوى؟ كيف يجيء؟ فقل له: كيفَ هو؟!

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

قد استوى بشرٌ على العراقِ   من غير سيف ولا دم مهراقِ[(١)]

المعنى: استولى بشر على العراق، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، إلى غير ذلك من الآيات، **المعنى عندهم**: (استولى)، فقل له: لا داعي إلى أن أذكر الأدلَّة على الاستواء فهي واضحة، لكن أريد أن أخاصمك فيما تقوله أنت: أتقول استوى بمعنى استولى؟!

أنت عربيٌّ، و(استولى) كلمة عربية، ومعنى: (استولى)، أنَّ هناك من ينازِعُ اللهَ على العرشِ ويقاتلُهُ، ثُمَّ إنَّ الله استولى عليه؛ هذا ما تفيده مادَّة (استولى)؛ كما يقال: «فلانٌ استولى على البلدِ»؛ أي: بعد مغالبة ومقاهرة بينه وبين شخص آخر، ثُمَّ تغلَّب عليه فإذا فسَّرتم الاستواء بالاستيلاء؛ فكأنَّ هناك من يغالبُ الرَّب وينازعُهُ على العرش ثُمَّ استولى الربُّ عليه[(٢)]، فيبطلُ قولكم.

فأنت تحتجُّ عليه وتبطلُ كلامَهُ من تفسيرِهِ هو، سواء بسواء، دون أن تحتاج إلى أدلَّة أخرى، مع أنَّ سلفنا الصَّالح كُلَّهم قالوا في تفسير (الاستواء): نثبته كما أثبته القرآن، استواء يليقُ بجلال الله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، ولا نقول: استوى كاستوائي على الأرض، أو كاستواء فلان على الكرسي، ولكن نقول: «**آمنَّا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنَّا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله**»، ونستريح من هذه الشقشقة وهذه الإلزامات وهذا الكلام الفاسد الذي يتكلَّمون به ويؤيِّدون به أباطيلهم دون أن يقيموا عليه دليلاً من كتابٍ ولا سُنَّةٍ ولا عقلٍ سليمٍ.

---

(١) لم أقف على البيت في ديوان الأخطل المطبوع، وقد نسبه إليه جماعةٌ من أهل العلم.
(٢) ينظر: التَّمهيد (٧/ ١٣١)، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة (ص٤٦١).

۞ وفي «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: **«إذا قضى اللهُ الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقولِهِ، كأنَّهُ سلسلة على صفوانٍ ينفذُهم ذلك.**
حتَّى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟
قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير.
فيسمعها مسترقُ السَّمع ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وصفه سفيان بكفِّهِ فحرَّفها وبدَّدَ بين أصابعه ـ **فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثُمَّ يلقيها الآخر إلى من تحته، حتَّى يلقيها على لسان السَّاحر أو الكاهن، فرُبَّما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، ورُبَّما ألقاها قبل أن يدركَهُ، فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا فيُصدَّقُ بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»**(١).

قوله ﷺ: **(إذا قضى الله الأمر في السماء)**؛ أي: إذا تكلَّم الله بالوحي بأن أراد أمراً أو نهياً أو إخباراً بشيء عند ذلك تسمع الملائكة كلام الرَّبِّ من جنس السلسلة التي تجرُّ على صفوان؛ أي: على حصاة ملساء يسمع لها طنين، ولكن لا يدرى ما ذلك، هذه صفته؛ يعني: يسمعون الكلام وصفته من جنس السلسلة على الصفاة الملساء، فإذا سمع أهل السماء ذلك خرُّوا سُجَّداً لله تعالى وأصابهم من الفَزَعِ والغشي إعظاماً لله، وأصابهم من الرِّعدة والخوف هيبة لله، ففي هذه الجملة دليلٌ على إثبات أنَّ الله يتكلَّم خلافاً للأشاعرة كما مرَّ بيانُهُ، وهذا ممَّا لا خلاف فيه بين أصحاب الرَّسول ﷺ وممَّا لا خلاف فيه

---

(١) رواه البخاري (٤٧٠١).

بين التابعين، وإنَّما وقع الخلاف فيما بعد، حينما ظهرَ أناسٌ يزعمون أنَّ الله إذا وُصِفَ بالكلام أنَّهُ يكون مشابهاً لخلقِهِ، وقد مرَّ بيان فساد هذا القول، وأنَّ مذهب المسلمين من سلف هذه الأُمَّةِ من الصَّحابة والتابعين خلاف ذلك، وهو إثبات أنَّ الله يتكلَّم حقيقة.

(خضعاناً)؛ أي: خضوعاً وهيبةً وخوفاً من الله، عندما يسمعون ذلك.

(كأنَّهم سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك)؛ أي: يصل إلى قلوب الملائكة فيخرُّون سُجَّداً لله.

(حتَّى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم)؛ أي: زالَ عنها الغشيُ وذهبت الرِّعدةُ سأل بعضهم بعضاً: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾؛ أي: قالَ اللهُ الحَقَّ، فإنَّهُ هو الحَقُّ، ولا يقولُ إلَّا الحقَّ، وهو العلي الكبير الذي لا أكبر منه، لَهُ علوُّ القدرِ وعلوُّ القهرِ وعلوُّ الذَّاتِ، كما مرَّ بيانه في الآية.

(فيسمعه مسترقُ السَّمع)؛ يعني: أنَّ الشياطين يركبُ بعضهم بعضاً حتَّى يصلوا إلى عنانَ السماء فيختطفوا تلك الكلمة فيلقيها إلى الشيطان الذي يليه ثُمَّ الشيطان إلى من تحته، وقد وصف سفيانُ بنُ عيينةَ ما كانت تفعله الشياطين باستراق السمع بأنْ حرفَ يدَهُ وبدَّدَ بينَ أصابعِهِ، فجعلَ يدَهُ على حرفٍ؛ أي: على الجانب الذي يلي الإبهام أو الخنصر، هذا هو الحرف.

(وبدَّد بين أصابعه) يُبيِّن صفة ركوب الشياطين عندما يريدون أن يسترقوا السَّمع من أجل أن يلقوا ما يسمعونه إلى الكاهن أو السَّاحر الذي يتقرَّب إليهم، ومعلومٌ أنَّ الشَّيطان لا يخدمُ الإنسيَّ أبداً إلَّا بصرف شيء من العبادة له، أو بترك شيء من الواجبات، أو بفعلِ شيء من المحرَّمات كما قرَّرَهُ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة في كتاب «النُّبوَّات»[1].

واستنبط العلماء من هذا الحديث: عظم طلب العلم! وأنَّ الإنسان مهما فعل في طلب العلم فلا يعتبر كثيراً، فإنَّ الشَّياطين حرصت على العلم حتَّى أنَّ الواحد منهم يركب الآخر من أجل أن يسمعوا كلمة يلقونها إلى أوليائهم من

---

(١) (٢/ ١٠٠).

الإنس، هذا يدلُّ على أنَّ المسلم مهما بذلَ في تحصيل العلم فلا يُعَدُّ كثيراً.

هذه الشياطين الذين هم أعداء الله والذين حذَّرت منهم الكتب السماوية، وجميعُ الرِّسالات، ومع هذا يحرصون على إغواء بني آدم بما يفعلونه من ركوب بعضهم بعضاً من أجل أن يتحصلوا على كلمة يروِّجون بها أكاذيبهم، فكيف بالمسلم؟! كيف لا يحرص ويعمل من أجل أن يرد تلك الكلمة وأشباهها من الإلحاد الذي يراد إيراده على الشَّريعة الإسلاميَّة؟!

(حتَّى يلقيها على لسان السَّاحر أو الكاهن فرُبَّما أدركَهُ الشِّهاب قبل أن يلقيها ورُبَّما ألقاها قبل أن يدركه)؛ أي: أنَّ السَّحرة والكُهَّان يتقرَّبون للشَّياطين، ثُمَّ إنَّ الشَّياطين يأتون إليهم بتلك الكلمة التي سمعوها من السَّماء ثُمَّ إنَّ الكاهن يزيد عليها ما يزيد، فيروِّج باطلَهُ وأكاذيبَهُ بسببِ تلك الكلمة.

وقد يضيفون هذه المعلومات إلى النجوم كما عليه جاهلية العرب، يزعمون أنَّ النجوم هي المدبِّرة، وأنَّها هي التي تتصرَّف، وهذا كفرٌ بالربوبية.

والتنجيم هو: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، فهم يستدلون على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية بهذه النجوم، فيقولون: يُولد عظيم، أو يموت عظيم، أو يحصل كذا، أو تأتي أمطار، أو تأتي رياح، أو تحصل هزيمة أو يحصل انتصار وما أشبه ذلك، وهذا كُلُّهُ من الأباطيل، كما يأتي في بيان شيء من أنواع السحر.

فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»(١).

وكان الخليفة المنصور مُولعاً بعلم النُّجوم، فكان يتعاطى التنجيم ويُقرِّب المنجِّمين، ويسألهم عن المغيَّبات، وهذه طبيعةُ البشر؛ فإنَّ الإنسان مولعٌ بالتطلُّع إلى مستقبلِهِ، فأبو جعفر سافر من بغداد يريد الحجَّ، فلمَّا لم يكن بينه وبين مكَّة إلَّا أربعة أيَّام أمر بضربِ خيامِهِ عند طلوع الشمس، وأن يبقوا ذلك اليوم في ذلك المكان، وقال لحاجبه الرَّبيع: هل لك أن نتمشَّى حتَّى تُنصب الخيامُ؟

---

(١) يأتي تخريجه في موضعه من المتن.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، وبينما هم يمشونَ في البريَّة إذ أبصرَ أبو جعفر أبياتاً أمامَهُ فقرأها فتغيَّرَ وجهُهُ، فقال لحاجبه الرَّبيع: هل أبصرتَ ما أبصرتُ؟

قال: لا يا أمير المؤمنين لمْ أر شيئاً.

قال: اقرأ ما كُتب على هذا الجبل.

قال: لا أرى شيئاً.

فعرف أنَّهُ أمرٌ خاصٌّ بهِ، قال: ماذا ترى يا أمير المؤمنين؟!

قال: أرى مكتوباً على رأس هذا الجبل:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر اللَّه لا بدَّ واقعُ
أبا جعفر هل كاهنٌ أو منجِّمٌ لك اليوم من ريب المنيَّة مانعُ

فما مكثَ بعدها إلَّا ثلاثة أيَّام وتوفي[(١)]

فالحاصلُ: أنَّ التنجيمَ هباءٌ، لا أصلَ لَهُ، فالأمور بيد الله.

ولهذا بعض أئمَّة الدَّعوة[(٢)] كَرِهَ أن يُقال: «هذا هبوب الثريا» عندما تهبُّ الرِّياحُ في الصيف، كانت العامة تقول: «هذا هبوب الثريا»، «هذا هبوب الجوزاء»، وبعض أئمَّة الدَّعوة كَرِهَ هذا قال: وإن كان الإنسان لا يعتقد أنَّ الثريا هي التي أوجدت الهبوب بل هي بيد الله، لكن لا ينبغي إضافته إلى الثريا ولا إلى الجوزاء بأن يقال: «هبت هبوب الثريا» أو الجوزاء أو ما أشبه ذلك.

(حتَّى يلقيها على لسان السَّاحر أو الكاهن فرُبَّما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها ورُبَّما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟!)؛ أي: أنَّ النَّاس يقولون: فلانٌ الكاهن صدقَ، ألَمْ يقُلْ لنا يوم كذا: (ينزل مطرٌ)، ونزلَ، إذاً قوله: (يولد عظيم)

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٨/ ١٠٧)، البداية والنِّهاية (١٣/ ٤٧١).
(٢) كالشَّيخ عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمٰن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ، ينظر: مجموعة الرَّسائل والمسائل (١/ ٢١٠).

صحيحٌ، و(الزروع تموت) صحيح؛ لأنَّهُ سبقَ أن أخبرنا أنَّهُ ينزل مطر ونزل، وقد أخبرنا بأنَّ الأودية تجري من السيول وقد وقعَ، تقع كلمة الحقِّ لكن يزيد معها مئة كذبة فتروج ويصدِّقون تلك المئة بسبب الواحدة التي استرقها أولياؤه من السماء، والله يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

أمَّا معرفة الكسوف والخسوف فقد قرَّرَهُ العلماء وقالوا: يمكن معرفته والوصول إليه بالحساب، لكن لا ينبغي أن يصدَّق ولا يكذَّب، هذا رأي ابن تيميَّة وغيره(١)، وإلَّا فمعرفته ممكنة، مثل ما أنَّنا الآن نعرف متى ينتهي طول اللَّيل، إذا جاء برجُ الجدي نعرف أنَّهُ هو نهايةُ طولِ اللَّيلِ ونهايةُ قِصَرِ النَّهار، وإذا جاء برجُ الحمل تساوى اللَّيلُ والنَّهارُ، وإذا جاء برجُ السَّرطان بلغ اللَّيل نهاية القِصَرِ والنهار نهاية الطولِ، ثُمَّ يأخذ اللَّيلُ بالزِّيادة حتَّى يأتي برج الميزان فيتساويا ويعتدلا، ثُمَّ يأخذ اللَّيل بالنَّقص والنَّهار بالزِّيادة، ثُمَّ يأتي برج الحوت، فيطول اللَّيل ويقصر النَّهار، ثُمَّ إذا جاء الدَّلو تساويا.

والصحف والمجلَّات التي فيها البروج ما تنبغي قراءتها، هذا ليس بشيء، هذا من العناء، ولا ينبغي أن يقرأ الإنسان ما يؤثِّرُ على عقيدته، مع أنَّها كلها حدسٌ وظنٌّ وتخمينات مثل ما في كتب الطب ككتاب «تسهيل نيل المنافع»، ومثل كلام داود الأنطاكي في «تذكرته»، كتبَ عليها بعضهم: «اقرأ تفرح، جرِّب تحزن»، إذا قرأته قلت ما هذا؟! أتى لك بالدُّنيا كلها، لكن لو جرَّبت ما وجدت شيئاً أبداً، والمجلَّات التي يكتبون عليها: «جرِّب حظك»، «اعرف حظك»، «كيف تعرف حظك؟» كُلُّها باطلة لا أصل لها، وهي من الخزعبلات.

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٢٦).

۞ وعن النَّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلَّم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة** ـ أو قال: **رعدةً** ـ **شديدة خوفاً من الله ﷻ.**

فإذا سمع ذلك أهل السماوات صُعقوا وخرُّوا سُجَّداً، فيكون أوَّل من يرفع رأسه جبريل، فيكلِّمه الله من وحيه بما أراد، ثُمَّ يمرُّ جبريل على الملائكة، كُلَّما مرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟

فيقول جبريل: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ.

فيقولون كُلُّهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره اللهُ ﷻ»(١).

الإرادة تنقسمُ إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: إرادةٌ كونيَّةٌ قدريَّةٌ.

والقسمُ الثَّاني: إرادةٌ شرعيَّةٌ دينيَّةٌ.

فالكونيَّة القدريَّة هي المذكورة في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، هذه هي الإرادة الكونيَّة القدريَّة.

---

(١) رواهُ ابنُ أبي عاصم (السُّنَّةِ) (٥١٥)، ومحمَّدُ بنُ نصرٍ (تعظيم قدر الصَّلاة ١/ ٢٣٦) (٢١٦)، والطبريُّ (التَّفسير ١٩/ ٢٧٨)، وابنُ خزيمة (التَّوحيد ١/ ٣٤٨)، والطبرانيُّ ـ كما في (جامع المسانيد ٨/ ٣٣٥) ـ، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (١/ ١١٥) وغيرهم، من طرقٍ عن نُعيم بن حمَّاد ـ وهو الخزاعي ـ، ثنا الوليدُ بنُ مسلم، عن عبد الرَّحمٰن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوةَ، عن النَّواس بن سمعان، به مرفوعاً.
نعيمٌ فيه ضعفٌ، ولهُ مناكير، قال الذَّهبيُّ (السِّير ١٠/ ٦٠٩): «لا يجوز لأحدٍ أن يحتجَّ بهِ»، والوليد مشهور التَّدليس، وفي سماع رجاء بن حيوة من النوَّاس نظرٌ، ينظر: تاريخ دمشق (١٨/ ٩٦)، وقد قال الحافظ عبد الرَّحمٰن بن إبراهيم الملقَّب بدحيم في هذا الحديث: «لا أصلَ لَهُ»، ينظر: تاريخ أبي زرعة (ص٦٢١).

والإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة هي المذكورة في أوَّل الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى غير ذلك مما دلَّ عليه القرآنُ العزيزُ.

فالإرادة الكونيَّة القدريَّة عامَّةٌ في حَقِّ الكافرِ وغيرِ الكافرِ، وأمَّا الإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة فهي خاصَّةٌ بأهل الإيمان.

فإن قلت: هل في هذا عذرٌ للجهميَّة ونحوهِم، الذين يقولون: إنَّ العبدَ مجبورٌ على أفعالِهِ، وأنَّهُ كالشَّجرة تُقلِّبها الرِّياح يمنةً ويسرةً؟!

فيكون ما ارتكبه المرء من جرائم هو معذورٌ فيها؛ لأنَّ هذا شيءٌ مقدَّرٌ عليه، وما قدَّرَ اللهُ لا يمكن أن يتخلَّص الإنسانُ منهُ؛ لأنَّ قدرة الله أعمُّ وأشملُ وأقوى من إرادة الإنسان؟!

نقول: لا، هذا وإن قالَهُ الجهميَّة لكن لو قيل بهذا القول لبطلت التَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ ولم يبق في الشَّريعة أيُّ تكليف، لكن نقول: الله ـ سبحانه ـ خلقك وجعل لك عقلاً تميِّز به بين الأشياء، وجعلك تختار به ما هو الأصلح لك في دينك ودنياك، وما هو الأوفق لك في شؤونك ومعادك ومعاشك، حتَّى في أمور دنياك، ولم يخلقك بدون عقلٍ، ولكن أنت الذي ارتكبت هذه الجريمة برغبةٍ منك واختيار؛ لأنَّ الله خلقك وخلق لك عقلاً وبيَّن لك الضَّلالَ والطَّريقَ السَّويَّ، فأنت الذي اخترت هذا الطَّريقَ الضَّالَّ المنحرفَ، والله لم يجبرك عليه، إنَّما أخبرك وأمرك ونهاك وأرسل إليك الرُّسلَ وأنزلَ لك الكتب ولكن أنت الذي فعلت هذا، فأنت المسؤول؛ لأنَّ هذا صدر منكَ برغبةٍ واختيارٍ دُون إكراهٍ، وممَّا يبيِّن هذا ـ أيضاً ـ ويوضِّحه ما جرى في قصَّة عمر ﷺ، فإنَّهُ رُفِعَ إليه سارقٌ سرقَ، فأمر عمر ﷺ بقطعِ يدِهِ، فقال السَّارقُ: «يا أمير المؤمنين، لِمَ تقطع يدي؟!».

قال: «لأنَّك سرقتَ».

قال السَّارق: «يا أمير المؤمنين سرقتُ بقضاء الله وقدره، فالله قدَّر عليَّ هذا قبل أن يخلقني».

قال عمر: «ونحن نقطع يدك بقضاء الله وقدره»(١).

فاحتجَّ بالقدر واحُتجَّ عليه لإقامة الحدِّ بالقدر ـ أيضاً ـ، نظير ما احتجَّ به سواء بسواء، ممَّا يدلُّك على أنَّ احتجاجه ليس بشيء.

فإذا قالَ قائل: هذا الأمر قُدِّرَ عليَّ.

نقول له: إذن ينبغي أن تصعد هذا الجبل وتلقي بنفسك، وتقول: قُدِّرَ عليَّ.

يقول: لا؛ لأنَّ في هذا تلفي.

نقول: ـ أيضاً ـ ذاك فيه تلفُ دينك، وعصيان ربِّك.

وأمَّا قولهم: هل الإنسان مخيَّرٌ أم مسيَّرٌ؟

نقول: الإنسان مخيَّرٌ ومسيَّرٌ، مخيَّرٌ من جهة فعلِهِ، ومسيَّرٌ من جهة أمرِ الله، لكن هو الذي فعل هذا باختيارِهِ، فسلكَ هذا الطَّريق مع قُدرته أن يسلك الطَّريق الآخر.

(إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلَّم بالوحي)؛ أي: تكلَّم ـ سبحانه ـ في السَّماء؛ فإنَّ الله يتكلَّم حقيقةً كما يليق بجلاله، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، كما نقول نظير هذا في سائر الصِّفات التي أثبتها لنفسِهِ، مع نفي المشابهة لخلقِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

(أخذت السَّماواتِ منه رجفةٌ): **(السَّماوات)** مفعولٌ، و**(رجفة)** فاعل، هذا يدلُّ على أنَّ لها إحساساً وشعوراً، لكن قد نصِلُ إليه وقد لا نصِلُ، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾ [الحج: ١٨]، وفي آية الرَّعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝١٥﴾ [الرعد: ١٥]، كُلُّ هذا

---

(١) لم أقف على هذه الحكاية مسندةً، وإنَّما ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في المنهاج (٣/ ٢٣٤) فقال: «ويُذكر أنَّ رجلاً...».

يدلُّ على أنَّ لها إحساساً، وأنَّها تعرِفُ خالقها وبارئها، حتَّى الحيوانات تعرِفُ ذلك، ألا ترى أنَّه في قصَّة سليمان ﷺ حينما خرجَ يستسقي؛ كما في الحديث، قال: «**فرأى نملةً مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السَّماء تقول: اللَّهُمَّ إنَّا خلقٌ من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك!**

قال سليمان: ارجعوا فقد كُفيتم بدعوة غيركم!»[(١)].

فإنَّ البهائم لها إحساس، تعرِفُ أنَّ لها خالقاً ومُوجداً أوجدها، ألا ترى البهيمة إذا أخذتها الولادة أو حَزَبَهَا شيءٌ رفعَتْ بصرَهَا إلى السَّماء؛ لعِلمها أنَّ خالقها وفاطرها ومفرِّج كربتها في السَّماء، هذا أمرٌ معلومٌ معروفٌ.

وفي الحديث فوائد:

الأولى: إثباتُ الإرادةِ لله، كما سبق ذكره.

الثَّانية: إثباتُ الكلامِ لله.

الثَّالثة: إثباتُ الصَّوت لله، لكن ليس كصوت المخلوقين.

الرَّابعة: فيه فضلُ جبريلَ ﷺ، فهو السَّفيرُ بين الله ورسله، وهو شديدُ القوى، وقد أثنى الله عليه في القرآن فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

---

(١) رواهُ الدَّارقطنيُّ (١٧٩٧)، والحاكمُ (١/ ٤٧٣) وغيرهما من حديث محمَّد بن عون مولى أم يحيى بنت الحكم، عن أبيه، عن الزُّهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رفعه: «خرج نبي من الأنبياء...» فذكرَهُ.
محمَّدٌ وأبوه ثقتان، ينظر: سؤالات البرقاني (ص٥٤ ـ ٦١)، إلَّا أنَّ عوناً لم يسمع من الزُّهري، ينظر: التَّاريخ الكبير (٧/ ١٦).
ورواه الإمام أحمد (الزُّهد ص٧٣)، وابن أبي شيبة (١٥/ ٢٥٣) (٣٠١٠١)، والطبرانيُّ في الدُّعاء (٩٦٨) من حديث زيد العمي، عن أبي الصِّدِّيق النَّاجي، به.
زيدٌ ضعيفٌ، وأبو الصِّدِّيق تابعيٌّ ثقةٌ، تكلَّمَ فيه بعضهم، وقال الإمامُ أحمدُ وشيخُهُ وكيعٌ: «زيدُ العمي عن أبي الصِّدِّيق ليس بشيء»، ينظر: العلل (٣/ ٤٦٤) (٥٩٨٣)، الطَّبقات لابن سعد (٧/ ٢٢٦)، الضُّعفاء للعقيليِّ (٢/ ٧٤)، الميزان (٢/ ١٠٢).

واسمُ جبريل: (عبد الله)، وقالوا: كُلُّ اسمٍ خُتِمَ بإيل فهو عبد لله؛ لأنَّ (إيل)؛ يعني: الله.

وهنا نكتة في استفتاح النبيِّ ﷺ في صلاة اللَّيل فإنَّهُ يستفتح بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السَّماوات والأرض، عالم الغيب والشَّهادة، أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[1].

معلومٌ أنَّ الله ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكهُ، فَلِمَ خصَّ الرَّسولُ ﷺ بالذِّكر جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ دون بقيَّة الملائكة؟ ودون بقية المخلوقين؟

نقول: في هذا نكتة، وذلك أنَّك إذا كنت تُصلِّي فأنت تطلب حياة قلبك؛ فإنَّ الصَّلاة تغذي القلب وتنيره بالإيمان باللُّجوء إلى الله، والالتفات إلى خالقك وبارئك؛ فذكرُ جبريلَ؛ لأنَّهُ أمين الوحي، والوحيُ فيه حياةُ القلوب، وحياة الأرواح، فهو الذي جاء بالنُّور المحيي للقلوب: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وهو: الوحي.

وذكرُ ميكائيلَ؛ لأنَّهُ موكَّلٌ بالأمطار وإنبات النَّباتات التي فيها حياة الأبدان، فالأبدان محتاجةٌ للأكل والشُّرب.

وذكرُ إسرافيلَ؛ لأنَّهُ موكَّل بالنَّفخ في الصُّور، وفيه حياة الأجسام بعد وفاتها، فالثَّلاثة كُلُّهم خُصُّوا بنوع من الحياة، هذا بحياة القلوب، وهذا بحياة الأبدان في الدُّنيا، وهذا بحياة الأجسام في الآخرة، عندما يُنفخ في الصُّور فيقوم النَّاسُ من قبورهم حفاةً عراةً غُرلاً.



(١) رواهُ مسلمٌ (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بابُ
الشَّفاعةِ

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] الآيتين.

قال أبو العبَّاس: «نفى اللهُ عمَّا سواه كُلَّ ما يتعلَّق بهِ المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملكٌ أو قسطٌ منهُ، أو يكون عوناً لله، ولم يبقَ إلَّا الشَّفاعة، فبيَّنَ أنَّها لا تنفع إلَّا لمن أذن له الرَّبُّ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشَّفاعة التي يظنُّها المشركون هي منتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبيُّ ﷺ أنَّهُ يأتي فيسجدُ لربِّهِ ويحمدُهُ، لا يبدأ بالشَّفاعة أوَّلاً، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: **(ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع)**.

وقال له أبو هريرة: من أسعدُ النَّاس بشفاعتك يا رسول الله؟

قال: «**من قال: «لا إله إلَّا الله» خالصاً من قلبه**»، فتلك الشَّفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقتُهُ: أنَّ الله ـ سبحانَهُ ـ هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليُكرمَهُ وينال المقام المحمود.

فالشَّفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شركٌ، ولهذا أثبت الشَّفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّها لا تكون إلَّا لأهل التَّوحيد والإخلاص». انتهى كلامُهُ.



بابُ
الشَّفــاعــةِ

الشَّفاعَةُ شفاعتان: شفاعةٌ منفيَّةٌ، وشفاعةٌ مثبتةٌ.

أمَّا المنفيَّة: فهي التي نفاها القرآن ونهى عنها الرَّبُّ، وأخبر أنَّ فيها شركاً.

والمثبتة: هي التي أثبتها الله بإذنه، فالأنبياء والصَّالحون يشفعون ولكن بعد إذن الله لهم.

والشَّفاعة المنفيَّة: جاءت في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

أمَّا الشَّفاعة المثبتة: فهي التي أثبتها القرآن تكرمةً للشَّافع بأن يشفع للعصاة أن يدخلوا الجنَّة، أو لمن دخلَ الجنَّة أن يزاد له في الثَّواب، ورفع الدَّرجات، وهي إحسان للمشفوع لَهُ.

والشَّفاعة الشِّركيَّة: هي ما يفعله عبَّاد القبور، حيث يقولون: «إنَّا نطلبُ الشَّفاعة من فلانٍ الولي، أو من فلانٍ النبي، أو من الملَكِ»، وهذا هو الشِّركُ بعينِهِ؛ لأنَّ طلب الشَّفاعة في الحقيقة هو دعاءٌ، فلا يجوز صرفُهُ إلَّا لله، ثُمَّ في هذا تنقُّصٌ لجنابِ الرُّبوبيَّة، وهم يقولون: «هذا تعظيمٌ للإله؛ لأنَّنا لا نصِلُ إليه لكمال عظمَتِهِ، ولكثرَةِ ذنوبنا ومعاصينا التي أبعدتنا عنه، فنحن محتاجون إلى من يشفع عندَهُ ويرفع حوائجنا إليه».

نقولُ لهم: أخطأتم، هذا عين التنقُّص لله، فالمشفوعُ عندَهُ من الملوك ونحوهم يقبل شفاعة الشفيع لأمور:

إمَّا أن يكون محتاجاً إليه، كالملك يقبلُ شفاعة الوزير أو شفاعة من عزَّ عليه، وذلك لحاجته إليه، فلو ردَّ شفاعته لرُبَّما تنكَّر عليه هذا الوزير، أو تنكَّر

عليه هذا الرَّئيس، فلا يُخلِصُ لَهُ، ولا يُوليه الاهتمام، والرَّبُّ منزَّهٌ عن هذا، فهو الغنيُّ بذاته عن الوزير، وعن كُلِّ خلقِهِ، أمَّا الملِكُ فهو فقيرٌ محتاجٌ لأعوانه ووزرائه، فرُبَّما قَبِلَ شفاعتَهُم على كُرْهٍ ومَضَضٍ، لا يستطيع أن يخالفهم لحاجتِهِ إليهم، فهل مثل هذا يكون في حقِّ الله، كيف يساوى الله بالمخلوقين؟!

أو أن يريد الملكُ بقبول شفاعة الشَّافع التقرُّبَ إلى هذا الشَّافع، والرَّبُّ منزَّهٌ عن هذا، ولهذا قياسُ شفاعة الأنبياء والأولياء والصَّالحين عند الله على شفاعة الوزراء عند الملوك قياسٌ باطلٌ، مع الفارق الواضح البيِّن، أيُجعلُ ربُّ العالمين الذي بيدِهِ النَّفعُ والضرُّ وبيدِهِ الرِّزقُ والخلقُ والتَّدبيرُ نظير هذا الضعيف المسكين الفقير المحتاج لجندِهِ والمحتاج إلى وزرائه؟! هذا هو الضَّلالُ بعينِهِ.

لهذا لا يجوزُ أن نطلب الشَّفاعة من غير الله، وإنَّما نقولُ: «اللَّهُمَّ شفِّعْ فينا نبيِّكَ، اللَّهُمَّ لا تحرمنا شفاعتَهُ».

ألا ترى أنَّ المسلمين عندما يقومون يصلُّون على الطفل الصَّغير يقولون في دعائهم: «اللَّهُمَّ اجعله ذخراً لوالديه وفَرَطَاً وأجراً وشفيعاً مجاباً»[(١)]، تسألُ الله بأن يجعل هذا شفيعاً لوالديه، ولا تطلب من الفرط أن يكون شفيعاً لوالديه، إنَّما تطلب من الله.

ثُمَّ نحن نشفع للميِّت حينما نُصلِّي عليه ولو كان وليَّاً أو صالحاً كما أخبرنا النبيُّ ﷺ: «**ما من مسلم يموت يقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلَّا شفَّعهم الله فيه**»[(٢)]، فدلَّ على أنَّ الأحياء هم الذين يشفعون للميِّت، ونقول: «اللَّهُمَّ اغفر له وارحمه، وعافِهِ واعفُ عنهُ»، لكنَّهم عكسوا القضيَّة، فطلبوا من هذا الميِّت أن يشفع لنا، وكبرت كلمةً تخرج من أفواههم، إن يقولون إلَّا كذباً.

---

(١) مضى تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

والشَّفاعة أقسامٌ منها: شفاعةُ النبيِّ ﷺ، وهي الشَّفاعة الكبرى.

وكذلك شفاعة الرَّسول ﷺ والأنبياء والصَّالحين لأصحاب الكبائر الذين استحقُّوا أن يدخلوا النَّار بجرائمهم وذنوبهم ألَّا يدخلوها.

وشفاعتهم لمن دخل النَّار وعُذِّبَ فيها أن يُخرجَ منها ويُدخل الجنَّةَ، خلافاً للمعتزلة والخوارج، الذين ينكرون أنَّ أصحاب الكبائر تنالهم شفاعة النبيِّ ﷺ، وشفاعة الصَّالحين؛ لأنَّهم يرون: أنَّهم خالدون مخلَّدون في النَّار.

وكذلك نقرُّ بأنَّ أهل الجنَّة يُشفع لهم بزيادة درجاتهم، ورفع منازلهم، كما يأتي بيانه.

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿وَأَنذِرْ﴾؛ أي: أعلِم، ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهم: المؤمنون، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، لا ولاية لهم تجيرهم من عذاب الله، ولا شفاعة تمنعهم من عقاب الله، فالشَّفاعة هنا منفيَّةٌ، فما ينفعهم إلَّا الإيمانُ بالله والعمل الصَّالح، شفاعة فلان وفلان لا تنفعهم، لا ننكر الشَّفاعة، إلَّا أنَّ الشَّافع لا يشفع إلَّا بعد إذن الرَّبِّ أن يشفع، ثُمَّ إنَّ الرَّبَّ لا يأذن لأحدٍ إلَّا لمن رضيَ قولَهُ وعملَهُ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا يرضى الله إلَّا التَّوحيد.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾ لعلَّهم يُنيبون ويرجعون إلى ربِّهم بالإيمان والعمل الصَّالح، قال الفضيل: «ليسَ كُلَّ خلقِهِ عَاتَبَ، وإنَّما عاتبَ الذين يتَّقونَ ويفقهُونَ»(١).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٤/١٢٩٧).

۞ وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أي: لا أحد يشفع لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلَّا بعد إذن الله له، وفي الحديث الذي رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ(١) في قصَّة مجيء النَّاس للنَّبيِّ ﷺ يطلبون منه أن يشفع لهم حتَّى يحاسبهم الرَّبُّ فيستريحوا من كربِ ذلك الموقف، والحديثُ معروفٌ: «**يأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، وأنت الذي خلقك الله بيدِهِ، وأنت الذي أسجد لك ملائكته، وأنت الذي نفخَ فيك من روحه، فاشفع لنا عند ربك حتَّى يريحنا من كرب هذا الموقف، فيعتذر آدم** ﵇**، ويذكر أكلَهُ من الشَّجرة، وقد نُهي عن الأكل منها.**

ثُمَّ يأتون نوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى حتَّى ينتهوا للنبيِّ ﷺ**، فيقول: أنا لها، أنا لها، فيخرُّ ساجداً بين يدي الله تحت العرش، فيُفتح عليه بمحامد لا يحسنها الآن، ثُمَّ يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفَعْ تُشفَّعْ**»، لاحظ قول الله لَهُ: «**واشفعْ تُشفَّعْ**»، دلَّ على أنَّهُ لا يشفع حتَّى يأذن الله له، وهذا معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ فالشَّافع لا يملك الشَّفاعة، ولا يجوز لك أن تأتيه، وتقول: «يا رسول الله اشفع لي»، وإنَّما تطلبها من الله؛ لأنَهُ لا يتمكَّن أن يشفع لك ولا لغيرك إلَّا بعد أن يأذن الله له في ذلك، فإذا أذنَ له في ذلك شَفَعَ، وبهذا يتَّضحُ أنَّ طلبَ الشَّفاعةِ من غير الله شركٌ.

وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، يدلُّ على أنَّهم اتَّخذوا

(١) صحيح البخاري (٤٤٧٦)، صحيح مسلم (١٩٣) من حديث أنس ﵁.

أولياء من دون الله يرجون شفاعتهم؛ هذا شرك المشركين بعينه، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

كُلٌّ هذا يدلُّ على أنَّ الإنسان يقطعُ العلائق عن جميع الخلائق ويتَّصل بالله ـ سبحانه ـ في طلب المدد، وتفريج الكربات، وإغاثة اللَّهفات، أمَّا أن تطلب ذلك من المخلوق فهذا لا يجوز؛ بدليل هذه الآيات.

۞ وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم: ٢٦].

(كم) هذه خبريَّةٌ، والخبريَّةُ تجرُّ الاسم الذي بعدها، بخلاف (كم) الاستفهاميَّة؛ فإنَّها تنصب ما بعدها على التَّمييز.

والمعنى: أنَّ الملائكة كثيرون، ومع هذا لا يشفعون لأحدٍ إلَّا بعد إذن الله لهم، وهم لا يملكون لأحدٍ نفعاً ولاضرَّاً، إلَّا بإذن الله، ثُمَّ إنَّ الله لا يأذن إلَّا لمن رضي قوله وعمله كما في الآية.

ومثال (كم) الخبريَّة: (كم عبدٍ ملكتَ)، بمعنى: أنَّ العبيد الذين ملكتهم كثير.

و(كم) الخبريَّة هي التي جيء بها لغرض التَّكثير والتَّعظيم، وهي تجرُّ الاسم الذي بعدها، قال الحريريُّ:

واجررْ بكم ما كنت عنه مخبراً   معظِّماً لقدرِهِ مُكثِّراً[1]

ومثال (كم) الاستفهامية: (كم درهماً عندك؟)، ولا تقول: (كم درهمٍ عندك)؛ لأنَّ (كم) هنا استفهاميَّة، يسألك عن عدد الدَّراهم التي عندك، فـ(درهماً): تمييزٌ؛ لوقوعه بعد (كم) الاستفهاميَّة.

وقد دلَّت الآية على أنَّ الشَّفاعة لا تحصل إلَّا **بشرطين**:

الشَّرطُ الأوَّلُ: أن يأذنَ اللهُ للشَّافع أن يشفعَ.

الشَّرطُ الثَّاني: أن يرضى الله قولَ المشفوعِ لَهُ وعملَهُ.

فهي تكريم للشَّافع، وتنويهٌ بمنزلته عند الله، وتنويهٌ برضاه عن المشفوع له.

والمشركون ـ في الجملة ـ لا يعتقدون في معبوديهم أنَّهم يملكون النَّفعَ

(١) الملحة (ص٢٥).

والضرَّ، وإنَّما يعتقدون أنَّهم وسطاء، وأنَّهم شفعاء لهم عند الله، هذا هو اعتقادُهم، وإن كان يُوجد بعض أصناف العرب يعتقدون أنَّ آلهتهم تنفعُ وتضرُّ، لكن هذا كُلُّهُ باطلٌ، لا أصلَ لَهُ؛ كما دلَّ عليه القرآن العزيز، وكما دلَّت عليه السُّنَّةُ النَّبويَّةُ، وكما عليه عقيدةُ المسلمين من لَدُن الصَّحابة ومن بعدهم إلى يومنا هذا، فما نُقل عن الصَّحابة البتَّة أنَّهُ يأتي أحدهم إلى قبر الرَّسول وسيِّد الخلق ﷺ ويقول: «يا رسول الله اشفع لي، يا رسول الله ارفع حاجتي إلى الله، أنت الواسطة بيني وبين الله!».

ولو بقيت عمرَ نوح تُفتِّشُ: هل كان أحدٌ من الصَّحابة إذا وقع في محنةٍ أو ألمَّت به مُلِمَّةٌ أو كان في كُربةٍ يصنع هذا؟ فلن تجد هذا أبداً، لا في خبرٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ بل ولا موضوعٍ؛ فإنَّهم يروون أحاديث كُلُّها ضعيفةٌ أو موضوعةٌ وعلى تقدير صِحَّتها لا تدلُّ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ تُطلَبُ منه الشَّفاعةُ ويُطلَبُ منه المدَدُ ويُطلَبُ منه أن يكونَ واسطةً بين العبد وبين الله.

۞ وقـولـه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [سبأ: ٢٢].

قال أبو العبَّاس: «نفى اللهُ عمَّا سواه كُلَّ ما يتعلَّق بهِ المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملكٌ أو قسطٌ منهُ، أو يكون عوناً لله، ولم يبقَ إلَّا الشَّفاعة، فبيَّنَ أنَّها لا تنفع إلَّا لمن أذن له الرَّبُ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشَّفاعة التي يظنُّها المشركون هي منتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّهُ يأتي فيسجدُ لربِّهِ ويحمدُهُ، لا يبدأ بالشَّفاعة أوَّلاً، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: «**ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع**».

وقال له أبو هريرة: من أسعدُ النَّاس بشفاعتك يا رسول الله؟

قال: «**من قال «لا إله إلَّا الله» خالصاً من قلبه**»(١)، فتلك الشَّفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقتُهُ: أنَّ الله ـ سبحانَهُ ـ هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشَّفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شركٌ، ولهذا أثبت الشَّفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّها لا تكون إلَّا لأهل التَّوحيد والإخلاص». انتهى كلامُهُ(٢).

كلامُ شيخِ الإسلام ابن تيميَّة الذي نقلَهُ المصنِّفُ هو على آية سبأ، في

(١) رواهُ البخاريُّ (٩٩).

(٢) ينظر: اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ٣٥٩)، الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٨)، مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٢٤).

قوله ـ تعالى ـ: (﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾)، ما دام أنَّهُ لا يملك حتَّى ولا ذرَّة فكيف تطلب منه الشَّفاعة؟! وكيف يُدعى ويُرجى ويُستغاث بهِ ويُطلب منه المددُ ويُجعل مساوياً لله ﷻ؟!

فنقول لمن كان يعبد عبد القادر أو الدُّسوقي أو أحمد البدوي أو ما أشبههم: إنَّهُم قومٌ لا ينفعون ولا يضرُّون.

لو قال: أنا أدعوهم وأسألهم وأستغيث بهم لمكانتهم عند الله.

نقول له: هل يملكون مثقالَ ذرَّة في السَّماوات أو في الأرض؟!

يقول: لا.

نقول: إذا كانوا عاجزين عن ملك مثقال ذرَّة في السَّماوات أو في الأرض فكيف تسألهم، وتستغيث بهم، وتطلب منهم المدَدَ؟! تساويهم بمن بيدِهِ الخلقُ والرِّزقُ والتَّدبيرُ؟! هذا هو الكفرُ بعينِهِ.

ثُمَّ نقول له: هل لهم شِركٌ في مثقال ذرَّةٍ؟!

يقول: لا.

نقول له: هل هم مشيرون لله معاونون له، كما أنَّ الملك يستشيرُ وزراءه ويطلب الإعانة منهم في تدبير الأمور؟!

يقول: لا، الرَّبُّ غنيٌّ عنهم.

نقول: كيف تجعلهم في رتبة الله؟!

يقول: أنا أطلبهم ليشفعوا لي، وإلَّا فأنا أعرف أنَّهم لا يملكون في السَّماوات ولا في الأرض مثقال ذرَّةٍ، ولا أعتقد أنَّ لهم شركاً ولا في مثقال ذرَّة، ولا أنَّهم معينون لله ومستشارون له، إلا أنِّي أطلبُ منهم الشَّفاعة.

نقولُ لَهُ: هل يشفعون بغير إذن الله أو لا بُدَّ من إذن الله؟

فإن قال: يشفعون من غير أن يأذن الله لهم.

نقولُ لَهُ: هذا عينُ شرك المشركين الأوَّلين، سواء بسواءٍ.

وإن قال: لا بُدَّ من إذن الله؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

نقولُ لَهُ: إذن اطلب الشَّفاعة من الله، لا منهم، بما أنَّهم لا يملكون الشَّفاعة، ولا يشفعون إلَّا بعد إذن الله لهم، فاطلبها من الله وحده.

ثُمَّ نقول: وهل يأذن الله للشَّافع أن يشفع لغير أهل التَّوحيد؟ أنت لست بموحِّدٍ.

فإن قال: أنا موحِّدٌ.

نقول له: ما هو التَّوحيد؟ أليسَ التَّوحيدُ: إفراد الله بالتعلُّق؟ فإن تعلَّقت بأحمد البدوي لم تكُنْ موحِّداً؛ لأنَّ التَّوحيدَ هو: إفرادُ الله بالعبادة، فأنت أفرِد الله بالعبادة، ثُمَّ اطلب منه أن يُشفِّعَ فيك نبيَّه أو يُشفِّعَ فيك هذا الرَّجلَ الصَّالحَ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ويقول: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، فإذا أذِنَ اللهُ لَهُ ورضيَ قولَهُ شفعَ؛ كما في الآية، والله لا يرضى إلَّا التَّوحيدَ، فعند ذلك يَبطلُ قولُهُ ويُسلِّم؛ لأنَّهُ رُدَّ عليه بالحججِ والأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ والعقليَّةِ.

والشَّفاعة التي جاءت بها الأحاديث الثَّابتة **ستُّ شفاعات**:

الشَّفاعة الأولى: هي الشَّفاعة الكبرى، لا تكون إلَّا لَهُ ﷺ؛ وذلك أنَّ النَّاسَ إذا قاموا من قبورِهِمْ حفاةً عراةً غرلاً كيومِ ولدتهُم أُمَّهاتُهُم، دَنَتْ منهم الشَّمسُ وألجمهم العرَقُ فيجتمعون في صعيدٍ، ينتظرون الرَّبَّ لفصل القضاء، فيطولُ بهم المقام، فيأتون آدم ويقولون له: «**أنت أبو البشر، وأنت الذي خلقك الله بيده، وأنت الذي أسجد لك ملائكته، وأنت الذي نفخ فيك من روحه، فاشفع لنا عند ربِّك حتَّى يريحنا من كرب هذا الموقف.**

فيذكر أكله من الشَّجرة، ويعتذر.

ثُمَّ يأتون نوح ويقولون: أنت عبدٌ غفر الله لك، وسمَّاك عبداً شكوراً، فاشفع لنا عند ربِّك حتَّى يريحنا من كرب هذا الموقف، فيعتذر ويذكر خطيئته.

وكذلك إبراهيم وموسى عليهما السلام**، فيأتون إلى عيسى** عليه السلام**، فيعتذر إلَّا أنَّهُ لم**

يذكر خطيئة، ويقول: ائتوا محمَّداً ﷺ، قال الرَّسولُ ﷺ: فيأتون إليَّ فأقول: أنا لها أنا لها، فأخِرُّ ساجداً بين يدي الله تحت العرش، ويُفتح عليَّ بمحامد لا أحسنها الآن، ثُمَّ يقال لي: ارفع رأسك، وقُل يسمع، وسَلْ تعطه، واشفع تُشفَّع»(١)، هذه الشَّفاعة خاصَّة به ﷺ.

الشَّفاعة الثَّانية: هو أنَّهُ ﷺ يشفع لأهل الجنَّة أن يدخلوا الجنَّة، فأوَّل من يستفتحُ باب الجنَّة هو محمَّدٌ ﷺ، وذلك بعد تجاوزهم الصِّراط.

الشَّفاعة الثَّالثة: يشفع ﷺ لأناسٍ لهم جرائم ومعاصي أن يدخلوا الجنَّة، فيقبل الرَّبُّ شفاعته، فيدخلهم الجنَّة دون عذاب.

الشَّفاعة الرَّابعة: يشفع ﷺ لقوم من عصاة هذه الأُمَّة دخلوا النَّار وصاروا من أهلها أن يُخرجوا منها.

الشَّفاعة الخامسة: هو أنهُ ﷺ يشفع لمن دخل الجنَّة أن يزاد في درجتِهِ، وأن تُرفع منزلتُهُ.

الشَّفاعة السَّادسة: شفاعتُهُ ﷺ لأناسٍ استحقُّوا النَّار أن يُخفَّفَ عنهم، لكن هذه خاصَّةٌ بعمِّهِ أبي طالب؛ فإنَّهُ كانَ في الدَّرك الأسفل من النَّار لكن بشفاعتِهِ ﷺ أُخرِجَ إلى ضحضاحٍ من النَّار، يلبس نعلين من نار يغلي منهما دماغُهُ(٢)، هذه هي الشَّفاعات الثَّابتة للنبيِّ ﷺ.

وأصل الشَّفاعة ليس للرَّسولِ ﷺ خاصَّة، بل هي للرُّسل والصَّالحين، فالله يقبل شفاعة المسلمين للرَّجل العاصي فيدخله الجنَّة، ألا ترى أنَّنا إذا قُمنا نصلِّي على الميِّت نقولُ: «اللَّهُمَّ اغفر له وارحمه وعافِهِ واعفُ عنهُ وأكرم نزله ـ يعني: ضيافته ـ(٣) . . .» إلى آخر الدُّعاء المعروف، فهذه شفاعة منَّا عند الله بدعائنا، كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«ما من مسلم يموت ويقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلَّا شفَّعهم الله فيه»**(٤).

---

(١) مضى تخريجه قريباً.
(٢) رواهُ البخاري (٣٨٨٥)، ومسلمٌ (٢١٠) من حديث أبي سعيد ﷺ.
(٣) رواهُ مسلمٌ (٩٦٣) من حديث عوفِ بن مالكٍ ﷺ.
(٤) سبق تخريجه.

بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص: ٥٦]

وفي «الصَّحيح» عن ابن المسيَّب، عن أبيه قال: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءَهُ رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أُميَّة وأبو جهلٍ، فقال له: «**يا عمِّ، قل: «لا إله إلَّا الله»، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله**».

فقالا له: أترغبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟!

فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا فكان آخر ما قال: «هو على ملَّة عبد المطَّلب» وأبى أن يقول: «لا إله إلَّا الله».

فقال النبيُّ ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنكَ**»، فأنزل اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

وأنزل اللهُ في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].





بابُ
قولِ اللَّهِ تعالى:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص: ٥٦]

قصد المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه التَّرجمة الرَّدَّ على من قال: إنَّ الرَّسولَ ﷺ ينفع ويضرُّ، قالَهُ الشَّارِحُ(١)، ولكن الذي يظهر خلاف هذا، وأنَّ المصنِّف ذكرَ هذه التَّرجمة عقب التَّرجمة التي قبلها قصداً؛ لأنَّ التَّرجمة التي قبلها: (باب الشَّفاعة)، وقد سبق أنَّ الشَّفاعةَ حقٌّ، فالأنبياء يشفعون، والصَّالحون يشفعون، والأفراط يشفعون، فنبَّه بهذه التَّرجمة أنَّ الرَّسولَ ﷺ حرص على الشَّفاعة لعَمِّهِ بعد أن يقول: «لا إله إلَّا الله»، وحرص على هدايته، ولكن لم يستطع أن يشفع له؛ لأنَّ الله لم يأذن له في ذلك، ولأنَّ أبا طالب لم يكُنْ ممَّن رضيَ اللهُ قولَهُ وعملَهُ، بل هو من جملة المشركين، هذا وجه ذكر هذه التَّرجمة عقب التَّرجمة السَّابقة.

والهداية تنقسم إلى قسمين:

القسمُ الأوَّلُ: هدايةُ بيانٍ وإرشادٍ، وهذه لا إشكال فيها، فهي ثابتةٌ للنبيِّ ﷺ ولغيرِهِ من الدُّعاة، فأنت إذا دعوتَ المسلمَ وغيرَهُ وأرشدتَهُ إلى ما خُلِقَ لَهُ، فقد أبنتَ لَهُ الطَّريقَ، وأرشدتَهُ إلى ما فيه صلاحُ دينِهِ ودنياه، فتكونُ قد هديته بمعنى: أرشدتَهُ ودللتَهُ على الطَّريق، وهذا معنى قولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: أنَّكَ تُرشِدُ وتُبيِّنُ وتوضِّحُ الطَّريقَ المستقيمَ.

القسمُ الثَّاني: هداية توفيقٍ وإلهام، وهي لله وحده، وهي التي نفاها الله تعالى عن الرَّسول ﷺ في قولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٦١٥).

۞ وفي «الصَّحيح» عن ابن المسيَّب، عن أبيه قال: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءَهُ رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أُميَّة وأبو جهلٍ، فقال له: «**يا عمِّ، قل: «لا إله إلَّا الله»، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله**».

فقالا له: أترغبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟!

فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا فكان آخر ما قال: (هو على ملَّة عبد المطَّلب) وأبى أن يقول: «لا إله إلَّا الله».

فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنكَ**» فأنزل اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

وأنزل اللهُ في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

(**لما حضرت أبا طالب الوفاة**)؛ يعني: علامات الوفاة ومقدِّماتها.

جاءَهُ الرَّسولُ ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أميَّة وأبو جهل، فقالَ لَهُ: «**يا عمِّ** ـ كلمةُ استعطافٍ ـ، **قل «لا إله إلَّا الله»، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله**).

فقالا لَهُ: (**أترغبُ عن ملَّةِ عبد المطَّلب؟!**): ذكَّراه الحُجَّةَ الملعونةَ، وهي: تعظيمُ الأسلافِ والأكابر.

(**فقال: هو على ملَّة عبد المطَّلب**): هو قال: (**أنا على ملَّة عبد المطَّلب**)، لكن الرَّاوي غيَّرها؛ لأنَّهُ لفظٌ شنيعٌ، فقال: (**هو على ملَّة عبد المطَّلب**)، **وأبى أن يقول: (لا إله إلا الله)، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنكَ»**).

(١) رواهُ البخاريُّ (١٣٦٠)، ومسلمٌ (٢٤).

ففي هذا: مضرَّةُ أصحاب السُّوء على الإنسان، فإذا كان من يجالسك ومن يخالطك فيه دينٌ وخيرٌ، فإنَّك تنتفع بمجالستِهِ، وإذا كان من يجالسك ويخالطك لا خيرَ فيه فلا بُدَّ أن جَرَبَهُ ينتقلُ إليك، كما قيل:

إذا كنت في قوم فصاحِبْ خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الرَّدي
عن المرء لا تسلْ وسل عن قرينهِ ... فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي[١]

يُعرَفُ صلاحك وفسادك بمن تجالس وتخالل وتخالط وتذهب وتجيء معه، فإن كنت تذهب وتجيء مع شخصٍ فيه خيرٌ فإنَّا نعرف فضلك وخيرك ممَّن تخالطه وتجالسه، والعكسُ بالعكسِ، يقول أبو تمَّام:

لمَّا رأت أختها بالأمس قد خَرِبت ... صار الخرابُ لها أعدى من الجرَبِ[٢]

لمَّا صارَ في أختها شيءٌ من الخرابِ انتقلَ الخرابُ إليها، والخرابُ أعدى من الجرَبِ، فالإبلُ الصَّحيحَةُ السَّليمَةُ إذا خالطتها واحدةٌ جرباء، فإنَّ الجربَ ينتقلُ منها إلى الإبل الصَّحيحة، وكذلك مخالطة من لا خير فيه، فهذا أبو طالب تضرَّرَ بمخالطته لأبي جهل ـ فرعون هذه الأُمَّةِ ـ، وعبد الله ابن أبي أميَّة، في حين أنَّ النَّبيَّ ﷺ حرصَ على هدايته، ولكن هؤلاء بمجالستهم لَهُ ذكَّراهُ تعظيم الأسلاف والأكابر.

ومعلومٌ أنَّ أبا طالب كانَ يحِبُّ النَّبيَّ ﷺ، بل أيَّدَهُ، وناصرَهُ، وصبرَ على حصار الشِّعب من أجلِهِ.

وعندما نقرأ في سيرة الرَّسول ﷺ نجد أنَّ قومَهُ كانوا أشدَّ النَّاس عداوةً لَهُ، كأبي جهلٍ، وعبدِ الله بن أبي أميَّة، وعتبةَ بنِ ربيعة، وشيبةَ بنِ ربيعة، وأبي لهبٍ، وكثيرٍ من بني هاشم، هم أشدُّ النَّاس عداوةً لدينِهِ، وعداوةً لدعوتِهِ، حرصوا على تنفيرِ النَّاس منه في حين أنَّ طبيعة البشر إذا خرج في القبيلة رجلٌ فاضلٌ فرحوا به واتَّبعوه؛ لأنَّهم يشرفون بشرفِهِ، سواء كان شاعراً أو شجاعاً أو سخيَّاً كريماً، فإنَّ قبيلتَهُ تلتفُ حولَهُ، وتؤيِّدُهُ، وتُناصرُهُ، وتفتخرُ

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٧٩).
(٢) أخبار أبي تمَّام للصُّولي (ص١٠).

بِهِ، وتشرُفْ بشرَفِهِ، هذا هو المعهود في قبائل العرب كافَّةً بخلاف حال قريش مع الرَّسول ﷺ، فما الحكمة في ذلك؟

قال بعض العلماء: الحكمة أنَّ قريشاً لو اتَّبعته ﷺ، وقَبِلَتْ ما جاء به، لقالت العربُ: «رجلٌ شرُفَ به قومه، فيريدون الشَّرف به وبتعظيمه»، لكن صار قومه من أشدِّ النَّاس عداوة له حتَّى تتساءل العرب من كُلِّ مكانٍ: «ما هذا الرَّجل الذي رمتهُ عشيرتُهُ بقوسِ العداوة؟! ماذا يدعو النَّاسَ إليه؟!».

من أجل هذا قبائل العرب بعثت وفوداً إلى مكَّةَ للتعرُّف على حال هذا الرَّجلِ الذي طردته عشيرته وأبغضته وعادته، جاءت تلك الوفود فسمعوا القرآن، وسمعوا ما كان الرَّسولُ ﷺ يدعو النَّاس إليه، فأُعجبوا به، وحملوا هذا إلى قبائلهم، فصار ذلك أدعى لانتشار دعوتِهِ ﷺ، هذا هو السِّرُّ في ذلك.

ثُمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **(لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾** [التوبة: ١١٣])، وهذا مثل ما جرى لإبراهيم عليه السلام؛ فإنَّ إبراهيم استغفر لأبيه عن موعدةٍ وعدها إيَّاه، فلما تبيَّن لَهُ أنَّهُ عدوٌّ لله تبرأ منه.

وهذا يدلُّ على أنَّ أبا طالب مات على الكفر، خلافاً لمن قال: «إنَّ أبا طالب ماتَ على الإسلام، وأنَّهُ حين قال له الرَّسولُ ﷺ **(قل: «لا إلٰه إلَّا الله»)** أنَّهُ قالها ولكن بصوتٍ خفيٍّ»، هذا لا يثبت.

والرَّافضة تعظِّم أبا طالب، ويدَّعون أنَّهُ مسلمٌ، ويزورون قبرَهُ في مكَّة، وربَّما طلبوا منه الشَّفاعة، وتوسَّلوا به إلى الله ـ قبَّحهم الله ـ، وقد قال لنا بعض علماء مكَّة: «إنَّ الرَّافضة اتَّصلوا بأحمد زيني دحلان ـ وهو يعرف أنَّ أبا طالب مات على الكفر ـ، فبذلوا له مبلغاً كبيراً من المال ليُصنِّف لهم كتاباً في إسلام أبي طالب، فصنَّف كتاباً لهم سمَّاه: «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب»[1]،

(١) وهي رسالةٌ مطبوعةٌ، قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله في مقدِّمته لكتاب (صيانة الإنسان =

وأخذ مالاً مقابل تصنيفه هذا الكتاب»، في حين أنَّهُ يعرفُ أنَّ أبا طالب مات على الكفر!

وقد أنزل الله تسلية للرَّسولِ ﷺ في عدم إسلام عمِّهِ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].



= عن وسوسة الشيخ دحلان): «قال صاحب كتاب (البراهين القاطعة على ظلام الأنوار السَّاطعة) ـ المطبوع بالهند ـ: إنَّ شيخ علماء مكة في زماننا ـ قريب من سنة ١٣٠٣هـ ـ قد حكم ـ أي: أفتى ـ بإيمان أبي طالب، وخالف الأحاديث الصَّحيحة؛ لأنَّهُ أخذ الرِّشوة الربابي القليلة من الرَّافضي البغدادي.اهـ.

وشيخ مكَّة في ذلك العهد هو: الشيخ أحمد دحلان، الذي توفي سنة ١٣٠٤هـ، وصاحب الكتاب المذكور هو: العلَّامة الشيخ رشيد أحمد الكتكوتي، مؤلِّف (كتاب بذل المجهود شرح سنن أبي داود)، والخبر مذكور فيه...».

بابُ

ما جاء أنَّ سببَ كفر بني آدم وتركهم دينَهُم هو الغلوُّ في الصَّالحين

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

وفي «الصَّحيح» عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣] قال: «هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبد، حتَّى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلمُ، عُبِدَتْ».

وقالَ ابنُ القيِّم: «قال غير واحد من السَّلف: لمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثُمَّ صوَّروا تماثيلهم، ثُمَّ طال عليهم الأمَدُ فعبدوهم».

وعن عمرَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النَّصارى ابن مريم، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ**» أخرجاهُ.

وقال: قال رسول الله ﷺ: «**إيَّاكم والغلوَّ، فإنَّما أهلكَ من كانَ قبلَكُم الغلوُّ**».

ولمسلم عن ابن مسعودٍ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**هلك المتنطِّعون**»، قالَها ثلاثاً.

بابُ
ما جاء أنَّ سببَ كفر بني آدم وتركهم دينَهُم هو الغلوُّ في الصَّالحين

(الغلوُّ): مشتقٌ من الغليان، يُقال: «غلا القِدْرُ» إذا طاشَ، والمرادُ: مجاوزةُ الحدِّ، فكُلُّ إنسان يتجاوز الحدَّ فيما أُمِرَ به فقد غلا، وطغا، و**(الطغيان)**: مجاوزة الحدِّ ـ أيضاً ـ، قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]، وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢]؛ أي: لا تتجاوزوا الحدَّ ولا تزيدوا، فالشِّريعة عبادةٌ باقتصاد، والغلوُّ نهى الله عنه في قولِهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، وسبب الكفر هو: الغلوُّ في الدِّين، فأصلُ وقوع الشِّرك في بني آدم سببُهُ الغلوُّ في الصَّالحين؛ كما في قصَّة قوم نوح عليه السلام.

۞ وقول الله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وجه مطابقة الآية للتَّرجمة: أصلُ النَّهي عن الغلوِّ، لكن قد يقال: التَّرجمة في أنَّ سبب كفر بني آدم هو الغلوُّ في الصَّالحين، والآية ليست: «لا تغلوا في الصَّالحين»، بل: (﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾)؛ أي: لا تزيدوا في الصَّلاة، لا تزيدوا في الحجِّ، لا تزيدوا في الصَّوم، بل اقتصروا على ما جاءت به الشَّريعة، وإيَّاكم والغلوَّ.

الجواب: أنَّ محبَّةَ الصَّالحين دينٌ، نتقرَّبُ بمحبَّتهم إلى الله ﷻ، لما اتَّصفوا به من الخير والائتمار بما أمر الله، ولما اتصفوا به من الابتعاد عمَّا نهى الله عنه، ولما قاموا به من الدَّعوة إلى الله، فمحبَّتهم دينٌ، ولما كانت محبَّتهم ديناً فلا ينبغي أن نغلو في هذا الدِّين، الذي هو: محبَّةُ الصَّالحين، بأن نُعظِّمهم، ونصرف لهم ما هو حقٌّ لله ـ تعالى ـ، فيكون ذلك من باب الغلوِّ في الصَّالحين.

فإذا وقع منك شيء من ذلك فقد غلوتَ حينئذٍ، وخالفت مقتضى الآية، وتشبَّهت باليهود والنَّصارى الذين غلوا في دينهم، فاليهود غلوا في محبَّة عزير ـ وهو نبيٌّ ـ حتَّى جعلوه ابناً لله، والنَّصارى مأمورون باتِّباع عيسى ﷺ، وقد غلوا في محبَّته، أُمروا بمحبَّته والانقياد لما جاء به، ولكن لم يقفوا عند هذا، بل جعلوه هو الله أو ابن الله، تعالى عمَّا يقول الظالمون الجاحدون علوّاً كبيراً، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

۞ وفي «الصَّحيح» عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قول الله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣] قال: «هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتَّى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلمُ، عُبِدَتْ»(١).

(**في الصحيح**)؛ أي: في صحيح البخاريِّ.

ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر هذه أسماء رجال صالحين، كان قومهم يتأسَّون بهم؛ لكن لمَّا هلكوا واحداً بعدَ واحدٍ أسفوا عليهم، وحزنوا على فراقهم، فصاروا يتردَّدون إلى قبورهم؛ لأجل أن يتذكَّروا ما كانوا عليه من الخير، فجاءهم إبليس فقال: «إنَّ التَّردُّدَ للقبور فيه مشقَّةٌ، وفيه تعبٌ، فلو صوَّرتم صورهم، فنصبتموها في مجالسكم لكان أولى لكم؛ من أجل أن تتذكَّروا ما هم عليه من الخير»، عند ذلك صوَّروا صورهم، ونصبوها في مجالسهم، ومضى جيل هؤلاء الذين صوَّروا هذه الصُّور، فخلفهم جيلٌ آخر، وجاءهم إبليس وقال: «إن أوَّليكم لم يُصوِّروا هذه الصُّور إلَّا أنَّهم يستمطرون بأصحابها، ويستنصرون بهم على الأعداء، ويطلبون منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات»، فعند ذلك وقع الشِّركُ، فجعلوا يطلبون منهم الأمطار، ويطلبون منهم المدد، ويطلبون منهم شفاءَ المرضِ، وكشفَ الضُّرِّ، وهذا أوَّلُ شركٍ يقعُ في الأرض، كما قال ابن عبَّاس: «**بين آدم ونوح عشرة قرون، كُلُّهم على الإسلام**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٢٠).

(٢) أخرجَهُ الطبريُّ (٣/ ٦٢١)، والحاكمُ (٢/ ٤٨٠ - ٥٩٦).

لمَّا حصل هذا بعث الله نوحاً ﵇ يأمرهم بعبادة الله وحده، فأخبرهم أنَّ دعاءهم وعكوفهم عند قبور هؤلاء الصُّلحاء الخمسة شركٌ، وأنَّ هذا هو محضُ حقِّ اللهِ، وأنَّ هذه الأمور لا تطلب إلَّا من الله، فلم يستجيبوا لما جاء به نبيُّهم نوحٌ ﵇، بل مضوا على شركهم، وعلى ما قرَّرَهُ رئيسهم إبليس، فلمَّا مكث نوحٌ ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين عاماً يدعوهم وينذرهم ويحذِّرهم ويرغِّبهم، ويقولُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فأبغضهم وأبغضوه وملَّهم وملُّوهُ، قالوا له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢]، عند ذلك أمرَهُ الله بصنع السَّفينة، فصنعها، وتمَّ بناؤها؛ فركبها ومن آمن معه، وأمر الله الأمطار والأرض فأخرجت الماء، فعند ذلك أغرق اللهُ الأرضَ بالماء، ولم يبق إلَّا من كان مع نوحٍ في السَّفينة، فغرق أهلُ الأرض كُلُّهم، ولم تبقَ نفس إلَّا من كان مع نوح في السَّفينة.

والعصريُّون يقولون: «الطوفان لم يصل للصِّين، وإنَّ الصِّينيِّين موجودون من عهد آدم».

وقد ردَّ عليهم المحقِّقون، فقالوا: الطوفان عمَّ الأرضَ كُلَّها، وأهلك بني آدم كُلَّهم، إلَّا من كان مع نوح في السَّفينة، فلم يبق على وجه الأرض إلَّا من كان من ذرية نوح، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، فدلَّ على أنَّ الصِّين وغير الصِّين قد عمَّهم الطُّوفان وهلكوا، هذا قول أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، وذكره جمعٌ من المحقِّقين.

ولمَّا عمَّ الطُّوفانُ الأرضَ نقل هذه الأصنام وهي صور هؤلاء الصلحاء الخمسة حتَّى ألقاها في ساحل جدَّة، وغطَّتها الرِّمال واختفت، حتَّى جاء إبراهيم ﷺ فأمر النَّاس بعبادة الله، فكانوا على دينٍ مستقيم، ثُمَّ بعد إبراهيم جاء عمرو بن لُحي الخزاعي ـ وهو سيِّدُ خزاعة، وعنده مالٌ كثيرٌ، ومن كثرة ماله أنَّ الإبل التي خدش عينها نحو ألف بعير، وكانت عادة العرب إذا بلغ عند الرَّجل ألف بعير فإنَّهُ يخدش عين واحد من الذُّكور، كُلُّ ألفٍ يقابلها واحد تخدش عينه؛ لأجل ألَّا تصاب الإبل بشيء ـ جاء الشَّيطان إلى عمرو

فقال لَهُ: «اذهب إلى جُدَّةَ، تجد فيها أصناماً معدَّة، فخذها ولا تخف، وادع إليها العرب تُجب»[١].

فذهب إلى ساحل جدَّة فاستخرجها، ثُمَّ فرَّقها في قبائل العرب، فوقع الشِّركُ بالله ﷻ، قال النَّبيُّ ﷺ: «**رأيتُ عمرَو بن لُحَيٍّ الخزاعيَّ يجرُّ قُصْبَهُ** ـ يعني: أمعاءه ـ **في النَّارِ؛ كان أوَّل من غيَّرَ دين إبراهيم، وأوَّل من سيَّبَ السوائب**»[٢].

الحاصل: أنَّ أوَّلَ شركٍ وقع في الأرض هو بسبب محبَّة الصَّالحين والغلوِّ فيهم؛ فإنَّ الشَّيطان يتدرَّج بهم شيئاً فشيئاً.

---

(١) الأصنام للكلبي (ص٥٤).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٤٦٢٣)، ومسلمٌ (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

۞ وقالَ ابنُ القيِّم: «قال غير واحد من السَّلف: لمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثُمَّ صوَّروا تماثيلهم، ثُمَّ طال عليهم الأمَدُ فعبدوهم»(١).

المعنى: أنَّ الشَّيطان يتدرَّجُ بالنَّاسِ، وينقلُهُم درجة درجة؛ حتَّى يوقعهم في الشِّرك بالله، وحتَّى يوقعهم في الاستهزاء بمن أنكر الشِّرك، فيقولون: «هؤلاء يتنقَّصون الصَّالحين، ويتنقَّصون أنبياء الله ﷺ».

فالشَّيطان لا يتمكَّن من الدَّعوة إلى الكفر ابتداء، بل يأمرهم بالبدعة ويُحسِّنها إليهم، حتَّى تتمكَّن من قلوبهم، ثُمَّ ينقلهم من تلك البدعة إلى ما فوقها، حتَّى تتمكَّن من قلوبهم، وهكذا حتَّى يقعوا في الكفر.

وهكذا شأن الشَّيطان مع أهل وقتنا؛ فإنَّهُ يذكِّرهم محاسن هذا الرَّجل الصَّالح، ثُمَّ يأمرهم بالبناء على قبرِهِ تعظيماً له، وهم لا يعبدون هذا القبر، ولا يذبحون له، بل يحسِّنُ لهم بدعة البناء.

ثُمَّ إذا تمكَّن ذلك من قلوبهم دعاهم إلى التَّردد إلى تلك البقعة، ثُمَّ دعاهم إلى عبادتها بالطَّواف عليها، والذَّبح والنَّذر لها، ثُمَّ إذا وقعوا في الكفر بالله دعاهم وحسَّن لهم أنَّ كُلَّ من أنكر عليهم إنَّما يتنقَّص الصَّالحين، ويُنزلُهم عن مراتبهم العالية، كالأنبياء والملائكة والصَّالحين، فيعادونه وينابذونه، هكذا شأن الشَّيطان.

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٨٤).

۞ وعن عمرَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النَّصارى ابن مريم، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ**» أخرجاهُ(١).

هذا الحديث اشتمل على فائدتين:

الأولى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهانا أن نرفعه فوق مرتبته، وأن نصنع مثل صنيع النَّصارى مع عيسى ابن مريم، فقد قالوا: إنَّهُ الله، أو ابن الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ مع رُوح القُدُسِ، فنهانا النَّبيُّ ﷺ عن أن نصرف شيئاً من حقوق الله له؛ لأنَّنا إذا صرفنا له شيئاً من ذلك جعلناه في رتبة الله، والله يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فالأمور بيد الله، والله يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وعُبَّاد القبور يقولون: «هذا ليس صحيحاً، بل تعلمُ الغيبَ، وأنت تملك النَّفعَ والضُّرَّ لنا، فضلاً عن أن لا تملكه لنفسك!»، فناقضوا القرآنَ والسُّنَّةَ.

نقول: لو كان الرَّسول ﷺ يملك شيئاً من ذلك لانتصر يوم أُحد، ولما قُتل أصحابُهُ، ولما كُسِرَتْ رَبَاعيَّتُهُ، ولما شُجَّ رأسُهُ ودُميَ وجهُهُ، ولما جعلَ يمسحُ الدَّمَ عن وجهِهِ ويقولُ: «**كيف يُفلح قومٌ شجُّوا نبيَّهُم**»(٢).

الفائدة الثَّانية: بيان مرتبته ﷺ ومكانته، وأنَّهُ عبد الله ورسوله، وأنَّهُ ليس في رتبة الله، وأنَّ من صرف له شيئاً من حقِّ الله فقد ضاهى النَّصارى؛

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٤٤٥) ولم أقف عليه في صحيح مسلم، ولم يعزه المزيُّ إليه، ولعلَّ الشيخ محمَّداً قد تابع في عزوه للصَّحيحين شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ فقد عزاه إليهما في الجواب الصَّحيح (٣/١٥٨ ـ ٣٨٥).
(٢) مضى تخريجه.

فقال ﷺ: (**إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسولُهُ**)، هذا أشرفُ مقاماته.

فإذا قرأت القرآن وجدتَ أنَّ اللهَ نوَّهَ بالرَّسول ﷺ بذكر عبوديَّته في مقام إنزال القرآن عليه، ومقام إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وفي كُلِّ موضعٍ فيه فضلٌ للنَّبيِّ ﷺ وتنويهٌ بشرفِهِ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩] فدلَّ هذا على أنَّ أشرف مقامات الرَّسول ﷺ هي العبوديَّة، خلافاً للذين يستغيثون به ويقولون: «الغوث الغوث يا رسول الله».

وقد ألَّف ابن تيميَّة كتاباً مستقلّاً سمَّاه: «الاستغاثة في الرَّدِّ على البكري»؛ لأنَّ البكريَّ يرى جواز الاستغاثة بالرَّسول ﷺ، فردَّ عليه ابن تيميَّة، في كتابٍ مطبوعٍ معروفٍ، والنبهانيُّ له كتاب سمَّاه: «شواهد الحقِّ في الاستغاثة بسيِّد الخلقِ»، خلَّط فيه، وذكر فيه التُّرَّهات والأكاذيب، ولفَّق فيه ما لفَّق ممَّا يستحي العاقل من ذكره، فمن ذلك أنَّهُ ذكر: أنَّ بقرةً حليبها كثير ماتت فبنوا على قبرها، وتبرَّكوا بها، واستغاثوا بها! انظر إلى فساد العقول، كيف لا يستحي من ذكر هذا؟! بقرة تُبنى على قبرها قبَّةٌ، ويتبرَّك بها؟!

۞ وقال: قال رسول الله ﷺ: **«إيَّاكم والغلوَّ، فإنَّما أهلكَ من كانَ قبلَكُم الغلوُّ»**(١).

هذا الحديث رواهُ ابن عبَّاس عن النَّبيِّ ﷺ، وقد أخرجه أحمد وابن ماجه، قال الشَّارح: «بإسنادٍ صحيحٍ»، ولكن في سندِهِ من تُكلِّم فيه، ولا ينافي ذلك كونه صحيحاً لوجود شواهد تؤيِّده، ولأنَّ معناه صحيح، فإنَّ معنى الحديث تعضده الأحاديث الثَّابتة عن النبيِّ ﷺ.

(إيَّاكم): أداةُ تحذيرٍ، **المعنى**: «احذروا الغلوَّ»، وسبب هذا أنَّ النبيَّ ﷺ في حجَّة الوداع لما وصل إلى منى قال لابن عبَّاس: **«القط لي حصى»**، فجاءَهُ بحصى مثل حصى الخذف، فقال ﷺ: **«أمثال هؤلاء فارموا، وإيَّاكم والغلوَّ، فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ»**.

قد يقول قائل: إنَّ الحصى الكبار أبلغ في النِّكاية وأعظم من الصِّغار، فأخبرَ النَّبيُّ ﷺ بقوله: **(إيَّاكم والغلوَّ)** أنَّ هذا ممنوعٌ، فهو مجاوزة الحدِّ، وشريعتنا شريعة اقتصاد، فلا بُدَّ أن يكون الإنسان موحِّداً، وتوحيده هذا عن قصد؛ أي: على وفق الشريعة لا إفراط ولا تفريط، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

ومن أمثلة الغلو: من قال: «أنا أطوف وأزيد عشراً؛ لأنَّ فيه خيراً وبركة».

---

(١) رواهُ ابنُ أبي شيبة (١٣٩٠٩)، والإمامُ أحمد (٣/ ٣٥٠) (١٨٥١) ـ ومن طريقه الحاكم (١/ ٦٣٧) ـ، والنَّسائيُّ (٣٠٥٧)، وابنُ ماجه (٣٠٢٩)، وابنُ أبي عاصم (١٩٨)، وابنُ خزيمة (٢٨٦٧)، وابنُ حبَّان (٣٨٧١)، والطبرانيُّ (٧٤٢)، والبيهقيُّ (٩٥٣٤) من طرقٍ عن عوف ـ وهو: ابن أبي جميلة الأعرابي ـ، عن زياد ابن الحصين، عن أبي العالية، عن ابن عبَّاس، به مرفوعاً.
إسنادُهُ جيِّدٌ، صحَّحَهُ ابنُ تيمية في (الاقتضاء ١/ ٣٢٨)، وعبارة الإمام ـ إن صحَّت النُّسخة ـ رُبَّما تُوهِم أنَّ الحديث من مسند الفاروق ﷺ، وليس كذلك.

نقول: اتَّبع ولا تبتدع، فقد كُفيتَ.

كذلك تبيت في الحجِّ، تقول: «أنام في منى خمسة أيام، كُلُّها خيرٌ وبركةٌ؛ لأنَّها مشعرٌ، ولأنَّ جنسه مشروعٌ».

نقول: أخطأت، هذا غلوٌّ، اتَّبع ولا تبتدع.

تقول: «أريد أن أقف بعرفة قبل الوقوف بيوم، وأضيف إليه يوم عرفة؛ لأنَّهُ طاعةٌ وقربةٌ».

نقول: لا، هذا غلوٌّ.

تقول: «أصلِّي بدلاً من خمس صلوات ستَّة، أزيد فريضة الضُّحى».

نقول: لا، هذا غلوٌّ، عليك أن تقتصر على وفق ما جاء به النَّبيِّ ﷺ.

تقول: أنا أقول في الأذان: «الحمد لله رب العالمين، الله أكبر».

نقول: أخطأت، هذا غلوٌّ، فهل بلغكَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ أمرَ بهذا، أو أقرَّهُ؟! اتَّبع ولا تبتدع، هذا معنى: (**إيَّاكم والغلوَّ، فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ**).

ومحبَّة الرَّسول ﷺ متعيِّنة، بل قال: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحب إليه من ولدِهِ ووالده والنَّاس أجمعين**»[1].

لو قال قائل: «من محبَّته ﷺ أن أذبح له».

نقول: لا، هذا لا يصلح إلَّا لله، هذا غلوٌّ.

(١) رواهُ البخاريُّ (١٥)، ومسلمٌ (٤٤) من حديث أنس ﷺ.

ﷺ ولمسلم عن ابن مسعودٍ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**هلك المتنطِّعون**»، قالَها ثلاثاً[١].

(**المتنطِّعون**)؛ أي: المتفيهقون، المتشدِّقون في الكلام، الذي يتكلَّم ويُخرِج كلامَهُ من قعر حلقه؛ هذا داخل في الغلوِّ، وبهذا تعرف أنَّ الغلوَّ ليس خاصَّاً بالأفعالِ، بل هو داخلٌ حتَّى في الأقوال؛ لقول الرَّسول ﷺ: (**هلك المتنطِّعون**).

ومن أمثلة التنطُّع ما ذكره بعض العلماء وهو: أنَّ رجلاً كان راكباً على حمار فسقط، فضحك النَّاس عليه لما سقط عن حماره، فقال: «ما لكم تَكَأكأتُم عليَّ كتكَأكُئِكُم على ذي جِنَّة ـ يعني: على مجنون ـ، افرنقعوا عنِّي».

أمَّا الكلمات اللُّغويَّة التي قد تكون بالنِّسبة إلينا غير معروفة ـ وإن كنَّا من العرب ـ فهل هي من التنطُّع؟

الجواب: لا، ومثاله: ما قاله عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه للكاتب لما أراد أن يكتبَ كتاباً: «ألصِقْ روانِفَكَ بالجُبوبِ، وخُذ المزبَرَ بشناتِرِكَ، واجعَلْ حِنْدَرَتَيكَ إلى قِيهَلي، حتَّى لا أنغي نغيةً إلَّا أودعتها بحُماطَةِ جُلْجَلانِكَ»[٢].

هذا لا يُعدُّ من التنطُّع؛ وهو من اللُّغة التي ينبغي للإنسان معرفتها.

(ألصِقْ رَوانِفَكَ بالجبوبِ)؛ أي: اجلس على الأرض لتستعد للكتابة.

(وخُذ المزبرَ)؛ أي: القلم.

(بشنَاتِرِكَ): بأطراف أصابعك.

(واجعل حِنْدَرَتَيكَ): عينيك.

(إلى قِيهَلي)؛ أي: إلى وجهي.

(حتَّى لا أنغي نغيةً)؛ أي: حتَّى لا أتكلَّم كلمةً.

(إلَّا أودعتها بحُماطَةِ جُلجَلَانِكَ)؛ أي: في حبَّة قلبكَ.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٧٠).
(٢) تاج العروس (١/ ٤٥).

بابُ

ما جاء من التَّغليظ فيمن عبدَ اللَّهَ عندَ قبرِ رجلٍ صالحٍ فكيفَ إذا عبدَهُ؟!

في «الصَّحيح» عن عائشة رضي الله عنها أنَّ أُمَّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصُّورِ، فقالَ: «**أولئِك إذا ماتَ فيهمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ أو العبدُ الصَّالحُ بنوا على قبرِهِ مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئِك شرارُ الخلقِ عندَ اللهِ**».

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنةِ القبورِ، وفتنةِ التَّماثيلِ.

ولهما عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرحُ خميصةً لَهُ على وجهِهِ، فإذا اغتمَّ بها كشفها، فقال ـ وهو كذلك ـ: «**لعنةُ الله على اليهود والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذِّرُ ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرِزَ قبرُهُ، غير أنَّهُ خشي أن يُتَّخذ مسجداً. أخرجاه.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبل أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول: «**إنِّي أبرأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإنَّ الله قد اتَّخذني خليلاً، كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنتُ متَّخذاً من أُمَّتي خليلاً، لاتَّخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبور أنبيائهم**

مساجدَ، **ألا فلا تتَّخذوا القبورَ مساجدَ، فإنِّي أنهاكُم عن ذلك**».

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثُمَّ إنَّهُ لعنَ ـ وهو في السِّياق ـ مَنْ فعلَهُ، والصَّلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ، وهو معنى قولها: «خشي أن يُتَّخذ مسجداً»؛ فإنَّ الصَّحابة لم يكونوا لِيَبنُوا حول قبرِهِ مسجداً، وكُلُّ موضعٍ قُصِدَتْ الصَّلاةُ فيه فقد اتُّخذ مسجداً، بل كُلُّ موضعٍ يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**».

ولأحمدَ بسندٍ جيِّدٍ عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**إنَّ من شرار النَّاس من تدركهم السَّاعة وهم أحياء، والذين يتَّخذون القبور مساجد**» رواهُ أبو حاتم في صحيحه.



بابُ
ما جاء من التَّغليظ فيمن عبدَ اللَّهَ عندَ قبرِ رجلٍ صالحٍ فكيفَ إذا عبدَهُ؟!

تقدَّم أنَّ جعل واسطة بين العبد وبين الله شركٌ، كشرك المشركين الأوَّلين، سواء بسواء.

ولو قال قائل: «أنا لست من هذا في شيء، وأنا أسأل الله وأدعوه وحده لا شريك له، وإنَّما اشترطت هذا المكان بعينه؛ لأنَّهُ دُفِنَ فيه رجلٌ صالحٌ؛ رجاء بركة المكان فقط»، عقد المصنِّف هذا الباب جواباً لهذا.

(**باب ما جاء من التَّغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجلٍ صالح**): أي: أنَّ هذا من البدع الموصلة للشِّرك ـ وإن قصد بعبادته وجه الله ـ، لَكنَّهُ يرى أنَّ هذا المكان له مزيَّةُ فضلٍ، وأنَّ الدُّعاء يستجاب فيه، بسبب هذا الرَّجل الصالح، فنقول: هذا من ذرائع الشِّرك ومن وسائله، وقد لعن رسول الله ﷺ من اتَّخذ القبور مساجد[1] ـ ولو لم يعبد القبور ـ، بل جعلها مساجد لله، مع هذا استحقَّ اللَّعن.

ولو قال قائل: أنا لا أعتقد أنَّ لهذا المكان مزيَّةَ فضلٍ، وأنا أعرف أنَّ صاحب القبر لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، وأعرف أنَّ هذا المكان لا مزيد فضل فيه ولا شرف له، وأنا أعبد الله وحده لا شريك له في هذا المكان، ولا أعتقد في القبر شيئاً.

نقول: أخطأت ـ أيضاً ـ، فبما أنَّ فيه قبراً فلا تُصَلِّ فيه، ولو كنت تعتقد أنَّ المكان لا مزيَّة له، وتقصد بصلاتك ودعائك وجه الله، هذا من البدع؛ لأنَّك شابهت المشركين، فالمشركون بنوا القباب على قبور أنبيائهم

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وصالحيهم، ووضعوا عليها المساجد، فأنت مشابهٌ لهم في الظاهر، ـ وهو أخفُّ من الأوَّل ـ.

فإذا قال: ما الدَّليل على المنع من ذلك مع أنَّ قصدي لله، ولا أعتقد أنَّ للمكان مزيدَ فضلٍ؟

نقول: الدَّليل أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الصَّلاة عند طلوع الشَّمس وعند غروبها(١)؛ لأنَّ المشركين يسجدون لها.

مع أنَّك تصلِّي في هذا الوقت لله، لا للشَّمس ولا لشيء آخر، لكن مُنعتَ من الصَّلاة في هذا الوقت لما في ذلك من مشابهة الكفَّار ـ وإن اختلفت المقاصد ـ، فقصدهم الشَّمس وقصدك لله، لكن لما تشاكل الفعل وتشابه في الظَّاهر مَنع النبيُّ ﷺ من ذلك.

المسألة الثَّالثة: لو وجدنا مسجداً بُني على قبرٍ ـ وسبق أنَّ الصَّلاة لا تصِحُّ في هذا المسجد ـ، فهل نهدم المسجد أو ننبش القبر؟ أيُّهما أولى بالحرمة، المسجد أم المدفون؟

نقول: هذه المسألة تكلَّم عليها المحقِّق ابن القيِّم وقالَ: «الحكمُ للأسبق، إن كان المسجد هو الأوَّل ثُمَّ جيء بهذا الميِّت ودفن في المسجد فإنَّا نحمل الميِّتَ وندفنه مع المسلمين في المقبرة، ونستعمل المسجد، وإن كان القبر هو الأوَّل ثُمَّ بُني عليه مسجد فنهدمُ المسجدَ»، فالعبرة بالأسبق(٢).

ووجه ذلك: أنَّ الأسبقَ هو الأحقُّ، فالميِّت كأنَّهُ يقول: «أنا أحقُّ بقبري»، وكما في الحديث: **«ومن سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو أحقُّ به»**(٣).

ونظيرُ هذا ما وقع للمنصور العبَّاسي أيَّام أبي حنيفة، وذلك أنَّ المطاف

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٨٣)، ومسلمٌ (٨٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٠١).
(٣) رواهُ أبو داود (٣٠٧١)، والطبرانيُّ (٨١٤) من حديث أسمر بن مضرِّس رضي الله عنه، وإسنادُهُ مسلسلٌ بالمجاهيل.

ضاق على النَّاس، فأراد المنصور توسعة المطاف، فكانت دُور أهل مكَّة منتشرة على حدود المطاف، فلا يمكن توسعة المطاف إلَّا بنزع ملكيَّة هذه الدُّور، فدعا أبو جعفر أهل الدُّور فقال: «بيعوني دوركم»، فأبوا، أعطاهم أضعاف قيمتها فأبوا، وهو لا يريد أن يغتصبها منهم؛ لأنَّها ستكون مطافاً، ولا يريد أن يطوف المسلمون في أمكنة مغصوبة، فتحيَّر، بعد أن بذل وسعه في إرضائهم، لكن لم يقبلوا، واستشار الإمام أبا حنيفة فقال له: «قدْ علمتَ أنَّ المطاف قد ضاق بالنَّاس، وطلبتُ من أهل الدُّور أن يبيعوها بقيمتها أو بأضعاف قيمتها فأبوا فما ترى؟».

قال أبو حنيفة: «قل لهم: هل نزلتم على الكعبة فأنتم أحقُّ أم الكعبةُ نزلت عليكم؟! أيُّكم أسبق؟!».

فدعاهم المنصور وقال: «هل الكعبة نزلت عليكم؟».

قالوا: «لا، هي سبقتنا، نحن الذين نزلنا عليها».

قال: «إذن الكعبة تقول: «أنا أحقُّ بفنائي»، فعند ذلك هدم دورهم وأعطاهم قيمتها»[1]، فأبو حنيفة راعى الأسبق.

---

(١) روى الأزرقيُّ (٢/ ٦٨) نحوه عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

۞ في «الصَّحيح» عن عائشة ﵂ أنَّ أُمَّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصُّورِ، فقالَ: «**أولئِك إذا ماتَ فيهمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ أو العبدُ الصَّالحُ بنوا على قبرِهِ مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئِك شرارُ الخلقِ عندَ اللهِ**»[1].
فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التَّماثيل.

(في الصَّحيح)؛ أي: في الصَّحيحين.

(كنيسةً رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصُّور): وذلك أنَّ الحبشة نصارى وعندهم كنائس.

قال شيخ الإسلام: «هؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التَّماثيل»[2]، يعني: أنَّهم يعتقدون في القبور أنَّها ترفع حوائجهم إلى الله، أو أن المكان له فضل، وفتنة الصُّور التي نهى عنها النبيُّ ﷺ، وكلٌّ هذا من المحادَّة لله ولرسوله ﷺ، ومن ذلك مسجد الحسين في القاهرة، يزعمون أنَّ الحسين دفن في ذاك الموضع، يطوفون به، وهذا هو الشِّرك بعينه، وليس دفنُ الحسين ﵁ في ذاك الموضع يجعلُهُ أفضل من غيره.

ثُمَّ ـ أيضاً ـ الحسين لم يدفن هناك، بل هذا من الكذب، وإنَّما قتل ﵁ في العراق، وقيل: إنَّ رأسه حُمل ليزيد في الشَّام، وقيل: للمدينة، وقيل: لعسقلان، أمَّا القاهرة فلم يأتها أبداً؛ وإنَّما هذا من كذب الوضَّاعين القبوريِّين، ولشيخ الإسلام رسالة سمَّاها (رأس الحسين).

ولو دفن ﵁ في ذاك الموضع لم يكن لذاك الموضع فضل أو مزية، نعم هو ﵁ سيِّد شباب أهل الجنَّة، وابن فاطمة، ومتعيِّنٌ علينا حبُّهُ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٣٤)، ومسلمٌ (٥٢٨).
(٢) ينظر: إغاثة اللَّهفان (١/ ١٨٤).

ولا يمكن إثبات أنَّ هذا القبر قبر نبيٍّ، إلَّا قبر النبيِّ محمَّد ﷺ، وقبر إبراهيم عليه السلام، والباقي كلها ترَّهات، فليست هناك قبور للأنبياء معروفة مضبوطة إلَّا هذين القبرين فقط، وهذا قبر عليٍّ الآن في كربلاء، نقرأ في كتب الرَّافضة أنَّ قبر عليٍّ جُهل لما قتل رضي الله عنه في الكوفة، ولم يعلم مكان قبره، ولطول المدَّة ضاع، إلَّا أنَّهُ عُرِفَ بواسطة غزال، وذلك أنَّ هارون الرَّشيد خرج من بغداد للقنص، ووجد غزالاً أمامه، فلحقه يريد صيده، فذهب إلى ربوة هناك، وجعل يتمرغ بالرَّبوة، فاستدلُّوا بهذا على أنَّ هذا قبر عليٍّ، الدَّليل على أنَّ هذا قبر عليٍّ: أنَّ الغزال ذهبت تتمرَّغ به! هذه خرافات.

۞ ولهما عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرحُ خميصةً لَهُ على وجهِهِ، فإذا اغتمَّ بها كشفها، فقال ـ وهو كذلك ـ: «**لعنةُ الله على اليهود والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذِّرُ ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرِزَ قبرُهُ، غير أنَّهُ خشي أن يُتَّخذ مسجداً. أخرجاه[١].

(**لعنة الله على اليهود والنَّصارى**): قاله ﷺ وهو في سكرات الموت، في آخر لحظة من لحظات الدُّنيا وهو مقبلٌ على الآخرة، لم ينس التَّذكير بهذا، ولم يشغله الموت ومعالجة إخراج روحه عن نصح أُمَّته ودعوتهم إلى التَّوحيد؛ لعلمه ﷺ أنَّهُ سيفارق الدُّنيا ويقبل على الآخرة، فخشي أن يُتَّخذ قبرُهُ مسجداً، فنهاهم أشدَّ النَّهي وحذَّرهم أشدَّ التَّحذير؛ بقولِهِ: (**لعنة الله على اليهود والنَّصارى؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)، ولم يقل: «لا تتَّخذوا قبري مسجداً»، ولم يقل: «لا تصلُّوا إلى قبري»، بل نهاهم بهذا اللَّعن أشدَّ النَّهي وأبلغه.

وقد فهمت عائشة هذا التَّحذير قائلة: (**يحذِّر ما صنعوا**)؛ أي: يحذِّرنا أن نصنع مثل صنيع اليهود والنَّصارى، بأن نبني على قبرِهِ مسجداً، وينهى أُمَّته بهذا اللَّعن عن أن تصنع مثل اليهود والنَّصارى؛ إذ بنوا على قبور أنبيائهم كنائس، وجعلوها موضع عبادة.

(**ولولا ذلك**)؛ يعني: ولولا خشية أن يبنى عليه مسجدٌ (**لأُبرز قبرُهُ**)، ولدُفِنَ مع أصحابِهِ.

(**غير أنَّهُ خُشِي أن يتَّخذ مسجداً**): بضمِّ الخاء، فيكون الذي خشي ذلك: عائشة رضي الله عنها ومن معها من الصَّحابة، وروي: (خَشي) بالفتح، فيكون

---

(١) صحيح البخاريِّ (٤٣٥)، صحيح مسلم (٥٣١).

الذي خشي هو: النَّبيُّ ﷺ، وقد دُفِنَ حيث مات في حجرته ﷺ.

قوله: **(أخرجاه)**، تكرارٌ لقولِهِ في أوَّله: **(ولهما)**؛ إذ أحدهما يغني عن الثَّاني، ولكن قال الشَّارح: «هكذا وُجِدَ بخط المصنِّف»[(١)].

وبهذا يتَّضح أنَّ بناء المساجد على القبور لم يكن من شريعة الرَّسول ﷺ، ولم يكن من الإسلام في شيء، بل حسم المادَّة وقطع الذَّرائع، فلا يجوز أن يدفن الميِّت في مسجد ولو كان المسجد وقفاً من الميِّت، حتَّى ولو أوصى الميت وقال: «ادفنوني في مسجدي الذي بنيتُهُ» فإنَّ وصيَّتَهُ باطلةٌ، بل يُدفن مع المسلمين، كُلُّ ذلك حسماً لمواد الشِّرك وقطعاً لذرائعه، خشية تدرُّج الشَّيطان بهم إلى الشِّرك بالله.

ثُمَّ تأمل هذا الحديث وهو قوله ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنَّصارى؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقوله ﷺ: «**لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّةِ بالقذَّةِ، حتَّى ولو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه**»[(٢)]، وحديث جندب أنَّهُ قال: «**ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجد؛ فإنِّي أنهاكم عن ذلك**»[(٣)]، مع قوله: «**اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٤)]، وقوله: «**إنَّ من شرار النَّاس من تدركهم السَّاعة وهم أحياء، والذين يتَّخذون القبور مساجد**»[(٥)]، حذَّر وأنذر، وبالغ في النَّهي، ولعن من فعله، ومع هذا وُجِدَ من هذه الأُمَّة من يبني المساجد على القبور، ويتعبَّدون فيها مضاهاة لليهود والنَّصارى، مصداقاً لقوله ﷺ: «**لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّةِ بالقذَّةِ**»، بُنيت المساجد على القبور، وأُوقفت الأوقاف الكثيرة على تلك المساجد، وعلى تلك القباب التي تبنى على القبور.

بل أُلِّفت المؤلَّفات في جواز بناء المساجد والقباب على القبور، فقد ألَّفَ بعضهم كتاباً أسماه: «تحفة الأحباب في مشروعيَّة البناء على القبور من

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٦٥٩).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) يأتي تخريجه قريباً في موضعه من المتن.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

القباب»، بل ألَّفوا في مشروعيَّة الحجِّ إليها، والطواف حولها، وسؤال الله عندها، بل سؤال الميِّت نفسه؛ فقد اطَّلعنا على كتاب ألَّفه: عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر المتوفى في هذه السَّنة[1] ـ، في دعاء (أحمد البدوي)، والاستشفاع والتوسَّل به، وقال: «إنِّي لم أؤلِّفه حتَّى ذهبت إليه واستأذنته في تأليفي الكتاب فأذن لي»!

انظر إلى هذا الكلام السَّاقط، وإلى التُّرَّهات، كيف لعب الشَّيطان بهؤلاء، مع أنَّهُ يعدُّ من أهل العلم؛ فهو شيخ الأزهر، ومؤلَّفه موجودٌ مطبوعٌ، ويقال: إنَّهُ أنفق مالاً كثيراً في بناء قبَّة على بعض النُسَّاك، وأوصى أن يبنى على قبره قبَّة!

هو قريبٌ، نعرفه، ومع الأسف لم تؤثِّر فيه هذه النُّصوص البليغة: «**لعنة الله على اليهود والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، لكن القلوب بين أصبعين من أصابع الرَّحمٰن، يقلِّبها كيف يشاء، وكان من دعاء النَّبيِّ ﷺ: «**يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[2].

دعوا النَّاس إلى هذا الباطل على الرغم من هذه الأحاديث الثَّابتة التي لا تقبل الجدل، ولا مطعن فيها ولا تأويل، بل هي قطعيَّة الدَّلالة، لكن كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: «**لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّةِ بالقذَّةِ**».

فما وجد بالأمم قبلنا لا بُدَّ أن يوجد في هذه الأُمَّة سواء بسواء، ما عدا هذه البلاد وقاها الله وصانها عن الشِّرك وذرائعه ووسائله والبدع القادحة في التَّوحيد، إلَّا أنَّها وللأسف عدلت عن كثير من أوامر النَّبيِّ ﷺ، فدخلها ما دخلها من الشُّكوك والإلحاد، ودخلها من التَّمييع والتَّبديل عند بعض النَّاس، بعض النَّاس يدعو إلى المعاصي، ويُهوِّن من شأن الشَّريعة، ويقول: «هؤلاء متشدِّدون، وإلَّا فالدِّين يسرٌ»، فجعل التَّمسُّك بالشَّريعة تشدُّداً، وجعل يستدلُّ بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبقوله:

---

(١) ١٣٩٧هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨]، إلى غير ذلك، جعلوا يستدلُّون بهذه الآيات على غير ما دلَّت عليه، قائلين: «لا ينبغي التَّنفير ولا الشِّدَّةُ، ولا... ولا...»، فإذا أمرتهم ونهيتهم أخرجوا ألسنتهم استهزاءً، وجعلوا يغمزون بعيونهم، ويقولون: «هؤلاء عاشوا في القرون الوسطى، لم يعرفوا الوضع، ولم يجاروا العصر الحديث، ولم يسايروا الرَّكب، والله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨]».

نعم؛ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ ولا جعل علينا آصاراً وأغلالاً، بل بيَّن لنا اليسر والعسر، وأوضح لنا الطَّريق، فهل تريد أنَّ الطَّريق المنهيَّ طريق الشَّيطان هو: اليسر، وهو الذي لا حرج فيه، وأنَّهُ من الدِّين؟!

نقول: لا، فاللهُ أوجبَ الواجبات وليس فيها بحمد الله من حرج، ونهانا عن كُلِّ ما من شأنه أن يضرَّ بديننا وبدنيانا، وهذا هو عين المصلحة، والذي قال: «**إنَّما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين**»[١]، وقال: «**بشِّروا ولا تنفِّروا**»[٢]، وقال: «**بعثت بالحنيفية السَّمحة**»[٣]، هو الذي قال: «**من رأى**

---

(١) رواه البخاري (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواهُ الإمام أحمد (٣٦/ ٦٢٣) (٢٢٢٩١)، والطبرانيُّ (٧٨٦٨) من حديث علي بن يزيد، عن القاسم أبي عبد الرحمٰن، عن أبي أمامة، به.
علي بن يزيد هو: الألهاني، قال البخاريُّ: «منكرُ الحديث»، وقال النَّسائيُّ والدَّارقطنيُّ: «متروك»، وقد نُقل الاتِّفاقُ على ضعفِهِ، كما أنَّ القاسم بن عبد الرَّحمٰن أبا عبد الرَّحمٰن الشَّامي متكلَّمٌ فيه، ينظر: العلل الكبير (ص١٨٩)، الضُّعفاء للعقيليِّ (٣/ ٢٥٤)، الميزان (٣/ ١٦١).
وهذه نسخةٌ مشهورةٌ، رُويت بها أحاديث كثيرة، قال ابن معين: «أحاديث علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة هي ضعافٌ كُلُّها» ينظر: تهذيب الكمال (٢١/ ١٧٩).
ورواهُ الطبرانيُّ (٧٧١٥) من مسند أبي أمامة من وجه آخر لا يزيد الوجه الأوَّل إلَّا ضعفاً، وهو من طريق عفير بن معدان، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة.
عفير واهٍ، مجمعٌ على ضعفِهِ، قال أبو حاتم (العلل لابنه ٥/٣١٨): «لا يشتغل بروايته وبحديثه، منكر الحديث، يحدِّث عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، عن النبيِّ ﷺ أحاديث كثيرة، منها ما لا أصل لها...»، وينظر: الكامل (٧/ ٩٧)، ديوان الضُّعفاء (ص٢٧٧).
=

منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(١)]، وليس هذا من التَّنفير، بل هذا من التَّيسير، ومن باب دفع المعاصي وإزالتها عن مجتمعات المسلمين، وإن لم تزل بالكليَّة فإنَّها تقلُّ، فالآمر بالمعروف يحرص على إزالتها أو ـ على الأقل ـ تقليلها وتضييق نطاقها؛ كما دلَّت عليه الشَّريعة، بل ما سَمَتْ هذه الأُمَّةُ ولا ارتفعَ أمرُها وعظُمَ شأنُها ومدحها الله بما مدحها به إلَّا باتِّصافها بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذه الآية نزلت على من نزلت عليه آية: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، أيريدون أن يضربوا القرآن بعضه ببعض؟! بل الأمر واضحٌ.

= وللحديث شاهدٌ من مسند عائشة، رواه الإمام أحمد (٤١/ ٣٤٩) (٢٤٨٥٥) من حديث عبد الرَّحمٰن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً بلفظ: **«إنِّي أرسلت بحنيفيَّة سمحة»**، وعبد الرَّحمٰن فيه ضعف، وينظر: الجرح والتَّعديل (٥/ ٢٥٢).

(١) رواهُ مسلمٌ (٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

۞ ولمسلمٍ عن جندب بن عبد الله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبل أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول: «**إنِّي أبرأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإنَّ الله قد اتَّخذني خليلاً، كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنتُ متَّخذاً من أُمَّتي خليلاً، لاتَّخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبور أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ؛ فإنِّي أنهاكُم عن ذلك**»[1].

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثُمَّ إنَّهُ لعنَ ـ وهو في السِّياق ـ مَنْ فعلَهُ، والصَّلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ، وهو معنى قولها: «خشي أن يُتَّخذ مسجداً»؛ فإنَّ الصَّحابة لم يكونوا لِيَبنُوا حول قبرِهِ مسجداً، وكُلُّ موضعٍ قُصِدَتْ الصَّلاةُ فيه فقد اتُّخذ مسجداً، بل كُلُّ موضعٍ يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[2].

(**قبل أن يموت بخمس**)؛ أي: بخمس ليال.

(**إنِّي أبرأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**): يتبرأ من وجود خليل له؛ لأنَّ قلبه ممتلئٌ بحبِّ الله وتعظيمه، فليس في قلبه موضع لأحد يكون خليلاً له؛ لامتلاء قلبه بمحبَّة الله، وكمال معرفته بخالقه، فلم يكن في قلبه أجلُّ ولا أعظمُ من الله، ولم يبق في قلبه شركةٌ يكون له فيها خليل.

وفيه دليلٌ على فضل الرَّسول ﷺ، وعلوِّ منزلته، وأنَّ الله قد اتَّخذه خليلاً ـ والخُلَّةُ فوق المحبَّة وأكمل منها ـ كما اتَّخذ الله إبراهيم خليلاً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥].

---

(١) صحيح مسلم (٥٣٢).
(٢) رواهُ البخاريُّ (٤٣٨)، ومسلمٌ (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

وفيه دليلٌ على فضل أبي بكر رضي الله عنه، وأنَّهُ أفضل هذه الأُمَّة بعد نبيِّها.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أبا بكر هو الخليفة بعد النبيِّ ﷺ، كما أيَّدت ذلك أحاديث أخر؛ فإنَّهُ ﷺ في مرضه الذي مات فيه قال: «**مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنَّاس**»، فقالت له عائشة: إنَّ أبا بكر رجلٌ بكَّاءٌ إذا قام مقامك لا يملك نفسه من البكاء، فلو أمرتَ عمر يصلِّي بالنَّاس.

فقال: «**مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنَّاس**».

فأعادت عليه، فقال: «**إنكُنَّ صواحب يوسف، مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنَّاس**»(١)، فهذا يدلُّ على الإشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأنَّ أمرَهُ بالإمامة الصُّغرى مكان الرَّسول ﷺ حينما اشتدَّ به المرض مُؤذِنٌ بإمامته الكُبرى، وكذا قوله ﷺ: «**كُلُّ خوخةٍ تُسَدُّ إلَّا خوخة أبي بكر**»(٢).

وفيه الرَّدُّ على الرَّافضة السَّابِّين لأبي بكرٍ، ويظنُّون أنَّهُ اغتصب الخلافة من عليٍّ، وأنَّهُ في ذلك مخطئٌ، بل الرَّافضة هم المخطئون، وبسببهم وقعَ الشِّركُ في هذه الأُمَّة، كما يأتي بيانه.

وفيه دليلٌ على أنَّ الله ـ سبحانه ـ يحبُّ من شاء من عباده، خلافاً للأشاعرة وغيرهم، الذين ينفون عن الله المحبَّةَ، ويقولون: المحبَّةُ هي: ميلُ قلبِ المحبِّ إلى المحبوب، والله منزَّهٌ عن هذا، والقرآنُ يردُّ عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: ٤]، ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، فدلَّت الآيات الكثيرة على أنَّ اللهَ يحبُّ، ونحن نثبتُ له المحبَّةَ إثباتاً يليق بجلاله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

(ألا فلا تتخذوا القبور مساجد): هذا نهيٌ، والنَّهيُ يقتضي التَّحريم، ولاحظ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكتف بهذا النَّهي بل أكَّدَهُ بقوله: «**فإنِّي أنهاكم عن ذلك**»، فنهى وأكَّدَ النَّهي.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٦٤)، ومسلمٌ (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه.

(فقد نهى عنه وهو في آخر حياته، ثُمَّ إنَّهُ لعن وهو في السِّياق من فعلَهُ): هذا من كلام ابن تيميَّة[١].

(والصَّلاة عندها)؛ أي: عند القبور، **(من ذلك)**؛ أي: من جعلها مساجد، فإذا صلَّى في المقبرة وإن لم يحصل بناء فقد اتَّخذها مسجداً، بل كُلُّ موضع يُصلَّى فيه يسمَّى مسجداً؛ فإنَّ الصَّحابة لم يكونوا ليبنوا حولَ قبره مسجداً، وقال ﷺ: **(جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)**[٢]، وأكَّد ذلك وهو في سياق الموت بقوله: «**لعنة الله على اليهود والنَّصارى؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، كُلُّ هذا يدلُّ على تحريم اتِّخاذ القبور مساجد، أيبقى بعد هذا قولٌ لقائل؟! أو يبقى شيءٌ من الإشكال في تحريم جعل المقابر مساجد أو بناء المساجد عليها؟! بل الأمرُ واضحٌ كما دلَّت عليه السُّنَّةُ.

وليست العلَّةُ هي: النَّجاسَةُ ـ كما يقوله الحنابلة وغيرهم ـ، ولا كما في كتب بعض المتأخرين: أنَّ النَّهي تعبديٌّ، لا يعقل معناه[٣].

وقالوا: لا يضرُّ القبرُ والقبران، فلو صلَّى عند قبر أو قبرين فلا بأس بذلك؛ لأنَّ الحديث: **(لا تتخذوا القبور)**، وهذا جمعٌ، وأقلُّهُ ثلاثة، فالقبر والقبران لا تسمَّى قبوراً، فالصَّلاة عندها لا بأس بها، هذا قولُهم، ولا يخفى فسادُ هذا القول؛ فإنَّ العلَّةَ هي: نجاسَةُ الشِّركِ، فعُلِمَ أنَّهُ لا فرق بين القبر والقبرين، كيف والنبيُّ ﷺ يقول: «**لعنة الله على اليهود والنَّصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وعائشة فهمت أنَّهُ يحذِّرهم أن يُتَّخذَ قبرُهُ ـ وهو واحد ـ مسجداً؟!

وفي الحديث السَّابق ذكرُهُ أنَّ أم حبيبة وأم سلمة أخبرتاه عن الحبشة وما فيها من التَّصاوير: فقال ﷺ: «**أولئك إذا مات الرَّجل الصَّالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً..**» فهذا قبرٌ واحدٌ، ومع هذا أخبر أنَّهُم شرار الخلق؛ لأنَّهُم بنوا على القبر مسجداً، فلا فرق بين الواحد والإثنين والثَّلاثة؛

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٨٥). (٢) سبق تخريجه.
(٣) شرح المنتهى (١/ ١٦٥).

خلافاً لما في «الإقناع»[١]، و«المنتهى»[٢]، فالصَّلاة في المقابر لا تصِحُّ؛ بدليل هذه الأحاديث، وحديث أبي مرثد الغنوي: نهى رسول الله ﷺ عن الصَّلاة في القبور، وقال: «**لا تُصلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها**»[٣]، كُلُّ هذا يدلُّ على أنَّ الصَّلاة لا تصِحُّ في المقبرة، لكن لو صلَّى خارج المقبرة وبينه وبين المقبرة جدار، فهل تصِحُّ الصَّلاة حينئذٍ؟

ذهب بعض العلماء إلى صحَّة الصَّلاة في هذه الحالة؛ إذ لم يكن مُصلِّياً في المقبرة، لا شرعاً ولا عرفاً.

وذهب بعض المحقِّقين إلى المنع، وقالوا: هذا الجدار يُسمَّى جدار المقبرة، يضاف إليها وينسب إليها، فلا تصِحُّ الصَّلاة خلف جدار المقبرة.

---

(١) (١/١٤٧).
(٢) (١/٣٣١).
(٣) رواه مسلم (٩٧٢).

۞ ولأحمدَ بسندٍ جيِّدٍ عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**إنَّ من شرار النَّاس من تدركهم السَّاعة وهم أحياء، والذين يتَّخذون القبور مساجد**» رواهُ أبو حاتم في صحيحه[(١)].

هذا يدلُّ على أنَّ شرار النَّاس هم الذين تقوم عليهم القيامة، وذلك أنَّ الله يبعث ريحاً طيبةً يموتُ منها كُلُّ مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى إلَّا شرار النَّاس، وعليهم تقوم السَّاعة.

قولُهُ: (**والذين يتَّخذون القبور مساجد**)؛ أي: من شرار النَّاس، بل هم أشرُّ النَّاس، حتَّى وإن كانت عبادتهم لله لا للقبر.

والبناء على القبور يتعيَّن هدمُهُ بكُلِّ حالٍ، وقد عمَّ الشَّرُّ بالبناء على القبور، وكثُرَ في سائر الأمصار؛ فقد كان في مكَّة بناء على القبور في أيَّام الشَّريف عون، فلمَّا ذهب الشيخ أحمد بن عيسى شارح «النُّونيَّة»[(٢)] إلى مكَّة واتَّصل بالشَّريف، وصار من أصدقائه أشارَ عليه بهدم البناء والقباب التي على القبور في مكَّة، كقبر خديجة، فعند ذلك هدمها الشَّريف عون بإشارة

---

(١) رواهُ ابن أبي شيبة (٧/ ٣٧١) (١١٩٣٨)، والإمام أحمد (٦/ ٣٩٤) (٣٨٤٤)، وابن خزيمة (٧٨٩)، والهيثم بن كليب (٥٢٨)، وابن حبَّان (٦٨٤٧)، والطبرانيُّ (١٠٤١٣) من طريق زائدة، عن عاصم ـ وهو ابن أبي النَّجود ـ، عن شقيق، عن عبد الله، به مرفوعاً.
عاصمٌ ثبتٌ في القراءة، صدوقٌ في الحديث، ينظر: الجرح والتعديل (٦/ ٣٤٠). وقد جوَّد إسنادَهُ أبو العباس ابن تيميَّة في الاقتضاء (٢/ ١٨٦)، وقال الحافظ الذَّهبيُّ (السِّير ٩/ ٤٠١): «حديثٌ حسنٌ قويُّ الإسنادِ»، وأخرج مسلمٌ (٢٩٤٩) شطرَهُ الأوَّل من طريق أبي الأحوص، عن عبد الله، وأخرجَهُ البخاريُّ (٩/ ٤٨) معلَّقاً من طريق عاصم، به.
أما شطرُهُ الثَّاني: فلَهُ شاهدٌ من حديث عائشة، رواهُ الشَّيخان، وصدَّر به المصنِّفُ البابَ.

(٢) ينظر: علماء نجد (١/ ١٥٦).

من الشيخ، فألَّف شخصٌ[(١)]، كتاباً في هذا الموضوع سمَّاه: «ضجيج الكون فيما أحدثَهُ الشَّريف عون»؛ فإنَّ الشَّياطين لهم أعوانٌ، جعلوا يؤلِّفون المؤلَّفات، ثُمَّ يُسمُّونها بهذه الأسماء الضخمة: «ضجيج الكون»! أي: أنَّ الكون يضجُّ من هدم ما نهى عنه النبيُّ ﷺ، وحثَّ على هدمه، ولكن لكُلِّ قومٍ وارثٌ.

كيف وقد نهى النبيُّ ﷺ عن أن يُجصَّص القبر، أو يبنى عليه، وقال عليٌّ رضي الله عنه لأبي الهيَّاج: «ألا أبعثُك على ما بعثَني به رسولُ الله ﷺ؟ **ألَّا تدع صورةً إلَّا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلَّا سوَّيته**»[(٢)]، ولهذا ذهبَ جمعٌ من الشَّافعيَّة وغيرهم إلى أنَّ القبر ينبغي أن يكون مسطَّحاً؛ يعني: لاصقاً بالأرض، ليس كما نفعله الآن، فإنَّا نجعله مسنَّماً من أجل أن يُعرف أنَّهُ قبرٌ، بعض الشَّافعيَّة يقولون: لا، هذا فيه مشابهة للبناء عليه، بل يكون مسطَّحاً، لاصقاً بالأرض، حذراً من أن يكون مشابهاً للبنيان[(٣)].

أمَّا مذهبنا ومذهب كثير من أهل العلم: أنَّهُ يكون مسنَّماً[(٤)]؛ كما كان قبر رسول الله ﷺ على هذه الكيفيَّة، وليَعلم النَّاسُ أنَّ هذا قبرٌ فيجتنبونه ولا يطؤوه، وينتهكوه، فهذا لا بُدَّ منهُ.

وذهب بعض أئمَّة الحنفيَّة إلى أنَّهُ لا ينبغي رشُّهُ بالماء؛ لأنَّ رشَّهُ بالماء فيه مشابهةٌ للبناء[(٥)].

ومذهبنا ومذهب كثير من أهل العلم: أنَّهُ لا بأس بذلك، فنرشُّ الماء على التراب والحصباء ليتماسك، كي لا تأتي الرِّياح فتثيرُهُ، وهذا لا يسمَّى بناء، والغرض من هذا هو أنَّ العلماء المحقِّقين بالغوا أشدَّ المبالغة في

---

(١) وهو: محمَّد الباقر بن عبد الرَّحيم العلويُّ، كتبها سنة ١٣١٦هـ.
(٢) رواه مسلم (٩٦٩).
(٣) ينظر: تحفة المحتاج (٣/ ١٧٣)، إعانة الطالبين (٢/ ١٣٥).
(٤) ينظر: بدائع الصنائع (١/ ٣٢٠)، البناية شرح الهداية (٣/ ٢٥٧)، مواهب الجليل (٢/ ٢٤٢)، الذخيرة (٢/ ٤٧٩)، المبدع (٢/ ٢٧٢)، شرح المنتهى (١/ ٣٧٥).
(٥) تحفة الفقهاء (١/ ٢٥٦)، حاشية ابن عابدين (٢/ ٢٣٦).

الاحتراز، حتَّى وصلوا إلى هذه الدَّرجة، فحذَّروا من البناء، وما يقارِبُ البناء، وما يشابهُ البناء.

وقد افتتن قومٌ بالقبور، يأتي أحدُهُم للقبر فيتصوَّرُ لهُ شيطانٌ فيخاطبُهُ فيظنُّ أنَّهُ صاحب القبر، كما يقولون: إنَّ أحمد الرِّفاعي جاء إلى قبر النبيِّ ﷺ فاستنجد به ودعاه، وأنَّهُ ﷺ أخرج يدَهُ من القبر فقبَّلها الرفاعيُّ، فتعلَّقوا بهذه التُّرَّهات والحكايات المضلِّلة.

لا نعرف أنَّ الميت يخرج يدَهُ!، ثُمَّ على سبيل الفرض لو أخرج يده، فهل هذا مسبِّبٌ أو باعثٌ إلى أنَّنا ندعوه ونستجير به ونطلب منه المدد؟! لكن الشَّيطان سوَّلَ لهم، وأملى لهم، فصارت عقولُهم خالية من مشكاة النُّبوَّة، ولم يعرفوا ما جاءت به الرُّسُلُ، فصاروا ألعوبةً للشَّيطان يلعب بهم، هذا شأنهم وحالُهم، وإلَّا فالأحاديثُ صريحةٌ واضحةٌ، بلغت حدَّ التواتر في تحريم البناء على القبور، واتِّخاذ المساجد عليها.

بابُ

ما جاء أنَّ الغلوَّ في قبور الصَّالحين يُصيِّرُها أوثاناً تُعبد من دُون اللَّهِ

روى مالكٌ في «الموطأ»: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**».

ولابن جريرٍ بسندِهِ عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩] قال: «كان يلتُّ لهم السَّويق، فمات فعكفوا على قبرِهِ».

وكذلك قال أبو الجوزاء، عن ابن عبَّاس: «كان يلتُّ السَّويقَ للحاجِّ».

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «**لعن رسول الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرج**» رواهُ أهلُ السُّنَنِ.



بابُ
ما جاء أنَّ الغلوَّ في قبور الصَّالحين يُصيِّرُها أوثاناً تُعبد من دُون اللَّهِ

تقدَّم أنَّ (**الغلوَّ**) هو: مجاوزَةُ الحدِّ، ومحبَّةُ الصَّالحين دينٌ وقربةٌ، فإذا أحببتهم لله فهذا دينٌ تثاب عليه، ولكن إذا تجاوزت في هذه المحبَّة بأن جعلت تسألهم من دون الله، أو بنيت على قبورهم، فقد بلغتَ الغلوَّ، والغلوُّ يقعُ في الأفعال والأقوال، وبسببه تصير قبور الصَّالحين أوثاناً تعبد من دون الله.

والأوثان جمعُ (وثن)، و(**الوثن**) هو: ما عُبِدَ من دُون الله، فهو أعمُّ من الصَّنم؛ فالصَّنم هو: ما نُحِتَ على صورةٍ، وعُبِدَ من دُون الله.

أمَّا الوثن فهو: ما عُبد من دون الله، سواء نُحِتَ على صورة أم لا، فلو عبدَ شجرة أو قبراً فقد اتَّخذه (وثناً)، وإذا نحته على صورة رجل صالح فهذا يُسمَّى: (صنماً)، هذا هو الفرق بين الأصنام والأوثان.

۞ روى مالكٌ في «الموطأ»: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[1].

هذا الحديث دلَّ على ما دلَّت عليه الأحاديث السَّابقة من لعن

(١) رواهُ الإمام مالك (٢/ ٢٤٠) (١٨٣) من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار مرسلاً.
وخالف مالكاً معمرٌ ـ كما عند عبد الرزَّاق (١٥٨٧) ـ، وابنُ عجلان ـ كما عند ابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٢) (١١٩٤١) ـ فروياه عن زيد بن أسلم مرسلاً من غير ذكر عطاء.
ورواهُ البزَّارُ (كشف الأستار ١/ ٢٢٠) (٤٤٠) من حديث عمر بن محمَّد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، به مرفوعاً.
=

رسول الله ﷺ من اتَّخذ قبور الأنبياء مساجد، وما تقدَّم من الأحاديث مع هذا الحديث كلُّها تدلُّ على تحريم اتِّخاذ القبور مساجد، سواء كانت قبور أنبياء أو غيرهم.

(اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد)، الرَّسول ﷺ دعا بأن لا يُجعل قبرُهُ وثناً، كما قال ابنُ القيِّم:

ودعا بأن لا يُجعل القبرُ الذي ... قد ضمَّه وثناً من الأوثانِ
فأجاب ربُّ العالمين دعاءَهُ ... وأحاطَهُ بثلاثَةِ الجدرانِ
حتَّى اغتدت أرجاؤه بدعائِهِ ... في عزَّةٍ وحمايةٍ وصِيانِ(١)

قد يقول قائلٌ: نرى بعض النَّاس يُصلُّون خلف قبره ﷺ، فهل صار القبر وثناً بهذه الصَّلاة؟

نقول: إذا قصدوا بصلاتهم الرَّسول ﷺ فلا شكَّ أنَّهم اتَّخذوا قبرَهُ وثناً، وإذا كان قصدهم لله فهذا لا يخلو من **حالين**:

= وعمر بن محمَّد ظنَّ أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله (الاستذكار ٢/ ٣٦٠، التمهيد ٥/ ٤١) أنَّهُ: عمر بن محمَّد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ وهو ثقةٌ ـ، إلَّا أنَّ الحافظ ابنَ رجبٍ تعقَّبَهُ ورجَّح أنَّهُ: عمر بن محمَّد بن صهبان ـ وهو واهٍ، مجمعٌ على ضعفِهِ ـ، ينظر: لسان الميزان (٦/ ١٣٦)، وذكر ابنُ رجب (الفتح ٣/ ٢٤٦) أنَّهُ رآه منسوباً في بعض نسخ مسند البزَّار، واستظهر ذلك الهيثميُّ ـ أيضاً ـ (مجمع الزَّوائد ٢/ ٢٨)، وقد وقع كذلك في (كشف الأستار).
وبكُلِّ حالٍ فلو سُلِّمَ أنَّهُ عمر بن محمَّد ـ الثِّقة ـ، فهل يُقبل منه وصلُ ما أرسلَهُ معمر ومالك وابن عجلان؟! وقد أشار إلى إعلالِهِ البزَّارُ فقال: «لا نحفظه عن أبي سعيد إلَّا بهذا الإسناد».
وللحديث شاهدٌ من مسند أبي هريرة، رواهُ الحميديُّ (١٠٥٥)، والإمام أحمد (١٢/ ٣١٤) (٧٣٥٧) من حديث حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
حمزة بن المغيرة هو: ابن نشيط القرشي الكوفي، ليس له في السِّتَّة شيءٌ، قال ابن معين: «ليس به بأسٌ»، ينظر: تاريخ ابن معين ـ رواية الدَّارمي ـ (ص٩٨)، التَّاريخ الكبير (٢/ ٤٧).
(١) الكافية الشَّافية (ص٢١٥).

الأولى: إن أرادوا أنَّ لهذا المكان مزيدَ فضلٍ؛ لأنَّ القبر أمامهم وقصدوا الصَّلاة لله ولم يقصدوها للرَّسول ﷺ ولا لغيره، فهذه بدعَةٌ من البدع الموصلَةِ إلى الشِّركِ، ولكن لا تُسمَّى شركاً، ولا يكون القبرُ بها وثناً.

الحالة الثَّانية: إن حصل ذلك من غير قصد، ولم يخطر القبر بباله، فهذا لا مؤاخذة فيه، ولكن بكُلِّ حال الأَولى الابتعادُ عن القبر.

أمَّا اتخاذ القبرِ وثناً يُسجدُ لَهُ، ويُذبحُ ويُنذَرُ له، كما ينذر لله وكما يسجد لله، فهذا لم يقع في قبر النبيِّ ﷺ، وإن حصل عنده شيء من البدع والأمور المنكرة.

بقيت مسألة وهو ما يفعله بعض الحجَّاج الجهلة، الذين يأتون ويقولون: «المدد المدد يا رسول الله، أغثني يا رسول الله» لا شكَّ أنَّ هذا من الشِّركِ الأكبرِ، فهل مثل هذا يكون القبرُ به وثناً؟

هذا موضع بحث، يأتي الإنسان فيقف أمام قبر الرَّسول ﷺ فيسلِّمُ عليه، ثُمَّ يقول: «أغثني يا رسول الله، اكشف عني الشِّدَّةَ يا رسول الله، لن يضيق بي أمرٌ وأنت الملاذ يا رسول الله».

هذا هو الشِّركُ بعينه، فقد صَرَفَ للرَّسولِ ﷺ حقَّ الله ﷻ، والظَّاهرُ أنَّ القبرَ لا يكون بذلك وثناً؛ لأنَّهُم يقولون هذا القول وهم عند القبر، أو في بلادِهِم، أو في أيِّ مكان، يطلبون من الرَّسول ﷺ المدد دُون اختصاصِ ذلك بكونه عند القبر.

وقوله: (**اشتدَّ غضب الله**)، فيه مسألةٌ أخرى: وهي إثباتُ الغضب لله، وأنَّهُ يغضبُ ويسخطُ ويمقُتُ، كما دلَّ عليه القرآن والسُّنَّةُ، فنحن نثبت هذه الصِّفات لله كما أثبتها لنفسه، إثباتاً بلا تمثيلٍ، وتنزيهاً بلا تعطيلٍ، على حدِّ قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وسبق بيانُ أنَّ الله بعث رُسُلَهُ بإثباتٍ مفصَّلٍ، ونفيٍ مجمَلٍ.

وهنا قاعدةٌ لا بُدَّ من التَّنبيه عليها في (باب الأسماء والصِّفات)، وهي: أنَّ ما جرى مجرى الخبر فلا يُشتقُّ لله منه اسمٌ ولا صفةٌ، مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]، أخبر أنَّهُ سيفتنهم مقابل صنيعهم، فلا نشتقُّ لله اسماً منهُ فنقول: «إنَّ الله هو الفاتن»، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦] هذا خبرٌ، وكقوله ﷺ: «**إنَّ الله لا يمَلُّ حتَّى تملُّوا**»[(١)].

والبناء على القبور فيه إضاعة للمال دون فائدة، والحقُّ أنَّكَ إذا زرتها تدعو لهم وتتذكَّر الآخرة؛ فإنَّا لم نؤمر بإضاءة القبور، ولا باتِّخاذها مساجد، ولا بجعل شيء من المال فيها، وإنَّما صيانتها عن ألَّا تمتهن ـ فقط ـ، وكان عليٌّ رضي الله عنه إذا أراد زيارة المقبرة جعل يقول: «يا أهل القبور نُكِحَتْ أزواجكم، وقُسِمَتْ أموالُكُم، وسُكِنَتْ بيوتُكُم، واستُخدِمَت صبيانكم، هذا خبرُ ما عندنا فيا ليت شعري ما خبر ما عندكم؟! ثُمَّ يقول: والله لو تكلَّمتم لقلتم: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[(٢)].

هذا هو قولُ عليٍّ رضي الله عنه إذا زار المقبرة يعظ نفسه بما صار إليه هؤلاء، من أنَّ نساءهم نُكِحْنَ، وأنَّ أموالهم قُسِمَتْ، وأنَّ بيوتهم سُكِنَتْ، وأنَّ صبيانهم الصِّغار استخدمهم أزواجُ أُمَّهاتهم، يوبِّخ نفسَهُ أنَّهُ سيحصل له نظير ما حصل لهؤلاء.

وبناء المساجد على القبور وإضاءتها بالكهرباء وبناء القباب عليها وزخرفتها ووضع الأصباغ والكتابات عليها لم يكن من سُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ ولم يكن من عادة سلفنا الصَّالح، ولكنَّ المفتونين بالقبور عظَّموها وبنوا عليها القباب وذبحوا لها ونذروا لها النُّذور وصرفوا لها محض حقِّ الله ـ تعالى ـ؛ فوقعوا في الشِّرك الأكبر الذي ينافي التَّوحيد بالكليَّةِ، وينافي ما دعت إليه الرُّسُلُ من أوَّلهم إلى آخرهم.

وقولُهُ ﷺ: «**كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها**»[(٣)]، نهى

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٨٦١)، ومسلمٌ (٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٢/١٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/٣٩٤).

(٣) رواه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

الرَّسولُ ﷺ الرِّجالَ عن زيارة القبور؛ لأنَّ القوم كانوا قريبي عهد بكفرٍ، وقلوبهم متعلِّقَةٌ بالقبور، ولما استقرَّ التَّوحيدُ في قلوبهم وانقلعت جذور الشِّرك من نفوسهم رخَّصَ لهم النبيُّ ﷺ في زيارة القبور، وعلَّمَهُم ما يقولون إذا زاروا المقابر.

۞ ولابن جريرٍ بسندِهِ عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النجم: ١٩] قال: «كان يلتُّ لهم السَّويق فمات فعكفوا على قبرِهِ»(١).

وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عبَّاسٍ: «كان يلتُّ السَّويقَ للحاجِّ»(٢).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرجَ» رواهُ أهلُ السُّنَنِ(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٤٨٥٩).

(٣) أخرجَهُ الطيالسيُّ (٢٨٥٦)، وابنُ الجعد في مسنده (١٥٠٠)، وابنُ أبي شيبة (٥/ ١٨١) (٧٦٣١)، والإمامُ أحمدُ (٣/ ٤٧١) (٢٠٣٠)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والتِّرمذيُّ (٣٢٠)، وابنُ حبَّان (٣١٧٩)، والطبرانيُّ (١٢٧٢٥)، والحاكم (١٤٠٠)، والبيهقيُّ (٧٢٨٦) من طرقٍ عن محمَّد بن جحادة، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاسٍ، بهِ مرفوعاً.

اختُلِفَ في تعيين أبي صالح، فجزمَ ابنُ حبَّان أنَّهُ: ميزان البصري، الثِّقَةُ، وقد وَهِمَ رحمه الله؛ وبيان ذلك من **وجهين**:

الأوَّل: أنَّهُ وقع التَّصريحُ بأنَّهُ باذام مولى أم هانئ في مسند ابن الجعد.

الثَّاني: أنَّ ابن حبَّان رحمه الله لم يُتابَع على ذلك ولم يتابِع.

نصَّ على أنَّهُ باذام جماعةٌ من النقَّاد، منهم إمام الشَّأن أبو عبد الله أحمد بن حنبل (العلل ٣/ ٣٢٢)، ومسلم بن الحجَّاج كما نقلَهُ عنه ابن رجب (الفتح ٣/ ٢٠١)، وأبو عبد الله الحاكم، وعبد الحقِّ (الأحكام الكبرى ١/ ٨٠)، والمزيُّ (التحفة ٤/ ٣٦٨).

وأبو صالح باذام مولى أم هانئ ضعيف الحديث، قال ابن عديٍّ (الكامل ٢/ ٢٥٨): «لا أعلم أحداً من المتقدِّمين رضيه».

ثُمَّ إنَّ أبا صالح لم يسمع من ابن عبَّاسٍ، كما نصَّ عليه الإمام مسلم (فتح الباري لابن رجب ٣/ ٢٠١)، وابن حبَّان (المجروحين ١/ ١٨٥)، وهاتان علَّتان تمنعان الاحتجاج بالخبر.

بابُ
ما جاءَ في حمايةِ المصطفى ﷺ جنابَ التَّوحيد وسدِّهِ كُلَّ طريقٍ يوصلُ إلى الشِّركِ

وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ؛ فإنَّ صلاتَكُم تبلغني حيثُ كنتم**» رواه أبو داودَ بإسنادٍ حسنٍ، ورواتُهُ ثقاتٌ.

وعن عليِّ بنِ الحسين: أنَّهُ رأى رجلاً يجيءُ إلى فُرجة كانت عند قبر النبيِّ ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاهُ، وقال: ألا أحدِّثكم حديثاً سمعته من أبي، عن جدِّي، عن رسول الله ﷺ قالَ: «**لا تتَّخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا عليَّ؛ فإنَّ تسليمكم يبلغني أين كنتم**» رواه في المختارة.



بابُ

ما جاءَ في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التَّوحيد وسدِّهِ كُلَّ طريقٍ يوصلُ إلى الشِّركِ

الرَّسول ﷺ بيَّن التَّوحيد وأوضحَهُ، وبيَّن ما ينافي التَّوحيد من الشِّرك الأكبر، وبيَّن ما ينافي كمالَهُ الواجب من الشِّرك الأصغر، وبيَّن ما يقدحُ في التَّوحيد من البدع، وبيَّن ما ينقِّصُ ثوابَ التَّوحيد من المعاصي، وكُلُّ هذا قد تضمَّنَهُ «كتابُ التَّوحيد».

ثُمَّ ـ أيضاً ـ حمى جانب التَّوحيد، فلم يقتصرْ ﷺ على حمايةِ التَّوحيد بل حمى جانبَهُ، و(جانبُ الشيءِ) هو: ما يقاربُهُ ويلاصقُهُ، كما حمى حِمى التَّوحيد، وقد عقد المصنِّف باباً في آخر هذا الكتاب، قال فيه: (باب ما جاء في حماية النَّبيِّ ﷺ حمى التَّوحيد)، وسدَّ ﷺ كُلَّ طريقٍ يُوصل إلى الشِّرك، مثل قولهم: «أنت سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا»، قال: «**يا أيُّها النَّاس قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكُم الشَّيطان، إنَّما أنا عبدٌ فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ**»[1]، وهو بلا شك سيِّدُنا وسيِّدُ الخلق، بل هو ﷺ قال: «**أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ**»[2].

(١) سيأتي تخريجُهُ في باب: (ما جاء في حماية النبيِّ ﷺ حِمى التَّوحيد).
(٢) رواه مسلمٌ (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

جاءكم رسولٌ بشرٌ مثلكم، تعرفونَ صدقَهُ وأمانتَهُ، وتعرفونَ مدخلَهُ ومخرجَهُ، وأنَّهُ ذو نسبٍ فيكم، فلم يأتكم شخصٌ مجهولٌ.

قرأ بعض القُرَّاء: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفَسِكم﴾؛ يعني: من أشرفِكم، وأكرمِكم(١)، والقراءة المشهورة: (﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾)(٢).

وهو دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

قولُهُ: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: بشراً مثلهم، من نسبهم، ومن صميم العرب، يعرفونه.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾)؛ أي: يشقُّ عليه عَنَتُكُمْ، فكُلُّ ما من شأنه أن يُحرِجَكم ويحزَّ في صدوركم ويؤثِّمَكُم من الكفر والضلال والامتحان إلى غير ذلك فإنَّهُ يشقُّ عليه ويكلِّفه، بل هو حريص على ما فيه منفعتكم، حريصٌ على هدايتكم وإنقاذكم من النَّار، حريصٌ على كُلِّ ما فيه مصلحتكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، هذه من صفاته ﷺ، فلا خيرَ إلَّا ودلَّ الأُمَّةَ عليه، ولا شرَّ إلا وحذَّر أُمَّتَهُ منه، والخيرُ الذي دلَّ أُمَّته عليه هو: التَّوحيد، وجميعُ ما يحبهُ اللهُ ويرضاه، والشَّرُّ الذي حذَّر أُمَّته منه هو: الشِّرك، وجميع ما يكرهُهُ اللهُ ويأباهُ، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فأكملَ اللهُ بهِ ﷺ الدِّينَ، وبلَّغ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانة، ونصحَ الأُمَّة، وجاهد في الله حقَّ جهاده.

---

(١) وهي قراءةٌ شاذَّةٌ، قرأ بها ابن محيصن وغيره، ينظر: النِّهاية في القراءات الثَّلاث الزَّائدة عن العشرة لابن الجزري (ص١٤٣).

(٢) وهي قراءة السَّبعة.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ فهو رؤوفٌ بالمؤمنين، رحيمٌ بهم، يتفقَّدُ أحوالهم، ويصبرُ على ما يناله من الأذى والامتحان بسبب الحرص على هدايتهم، ألا ترى ما ورد من أنَّهُ ﷺ لما ذهبَ إلى الطَّائف يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن عبادة ما سواه؛ سلَّطوا عليه صبيانهم وضربوه بالحجارة حتَّى أدموا قدميهِ الشَّريفتين، ثُمَّ رجعَ إلى مكَّة مهموماً حزيناً، يدعو بالدُّعاء المعروف[1]، حتَّى إنَّهُ ﷺ جاءه ملك الجبال وقال له: «إن شئتَ أن أطبقَ عليهن الأخشبين فعلتُ»، فقال ﷺ: «**لا، لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله**»[2]، فانظر إلى نصحِهِ ﷺ وكمال شفقتِهِ، وصبرِهِ على الأذى، رجاء أن يخرجَ من أصلابهم من يعبدُ اللهَ ﷻ.

---

(١) وهو قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي...**» الحديث، وقد رواهُ الطبرانيُّ (الدعاء ١٠٣٦)، وعنه الضياء (المختارة ١/١٢٨) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.
رجاله ثقاتٌ، وظاهرُ إسناده الاتِّصال، وليس فيه تقريرُ أصلٍ جديدٍ، فهو حديثٌ حسنٌ ـ إن شاء الله ـ؛ لحال محمَّد بن إسحاق.

(٢) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

۞ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ؛ فإنَّ صلاتَكُم تبلغني حيثُ كنتم**» رواه أبو داودَ بإسنادٍ حسنٍ، ورواتُهُ ثقاتٌ(١).

هذا الحديث دلَّ على مسألتين:

الأولى: قولُهُ: (**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**): معلومٌ أنَّ البيتَ الذي لا يُصلَّى فيه ولا يُقرأ فيه القرآنُ ولا يُدعى فيه أنَّهُ شبيهٌ بالمقبرةِ، ممَّا يدلُّ على أنَّ المقبرة لا تنبغي قراءة القرآن فيها، ولا ينبغي الدُّعاء فيها، ما عدا ما شرعَهُ الرَّسول ﷺ عند زيارة القبور من قول الزَّائر: «**السَّلام عليكم دار قوم مؤمنين**»(٢)، أمَّا ما زاد على هذا فكما ترجم المصنِّف فيما تقدَّم: (**باب ما جاء في التَّغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجلٍ صالحٍ فكيف إذا عبدَهُ؟!**).

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**أفضلُ صلاة المرء في بيتِهِ إلَّا المكتوبة**»(٣)،

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمد (٨٨٠٤) من طريق سريجٍ، وأبو داود (٢٠٤٤) من طريق أحمد بن صالح، كلاهما ـ سريج وأحمد ـ عن عبدَ الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
وإسنادُهُ حسنٌ من أجل عبد الله بن نافع، وهو الصَّائغ المدني، في حفظِهِ لينٌ، وإذا حدَّث من كتابِهِ قُبِلَ.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الاقتضاء (٢/ ١٧٠): «وهذا إسنادٌ حسنٌ؛ فإنَّ رواتَهُ كلَّهُم ثقاتٌ مشاهير، لكن عبد الله بن نافع الصَّائغ، الفقيه المدني، صاحب مالك فيه لينٌ لا يقدحُ في حديثه... ثُمَّ إنَّ هذا الحديث ممَّا يُعرف من حفظِهِ ليس ممَّا يُنكر؛ لأنَّهُ سُنَّةٌ مدنيَّةٌ، وهو محتاجٌ إليها في فقهِهِ، ومثل هذا يضبطُهُ الفقيهُ، وللحديث شواهد من غير طريقه....».
وصحَّحه النَّوويُّ في الأذكار (ص١١٥)، وابنُ حجر في الفتح (٦/ ٤٨٨)، وحسَّنه ابنُ عبد الهادي في الصَّارم (ص٤١٤)، وذكر أنَّهُ بشواهده يرتقي إلى درجة الصِّحَّة.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواهُ البخاريُّ (٧٣١) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

فأفضلُ ما تتعبَّدُ به من الصَّلاة هو ما كان في بيتك، عدا المكتوبة؛ فإنَّها تُصلَّى في المساجد مع المسلمين؛ كما دلَّ عليه هذا الحديث، وورد في حديث آخر: «**إنْ ذُكِرَ اللهُ في البيت فرَّ الشَّيطان وقال لأتباعه: هلمُّوا لا مبيت لكم اللَّيلة**»(١)، هذا كُلُّهُ يدلُّ على أنَّهُ لا ينبغي أن تتَّخذ بيتك مشابهاً للمقبرة بترك صلاة النفل فيه، وترك قراءة القرآن فيه.

فالبيت الذي يُصلَّى فيه ويُقرأ فيه القرآن بيتُ خيرٍ، ولا مأوى للشَّياطين فيه؛ كما جاءت بذلك الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ، وأمَّا المقبرة فلا ينبغي أن تقرأ فيها القرآن، وإن قال بعض أصحابنا الحنابلة: «لا تُكرَهُ القراءة على القبر»، وزعموا أنَّ الميِّت يستأنس بقراءة القرآن على قبره، وذكروا في ذلك أثراً عن ابن عمر: أنَّهُ أوصى أن يُقرأ عند قبره بفواتح سورة البقرة وخواتيمها(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) هذا الخبر رواهُ عبد الرحمٰن بن العلاء بن اللَّجلاج فاضطرب فيه، فمرَّةً جعله عن أبيه، عن ابن عمر موقوفاً كما عند ابن معين (التَّاريخ برواية الدُّوري ٤/ ٤٤٩) - ومن طريقه اللَّالكائي (٦/ ١٢٢٧) (٢١٧٤) -.
ومرَّة جعله عن أبيه، عن جدِّهِ مرفوعاً - من غير ذكر ابن عمر - كما عند الطبراني (٤٩١).
وبكُلِّ حالٍ فالخبر ضعيفٌ، لا يجوز الاحتجاجُ به؛ فإنَّ عبد الرحمٰن مجهولٌ، لم يرو عنه غير مبشِّر بن إسماعيل، وله في السُّنَّةِ حديثٌ يتيمٌ، ولذا قال الحافظ في التقريب (ص٥٩٤): «مقبول»؛ أي: إن توبع، ولم يتابع هنا، فقول الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٤): «رواهُ الطبرانيُّ، ورجاله موثَّقون» فيه نظرٌ؛ فإنَّ عبد الرَّحمٰن لم يؤثر توثيقُهُ عن غير ابن حبَّان (الثِّقات ٧/ ٩٠).
وللخبر طريقٌ آخر رواهُ الطبرانيُّ (١٣٦١٣)، والخلَّالُ في الأمر بالمعروف (ص٨٨) من حديث يحيى بن عبد الله بن الضحَّاك البابلتي، عن أيوب بن نهيك الحلبي، سمعت عطاء بن أبي رباح المكي يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا مات أحدكم فلا تجلسوا، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمتها في قبرِهِ**».
وهذا خبرٌ واهٍ، يحيى ضعيفُ الحديثِ، ذكر ابنُ عديٍّ (الكامل ٩/ ١٢٠) أنَّهُ ينفرد عن المشهورين، ويروي عن المجاهيل، وأنَّ الضَّعف على حديثِهِ بيِّنٌ. =

ولكن الصَّحيح أنَّ هذا لا يصِحُّ عن ابن عمر، ولا يثبتُ عنهُ رضي الله عنه، ولو كان مشهوراً لبادر إليه الصَّحابة رضي الله عنهم، ولَـمَا قال الرَّسولُ ﷺ: **(لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)**، ممَّا يدلُّ على أنَّ المقبرة لا يقرأ فيها القرآن، وإنَّما الذي يشرع أنَّك إذا دفنت الميِّت تقِفُ عند قبره وتدعو لَهُ وتقول: «اللَّهُمَّ اغفر له، اللَّهُمَّ ارحمْهُ، اللَّهُمَّ ثبِّتْهُ»، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**قفوا عند قبرِ أخيكم، واسألوا له التثبيتَ؛ فإنَّهُ الآن يُسأل**»[(١)]، هذا هو المشروع، نقفُ عند قبرِهِ، ونسألُ اللهَ لَهُ

= وقال ابن حبَّان (المجروحين ٣/ ١٢٧): «يأتي عن الثِّقات بالمعضلات»، وينظر: سنن النَّسائي الكبرى (٤/ ٢٩٥).
وأيوب «منكر الحديث»، قالَهُ أبو حاتم (الجرح والتَّعديل ٢/ ٢٥٩)، وينظر: لسان الميزان (٢/ ٢٥٦)، ديوان الضُّعفاء (ص٤٣٩).
وله علَّةٌ ثالثةٌ وهي: أنَّ عطاء لم يسمعْ من ابن عمر، قاله: يحيى القطان، وعليُّ ابن المديني، والإمام أحمد، وابن معين، ينظر: تاريخ ابن معين للدُّوري (٤/ ٩٧ ـ ١١٥ ـ ١٨٧)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٥٤ ـ ١٥٥)، فما وقع في هذا الإسناد الضَّعيف من التَّصريح بالسَّماع لا يغني ولا يسمن من جوع.
تنبيه: الذي في مراسيل ابن أبي حاتم أنَّ ابن المديني قال: «لم يسمع من ابن **عمرو** إنَّما رآه»، وهو تصحيفٌ صوابه: (ابن عمر)؛ فإنَّه كذلك في (تهذيب التَّهذيب ٣/ ١٠٣) و(جامع التَّحصيل ص٢٣٧) و(تحفة التَّحصيل ص٢٢٨)، وينظر: حاشية تهذيب الكمال (٢٠/ ٧١).
وبهذا يُعلم: أنَّ الذي في الفروع (٣/ ٤٢٠) وغيرِهِ من مدوَّنات المذهب من قولهم: «وصحَّ عن ابن عمر...» تصحيحٌ لا يعوَّل عليه، كما أنَّ القول بمشروعيَّة القراءة على القبر لا يصحُّ عن الإمام أحمد رحمه الله.
قال عبد الله (المسائل ص١٤٥): سَأَلت أبي عن الرَّجل يحمل معه المصحف إلى القبر يقرأ عليه؟
قال: «هذه بدعةٌ».
قلت: وإن كان يحفظ القرآن يقرأ؟
قال: «لا، يجيء ويسلِّم وَيَدْعُو وينصرف».
وقال شيخُ الإسلام وعلم الهداة الأعلام أبو العبَّاس ابن تيميَّة رحمه الله في الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦٢): «ونقلَ الجماعةُ عن أحمدَ كراهةَ قراءةِ القرآن على القبور، وهو قولُ جمهورِ السَّلف، وعليه قدماء أصحابه».

(١) رواهُ أبو داود (٣٢٢١) ـ ومن طريقه البيهقيُّ في الدَّعوات الكبير (٦٣٦) ـ، وأخرجَهُ عبد الله بن أحمد في زياداته في فضائل الصَّحابة (١/ ٤٧٥)، وابنُ السُّنِّيِّ في (عمل اليوم واللَّيلة ٥٨٥)، والحاكمُ (١/ ٥٢٦) (١٣٧٢)، والبيهقيُّ في (السُّنن الكبرى ٧٠٦٤)، من طريق هانئ مولى عثمان، عن عثمان رضي الله عنه، وإسنادُهُ حسنٌ.

التَّثبيتَ، ونسألُ لَهُ الرَّحمة؛ فإنَّهُ الآن يسأل، أمَّا قراءة القرآن أو الأذان والإقامة في القبر، كما يفعله بعضُ أهل مكَّة وغيرهم عندما يريدون دفن ميتهم، ينزل واحد فيؤذِّن ويقيم في القبر ثُمَّ يضعونه في قبرِهِ، كُلُّ هذا من البدع، ولا أصلَ له في الشَّرع، ولم ينقل عن صحابيٍّ ولا تابعيٍّ، حتَّى علماء مكَّة أنفسهم أنكروا هذا كما في «فتاوى ابن حجر الهيتمي»[1]، وهو من علماء مكة.

كما أنَّ تعيين يومٍ مخصوصٍ لزيارة المقبرة لا أصلَ لَهُ، وقالوا: «من جاء إلى الميِّت يوم الجمعة قبل طلوع الشمس فإنَّهُ يعرفه»، لو سُلِّم أنَّ هذا صحيحٌ، وأنَّهُ يعرفُ زائرَهُ كما يقولُهُ بعض الحنابلة، نقول: لا مانع ـ على فرضِ صِحَّتِهِ ـ، لكن التزامُهُ كُلَّ جمعةٍ ممنوعٌ، لو ذهبتَ جمعةً وتركتَ جمعةً فلا مانع، أمَّا أنَّك تعيِّنُ وقتاً معيَّناً تلتزمُهُ فقد اتَّخذتَهُ عيداً؛ لأنَّا قلنا (العيدُ): اسمٌ لما يعودُ ويتكرَّرُ مجيئُهُ، سواءٌ كان في الشَّهر أو الأسبوع.

والسُّبكيُّ ذكر في كتابِهِ الذي ردَّ فيه على ابن تيميَّة[2] في معنى قولِهِ ﷺ: «**لا تتَّخذوا قبري عيداً**» قال: «فيهِ الحثُّ على زيارَةِ قبرِ الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ العيد لا يأتي في السَّنَةِ إلَّا مرَّةً أو مرَّتينِ، فلا تجعلوا قبره كالعيد لا تأتوه إلَّا مرَّةً أو مرَّتين، بل أكثروا من زيارته وكرِّروها!»، ابن القيِّم ردَّ هذا، وذكر أنَّهُ تلبيسٌ لم يقل به إلَّا أهل الضلال[3]، فهلَّا قال: «أكثروا من زيارتي»، أو قال: «عيِّنوا يوماً لزيارتي»، بل قوله: «**لا تتَّخذوا قبري عيداً**» يدلُّ على أنَّهُ لا يجوزُ أن يتَّخذ يوماً معيَّناً لزيارَةِ قبرِ الرَّسولِ ﷺ ولا غيرِهِ؛ بدليلِ قولِهِ: «**وصلُّوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيثُ كنتم**»، ثُمَّ إنَّ أهل البيت كعليِّ بن الحسين لم يفهموا هذا الذي قاله السُّبكيُّ وغيره، بل فهموا أنَّهُ لا ينبغي أن يُجعل قبرُ النَّبيِّ ﷺ عيداً، وإنَّما تأتيه في بعض الأحيان.

---

(١) الفتاوى الفقهيَّة الكبرى (٢/ ١٧).

(٢) وهو: «شفاء السِّقام في زيارة خير الأنام».

(٣) إغاثة اللَّهفان من مصايد الشَّيطان (١/ ٤٣٩).

أمَّا حديثُ: «**من زارني بعد وفاتي فكأنَّما زارني في حياتي**»، فهو حديثٌ ضعيفٌ جدّاً[(١)]، وكذلك حديثُ: «**من حجَّ ولم يزرني فقد جفاني**» يستدلُّون به، وهو فاسدُ المعنى والسَّندِ[(٢)]، أمَّا فساد المعنى: فمعلومٌ أنَّ جفاءَ الرَّسول ﷺ كفرٌ؛ لأنَّ معنى الجفاء هو: الصَّدُ عنهُ، وعدم المبالاة به.

وهم يتعلَّقون بهذه الأحاديث، بل قال الرَّسول ﷺ: «**لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**»[(٣)]، وهذا صريحٌ في أنَّه لا يجوز شدُّ الرَّحل لقبرِهِ، فكيف يقال أنَّهُ ﷺ قال: «**من حجَّ ولم يزرني فقد جفاني**»؟!

ومعلومٌ أنَّ الزِّيارة بعد الحجِّ مستلزمةٌ لشدِّ الرَّحل؛ لبعد المسافة ما بين مكَّة والمدينة، مع قوله: «**لا تُشد الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**»، فلا يجوز لك شدُّ الرَّحل إلى قبر الرَّسول ﷺ، وإن قالَ كثيرٌ من أهل العلم بشدِّ الرَّحل لقبر الرَّسول ﷺ، لكن

---

(١) رواهُ الدَّارقطنيُّ (٢٦٩٣) من طريق أبي الرَّبيع الزَّهراني، عن حفص بن أبي داود، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عمر، به مرفوعاً.
وهو حديثٌ منكرٌ؛ فإنَّ حفص بن أبي داود هو: ابن سليمان لكن أبا الرَّبيع الزَّهراني يدلِّسُ في اسمِهِ لضعفِهِ، نصَّ عليه ابنُ عديٍّ (الكامل ٣/ ٢٧٠)، وحفصٌ إمامٌ في القراءات، متروكٌ في الحديث، وليث شيخُهُ ليِّنُ الحديث.
قال الحافظُ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ في الصَّارم (ص٨٧): «حديثٌ منكرُ المتنِ، ساقطُ الإسنادِ، لم يصحِّحه أحدٌ من الحفَّاظ، ولا احتجَّ به أحدٌ من الأئمَّة، بل ضعَّفوه وطعنوا فيه، وذكر بعضهم أنَّهُ من الأحاديث الموضوعة، والأخبار المكذوبة».

(٢) رواهُ ابنُ عديٍّ (٨/ ٢٤٨) من طريق النُّعمان بن شبل، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، به مرفوعاً.
وهو خبرٌ باطلٌ؛ فإنَّ النُّعمان متروكٌ، بل اتَّهمه بعضهم، وقال ابنُ حبَّان في ترجمته في المجروحين (٣/ ٧٣): «يأتي عن الثِّقات بالطَّامات، وعن الأثبات بالمقلوباتِ».
وقال ابن عبد الهادي (الصَّارم ص١١٧): «حديثٌ منكرٌ جدَّاً، لا أصلَ لَهُ، بل هو من المكذوبات والموضوعات، وهو كذبٌ موضوعٌ على مالك مختلَقٌ عليه، لمْ يحدِّث به قط، ولم يروه إلَّا من جمع الغرائبَ والمناكيرَ، ولقد أصاب الشَّيخ أبو الفرج ابن الجوزيِّ في ذكرِهِ في (الموضوعات)»، ينظر: الموضوعات (٢/ ٢١٧).

(٣) سبق تخريجه.

الذي عليه المحقِّقون كالقاضي عياض وابن بطَّة الحنبلي وابن تيميَّة وابن القيِّم وابن عبد الهادي المنع من ذلك(١).

وقد نقل أبو زرعة وليُّ الدِّين العراقي عن والده زين الدِّين عبد الرَّحيم أنَّهُ جرت بينه وبين ابن رجب الحنبليِّ مناظرةٌ في هذه المسألة، وكانا مترافقين في سفر(٢).

المجوِّزون يقولون: لا دلالة في هذا الحديث على المنع؛ لأنَّ المعنى عندهم: لا تشدُّ الرِّحال لمسجد يتقرَّب فيه إلى الله إلَّا إلى ثلاثة مساجد.

وابن تيميَّة وابن القيِّم وابن رجب ومن وافقهم يقولون: لا، بل التَّقدير: لا تشدُّ الرِّحال لموضعٍ يُتقرَّبُ فيه إلى الله إلَّا إلى ثلاثة مساجد، فيشملُ المنع شدَّ الرَّحل للمشاعر، وقبور الأنبياء، وقبور الأولياء والصَّالحين.

المسألة الثَّانية التي دلَّ عليها الحديث: قوله ﷺ: «**وصلُّوا عليَّ؛ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيث كنتم**»: هذا دليلٌ على أنَّ من صلَّى وسلَّم عليه في أيِّ مكانٍ فإنَّهُ يبلغُهُ ذلكَ.

قالوا: يا رسول الله كيف نسلِّم عليك وقد أرمت؟ ـ أي: بليت ـ

قالَ: «**إنَّ أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض**»(٣)، يعني: أنَّها طريَّة، فالأرض لا تؤثِّر فيها.

---

(١) ينظر: الشِّفا (ص٥٨٥)، الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٨٨)، النونية (ص٢١٦)، الصَّارم المنكي (ص٨١ ـ ٣٣٢).

(٢) ينظر: طرح التثريب (٦/ ٤٣).

(٣) رواهُ ابن أبي شيبة (٨٦٩٧)، والإمام أحمد (٢٦/ ٨٤) (١٦١٦٢)، والدَّارمي (١٦١٣)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنَّسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبَّان (٩١٠)، والحاكم (١٠٢٩)، والبيهقيُّ (٥٩٩٣) من طريق حسين الجعفي، عن عبد الرَّحمٰن بن يزيد، عن أبي الأشعث شراحيل، عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه النَّفخة، وفيه الصَّعقة، فأكثروا عليَّ من الصَّلاة فيه؛ فإنَّ صلاتكم معروضة عليَّ**».

فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمتَ؟ ـ يعني: بليتَ ـ.

فقال: «**إنَّ الله قد حرَّم على الأرض أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ**».

اختلف الحفَّاظ في تعيين عبد الرَّحمٰن بن يزيد هذا، فذهبَ البخاريُّ وأبو حاتم =

۞ وعن عليِّ بنِ الحسين: أنَّهُ رأى رجلاً يجيءُ إلى فُرجة كانت عند قبر النبيِّ ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاهُ، وقال: ألا أحدِّثكم حديثاً سمعته من أبي، عن جدِّي، عن رسول الله ﷺ قالَ: «**لا تتَّخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا عليَّ؛ فإنَّ تسليمكم يبلغني أين كنتم**» رواه في المختارة(١).

هذا الحديث من بيت رسول الله ﷺ، وذلك لشدَّة اهتمامهم بهذا الباب؛

= وغيرهما إلى أنَّهُ: ابن تميم الضَّعيف، ينظر: التَّاريخ الكبير (٥/ ٣٦٥)، العلل لابن أبي حاتم (٢/ ٥٢٩)، شرح علل الترمذي (٢/ ٨١٨).
وأنكر ذلك الدَّارقطنيُّ والعجليُّ في آخرين، وذكروا أنَّ حسيناً سمع من ابن جابر الثِّقة، لا من ابن تميم، وأنَّ الذي حصل منه الغلَطُ في الرَّجلين هو: أبو أسامة حمَّاد بن أسامة لا حسين، ومال إلى هذا القول ابن عبد الهادي والذَّهبي، ينظر: الضُّعفاء للدَّارقطنيِّ (٢/ ١٦١)، شرح العلل (٢/ ٨١٩)، الصَّارم المنكي (ص٢٠٩)، السِّير (٩/ ٣٩٨)، وعلى هذا فيكون إسنادُ الحديث قويّاً.
وممَّا يقوي ما ذهب إليه أبو الحسن **أربعة مور**:
أوَّلها: أنَّ حسيناً الجعفيَّ كان من حفَّاظ أهل الكوفة ومقدَّميهم، فيبعدُ أن يهِمَ في هذا، قال ابن هانيء (السُّؤالات ٢٠٥٦): «سمعت أبا عبد الله يقول: «ما رأيت أحداً كان أجمع من وكيع وحسين الجعفي، كان شيئاً عجباً»، وما رأيت أبا عبد الله يقدِّم عليهما من الكوفيِّين أحداً».
الثَّاني: أنَّ المعروفَ بالرِّواية عن أبي الأشعث هو: ابن جابر، وليس في شيوخ ابن تميم ذكرٌ لأبي الأشعث، ولا في الرُّواة عن أبي الأشعث ذكرٌ لابن تميم.
الثَّالث: أنَّ النَّسائيَّ ـ وغيرَهُ ـ لما ذكروا ضعف ابن تميم قالوا: روى عنه أبو أسامة، ولم يذكروا حسيناً، ينظر: الضُّعفاء للنَّسائي (ص٦٨).
الرَّابع: أنَّهُ وقعَ التَّصريح بأنَّه ابن جابر عند عامَّة من أخرجَهُ، والله أعلم بالصَّواب.

(١) أخرجَهُ ابن أبي شيبة (٧٥٤٢) ـ ومن طريقه البخاريُّ في (التاريخ الكبير ٢/ ١٨٦)، والضياء في (المختارة ٤٢٨) ـ من طريق جعفر بن إبراهيم، عن علي بن عمر بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جدِّه، به.
وليس إسنادُهُ بالقويِّ، جعفرٌ وعليٌّ لم يوثِّقهما كبيرُ أحدٍ، والمرفوعُ منهُ يغني عنهُ حديثُ أبي هريرة السَّابق.

لما لهم من قرب النَّسب وقرب الدَّار من النبيِّ ﷺ، فالحديث دلَّ على ما دلَّ عليه حديث أبي هريرة السَّابق، إلَّا أنَّ فيه زيادة وهي: أنَّ الوقوف عند القبر من أجل الدُّعاء منهيٌّ عنه، وقد تقدَّم أنَّ الإنسان إذا دعا بالمقبرة ظنّاً أنَّ لها مزيَّة وخاصيَّة، أو دعا عند قبر رجلٍ صالحٍ أو عند قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ يظنُّ أنَّهُ موضع تجابُ فيه الدَّعوة؛ أنَّ هذا من البدع، ومن وسائل الشِّرك وذرائعه، لا يجوز أن تدعو الله عند قبر وإن كانت نيَّتك حسنة، وقصدك صالحاً، كُلُّ هذا سدّاً لذرائع الشِّرك، ومنعاً لوسائلِهِ.

وأمَّا ما روي عن الإمام مالك من أنَّهُ قالَ للخليفة: «لمَ تصرِف وجهكَ عن وسيلتك ووسيلة أبيك آدم؟!»، فقد جاء عن مالكٍ نفسه ما يكذِّب هذا، جاء عنه أنَّهُ نهى عن الدُّعاء عند قبر النبيِّ ﷺ، وقال: «لن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلَّا ما أصلح أوَّلها»(١)، وهو: القرآن والسُّنَّة.

والإمام مالك ـ إمام دار الهجرة ـ نهى أن يسلِّم على النبيِّ ﷺ كلُّ من دخل المسجدَ النبويَّ لإرادة الصَّلاة، أمرهم أن يصلُّوا عليه عند الدُّخول كما دلَّت عليه الأحاديث دون أن يأتوا إلى قبرِهِ، وما كان أصحاب النبيِّ ﷺ يتردَّدون إلى قبره مع أنَّهم من أشدِّ النَّاس محبَّة له، ومن أشدِّ النَّاس حرصاً على الخير، ومن أشدِّ النَّاس اتِّباعاً لسُنَّته، ومع هذا لم يتكرَّر مجيئهم بصورة دائمة إلى قبره لأجل السَّلام عليه.

نعم؛ كان ابن عمر رضي الله عنهما يأتي فيسلِّم عليه إذا أراد أن يسافر أو عاد من سفر(٢)، وهذا تفرَّد به ابن عمر رضي الله عنهما، فكان إذا أراد أن يسافر جاء ووقف عند

---

(١) ينظر: الشِّفا (٢/ ٤١ ـ ٨٨)، مجموع الفتاوى (١/ ٢٢٨)، الصَّارم المنكي (ص٤١).

(٢) رواهُ محمَّد بن الحسن في موطئه (٩٤٨) عن مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، به.
وينظر: التَّعليق الممجَّد للَّكنوي (٤/ ٤٧٤).
وكذا رواه عبد الرزَّاق (٣/ ٥٧٦) (٦٧٢٤)، عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، به.
فهو ثابتٌ عنه رضي الله عنه بطرقٍ قويَّة.

القبر وقال: «السَّلام عليك يا رسول الله، السَّلام عليك يا أبا بكر، السَّلام عليك يا أبتاه»، ثُمَّ ينصرف.

أمَّا غيره من الصَّحابة فلم يأتوا للنبيِّ ﷺ لا عند سفرهم ولا عند المجيء من السَّفر، لكنهم يسلِّمون عليه في بعض الأحيان دون أن يتَّخذوا يوماً معيَّناً، أو أسبوعاً معيَّناً، أو شهراً معيَّناً، أو سنةً معيَّنةً، هذا مقتضى ما نقله أئمَّة العلماء عن الصَّحابة رضي الله عنهم[١].

قوله: **(وصلُّوا عليَّ، فإنَّ تسليمكم يبلغني)**: يدلُّ على أنَّ الصَّلاة والسَّلام عليه من أجلِّ الطَّاعات، ولا فرق بين من صلَّى وسلَّم عليه عند القبر أو كان في بلاده، كما في رواية سعيد بن منصور: «ما أنتم ومن في الأندلس إلَّا سواء»[٢]، كُلُّ هذا حسماً لموادِّ الشِّرك من التَّردُّد على القبر حتَّى تنبت عروق الشِّرك في القلب بهذا التَّردُّد، وهذا التَّعظيم الزَّائد على التَّعظيم المشروع، بل يجعله مثل تعظيم الله، ممَّا يؤدِّي إلى صرفِ شيء من حقوق الله له ﷺ.

ثُمَّ ما الفائدة في صلاتنا وسلامنا عليه ﷺ مع أنَّ الله صلَّى وسلَّم عليه قبل دعائنا؟

نقولُ: نعم صحيح، اللهُ صلَّى عليه وسلَّم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦] لكن الفائدة من دعائنا هي: التَّنويه بشرف النَّبيِّ ﷺ، وبفضله، وعلوِّ منزلته، ولما يحصل للمصلِّي عليه ﷺ من الأجر بسبب ذلك، فقد ورد في الحديث: «**من صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلَّى الله عليه بها عشراً**»[٣]، فالمصلحة والمنفعة عائدة إلى المصلِّي.

وينبغي قرن السَّلام مع الصَّلاة، فلو قلت: «اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّد» ـ فقط ـ أو: «اللَّهُمَّ سلِّم عليه» فلا بأس، لكنَّ الأولى أن تجمع بين الصَّلاة والسَّلام خروجاً من الخلاف؛ فإنَّ طائفة من أهل العلم يكرهون ذلك.

---

(١) الشِّفا (ص٥٩١)، مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٤٣).
(٢) نقلها شيخ الإسلام في (الاقتضاء ١/ ٣٣٩).
(٣) رواهُ مسلمٌ من حديث عبد الله بن عمرو (٣٨٤)، ومن حديث أبي هريرة (٤٠٨) رضي الله عنه.

والحاصلُ: أنَّ الحديثَ يدلُّ على أنَّهُ لا ينبغي أن تدعو عند القبر، بل إذا سلَّمت عليه ﷺ وعلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما تتَّجه نحو القبلة وتدعو بما تيسَّر لك، دون أن تدعو وأنت متَّجه نحو القبر، حسماً لموادِّ الشِّرك ولوسائله وذرائعه الموصلة إليه.

وأما شدُّ الرَّحل لصلة الرَّحم ولزيارة المرضى، وطلب العلم، ونحو هذا فجائزٌ؛ فهذه ليست مواضع، والكلام في المواضع من الأرض، أمَّا المعاني فالحديث لا يشملها.



بابُ

ما جاء أنَّ بعض هذه الأُمَّة يعبد الأوثانَ

وقـولِ الله ـ تـعـالـى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم، حذو القذَّةِ بالقذَّةِ، حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموهُ»**.

قالوا: يا رسول الله، اليهودُ والنَّصارى؟

قال: **«فمن؟!»** أخرجاهُ.

ولمسلم عن ثوبانَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإنِّي سألت ربي لأُمَّتي أن لا يهلكها بسنةٍ بعامَّةٍ، وأن لا يسلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيحُ بيضتهم، وإنَّ**

ربي قال: يا محمَّد إذا قضيتُ قضاءً فإنَّهُ لا يُردُّ؛ وإنِّي أعطيتك لأُمَّتك ألَّا أهلكهم بسنةٍ بعامَّةٍ، وأن لا أسلِّطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيحُ بيضتهم، ولو اجتمعَ عليهم من بأقطارها، حتَّى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

ورواهُ البرقانيُّ في صحيحِهِ، وزاد: «وإنَّما أخاف على أُمَّتي الأئمَّة المضلِّين، وإذا وقع عليهم السَّيف لم يُرفع إلى يوم القيامة، ولا تقومُ السَّاعة حتَّى يلحق حيٌّ من أُمَّتي بالمشركين، وحتَّى تعبدَ فئةٌ من أُمَّتي الأوثانَ، وإنَّهُ سيكون في أُمَّتي كذَّابون ثلاثون، كُلُّهم يزعم أنَّهُ نبيٌّ، وأنا خاتمُ النبيِّين، لا نبيَّ بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ منصورةٌ، لا يضرُّهُم من خذلهم حتَّى يأتي أمرُ اللهِ ـ تبارك وتعالى ـ».



بابُ
ما جاء أنَّ بعض هذه الأُمَّة يعبد الأوثانَ

أراد المصنِّف بهذه التَّرجمة بيان أنَّ هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها من يعبدُ الأوثان، ردّاً على من قال: «إنَّ هذه الأُمَّة لا يقعُ فيها شركٌ»؛ فإنَّ بعض المنتسبين للعلم ألَّف المؤلَّفات العديدة في هذا الموضوع، وزعَم أنَّ الأُمَّة معصومة عن الشِّرك، ولا يمكن أن يقع فيها أيُّ شركٍ، وإنَّما يقع فيها المعاصي والمخالفات والكبائر، ولكن القرآن والسُّنَّة يردَّان عليه، من أجل هذا عقد المصنِّف هذه التَّرجمة.

نعم؛ الحقُّ لا يزال فيها ولا ينقطع، وهذه التَّرجمة التي ترجم بها المصنِّفُ قريبة من ترجمة البخاري في صحيحه حيث يقول: (**باب تغيُّر الزَّمان حتى تعبد الأوثان**)، حدثنا أبو اليمان، عن شعيب، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى تضطرب أليات نساء دوسٍ عند ذي الخلصة**»[1].

وهناك أحاديث وآثار أوردها ابنُ حجر في «شرح البخاري»[2] على هذا المعنى تدلُّ على أنَّ هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها الشِّرك.

والقائلون بأنَّ هذه الأُمَّة لا يقعُ فيها شركٌ يستدلُّون بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] قالوا: لمَّا أنَّ الله أكمل لنا الدِّين، وبيَّن لنا الرَّسول ﷺ البلاغ المبين، ورضي لنا الرَّبُ الإسلام ديناً، ونحن مستمسِكُون به فلا يقع الشِّرك فينا.

واستدلُّوا ـ أيضاً ـ بحديث: «**إنَّ الشَّيطان أيس أن يعبده المصلُّون في**

(١) صحيح البخاري (٩/٥٨) (٧١١٦).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٧٧).

جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينكم»[(١)]، قالوا: هذا يدلُّ على أنَّ الأُمَّةَ لا يقعُ فيها شركٌ.

والجوابُ عن هذا واضحٌ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ أي: كَمُلَ الدِّين عندما أنزلت هذه الآية، وفَهِمَ أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنَّ الشيء إذا كَمُلَ لا بُدَّ وأن يعتريه النَّقصُ[(٢)]، فما من شيءٍ كَمُلَ إلَّا ومآلُهُ النَّقصُ بكُلِّ حالٍ[(٣)].

وقال الرَّسول ﷺ في خطبته: «**لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...**»[(٤)]، وقال: «**أخوفُ ما أخاف عليكم الشِّركُ الأصغر**»[(٥)] إلى غير ذلك، كُلُّ هذا يدلُّ على أنَّهُ لا بُدَّ من وجود الشرك في هذه الأمَّة، ولذا عقد المصنِّف هذه الترجمة: (**باب ما جاء أن بعض هذه الأُمَّة يعبد الأوثان**)[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٩/ ١١٨) (٣٥٥٤٩)، وابن جرير (٨/ ٨١) وفي إسنادِهِ انقطاعٌ.

(٣) كما قال أبو بكر الخوارزميُّ:

إذا تَمَّ شيءٌ بدا نقصُهُ ... ترقَّب زوالاً إذا قيل: تَمَّ

(٤) رواه البخاريُّ (١٢١ ـ ١٧٤١ ـ ٤٤٠٣)، ومسلم (٦٥ ـ ٦٦ ـ ١٦٧٩ ـ ٢٩٠٥) من حديث عبد الله بن عمر وأبي بكرة وجرير ﷺ.

(٥) يأتي تخريجه.

(٦) وأمَّا الجواب عن الاستدلال بحديث «**إنَّ الشَّيطان أيس...**» فقد بيَّنه الشَّارح في أوَّل الكتاب، **وخلاصته**: أنَّ اليأس وقع من الشَّيطان حين أصابته الحسرة من انتشار الخير، وليس في الحديث أنَّ يأسه وظنَّهُ صحيحٌ.

۞ وقولِ الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

المعنى: أنَّ هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها نظير ما وجد عند اليهود والنصارى، ممَّا تضمَّنته هذه الآية.

وسبب نزول الآية هو: أنَّ المشركين بعثوا من قبلهم وفداً إلى يهود المدينة وقالوا: جئنا نسألكم عنَّا وعن محمَّد؟

قالوا: ما أنتم وما محمَّد؟ ـ والقائل حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وهما أعلم علماء اليهود، ولكنَّهم أشرُّهم ضلالاً ـ.

قالوا: محمَّدٌ صنبورٌ ـ يعني: وحدَهُ ـ، لم يتبعه إلَّا سُرَّاق الحجيج من مزينة وغفار، ونحن نسقي الماء واللَّبن وننحر الكوماء[1] ـ يعني: للحُجَّاج ـ، ونحن سدنة بيت الله الحرام.

فقال الكافرانِ الكاذبانِ الجاحدانِ الملعونانِ: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً من محمَّد.

فأنزل الله: (﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾) ـ وهما حيي بن أخطب وكعب بن أشرف ـ ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ ـ يعني: من محمَّد ـ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥١، ٥٢][2].

---

(١) هي: النَّاقة الضَّخمة طويلة السَّنام، فإذا كانت عظيمة السَّنام فهي: (مِقحاد)، ينظر: فقه اللُّغة للثَّعالبيِّ (١/ ١٢٢)، ومن الأمثلة النَّحويَّة في ذكر (رُبَّ) للتَّقليل قولهم: «رُبَّ ناقةٍ كوماءَ نُحِرَتْ».

(٢) رواه سعيد بن منصور (٦٤٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٤) من طريق عمرو بن دينار.
ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١٦٤) من طريق أيوب السختياني.
ورواه الطبري (٧/ ١٤٢) من طريق خالد بن عبد الله الطحان وعبد الوهاب الثقفي كلاهما عن داود ـ وهو ابن أبي هند ـ. =

لا بُدَّ أن يوجد في علماء الأُمَّة نظير ما وجد من حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، يغيِّرون الحقائق، ويفضِّلون طرق الشِّرك، أو طرق الشيوعيَّة والإلحاد المخالفة لشرع الله ودينه، لا بُدَّ أن يوجد في علماء هذه الأُمَّة نظير ما وجد في علماء اليهود والنصارى، هذا هو المعنى، وهذا وجه مطابقة الآية للتَّرجمة.

= جميعهم: عمرو، وأيوب، وداود عن عكرمة مرسلاً.
وقد اختلف فيه على داود فرواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٣) والطبري (٧/ ١٤٢) من طريق محمد بن أبي عديٍّ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ، ورواية الجماعة أصحُّ، وابن أبي عديٍّ قد سلكَ الجادَّة.
تنبيه: رواية الإمام أحمد عن ابن أبي عديٍّ نقلها ابن كثير في التَّفسير (٣/ ١٣٩) وليست موجودة في نسخ المسند التي بين أيدينا.

۞ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

اليهود لما حُرِّمَ عليهم الاصطياد يوم السَّبت تحيَّلوا حِيلاً، فنصبوا الشِّباك يوم الجمعة، تأتي الحيتان على عادتها فتقع في شباكهم يوم السَّبت، فإذا انتهى يوم السَّبت جاءوا وأخذوها، فقالوا: «نحن لم نصطد يوم السَّبت»!، فلعنهم الله عند ذلك، وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير؛ لأنَّهم تحيَّلوا إلى ارتكاب المحرَّم بما صورته صورة المباح؛ فلهذا لا تجوز الحيلُ في الشَّريعة الإسلاميَّة، وقد ورد في الحديث: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود والنَّصارى؛ فتستحلُّوا ما حرَّم الله بأدنى الحِيلِ**»[1].

(١) رواه ابن بطَّة (إبطال الحيل ص٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه ضعف.

۞ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

أي: بنوا مسجداً على أصحاب الكهف، **والمعنى**: أنَّهُ لا بد أن يوجد في هذه الأُمَّة من يبني المساجد على قبور الصُّلحاء والأنبياء نظير ما هو موجود في الأمم السَّالفة قبلنا سواء بسواء.

والقبوريُّون يقولون: إنَّ الآية دلَّت على مدح اتِّخاذ المساجد على القبور؛ لأنَّهُ قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١] فالآية خرجت مخرجَ المدحِ!

ولا يخفى فساد هذا، بل خرجت مخرج الذَّمِّ والعيبِ لهم، سواء كانوا مسلمين أو مشركين، والنَّبيُّ ﷺ قال: «**لعنة الله على اليهود والنَّصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1]، وهذا يبيِّن أنَّ المقام ليس مقام مدح، وإنَّما مقام ذمٍّ، والمفسِّرون تكلَّموا على هذه الآية، وأحسن من تكلَّم عليها ونقل أقوال العلماء الأربعة في تحريم بناء المساجد على القبور والأدلَّة في ذلك هو الألوسيُّ في (تفسيره)؛ فإنَّهُ بسطَ المسألة وأوضحها ونقل أقوال العلماء، وردَّ زعمَ من قال: «إنَّ المراد هو المدح، وأنَّهُ يجوز اتِّخاذ المساجد على القبور»، وبالغَ في ذلك ـ جزاه الله خيراً ـ[2].

والمعنى: أنَّ هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها نظير ما وجد في الأمم السَّالفة، وقال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النَّصارى»[3]؛ لأنَّ اليهود يعرفون الحقَّ ولم يعملوا به، والنَّصارى يعبدون الله على جهل وضلال، وهم المذكورون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

(١) سبق تخريجه.
(٢) ينظر: تفسير الألوسي (٨/ ٢٢٤).
(٣) ينظر: الفتاوى الكبرى (٢/ ١٤٢)، درء التَّعارض (٨/ ٦٩).

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧] وهم: اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ وهم: النصارى، فانطبق عليهم قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وهنا دسائس يفعلها المستعمرون اليوم في رحلاتهم واقتراحاتهم السِّياسيَّة عندما يريدون نشر مبدأ من مبادئهم؛ كالشيوعيَّة أو القاديانيَّة أو اليهوديَّة أو النَّصرانيَّة، فعندهم خطَّة، وهي أنَّهم يرون المسلمين فيهم علماء أفاضل، وفيهم أهل خير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فيقولون: ينبغي إيجاد فجوة بين هؤلاء وبين عامَّة المسلمين، وصورة الفجوة أن يقال: «إنَّهم قصَّروا ولم يقوموا بواجبهم، وأنَّ الوظائف أغرقتهم، وأنَّهم كذا وكذا»، فينبغي نشر هذا بين العامَّة، حتَّى إنَّ العامَّة ينفرونَ من العلماء ولا يقبلون منهم، فإذا جئنا بأيِّ مذهبٍ أو بدعةٍ تقبَّلتهُ العامَّة؛ لأنَّ العقبة الكأداء في سبيل ما نريدُهُ هم: العلماء، فإذا أوجدتم فجوةً بينهم وبين العامَّة صار العامَّة لا يقبلون منهم، وصاروا مسرحاً لقبول أيِّ دعوة تأتيهم من غير المسلمين، هذا من خططهم التي قرأناها عنهم.

وهذا من أهمِّ ما ينبغي التَّنبُّهُ لَهُ، وهو أنَّ الدُّعاة للباطل يُوجِدون فجوةً بين العلماء وبين العامَّة، حتَّى إنَّهم إذا نصحوهم، وبيَّنوا لهم الأدلَّة، وهدوهم إلى الطَّريق لم يقبلوا منهم، إذن يقبلون أيَّ دعوة مخالفة لدعوة الإسلام، هذا من خطط المستعمرين.

ثُّم ذكروا الدَّعوة للشيوعيَّة، وقالوا: الشيوعيَّة لا بُدَّ منها، وهي تتركَّز على أمور، ننبِّه عليها عامَّة المسلمين؛ حتَّى نستطيع أن ندخل عليهم الشيوعيَّة.

فنقول: هذا المال الذي بين المسلمين هو الذي سبَّب القتال، فما هناك قتال بين الحكومات وبين الأفراد، وبين الأسر، وبين النَّاس، إلَّا وسببه المال، فلا بُدَّ أن نستأصل هذا المال ونأخذه من أيديهم حتَّى يصيروا إخواناً، ونستريح من القتل والقتال؛ لأنَّ القتال بين الحكومات والدول، والخصومات

بين الأقارب والأسر، وبين عامَّة المسلمين، كُلُّهُ نشأ بسبب طلب المال، والدَّعوة إلى المال، فإذا سلبنا ما في أيديهم من المال وجعلناهم سواسية ذهبت الضغائن؛ فالشيوعية لا تميِّز بين هذا وهذا، هذا من خطط القضاء على الإسلام، ولهم خطط أخرى طويلة عريضة.

والحاصل: أنَّ هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها نظير ما وجد في الأمم التي قبلها.

۞ عن أبي سعيد ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم، حذو القذَّةِ بالقذَّةِ، حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموهُ**».

قالوا: يا رسول الله، اليهودُ والنَّصارى؟

قال: «**فمن؟!**» أخرجاهُ(١).

(**اليهودُ والنَّصارى**): بالرفع على أنَّهُ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: أهم اليهودُ والنَّصارى؟

ويجوزُ النَّصب: (اليهودَ والنَّصارى)، على أنَّهُ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: تعني اليهودَ والنَّصارى؟

قال: (**فمن؟!**): فمن المعنيُّون إلَّا أولئك.

وهذا الحديث دلَّ على أنَّهُ لا بُدَّ أن يقعَ في هذه الأُمَّة نظير ما وقعَ في الأمم الأخرى من الانحراف عن دينها؛ كما دلَّت عليه الآيات السَّابقة، هذا وجهُ مطابقةِ الحديث للتَّرجمة، وذكرِهِ بعد الآيات السَّابقة.

(**لتتبعُنَّ**): اللَّام موطِّئةٌ للقسم؛ أي: ممهِّدة للقسم، فالمعنى: «**والله لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم**»، جاءت في جواب قسمٍ محذوفٍ، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

(**حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ**): لن تخرجوا عن سنن اليهود والنَّصارى والأمم التي قبلكم، حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ؛ أي: كريشة السَّهم مقابلة للريشة الأخرى، لا تزيدُ عليها ولا تنقص.

وقد وقع قولُ النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ اليهود قد استحلُّوا الرِّبا، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٢٠)، ومسلمٌ (٢٦٦٩).

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١]، وقد وُجِدَ في هذه الأُمَّة من يستحِلُّ الرِّبا الذي هو محرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ.

وَوُجِدَ في الأُمَمِ قبلنا من يبني المساجد على القبور ويعتقد في صلحائهم، وَوُجِدَ في هذه الأُمَّةِ نظير ذلك، بنوا القباب على القبور وعبدوها من دون الله، وصرفوا لها محض حقِّ الله ـ تعالى ـ.

كذلك وُجِدَ في الأمم قبلنا من يستحِلُّ المحارم بأدنى الحيل، ووُجِدَ في هذه الأُمَّة من يصنع ذلك.

واليهود يعطِّلون يوم السَّبت، والنَّصارى يعطِّلون يوم الأحد، ويوم الجمعة هو أفضل أيَّام الأسبوع، فصار المسلمون يعطِّلون الأعمال يوم الجمعة، شابهوا اليهود والنَّصارى في هذا، وقد تكلَّم ابنُ تيميَّة على هذه المسألة في كتابه: «اقتضاء الصِّراط المستقيم»(١)، وذكر: أنَّهُ لا ينبغي للمسلمين أن يعطِّلوا الأعمال يوم الجمعة، فهو يومٌ شريفٌ يعملون فيه لآخرتهم، ويعملون فيه لدنياهم، ولا يشابهون فيه غيرهم؛ فإنَّ الصَّحابة ومن بعدهم لم يكونوا يخصِّصون يوم الجمعة بترك الأعمال، وإنَّما يخصِّصونه للتفرُّغ للعبادة بأن يعطِّلوا مساجدهم ويجتمعوا في مسجدٍ واحدٍ، ثُمَّ كُلٌّ يذهبُ إلى عملِهِ، وكذلك قبل الصَّلاة، كُلٌّ يكون في عملِهِ، وليس هناك تعطيلٌ بالكليَّةِ، ولا يوجد في الشَّريعة الإسلاميَّة شيءٌ يُسمَّى تعطيلاً رسميّاً، ولكن لا بُدَّ أن يُوجَدَ في هذه الأُمَّةِ نظير ما وُجِدَ بالأمم قبلها، حتَّى إن خفيَ على النَّاس، وظنُّوا أنَّ هذا عادة، وأنَّ هذا جائز، وأنَّهُ لا بأس بهِ؛ لأنَّهم أَلِفُوهُ واعتادوهُ وتناقلوهُ وفعلوهُ من غير نكيرٍ، فلو قال قائل: «هذا لا ينبغي»؛ لاعتُبِرَ سفيهاً، أو أنَّهُ عاش في القرون الوسطى، وأنَّهُ لم يعرف شيئاً من حضارة الأمم، وما أشبهَ ذلكَ.

(لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم): في بعض روايات الحديث: **«حتَّى لو وُجِدَ**

(١) (١/٣٩٥).

فيهم من يأتي أُمَّهُ علانيةً لوُجِدَ فيكم من يفعلُ ذلكَ»(١)، والنبيُّ ﷺ يقول: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»(٢)، وأقلُّ ما يفيدُهُ الحديث التَّحريم، وإلَّا فظاهره يقتضي الكفر؛ لأنَّهُ من تشبَّهَ بقومٍ فهو يكون من أولئك القوم المتشبَّه بهم، ونحن مأمورون بمخالفتهم ومعاداتهم وبغضهم وعداوتهم، هذه هي ملَّة إبراهيم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهذه الملَّة التي أُمِرَ نبيُّنا ﷺ باتِّباعها بقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

---

(١) رواهُ التِّرمذيُّ (٢٦٤١) من طريق عبد الرَّحمٰن بن زياد الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد ـ وهو أبو عبد الرَّحمٰن الحبلي ـ، عن عبد الله بن عمرو، به مرفوعاً.
أعلَّهُ التِّرمذيُّ بعد إخراجه بقوله: «هذا حديثٌ مفسَّرٌ غريبٌ، لا نعرفُ مثل هذا إلَّا من هذا الوجه».
وعبد الرَّحمٰن بن زياد ضعيفُ الحديثِ، والخبر خبرٌ منكرٌ.

(٢) سبق تخريجه.

۞ ولمسلم عن ثوبانَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإنِّي سألت ربي لأُمَّتي أن لا يهلكها بسنةٍ بعامَّةٍ، وأن لا يسلِّط عليهم عدوًّاً من سوى أنفسهم فيستبيحُ بيضتهم، وإنَّ ربي قال: يا محمَّد إذا قضيتُ قضاءً فإنَّهُ لا يُردُّ وإنِّي أعطيتك لأُمَّتك ألَّا أهلكهم بسنةٍ بعامَّةٍ وألَّا أسلِّطَ عليهم عدوًّاً من سوى أنفسهم فيستبيحُ بيضتهم، ولو اجتمعَ عليهم من بأقطارها حتَّى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»[(١)].

هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، فيه دليلٌ على شيءٍ من معجزات رسول الله ﷺ حيث أخبرَ بالشيء قبلَ وقوعِهِ، لم يقَعْ ما أخبر به إلَّا بعد وفاته ﷺ، في أيَّامِ عمرَ وبعدَهُ.

(**إنَّ الله زوى لي الأرض حتَّى رأيتُ مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها**)؛ أي: ضَمَّ ليَ الأرضَ، فقرَّب أبعادها حتَّى رأى البعيد قريباً، فكأنَّهُ يرى جميعها كما يرى الإنسانُ الخبزَ في كَفِّهِ.

(**وإنَّ أُمَّتي سيبلغُ ملكها ما زوي لي منها**): وقع الأمر كما أخبرَ ﷺ، فإنَّ مُلكَ هذه الأُمَّة اتَّسع شرقاً وغرباً، ما لَمْ يتسع شمالاً وجنوباً، فقد انتهى ملك المسلمين إلى طنجة، دخلوا هذه البلاد، وأخضعوهم إلى أوامر القرآن ونواهيه، هذا من جهة الغرب.

ومن جهة الشرق: إلى سور الصين من وراء خراسان، صارت أُمَّة واحدة، يحملون جوازاً واحداً مع اختلاف لغاتهم، وتباعد ديارهم، جوازُهُم هو: شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله، بينما كانت أُمَّةً ضعيفةً

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٩).

مهينةً، لكن بتمسُّكها بما جاء به نبيُّها ﷺ صارت أرقى الأمم وأعز الشُّعوب، وأزالوا من الوجود مُلك أُمَّتينِ عظيمتينِ هما أقوى أُمم الأرض وأشدُّها بأساً: فارس والرُّوم.

فإنَّ المسلمينَ لما دخلوا بلاد فارس أخضعوهم لأوامر القرآن ونواهيه، وما جرى لهم من الحروب أمرٌ معروفٌ معلومٌ، وما جرى لملك كسرى من الذُّلِّ والهوانِ، فقد بعثَ إلى ملك (فَرْغانة)[1]، يقولُ لَهُ: «الغوث الغوث قبل أن يصل إليك الخطر، فإنَّ أُمَّةً قليلة من بلاد العرب دهمت بلادنا، واستباحت نساءنا وأموالنا، الغوث قبل أن يصل إليك الخطر»، بعث بكتابه هذا رجلاً من قِبَلِهِ، لما وصل الرَّسولُ إلى ملك فَرْغَانَةَ وقرأ الكتاب خلا بالرَّسول وقال: «ويحك أخبرني عن هذه الشِّرذمة القليلة التي دهمت بلاد فارس، وقد مضى عليها في الملك أكثر من أربعة آلاف سنة».

قال: «إنَّهم قومٌ من العرب دهموا البلاد كما أخبرك الملك في كتابه».

قال: «أسألك وتصدقني؟»

قال: «أفعل».

قال: «ماذا يقولون؟»

قال: يقولون: «اعبدوا الله وحده لاشريك له»، ويأمرون بالعفاف وصلةِ الأرحام، وينهون عن عبادة الأوثان.

قال: «فما عبادتهم؟»

قال: «خمس صلوات في اليوم واللَّيلة، إذا حضرت قاموا يؤدونها منتظمين صفوفاً خلف إمامهم، هي أحبُّ إليهم من أنفسهم ونسائهم وأبنائهم».

قال: «هل يغدرون إذا عاهدوا؟».

قال: «لا».

قال: «هل يفون إذا وعدوا؟»

---

(١) بلدٌ من بلدان ما وراء النهر، قريب من تركستان، وكُلُّ مَنْ مَلَكَ فرغانة يلقَّب بالإخشيد، ينظر: معجم البلدان (٤/ ٢٥٣)، البداية والنِّهاية (١٥/ ١٧٤).

قال: «نعم».

قال: «فإن أعطيتموهم ما طلبوا؟»

قال: «ذهبوا وتركونا».

قال: «ارجع إلى رستم، وقل له: صالحوا القومَ فوالله لا طاقةَ لي ولا لكم بهم، والله لو حاربوا الجبال لزحزحوها من أمكنتها ما داموا على هذه الحالة»(١).

فالقومُ عَرفوا الإسلام وعَرفوا ماذا يدعو إليه الإسلام وماذا ينهى عنه.

هذا معنى قول النبيِّ ﷺ: «**وإنَّ أُمَّتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها**»، والمسلمون لما حاربوا قيصر ملك الروم، عندها أحسَّ بالضعف وانكسرت جيوشه، وهُزموا شرَّ هزيمة، وظهرَ وعدُ اللهِ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧] ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فحمل أهله وما يستطيع حمله من الشَّام ذاهباً إلى بلاده وبكى وهو راكب بعيره حتَّى أخضل لحيته بالبكاء وقال: «السَّلام عليك يا سُوريا، سلام مودع لا لقاء بعدَهُ»؛ لعلمه أنَّ هذا دينٌ من تمسَّك به سادَ، ومن ضيَّعَهُ ضاعَ، ولم يُهزم المسلمون، لكن لما غيَّروا غُيِّرَ عليهم، وأصبحوا غثاء كغثاء السَّيل، كما أخبر النبيُّ ﷺ، فهذا ابنُ الأثير يقول في شأن المسلمين لما أراد ذكر واقعة التتار حين خرجوا يريدون استئصال المسلمين وقُتل في يوم واحد سبع مئة ألف من المسلمين، قال ابنُ الأثير: «كنتُ أقدِّم رجلاً وأؤخِّر أخرى، هل أذكرُ واقعةَ التتار أم لا؟!

هل أذكرُ ما حلَّ بالمسلمين؟!

هل أذكرُ المصائب التي جرت على الإسلام وأهله؟!».

ثُمَّ قالَ: «يا ليت أُمِّي لم تلدني، يا ليتني كنتُ نسياً منسيًّا!!»، ثُم أخذَ يُبيِّن شيئاً من الواقعة(٢)، مع أنَّهُ توفي قبل أن يكمل واقعة التتار، وإنَّما ذكر

---

(١) ينظر: تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه (١/ ٤٢٢).

(٢) ينظر: الكامل في التَّاريخ (١٠/ ٣٣٣).

مقدِّمة خروجهم، وبسطَها السُّبكيُّ[1] وغيرُهُ.

قال: **(وأُعطيتُ الكنزينِ الأحمر والأبيض)**؛ أي: الذَّهب والفضَّة.

(وإنِّي سألتُ ربي لأُمَّتي ألَّا يهلكها بسنةٍ بعامَّةٍ): فالرَّسول ﷺ سأل ربَّهُ ألَّا يهلك هذه الأُمَّة بالجَدْبِ والسِّنينَ، كما أهلك آل فرعون بالسِّنين، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فالله ضَمِنَ لهذه الأُمَّة أنَّهُ لا يهلكها بالجدب والسِّنين المتتابعة والجوع أبداً.

(وألَّا يسلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيحُ بيضتهم) وهي: ساحتهم وما يملكونه من البلاد.

(قال الله: إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّهُ لا يُردُّ)؛ أي: إذا حكمتُ حكماً مُبرماً فلا قدرةَ لأحدٍ على ردِّهِ.

(وإنِّي أعطيتك لأُمَّتك ألَّا أهلكها بسنةٍ بعامَّةٍ، وألَّا أسلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتَّى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً): فالله أعطى محمَّداً ﷺ ما طلبَ، ما عدا تسليط بعضهم على بعض، فإذا اختلفت الأُمَّةُ سلَّط عليها الكفَّار، ودخلوا من هذه الجهة؛ فإنَّ الله يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١] نفيٌ من الله نفياً قاطعاً لأيِّ سلطة للكافر على المؤمن، **المعنى**: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سلطاناً، لكن قد تقول: نَجدُ الآن السلطة للكفَّار على المسلمين فأين وعد الله في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وفي قوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١]، وفي قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

---

(١) طبقات الشَّافعية الكبرى (١/ ٣٢٩).

دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؟! بل نَجدُ الكافرين لهم القوَّة ولهم السُّلطة ولهم الهيمنة ولهم التأثيرُ على المسلمين، والمسلمون لا قدرةَ لهم على مدافعتهم!

نقول لك: هذا وعدُ الله ولن يُخلف اللهُ وعدَهُ، لكن هل المسلمون اليوم ينطبقُ عليهم أنَّهُم مؤمنون حقّاً؟!

تقول: ما علامة اختلال شيء من الإيمان؟

نقول لك: المؤمنون الذين جاء ذكرهم في الآيات السَّالفة ووعدهم الله بالنصر وصفهم الله بخمس صفات فانظر هل تنطبق على المسلمين اليوم؟! هذه الصفات هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تعظيماً لله وهيبة من خالقهم وبارئهم هل يوجد شيءٌ من ذلك فينا؟!

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ إذا سمعت القرآن هل يخشع قلبك وتخشع جوارحك وتعمل بما سمعت؟!

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾؛ أي: يعتمدون على الله في جميع أمورهم ومُلمَّاتهم، وليس في قلوبهم أجلُّ من خالقهم، مع الأمر بتعاطي الأسباب، هل هذا منطبقٌ علينا؟!

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يؤدُّون الصَّلاة بواجباتها وشروطها وسننها في أوقاتها، هل هذا منطبقٌ علينا؟!

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: يؤدُّون زكاة أموالهم طيبةً بها نفوسهم بنيَّة صادقةٍ وإخلاصٍ لله، هل هذا منطبقٌ علينا؟! ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾.

۞ ورواهُ البرقانيُّ في «صحيحِهِ»، وزاد: «**وإنَّما أخاف على أُمَّتي الأئمَّة المضلِّين، وإذا وقع عليهم السَّيف لم يُرفع إلى يوم القيامة، ولا تقومُ السَّاعة حتَّى يلحق حيٌّ من أُمَّتي بالمشركين، وحتَّى تعبدَ فئةٌ من أُمَّتي الأوثان، وإنَّهُ سيكون في أُمَّتي كذَّابون ثلاثون، كُلُّهم يزعم أنَّهُ نبيٌّ، وأنا خاتمُ النبيِّين، لا نبيَّ بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ منصورةٌ لا يضرُّهُم من خذلهم حتَّى يأتي أمرُ اللهِ ـ تبارك وتعالى ـ**»[(١)].

(**الأئمَّة**): جمعُ إمامٍ، والإمام هو من يقتدى به، فكُلٌّ من يقتدى به فهو إمامٌ، وإذا كان يقتدى به في غير الخير، فهذا من الأئمَّة المضلِّين؛ كما في هذا الحديث، وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ وذلك لأنَّهُم قادة في الشَّر والبلاء، وقادة في مخالفة ما جاء به النَّبيُّ ﷺ، كما هو واقعٌ فيه كثير من النَّاس.

وعلماء الضلالة ينقسمون إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: علماء ضلالة، ممَّن يبيعُ دينَهُ بدنيا غيرِهِ، علماء الفسوق،

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمد (٣٧/ ٧٩) (٢٢٣٩٥)، وأبو داود (٤٢٥٢) ـ تامَّاً ـ، والتِّرمذيُّ (٢١٧٦)، وابن ماجه (٣٩٥٢) ـ مختصراً ـ، من طريق أبي قلابة، عن أبي أسماء الرَّحبي، عن ثوبان، به مرفوعاً.
ومن هذا الطريق أخرجه مسلم سواء بسواء، بل شيخ مسلم وشيخ الترمذيِّ واحد! فإعراضُ مسلمٍ عن هذه الزِّيادة مع تحصُّلها لَهُ ـ روايةً ـ مشعِرٌ بإعلالها، والله أعلم.

آلة السِّياسة، وأعوان الرِّياسة، هؤلاء من الأئمَّة المضلِّين؛ وذلك لأنَّهم يفتون الرُّؤساء تزلُّفاً لديهم وتقرُّباً إليهم؛ لطمعٍ في دنياهم.

القسمُ الثَّاني: من يدعو إلى بدعته ويأمر النَّاس باتِّباعه، ويقول: «قد جئتكم بما لم يأت به غيري»؛ كأحمد التيجاني له أتباعٌ كثيرون لا يحصون في المغرب، يُسمَّون: (التيجانيَّة)، جاءهم بوردٍ يزعم أنَّ قراءته تفضل على قراءة القرآن بستَّة آلاف مرَّة، ويزعم أنَّ أصحابه ومتَّبعيه أفضل من أصحاب الرَّسول ﷺ، ويزعم أنَّ روح الرَّسول ﷺ حلَّت في جسمِهِ، وأنَّهُ يحكي عن الله؛ كما كان الرَّسول ﷺ يحكي عن الله، هذا لا شكَّ أنَّهُ من الأئمَّة المضلِّين، وأمثالهم كثير من المبتدعة وأهل الطُّرق المنحرفة والطَّوائف التي خرجت عن الطَّريق المستقيم، وهذا معنى قوله ﷺ: «**وإنَّما أخاف على أمَّتي الأئمَّة المضلِّين**»؛ لأنَّ هؤلاء أعوان الشَّيطان، يُحسِّنون للناس الضَّلال، ويقولون: إنَّ هذا هو الحقَّ، وليس هو بالحقِّ بل هو الضَّلال البعيد، وهذا مصداق ما أخبر به النبيُّ ﷺ من خوفه على أُمَّته من أمثال هؤلاء.

(وإذا وقع عليهم السَّيف لم يرفع إلى يوم القيامة): هذا من علامات نبوَّته ﷺ؛ فإنَّ السَّيف منذ وقع على رقبة عثمان رضي الله عنه وهو لا يزال باقٍ في هذه الأُمَّة، لا يرتفع إلى يوم القيامة، إلَّا أنَّهُ يقِلُّ ويكثرُ، فرُبَّما وقعَ في جهةٍ، وارتفعَ عن جهة.

وعثمان رضي الله عنه هو ثالث الخلفاء ومن أجلِّ الصَّحابة وأفضلهم، وقد شهد له النبيُّ ﷺ بالجنَّة، وهو ذو النُّورين، تزوَّج بنتين من بنات الرَّسول ﷺ، وما وقع له في آخر أيَّامه هو ابتلاء وامتحان، ولما قتل رضي الله عنه أنشد حسان بن ثابت قصيدته المعروفة التي قال فيها:

ضحَّوا بأشمط عنوان السُّجود به ... يقطِّع اللَّيل تسبيحاً وقرآناً[(١)]

وما وقع بين الصَّحابة هو مصداق ما أخبر به الرَّسول ﷺ، فقد وقع

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٤٩)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٥٢).

بسبب قتل عثمان ما وقع كوقعة صِفِّين، ووقعة الجمل، وخروج الخوارج، وما حصل بين عليٍّ ومعاويةَ ﭬ، ثُمَّ فتنة ابن الأشعث، وسليمان بن صرد، إلى غير ذلك من الفتن التي لا تحصى، وهذا معنى قوله ﷺ: **(وإذا وقع عليهم السَّيف لم يرفع إلى يوم القيامة)**.

إلَّا أن أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يمسكون عن الكلام فيما شجر بين الصَّحابة، ويترضَّون عنهم، ويقولون: هم في ذلك إمَّا مجتهدون مصيبون، أو مجتهدون مخطئون، وخطؤهم مغفورٌ لهم؛ لأنَّهُ نشأ عن حسن نيَّة واجتهاد، ثُمَّ هذا الخطأ مغمورٌ في جانب فضلهم، وجانب سابقتهم، وتصديقهم للرَّسول ﷺ، وإيمانهم به، وجهادهم معه ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ، وكما قال بعض السَّلف: «تلك دماءٌ طهَّر الله منها سيوفنا فنطهِّر منها ألسنتنا»[١].

(ولا تقومُ السَّاعة حتَّى يلحق حيٌّ من أُمَّتي بالمشركين): (الحيُّ): القبيلة، يلحقون بالمشركين، ويدينون بما عليه المشركون، وهذا وقع كما أخبر به ﷺ؛ فإنَّ من تأمَّل التَّاريخ ونظر فيما ورد في الوقائع التي حصلت بعد وفاته ﷺ، وبعد وفاة أبي بكر ﭬ، وما حصل من الرِّدَّةِ في أيَّام أبي بكر وما بعده في كُلِّ قرنٍ وجيلٍ، عرفَ مصداق ما أخبر به الرَّسول ﷺ من قوله: **(ولا تقوم السَّاعة حتَّى يلحق حيٌّ من أُمَّتي بالمشركين)**.

(وحتَّى تعبدَ فئة من أُمَّتي الأوثان): هذا شاهدُ التَّرجمة من أنَّ هذه الأُمَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها من يعبد الأوثان؛ كما وُجِدَ في مشركي العرب الذين بُعِثَ فيهم النَّبيُّ ﷺ، وإن سمَّوا عبادتهم للأوثان: (توسُّلاً)، أو (طلباً للشَّفاعة)، فالحقيقة أنَّها عبادة، والأسماء لا تغيِّر الحقائق، ولكن هذا مصداق ما أخبر به الرَّسول ﷺ من وقوع الشِّرك في هذه الأُمَّة، كما هو واقعٌ في وقتنا هذا وقبل

(١) ينظر: منهاج السُّنَّة (٦/ ٢٥٤)، معجم الشيوخ للذَّهبي (٢/ ١٨٦).

وقتنا بدهرٍ من افتتانهم بالقبور، وذبحهم لها، وعبادتهم أصحابها من دون الله، وطلب المددِ منهم، وسؤالهم تفريج الكربات، وإغاثة اللَّهفات، وصرف محض حقِّ ربِّ العالمين لهم، بالإضافة إلى آخرين يقولون: «إنَّ هؤلاء العلماء يعرفون العلوم الظَّاهرة، ولكن علم الباطن لا يعرفونه»؛ كابن عربيٍّ الطائيِّ؛ فإنَّ عنده من الشَّقاشق والعبارات الكثيرة المتنتة الكفريَّة ما يعرفه كُلُّ أحدٍ؛ فإنَّهُ يقول في حقِّ الله ﷻ:

إن شئتَ من ملَك إن شئتَ من بشرٍ ... إن شئتَ من شجرٍ إن شئتَ من حجرِ
إن شئتَ من جبلٍ إن شئتَ من رسلٍ ... إن شئتَ من بلدٍ إن شئتَ من نارِ

يعني: ما في هذا الوجود إلَّا الله، فهذا من الأئمَّة المضلِّين، وهذا في الحقيقة أكفر من اليهود والنَّصارى؛ كما قالَ شيخ الإسلام ابن تيميَّة(١).

(وإنَّه سيكون في أُمَّتي كذَّابون ثلاثون، كُلُّهم يزعم أنَّهُ نبيٌّ وأنا خاتم النبيِّين لا نبيَّ بعدي): أخبر في هذا الحديث بأنَّهُ سيأتي أناسٌ يدَّعون أنَّهم أنبياء، وأنَّ جبريل عليه السلام يأتيهم بالوحي، وأنَّهم ثلاثون شخصاً، ووقع كما أخبر؛ فإنَّ أناساً ادَّعوا أنَّهم رسل، وأنَّهم أنبياء الله، وهم كذبة فيما ادَّعوه، منهم مُسيلمة الكذَّاب، قتله خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر، وكان معه خلقٌ كثيرٌ من بني حنيفة، فغزاهُ المسلمون في عقرِ دارِهِ، وقتلوهُ، وأبادوا خضراءه، لكن قُتل من الصَّحابة خلقٌ كثيرٌ ـ أيضاً ـ، واستحرَّ القتلُ في القُرَّاء من الصَّحابة رضي الله عنهم.

كذلك ـ أيضاً ـ الأسودُ العنسيُّ في اليمن، ولكن تصدَّى له بعض المسلمين فقتلوه في حياة النَّبيِّ ﷺ.

وكذلك ـ أيضاً ـ طليحة بن خويلد الأسدي في خلافة أبي بكر، كان يلتفُّ في كسائه، ويقول: «هذا جبريل أتاني ليخبرني بما أمر الله به»، فتبعه

(١) ينظر: التَّدمريَّة (ص٤٩)، شرح الأصفهانيَّة (ص١٥٨)، الفتاوى الكبرى (٣/ ٥٠٢).

خلق كثير فقاتله الصَّحابة، ولكنَّهُ أسلم وحسن إسلامه، واستشهد يوم القادسيَّة في العراق في خلافة عمر رضي الله عنه.

وكذلك سجاح، وهي امرأةٌ من بني تميم، ادَّعت أنَّ الوحي يأتيها، فتبعها من بني تميم نحو مئة ألف مقاتل، فصار معها خلقٌ كثيرٌ، واتَّفقت مع مسيلمة؛ كما هو معلومٌ في كتب الأخبار، لكن نُقِلَ أنَّها أسلمت وتابت ولهذا قال الشَّاعر(١):

وأمَّا سجاح يا جهولُ فأسلمتْ ... وربُّك توَّابٌ على كُلِّ تائبِ

ويقول شاعر بني تميم في شأن سجاح:

أمسَتْ نبيَّتُنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء النَّاس ذكراناً

يعرِّضُ بأنَّ نبيَّتهم أنثى، وخبرها مع مسيلمة حينما خطبها معلومٌ في كتب التَّاريخ، وقد أشار إلى شيء من هذا ابن جرير في «تاريخه»، وابن كثير(٢).

وكذا المختار ابن أبي عُبيد؛ فإنَّهُ تولَّى العراق وتتبَّع قتلةَ الحسين بن علي، ولكنَّ الشَّيطان زيَّن له، وادَّعى أنَّ جبريل عليه السلام يأتيه، وقال: «هذه الملائكة تقاتل معنا»، حتَّى إنَّ رجلاً قال: «يا نبيَّ الله رأيت الملائكة تقاتل معنا».

فقال: «أخبر النَّاسَ»، فأخبر النَّاس بأنَّ الملائكة تقاتل مع المختار ابن أبي عبيد، فلمَّا أشاع الرجل هذا الخبر، أخذه المختار وضمَّهُ إليه، وقتلَهُ خشية أن يُكذِّب نفسَهُ، وقُتل المختار بعد ذلك، مع أنَّهُ صارت له شوكةٌ عظيمةٌ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما قد تزوَّج أختَهُ ـ وهي: صفيَّة بنت أبي عبيد ـ.

وكذا الحارث الكذَّاب أيَّام عبد الملك بن مروان، ثُمَّ ظهر كذَّابون ادَّعوا النُّبوَّة في خلافة بني العبَّاس، وعُدَّ من ادَّعى النُّبوَّة وكانت لهم شوكة وقوَّة

---

(١) هو: شيخ شيوخنا الشَّيخ الفقيه عبد اللَّطيف بن إبراهيم آل الشَّيخ ـ رحمه الله تعالى ـ، والبيت من قصيدته في الرَّدِّ على فتى البطحاء (ص١١٩).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٦٧)، البداية والنِّهاية (٩/ ٤٥٧).

وحصل لهم أتباع فبلغوا هذا العدد، أمَّا الذين ادَّعوا النُّبوَّة ولم يتبعهم أحدٌ بل نشأَ ذلك عن جنونٍ أو خللٍ في العقل فهم كثيرون جدًّاً لا يُحصون، ولهم أخبارٌ في كتب الأدب وكتب التَّاريخ، شيءٌ من الجنون، وشيءٌ من الحكايات المضحكة، من ذلك: أنَّ رجلاً ادَّعى النُّبوَّة في عهد هارون الرَّشيد فقال هارون: «احبسوه في هذه الغرفة وأطعموه».

ففعلوا، وكانوا يطعمونه أصنافاً جيِّدة وطيِّبة، فأعجبه ذلك.

وبعد سبعة أيَّام أخرجوه، فقال له الرَّشيد: «هل أنت نبيٌّ؟»

قال: «نعم، وجبريل أتاني اليوم».

فقال الرَّشيد: «ماذا قال لك جبريل؟»

قال: «قال لي: ادخل هذه الغرفة، ولا تخرج منها أبداً».

فضحك الرَّشيد، وكان يريد أن يعاقبه فتركه؛ لأنَّهُ مجنونٌ مختلٌّ، أعجبَهُ الأكلُ فأراد الإقامةَ عندهم!(١).

(**وأنا خاتم النبيِّين**): يعني: أنَّ النُّبوَّة انقطعت بوفاته ﷺ؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فهو الخاتم، لا نبيَّ بعدَهُ.

(**ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ منصورة، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفَهُم**): في هذا الحديث البشارة لهذه الأُمَّة؛ وأنَّ الخير لا يزال باقياً فيها إلى يوم القيامة، ولا ينقطعُ الخير من هذه الأُمَّة، بدليل قوله ﷺ: «**ولا تزال**»، فهم على الحقِّ ثابتون، وبالحقِّ عاملون، ولذا بقيت الطَّائفة المنصورة، وورد في بعض الأخبار أنَّهم بالشَّام وفي بيت المقدس، لكن هذا لا يصحُّ(٢).

---

(١) ينظر: الكامل في التَّاريخ (٤/٣٢٦)، تاريخ الإسلام (٥/٣٨٦).

(٢) زيادةُ: (وأين هي يا رسول الله؟ قال: «**في بيت المقدس، وفي أكناف بيت المقدس**»)، رواها عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (٣٦/٦٥٦) (٢٢٣٢٠) فقال: وجدت في كتاب أبي بخطِّ يده... فذكره من مسند أبي أمامة رضي الله عنه.

=

بل قالَ الإمامُ النَّوويُّ[(١)] وغيرُهُ: «لا يشترط أن يكونوا في موضع معيَّنٍ، أو جهة معيَّنة، بل يمكن وجودهم وهم متفرِّقون، وقد لا يعرف بعضهم بعضاً».

كما هو الواقع؛ فإنَّ منهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومنهم من يعرف الحديث ويبيِّنه، ومنهم من يبيِّن للنَّاس محاسن الشَّريعة وحِكَمها وأسرارها، ومنهم من يدعو إلى الله على طريقة الرُّسل، هؤلاء هم الطَّائفة المنصورة ما داموا على الحقِّ مستقيمين، لكن لا يشترط أن يكونوا جماعة لهم غلبة وقوَّة وشوكة، بل يمكن وجودهم على هذه الكيفيَّة.

(**حتَّى يأتي أمرُ اللهِ ـ تبارك وتعالى ـ**): المراد بـ(**أمر الله**): قيام السَّاعة، وقد جاء في الحديث: «**إنَّ الله يبعث ريحاً طيِّبة تأخذ بأبط كُلِّ مؤمنٍ ومؤمنة فيموتوا، ولا يبقى على وجه الأرض إلَّا شرار النَّاس، وعليهم تقوم السَّاعة**»[(٢)].

= ولا يصِحُّ؛ فإنَّ راويه عن أبي أمامة هو: عمرو بن عبد الله السَّيبانيُّ ـ بالسِّين المهملة ـ الحضرميُّ، وهو مجهولٌ، لا يُعرف، ينظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٠)، التَّقريب (ص٧٤٠)، وذكرُ ابنِ حبَّان له في (الثِّقات ١٧٩/٥) لا يغيِّر شيئاً؛ فإنَّهُ ذكرَهُ جرياً على قاعدته في ذلك، وأمَّا قول الهيثميِّ (مجمع الزوائد ٢٨٨/٧): «رجاله ثقات»، فليس بظاهر، ثُمَّ لو اعتبرنا توثيق ابن حبَّان والهيثمي؛ فإنَّ الخبر لا يُقبل تفرُّد عمرٍو بهِ، ولا يُحتمل منه؛ فإنَّ الهمم تتداعى على نقلِهِ!

وممَّا يقوي إعلال الخبر: أنَّ الشيخين أخرجا أصل الخبر وأعرضا عن كُلِّ زيادةٍ تعيِّن موضع الطَّائفة المنصورة (صحيح البخاري: ٧٣١١، صحيح مسلم: ٢٤٧ ـ ١٥٦).

وعدم اعتبار الأئمَّة التَّحديد دالٌّ على أنَّهُ لم يصحَّ عندهم؛ فإنَّ الإمام أحمد رحمه الله سُئل عنهم فقال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم!»، ينظر: معرفة علوم الحديث للحاكم (ص٧).

وقال البخاريُّ رحمه الله (الجامع الصَّحيح ١٠١/٩): «هم أهل العلم».

قال القاضي عياض رحمه الله (إكمال المعلم ٦/ ٣٥٠): «إنَّما أراد الإمام أحمد أهل السُّنَّة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث».

(١) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٧٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النَّواس بن سمعان رضي الله عنه.

(تبارك وتعالى)؛ أي: تعاظم، وهذه العبارة: **(تبارك)** لا يجوزُ إطلاقها إلّا على الله ﷻ؛ كما في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، فالله هو المبارِكُ، والعبدُ هو المبارَكُ، والفعلُ منه بركة، أمَّا ما تقوله العامَّة ممَّا هو جارٍ على ألسنتهم عندما يسوق دابته يقول: «عساها تتبارك»، أو «جعلها تتبارك»، فهذا لا ينبغي، ولا يجوز، فلفظة (تبارك) لا يجوز إطلاقها إلّا على الله، إنَّما تقول: «جعلها اللهُ مباركةً»، هذا لا بأس؛ لأنَّ معنى: **(تبارك)**: تعاظم؛ وهذا لا يصلح إلّا لله، قال ـ تعالى ـ فيما حكى عن عيسى ﵇: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١]، هذا معنى ما يقوله ابن القيِّم وغيرُهُ[(١)].

وأمَّا قولُهم: «زارتنا البركة»، «هذا من بركاتك» فلا بأس به؛ لأنَّهُ من باب التَّفاؤلِ[(٢)].



(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٠).
(٢) ويشهد لقول الشَّارح ﵀ قول أسيد بن حضير في خبر عائشة ﵄ وضياع عِقدها: «**ما هي بأوَّل بركتكم يا آل أبي بكر**»، رواه البخاريُّ (٣٣٤)، ومسلم: (١٠٨ ـ ٣٦٧)، خلافاً لمن منع.

بابُ

ما جاءَ في السِّحرِ

وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقولِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: «الجبتُ»: السِّحرُ، «والطَّاغوتُ»: الشَّيطان.

وقال جابرٌ: «الطَّواغيت»: كُهَّانٌ كان ينزلُ عليهم الشَّيطان في كُلِّ حيٍّ واحدٌ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السَّبعَ الموبقات**».

قالوا: يا رسول الله: وما هُنَّ؟

قال: «**الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتَّولي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ**».

وعن جُندَبٍ مرفوعاً: (**حدُّ السَّاحر ضربهُ بالسَّيفِ**). رواهُ التِّرمذيُّ، وقالَ: «الصَّحيحُ أنَّهُ موقوفٌ».

وفي «صحيح البخاريِّ» عن بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قال: كتبَ

عمرُ بن الخطَّاب: «أن اقتلوا كُلَّ ساحرٍ وساحرةٍ»، قال: فقتلنا ثلاثَ سواحرَ.

وصحَّ عن حفصة رضي الله عنها: أنَّها أمرَتْ بقتلِ جاريةٍ لها سحرتها، فقُتلتْ.

وكذلك صحَّ عن جندبٍ.

قال أحمد: «عن ثلاثةٍ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ».



بابُ
ما جاءَ في السِّحرِ

(السِّحر) هو: ما لُطفَ وخفيَ سببُهُ؛ وذلك أنَّ السَّحرةَ يعملون الأعمال الغريبةَ التي ربَّما أثَّرت في أبدان النَّاس وقلوبهم بما يتعاطونه، تارةً بالعَقْدِ والنَّفْثِ، وتارةً بالأدوية، فيؤثِّر ذلك ببدن المسحور ـ بإذن الله ـ، وهي رُقى وعُقَدٌ ينفثونَ فيها يقصدون بها التَّأثير بالمسحور.

۞ وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: حظٌّ ونصيبٌ.

وفي السِّحر مؤلَّفات عديدة، منها مؤلَّفٌ يسمَّى (مُجرَّبات) وهو مطبوعٌ، ومنها كتاب آخر اسمه: «الجواهر اللمَّاعة لإحضار ملوك الجانِّ في الوقت والسَّاعة»، أعمال تعملها عندهم، سبعة وعشرون عملاً، فإذا عملتها حضرَت الجنُّ والشَّياطين إليك، ولكن لا يمكن ذلك إلَّا بالتقرُّب إليهم، وكذلك كتاب: «شمس المعارف الكبرى»، ولا شكَّ أنَّها كتبُ شرٍّ.

والسِّحر حقيقة، وليس مجرَّد تخيُّلات، ويكفرُ السَّاحر على الصَّحيح، وقال الشَّافعيَّةُ: لا يكفر، بل يُسأل فيقال لَهُ: «صف لنا سحرك»، فإن وصفَهُ بما يقتضي الكفرَ كفرَ وإلَّا فلا[1].

وأمَّا مذهب الجمهور فهو: أنَّ السَّاحرَ كافرٌ، حلالُ الدَّمِ والمالِ[2]؛

(١) ينظر: الأم (١/ ٢٩٣)، الحاوي الكبير (١٣/ ٩٦).
(٢) ينظر: جامع التِّرمذيِّ (٣/ ١١٢)، درر الحكَّام (١/ ٣٠٣)، البحر الرَّائق (٥/ ١٣٦)، البيان والتَّحصيل (١٦/ ٤٤٣)، الذَّخيرة (١٢/ ٣٦)، الفروع (١٠/ ٢٠٦)، الإقناع (٤/ ٣٠٧).

كما في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قالوا: هذا يدلُّ على أنَّهُ يكفر، وأمَّا توبتهُ فقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّها لا تقبل، فلا بُدَّ أن يُقتل تابَ أو لم يتبْ؛ وعلَّلوا ذلك بأنَّ السِّحرَ علمٌ تعلَّمَهُ يعرفُهُ بقلبِهِ، وتوبتُهُ لا تزيلُ هذا العلمَ من قلبِهِ، فتُقبل توبته فيما بينه وبين الله، أمَّا في الأمر الظَّاهر فلا بُدَّ من قتله.

ولكنَّ القولَ الصَّحيحَ أنَّ السَّاحرَ إذا تابَ فإنَّ اللهَ يقبلُ توبته، وتعصم توبته دمَهُ ومالَهُ؛ بدليل قصَّة سحرة فرعون وهم من أشدِّ النَّاس سحراً قُبِلَتْ توبتُهُم، ولم يؤثِّر عليهم عِلمهم بالسِّحر بشيءٍ؛ لأنَّهم اعتقدوا أنَّ هذا العلمَ باطلٌ، كما أنَّ الإنسانَ يعرِفُ الكفرَ ولا يصير بعلمِهِ الكفرَ كافراً إذا كان يتبرأُ منهُ، وهذا هو قول كثير من أهل العلم.

والسِّحرُ لَهُ تأثيرٌ في الأبدان والقلوب؛ فإنَّ السَّحرةَ يؤثِّرون على النَّاس بواسطة سحرهم، حتَّى أنَّنا قرأنا في بعض كتبهم ـ قبَّحهم اللهُ ـ أنَّهم يعملون شيئاً من الأبخرة وشيئاً من الطلسمات عندما يريد الإنسان أن تأتيه بنت فلان، فتأتيه البنت دون أن تشعر، وتطرق عليه الباب، وتدخل ويأخذ منها ما يريد، ثُمَّ تذهب إلى بيت أهلها دون أن يشعر بها أحدٌ أو يأتي بها أحدٌ، بل بواسطة سحرِهِ، وبواسطة الشَّياطين الذين يستعين بهم لهذا الغرض، وهذا موجودٌ ممَّا يدل على أنَّ السِّحرَ لَهُ تأثيرٌ، وكذلك يُخبرون بمكان المسروق والسَّارق وما أشبه ذلك، ويدخلُ في ذلك ما تفعلهُ عجائزُ البادية من ضربهم بالودع ومعرفتهم المغيَّبات، وأنَّ فلاناً ذهب إلى كذا، أو فلاناً بمحلِّ كذا، وكُلُّهُ بواسطة الشَّياطين الذين يتقرَّبون إليهم، والنَّبيُّ ﷺ سُحِرَ؛ كما في حديث عائشة قالت: «سُحر النَّبيُّ ﷺ حتَّى كان يُخيَّل إليه أنَّهُ يفعلُ الشَّيء وما يفعله»(١)،

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٢٦٨)، ومسلمٌ (٢١٨٩).

سَحرَهُ لبيدُ بنُ الأعصم اليهودي، وهنا سؤالٌ يثيرُهُ أعداءُ الله، وهو: أنَّهم يقولون: كيف يوثق بما يأتي به النَّبيُّ ﷺ من الأمر والنَّهي، ومن الأحكام، ومن التَّوحيد وهو في حالة يخيَّل إليه أنَّهُ يفعلُ الشَّيء ولا يفعله، فهذا يكون نقصاً في الرَّسول وهو المبلِّغ عن الله؟!

نقولُ لهم: أمَّا بالنِّسبة للوحي فلا شكَّ أنَّ الله عصمَهُ، ولا يدخل في هذا الباب، فالذي يأتيه من عند الله يبلِّغهُ النبيُّ ﷺ بإذن الله، لا يدخلُ فيه من أنَّهُ يُخيَّل إليه أنَّهُ يفعلُ الشَّيء ولا يفعله، وإنَّما هذا في فعله العادي؛ كمجيئه لنسائه، وما أشبه ذلك، أمَّا بالنِّسبة للوحي والتَّشريع والحلال والحرام فهذا لم يأته شيء من ذلك؛ فإنَّ الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقولِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].
قال عمر: «الجبتُ»: السِّحرُ، «والطَّاغوتُ»: الشَّيطان[1].
وقال جابرٌ: «الطَّواغيت»: كُهَّانٌ كان ينزلُ عليهم الشَّيطان في كُلِّ حيٍّ واحدٌ[2].

الكُهَّان يُنزَّلون منزلة السَّحرة؛ لأنَّهم يخبرون بالمغيَّبات بواسطة الشَّياطين، يَصدقون مرَّة، ويكذبون مئة مرَّةٍ؛ كما تقدَّم في باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣] من أنَّ الشَّياطين يركبُ بعضهم بعضاً حتَّى يصلوا إلى عنان السَّماء، فيسمعوا ماذا يقال في السَّماء، ممَّا أوحى الله إلى رسولِهِ ﷺ، فيسترق الأوَّلُ كلمةً، ثُمَّ يلقيها إلى من تحتَهُ، ثُمَّ مَنْ تحتَهُ إلى الآخر، حتَّى يلقيها على لسان السَّاحر أو الكاهن فيصدق مرَّة ويكذب معها مئة كذبة، فيقال: «أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا»؛ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السَّماء.

ولكن لما بعث الله محمَّداً ﷺ حُرِسَت السَّماءُ وحُفِظَت؛ كما في قولِهِ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

الحاصل: أنَّ السِّحرَ لَهُ حقيقة، وله تأثيرٌ على الأبدان، وتأثيرٌ على القلوب؛ كما دلَّ عليه القرآن العزيز، وأنَّ السَّاحر كافرٌ، ولهم في ذلك

---

(١) رواهُ ابن جرير (٧/ ١٣٥)، وابنُ أبي حاتم (٥٤٤٣)، وقال الحافظُ (الفتح ٨/ ٢٥٢): «إسنادُهُ قويٌّ».

(٢) علَّقَهُ البخاريُّ مجزوماً به (٦/ ٤٥)، ووصلَهُ ابنُ جريرٍ (٤/٥٥٨)، وابنُ أبي حاتم (٥٤٥٢)، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

مؤلَّفات يأخذون بها أموال الناس، طلسمات يكتبونها، وحروف مقطَّعة، وأسماء غير معروفة، وهي موجودة مطبوعة ـ لا كثَّرهم الله ـ، وأكثر ما تكون في اليمن، وفي أفريقيا، وهناك من يأتي إلى مكَّة وعنده شيءٌ من هذا الدَّجل، لكن الحكومة تطاردهم ـ جزاها الله خيراً ـ، فمتى عُرِفَ عن شخصٍ منهم ذلك فإنَّهُ يبعد إلى بلاده، ورُبَّما قُتِلَ إذا اقتضى الأمر ذلك، فقد أُلقي القبضُ على رجلٍ اسمه: (داود)، وَوُجِدَت عندَهُ كتبٌ كثيرةٌ، فبُعثت تلك الكتب إلينا للاطِّلاع عليها وكُنَّا في مكَّةَ، فاطَّلعنا عليها، وممَّا فيها: أنَّك عندما تريد أن تأتيك بنت تُحبها تصنع بعد صلاة الفجر عند طلوع الشَّمس في كُلِّ زاوية من زوايا البيت كذا، وتُبخِّر كذا، فما يمضي ربع ساعة إلَّا والبنت تأتيك، تضرب الباب!

وعندما تريد أن تعرف السَّارق أو المسروق انظر إلى شحمة عين المسروق منه، واعمل كذا وكذا؛ فإنَّك ترى صورة السَّارق في نفس عين المسروق منه، وما أشبه ذلك.

وقالوا: تكتب أسماء المتَّهمين في ورقة وتجعلها في كذا، ثُمَّ تفعل كذا، ثُمَّ تقلِبُ الورقة فيكون اسم السَّارق منتفخٌ في الورقة، والبقيَّة أسماؤهم في الورقة موجودة لم تتغيَّر، وكُلُّ ذلك أو أكثره لا حقيقة له، دجلٌ يريدون أن يأكلوا به أموال النَّاس بالباطل.

وقال بعض العلماء: السِّحر مجرَّد تخيُّلات وإيهام، وليس له حقيقة.

وأهل السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: السِّحرُ لَهُ حقيقة، وليس مجرَّد تخيُّل، وإن كان فيه تخيُّل، ولكنَّهُ يؤثِّر على الأبدانِ، ويؤثِّر على القلوب، ويؤثِّر ـ أيضاً ـ على السُّلوك.

والذي يُنكر وجود السِّحر يكفرُ؛ لأنَّ القرآنَ أثبتَهُ، فالذي ينكر وجود أصله يكفرُ؛ لأنَّهُ مكذِّب للقرآن، أمَّا إذا كان لديه شبهة فهذا شيءٌ آخر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ١ ـ ٤] إذا لم يكن موجوداً وله حقيقة فلم أمرَ الرَّبُ ﷻ بالاستعاذة منه؟!

وهنا أمرٌ عجيبٌ وهو: أنَّ هؤلاء السَّحرة والدَّجَّالين تجِدُهُم من أفقرِ النَّاس مع أنَّهم يدَّعون معرفة الغيب!

ويأتي في باب النُّشرة أن من ابتليَ بشيءٍ من السِّحر فإنَّهُ يحلُّهُ **بأمرين**:

الأوَّلُ: الأدويةُ المباحة، كورق السِّدر، كما نقل عن وهب بن منبِّه - ويأتي -.

الثَّاني: التوجُّه إلى الله بقلبٍ حيٍّ، والتقرُّب إليه بقراءة القرآن على هذا المسحور أو المريض؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فكما أنَّهُ شفاءٌ للقلوب، فهو شفاءٌ للأبدان - أيضاً -.

والسِّحرُ في نجد قبل دعوة الشيخ محمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان موجوداً بكثرة.

۞ وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السَّبعَ الموبقات**».

قالوا: يا رسول الله: وما هُنَّ؟

قال: «**الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتَّولي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ**»[(١)].

(**اجتنبوا**): أبلغ من (اتركوا)؛ لأنَّ الترك يقتضي عدم الفعل، والاجتناب يقتضي عدم المقاربة لهذا الفعل.

(**الموبقات**): هي المهلِكات، وهي كبائر الذُّنوب، وجاء هذا في الحديث أنَّها سبعٌ، مع أنَّ الكبائر أكثر من سبع، أوصلها بعضهم إلى سبعين كبيرة، بل بعضهم أوصلها إلى سبع مئة كبيرة، وألَّف فيها الإمام الذَّهبي كتابه: «الكبائر»، وألَّف ـ أيضاً ـ ابن حجر الهيتمي كتابه: «الزَّواجر عن اقتراف الكبائر»، وألَّف غيرُهما في بيان الكبائر.

و(الكبيرَةُ) كما عرَّفها ابن تيميَّة وغيرُهُ هي: «كُلُّ ذنبٍ خُتِمَ بلعنةٍ أو غضبٍ أو سخطٍ أو نفي إيمانٍ»[(٢)]، هذا هو تعريف الكبيرة.

فكُلُّ ما جاء في الأحاديث: (لعن الله من فعل كذا) فهي كبيرة، أو (غضب الله على من فعل كذا)، أو (لعنة الله على من فعل كذا)، أو (كان الذي في السَّماء ساخطاً) مثل حديث: «**إذا دعا الرَّجل امرأته إلى فراشها فأبت لعنتها الملائكة حتَّى تصبح**»[(٣)]، وفي رواية لمسلمٍ: «**كان الذي في السَّماء**

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٧٦٦)، ومسلمٌ (٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠)، الفتاوى الكبرى (٥/ ١٣٠).
(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٢٣٧)، ومسلمٌ (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ساخطاً عليها»[١]، فيكون امتناعها بلا عذرٍ كبيرة.

(**قالوا: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: «الشِّرك بالله»**): هو أكبر الكبائر، وقد عقدَ المصنِّف عدَّة أبواب في ذلك فقال: (باب الخوف من الشِّرك)، و(باب من الشِّرك النَّذر لغير الله)، و(باب من الشِّرك الاستعانة بغير الله)، و(باب من الشِّرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره).

والشِّرك ينقسم إلى قسمين:

شركٌ أكبر: وهذا لا يُغفر لصاحبه إلَّا بالتوبة منه، وهو: تسويةُ غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وشركٌ أصغر: وهو ما ورد في النُّصوص تسميته (شركاً) ولم يصل إلى حدِّ الأكبر، كما قال ابن القيِّم:

والشِّرك فاحذره فشركٌ ظاهرٌ ... ذا القسم ليس بقابل الغفرانِ
وهو اتِّخاذ النِّدِّ للرَّحمن أيَّـ ... ـاً كان من حجرٍ ومن إنسانِ
يدعوهُ بل يرجوهُ ثُمَّ يخافه ... ويحبُّه كمحبَّة الدَّيَّانِ[٢]

ويشهدُ لَهُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وما في (صحيح مسلم) من حديث جابر أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«من لقيَ اللهَ لا يشرك به شيئاً دخل الجنَّة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النَّار»**[٣]، وحديث ابن مسعود ﷺ: **«من مات وهو يدعو لله نِدَّاً دخل النَّار»**[٤].

(**وقتل النَّفس التي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ**): قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، وبسبب هذه الآية ذهب ابن عبَّاس وأبو هريرة إلى أنَّ القاتل لا تُقبل توبتُهُ[٥]، لكن جاء عن ابن عبَّاس أنَّهُ رجع

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٦).
(٢) الكافية الشَّافية (ص١٨٩).
(٣) صحيح مسلم (٩٣).
(٤) رواه البخاريُّ (٤٤٩٧).
(٥) ثبتَ ذلك عن ابن عبَّاس من أوجه كثيرة، ينظر: صحيح البخاري (٣٨٥٥ـ ٤٥٩٠ ـ ٤٧٦٦)، =

عن هذا القول، وأنَّ توبتَهُ تُقبل[١]، وهذا قولُ جماهير أهل العلم من لدن الصَّحابة ومن بعدهم[٢]؛ بدليل قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، فكما أنَّ توبة المشرك إذا تاب مقبولة، وكذلك الزَّاني، فكذلك من قتل نفساً بغير حقٍّ، إذا تاب فالله يقبل توبته كما في هذه الآية، ولكن هل تُقبل توبته فيكون كأنَّهُ لم يَقتل؟

نقول: لا، بل القاتل عليه **ثلاثة حقوق**:

= صحيح مسلم (٣٠٢٣)، تفسير ابن جرير (٧/ ٣٤٢ ـ ٣٤٥).
وأمَّا أبو هريرة فرواهُ عنه سعيد بن منصور في (التفسير ٦٦٩) من حديث حمَّاد بن يحيى الأبح، ثنا سعيد بن مينا، عن أبي هريرة، به.
حمَّاد بن يحيى الأبح أبو بكر السُّلمي فيه لينٌ من جهة حفظه، قال البخاري: «يهم في الشَّيء بعد الشَّيء» (التاريخ الكبير ٢/ ٢٤)، وقال أبو زرعة: «ليس بالقويِّ» (الكامل ٣/ ٢٦)، فلا يحتمل منه تفرُّده بهذا.

(١) روى البخاري في الأدب المفرد (٤) أن رجلاً قتلَ فسأل ابن عبَّاس: هل لي من توبة؟
فقال: «أمُّك حيَّة؟»
قال: لا.
فقال: «تب إلى الله، وتقرَّب إليه ما استطعت».
فسأل عطاءٌ ابن عباس: لِمَ سألته عن أمِّه؟
فقال: «إنِّي لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من برِّ الوالدة»، وإسنادُهُ جيِّدٌ.
وروى ابن أبي شيبة (٢٧٧٥٣) من حديث أبي مالك الأشجعي، عن سعد بن عبيدة قال: جاء رجل إلى ابن عبَّاس فقال: لمن قَتَلَ توبة؟
فقال: «لا، إلَّا النَّار».
فلمَّا ذهب الرَّجل سأل ابنَ عبَّاس جلساؤه، فقالوا: ما هكذا كنت تفتينا! كنت تفتينا أنَّ لمن قتل مؤمناً توبة مقبولة؟!
فقال: «إنِّي أحسبه رجلاً مغضباً يريدُ أن يقتل مؤمناً».
فبعثوا في أثرِهِ فوجدوهُ كذلك، رجالُهُ ثقاتٌ أثباتٌ، وسماعُ سعد من ابن عباس ممكنٌ، ولم يُذكر بتدليسٍ.

(٢) شرح النَّووي (١٨/ ١٥٩).

الأوَّل: حقٌّ للمقتول، يخاصمه عليه عند الله ويقول: «فيم قتلتني؟»، فيؤخذ من حسنات القاتل وتدفع إلى المقتول، أو يؤخذ من سيئات المقتول وتدفع إلى القاتل.

الثَّاني: حقٌّ للورثة؛ فإنَّ الورثة يتعلَّق حقُّهم في رقبة القاتل، فلهم الدَّم أو الدِّية.

والثَّالث: حقٌّ لله؛ لأنَّ القاتل سعى في الأرض بالفساد، وتعدَّى حدود الله.

(**وأكل الرِّبا**): الرِّبا كبيرة من كبائر الذُّنوب ـ أيضاً ـ، وهو محرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، لمْ يختلف المسلمون في تحريم الرِّبا ـ في الجملة ـ، وإن كان هناك خلاف في بعض أفراد المسائل هل تُلحق بالرِّبا أو لا تلحق به؟ أمَّا من حيث هو فالمسلمون مجمعون على تحريمه؛ كما دلَّ عليه القرآنُ العزيزُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والأحاديث معروفة، وقال ابن دقيق العيد: «إنَّ أكلة الرِّبا مجرَّبٌ لهم سوء الخاتمة»[1]؛ يعني: الذي يتعاطى الرِّبا الغالب أنَّهُ لا يختم له بخير بل يختم له بشرٍّ؛ لأنَّ لحمه وجسمه تغذَّى على ذلك الحرام.

(**وأكل مال اليتيم**): فإنَّ من تولَّى يتيماً وصار تحت كفالته وولايته ثُمَّ خان الولاية بأن أكل مال اليتيم دون حقٍّ فالله توعَّده بأعظم عقوبة، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ أي: بالتِّجارة فيه وتنميته.

(**والتَّولِّي يوم الزَّحف**): وهو أنَّ المسلمين إذا قابلوا أعداءهم من

---

(١) فيض القدير (١/ ١٥٣).

الكفَّار، وحميَ الوطيسُ، والتحمَ القتالُ، تولَّى، وذهبَ، وتركَ مكانه، حتَّى صارت فرجة في صفوف المسلمين، ممَّا يؤدي إلى انهزام المسلمين، وعلوِّ كلمة الكفرِ، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

(**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**): وهو أنَّ الإنسان يقول: «فلانة ليست عفيفة»، «فلانة يدخل عليها فلان»، يعرِّض بأنَّها تزني، و«أنَّ الأجانبَ يفعلون بها»، وهي محصنةٌ مؤمنةٌ غافلةٌ عمَّا قيل في عرضها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النور: ٢٣]، هذه التي أخبر النَّبيُّ ﷺ بأنَّها السَّبع الموبقات المهلكات.

۞ وعن جُندَبٍ مرفوعاً: (**حدُّ السَّاحر ضربهُ بالسَّيفِ**). رواهُ التِّرمذيُّ، وقال: «الصَّحيحُ أنَّهُ موقوفٌ»[(١)].

هذا يدلُّ على أنَّ السَّاحر يُقتل، وفي بعض الرِّوايات: (ضربة)، وذلك أنَّ السَّاحر الممَخْرِق المشعوذ يُظهِرُ للنَّاس أنَّهُ يفعل الشَّيء، ويقتل هذا الشَّخص ثُمَّ يعيد رأسه إليه، أو يشقُّ بطنه ثُمَّ يعيده كما كان، وهذا لا حقيقة له وإنَّما يموِّه على الأبصار، فيظنُّون أنَّهُ يُحيي الموتى، وأنَّهُ يبرئ الأكمهَ، وإنَّما هي تخيُّلات لا حقيقة لها، فيأتي السَّاحر ويحفرُ البئر والنَّاس ينظرون، ثُمَّ يُخرِج ماءها بسرعة، ثُمَّ يزرع، ثُمَّ ينبت الزَّرع بسرعة!

---

(١) رواهُ التِّرمذيُّ (١٤٦٠)، والطبرانيُّ (١٦٦٥)، والدَّارقطنيُّ (٣٢٠٤)، والحاكمُ (٨٠٧٣)، والبيهقيُّ (١٦٥٠٠) من طريق إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جندب، به مرفوعاً.

وهو خبرٌ منكرٌ؛ إسماعيل هو المكيُّ قال فيه الإمام أحمد: «منكر الحديث»، وقال النَّسائيُّ: «متروك»، ينظر: ميزان الاعتدال (١/ ٢٤٨).

ومن ظنَّ أنَّ إسماعيلَ هذا هو العبديَّ الثِّقةَ فقد وهِمَ؛ فإنَّ الرَّاوي هنا عن إسماعيل هو: أبو معاوية، محمَّد بن خازم، وهو لا يروي عن العبديِّ.

وقد اضطرب فيه إسماعيل؛ فرواهُ عنهُ ابن عيينة، عن الحسن مرسلاً ـ كما عند عبد الرزاق (١٨٧٥٢) ـ.

تابعَ إسماعيلَ خالدُ العبد، فرواهُ عن الحسن، عن جندب، به مرفوعاً كما عند الطبراني (١٦٦٦)، وخالد قال فيه البخاريُّ (التَّاريخ الكبير ٣/ ١٦٥): «منكر الحديث»، وكذَّبه الدَّارقطنيُّ (لسان الميزان ٣/ ٣٥٠)، فهذه متابعةٌ واهيَةٌ، والحديثُ ضعَّفَهُ البخاريُّ (العلل الكبير ١/ ٢٣٧)، والتِّرمذيُّ، والبيهقيُّ، وابن عبد البرِّ (الاستذكار ٨/ ١٦٠) في آخرينَ.

۞ وفي «صحيح البخاريِّ» عن بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قال: كتبَ عمرُ بن الخطَّاب: «أن اقتلوا كُلَّ ساحرٍ وساحرةٍ»، قال: فقتلنا ثلاثَ سواحرَ(١).

قد استدلَّ بهذا من قال: إنَّ السَّاحر لا يستتاب.

(١) أخرجَهُ الشَّافعيُّ في مسنده (١/ ٣٨٣) ـ ومن طريقه البيهقيُّ (١٦٤٩٨) ـ، وسعيد بن منصور (٢١٨٠)، وابن أبي شيبة (٢٨٩٨٢)، وعبد الرزَّاق (١٨٧٤٦)، والإمام أحمد (٣/ ١٩٦) (١٦٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣) من طريق سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت بجالة فذكره.
وقد تابع ابنُ جريج سفيانَ كما عند عبد الرزَّاق (٩٩٧٢)، وهذا إسنادٌ صحيحٌ، وأصلُ الخبر في البخاري (٣١٥٦)؛ فلذا عزاهُ المصنِّف إليه، وليس قتلُ السَّحرة فيه، والأمر كما قال العراقيُّ:
والأصلَ يعني البيهقي ومن عزا ... وليتَ إذ زادَ الحميدي ميَّزا
تنبيه: قال العلَّامة محمَّد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان ٤/ ٥٧٣): «واعلم أنَّ لفظة: «اقتلوا كُلَّ ساحر...» في هذا الأثر ساقطة في بعض روايات البخاري، ثابتة في بعضها، وهي ثابتةٌ في رواية مسدَّد وأبي يعلى، قاله في (الفتح)».
وليس في شيءٍ من روايات الصَّحيح التي وقف عليها الشُّرَّاح ذكر هذه اللَّفظة، وسبب هذا الوهم أنَّ البخاريَّ روى أصل الخبر فقال: (حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان، سمعت عمراً... الحديث).
قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ (الفح ٦/ ٢٦١): «زاد مسدَّد وأبو يعلى في روايتهما: (اقتلوا كُلَّ ساحر...)».
أي: زاد مسدَّد وأبو يعلى معلَّى بن منصور في روايتهما عن سفيان بن عيينة زيادة ليست في رواية ابن المديني، وهي: (أن اقتلوا...).

۞ وصحَّ عن حفصة ﵂: أنَّها أمرَتْ بقتلِ جاريةٍ لها سحرتها، فقُتلتْ[١].

وكذلك صحَّ عن جندب[٢].

قال أحمد: «عن ثلاثةٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ».

وكانت حفصة قد دبَّرت[٣] تلك الجارية، فسحرتها الجاريةُ في عجين صنعته.

كما قال المصنِّفُ: قتل السَّاحر صحَّ عن جندب الخير، وعن عمر بن الخطَّاب، وعن حفصة ﵃.



(١) أخرجَهُ مالكٌ (١٤) من حديث محمَّد بن عبد الرَّحمٰن بن زرارة بلاغاً.
ووصلَهُ عبدُ الرزَّاق (١٨٧٤٧)، وابنُ أبي شيبة (٢٧٩١٢) من حديث عبيد الله العمري ـ الكبير المصغَّر ـ، عن نافع، عن ابن عمرَ، بهِ، وإسنادُهُ صحيحٌ.

(٢) أخرجَهُ ابن أبي شيبة (٢٨٩٧٧) عن سفيان، عن أبي إسحاق ـ وهو السَّبيعي ـ، عن حارثة بن مضرِّب، أنَّ جندباً قتل ساحراً أو أراد قتلَهُ، وإسنادُهُ جيِّدٌ.
ورواهُ البخاريُ في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢)، والبيهقيُّ (١٦٥٠١) من حديث خالد الحذَّاء، عن أبي عثمان النهدي، عن جندب.
وقد تابع خالداً عاصمُ الأحول كما في (التَّاريخ الكبير).

(٣) أي: علَّقت عتقها بموتها ﵂.

بابُ
بيانِ شيءٍ من أنواعِ السِّحر

قال أحمد: حدَّثنا محمَّدُ بنُ جعفرٍ، حدَّثنا عوفٌ، عن حيَّان بن العلاء، حدَّثنا قطنُ بنُ قبيصةَ، عن أبيه، أنَّهُ سمع النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ العيافة والطَّرق والطِّيرةَ من الجبتِ**».

قال عوفٌ: «العيافَةُ: زجرُ الطَّير، والطَّرقُ: الخطُّ يُخطُّ بالأرضِ».

و(الجبتُ) قال الحسن: «رنَّة الشَّيطان». إسنادُهُ جيِّدٌ، ولأبي داود والنَّسائي وابن حبَّان في صحيحه ـ المسند منه ـ.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبسَ شعبةً من النُّجوم، فقد اقتبس شعبةً من السِّحر، زاد ما زاد**» رواهُ أبو داود، وإسنادُهُ صحيحٌ.

وللنَّسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من عقدَ عُقدةً ثُمَّ نفثَ فيها فقد سحرَ، ومن سحرَ فقد أشركَ، ومن تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه**».

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ألا هل أنبِّئكم ما العَضْهُ؟ هي: النَّميمة، القالَةُ بين النَّاس**».

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من البيانِ لسحراً**».

بابُ
بيانِ شيءٍ من أنواعِ السِّحر

۞ قال أحمد: حدَّثنا محمَّدُ بنُ جعفرٍ، حدَّثنا عوفٌ، عن حيَّان بن العلاء، حدَّثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه أنَّهُ سمع النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ العيافة والطَّرق والطِّيرةَ من الجبتِ**».

قال عوفٌ: «العيافَةُ: زجرُ الطَّير، والطَّرقُ: الخطُّ يُخطُّ بالأرضِ».

و(الجبت) قال الحسن: «رنَّة الشَّيطان». إسنادُهُ جيِّدٌ، ولأبي داود والنَّسائي وابن حبَّان في صحيحه ـ المسند منه ـ[(١)].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبسَ شعبةً من النُّجوم، فقد اقتبس شعبةً من السِّحر، زاد ما زاد**» رواهُ أبو داود، وإسنادُهُ صحيحٌ[(٢)].

---

(١) رواهُ معمر في جامعه (١٩٥٠٢)، والإمام أحمد (٢٠٦٠٤)، وأبو داود (٣٩٠٧)، والنسائيُّ في الكبرى (١١٠٤٣)، وابن حبَّان (٦١٣١)، والطبرانيُّ (٩٤١)، والبيهقيُّ (١٦٥١٥).
عوفٌ هو: ابن أبي جميلة الأعرابي، والخبرُ لا يصِحُّ؛ فحيَّان لا يكاد يُعرف، وتوثيق ابن حبَّان له لا يغيِّر شيئاً.
قوله: (ولأبي داود والنَّسائي وابن حبَّان في صحيحه ـ المسند منه ـ).
أي: اقتصروا على إخراج المرفوع، أمَّا النسائيُّ وابنُ حبَّان فنعم، وأمَّا الذي بين أيدينا من نُسخ سنن أبي داود ففيها كلمة عوف، وقد نبَّه الشيخ سليمان على ذلك (التيسير ٢/ ٨١١).

(٢) رواهُ ابنُ أبي شيبة (٢٢٥٦٤٦)، والإمامُ أحمد (٢٠٠٠)، وعبدُ بن حميد (٧١٤)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابنُ ماجه (٣٧٢٦)، والطبرانيُّ (١١٢٧٨)، والبيهقيُّ (١٦٥١٣)، وابنُ عبد البر «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٧٧) من طريق عبيد الله بن الأخنس، عن الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عبَّاس به مرفوعاً، وإسنادُهُ صحيحٌ كما قال المصنِّفُ رحمه الله.

وللنَّسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من عقدَ عُقدةً ثُمَّ نفثَ فيها فقد سحرَ، ومن سحرَ فقد أشركَ، ومن تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه**»[١].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ألا هل أنبِّئكم ما العضه؟ هي: النَّميمة، القالَةُ بين النَّاس**»[٢].

(**ألا هل أنبِّئكم**)؛ أي: ألا هل أخبركم.

(**العَضْه**): بفتحِ العينِ وإسكانِ الضَّادِ، و(العَضْهُ) لغةً: القطعُ.

وفسَّرها النبيُّ ﷺ بأنَّها القالة بين النَّاس، والنَّميمة هي: نقلُ حديثِ قومٍ إلى آخرين على جهةِ الإفسادِ بينهم.

وهي التي نهى عنها القرآن، قال ـ تعالى ـ في وصف من استعملها: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١]، وثبت في الحديث: «**لا يدخلُ الجنَّة قتَّات**»[٣]؛ أي: نمَّام.

والنَّميمة بها تُسفك الدِّماء، وبها تُقطع الأرحام، وبها يتفرَّق الصَّديقان، وقد جاء في الصَّحيحين من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بقبرينِ فأخذ الجريدَ فشقَّه نصفين فوضع على كُلِّ قبرٍ منه شقّاً، وقال: «**إنَّهُما ليعذَّبان وما يعذَّبان في كبيرٍ، بلى إنَّهُ لكبيرٌ، فأمَّا أحدُهُما فكان يمشي بالنَّميمة، وأمَّا**

---

(١) رواهُ النَّسائيُّ (٤٠٧٩)، والطبرانيُّ في الأوسط (١٤٦٩)، وابنُ عديٍّ (٥/ ٥٥١) من طريق عبَّاد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
قالَ الذَّهبيُّ (الميزان ٢/ ٣٧٨): «هذا الحديث لا يصِحُّ، للين عبَّاد، وانقطاعه»، فتعقَّبه ابن مفلح (الآداب الشرعية ٣/ ٨٢) فقال: «كذا قال، ويتوجَّهُ أنَّهُ حديثٌ حسنٌ».
قلت: كيف يتوجَّه و(عبَّاد) ضعَّفه الإمام أحمد، وابن معين، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابن عديٍّ، والعقيليُّ، مع ضميمة الانقطاع بين الحسن وأبي هريرة؟!
ينظر: الجرح والتَّعديل (٦/ ٨٧)، الضعفاء للنَّسائي (٧٤)، الضُّعفاء للعقيليِّ (٣/ ١٣٣)، الكامل (٥/ ٥٥٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٠٦).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الآخر فكان لا يستترُ من البول»[١]، فالذي يمشي بالنَّميمة يُعذَّب في قبرِهِ؛ لأنَّها تُفسد بين الصَّاحبين، وبين الأب وابنه، وبين الرَّجل وأهله، وبين القبيلة والقبيلة.

ووجهُ كون النمَّام يعذَّب في قبرِهِ هو: أنَّ النَّميمة مقدِّمة لسفك الدِّماء، وذلك أنَّ نقلَ حديث هؤلاء إلى هؤلاء على جهة الإفساد بينهم يذكي العداوة حتَّى تؤدِّي إلى سفك الدَّم، وأوَّل ما يقضي الله فيه بين خلقِهِ: الدِّماء[٢]، قبل أن يقضي بينهم في الأموال وغيرها، فلمَّا كانت النَّميمة مقدِّمة لسفك الدِّماء، ناسب أن يُعذَّب النمَّام في قبرِهِ قبل عذاب الآخرة، هذا وجهه.

وهي ـ أيضاً ـ من السِّحر، وذلك أنَّ السَّاحر يُفسد جسم المسحور، ويُخيِّلُ إليه بسحرِهِ، والنَّمَّام فعلُهُ فيه شيءٌ من الخفاء؛ يأتيك على جهة النَّصيحة، ولكن يُفسِدُ قلبكَ الذي هو ملك الأعضاء والذي إذا فسدَ فسدت الأعضاء، وإذا صلح صلحت الأعضاء، كما يُفسِدُ قلبَ صاحبك الذي نقلَ إليك حديثه بنقلِ حديثك إليه، فتكبرُ المسألة وربَّما امتدَّت للقبيلتين، فيحصل بذلك ما يحصلُ من الفساد؛ ولذا قال يحيى بن أبي كثير: «يُفسد النَّمَّام في السَّاعة الواحدةِ ما لا يُفسدُهُ السَّاحرُ في السَّنة»[٣].

فكما أنَّ السِّحرَ يُفسِدُ الأبدان، فهذا يُفسِدُ القلوبَ.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢١٨)، ومسلمٌ (٢٩٢).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٥٣٣)، ومسلم (١٦٧٨) من حديث ابن مسعود ﵁.
(٣) نقلَهُ ابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٤٠٣).

۞ ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من البيان لسحراً**»(١).

(**إنَّ من البيان لسحراً**) قيل: إنَّهُ خرجَ مخرجَ المدحِ، وهو من السِّحر الحلال، وقيل: إنَّهُ خرج مخرج الذَّم؛ لأنَّ السِّحرَ ممنوعٌ، فشبَّه هذا البيان بالسِّحر ممَّا يدلُّ على منعِهِ.

والبيانُ: البلاغة والفصاحة، يأتي الرَّجل وقد أُعطي شيئاً من البلاغة والفصاحة فيتكلَّمُ بسجعٍ أو شعرٍ أو كلام موزونٍ يؤثِّرُ على السَّامع، فتظنُّ أنَّهُ مُحِقٌّ في كلامِهِ، وهو في الحقيقة مُبطلٌ، هذا هو الذي ذمَّه النبيُّ ﷺ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحُجَّته من الآخر، فأقضي له بنحوِ ما أسمع، فمن قطعتُ لَهُ من حقِّ أخيه قطعةً، فإنَّما أقطع له قطعة من النَّار، فليأخذها أو ليذرها**»(٢).

فالبيان والبلاغة والأسلوب والفصاحة إن استُعملت في نصر الحقِّ فإنَّها ممدوحة، وإن استُعملت في نصر الباطل فهي مذمومة، وقد قال الشَّاعر في هذا المعنى:

في زخرف القولِ تزيِّينٌ لباطلهِ ... والحقُّ قد يعتريهِ سوءُ تعبيرِ
تقولُ: «هذا جنى النَّحل» تمدحُهُ ... وإن تشأ قلتَ: «ذا قيءُ الزَّنابيرِ»
مدحاً وذمَّاً وما جاوزت وصفَهُما ... حسن البيان يري الظلماءَ كالنُّورِ(٣)

يأتيك بعبارات مزخرفة، وبأسلوب قويٍّ ممَّا يجعل الباطل عند السَّامع

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥١٤٦)، وليس هو عند مسلم من حديث ابن عمر بل من حديث عمَّار بن ياسر (٨٦٩) رضي الله عنه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (٢٦٨٠)، ومسلمٌ (١٧١٣) من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.
(٣) الأبيات منسوبة لابن الروميِّ، وربَّما نُسِبت لغيره، ينظر: المثل السَّائر (٢/ ٩٩)، وفيات الأعيان (١/ ٣٣)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٣٣).

حقًّا، والآخر قد يكون محقًّا ولكن ليس لديه من الأسلوب ولا من الفصاحة ما يستطيع أن يعبِّر به عن بيان الحقِّ وإيضاحه، لا يسعفه لسانه، فيُظَنُّ أنَّ المحِقَّ والمصيبَ هو هذا البليغ الفصيح وهو مبطلٌ، ويُظَنُّ أنَّ المبطلَ هذا الذي عنده عِيٌّ وعدمُ بيانٍ وهو محقٌّ.

فإن كان هذا البيان، وهذه الفصاحة في نصر الحقِّ وإيضاحه وبيانه، وفي قمع الباطل والإشادة بفساده فهذا ممدوحٌ، وهو المطلوب، وقد كان رجلٌ يقال له: (أبو إسحاق الصَّابي) يكتبُ كتابات جيِّدة، وعنده قوَّة أسلوب، وفصاحة، إلَّا أنَّهُ لمْ يكن مُسلماً بل كان نصرانيًّاً، وكان يكتب لبعض الخلفاء، وأُلقي القبض على ذلك الخليفة، وجاء الذي بعده فتولَّى الخلافة فبعث إلى أبي إسحاق، وجعله لرسائل الدِّيوان، قال: «لا أستطيع» ـ محافظةً منهُ على عهد الخليفة الأوَّل ـ.

فألزمَهُ فلم يسعه إلَّا الإجابة، فصار في الدِّيوان لكتابة الرَّسائل، فدخل عليه رجلٌ وهو يكتب قال: ما تكتب يا أبا إسحاق؟

قال: «أباطيلُ أُنمِّقُها، وأكاذيبُ أُلفِّقُها»[1]!



(١) كان يكتبُ أوَّلاً لعزِّ الدَّولة، ثُمَّ استكتبه عضد الدَّولة، ينظر: سير أعلام النُّبلاء (١٦/ ٥٢٣).

بابُ
ما جاءَ في الكُهَّانِ ونحوِهم

روى مسلمٌ في «صحيحِهِ»، عن بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«من أتى عرَّافاً فسألَهُ عن شيءٍ فصدَّقَهُ؛ لمْ تُقبل لَهُ صلاةٌ أربعين يوماً»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«من أتى كاهناً فصدَّقَهُ بما يقول؛ فقد كفرَ بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ»** رواهُ أبو داود.

وللأربعة، والحاكم ـ وقال: «صحيحٌ على شرطهما» ـ، عن أبي هريرة: **«من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفرَ بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ»**.

ولأبي يعلى بسندٍ جيِّدٍ عن ابن مسعودٍ موقوفاً.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: **«ليس منَّا من تَطيَّرَ أو تُطيِّر لَهُ، أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحر أو سُحِرَ لَهُ، ومن أتى كاهناً فصدَّقَهُ بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ»** رواهُ البزَّارُ بإسنادٍ جيِّدٍ.

ورواهُ الطبرانيُّ في «الأوسط» بإسنادٍ حسنٍ من حديث ابن عبَّاس دون قوله: **«ومن أتى..»** إلى آخره.

قالَ البغويُّ: «العرَّافُ: الذي يدَّعي معرفة الأمور

بمقدِّماتٍ يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضَّالة ونحوِ ذلكَ».

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيَّبات في المستقبل.

وقيل: الذي يُخبر عمَّا في الضَّمير.

وقال أبو العبَّاس ابنُ تيميَّة: «العرَّافُ: اسمٌ للكاهنِ والمنجِّمِ والرَّمَّالِ ونحوِهِم، ممَّن يتكلَّمُ في معرفة الأمور بهذه الطُّرقِ».

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوم يكتبون: «**أبا جاد**»، وينظرون في النُّجوم: «ما أرى مَن فعلَ ذلك لَهُ عند الله من خلاقٍ».



بابُ
ما جاءَ في الكُهَّانِ ونحوِهِم

(الكُهَّان) جمعُ كاهنٍ، والكاهن هو: من يُخبرُ عن المغيَّبات في المستقبل.

وقيل هو: الذي يُخبر عمَّا في الضَّمير.

(ونحوهم): من الرَّمَّالين والعرَّافين، ممَّن يدَّعي علمَ الغيبِ، وكونهم يخبرون عمَّا في المستقبل هذا كثيرٌ قبل مبعث النبيِّ ﷺ، فعند العرب كُهَّان يرجعون إليهم، ويتحاكمون إليهم، وذلك أنَّهم يتقرَّبون للشَّياطين، والشَّياطين يركب بعضهم بعضاً، حتَّى يصلوا إلى عنان السَّماء فيسمعون الكلمة من السَّماء، فيلقيها هذا إلى من تحته ثُمَّ الآخر إلى من تحته حتَّى يلقيها على لسان السَّاحر أو الكاهن، ثُمَّ هذا الكاهن يكذبُ معها مئة كذبة، ثُمَّ يُستدلُّ بما وقع من صدقِهِ مرَّةً واحدةً على صدقه فيما كذب به مئة مرَّة، ولكن بعد مبعث النبيِّ ﷺ حُجبت السَّماءُ، فما كانوا يستطيعون الوصول إلى خبر السَّماء كما كانوا يستطيعونه من قبل، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

والعرَّاف كما أنَّهُ يطلقُ على الكاهن، فكذلك يطلق على الطبيب ـ أيضاً ـ، ولذا قال الشَّاعر(١):

جعلتُ لعرَّافِ اليمامةِ حكمَهُ ... وطبيب نجدٍ إن هما شفياني

فالعرَّاف هو ـ أيضاً ـ: الطبيب الذي يداوي الأمراض الجسميَّة؛ لأنَّهُ يعرف العِلَّةَ ويعرفُ المرض غالباً فيداويها، وقصَّة البيت معروفة، أشار إليها ابن خلدون(٢) وغيرُهُ.

---

(١) وهو: عروة بن حزام العذري، ينظر: الشِّعر والشُّعراء (٢/ ٦٠٨) بنحوه.
(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ١٣٦).

۞ روى مسلمٌ في «صحيحِهِ»، عن بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**من أتى عرَّافاً فسألَهُ عن شيءٍ فصدَّقَهُ، لمْ تُقبل لَهُ صلاةٌ أربعين يوماً**»[١].

هذا يدلُّ على تحريم المجيء للكُهَّان وسؤالهم، فيحرمُ على المسلم الذَّهاب إلى الكُهَّان، فمتى سألهم لمْ تقبل لَهُ صلاةُ أربعين يوماً، وهذه الصَّلوات لا يؤمر بإعادتها بل صلاتُهُ في الظَّاهر مجزئةٌ، أمَّا الأجر والثَّواب فلا، وهذه الأحاديث وغيرها من أحاديث الوعيد الذي ذهب إليه أحمد والبخاري وسفيان وغيرهم أنَّها تجرى على ظاهرها ولا ينبغي التعرُّض لتأويلها؛ لأنَّ ذلك أبلغ في الزَّجر، وتأويلها يخفِّف وقعها في القلوب.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠) دون قوله: (فصدَّقه).

۞ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**من أتى كاهناً فصدَّقَهُ بما يقول فقد كفرَ بما أُنزل على محمَّدٍ** ﷺ» رواهُ أبو داود[(١)].

(**من أتى كاهناً فصدَّقَهُ فقد كفر بما أُنزل على محمَّد**): يأتي إلى الكاهن فيقول: إنَّهُ ضلَّ لي كذا وكذا، متى يأتي؟

ثُمَّ يحدس فيقول: يأتي كذا وكذا، وكُلُّهم كَذَبة، لا يعلم الغيب إلَّا الله، ورُبَّما صادف الحقَّ بسبب حدَّة ذهنه، وذكائه فيفتتنُ به النَّاس.

وأنا أعرف شيئاً من هذا، فأعرف رجلاً من الأردن يتعاطى مثل هذا، ولكن يذكر أنَّهُ من باب الفراسة، فأذكر أنَّهُ سأله شخصٌ وكان الأردنيُّ عندنا في بيتنا فقال له: يا فلان، ماذا يكون عند فلان؟

قال: سيأتي ضيوف من المشرق، ويقع كذا وكذا.

قلت له: من أين لك هذا؟

قال: ستجده.

قلت: لا أصدِّقك، لكن أخبرني عن أي شيءٍ قُلتَهُ؟

عرفتُ أنَّهُ يكذب، وكان ذلك الوقت عندنا غنم لأنَّنا كنَّا في وقت

---

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (١٥/ ٦٤) (٩٢٩٠)، وإسحاقُ بن راهويه (٤٨٢)، والدَّارميُّ (١١٧٦)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والتِّرمذيُّ (١٣٥)، والنَّسائيُّ في الكبرى (٨٩٦٨)، وابن ماجه (٦٣٩)، والبزَّارُ (٩٥٠٢)، والخلَّال في السُّنَّةِ (١٢٥٢)، وابن عديٍّ (٣/ ٢٦٧) (٤٢٦٤)، وابنُ بطَّة في الإبانة (٩٩٤)، والبيهقيُّ (١٤/ ٣٦٤) (١٤٢٣٩) من حديث حكيم الأثرم، عن أبي تميمة الهجيمي، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
أبو تميمة لم يسمع من أبي هريرة، وحكيم لا يحتمل منه هذا، وقد تكلَّم فيه بعضهم.
قال البخاريُّ (التاريخ الكبير ٣/ ١٧): «هذا حديثٌ لا يُتابع عليه ـ؛ يعني: حكيماً ـ، ولا يُعرف لأبي تميمة سماعٌ من أبي هريرة».
وقال التِّرمذيُّ بعد إخراجه: «لا نعرف هذا الحديث إلَّا من حديث حكيم الأثرم، عن أبي تميمة، عن أبي هريرة...، وضعَّفَ محمَّدٌ هذا الحديث من قِبَلِ إسنادِهِ».
وقال البزَّارُ: «حكيم منكرُ الحديث، لا يُحتج بحديثٍ له إذا انفرد به، وهذا ممَّا انفرد به».

الحجِّ؛ فظنَّ أنَّ الغنم لضيوف سيأتون، وأنا شرقيٌّ فضيوفي من الشَّرق.

وكان يتعاطى علم الكفِّ ـ بزعمه ـ، جاءه شخصٌ فقال: «هذا ابني ما رأيك فيه»؟

نظر فيه ثُمَّ قال: «أعفني».

قال: «لا».

قال: «ابنك هذا سيكون كابن تيميَّة»، ففرح الأب.

فقلت له: هذا يكذب.

ثُمَّ بعد زمن أصبح ذاك الولد سائق سيَّارة.

وقال له آخر: ما رأيك في مستقبلي؟

فقال: «ستتزوَّج امرأة وتطلِّقُها، وتتزوَّج ثانيةً وتتركها، وتتزوَّج ثالثةً وتصلح معها، أعرف هذا من خطوط كفِّك».

وكان كُلُّ هذا كذباً، هذا شأن الكهَّان يكذبون على النَّاس.

والفراسة شيءٌ آخر، مثل ما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]؛ أي: للمُتفرِّسين، يكون عنده فراسة بنور الله، يعرف بها بعض الأشياء، مثل ما ذكر ابن القيِّم في «الطُّرق الحكميَّة» أخبار إياس بن معاوية، وأخبار المعتضد العبَّاسي، وما أشبه ذلك.

ومن جملتها: أنَّ المعتضد العبَّاسي كان في قصرِهِ، فرأى رجلاً جالساً على محلٍّ مرتفعٍ فقال: هذا معلِّمُ صبيانٍ، ولَهُ عبدٌ ضائعٌ، وعبدُهُ أعورُ.

فسألوه وإذا هو معلِّمُ صبيانٍ، وضاعَ لَهُ عبدٌ، وعبدُهُ أعورُ.

فقالوا: كيف عرفت هذا؟! ما الذي أدراك؟!

قال: «رأيته اختار أعلى مكان وجلس فوقَهُ وهذه عادة معلِّم الصِّبيان، وكُلُّ من مرَّ عليه لا ينظر إليه إلَّا إذا كان أعوراً، فعلمتُ أنَّ له عبداً ضاع، وأنَّ عبده أعور»، يستنبطون الأحكام بفراستهم وذكائهم[١].

---

(١) وقد وقع من ذلك شيء كثيرٌ للشَّارح؛ فإنَّهُ كان من أذكياء الخلق رَحِمَهُ اللهُ، وينظر: تاج القضاة للعثيم.

۞ وللأربعة، والحاكم ـ وقال: «صحيحٌ على شرطهما» ـ، عن أبي هريرة: (**من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفرَ بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ**)(١).

«وقال الحاكم: صحيحٌ على شرطهما»؛ أي: على شرط الشَّيخين.

ولأبي يعلى بسندٍ جيِّدٍ عن ابن مسعودٍ موقوفاً(٢).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: «**ليس منَّا من تَطيَّرَ أو تُطيِّر لَهُ، أو تكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحر أو سُحِرَ لَهُ، ومن أتى كاهناً فصدَّقَهُ بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ**» رواهُ البزَّارُ بإسنادٍ جيِّدٍ(٣).

---

(١) رواهُ الإمام أحمد (١٥/ ٣٢١) (٩٥٣٦)، وإسحاق بن راهويه (٥٠٣)، والخلال (١٣٩٨)، وابن بطَّة (٩٩٢)، والحاكم (١/ ٢٠) (١٥) ـ ومن طريقه البيهقيُّ (١٦/ ٤٨٥) (١٦٥٧٤) ـ من حديث عوف ـ وهو ابن جميلة ـ، عن خلاس، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
خلاس لم يسمع من أبي هريرة، ينظر: جامع التَّحصيل (ص١٧٢).
تنبيه: ذكرُ محمَّد بن سيرين متابعاً لخلاس عند الحاكم ومن طريقه البيهقي غلطٌ في الإسناد؛ فإنَّ الإسناد من غير طريق الحاكم خال من هذه المتابعة، والله أعلم.
تنبيه آخر: في رواية الإمام أحمد: (عن خلاس، عن أبي هريرة، والحسن عن النبيِّ ﷺ. . .) فطريق الحسن مرسل.
تنبيهٌ ثالث: عزا المصنِّفُ رحمه الله الحديث للأربعة وليس عندَ أحدٍ منهم، وقد أشارَ إلى ذلك حفيدُهُ العلَّامة سليمان بن عبد الله (التيسير ٢/ ٨٣٠)، ولعلَّ الإمام رحمه الله تبع في ذلك الحافظ ابن حجر (الفتح ١٠/ ٢٢٧).

(٢) رواهُ ابن الجعد (٤٢٥)، والبزَّار (٨٧٣)، وأبو يعلى (٥٤٠٨) من حديث أبي إسحاق السَّبيعي، عن هبيرة بن يريم، عن عبد الله، به موقوفاً.
وإسنادُهُ جيِّدٌ كما قال المصنِّفُ، وجوَّد الحافظُ إسنادَهُ وقال: «ومثلُهُ لا يقال بالرَّأي»، ينظر: الفتح (١٠/ ٢١٧).

(٣) رواهُ البزَّارُ (٣٥٧٨)، والطبرانيُّ (٣٥٥) من حديث أبي حمزة العطَّار، عن الحسن، عن عمران، به مرفوعاً.
أبو حمزة هو: إسحاق بن الرَّبيع، ضعَّفه الفلَّاسُ، وابن عديٍّ (الكامل ١/ ٥٤٧)، =

وراوهُ الطبرانيُّ في «الأوسط» بإسنادٍ حسنٍ من حديث ابن عبَّاس دون قوله: «**ومن أتى**..» إلى آخره[١].

«**ليس منَّا من تطيَّرَ**»: تطيَّر بنفسِهِ، فهو المتطيِّر بما يقابلُهُ، أو بشهرِ صفر، أو ما أشبه ذلك.

«**أو تُطيِّرَ لَهُ**»: عمد إلى شخصٍ آخر يتطيَّرُ لَهُ، كُلُّ هؤلاء مخطئون في صنيعهم هذا، والطِّيرة قد عقدَ لها المصنِّفُ باباً يأتي، والله يقول: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: ١٩] إلى غيرِ ذلكَ.

الأمور كُلُّها بيد الله ﷻ، وكان من عادة العرب أنَّهم يتطيَّرون إذا أرادوا سفراً، فإذا ولَّاه الطَّيرُ ميامنه واتَّجه يميناً قالوا: «هذا سفرٌ ميمونٌ»، وإن اتَّجه شمالاً قالوا: «هذا سفرٌ مشؤومٌ»، وإن طار إلى الأمام قالوا: «ناطحٌ ونطيحٌ».

وكانوا يتشاءمون بالبُوم، فإذا وقعت على بيت أحدهم وجعلت تنادي باللَّيل، قالوا: إنَّها تنعي لنا صاحب هذه الدَّار، وأنَّ صاحب الدَّار سيموت، وكُلُّ هذا من جاهليَّة العرب التي لا أصل لها.

والتطيُّر تارةً يكون بالطَّير، وتارةً بالشَّهر، فهم لا يتزوَّجون في شهر صفر، ويزعمون أنَّهُ شهرٌ مشؤومٌ، وكذلك لا يتزوَّجون في شوَّال، ويظنُّون أنَّ

= والحسن لم يسمع من عمران كما قال ابن المديني، والإمام أحمد، والبيهقيُّ في آخرين، ينظر: علل ابن المديني (ص٥١)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص٣٨)، سنن البيهقي (١٠/ ١٢١).

(١) رواهُ ابنُ عديٍّ (٤/ ٣٦٧)، والطبرانيُّ (٤٢٦٢) من حديث زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس، به مرفوعاً.
وهو خبرٌ واهٍ، وهذه نسخة رُويت بها مناكير؛ زمعة وشيخه ضعيفان، وشيخه أحسن حالاً منه.
ينظر: العلل لأحمد (٢/ ٥٢٧)، ميزان الاعتدال (٢/ ١٩٣ ـ ٨١).

الأمورَ في هذين الشَّهرين تخرجُ عكسيَّةً، وقد تزوَّج رسول الله ﷺ عائشة في شهر شوَّال[١].

والتعلُّق بمثل هذه الأوهام يدلُّ على منافاة التَّوحيد بالكليَّة، أو منافاة كمالِهِ الواجب، بحسب ما وقع في قلب هذا المتطيِّر أو المتكهِّن.

(١) رواه مسلم (١٤٢٣)، ولمَّا حكت ذلك رضي الله عنها قالت: (**فأيُّ نساءِ رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني؟!**)، ولهذا استحبَّ جماعةٌ من أهل العلم أن يكون النِّكاح في شوَّال، وقد بوَّب على هذا النَّوويُّ في (شرح صحيح مسلم).

۞ قالَ البغويُّ: «العرَّافُ: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدِّماتٍ يستدلُّ بها على المسروق، ومكان الضَّالة، ونحوِ ذلكَ»(١).
وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل.
وقيل: الذي يُخبر عمَّا في الضَّمير.

المعنى واحد، فهو: العرَّافُ، وهو: الكاهنُ، وهو: المنجِّمُ، ما دام أنَّهُ يدَّعي علمَ الغيب، أنَّهُ سيموتُ ولدك، أو سيجري عليك حادثٌ في المستقبل، أو يأتيك خيرٌ تُسَرُّ بهِ في المستقبل؛ فإنَّهُ من علوم الجاهليَّة التي لا أصل لها، وهي داخلة في الكهانة والتَّنجيم، ولهذه الأشياء كتبٌ مؤلَّفة مثل: «**شمس المعارف الكبرى**»، ولأبي معشر الفلكي كتابٌ ذكر فيه الحروف والاستدلال لما سيقع عليك بالمستقبل عن طريقها، مثلاً: متى ستموت؟ وكم يأتيك من الأولاد؟ وهل أنت غنيٌّ أو فقير؟ وماذا يجري عليك من المصائب والأحداث؟ كُلُّ هذا يقوله أبو معشر!، لَهُ طريقةٌ خاصَّةٌ في التَّوصُّل إلى معرفة الأشياء، بكتابة اسمِ الشَّخص واسم أُمِّهِ، ثُمَّ إذا كتب هذا وهذا جمع الحروف التي تكوَّنت من اسمك ومن اسم أُمِّك، وحسبها على حِسابِ الجُمَّلِ، ثُمَّ إذا بلغت عدداً معيَّناً قسمَهُ على اثني عشر، فإذا بقي بقيَّة قابلها بالبروج، التي هي: برج الحمل، والثَّور، والجوزاء، والعذراء، والسَّرطان، والأسد، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والحوت، والدلو، هذه اثنا عشر برجاً، ويقابل ما تبقَّى من الحروف، وهكذا.

ثُمَّ يقول: «أنت وُلدت في البرج السَّابع» إذا بقي من الحروف سبعة، وإن كان بقي من الحروف ثمانية فيقول: «أنت وُلدت في البرج الثَّامن»، وإن

(١) شرح السُّنَّة (١٢/ ١٨٢).

بقي تسعة: «فأنت ولدت في البرج التاسع»، وإن بقي ثلاثة: «فأنت ولدت في البرج الثَّالث» الذي هو الجوزاء؛ لأنَّ أوَّلها عندهم: الحملُ، ثُمَّ الثَّورُ، ثُمَّ الجوزاءُ.

ثُمَّ ينظر في مواليد ذلك البرج ماذا يجري عليهم؟ وكم تكون أعمارهم في الدُّنيا؟ وهذه كُلُّها باطلة، ولا أصل لها، مَن يعلم الغيب إلَّا الله؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

فالتعلُّق بمثل هذه الأوهام ينافي التَّوحيد بالكليَّة أو ينافي كمالَهُ الواجب، حسب اعتقاد الشَّخص أو حسب ما تعلَّمه من تلك العلوم الباطلة.

۞ وقال أبو العبَّاس ابنُ تيميَّة: «العرَّافُ: اسمٌ للكاهنِ والمنجِّمِ والرَّمَّالِ ونحوِهِم، ممَّن يتكلَّمُ في معرفة الأمور بهذه الطُّرقِ»(١).

أي: بأيِّ طريقٍ يتعلَّمه ويتوصَّل به إلى معرفة المغيَّبات في المستقبل، هو داخل في هذا، وهناك علم يُسمُّونه: (علم الأوفاق)، أو: (علم الحرف)، واختلف النَّاس فيه هل هو مباحٌ؟ بعضهم حرَّمَهُ وبعضهم أباحَهُ، والغزاليُّ والنَّوويُّ تكلَّموا على هذا(٢)، ولهذا العلم مؤلَّفات، يتوصَّلون به إلى معرفة الأمور المستقبلة، والواقع أنَّه لا أصل له ولا حقيقة، وإن ألَّفوا وزعموا وادَّعوا، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٦٣).
(٢) نُسبت للغزالي كتبٌ في أنواع من السِّحر وفي الأوفاق، ألَّف: (الوفق الثلاثي)، وينظر: الفتاوى الحديثيَّة لابن حجر الهيتمي (ص٢ ـ ٨).

۞ وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوم يكتبون «**أبا جاد**» وينظرون في النُّجوم ـ: «ما أرى مَن فعلَ ذلك لَهُ عند الله من خلاقٍ»(١).

(**ما أَرى**): يجوز بالفتح؛ **بمعنى**: ما أعلم، ويجوز: (**ما أُرى**): بالضَّمِّ، بمعنى: ما أَظنُّ.

(**من فعل ذلك لَهُ عند الله من خلاقٍ**)؛ أي: ما أظنُّ أنَّ لَهُ نصيباً في الآخرة؛ فإنَّهُ لا حظَّ له عند الله ولا نصيب، متى تعلَّق بهذه الأوهام الباطلة، والشَّقشقات الفاسدة.

وهذه الأمور لا تزال موجودة في بعض أنحاء اليمن والمغرب وأفريقيا، وهم يتعلَّمون شيئاً من هذا ويرونه جائزاً ومباحاً، في حين لم يصلوا إلى نتيجة، ولم يعرفوا شيئاً، لكن تعلَّقوا بها؛ وهي أوهام لا أصل لها، بل هي أوهى من بيت العنكبوت.

ثُمَّ أغرب من هذا كلِّه أنَّهم يزعمون أنَّهم يتعلَّمون هذا لاستخراج الذَّهب، فالقطعة النُّحاسيَّة يقلبونها ذهباً خالصاً، وهو ما يُسمَّى: بـ(علم

---

(١) رواهُ معمرٌ في جامعِهِ (١٩٨٠٥) ـ ومن طريقِهِ البيهقيُّ في السُّنن (١٦/ ٤٩٦) (١٦٥٩٢) والشُّعب (٣٨٣١) ـ من طريق ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، به موقوفاً.
وإسنادُهُ قويٌّ.
ورُوي مرفوعاً كما عند الطبراني (١٠٩٨٠)، وابن الأعرابي (١٧٢٨) من حديث خالد بن يزيد العمري، نا محمَّد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عبَّاس، به مرفوعاً.
فخالف إبراهيمُ ابنَ طاوس، وهذا خبرٌ منكرٌ، والحمل فيه على خالد، قال فيه البخاريُّ: «ذاهبُ الحديثِ»، وكذَّبه ابن معين، وأبو حاتم، ينظر: التَّاريخ الكبير (٣/ ١٨٤)، الجرح والتَّعديل (٣/ ٣٦٠).
وقال ابن حبَّان (المجروحين ١/ ٢٨٥): «لا يُشتغل بذكرِهِ؛ لأنَّهُ يروي الموضوعات عن الأثبات».

الكيمياء)، وكُلُّها باطلة، وهم من أفقر النَّاس، وأشرِّ النَّاس، وأتعس النَّاس في هذه الحياة[1].

وقد كتب لي رجلٌ من المغرب قال لي: «أحبُّ أن تخبرني بما عندك من علوم الفلك؛ فإنَّ عندي من العلم خاتم سليمان، وسأبعث لك بعلم خاتم سليمان الذي توصَّل به إلى الشَّياطين وتسخير الجنِّ».

فقلت له: «سَخِّر الجنَّ والشَّياطين لخدمتك ما دمت تعرف هذا!»؛ لأنَّهُ من أفقر النَّاس، كتب إليَّ يسألُ مالاً، ومع هذا يقول أنَّهُ يعرف خاتم سليمان الذي يسخِّر به الجنَّ ويُسخِّر به الشَّياطين!

يتعلَّقون بهذه الأمور، مع أنَّ واقعهم أنَّهم من أفقر النَّاس بقطع النَّظر عن العلوم الشَّرعيَّة وما جاءت به الرُّسل والقرآن العزيز، يزعمون أنَّهم يستطيعون أن يسخِّروا الجنَّ فتأتيهم بما يطلبون وما يريدون، والقوم لم يكونوا على علمٍ، ولا على صراطٍ مستقيمٍ.



(١) الكيمياء التي تكلَّم أهل العلم في تحريمها هي: التي تقلب الموادَّ ظاهريّاً إلى أعيان أخرى، وهي موروثة عن قدماء الفلاسفة، قال أبو يوسف القاضي: «ومن طلب المال بالكيمياء أفلس» (مجموع الفتاوى ٢٩/٣٦٨).
وأمَّا المصطلح الحديث للكيمياء وهو: (العلم الذي يدرس المادَّة وتفاعلاتها وعلاقتها بالطاقة) فبابٌ آخر.

بابُ
ما جاءَ في النُّشرةِ

عن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن النُّشرَةِ فقال: «**هي من عملِ الشَّيطان**»، رواهُ أحمدُ بسندٍ جيِّدٍ وأبو داود.

وقال: سُئل أحمدُ عنها فقال: «ابنُ مسعودٍ يكرَهُ هذا كُلَّهُ».

وفي «البخاريِّ» عن قتادةَ: قلتُ لابن المسيَّب: رجلٌ به طِبٌّ أو يُؤخَّذُ عن امرأتِهِ، أَيُحَلُّ عنهُ أو يُنْشَرُ؟

قال: لا بأسَ بهِ، إنَّما يريدون به الإصلاح، فأمَّا ما ينفع فلم يُنهَ عنهُ. انتهى.

وروي عن الحسن أنَّهُ قال: «لا يحِلُّ السِّحرَ إلَّا ساحرٌ».

قال ابنُ القيِّم: «النُّشرةُ: حَلُّ السِّحرِ عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهُما: حَلٌّ بسحرٍ مثلِهِ، وهو الذي من عمل الشَّيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرَّب النَّاشر والمنتشر إلى الشَّيطان بما يُحِبُّ، فيبطلُ عمله عن المسحورِ.

والثَّاني: النُّشرَةُ بالرُّقية والتَّعوُّذات والأدوية والدَّعوات المباحة، فهذا جائزٌ».

بابُ
ما جاءَ في النُّشرةِ

(النُّشرَةُ) هي: الرُّقية التي يُحَلُّ السِّحرُ بها، فإذا سُحِرَ الإنسانُ وذهبَ يتطبَّبُ ويبحثُ عمَّن يحلُّ عنهُ السِّحرَ، فهذا الذي يحلُّ عنه السِّحر يقال له: **منشِّر**، وحَلُّ السِّحر يقال له: **نشرة**.

والمصنِّفَ لما ذكر السِّحر والكهانة وما يحصل من التأثير في جسم المسحور، حتَّى إنَّهُ يُخيَّل إليهِ أنَّهُ يفعلُ الشَّيء ولا يفعلُهُ، ورُبَّما حُبِسَ عن الوصول إلى زوجته، ورُبَّما حصل عندَهُ تخبُّطٌ في عقلِهِ فاحتاج إلى دواء أو من يحلُّ عنهُ السِّحرَ، عقد المصنِّفُ هذه التَّرجمة تنبيهاً لما يجوز وما لا يجوز من حلِّ السِّحر.

۞ عن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن النُّشرَةِ فقال: **«هي من عمل الشَّيطان»**، رواهُ أحمدُ بسندٍ جيِّدٍ وأبو داود[1].

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٢٢/ ٤٠) (١٤١٣٥) - ومن طريقه أبو داود (٣٨٦٨) - ومن طريق أبي داود البيهقيُّ (٩/ ٥٩٠) - من حديث عقيل بن معقل قال: سمعتُ وهب بن منبِّه، يحدِّثُ عن جابر بن عبد الله فذكره مرفوعاً.

عقيل هو: ابن معقل بن منبِّه، ابن أخي همَّام بن منبِّه ووهب بن منبه، وثَّقه أحمد، وابن معين، ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٤١).

لكن قال ابن معين: «الصَّحيفة التي يرويها وهب بن منبِّه عن جابر ليست بشيءٍ، إنَّما هو كتابٌ وقع إليهم، ولم يسمع وهب بن منبِّه من جابر شيئاً»، ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدُّوري (٣/ ١١٨)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص٢٢٨).

وقد تعقَّب المزيُّ (تهذيب الكمال ٣/ ١٤٠) ابنَ معين فقال: «وروى ابنُ خزيمة في «صحيحه» عن محمَّد بن يحيى، عن إسماعيل بن عبد الكريم، عن إبراهيم بن معقل، عن أبيه، عن وهب بن منبِّه قال: هذا ما سألتُ عنه جابر بن عبد الله...، وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى وهب بن منبِّه، وفيه رَدٌّ على من قال: إنَّهُ لمْ يسمع من جابر؛ =

وقال: سُئل أحمدُ عنها فقال: «ابن مسعود يكرَهُ هذا كُلَّهُ»[1].

الحديثُ يدلُّ على أنَّ حلَّ السِّحر عن المسحور من عمل الشَّيطان،

= فإنَّ الشَّهادة على الإثبات مقدَّمة على الشَّهادة على النَّفي، وصحيفة همَّام عن أبي هريرة مشهورة عند أهل العلم، ووفاة أبي هريرة قبل وفاة جابر، فكيف يستنكر سماعه منه وكانا جميعاً في بلد واحد..؟!».

وتعقَّب أبا الحجَّاج الحافظُ ابنُ حجرٍ (التَّهذيب ١/ ٣١٦) فقال: «قلتُ: أمَّا إمكان السَّماع فلا ريب فيه، ولكن هذا في همَّام، فأمَّا أخوه وهب الذي وقع فيه البحثُ فلا ملازمة بينهما، ولا يحسن الاعتراض على ابن معين بذلك الإسناد؛ فإنَّ الظَّاهر أنَّ ابنَ معين كان يغلِّطُ إسماعيل في هذه اللَّفظة عن وهب: (سألت جابراً)، والصَّوابُ عندَهُ: (عن جابر)، واللهُ أعلم».

وقد أحسنَ الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ، **والحاصل**: أنَّ الحافظ المزيَّ أراد إثبات سماع وهب من جابر بسماع أخيه همَّام من أبي هريرة، وأبو هريرة أقدم وفاةً من جابر؛ فإذن سمع وهبٌ من جابر! ولا ملازمة كما قال ابن حجر، فإنَّ همَّاماً أكبر من وهب، وسماعه من أبي هريرة ثابتٌ يقيناً، أمَّا وهب فروايته عن جابر قليلة، ولمْ يثبت تصريحُهُ بالسَّماع، ونفى السَّماع إمامٌ لم يخالفه في ذلك أحدٌ من المتقدِّمين، وبهذا يُعلم أنَّ الحديثَ لا يَصِحُّ مرفوعاً.

وقد رواهُ معمر في جامعه (١٩٧٦٢) عن عقيل بن معقل، عن همَّام بن منبه، عن جابرٍ موقوفاً.

وهذا هو الصَّواب في الخبر، ورواية همَّام عن جابر ليست معروفة، وسماعه منه ممكن، ولم ينفه أحد فيما وقفت عليه.

وللخبر شاهدٌ من حديث أنس رواهُ البزَّارُ (٦٧٠٩)، والحاكمُ (٤/ ٤٦٤) من طريق مسكين بن بكير، حدَّثنا شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن، قال: سئل أنس بن مالك عن النُّشرة فقال: ذُكر لي أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«هي من عمل الشَّيطان»**.

وخالفَ مسكيناً ابن عيينة وأبو أسامة كما عند ابن أبي شيبة (٢٣٥١٦)، وعلي بن الجعد كما عند أبي داود في (المراسيل ٤٥٣)، فرواهُ الثَّلاثة عن شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن مرسلاً.

صوَّب الإرسال أبو حاتم كما في العلل لابنه (٦/ ١٣٩)، ولعلَّ البزَّار يشيرُ إلى إعلال رواية الوصل حين قال: «وهذا الحديث لا نعلم رواه عن شعبة إلَّا مسكين بن بكير، ومسكين حرَّانيٌّ ثقة مشهور».

فالحديث لا يصِحُّ مرفوعاً لا من مسند جابر، ولا من مسند أنس، والله أعلم.

(١) الآداب الشَّرعية (٣/ ٧٧).

ولكن هذا ليس على إطلاقه، إن كان حَلُّ السِّحر بمثلِهِ فهو من عمل الشَّيطان، أو كانَ حلُّ السِّحر بأشياء لا تجوز فهو من عمل الشيطان، أمَّا إذا حُلَّ السِّحرُ بآيات قرآنيَّة، وأحاديث نبويَّة، وأدعية مشروعة، أو أدوية مباحة فهذا لا بأس به؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ يقول: «**عباد الله تداووا، ولا تداووا بحرام؛ فإنَّ الله لم يجعل شفاء أُمَّتي فيما حرَّم عليها**»(١)، واللهُ يقولُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فكما أنَّهُ شفاءٌ للقلوب، فهو ـ أيضاً ـ شفاء للأبدان من العلل والأمراض والأسقام؛ كما في حديث أبي سعيد في البخاري في قصَّة رئيس الحيِّ الذي لدغته عقرب، فطلب من يرقيه فلم يجِدْ إلَّا أناساً من الصَّحابة، فطُلبوا أن يرقوه فقالوا: نعم نرقي، ولكنَّا أضفناكم فلم تضيِّفونا فلا نرقي إلا بجُعْلٍ، فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم، فجاء أحدُهُم فجعل يتفل على محلِّ اللَّدغة ويقرأ سورة الفاتحة، فكأنَّما نُشِطَ من عِقالٍ وأخذوا الجُعل فذهبوا به إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبروهُ، فقالَ: «**وما يُدريك أنَّها رقية، اضربوا لي معكم بسهم**»(٢)، هذا يدلُّ على أنَّ التَّداوي بالقرآن لا بأس به، وكذلك النَّبيُّ ﷺ عالج سعد بن معاذ رضي الله عنه لما أصيب بالكي(٣)، وقال ﷺ: «**الشِّفاء في ثلاث: كيَّة نارٍ، وشربة عسلٍ، وشرطة محجم**»(٤)، إلى غير ذلك، فيكون حينئذٍ المعنى أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل عن النُّشرة غير الجائزة قال: «**هي من عمل الشَّيطان**»، ومثاله: لو سُحِرَ إنسانٌ فتقرَّب إلى شخص كما يقول بعض الجهلة ممَّن يحل السِّحر: «اذبح جدياً أو تيساً أسود»، فهذا كُلُّهُ من السِّحر، ومن الأمور الباطلة.

أو يكتب حروفاً مقطَّعة، وأسماء: (زنكبور) وغيرها، هذا كُلُّهُ من الأمور الباطلة؛ لأنَّها أسماء شياطين، فإذا كانت النُّشرة من الآيات القرآنيَّة فهذا لا مانع منه، أو كانت بأدوية مباحة فلا مانع ـ أيضاً ـ، كما لو استعمل دواءً مباحاً، معلومة مركَّباته ومفرداته، وهي من الأشياء المباحة، من نباتٍ، أو من برٍّ، أو من غيرِهِ ممَّا يجوز استعماله؛ فهذا لا مانع منه.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه مسلم (٢٢٠٨).
(٤) رواه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

۞ وفي «البخاري» عن قتادةَ: قلتُ لابن المسيَّب: رجلٌ به طِبٌّ أو يُؤخَّذُ عن امرأتِهِ، أَيُحَلُّ عنهُ أو يُنشَرُ؟
قال: «لا بأسَ بهِ، إنَّما يريدون به الإصلاح، فأمَّا ما ينفع فلم يُنهَ عنهُ». انتهى[١].

قتادَةُ بنُ دِعامةَ السَّدوسيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، من أئمَّة العلماء، وُلِدَ أكمه؛ أي: أعمى منذ ولادته، لكنَّهُ كان حافظاً؛ لا يسمع شيئاً إلَّا ويحفظُهُ، والإمامُ التِّرمذيُّ مثلُهُ، فإنَّهُ ـ أيضاً ـ وُلِدَ أكمه[٢]، ولكنَّهُ أعطي حفظاً لم يعطه غيره، حتَّى إنَّهُ كان لا يدخل السُّوق لئلَّا يسمع كلام من فيه فيحفظه، وكان قتادة يروي عن سعيد بن المسيَّب، لازمه حتَّى أخذ علومه، قال له ابن المسيَّب مرَّة: «إليك عنِّي يا أعمى فقد غرفت ما عندي»[٣].

(**رجل به طِبٌّ**)؛ أي: سِحْرٌ.

(**أو يُؤخَّذ عن امرأته**): بمعنى: يُحبس عن جماعها.

(**أيُحلُّ عنه أو ينشر؟ قال ابن المسيَّب: «لا بأس به، إنَّما يريدون به الإصلاح»**).

يعني: إذا كان حلُّ السِّحر للإصلاح فهو على رأي ابن المسيَّب جائزٌ، لكن الشَّارح حمل كلام ابن المسيَّب هذا على النُّشرة الجائزة، وقال: «حاشا أنَّ ابن المسيَّب يجوِّز حلَّ السِّحر بما هو محرَّمٌ كسحرٍ مثله»[٤]؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ يقول: «**ولا تداووا بحرام؛ فإنَّ الله لم يجعل شفاء أُمَّتي فيما حرَّم عليها**»[٥]، فكلام ابن المسيَّب وإن كان عامَّاً لكنَّه يحمل على ما هو جائز، والممنوعُ لا يريده ابن المسيَّب؛ لأنَّه يقول: «إنَّما يريدون به الإصلاح»، وما كان ممنوعاً لا إصلاح فيه.

(١) صحيح البخاري معلَّقاً (٧/ ١٣٧).
(٢) نُقِلَ ذلك، وصوَّب الذَّهبيُّ أنَّ بصرَهُ ذهب في كبرِهِ، ينظر: سير أعلام النُّبلاء (١٣/ ٢٧٠).
(٣) سير أعلام النُّبلاء (٥/ ٢٧١).
(٤) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٤٨).
(٥) سبق تخريجه.

۞ وروي عن الحسن أنَّهُ قال: «لا يحِلُّ السِّحرَ إلَّا ساحرٌ»(١).

المجيء للسَّحرة لحل السِّحر تعظيمٌ لهم، ورفعٌ لمنزلتهم، وهو من باب تعاطي السِّحر ـ أيضاً ـ، وإن كان الغرض منه حلُّ السِّحرِ، فالسِّحرُ لا يجوزُ حلُّهُ إلَّا بما أباحَهُ الله ﷻ.

۞ قال ابنُ القيِّم: «النُّشرة: حَلُّ السِّحرِ عن المسحور، وهي نوعان:
إحداهُما: حَلٌّ بسحرٍ مثلِهِ، وهو الذي من عمل الشَّيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرَّب الناشر والمنتشر إلى الشَّيطان بما يُحِبُّ، فيبطلُ عمله عن المسحورِ.
والثَّاني: النُّشرَةُ بالرُّقية والتعوذات والأدوية والدَّعوات المباحة، فهذا جائزٌ»(٢).

معلوم أنَّ النَّاشر هو: الذي يحلُّ السِّحرَ، والمنتشِر هو: المحلول عنهُ، وكُلٌّ منهما يتقرَّبُ للشَّيطان، فالشَّيطان يُبطلُ عملَهُ عن المسحور بسبب ما تُقرِّب به إليه، وذلك أنَّ الشَّيطانَ هو الذي يعمل هذا العمل فيؤثِّرُ في بَدَنِ المسحور ـ بإذن الله ـ.

والجنُّ والشَّياطين لا يخدمون أحداً من الإنس إلَّا بصرفِ شيءٍ من العبادة لهم، أو بترك واجبٍ من الواجباتِ الشَّرعيَّةِ، أو بفعلِ محرَّمٍ، فإذا

(١) رواه الطبريُّ في «تهذيب الآثار» كما في الفتح (١٠/ ٢٣٣)، وينظر: تغليق التعليق (٥/ ٤٩).
(٢) إعلام الموقِّعين (٤/ ٣٠١).

تُقرِّب إليهم بشيءٍ من هذا ساعدوا على قضاء حاجة ذلك المتقرِّب إليهم، هذا معنى قول ابن القيِّم.

لكن قد تقولُ: أنا أقرأُ على المريض ولكن لا أرى لذلك تأثيراً، فنضطرُّ إلى استعمال حلِّ السِّحر بالسِّحر.

نقولُ: بل للقراءة تأثيرٌ لو صدرت من قلبٍ حيٍّ مؤمن بالله، لكنَّها لم تصدر من قلبٍ حيٍّ مؤمنٍ معتمدٍ على الله، إنَّما يقرأ القرآن بطرَفِ لسانِهِ، وإلَّا لو صدر من القلب حقيقة لأثَّرَ؛ كما في قصَّة الإمام أحمد بن حنبل؛ فإنَّ الإمامَ أحمد جاءَهُ رجلٌ وأخبرَهُ بأنَّ عندَهُ بنتاً تُصرعُ، فقرأ عليها الإمام أحمد فشُفيت، ثُمَّ لما توفي الإمام أحمد عاد إليها الصَّرعُ، فجاؤوا إلى أبي بكر المرُّوذيِّ فقرأ كما كان الإمام أحمد يقرأ، فقال له من صرعها: «لا تستطيع؛ فإنَّ السَّيفَ واحدٌ، ولكن الضَّارب غير الضَّاربِ!».

فإذا كان الرَّجلُ تقيَّاً مخلصاً لله متَّصلاً قلبه بالله، فهذا تنفعُ قراءته، ويكون لها من التأثير الشَّيء الغريب.

أمَّا إذا كان بخلاف ذلك فلا تأثير لقراءته، وقد جرى لابن تيميَّة وابنِ القيِّم شيءٌ من هذا، فابنُ القيِّم يقول: كنتُ في مكَّة ومرضتُ مرضاً شديداً، فلم أجد طبيباً فعالجت نفسي بقراءة الفاتحة، فبرئتُ من كُلِّ علَّةٍ، وعادت صحَّتي كما كانت، وذلك كما قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، كما أنَّهُ شفاءٌ للقلوب من العمى، وهداية للقلوب ونور، فكذلك هو شفاء للأبدان[١].

ونُقِلَ عن وهب بن منبِّه أنَّ المسحورَ يأخذُ سبعَ ورقات سدرٍ خضرٍ، ويدقُّها بين حجرين، ويجعلها في ماء، ثُمَّ يقرأ عليها الآيات المتعلِّقة بالسِّحر من سورة (يونس)، و(الأعراف)، و(طه)، و(آية الكرسي)، ثُمَّ يشرب من الماء، ويغسل بدنه ببقيَّته[٢]، وهذا جيِّدٌ ومجرَّبٌ، ولا بأسَ بِهِ.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٦٤).

(٢) جامع معمر (١١/ ١٣).

بابُ
ما جاءَ في التَّطيُّرِ

وقـــولِ اللهِ ـ تـعــالــى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقولِهِ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**» أخرجاه.

زاد مسلم: «**ولا نوء، ولا غول**».

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرةَ، ويعجبني الفأل**».

قالوا: وما الفأل؟

قال: «**الكلمةُ الطيبةُ**».

ولأبي داود بسندٍ صحيحٍ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قالَ: ذُكِرَتِ الطِّيرَةُ عند رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنُها الفألُ، ولا تَردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدُكم ما يكرَهُ فليقُل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السَّيئات إلَّا أنت، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بك**».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**الطِّيرَةُ شركٌ، الطِّيرَةُ**

شركٌ، وما منَّا إلَّا، ولكنَّ اللهَ يُذهبُهُ بالتَّوكُّلِ»، رواهُ أبو داود، والتِّرمذيُّ وصحَّحَهُ، وجعل آخرَهُ من قول ابن مسعودٍ.

ولأحمدَ من حديثِ ابنِ عمروٍ: «**من ردَّته الطِّيَرَةُ عن حاجةٍ فقد أشرك**».

قالوا: فما كفَّارةُ ذلك؟

قال: «**أن تقولَ: اللَّهُمَّ لا خير إلَّا خيرُك، ولا طيرَ إلَّا طيرُكَ، ولا إلٰهَ غيرُكَ**».

وله من حديث الفضل بن عبَّاس رضي الله عنهما: «**إنَّما الطِّيرة ما أمضاك أو ردَّك**».

بابُ
ما جاءَ في التَّطيُّرِ

التَّطيُّر على نوعينِ:

النَّوعُ الأوَّلُ ـ وهو من الشِّرك الأكبر ـ: إذا اعتقد أنَّ المؤثِّر لإيجاد الشَّرِّ هو نفس ما تطيَّرَ بهِ، فهذا قد جعل مع الله شريكاً؛ فإنَّ الموجد للخير وضِدِّهُ هو الله ـ سبحانه ـ، وليس للطَّائرِ ولا غيرِهِ إيجادُ شيءٍ، بل الذي يملك النَّفعَ والضرَّ هو ربُّ العالمين دُون غيرِهِ.

النَّوع الثَّاني ـ وهو منافٍ لكمال التَّوحيد ـ: وذلك إذا اعتقد أنَّ المؤثِّرَ هو الله، وأنَّ النَّافع والضَّار هو الله، ولكن يقول: هذه علامات.

وكانت الجاهليَّةُ تتطيَّر بما تُشاهدُهُ، تارةً بالظِّباء، وتارةً بالطيورِ، وتارةً بالأزمنة، فكانوا لا يتزوَّجون في شهر شوَّال، وكذلك يتشاءمون بشهر صفر، ويتشاءم بعضهم ـ أيضاً ـ بيوم السَّبت، يقولون: إنَّ طالعَ السَّبت هو المريخ، وهذا كلُّهُ من الباطل، فالله هو خالقُ الشَّرِّ وخالقُ الخيرِ، أوجد هذا وهذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، فمتى تعلَّقت نفس الإنسان بالطِّيرَةِ، فإنَّهُ يُبتلى بالشَّرِّ، ويكون دائماً في قلقٍ؛ لأنَّهُ لم يعتمدْ على الله.

وكذلك كانوا يتشاءمون بآخر أربعاء من كُلِّ شهرٍ، يقولون: لا ينبغي أن تسافر في يوم الأربعاء، ولا سِيَّما الأربعاء الذي يقعُ في آخر كُلِّ شهرٍ، ورُوي في ذلك حديثٌ موضوعٌ[1].

وكانت الجاهليَّة عندما يريدون أن يسافروا أو يعملوا عملاً تطيَّروا

---

(١) رواهُ الخطيب (١٦/ ٥٨٤) ـ ومن طريقه ابنُ الجوزيِّ (الموضوعات ٢/ ٧٣) ـ من مسند ابن عبَّاس ولفظه: «آخرُ أربعاء من كُلِّ شهرٍ يومُ نحسٍ مستمرٌّ»، وهو كذبٌ مختلقٌ، وينظر: لسان الميزان (٨/ ٥٥٩).

بالطيور، وهم يُسمُّونها: السَّوارح والبوارح، والنَّاطح والنَّطيح، والقاعد والقعيد، فإذا ولَّاك الطَّائر ميامنَهُ، قالوا: هذا سفرٌ ميمونٌ، وتجارةٌ رابحةٌ.

وإن ولَّاك مياسرَهُ، قالوا: هذا سفرٌ مشؤومٌ، لا تسافر، ولا تعمل شيئاً.

فإن قابلكَ الطَّائر من أمامك قالوا: ناطحٌ ونطيحٌ.

وإن جاء من خلفك قالوا: قاعدٌ وقعيدٌ.

وهذه كلُّها لا أصل لها، كما وقع لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد غزوَ الخوارجِ جاءَهُ من جاءَهُ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تسافر هذا اليوم؛ فإنَّ طالعَهُ العقرب، وإنَّ من خرج فيه سيهزم.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «آمنتُ بالله وعليه توكَّلتُ»، ثُمَّ خرجَ ولمْ يبالِ، فكسرَ الخوارجَ كسرةً شنيعةً[1].

(١) ذكر هذه القصَّة شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، ينظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٦٧).

۞ وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

أوَّل الآيـة: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١]، ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾؛ أي: خصبٌ، ووفرةُ أرزاقٍ، وصحَّةٌ، وعافيةٌ، ونعمةٌ، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ قالوا: نحن جديرونَ بأن نكون من أهلها، ونحن المستحقُّون لها.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾: وإن يصبهم جدبٌ وغلاءُ أسعارٍ أو مرضٌ، ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ قالوا: هذا بشؤم موسى!، ما أصابنا من الجدب والقحط وغلاء الأسعار والبلاء والشَّرِّ كُلِّهِ هو بسبب وجود موسى بين أظهرنا، (﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾) بل طائركم الذي تطيَّرتم به هو بسبب كفركم، وعنادكم، وعدم قبولكم ما جاء به نبيُّكم، أُصبتم بسبب هذا لا بسبب موسى، والذي أوجد هذا هو الله، (﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾)[1].

(١) تفسير الطَّبري (١٣/٤٨)، تفسير البغوي (٣/٢٦٨).

۞ وقولِهِ: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾: متى ذُكِّروا بالله، وأُمروا بتقوى الله، وأُمروا باتِّباع ما جاءَ به رسولُ الله، نفروا فأُصيبوا بسبب إسرافهم وانحرافهم، فتطيَّروا برسولهم، وإنَّما أصابكم ما أصابكم بسبب ذنوبكم حيث أُمِرتم ونُهِيتم فلم تقبلوا، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾: مجرمون ظالمون، فينبغي للعبد ألَّا يتعلَّقَ بنجم، ولا بيوم، ولا بطائرٍ، ولا بأيِّ شيءٍ بل يتعلَّقُ باللهِ ﷻ، ويعلم أنَّهُ هو النَّافعُ الضَّارُ، وأنَّ ما أصابَهُ لم يكن ليُخطئه، وما أخطأَهُ لم يكُن ليُصيبَهُ، بهذا يستريح قلبه، ويرتاح ضميره، بخلاف ما إذا تعلَّق العبد بهذه الأوهام بقيَ في قلقٍ وكلفةٍ وبلاءٍ.

ومن ذلك ما ذكرَهُ بعضهم في التَّطيُّر أنَّهم يزعمون أنَّ صاحب التِّجارة يستفتح بأوَّل من يشتري منه، إن اشترى منه شخص جميلٌ تعلَّق بذلك، وقال: اليوم يوم كسبٍ وربحٍ وخيرٍ، وإن اشترى منه شخص أعور قال: يوم مشؤومٌ، نخسر فيه.

فإذا جاء الشَّخص الأعور ـ مثلاً ـ، فهم لا يبيعونه أوَّل النَّهار؛ لأنَّهم يتطيَّرون به، بخلاف ما إذا كان يبصر بعينيه أو لا يبصر بهما جميعاً، وهذه كُلُّها أوهام.

وبعض النَّاس الآن يتطيَّر بمثل هذا، فالعبد يجب أن يعتمد على الله ويتوكَّل عليه، ويعتقد ما جاء في الحديث: « **أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»[(١)]، مع أنَّ التَّجارب ـ أيضاً ـ كُلُّها تُبطِلُ هذا وتنفيه، ولا سيَّما مع الثِّقةِ بالله؛ فإنَّ كُلَّ هذه خرافات لا أصل لها، لهذا

(١) رُويَ من طرقٍ، أمثلها ما رواهُ الإمام أحمد (٥/ ١٩) (٢٨٠٣)، والتِّرمذيُّ (٢٥١٦) من حديث قيس بن الحجَّاج، عن حنش الصَّنعاني، عن ابن عبَّاسٍ، بهِ مرفوعاً.
قال العقيليُّ (الضُّعفاء ٣/ ٣٩٧): «الأسانيد في هذا ليِّنة»، إلَّا أنَّ الحافظ ابن رجبٍ =

قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] فما أصاب العبد هو بسبب ذنوبه وسيئاته لا بسبب أمر آخر، وأيُّ شيءٍ عند هذا الطَّائر؟! وأيُّ شيءٍ عند هذا الظَّبي؟! وأيُّ شيءٍ عند فاقد العين؟!؛ فلهذا عقد المصنِّفُ هذا الباب ليُميِّز بين الفعل المطلوب شرعاً، وبين التَّطيُّر المنهيِّ عنه الذي هو شرك على ما يأتي بيانه في الأحاديث الآتية.

= (جامع العلوم والحكم ص٤٦٩) قال: «طريق حنش التي خرَّجها التِّرمذيُّ حسنةٌ جيِّدةٌ».

۞ عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال: «**لا عدوى، ولا طيرةَ، ولا هامةَ، ولا صفرَ**» أخرجاه(١).
زاد مسلم: «**ولا نوء، ولا غول**»(٢).

(لا عدوى): نفيٌ لحقيقة العدوى في قولِ طائفةٍ من العلماء، فسَّروهُ بهذا؛ فقالوا: إنَّ العدوى لا تقعُ، وليس هناك شيء يُسمَّى عدوى، هذا قولهم، لكن هذا فيه ما فيه.

والمعنى الصَّحيح دلَّ عليه ما قاله النَّبيُّ ﷺ حين سأله الأعرابي قائلاً: يا رسول الله، ما بالُ الإبل يخالطها البعير الأجرب فتجرب كُلُّها؟

فقال ﷺ: «**من أجرب الأوَّلَ؟!**»(٣)؛ أي: الذي أوجد الجربَ في الأوَّل هو الذي نقلَ الجربَ إلى الثَّاني والبقيَّة، لا أنَّ المرض يتعدَّى بنفسِهِ دون ناقلٍ لَهُ، بل الله هو الذي نقلَهُ؛ فإنَّ الله ربط الأسباب بمُسبَّباتها، والأسباب جاءت بها الشَّريعة، فالذي أوجدَ الجرب بالبعير الأوَّل هو الذي نقله من هذا إلى هذا، فجعلَ مجرَّد المخالطة سبباً لوجود هذا المرض، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «**فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسدِ**»(٤)؛ أي: ابتعد عن مَواطِن الشَّرِّ مع اعتقاد أنَّ الله هو المقدِّرُ لذلك، هذا هو المعنى ـ وإن تنوَّعت آراء العلماء في ذلك ـ.

وقال بعضهم: إنَّ قولَ الرَّسول ﷺ: **(لا عدوى)** إنَّما قاله لمن قوي توكُّله ويقينه بالله.

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٥٧)، صحيح مسلم (٢٢٢٠).
(٢) زيادَةُ: «**ولا نوء**» رواها مسلم (٢٢٢٠ ـ ١٠٦) من مسند أبي هريرة، وأمَّا زيادةُ: «**ولا غول**» فرواها (٢٢٢٢) من مسند جابرٍ ﷺ.
(٣) رواهُ البخاريُّ (٥٧١٧)، ومسلمٌ (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) رواهُ البخاريُّ (٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال لمن كان في نفسه شيء من ضعف الإيمان: «**فرَّ من المجذوم**»، ولكن هذا كُلُّهُ ردَّهُ العلَّامة ابنُ القيِّم وغيرُهُ؛ فقال: «**المعنى**: أن تعتقدَ أنَّ اللهَ هو المؤثِّر، وأنَّهُ هو الذي ينقل المرض من هذا إلى هذا، وأنت مأمورٌ بتعاطي الأسباب واتِّقاء الأمراض، فقولُهُ: «**فرَّ من المجذوم**» لا ينافي قولَهُ: (**لا عدوى**)، بل تتوكَّل وتعتمد على الله، مع أنَّك مأمور بتعاطي الأسباب بما يحفظ عليك صحَّتك»[١].

فمعنى: (**لا عدوى**)، ليس المراد نفي وجود العدوى، فالعدوى موجودة، وإنَّما المراد أنَّ العدوى لا تنتقل إلَّا بإذن الله، لا أنَّها تنتقل بنفسها.

وقوله ﷺ: «**فرَّ من المجذوم**»: هو من باب تعاطي السَّبب، وهو أنَّك تبتعد عن كُلِّ ما من شأنه أن يضرَّك.

وأما قولُهُ ﷺ: «**الشُّؤم في ثلاثة: الدَّار، والمرأة، والدَّابة**»[٢] فليس هو من التَّطيُّر؛ لأنَّ بعض الأعيان جعلها الله خيراً وبركة، وبعض الأعيان جعلها بخلاف ذلك، لكن إن كان عندك يقينٌ وثقةٌ بالله واعتمادٌ عليه فلا ينبغي أن تخرج من دارك، ولا أن تطلِّق زوجتك، ولا أن تترك دابَّتك، فإذا أحسست من نفسك الثِّقل والكراهية لهذا الموضع بسبب ما حصل عليك فيه فلا مانع من الانتقال؛ لأنَّ الله خلق الأعيان وفيها شيء من الشَّرِّ أو من الخير، كالمسك؛ فإنَّ النَّاس يتلذَّذون برائحته، وعكسه الشَّيء النتن، من ميتة أو عذرة أو ما أشبه ذلك.

وفرَّق الشَّارحُ[٣] بين هذا وبين نعيق الغراب، فقال: «إنَّ هذا متكرِّر، فالنَّاس يسافرون، وكُلَّما سمعوا غراباً وقع في أنفسهم شيء، أمَّا هذه الثلاث فما دام أنَّهم سيلازمونها بصورة دائمة أمر النَّبيُّ ﷺ بمفارقة هذا المكان؛ طلباً لراحة الضَّمير وطمأنينته».

---

(١) إعلام الموقِّعين (٢/ ٢١٢)، الهدي (١/ ١٣٧)، مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٢٢٤).
(٢) رواهُ البخاريُّ (٢٨٥٧)، ومسلمٌ (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٧٤).

(ولا هامة)، العرب كانت تتشاءم بالهامة، وهي: البومة، فإنَّها متى وقعت على جدار دار أحدهم وصوَّتت باللَّيل قال: «نعت إليَّ نفسي»، يتطيَّر بصوتها، وأنَّهُ سيموت، أو سيموت أحد من أهله، فأبطل النَّبيُّ ﷺ هذا بقوله: **(ولا هامة)**، ليس عندها شيء، ما هي إلَّا طائر، وكانت العرب تزعم أنَّ الميِّت إذا مات يتكوَّن من عظامه طائر وهي: البومة، وهذا هو القول بالتَّناسخ، وهو: أنَّ الإنسانَ إذا مات تنتقلُ روحه إلى جسم شخص آخر[١]، ولا شكَّ أنَّ الإسلام أبطله، وهذا كفرٌ؛ لأنَّهُ تكذيب للقرآنِ، بل أخبر النبيُّ ﷺ: أنَّ أرواح الشُّهداء في حواصل طيرٍ خضرٍ، وأنَّها تسرح وتروح إلى الجنَّة[٢]، والقولُ بالتَّناسخ باطلٌ بالكتابِ، والسُّنَّةِ، وإجماعِ الأُمَّة، وهو مذهبٌ إلحاديٌّ.

وقيل: إنَّ معنى (الهامة): أنَّ العرب كانت تعتقد أنَّهُ ينبعث من رأس الميِّت طائر هو (الهامة)، يطير على قبرِهِ سبعة أيَّام ثُمَّ يذهب، لكن المعروف أنَّ (الهامة) هي (البومة)، التي تُصوِّت باللَّيل.

(ولا صفر): كذلك كانت العرب تتشاءم بشهر صفر، وقيل: (صفر) حيَّةٌ تكون في البطن، وإذا خالط غيرَهُ تعدَّى الأذى والمرض إليه[٣]، لكن المعروف أنَّهُ شهر صفر؛ قال ابن رجب: «هذا هو الأشبه»[٤]؛ لأنَّ العربَ كانت تتطيَّرُ بشهرِ صفر، لا يسافرون فيه، ولا يتزوَّجون فيه.

من الذي أوجد هذه الأوقات والأزمنة؟! الله هو الذي يقدِّرُ الخيرَ ويقدِّرُ الشَّرَّ، اللهُ بيدِهِ كُلُّ شيء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لَمْ يكُن.

وكانوا يزعمون أنَّ السَّنةَ إذا دخلت يوم الأربعاء أنَّه يكثر فيها موت العلماء والرُّؤساء، وكذلك إذا دخلت السَّنةُ يوم الثُّلاثاء يقع كذا وكذا من الفتن

---

(١) الفصل لابن حزم (١/ ٧٦)، الفرق بين الفرق (ص٢٥٣).
(٢) رواهُ مسلمٌ (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) ينظر: غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٢٥)، غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٥٩٢).
(٤) لطائف المعارف (ص٧٤).

والبلاء، وكُلُّ هذا من الأمور الباطلة، لكن الإنسان متى تعلَّقت نفسه بهذه الأوهام يبقى قلقاً وفزعاً ومندهشاً، فاستعن بالله ودع عنك هذا كُلَّهُ؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: **(لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر)**.

(ولا نوء): كما أنَّهم كانوا يتطيَّرون بالأزمنة كالأربعاء والثُّلاثاء وصفر، فكذلك ـ أيضاً ـ يتطيَّرون بالنُّجومِ، ويقولون: «زُحَلُ طالعُهُ كذا، والمشتري طالعُهُ كذا، والزُّهرة طالعُها كذا».

وأيُّ خيرٍ أو شرٍّ عند هذا النَّوء؟! الأمور كُلُّها بيد الله، فالعبد إذا اعتمد على الله، وتوكَّل على خالقه وباريه، وامتلأ قلبه بالإيمان لم يهمَّه شيء، مع أنَّ التَّجربة ـ أيضاً ـ تُبطل هذا؛ فإنَّ أحد خلفاء بني العبَّاس مرض فدعا المنجِّمين من كافة أنحاء مملكته حتَّى اجتمع عنده نحو خمسين منجِّماً، ففرَّقهم وجعل كُلَّ واحد وحده، وقال: «انظروا متى يكون أجل أمير المؤمنين؟».

فحدسوا وحسبوا وأجمعوا من غير أن يعلم أحدٌ بأحدٍ على أنَّهُ بقيَ من عمر أمير المؤمنين خمسون سنة، فمات بعد ذلك بعشرة أيَّام!![١]

(ولا غُول): بضمِّ الغين؛ وهو: جنسٌ من الجنِّ، ووجودها حقٌّ، تُضِلُّ الطَّريقَ، لكن العرب يتشاءمون بها، وهي تتعرَّض للمسافرين كثيراً في صورة نار، فيراها المسافرُ من بعيد يظنُّ أنَّ هذا منزل بادية فيقصدها، ثُمَّ تنتقلُ إلى جهة أخرى، فيأتيها فتُضلُّهُ الطَّريقَ، وقد تتلوَّن بصورة حمار، أو بعير، أو امرأة، والمسافرون الذين يسلكون الأراضي المهجورة التي يقلُّ سالكوها يجدون شيئاً من هذا، ولكن عندما يؤذِّن الإنسان فإنَّ هذا يذهب عنه.

---

(١) هو الخليفة الواثق بالله، ينظر: تاريخ الطَّبري (٩/ ١٥١)، الكامل (٦/ ١٠٧).

۞ ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا عدوى ولا طيرةَ، ويعجبني الفأل»**.
قالوا: وما الفأل؟
قال: **«الكلمةُ الطيِّبةُ»**(١).

(**«ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيِّبة»**): من طبع الإنسان أنَّهُ إذا سمع الكلمة الطيِّبة ارتاح لها ضميرُهُ، واطمأنَّ لها بالُهُ، كالمريض يسمع شخصاً يقول له: «يا سالم»، يفرح ويقول: «هذا فألٌ طيِّبٌ»، وهذا ليس فيه شيء.

۞ ولأبي داود بسندٍ صحيحٍ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قالَ: ذُكِرَتِ الطِّيرَةُ عند رسول الله ﷺ فقال: **«أحسنُها الفألُ، ولا تَردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدُكُم ما يكرَهُ فليقُل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السَّيئات إلَّا أنت، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بك»**(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٧٦) ـ صحيح مسلم (٢٢٢٤).
(٢) رواهُ ابنُ أبي شيبة (١٥/ ٢٧٧) (٣٠١٥٨)، وأبو داود (٣٩١٩)، وابن السُّنيِّ (عمل اليوم واللَّيلة ٢٩٣)، والبيهقيُّ (السُّنن ٨/ ٢٤٠)، (الدَّعوات الكبير ٢/ ٢٠٥) (٥٦٨)، من حديث حبيب بن أبي ثابت، عن عروة بن عامر، به مرفوعاً.
الأكثر على عدم إثبات الصُّحبة لعروة، وقد نصَّ على أنَّ الحديث مرسلٌ: أبو حاتم، والبيهقيُّ، ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدُّوري (٣/ ٥٧٦)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٩٤)، معجم الصَّحابة لابن قانع (٢/ ٢٦٢)، جامع التَّحصيل (ص٢٣٧).
وله علَّة أخرى وهي: الانقطاع بين حبيب وعروة، قال الحافظ: «والظَّاهر أنَّ رواية حبيب عنه منقطعة»، ينظر: التَّهذيب (٣/ ٩٥)، الإصابة (٧/ ١٥٤).
وليس الحديث عن عقبة بن عامر، وقد تعقَّبَ المصنِّفَ في ذلك حفيدُهُ الشَّيخ سليمان (٢/ ٨٨٤)، ولعلَّه تبع في ذلك الوهم ابنَ القيِّم في الوابل الصَّيب (ص٣٧٤). =

(أحسنُها الفأل): وجهُ كونِ الفألِ من الطِّيرةِ: أنَّ الطِّيرةَ تَعلُّقٌ على تشاؤمٍ، والفأل: تعلُّقٌ على أمرٍ يُدخِلُ على الإنسان السُّرورَ والطمأنينةَ، فلو كنت مريضاً فسمعت رجلاً يقول: «يا سالم»، أو دخلَ عليك رجل اسمه: (سالم)، فإنَّك ترتاح لهذه الكلمة، وتتفاءل بها بحصول السَّلامة لك.

وفيه أنَّ الحسنات من الله، وأنَّ دفع السَّيئات من الله، مع أنَّ لك مشيئة في ذلك لكنَّها لا تخرج عن مشيئة الله.

(ولا حول): ذكروا في تفسيرها **وجهين**:

الأوَّل: أي: لا تحوُّل عن معصية الله إلى طاعة الله إلَّا بإذن الله وإعانته.

الوجه الثَّاني: ـ وهو أجمع وأشمل ـ؛ أي: لا تحوُّل من حالٍ إلى حالٍ إلَّا بإذن الله وإعانته.

فلم تترك المحرَّم إلَّا بإعانة الله لك، وما فعلت عبادة إلَّا بإعانة الله لك، وما حصل لك علم إلَّا بإعانة الله لك.

فإذا أحسَّ الإنسان بكراهية في قلبه لأمرٍ معيَّنٍ فليبادر بذكر هذا الدُّعاء، وهذا شبيهٌ بالتَّوجيه النبويِّ لمن رأى في منامه ما يكره أن يتفل عن يساره، ويستعيذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم(١).

= وأمَّا تصحيح الإسناد فلعلَّ الإمام قد تبع فيه النَّوويَّ في رياض الصَّالحين (ص٥٣٨). وقد رواه معمرٌ في جامعه (١٠/٤٠٦) (١٩٥١٢) من حديث الأعمش مرسلاً.
تنبيه: وقع في المطبوع من عمل اليوم واللَّيلة: (عقبة) وهو تصحيفٌ، والله أعلم.

(١) رواه مسلم (٢٢٦١) من حديث أبي سلمة رضي الله عنه.

۞ وعن ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: «**الطِّيَرَةُ شركٌ، الطِّيَرَةُ شركٌ، وما منا إلَّا، ولكنَّ اللهَ يُذهبُهُ بالتَّوكُّلِ**» رواهُ أبو داود، والتِّرمذيُّ وصحَّحَهُ، وجعل آخرَهُ من قول ابن مسعودٍ[1].

فيه: أنَّ التَّطيُّرَ من الشِّرك، وذلك أن يعتقد أنَّ هذا الطَّائر سببٌ في الخير أو الشَّرِّ، فإن اعتقدَ أنَّهُ مُسبِّبٌ فهو شركٌ في الرُّبوبيةِ.

أيُّ سببٍ عند هذا الطَّائر وأيُّ خيرٍ إذا ولَّاك ميامنَهُ؟! وأيُّ شرٍّ عندَهُ إذا ولَّاك مياسرَهُ؟! وما الذي يؤثِّر إذا قابلك ـ وهو: (النَّاطح والنَّطيح) ـ؟! وأيُّ تأثيرٍ يحصل إذا صار خلفك ـ وهو: (القاعد والقعيد) ـ؟!

(وما منَّا إلا..): في الجملة حذفٌ دلَّ عليه السِّياق والتَّقدير، وهو: (وما منَّا إلَّا وقد وقعَ في قلبِهِ شيءٌ من التَّطيُّرِ).

(ولكنَّ اللهَ يُذهبُهُ بالتَّوكُّلِ): هذا من كلام ابن مسعودٍ ﵁، فإذا وقع في قلبك شيءٌ من ذلك فتوكَّل على الله، واعلم أنَّهُ هو الضَّار النَّافع، وأنَّ هذا ليس بسببِ الخير أو الشَّرِّ، وبهذا لا يضرُّك ما وقع في قلبكَ.

---

(١) أخرجَهُ الطيالسيُّ (١/ ٢٧٨) (٣٥٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٤٦) (٢٦٩١٩)، والإمام أحمد (٦/ ٢١٣) (٣٦٨٧)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٩٠٩)، وأبو داود (٣٩١٠)، والتِّرمذيُّ (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وابنُ حبَّان (٦١٢٢)، والحاكمُ (١/ ٦٤)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٢/ ٣٩٧)، من طريق سلمة بن كهيل، عن عيسى بن عاصم، عن زِرِّ بن حُبيش، عن عبد الله بن مسعود ﵁، به مرفوعاً.
إسنادُهُ صحيحٌ، وعيسى بن عاصم هو: الأسدي.
وقولُهُ: «وما منا إلَّا...» هو من كلام ابن مسعود، قالَهُ سليمانُ بنُ حربٍ والبخاريُّ (العلل الكبير ص٢٦٥)، والبيهقيُّ، والخطيبُ التَّبريزيُّ (المشكاة ٢/ ١٢٩٠)، والهيثميُّ (موارد الظمآن ٤/ ٤١٦) في آخرينَ.

۞ ولأحمدَ من حديثِ ابنِ عمرٍو: «**من ردَّته الطِّيَرَةُ عن حاجةٍ فقد أشرك**».

قالوا: فما كفَّارةُ ذلك؟

قال: «**أن تقولَ: اللَّهُمَّ لا خير إلَّا خيرُك، ولا طيرَ إلَّا طيرُكَ، ولا إلٰهَ غيرُكَ**»(١).

المعنى: أنَّ الإنسانَ إذا تشاءمَ في قلبِهِ من شيءٍ فإنَّهُ لا يكون من الطِّيرةِ إلَّا إذا ردَّهُ ذلك عن حاجتِهِ، فلو أنَّ تاجراً كان يبيعُ فجاءه أوَّل الصَّباح رجلٌ أعور، إن ردَّهُ فتحَ على نفسِهِ بابَ شرٍّ، وباب شركٍ، وتعلُّقٍ بغيرِ اللهِ.

فالواجبُ أنَّ الإنسان لا يتعلَّق قلبه بغير الله، فمن أراد السَّفر فسمع غراباً ينعق فردَّه ذلك عن سفره فإنَّه قد تطيَّر، وولجَ في باب الشِّركِ.

والمتعيِّن على الموحِّد أن يقطعَ العلائقَ عن جميعِ الخلائقِ ويتَّصل بالخالق، فالله هو الذي ينفعُ ويضرُّ، فإن وقع في قلبِكَ شيءٌ من ذلك فقل:

---

(١) رواهُ الإمام أحمد (١١/ ٦٢٣) (٧٠٤٥)، وابنُ السُّني في (عمل اليوم واللَّيلة ٢٩٢)، والطبرانيُّ (١٣/ ٢٢) (٣٨)، من حديث ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن أبي عبد الرحمٰن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، به مرفوعاً.
ولا يصحُّ لما عُلِمَ من حال ابن لهيعةَ رَحِمَهُ اللهُ.
تنبيه: وقع في المطبوع من (عمل اليوم واللَّيلة) «عن ابن عُمَرَ»، وهو تصحيف.
ورواهُ ابنُ وهب في جامعه (٦٥٩ ـ ٦٦٠)، وابنُ أبي شيبة (١٣/ ٤٥٦) (٢٦٩٣٩)، والبيهقيُّ في الشُّعب (١١٣٧)، من حديث عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه، وهو أصحُّ.
وللمرفوعِ شاهدٌ من حديث بريدة رضي الله عنه، رواهُ البزَّارُ (٤٣٧٩)، والطبرانيُّ في الدُّعاء (١٢٧٠)، وإسنادُهُ ضعيفٌ؛ فإنَّ فيه: الحسن بن أبي جعفر، قال الإمام أحمد وابن معين: «ليس بشيءٍ»، وقال البخاريُّ: «منكر الحديثِ»، ينظر: سؤالات ابن هانئ (٢/ ٢١٠)، العلل (٢/ ٦٠٤)، التَّاريخ الكبير (٢/ ٢٨٨).
وروى نحوَهُ ابن أبي شيبة (١٥/ ٤١٢) (٣٠٤٩٢) من حديث ابن عبَّاسٍ موقوفاً عليه.

(**اللَّهُمَّ لا خير إلَّا خيرك، ولا طيرَ إلَّا طيرُك، ولا إلٰهَ غيرُك**)، وهذا من جنس قولِهِ في الحديث السَّابق: (**اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السَّيئات إلَّا أنت، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك**)، فهذه الكلمات تقلعُ جذور شجرةِ الشِّرك من قلبك، وتجعلُهُ صافياً لله، ويذهبُ عنك هذا التَّطيُّرُ.

۞ وله من حديث الفضل بن عبَّاس رضي الله عنهما: «**إنَّما الطِّيرة ما أمضاك أو ردَّك**»[1].

(**وله**): أي: لأحمد، وهذا الحديث له سببٌ وهو أنَّ الفضلَ بن عبَّاس قال: خرجتُ مع رسول الله ﷺ يوماً فبرح ظبيٌ فمال في شِقِّه فاحتضنتُهُ، فقلت: «يا رسولَ الله تطيَّرتَ؟».

فقال: (**إنَّما الطِّيرة ما أمضاك أو ردَّك**)؛ فلا يثبتُ حكمُ الطِّيرة إلَّا إذا أمضتك أو ردَّتك تعلُّقاً بها.



(١) رواهُ الإمام أحمد (٣/ ٣٢٧) (١٨٢٤) من حديث ابن علاثة، عن مسلمة الجهني، عن الفضل، به مرفوعاً.
وإسنادُهُ ضعيفٌ، ابن علاثة قال البخاريُّ (التَّاريخ الكبير ١/ ١٣٢): «فيه نظرٌ»، وقال الدَّارقطنيُّ (السُّنن ١/ ٤١٠): «ضعيف متروك».
ولَهُ علَّةٌ أخرى وهي: أنَّ مسلمة لم يسمع من الفضل بل لم يدركه! والخبرُ قد أعلَّه المصنِّف كما نقلَهُ عنهُ حفيدُهُ الشَّيخ سليمان (٢/ ٨٩٢).

بابُ
ما جاء في التَّنجيم

قالَ البخاريُّ في «صحيحه»: «قال قتادَةُ: خلقَ اللهُ هذه النُّجومَ لثلاث: زينةً للسَّماء، ورجوماً للشَّياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها، فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأَ، وأضاعَ نصيبَهُ، وتكلَّفَ ما لا علمَ لَهُ بِهِ». انتهى.

وكَرِهَ قتادةُ تعلُّمَ منازلِ القمرِ، ولم يُرخِّص ابنُ عيينةَ فيهِ، ذكرَهُ حربٌ عنهما، ورخَّص في تعلُّم المنازلِ أحمدُ وإسحاقُ.

وعن أبي موسى قالَ: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنَّة: مدمنُ الخمرِ، وقاطعُ الرَّحم، ومصدِّق بالسِّحرِ»** رواهُ أحمدُ وابنُ حبَّان في «صحيحه».



باب
ما جاء في التَّنجيم

(التَّنجيم) هو: الاستدلالُ بالأحوال الفلكيَّة على الحوادث الأرضيَّة، يقولون ـ مثلاً ـ: إذا اجتمعت الزُّهرة مع كذا: وقع كذا، وإذا حصل للمشتري كذا: وقع كذا.

فإن اعتقدَ أنَّ المؤثِّرَ والموجِدَ للخصب أو الجدب أو غيرهما هو الكوكب نفسُهُ فهو كافرٌ بإجماعِ المسلمين، وبعض النَّاس على هذا الاعتقاد، خاصَّة الصَّابئة.

أمَّا إذا اعتقد أنَّ الموجِدَ والمؤثِّرَ هو الله، وأنَّ هذه الكواكب سببٌ في معرفة ما سيقع فهذا اختلف العلماء فيه، والصَّواب أنَّه كفرٌ؛ لأنَّه تعاطى شيئاً قد استأثر اللهُ بعلمِهِ، فمثلاً هم يستدلُّون بأمور في الكواكب على معرفة وقت وفاتك، فيقولون: أنت تموت بعد خمسين سنة ـ مثلاً ـ أين هذا من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]؟! وأين هذا من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]؟!

يقول المنجِّم: «سيأتيك من الأولاد سبعة، ومن البنات ثلاث»، «ستسجن»، «ستقتل»، «ستتولَّى رئاسة»، وكُلُّ هذا من الباطل، لا يعلم ما في غدٍ إلَّا الله.

وقد ألَّف قومٌ في ذلك، ككتاب: «شمس المعارف»[1]، و«المجرَّبات»[2]، وما أشبه ذلك.

---

(١) منسوب لأبي العبَّاس، أحمد بن علي البوني.

(٢) لابن سينا.

وهم يتعلَّقون بهؤلاء المنجِّمين مع أنَّ ما يقولونه لا يقع إلَّا نادراً، وقد ألَّف أبو معشر الفلكي كتاباً في التَّنجيم، رتَّبه على البروج، فمن وُلد في برج الجدي ـ مثلاً ـ: فله من العمر كذا، ومن المال كذا، ويحصل له من المصائب كذا وكذا.

ثُمَّ يحسبُ اسمه واسم أُمِّهِ، فلو كان اسمه: (زيد) ـ مثلاً ـ؛ فالزَّاي تساوي: سبعة، والياء تساوي: عشرة، والدَّال تساوي: أربعة، فالمجموع: واحد وعشرون.

وإذا كان اسم أُمِّهِ: (هند) ـ مثلاً ـ؛ فالهاء تساوي: خمسة، والنُّون تساوي: خمسين، والدَّال تساوي: أربعة، المجموع: تسعة وخمسون، ومع حساب اسمِه صار المجموع: ثمانون، ثُمَّ إذا كان مولوداً في البرج الثَّامن ـ وهو: (برج العقرب) ـ خصم من ذلك المجموع ثمانية، فيقول: «أنت تعيش اثنتين وسبعين سنة!»، والأبراج اثنا عشر، وكُلُّ هذا من الخرافات التي لا أصل لها، وكذلك يدخل في هذا علم الأكتاف، وعلم الأوفاق، وعلم الجفر، وقد استأثر الله بعلم الغيب: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وهناك نوعٌ آخر من تعلُّم منازل النُّجوم ـ وهو جائز ـ، وهو: تعلُّمها لمعرفة القبلة، وزوال الشَّمس، وجهة السَّير، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

وكذلك معرفة الأحوال الجويَّة ليست من النَّوع المحرَّم، فنحن نعرف أنَّ نهاية طول اللَّيل وقصر النَّهار هو: في برج الجدي، ونهاية قصر اللَّيل وطول النَّهار هو: في برج السَّرطان، ونعرف أنَّ تساويَ اللَّيل والنَّهار هو: في برج الميزان.

۞ قالَ البخاريُّ في «صحيحه»: «قال قتادَةُ: خلقَ اللهُ هذه النُّجومَ لثلاث: زينةً للسَّماء، ورجوماً للشَّياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها، فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأَ، وأضاعَ نصيبَهُ، وتكلَّفَ ما لا علمَ لَهُ بهِ». انتهى(١).

لم يخلق الله النُّجوم لنستدلَّ بها على المستقبل، وإنَّما خلقها كما قال قتادة: (**زينةً للسَّماء، ورجوماً للشَّياطين، وعلامات يُهتدى بها**)، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، فمن زعم غير هذا فقد أخطأ، وتكلَّف ما لا علم له به، وأضاع نصيبه من الدِّين والخير.

وقد استدلَّ طائفةٌ من أهل العلم بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ على أنَّ النُّجومَ هي في السَّماء الدُّنيا معلَّقةٌ كالقمر.

فإن قلتَ: ما القولُ فيما تناقلَهُ النَّاسُ وتلقَّوهُ بالقبولِ من أنَّ قوماً وصلوا إلى القمر؟! هل في القرآن ما يدلُّ على هذا؟ وهل جرت محاولات في ذلك قديماً؟

نقولُ لكَ: ليس ببعيدٍ أنَّهُم وصلوهُ، وقد ذكر الألوسيُّ في تفسيرِهِ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢] أنَّ الفلاسفَةَ صنعوا سفناً من زئبق وأرادوا الوصول بها إلى القمر فلمَّا تكامل بناؤها ركبوها واتَّجهوا إلى القمر فرجعوا وقد انتفخت أجسامهم،

(١) علَّقه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠٧)، ووصلَهُ ابنُ جرير (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (١٦٥٣٦) من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، وإسنادُهُ صحيحٌ، وينظر: تغليق التَّعليق (٣/ ٤٨٩).

وعادوا خاسئين خاسرين(١).

وسببُ ذلك أنَّهُم لمَّا صَعِدُوا لم يكُن عندهم من الآلات ما يُغذِّيهم بالأوكسجين، فتضرَّروا؛ فيمكن أن يصلوا الآن إلى القمر، وإن كان بعض النَّاس يقول: لا يمكن ـ ومن جملة هؤلاء مدير الأرصاد الفلكيَّة في أمريكا سابقاً ـ، أذكرُ أنِّي قرأتُ لَهُ مقالاً قال فيه: «إنَّ الذين زعموا أنَّهم وصلوا إلى سطح القمر ليسوا على شيء، إنَّما وصلوا إلى مرتفعٍ خالٍ من الحياة في أقصى الأرض» ـ هذا قوله ـ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ، لكن من حيث الإمكان نقول: ذلك ممكنٌ، فالله يقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٩]، قال بعض المفسِّرين: **معناه**: لتَصعدُنَّ طبقاً فوق طبقٍ، وجمهور المفسِّرين على أنَّ **المعنى**: لتركبُنَّ حالاً بعد حالٍ؛ أي: تتقلَّبُ بكم الأحوال(٢).

وقد قال المنجِّمون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦] المعنى: يهتدون بأحوال النُّجوم على ما سيقع.

والمسلمون يقولون: لا، بل يهتدى بها في معرفة الجهات؛ لأنَّه قال ـ سبحانه ـ في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] فقولُهُ: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ دليلٌ على أنَّ الاهتداء هو في جهات السَّير، إذ لو كان على معرفة ما سيقع لم يُقيَّد ذلك بظلماتِ البرِّ والبحر!

وكذلك يستدلُّون بقصَّة إبراهيم عليه السلام في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصَّافات: ٨٣ ـ ٨٩]، قالوا: هذا إبراهيمُ نبيُّ الله وخليلُهُ نظر في النُّجوم واستدلَّ بها.

---

(١) روح المعاني (٨/ ٢٨).

(٢) ينظر: تفسير الطَّبري (٢٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥٤)، تفسير ابن أبي حاتم (١٩١٩٧ ـ ١٩١٩٨).

نقول: هذا باطلٌ؛ فإبراهيم ﷺ لم ينظر في النُّجوم على وجه معرفة التَّأثير، بل على وجه التَّفكير، وقد كان قومُهُ من الصَّابئة عُبَّاداً للنُّجوم، يدلُّك على هذا ما جاء في سورة الأنعام من قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩].

ويدلُّك ـ أيضاً ـ على بطلان ذلك أنَّ قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ كان كذبة منه، لا حقيقة، ففي حديث الشَّفاعة الطويل أنَّهُ عليه السلام يعتذر عنها، ويذكر أنَّه كذب ثلاث كذبات[1]، وأنَّ اثنتين منها في ذات اللهِ[2].

فالحاصل: أنَّ التَّنجيمَ منهيٌّ عنهُ، وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّه كفرٌ إذا اعتقد أنَّ النَّجمَ سببٌ، أمَّا إذا اعتقد أنَّ النَّجمَ مُسبِّبٌ فهذا قد جعل مع الله شريكاً، وهو كفرٌ بالرُّبوبيَّةِ بإجماعِ المسلمينَ، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ وكَرِهَ قتادةُ تعلُّمَ منازلَ القمرِ، ولم يُرخِّص ابنُ عيينةَ فيهِ، ذكرَهُ حربٌ عنهما، ورخَّص في تعلُّم المنازلِ أحمدُ، وإسحاقُ(١).

تعلُّم منازل القمر والنُّجوم للتَّسيير لا للتَّأثير كهذه التَّقاويم الموجودة كَرِهَهُ قتادَةُ وسفيانُ بنُ عيينة، بل حرَّموا ذلك، ولكن رخَّص فيه الإمامُ أحمدُ، وإسحاقُ بنُ راهويه، وغيرُهُما من أهل العلم، تعرِفُ بها الزَّوال، وجهةَ القبلة، وما مضى من اللَّيل، وما تبقَّى منه، كلُّ هذا لا بأس به، والتَّقاويم مبنيَّةٌ على هذا.

كذلك ـ أيضاً ـ معرفة خسوف القمر وكسوف الشَّمس من حيثُ مُدَّتُهُ، وهل هو خسوفٌ كليٌّ أو جزئيٌّ؟

هذا يُدركُ بالحسابِ، وتُمكِن معرفتُهُ بسهولة.

(١) القول في علم النُّجوم للخطيب (ص١٣٣)، شرح العمدة (ص٥٥٣).

﴿ وعن أبي موسى قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّةَ: مدمنُ الخمرِ، وقاطعُ الرَّحمِ، ومصدِّقٌ بالسِّحرِ**» رواهُ أحمدُ وابنُ حبَّان في «صحيحه»[(١)].

هذا من أحاديث الوعيد، وطريقة السَّلف فيها أن تُجرى على ظاهرها؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في الزَّجر فلا ينبغي تأويلها، وطريقَةُ النَّوويِّ وأمثاله تأويلُ هذه الأحاديث، وقد سبقَ بيانُ ذلكَ.

(**مدمنُ الخمرِ**)؛ أي: المستديمُ لشربِهِ، والخمر هو: ما خامرَ العقلَ؛ أي: غطَّاهُ.

ومن المعلومِ أنَّ الخمرَ محرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، وأنَّ من اعتقدَ إباحةَ الخمرِ فهو مُرتدٌّ كافرٌ باللهِ العظيم؛ لأنَّه أنكر تحريمَ ما عُلِمَ تحريمُهُ بالضَّرورَةِ، وقد روى مسلمٌ في «صحيحه» من حديث طارق بن سويد أنَّه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن الخمر نجعلها في الدَّواء؟

فقال: «**إنَّه ليس بدواء، ولكنه داءٌ**»[(٢)].

وزعمَ قومٌ أنَّه دواءٌ، وأنَّه يُكثِّرُ الدَّمَ في الجسمِ، ويبعثُ فيه القوَّة، والطِّبُّ الحديثُ اليوم اكتشف أنَّهُ ضارٌّ، وهذا مقتضى ما صحَّ عنه ﷺ.

وقال أطباء الإفرنج وغيرهم: إنَّ شارب الخمر يضعفُ نسيجُ بدنِهِ،

---

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٣٢/ ٣٣٩) (١٩٥٦٩)، وأبو يعلى (٧٢٨٤)، وابن حبَّان (٥٣٤٦)، والحاكمُ (٤/ ١٦٣) من حديث الفضيل بن ميسرة، عن أبي حريز، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، به مرفوعاً.
أبو حريز عبد الله بن الحسين، قاضي سجستان، قال فيه الإمام أحمد (العلل ١/ ٤٥٨): «منكر الحديثِ»، وضعَّفَهُ ابنُ معين ـ في رواية ـ، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وقال ابنُ عديٍّ: «وعامَّةُ ما يرويه لا يتابعُهُ أحدٌ عليهِ»، ينظر: السُّنن الكبرى (٥/ ٣٥٤)، الكامل (٥/ ٢٦٠)، الميزان (٢/ ٤٠٦).

(٢) صحيح مسلم (١٩٨٤).

فيكون نسيج بدن شارب الخمر وهو ابن أربعين سنة كنسيج بدن ابن ستِّين.

وقالوا: للخمر أثرٌ على عقول نسل مدمنه؛ لأنَّ موادَّ السُّكْرِ تخالِطُ الدَّمَ ومعلوم أنَّ الولدَ من الدَّم، فتتأثَّر خِلقتُهُ بهذه الموادِّ.

ولأحدِ الفرنسيِّين كتابٌ سمَّاه: «**ثلاثون عاماً في الإسلام**»، عاش في الجزائر في عهد الملك عبد القادر، وأظهر الإسلام، وتعلَّم اللُّغةَ العربيَّةَ، وخالط العلماء، وقرأ عليهم كتبَ المالكيَّة، وحفظ القرآن، ثُمَّ تطوَّرت به الأحوال وكان ذكيّاً حتَّى وصل إلى الملك عبد القادر، وصار رئيسَ ديوانِهِ، ثُمَّ صار يُكاتب الفرنسيين بأسرارِ الجزائر، ومن جملة ما ذكرَ أنَّهُ قال: «لو أنَّ أهل الجزائر شربوا خمورنا لاستقبلونا وذلُّوا لنا»(١).

وقد ذكر القرطبيُّ أنَّ شارباً للخمر رُؤي وهو يمسح بولَهُ بوجهه ويقول: «اللَّهُمَّ اجعلني من التَّوَّابين واجعلني من المتطهِّرين!»(٢).

وألحق بعضهم الدُّخان بالخمر، وأئمَّة الدَّعوة في فتاويهم جعلوا تعزير شارب الدُّخان كحَدِّ شارب الخمر، سواء بسواءٍ(٣)، نظراً إلى ضرَرِهِ الكبير، حتَّى أنَّ مدمنه إذا لم يشربه يُصيبه كسلٌ وتعبٌ كثيرٌ، وهو من الخبائث، وإن كان هناك من يقول بإباحته لكن لا دليل على ذلك، وقد جزم بعض علماء المالكيَّة بتحريم الدُّخان(٤).

وممَّا قرأنا في تاريخ الدَّولة التركيَّة أنَّها كانت تُعاقب من يشرب الدُّخان ـ في أوَّل ظهورِهِ ـ بسلخ جلدِهِ وهو حيٌّ!

ولا شكَّ أنَّ هذا لا ينبغي، لكن بهذا تعرف كبير ضررِهِ، حتَّى أنَّهم عاقبوا من يشربه بهذه العقوبة الشَّديدة.

(**وقاطع الرَّحِمِ**): الأقارب لهم حقٌّ قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ

---

(١) اسم الكتاب: (اثنان وثلاثون عاماً في رحاب الإسلام)، ومؤلِّفه هو: ليون روش، طبعته دار جداول بالعربيَّة مختصراً.
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٤٤١).
(٣) الدُّرر السَّنيَّة (١٥/ ٩٣).
(٤) فتاوى عليِّش (١/ ١٢٢).

حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وفي الحديث: أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قال للرَّحم: (**ألا ترضين أن أصِلَ من وصلَكِ، وأقطعَ من قطعَكِ**)[١]، فقاطع الرَّحم متعرِّضٌ للوعيد العظيم الوارد في هذا الحديث، وهو أنَّهُ لا يدخل الجنَّةَ.

(**ومصدِّقٌ بالسِّحرِ**): هذا هو شاهدُ التَّرجمة من الحديث، لكن لو قلتَ: الحديث: (**ومصدِّق بالسِّحر**)، والتَّرجمة: (باب ما جاء في التَّنجيم) ما علاقة هذا بهذا؟!

نقول لك: السِّحرُ هو: ما خفيَ ولطُف سببُهُ، فيدخل فيه التَّنجيم، والطَّلاسم، وما أشبه ذلك.

وجاء في الحديث قوله ﷺ: «**من اقتبسَ شعبةً من النُّجوم فقد اقتبسَ شعبةً من السِّحر زادَ ما زاد**»[٢]؛ أي: كلَّما زاد تعلُّمُهُ للنُّجومِ زادَ تعلُّمُهُ للسِّحرِ.

والسَّاحرُ حدُّهُ القتلُ، وهل تُقبل توبته في الدُّنيا؟

اختلف العلماء في ذلك، فذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّها لا تُقبل؛ وذلك أنَّ السِّحرَ علمٌ ولا يمكن انتزاعُهُ من القلب، وبقاؤُهُ يؤدِّي إلى الكفر.

وقيل: بل تقبل توبته[٣]، وهذا هو الصَّواب؛ لأنَّ الله ﷻ قَبِلَ توبةَ سحرةِ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٤٨٣٠)، ومسلمٌ (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) مضى تخريجه في: (باب ما جاء في بيان شيء من أنواع السِّحر).

(٣) الذي رأيته في كتب الشَّافعيَّة: قبول توبته إلَّا إن قتلَ بسحرِهِ فيُقتل قصاصاً، ينظر: الأم (١/ ٢٩٣)، مختصر المزني ـ وهو في آخر كتاب الأم ـ (٨/ ٢٧٦)، الحاوي (١٣/ ٩٦)، البيان للعمراني (١٢/ ٦٧).
والقول بأنَّ توبة السَّاحر لا تقبل في الدُّنيا هو قول قويٌّ في مذهب الحنفيَّة، ينظر: تبيين الحقائق (٣/ ٢٩٣)، البناية (٧/ ٢٩٦)، الدُّر المختار (١/ ٤٤)، وعليه مذهب المالكيَّة، ينظر: البيان والتَّحصيل (١٦/ ٤٤٤)، الإشراف للقاضي عبد الوهَّاب (٢/ ٨٤٦)، التَّاج والإكليل (٨/ ٢٧٦)، الفواكه الدَّواني (٢/ ١٩٩)، ورواية عند الأصحاب، وهي المذهب، ينظر: المبدع (٧/ ٤٨٦)، الإنصاف (٢٧/ ١٣٤)، الإقناع (٤/ ٢٩٣)، شرح المنتهى (٦/ ٢٩٥)، قال الموفَّق ﷺ (المغني ١٢/ ٣٠٣): «وهاتان الرِّوايتان في ثبوت حكم التَّوبة في الدُّنيا، من سقوط القتل ونحوه، فأمَّا فيما بينه =

فرعونَ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشُّعراء: ٤٦ ـ ٥١]، وأمَّا كون هذا العلم ما زال في قلبِهِ فنقول: معرفةُ الكفر مع اعتقاد الحقِّ لا تضرُّ، كما أنَّك تعرف علومَ الزَّندقة، وكيفيَّة عبادة الأصنام ومع ذلك تعتقدُ بطلانها.



= وبين الله ـ تعالى ـ، وسقوط عقوبة الدَّار الآخرة عنه، فتصحُّ؛ فإنَّ الله تعالى لم يسدَّ باب التَّوبة عن أحد من خلقه، ومن تاب إلى الله قبل توبته، لا نعلم في هذا خلافاً»، والله أعلم.

بابُ
ما جاءَ في الاستسقاءِ بالأنواءِ

وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢].

عن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أربعٌ في أُمَّتي من أمرِ الجاهليَّة لا يتركونَهنَّ: الفخرُ بالأحسابِ، والطَّعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنُّجوم، والنِّياحة**».

وقال: «**النَّائحةُ إذا لمْ تتبْ قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جَرَبٍ**» رواهُ مسلمٌ.

ولهما عن زيدِ بنِ خالدٍ رضي الله عنه قالَ: صلَّى لنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحديبيةِ على إثرِ سماءٍ كانت من اللَّيلِ، فلما انصرفَ أقبل على النَّاسِ فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟**»

قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ.

قال: «**قال: أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأمَّا من قال: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا من قال: «مُطرنا بنوء كذا وكذا»، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكبِ**».

ولهما من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ بمعناه، وفيهِ: قال بعضُهُم: «لقد صدقَ نوءُ كذا وكذا»، فأنزلَ الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢].



باب
ما جاءَ في الاستسقاءِ بالأنواءِ

(الأنواء): جمع نوء، وهي: منازل القمر؛ وذلك أنَّ أهل الجاهليَّة ينسبون سقوط الأمطار لهذه الأنواء، فكذَّبهم القرآن الكريم.

وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢].

أي: تجعلون شكركم وحظَّكم ونصيبكم من هذه الأمطار أنَّكم تكذِّبون، وذلك بإضافتها إلى غير الله، هذا هو معنى الآية.

وقيل: تجعلون حظَّكم من القرآن ونصيبكم أنَّكم تكذِّبون به، والآية تعمُّ هذا وهذا.

وقد جاء في بعض الآثار أنَّ الله ﷻ يقول: **(إنِّي والجنَّ والإنسَ في نبأٍ عظيم، أخلقُ ويُعبدُ غيري، وأرزقُ ويُشكر سواي، خيري إليهم نازلٌ، وشرُّهُم إليَّ صاعدٌ)**[1].

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في مسند الشَّاميين (٩٧٤)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٤٢٤٣)، وعبد الغني في التَّوحيد (ص١٠٨) من حديث عبد الرحمٰن بن جبير وشريح بن عبيد، عن أبي الدَّرداء، عن النبيِّ ﷺ، قال: قال الله ﷻ... فذكره.
وإسنادهُ منقطعٌ

۞ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أربعٌ في أُمَّتي من أمر الجاهليَّة لا يتركونَهنَّ: الفخرُ بالأحسابِ، والطَّعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحَةُ**».
وقال: «**النَّائحةُ إذا لمْ تتبْ قَبل موتها تُقامُ يوم القيامةِ وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جَرَبٍ**» رواهُ مسلمٌ(١).

(**أربعٌ**)؛ أي: أربعُ خصالٍ.

(**من أمرِ الجاهليَّة**): إضافتها إلى الجاهليَّة إضافةُ ذمٍّ وعيبٍ لها، وتقتضي ذمَّ الجاهليَّةِ ـ أيضاً ـ، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالتبرُّجُ مذمومٌ بإضافته للجاهليَّة، إذ هي إضافةُ ذمٍّ وعيبٍ.

والجاهليَّة: ما كان قبل الإسلام، هذه الجاهليَّة إذا أُطلقت، وكُلُّ ما خالفَ الكتابَ والسُّنَّةَ فإنَّهُ يُسمَّى: (جاهليَّة)، كان قبل الإسلام، أو بعد الإسلام.

(**لا يتركونَهُنَّ**): لا يدعونَهُنَّ، وفيه: عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّةِ؛ حيثُ أخبر ﷺ بأنَّ هذه الخصال لا تزال باقيةً في هذه الأُمَّةِ.

(**الفخر بالأحسابِ**): وهو أنَّ الرَّجُلَ يفتخر بآبائه وأجدادِهِ، «أنا ابنُ كذا وكذا، أنا ابنُ عِليَةِ القوم»، هذا كُلُّهُ مذمومٌ، ومن شؤونِ الجاهليَّةِ، والله ـ سبحانه وبحمده ـ يقولُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ [الحجرات: ١٣]، والرَّسولُ ﷺ يقول: «**ومن بطَّأَ بهِ عملُهُ لمْ يُسرعْ بهِ نَسَبُهُ**»(٢).

ويقول الشَّاعرُ العربيُّ:

---

(١) صحيح مسلم (٩٣٤).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لقد رفعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ كما وضعَ الشِّركُ الشَّقيَّ أبا لهب

فالإسلامُ رفعَ سلمانَ، وهو عبدٌ فارسيٌّ، بل قال في حقِّهِ الرَّسول ﷺ: «**سلمانُ منَّا أهل البيتِ**»(١)، ففيه فخرٌ وفضلٌ لسلمان، وهذا عمُّ الرَّسول ﷺ من سادات قريشٍ، ومن أشراف العرب، ومن صميمها، لم ينفعْهُ نسبُهُ، بل قال الله فيه قرآناً منزَّلاً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ١ ـ ٣].

فلا فخر إلَّا بالتَّقوى، فمجرَّدُ أنَّهُ من أشراف النَّاس، أو مجرَّدُ أنَّهُ من الملوك، أو مجرَّدُ أنَّهُ من أشراف العرب كُلُّ هذا لا يجدي ولا يغني فتيلاً، ما دام مُنحرفاً عن الصِّراط المستقيم، وتأمَّل القرآنَ العزيزَ تجدْهُ واضحاً ومبيِّناً هذا المعنى، وذلك كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولم يقُلْ: (إنَّما العربُ إخوةٌ)، وبهذا تعرف أنَّ القوميَّة العربيَّة التي لها شنشنةٌ وطنطنةٌ في الإذاعات والصُّحف ـ مع الأسف ـ، بل وفي الكتابات الرسميَّة: «الدُّولُ العربيَّة، الجامعة العربيَّة» أنَّها من أمور الجاهليَّة(٢).

وقال الرَّسول ﷺ: «**مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم**»(٣) ولمْ يقل: (مثل العرب)، وقال ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمن كالبُنيان**»(٤)، وشبَّكَ بين أصابعِهِ، ولمْ يقُل: (العربُ للعربِ كالبنيان يشدُّ بعضُهُ بعضاً)، فالرَّابطةُ الإيمانيَّة، والأُخوَّة الإسلاميَّة هي: الجامعة بين النَّاس، لا فرق بين عربيٍّ وعجميٍّ، ولا بين أسودَ وأبيضَ، ولا فخر لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالتَّقوى.

ولكن متى نشأت القوميَّةُ العربيَّةُ؟! هذا الذي نسمعه: «العرب... العرب»!، نحنُ نفتخر بعروبتنا لا بأس، نحنُ عربٌ، لكن ليست العروبة كُلَّ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) مرادُ الشَّيخ ﵀: ذمُّها إذا أدَّت إلى عصبيَّةٍ أو كانت بديلاً عن الإسلام أو منازعةً له؛ فإنَّ معرفة الإنسان من نسبِهِ ما يحفظُ أصله ويصلُ به رحمه ليس بمذموم ـ الشَّيخ صالح ـ.
(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) من حديث النُّعمان بن بشير ﵄.
(٤) رواهُ البخاريُّ (٤٨١)، ومسلمٌ (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى ﵁.

شيءٍ، بل الإيمان أقوى منها، ورابطةُ الإسلام أعلى منها، فالعربيُّ إن لم يكُن مستقيماً ولا على الجادَّة فهو العدوُّ اللَّدودُ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، لو كان أبوك أو جدُّك أو أخوك من صميم العرب ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فهو العدوُّ اللَّدودُ، بخلاف ما إذا كان مؤمناً تقيّاً.

وقد نشأت القوميَّة العربيَّة منذُ سبعين عاماً تقريباً[(١)] في حرب الأتراك مع الدُّولِ الكبار، وذلك أنَّهم فكَّروا بأن يجعلوا عصبيَّة للجنسيَّة تحلُّ محلَّ الوجدان الدِّيني، فبدلَ أن يقولوا: «الإسلام، المسلمين»، جعلوها قوميَّةً عربيَّةً من أجل تضيِّيق النِّطاق على المسلمين، فبدلَ أن يقال «المسلمون» فيشملُ ذلك: العربيَّ، والتُّركيَّ، والهنديَّ، والجاويَّ، وغيرَهُم، أرادوا أن يُضيِّقوا النِّطاق، فقالوا: «القوميَّة العربيَّة»، واهتمَّت بهذا جمعيَّة في فرنسا، وجعلت تدعو إلى هذا، فانتشرت وذهبت وطارت في كُلِّ مذهب، والشَّريف حسين سمُّوهُ ملكَ العربِ ـ كما هو معروفٌ ـ، وأعطوهُ مُلكَ العربِ[(٢)].

وأبو ذرٍّ رضي الله عنه قال لرجلٍ: «يا ابن السَّوداء» ـ فقط ـ فغضِبَ الرَّسولُ ﷺ وقال: «**أعيَّرتَهُ بأُمِّهِ؟! إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّةٌ**»[(٣)]؛ أي: فيكَ خصلةٌ من خصال الجاهليَّة، حيثُ قلتَ لَهُ على وجهِ الذَّم والعيبِ له: «**يا ابن السَّوداء**».

وفي الحديث: «**يخرجُ أقوامٌ** ـ أي: ممَّن يفتخرُ بآبائه وأجدادِهِ ـ **هم أهونُ على الله من الجعلان**»[(٤)].

---

(١) يُلاحظ أنَّ كلام الشيخ رحمه الله كان في آخر القرن الرَّابع عشر.

(٢) وينظر: نقد القوميَّة العربيَّة للشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٠)، ومسلمٌ (١٦٦١).

(٤) رواهُ ابنُ وهبٍ في جامعِهِ (٣٠)، وأبو داود (٥١١٦) من طريق هشام بن سعد، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
ورواهُ الإمام أحمد (١٤/٣٤٩) (٨٧٣٦)، والبيهقيُّ (١٠/٣٩٢) من طريق هشامٍ، عن سعيد، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.
=

(والطعن في الأنسابِ): لا يجوز لك أن تتكلَّم في أعراض النَّاس، ولا في أنساب النَّاس، ولا أن تُخرجَ آل فلان من آل فلان.

ومسألةُ الخضيريِّ والقبيليِّ وما أشبه ذلك نقول: عند الله كُلُّهم سواء، أمَّا من ناحية الكفاءة في النِّكاح، فهذا فيه خلافٌ بين أهل العلم، وأمرُهُ يسيرٌ، فالحنابلةُ يرون أنَّهُ يصِحُّ أن يتزوَّج الخضيريُّ بالقبيليَّة، والقبيليُّ بالخضيريَّة، لكن أولياء المرأة يلحقُهُم شيءٌ من العارِ، والقولُ المعتمدُ: أنَّهُ لا مانع؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ زوَّجَ فاطمةَ زيدَ بن حارثة، وعبد الرَّحمٰن بن عوف من بني زهرة من سادات قريش، أختُهُ تزوَّجها بلالٌ وهو عبدٌ حبشيٌّ.

جاء في هذا حديثٌ لكنَّهُ ضعيفٌ: «**العربُ بعضهم أكفاءُ بعضٍ، والموالي بعضُهُم أكفاءُ بعضٍ**»(١)، إلَّا أنَّ هذا الحديث استنكرَهُ أبو حاتم،

= وسعيد يروي عن أبي هريرة، ويروي عن أبيه عن أبي هريرة.

قال ابن منده (التَّوحيد ص٢٦١): «هذا حديثٌ مشهورٌ متَّصلٌ صحيحٌ».

ورواه الإمام أحمد (٤/ ٤٧٠) (٢٧٣٩) من طريق هشام الدَّستوائي، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، به مرفوعاً.

إسنادُهُ حسنٌ، إلَّا أنَّ هذين الحديثين فيهما تقيِّيد الوعيد بمن افتخر بآبائه الكفَّار، أمَّا الوعيد لمن افتخر بآبائه مطلقاً فقد رواهُ البزَّارُ (كشف الأستار ٤/ ٢٢٤) من حديث حذيفة، وهو حديثٌ ساقطُ الإسناد، أشار البزَّارُ إلى إعلالِهِ، فيه: الحسن بن الحسين، وهو العرنيُّ الكوفيُّ، قال أبو حاتم (الجرح والتَّعديل ٣/ ٦): «لم يكُن بصدوقٍ عندَهُم».

وقال ابنُ عديٍّ (الكامل ٣/ ١٨١): «روى أحاديث مناكير، ولا يشبه حديثُهُ حديثَ الثِّقاتِ».

وقال ابن حبَّان (المجروحين ١/ ٢٣٨): «يروي عن جرير بن عبد الحميد والكوفيين المقلوبات».

(١) رواهُ البيهقيُّ (٧/ ٢١٨) ـ من طريق الحاكم ولم أقف عليه في المستدرك مع عزو جماعة إليه ـ، وهو من طريق عمران بن أبي الفضل، عن نافع، عن ابن عمر، به مرفوعاً.

ورواهُ ـ أيضاً ـ (٧/ ١٣٤) من طريق ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر، به مرفوعاً.

قال أبو حاتم عن طريق ابن جريج (العلل ٤/ ٤١): «كذبٌ لا أصل لَهُ»، وقال ـ أيضاً ـ =

والمسألَةُ في الزَّواج، هذا الذي فيه خلاف، أمَّا غيره فهم في سائر الأحكام سواء.

(والاستسقاءُ بالنُّجومِ): الاستسقاء بالنُّجومِ على وجهين:

من زعم أنَّ الذي أوجدَ المطرَ هو النَّجم فهذا لا شكَّ أنَّهُ كافر بالرُّبوبيَّةِ بإجماعِ الأُمَّةِ، قالَ اللهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣].

أمَّا إذا قالَ: الذي أوجد المطر هو الله، ولكنَّهُ أجرى العادة بإرسال الأمطار عند طلوع هذا النَّجم، أو عند هبوطه، أو عند فصل الرَّبيع فهذا بعض العلماء يجيزُهُ ما دام يعتقد أنَّ موجد المطر هو الله، لكن قطعَ كثير منهم بالتَّحريم؛ لأنَّهُ جعلَهُ بمنزلة التعلُّق بوجود هذا المطر، وإن اعتقدَ أنَّ الموجد هو الله، لكن هذا لا ينبغي حسماً لموادِّ الشِّرك وذرائعِهِ.

(والنِّياحَةُ على الميِّت): هي ـ أيضاً ـ من أمور الجاهليَّة، فالميِّتُ إذا مات جعلت المرأةُ تندبُ وتقول: «واموتاه، واظهراه، وانقطاع ظهراه، واعضداه»، وما أشبه ذلك؛ يعني: أنَّهُ ظهرها وعضدها.

أو أن تحلقَ شعرها، أو ترفع صوتها عند المصيبة، كُلُّ هذه من أمور الجاهليَّة التي لا تجوز، وإنَّما إذا أُصيب الإنسان بمصيبةٍ فليقل: «**إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون**»، فالله هو المقدِّرُ لهذه الأشياء، ولا يجوز الاعتراضُ على الله، أو الصُّراخ عند المصيبة؛ لأنَّهُ يدلُّ على الجزعِ وعدمِ الرِّضا.

ومن النِّياحة الممنوعة ما يفعلُهُ بعضُهُم ـ لا سيَّما في الحجاز ـ وذلك

= (٤/ ٧٧): «باطلٌ، أنا نهيتُ ابن أبي شريح أن يحدِّثَ بهِ»، وقال عن طريق عمران (٤/ ٨٥): «هذا حديْث منكرٌ».

وقال ابن حبَّان (المجروحين ٢/ ١٢٤): «عمران ممَّن يروي الموضوعات عن الأثبات على قلَّةِ روايته، لا يحلُّ كتابةُ حديثِهِ إلَّا على سبيل التعجُّبِ».

وقال عبد الحقِّ (الأحكام الوسطى ص١٢٦): «هو حديثٌ منكرٌ موضوعٌ».

وله شاهدٌ من حديث معاذ عند البزَّار (كشف الأستار ١٤٢٤) ولا يصِحُّ؛ للانقطاع بين خالد بن معدان وبين معاذ؛ ولأنَّ في إسنادِهِ من لا يعرف.

أَنَّهُم يُقيمون مآتم في اليوم الذي مات فيه الميِّت، وبعدَهُ بثلاثة أيَّام، يقيمون حفلات أكل وذبائح، ثُمَّ ـ أيضاً ـ بعد مُضيِّ أسبوعٍ من وفاته يقيمون حفلاً، ثُمَّ بعد مضيِّ أربعين يوماً يقيمون حفلاً، ثُمَّ بعد سَنة من وفاته يقيمون حفلاً وذبائح، كُلُّ هذا من الأمور الباطلة التي لا أصل لها في الشَّرع، بل بعضهم يذكرُها في وصيَّته، فإنِّي قد اطَّلعت على وصيَّة الشَّريف غالب فذكرَ فيها أوقافَهُ الكثيرة، ثُمَّ قال: «ويُعمل اجتماع على رأس كُلِّ سنة من وفاتي!».

(**النَّائحة إذا لَمْ تتبْ**): أمَّا إذا تابت فالله يقبل توبة التَّائب، وجاء في الحديث: «**إنَّ الله يقبلُ توبة العبد ما لَمْ يُغرغرْ**»(١)، فالتَّوبةُ تجبُّ ما قبلها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، لكن التَّوبة ليست من طرف اللِّسان، يقول: «أنا تائبٌ»، لا، لا بُدَّ من النَّدمِ على ما فعل ممَّا يتنافى مع الشَّريعة من المعصية وغيرها، لا بُدَّ أن يندمَ ويأسف على فعله، ويعزم عزماً جازماً على ألَّا يعود إليه وذلك بالإقلاعِ عن هذا الذَّنب، ومفارقتِهِ والابتعادِ عنهُ.

(**النَّائحة إذا لم تتبْ تُقام وعليها يوم القيامة سربالٌ**) أي: ثيابٌ وقمصٌ، (**من قطرانٍ**)، هو: الزِّفتُ الذي تشتعل فيه النَّار بسرعة، يكون لاصقاً بجسمها، فيكون أبلغ في الألم وأشد حرارة.

---

(١) رواهُ ابنُ الجعد (٣٤٠٤)، والإمامُ أحمد (١٠/ ٣٠٠) (٦١٦٠)، وعبدُ بن حميد (٨٤٧)، والتِّرمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وابن حبَّان (٦٢٨)، والطبرانيُّ (١٤١٠٧)، والحاكم (٤/ ٢٨٦)، والبيهقيُّ في الشعب (٦٦٦١) من حديث عبد الرَّحمٰن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير، عن ابن عمر، به مرفوعاً.
وفيه ضعفٌ، عبد الرَّحمٰن قال فيه الإمامُ أحمد: «أحاديثُهُ مناكيرُ»، وقال ـ أيضاً ـ: «لم يكُن بالقويِّ في الحديثِ»، ينظر: الجرح والتَّعديل (٥/ ٢١٩)، الضُّعفاء للعقيلي (٢/ ٣٢٦).
كذلك ضعَّفه ابنُ معين ـ في رواية ـ، والنَّسائيُّ، ينظر: الميزان (٢/ ٥٥١).
وله شاهدٌ عند البزَّار (كشف الأستار ٤/ ٧٩) من مسند أبي هريرة، وإسنادُهُ مظلمٌ، وينظر: علل الدَّارقطني (١٣/ ١٥٠)، الرَّد على ابن القطَّان (ص٥٨)، إلَّا أنَّ العلماءَ مجمعونَ على معنى الحديثِ، ينظر: شرح النَّووي على مسلم (٢/ ٤٥).

(ودرعٌ من جَرَبٍ): هذا جزاؤها إذا ماتت على تلك الحالة ولم تتبْ، ممَّا يدلُّ على تحريم النِّياحة، وتَعدادِ فضائل الميِّتِ، وضربِ الخدِّ والصَّدرِ، وشقِّ الجيبِ، وحلقِ الشَّعرِ، وما أشبه ذلك ممَّا كانت تفعله الجاهليَّة.

أمَّا ما هو موجود الآن وهو أنَّ بعض النَّاس يأمرون أهل الميِّت بعمل ولائم فهذا من البدع، بل السُّنَّةُ أنَّ غير أهل الميِّت هم من يصنع طعاماً ويبعثه لأهل الميِّت؛ ففي قصة جعفر: «**اصنعوا لآل جعفر طعاماً؛ فقد أتاهُم ما يشغلهم**»[1].

(١) رواهُ عبدُ الرزَّاق (٦٦٦٥)، والحميديُّ (٥٤٧)، وإسحاقُ بن راهويه (٢١٤٤)، والإمامُ أحمدُ (٣/ ٢٨٠) (١٧٥١)، وأبو داود (٣١٣٢)، والتِّرمذيُّ (٩٩٨)، وابن ماجه (١٦١٠)، والبزَّارُ (٢٢٤٥)، والدَّارقطنيُّ (١٨٥٠)، والطبرانيُّ (١٤٧٢)، والحاكمُ (١/ ٥٢٧)، والبيهقيُّ (٤/ ١٠٠) من طريق جعفر بن خالد المخزومي، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، به مرفوعاً.
وإسنادُهُ حسنٌ، ولَهُ شاهدٌ ضعيفٌ عند عبد الرزَّاق (٦٦٦٦) من مسند أسماء بنت عميس زوجة جعفر رضي الله عنهما.

۞ ولهما عن زيدِ بنِ خالدٍ ﵁ قالَ: صلَّى لنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحديبيةِ على إثرِ سماءٍ كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبل على النَّاسِ فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟**».
قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ.
قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأمَّا من قال: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا من قال: «مُطرنا بنوء كذا وكذا»، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكبِ**»[1].

(**ولهما**)؛ أي: للبخاريِّ ومسلم.

(**صلَّى لنا**)؛ أي: صلَّى بنا، اللَّام تأتي بمعنى الباء في اللُّغة العربيَّةِ، وإلَّا فالصَّلاة لا تكون إلَّا لله.

(**بالحديبيةِ على إثرِ سماءٍ كانت من اللَّيل**)؛ يعني: على إثرِ مطرٍ كان من اللَّيل.

(**وأمَّا من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا**): بنوءِ الزُّهرة - مثلاً - أو بنوء سعدِ السُّعودِ.

وفي هذا الحديث فوائد:

أوَّلاً: فيه طرحُ الإمامِ المسألةَ على أصحابِهِ ليختبرَ ما عندهم، يطرح الإنسان مسألة وإن كان يعرف الجواب ليختبر ما عند أصحابه، «ماذا تقول في هذه المسألة الفقهيَّة، أو المسألة النَّحويَّة، أو المسألة العقديَّة في الأسماء والصِّفات؟»، فهل يجوزُ للإنسان أن يسأل وعنده علمٌ عمَّا سأل؟ ألم يكن الأجدر أن يفيد غيرَهُ بما عندَهُ دون أن يسأل؟!

نقول: لا مانع من ذلك، يجوز له أن يسأل وعنده علمٌ عمَّا سأل، بدليل

---
(١) صحيح البخاريِّ (٨٤٦)، صحيح مسلمٍ (٧١).

هذا الحديث، والبخاريُّ ترجم في «صحيحه» على هذا المعنى فقال: «**بابُ طرح الإمام المسألةَ على أصحابه ليختبرَ ما عندَهُم**»[(١)]، وساق في التَّرجمة حديث ابن عمر في أنَّ الرَّسول ﷺ سألهم عن الشَّجرة التي مثل المسلم فقال ابن عمر: «**وقع في نفسي أنَّها النَّخلة، ووقع النَّاس في شجر البوادي**»، فهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان وإن كان عنده علمٌ عن المسألة التي يسألُ عنها، لا بأس أن يسأل إخوانه؛ ليختبرَ ما عندهم ولينبِّهَهُم إليها وإلى أمثالها، كما فعل الرَّسولُ ﷺ في هذا الحديث.

ثانياً: فيه إخراج السُّؤال بصيغة الاستفهام: أتدرون ماذا قال ربكم؟.

ثالثاً: فيه الأدب لمن سُئل عمَّا لا يعلم بألَّا يتكلَّف الجواب، إن كان عندَهُ علمٌ فليُجب، وإن لم يكُن عنده علمٌ فلا يتكلَّف، وليكِلْ العلمَ إلى عالمه، وليقل: «الله أعلم»، وفي حياة الرَّسول ﷺ يقال: «الله ورسوله أعلم»، أمَّا بعد وفاته فيقال: «الله أعلم»؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ توفي.

ثُمَّ لو أردت أن تُجيبَ عمَّا سُئلتَ عنهُ فلا بأس أن تجيب وإن لم يكُن عندك علمٌ إلَّا أنَّك تجيب بصيغة: (لعلَّ)؛ فتقول: «لعلَّهُ يجوزُ»، كما تقدَّم في حديث ابن عبَّاس حينما قال النبيُّ ﷺ: «**يدخل من أُمَّتي سبعون ألفاً بغير حساب..**»[(٢)]، فخاض النَّاس في أولئك، فقال بعضهم: «لعلَّهم الذين ولدوا في الإسلام، وقال بعضهم: لعلَّهم الذين صحبوا رسول الله، وقال بعضهم: لعلَّهم الذين لم يشركوا بالله شيئا»، فجعلوا يتباحثون في أعمال هؤلاء السَّبعين ألفاً بصيغة: (لعلَّ)، لا بصيغة الجزم، هذا إذا لم يكن عند الإنسان علم.

رابعاً: فيه دليلٌ على أنَّ الإمامَ إذا سلَّم من صلاته يستقبلُ المأمومين، وذلك بعدما يسلِّم ويستغفر ثلاثاً، ويقولُ: «**اللَّهم أنت السَّلام، ومنك السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»، يقول هذا وهو مستقبل القبلة، ثُمَّ ينصرف إلى جهة المأمومين، كما فعل النبيُّ ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٢).
(٢) سبق تخريجه.

(فأمَّا من قالَ: «مطرنا بفضل الله ورحمته» فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب): فالذي أضاف النِّعم إلى الله معترفاً بأنَّ الله هو الذي أوجدها، وهو الذي تفضَّل بها هو المؤمن؛ لأنَّ هذا من باب الشُّكر لله.

والشُّكرُ تعريفُهُ: صرفُ العبد جميعَ ما أنعم الله بِهِ عليه لما خُلِقَ لأجلِهِ(١).

والشُّكرُ لَهُ ثلاثةُ أركان:

الرُّكن الأوَّل: الاعتراف بالنِّعم الظَّاهرة باللِّسان.

الرُّكن الثَّاني: الاعتراف بها باطناً، في قرارةِ القلب: أنَّ هذه النِّعم من الله.

الرُّكن الثَّالثُ: صرفها في مرضاة مسديها ومُوليها، هذه هي أركان الشُّكر.

فالذي يقول: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، تحدَّث بلسانه، فإذا اعتقد قلبه ذلك، ثُمَّ صرف تلك النِّعم في مرضاة الله فقد أدَّى ما عليه من الشُّكر.

(ومن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب): لا يجوز لك أن تضيفَ النِّعم إلى غيرِ الله بل النِّعم كُلُّها لله، فمن زعم أنَّ الكوكبَ هو الذي أنزل المطر، فهذا لا شكَّ أنَّهُ كافر بالرُّبوبيَّة باتِّفاق المسلمين.

أمَّا الاعتقاد أنَّ الله هو الذي أنزل المطر وأوجده، ولكن جعل الكوكب سبباً، فهذا يجيزُهُ بعضهم ويكرهه آخرون، والصَّواب: التَّحريمُ؛ لأنَّهُ من وسائل الشِّركِ، وأمَّا إضافة الأمطار إلى الأوقات فهذا أجازه الشَّافعيُّ، كما تقول: «المطرُ الوَسْمِيُّ» يعني: الذي يكون في الوسم، فتضيفُهُ من باب الظرفيَّة، فهذا الشَّافعيَّةُ يجيزونَهُ(٢).

(فذلك كافر بي): الكفر كفران: كفرٌ أكبر مخرجٌ من الملَّة، وكفرٌ لا يخرج من الملَّة، والكفر شعبٌ، ويقابله الإيمان وهو شعبٌ ـ أيضاً ـ، فأعلاها: شهادة (ألَّا إلٰه إلَّا الله)، وأدناها: إماطة الأذى عن الطَّريق.

---

(١) ينظر: لوامع الأنوار البهيَّة (١/ ٣٧). (٢) ينظر: تحفة المحتاج (٣/ ٨٢).

۞ ولهما من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ بمعناه وفيهِ: قال بعضُهُم: «لقد صدقَ نوءُ كذا وكذا»، فأنزلَ الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢][(١)].

(ولهما من حديث ابن عبَّاس): هذا سبقُ قلم من المصنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنَّ البخاريَّ لم يخرِّج هذا الحديث، وإنَّما انفرد به مسلمٌ.

(قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا)، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢].

وذلك أنَّهم أضافوا النِّعمَ إلى غير الله، فأنكر الله عليهم؛ لأنَّ الله هو الموجد للنِّعم، ذلك بأنَّ النَّوءَ لا قدرةَ لَهُ ولا سببَ لَهُ في إيجاد مطرٍ أو منعِهِ، بل الأمور كُلُّها بيدِ اللهِ.

أمَّا معنى قوله ـ تعالى ـ: (﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾) اللَّامُ هنا ليست للنَّفي إنَّما للإثبات، فهي صلة، وهي تثبت القسم، **والمعنى**: أنَّ الله أقسم بمواقع النُّجوم وهي طلوعها، وهي آيةٌ من آيات الله، حيث يطلع هذا النَّجم من جهة ويغيب رقيبُهُ من جهة أخرى، فإذا طلع من جهة المشرق غاب رقيبُهُ من جهة المغرب، والعكس بالعكس، وهي آية من آيات الله كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ ـ أي: سريعاً ـ ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالرَّبُّ هو الذي أوجد النُّجومَ، وجعلها آيةً ودلالةً على كمال قدرتِهِ، وعلى وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ كغيرها من سائر المخلوقاتِ.

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٧٣)، ولم يخرجهُ البخاريُّ فيما رأيت.

والله لَهُ القدرةُ الكاملةُ، وهو يقسِمُ بما شاءَ من خلقِهِ، أمَّا أنت فلا، فلا يجوز لك أن تقسمَ بأيِّ مخلوق، إنَّما تقسم بالله، أما الرَّبُّ فلا حجر عليه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ [الذاريات: ١]، ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التين: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾ [الفجر: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١] فاللهُ يقسمُ بما شاء من خلقِهِ.

لكن قد تسأل وتقول: ما وجه العلاقة بين النُّجوم وبين القرآن؟ فالله أقسم ـ جلَّ وعلا ـ بمواقع النُّجوم على أنَّهُ قرآنٌ كريمٌ، هل هناك علاقة بين المقسَمِ بِهِ والمقسَمِ عليه أم لا؟

نقول: نعم، هناك علاقة قويَّة بين النُّجوم وبين القرآن، فالنُّجوم خلقها الله وجعلها دلالة وهداية للمسافرين في البرِّ والبحر يعرفون بها جهة سيرِهِم وقصدهم، والقرآن جعله الله هداية للقلوب من الجهل والغي، فهذه هدايةٌ حسيَّةٌ وهي النُّجوم، والقرآن هدايته معنويَّة باطنيَّة، فالله جعلَهُ هداية للقلوب، فهو يخرجك من الجهل والغيِّ إلى نور العلم وإلى الرشدِ؛ كما في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ أي: طرق السَّلام.

والنُّجوم جعلها الله رجوماً للشَّياطين، والقرآن جعلَهُ الله رجوماً للكفرةِ والحائرين الجهلة، فالله ـ سبحانه وبحمده ـ يقولُ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥] فلا يأتي صاحب باطل بباطلٍ إلَّا وفي القرآن ما يبطلُ حُجَّتَهُ ويبيِّنُ فسادها، فالرُّسل جعل الله لهم أعداء ولكن القرآن يؤيِّد الرُّسلَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ۝١١٣ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٤].

فلاحظ أنَّ هؤلاء هم شياطين الإنس والجن أعداء الأنبياء، والله أنزل القرآن رجماً لهم وردّاً لشبههم.

كذلك النُّجوم جعلها الله زينةً للسَّماء، والقرآنُ زينةٌ للقلوبِ وبهاءٌ.

وفصحاء العرب الذين يقولون: إنَّهُ سحرٌ وكهانة، هم في قرارة أنفسهم بما أعطوا من الفصاحة والبلاغة يعرفون أنَّهُ ليس بسحرٍ، ولا كهانةٍ، ولا شعر، وأنَّهم لا يستطيعون أن يأتوا ولا بآية من مثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] بل تحدَّاهم الله ـ سبحانه ـ بقولِهِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] فما استطاعوا أن يأتوا ولا بآية[1].

وفي قصَّة مسيلمة حين زعم أنَّهُ أُنزل عليه قرآنٌ لـمَّا علم أنَّ الرَّسولَ ﷺ أُنزلت عليه سورة: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ قال: أنا أُنزل عليَّ مثلها، فقرأ من خُزعبلاته، ثُمَّ قال: كيف ترى يا عمرو ـ يعني: عمرو بن العاص ـ؟

قال: «واللهِ إنَّك تعلمُ أنِّي أعلمُ أنَّك تكذبُ»[2].

فالقرآنُ هدايةُ القلوب، ولهذا تجد من قرأ القرآن يؤثِّر ذلك في سلوكِهِ، ويؤثِّر في أخلاقه في الغالبِ، ويؤثِّر في اتجاهه إلى الله واستقامته، وفرقٌ بينه وبين من لا يقرأ القرآن، وجاء في الحديث: «**مثلُ المؤمنِ الذي يقرأ القرآن مثلُ الأترجَّةِ، طعمُها طيِّبٌ وريحُها طيِّبٌ**»[3]، ولهذا حثَّ السَّلفُ على أن نعلِّم أطفالنا القرآن ليعتادوا الخير وينشأوا نشأةً طيِّبةً؛ لأنَّهُ يؤثِّرُ في سلوكهم ويؤثِّرُ في أخلاقهم.

والقرآن منذ أُنزل إلى يومنا هذا على كثرةِ خصومه وكثرةِ أعدائه وكثرة المناوئينَ له لم يستطيعوا أن يُغيِّروا منه ولا حرفاً واحداً، مع شدَّة عداوتهم وخصومتهم للقرآن، بخلاف الكتب الأخرى، فلو جئنا بهذا الكتاب الذي نقرأه[4] وجئنا بنسخةٍ خطيَّة أو نسختينِ، رأينا بينها اختلافاً، هذا يزيدُ وهذا

---

(١) جاء التَّحدي بأن يأتوا بسورة فعجزوا عن أن يأتوا بآية واحدة.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٩).
(٣) رواهُ البخاريُّ (٥٠٢٠)، ومسلمٌ (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.
(٤) أي: كتاب التَّوحيد.

ينقصُ، وهذا يغيِّرُ وهذا يبدِّلُ، أمَّا القرآن لو وجد فيه غلطٌ أو شيءٌ فلا بُدَّ أن يهيء الله من يبيِّن ذلك ويحفظ القرآن، ولا يمكن أن يروج الخطأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾؛ يعني: بالغ النِّهاية في الحسنِ والكمال؛ فإنَّ الله ﷻ سمَّى نفسه كريماً، وعرشَهُ ـ أيضاً ـ سمَّاه كريماً، وكذلك النَّبات إذا زان وازدهر قال: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ١٠].

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾: اختلف النَّاس فيه، فقيل: هو اللَّوح المحفوظ، وقيل: هو القرآن حينما كان في أيدي الملائكة؛ لقوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦].

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾: قيل: هم الملائكة؛ لأنَّ القرآن يمسُّه المسلمُ وغيرُ المسلم(١).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾: فيه دليلٌ على أنَّ القرآن منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ اللهَ تكلَّمَ به حقيقة، وأنَّ القرآن الموجود في مصاحفنا والمتلوَّ بألسنتنا والمحفوظ في صدورنا هو كلامُ الله، حروفُهُ ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

ولو قلت: ما الدَّليل على أنَّ هذا الذي طرق أذني هو كلام الله؟

قلنا لك: الدَّليل: قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥] دلَّ على أن المسموع بآذاننا هو كلامُ الله.

ثُمَّ لو انتقلت إلى سؤال آخر فقلت: ما الدَّليل على أنَّ هذا المتلوَّ هو كلام الله؟

قلنا: الدَّليل: قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، فسمَّى المتلوَّ (كتاب الله).

---

(١) المراد الوقوع لا الجواز.

فإن قلت: ما الدَّليل على أنَّ المحفوظ في صدورنا هو كلامُ الله؟

قلنا: الدَّليلُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

دلَّ هذا على أنَّ الذي في الصَّدر والمتلوَّ باللِّسان والمسموعَ بالأذن هو كلام الله، وهذا مذهب السَّلف، وعقيدة أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾: **يعني**: تخادعون وتُظهرون خلاف ما تبطنون، مثل قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩].

(﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾)؛ أي: شكركم وحظَّكم ونصيبكم من هذا القرآن أنَّكم تكذِّبون به؛ بأن تقولوا: هو كهانة، أو سحر، أو شعر.

وقيل: تجعلون حظَّكم وشكركم ونصيبكم ممَّا أنزل من الأمطار ألَّا تضيفوها لله، وهذا هو ظاهر كلام المصنِّف في تصديره الآية في أوَّل هذا الباب، لكن الآية تعمُّ هذا وهذا، فكُلٌّ من أضاف نعمة إلى غير الله يكون مكذِّباً بها؛ لأنَّهُ أضافها إلى غير المنعم المتفضِّل.



بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

وقولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليهِ من وَلَدِهِ ووالِدِهِ والنَّاسِ أجمعينَ**» أخرجاهُ.

ولهما عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيهِ وجدَ بِهِنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُمَا، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّهُ إلَّا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفرِ بعد إذ أنقذَهُ اللهُ منهُ كما يكره أن يقذفَ في النَّارِ**».

وفي روايةٍ: «**لا يجدُ أحدٌ حلاوةَ الإيمانِ حتَّى...**» إلى آخرِهِ.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «من أحبَّ في الله، وأبغضَ في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنَّما تُنال ولايةُ اللهِ بذلك، ولن يجِدَ عبدٌ طعمَ الإيمان وإن كثُرت صلاتُهُ وصومُهُ حتَّى يكون كذلك، وقد صارت عامَّةُ مؤاخاة النَّاس على أمرِ الدُّنيا، وذلك لا يجدي على أهلِهِ شيئاً» رواهُ ابنُ جريرٍ.

وقال ابن عبَّاسٍ في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المودَّة».

باب

قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

أرادَ المصنِّفُ بذكرِ هذه التَّرجمة عقب التَّراجم التي قبلها أن يبيِّن أنَّ من يتعلَّق بالتَّطير ومن يتعلَّق بالنُّجوم ومن يتعلَّق بالسِّحر والكهانة ومن يتعلَّق بغير الله فقد أخطأ وليس محبّاً لله، فمثلاً من يقول: «مطرنا بنوء كذا وكذا» هل هذا محبٌّ لله؟! أضاف النِّعمَ إلى غير الله، وهذا ينافي المحبَّة.

۞ وقولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قولِهِ - تعالى -: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليهِ من وَلَدِهِ ووالِدِهِ والنَّاسِ أجمعينَ»** أخرجاهُ[1].

ولهما عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيهِ وجدَ بِهِنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُمَا، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّهُ إلَّا لله، وأن يكرهَ أن يعود في الكفرِ بعد إذ أنقذَهُ اللهُ منهُ كما يكره أن يقذفَ في النَّارِ»**.

وفي روايةٍ: **«لا يجدُ أحدٌ حلاوةَ الإيمانِ حتَّى...»** إلى آخرِهِ[2].

(أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُمَا): الرَّسول ﷺ أنكر على الخطيب الذي قال: «من يطع الله ورسولَهُ فقد رشدَ، ومن يعصهما فقد

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٥)، ومسلمٌ (٤٤).

(٢) صحيح البخاري (١٦)، صحيح مسلم (٤٣).

غوى»، وقال: «**بئس الخطيب أنت! قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى**»[١]، فلا يُجمع بين لفظ الجلالة واسم الرَّسول ﷺ في ضمير واحد، وفي هذا الحديث: (**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما**)، ولم يقل: (أحبَّ إليه ممَّا سوى الله ورسوله)، بل جاء بضمير التثنية نظير ما قاله الخطيب، فما الجواب؟

قيل: أنَّه في هذا الحديث جمع بين محبَّة الله ومحبَّة رسوله ﷺ؛ فصارت كالشَّيء الواحد، إذ إنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يحبُّ إلَّا ما أحبَّهُ الله، والله لا يحبُّ إلَّا ما أحبَّه الرَّسول ﷺ، فصارت محبَّة الله ومحبَّة رسوله ﷺ كالشَّيء الواحد، فجاء الحديث بذكر ضمير التَّثنية، هذا الذي استحسنه الشَّارح، وقال: «فيه بلاغة»[٢].

ولكن المعروف والذي عليه كثير من أهل العلم أنَّ قول الخطيب: «ومن يعص الله ورسوله» هو كلامٌ عن غيرِه، فالخطيب ناقلٌ، والرَّسول ﷺ يتكلَّم عن نفسِهِ، ويجوز للرَّسول ﷺ ما لا يجوز لغيره.

وقيل: هذا من باب التأدُّب، ويدلُّ هذا على الجواز، وذاك على الكراهة، وقيل غير هذا[٣].

(**وأن يحبَّ المرء لا يحبُّهُ إلَّا لله**): هذا فرعٌ عن الأوَّلِ؛ أي: ما دام أنَّك تحبُّ الله ورسوله ﷺ فأنت تحبُّ من أحبَّه اللهُ ورسولُهُ ﷺ، فهذا المرء أحببته لله، لم تحبه لنفعٍ دنيويٍّ، ولا لشيء من المعروف، ولا لطبعٍ، ولا لقرابةٍ، بل لِمَا اتصَّف به من الخير، ولقيامه بأوامر الله، وابتعاده عن نواهيه، فكما أنَّك أحببت الله أحببت من يحبُّهُ اللهُ لاتِّصافِهِ بالخير، فتحبُّ من يحبُّ محبوبُك.

ومحبَّتك له تجد بها حلاوة الإيمان في قلبك؛ لأنَّ الرَّابطة بينك وبينه

(١) رواهُ مسلمٌ (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٩٥٩).
(٣) ينظر: فتح الباري (١/ ٦١).

هي المحبَّة لله، لم تشبها شائبة دنيوية، أو قرابة أو غير ذلك، بل لما اتَّصف به من الخير، فلو ترك ما هو عليه من الخير لأبغضتَهُ.

(وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفر بعد إذ أنقذَهُ اللهُ منهُ كما يكرَه أن يقذفَ في النَّار): فكما أنَّ الإنسانَ يكرَهُ أن يقذف في النَّار ولا يريدها، فكذلك يكرَهُ أن يعود إلى الكفر، ومثلُهُ شعب الكفر والمعاصي في حقِّ من تاب، فالكافرُ إذا أسلم وعرف الإسلام وذاق حلاوة الإيمان ارتاحَ قلبُهُ، واطمأنَّ ضميرُهُ، فإلقاؤه في النَّار أهونُ وأيسرُ عليه من عودتِهِ إلى دينِهِ الأوَّل الباطل؛ لأنَّ بشاشَةَ الإيمان خالطت قلبَهُ.

وأخذ من هذا بعض العلماء: أنَّ من ولد في الإسلام أفضل ممَّن أسلم بعد كفرِهِ؛ لأنَّهُ قال: **(يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذَهُ اللهُ منه)**، وهذا ليس فيه دلالة ـ في الحقيقة ـ على ذلك، فبعض النَّاس إذا أسلم يكون خيراً من كثير ممَّن وُلِدَ في الإسلام؛ لما امتلأ به قلبه من الإيمان، كما أنَّ العاصي قد يعصي ربه، ويرتكب الذَّنب، ثُمَّ يتوب ويكون بعد توبته أفضل وأحسن منه قبل المعصية؛ لأنَّ المعصية كسرَت قلبَهُ، وأورثتْهُ ذلّاً وخضوعاً لله، فكانت حالتُهُ بعد المعصية أفضل منه قبل المعصية، لما أدَّت تلك المعصية من الانكسارِ، والذلِّ، والخضوعِ، والانطراحِ بين يدي الله، واعترافِهِ بجريمتِهِ، وكذلك الكافر إذا أسلم وذاق حلاوة الإيمان تكون حالته أحسن منه قبل أن يسلم كما كان عليه المهاجرون والأنصار، فهم كفَّار قبل إسلامهم، وبعد الإسلام تغيَّرت حالهم، وصاروا يصبرون على القتل في سبيل نصرة دينهم.

فمن يحبُّ أن يلقى في النَّار؟! كلٌّ يكرَهُ ذلك كراهيةً شديدةً، بل يبذل الغالي والنَّفيس في سبيل إنقاذه من النَّار، ومع هذا فإلقاؤه في النَّار خير من عودته للكفرِ.

۞ وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «من أحبَّ في الله، وأبغضَ في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنَّما تُنال ولايةُ اللهِ بذلك، ولن يجِدَ عبدٌ طعمَ الإيمان وإن كثُرت صلاتُهُ وصومُهُ حتَّى يكون كذلك، وقد صارت عامَّةُ مؤاخاة النَّاس على أمرِ الدُّنيا، وذلك لا يجدي على أهلِهِ شيئاً» رواهُ ابنُ جريرٍ(١).

وقال ابن عبَّاسٍ في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المودَّة»(٢).

الحبُّ في الله، والبغضُ في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، بها يجدُ العبدُ طعمَ الإيمانِ؛ أي: حلاوتَهُ، ومخالطة بشاشة الإيمان لقلبِهِ.

(الحبُّ في الله): تقدَّم بيانه، وهو أنَّك تحبُّ المرءَ لأجل الله، لا لغرضٍ من الأغراض الدُّنيويَّة، ولا سببٍ من أسبابها كقرابة، بل تحبُّ الشَّخص لما اتَّصف به من الخير، ولما هو عليه من الاستقامة، هذا هو الحبُّ في الله.

---

(١) رواهُ ابنُ المبارك في الزُّهد (ص١٢٠)، وابنُ أبي شيبة (١٩/ ٢٤٠) (٣٥٩١٥)، واللَّالكائي (٥/ ١٠٠٦) من حديث ليثٍ ـ وهو ابن أبي سليم ـ، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، به موقوفاً.
وليثٌ من مشاهير الضعفاء، وقد اضطَّرب فيه؛ فرواه الطبرانيُّ (١٣٥٣٧) من طريق سفيان، عن ليثٍ، عن مجاهد، عن ابن عمر موقوفاً عليه.
ورواهُ أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٢) من طريق ليثٍ، عن مجاهد، عن ابن عمر مرفوعاً.
ولا يصِحُّ، ولم أقف عليه عند ابن جريرٍ في (التَّفسير)، ولعلَّ المصنِّفَ تبع في عزوه لابن جرير ابنَ رجبٍ في (جامع العلوم والحكم ص١٢٥)، وأظنُّهُ سقطَ من النسخة المطبوعة من تفسير ابن جرير؛ لأنَّ الشيخ سليمان (التيسير ٢/ ٩٦١) أثبتَ أنَّ ابن جرير رواهُ تامَّاً، فاللهُ أعلمُ.

(٢) رواهُ ابنُ جريرٍ (٣/ ٢٧)، وابنُ أبي حاتمٍ (١٤٩٢)، والحاكمُ (٢/ ٢٩٩) من طريق قيس بن سعد، عن عطاء، عن ابن عبَّاس، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

وعليك موالاة هذا الذي تحبُّهُ في الله، لا يكفي أنَّك تحبُّه بقلبك فقط، وتخبرُهُ بذلك، بل لا بُدَّ من موالاته؛ لأنَّ الموالاةَ هي من لازم المحبَّة، والموالاة في الله: هي إكرامُهُ ومناصرتُهُ إذا احتاج إليك، ومساعدتُهُ وإعانتُهُ على شؤونه؛ لأنَّك أحببتَهُ في الله.

(**البغض في الله**): تبغضُ هذا الشَّخص لا لأمرٍ دنيويٍّ، بل لانحرافِهِ وتركِهِ أوامرَ الله، لأجل هذا الغرض أبغضتَهُ، لكن من لازم بغضك لَهُ معاداتُهُ على قدر جرائمه، والمعاداة: عدم المناصرة، وإظهارُ البغض له؛ كما في ملَّة إبراهيم ﷺ: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وليس المرادُ أنَّك تُبغضُهُ بقلبك ثُمَّ تحترمُهُ، وتُكرمُهُ، وتُقدِّمُهُ في صدرِ المجلسِ، وتزورُهُ! لا، بهذا أصبحت لا تبغضه في الله، بل من لازم بغضك في الله: أن تظهرَ آثار ذلك بمعاداته، وتُشْعِرَهُ بأنَّك تُبغضُهُ وتعاديه، وتبتعدُ عنه، ولا تناصرُهُ، بل تخذلُهُ لما هو عليه من الشَّرِّ والانحرافِ.

فالموالاة في الله هي من لازم المحبَّة في الله، والمعاداة فيه من لوازم ونتائج البغض، ولهذا جاء في الحديث: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»[(١)]، يقول ابن تيميَّة: «أقلُّ ما يفيدُهُ هذا الحديث: التَّحريم، وإلَّا فظَّاهرُهُ الكفر»[(٢)]؛ لأنَّ التشبُّه في الظَّاهر بهؤلاء الكفرة مؤذنٌ بالتشبُّه بالباطن.

فمن أمثلته على ما قرَّره ابن تيميَّة: لو تعلَّمت اللُّغة الإنجليزيَّة وأجدتها لا بُدَّ أنَّ قلبك يميل إليهم، فعندما ترى الإنجليزيَّ؛ تحبُّ أن تكلِّمَهُ، وتحبُّ أن توادِعَهُ؛ لأنَّك تفهمُ لغتَهُ، وهو يفهمُ لغتك، فجمعت بينكما اللُّغة، فقد تشبَّهت بهم ظاهراً، وهو مؤذنٌ بالتشبُّه بهم باطناً، ومن المعلوم أنَّ الإنسان يميلُ بقلبه إلى من شاركَهُ في أمرٍ من الأمور، كلُغَةٍ ولباسٍ ونحوه.

ومن أمثلته: لو كنت في بلاد نائية ـ مثلاً ـ، وعليك ملابسك العربيَّة التي تستعملها أنت الآن، والمجتمع كُلُّهُ يلبسُ ملابس إفرنجيَّة، ثُمَّ وقع بصرك

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الاقتضاء (١/٤٦ ـ ٩٣).

على شخص ملابسُهُ من جنسِ ملابسك فإنَّ قلبك سيميل إليه، وتتجه نحوه، فهو شابهك في الملابس، فصار عندك شيء من الشَّوق بأن تجتمع به، وتتعرَّف عليه سواء، كان مسلماً أو كافراً، بجامع أنَّ الذي جمع بينك وبينه هذه الملابس، أو هذا المركَب، أو ما أشبه ذلك، هذا معنى حديث: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»، فأنت حينئذٍ لم تكن محبّاً في الله، بل أحببت من يبغضه الله!، ومن هو على كفرٍ أو على كثيرٍ من المعاصي؛ بجامع ميولك إليه ومشابهته لك في الملابس أو غيرها، هذا معنى ما قاله ابن تيميَّة.

(ولن يجِدَ عبدٌ طعمَ الإيمان ولو كثرت صلاته وصيامه حتَّى يكون كذلك): لن يجد حلاوة الإيمان ولو كثُرت صلاته وصومُهُ حتَّى يحبَّ في الله ويبغضَ في الله، ويوالي في الله ويعادي في الله، فمجرَّد كثرة الصَّلاة وكثرة الصَّوم والزُّهد في الدُّنيا لا يؤثِّر إذا كان الإنسان لا يفرِّق بين أعداء الله وأولياء الله، كُلُّهم عندَهُ سواء، فإذا قابل الكافر رحَّب به، وأكرمه كما يصنع مع أولياء الله ولا فرق!، هذا صلاته وصومه لن يجد بهما طعم الإيمان وهو على ذلك.

وقد قالَ ابنُ عقيلٍ الحنبليّ يقول: «إذا أردتَ أن تعرف الإسلام من أبناء الزَّمان فلا تنظر إلى ازدحامهم عند أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم بقول: (لبَّيك لبَّيك)، ولكن انظر إليهم عند مواطأة أعداء الشَّريعة»(١).

هذا معنى قول ابن عبَّاس: **(ولن يجِدَ عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاتُهُ وصيامُهُ حتَّى يكون كذلك)**، إذا كان هذا قول ابن عبَّاس المتوفى سنة ثمان وستِّين في القرن الأوَّل، فما ظنُّك بالقرن الرَّابع عشر والخامس عشر؟! الذي بَعُدَ فيه النَّاسُ عن عهدِ النُبوَّةِ، فكيف نقارن قول ابن عبَّاس في زمانه بزماننا هذا؟!

والله يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هذا معنى البغض في الله، ولو كان أبوك أو أخوك أو

(١) الآداب الشَّرعيَّة (١/ ٣٠٩).

أقرب قريبٍ منك وهو منحرفٌ على غير هدى، لا بدَّ أن تبغضه لأجل الله، وإن كان من طبعِ الولَدِ أن يحبَّ أباه، ومن طبع الأب أن يحبَّ ابنه، هذا شيءٌ فطرَ الله النَّاس عليه، لكن لا بدَّ من بغضه ومعاداته، ما دام منحرفاً عن الصِّراط، معادياً لله، أو أهمل شيئاً من الواجبات، وارتكب شيئاً من المحرَّمات نبغضه على قدر ذلك، ونحبُّه على قدر ما كان عليه من الخير.

(**وقد صارت عامَّة مؤاخاة النَّاس على أمر الدُّنيا وذلك لا يجدي على أهلِهِ شيئاً**): لأنَّها تنقطع، فعامَّةُ مؤاخاةِ النَّاسِ، ومحبَّةِ بعضهم لبعض، ونصرةِ بعضهم لبعض هو لأجل الدُّنيا، فإذا حصل لك من زيدٍ نفعٌ دنيويٌّ ـ ولو كان من أجرم المجرمين! ـ ناصرتَهُ، وأحببتَهُ لأجل المنفعة التي وصلت إليك من قِبَلِهِ.

(**قال ابنُ عبَّاس: في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ قال: المودَّة**): التي كان يصِلُ بعضهم بعضاً بها في الدُّنيا، خانتهم أحوج ما كانوا إليها في الآخرة، كما في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، وكقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، فما يبقى للإنسان إلَّا ما قصدَ به وجهَ الله والدَّار الآخرة، هذا الذي يبقى، فإذا عمله لأجل وجه فلان؛ فهذا يخونك أحوج ما تكون إليه، بل تعاديه ويعاديك يوم القيامة، وكُلٌّ منكم يتبرَّأُ من الآخر؛ لأنَّ المحبَّة لم تبنِ على أُسسٍ من التَّقوى.



بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه مرفوعاً: «**إنَّ من ضعفِ اليقين: أن تُرضيَ النَّاسَ بسخَطِ اللهِ، وأن تحمدَهُم على رزقِ اللهِ، وأن تَذُمَّهُم على ما لم يؤتِكَ الله، إنَّ رزقَ الله لا يجرُّهُ حرصُ حريصٍ، ولا يردُّهُ كراهيةُ كارهٍ**».

وعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من التمسَ رضى الله بسخَطِ النَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ وأرضى عنهُ النَّاسَ، ومن التمسَ رضى النَّاسِ بسخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عليهِ وأسخطَ عليهِ النَّاس**» رواهُ ابنُ حبَّان في صحيحِهِ.



باب
قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

أعقب المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ البابَ السَّابق وهو في المحبَّة بباب الخوف؛ وذلك أنَّك إذا وُفِّقت لمحبَّة الله التي من لازمها ونتائجها امتثال ما أمر اللهُ به والانتهاء عما نهى اللهُ عنه، فينبغي أن لا تثق بما أنت عليه، بل كُن دائماً خائفاً وعلى وَجَلٍ، فما تدري ما عاقبة أمرك؟! ولا تدري ما ينصب الشَّيطان لك من العداوة والشِّباك؛ يريد أن يُخرج من قلبك تلك المحبَّة التي هي: امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يجعلك من حزبه وأوليائه، هذا وجه ذكر هذه التَّرجمة بعد التَّرجمة التي سبقتها.

والخوف أقسام:

الأوَّل: خوف السِّر، وهذا عبادة، فصرف هذا النَّوع لغير الله شركٌ أكبر، ينافي التَّوحيد بالكُلِّيَّة، ومعنى (خوف السِّر): هو أن تخاف من هذا الميِّت أو هذا الصَّالح أو هذا النَّبيِّ أو هذا الملَك أو هذه الشَّجرة أن تُوقِع بك ضرراً، أو تفعل بك مكروهاً أو بأولادك، هذا هو خوف السِّرِّ، وهو لا يكون إلَّا لله، وقد مدح الله الملائكة المقرَّبين بخوفهم منه، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠] والرَّهبة هنا هي: الخوف، وكذلك قولُهُ في مدحِ المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧]؛ أي: خائفون وَجِلون ذليلون لله ـ سبحانه ـ، بخلاف ما عليه عُبَّاد القبور الذين افتتنت قلوبهم بالتعلُّق بها؛ فإنَّك لو طلبت أن يحلف بالله لحلف الأيمان العديدة، ولو قلت له: «احلف بابن عبَّاس»، أو «احلف بالدَّسوقي»، أو «احلف بأحمد البدوي»

توقَّفَ[١]، ولو كان في ذلك قطع رقبته، معظِّماً لهذا الميِّت المدفون تعظيماً أعظم من تعظيم الله، هذا خوف السِّر، وهذا هو الشِّرك الأكبر المنافي للتَّوحيد بالكليَّة، فأيُّ شركٍ أكبرُ من هذا؟!

النَّوع الثَّاني: الخوف من إنكار المنكر، تخشى ممَّن له سلطة أن يوقع بك شيئاً، أو يقطع عنك شيئاً، وهذا معنى قوله: (﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥])؛ أي: يخوِّفكم بأوليائه، وهو أنَّهُ يعظِّمهم في صدوركم، فتقول مثلاً: «لو أمرتُ ونهيتُ، أخشى من هذا الظَّالم»، هيبة له، وتعظيماً وإجلالاً ـ وإن كنت تبغض هذا المنكر ـ، وهذا شأن الشَّيطان يُعظِّم أولياءه في قلبك؛ حتَّى لا تأمر بمعروفٍ ولا تنكر منكراً.

وكما قال الشَّافعيُّ لتلميذِهِ يونس بن عبد الأعلى الصَّدفي: «يا يونس لو أردت أن ترضي النَّاس كُلَّهُم ما وجدت إلى ذلك من سبيلٍ؛ فإنَّ رضى النَّاس غايةٌ لا تُدرك»[٢]؛ ولكن عليك بإرضاء واحدٍ يرضى عنك النَّاسُ كُلُّهم.

فترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر خوفاً من أولياء الشَّيطان لا ينبغي، بل على الإنسان أن يأمر وينهى ويبيِّن الحق مهما كانت الحالة، واللهُ إذا علمَ منهُ صلاح النِّيَّة فإنَّهُ يؤيِّدُهُ ويناصرُهُ، كما وقع لسلفنا الصَّالح أشياء كثيرة من هذا أمام السَّلاطين، وكُلُّ هذا محافظة على الدِّين، وأبلغُ ما سمعنا في هذا المقام ما وقعَ للإمام أحمد مع المأمون، حين ابتَلَى النَّاسَ بالقولِ بخلق القرآن؛ فإنَّهُ قد دعا النَّاس إلى القول بخلق القرآن، وقتلَ مَنْ قتلَ من العلماء، وسجنَ مَنْ سجنَ من العلماء، ووافقَهُ مَنْ وافقَهُ من العلماء؛ خوفاً من شرِّه لما رأوا القتلَ في إخوانهم[٣].

والإمام أحمد لم يوافق مع أنَّهُ أُوذيَ بالضَّرب والحبس، بل صبر على

---

(١) أي: توقَّف إذا كان كاذباً في حلفه لتعظيمه المحلوف به؛ فيجلُّه عن أن يحلف به كاذباً، لا أنَّه توقَّف لأنَّه يرى أنَّه لا يجوز الحلف إلَّا بالله.

(٢) ينظر: آداب الشَّافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (ص٢٧٨)، مناقب الشَّافعي للبيهقي (٢/ ١٧٣)، شعب الإيمان (٩/ ٢٠١).

(٣) ينظر: البداية والنِّهاية (١٤/ ٣٩٣).

ذلك كُلِّهِ، وقال: «إنَّ القرآنَ منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ»، فبقيَ على هذا في السِّجن سنتين وأربعة أشهر، يُضرَبُ كُلَّ جمعةٍ، ويأتي الخلق الكثير لأجل أن يكتبوا ما يقولَهُ، لعلَّهُ أن يقولَ: «إنَّ القرآنَ مخلوقٌ»، ولكنَّهُ أبى وصبر على الضَّرب، وصبر على السِّجن، وصبر على المحَنِ، وصبرَ على البلاء، كُلُّ ذلك في سبيل نصرة عقيدة أهل السُّنَّةِ، خشية أن يُطبقَ النَّاسُ على القول بخلق القرآن، لم يَعظُم في قلبِهِ حزبُ الشَّيطانِ وأولياؤه من القائلين بهذا القولِ.

(﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾): تقديمُ المعمول على عاملِهِ يفيدُ الحصرَ، فدلَّ على أنَّ الإيمان ينتفي بانتفاء الخوف من الله، ولا شكَّ أنَّ من وقع في قلبه الخوف من الله وتعظيم الله؛ فإنَّ الله يؤيِّدُهُ وينصرُهُ، وَعْدَ اللهِ ولنْ يُخلفَ اللهُ وعدَهُ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠]، ولم يقل: (إنَّ الله لغفور رحيمٌ)؛ لأنَّ المقامَ مقامُ نصرٍ، والنَّصرُ يُناسبه القوَّة.

فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لما حصل عليه ما حصل وجاءوا به للضَّرب، قال: «لما ألقوني على الأرض وجاء الجلَّادون جاء لصٌّ همسَ في أذني - ما زلت أدعو له -؛ ثبَّتني وقوَّاني على نفسي قائلاً: يا أحمد اتَّق الله، اصبر، فهم يريدونك على الباطل، اصبر فإنَّك على الحقِّ، فلقد سرقتُ وضربوني يريدونني أن أُقِرَّ فلم أُقِرَّ لهم وأنا على باطلٍ، فكيف تُقِرُّ لهم وأنت على الحقِّ»[1].

عليك أن تأمر وتنهى وتبيِّن، رضيَ من رضيَ وسخطَ من سخطَ، إنَّما على الإنسان أن يبيِّن، وعليه الإخلاص وتقوى الله، وأن يكون قصده ونيَّته لله؛ فإنَّ الله يكفيه، ولا يضرُّهُ أيُّ شيءٍ أبداً.

(١) ينظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٤٢٢) بنحو القصَّة المذكورة.

۞ وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

(﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾) جاءت عقب الآية التي قبلها: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٧﴾ [التوبة: ١٧]؛ أي: ليسوا أهلاً لعمارة المساجد بالطَّاعة؛ بل هم كفَّار؛ لأنَّهم لم يخشوا الله، بل أشركوا مع الله غيرَهُ، وإنَّما أولياء الله الحقيقيُّون من ذُكروا في هذه الآية: (﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾) وعمارة المساجد ليست بالطِّين والإسمنت، بل عمارة المساجد الحقيقيَّة هي: بالصَّلوات فيها، وتلاوة القرآن، وطاعة الله ـ سبحانه ـ؛ لأنَّها بيوت الله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٨﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨]، هؤلاء هم عُمَّار المساجد الحقيقيُّون، وهم الذين جاء ذكرهم في الحديث: «**إذا رأيتُم الرَّجُل يعتاد المسجد** ـ؛ أي: يتردَّد إليه في اليوم واللَّيلة خمس مرَّات لأداء ما فرض عليه وليتقرَّب إلى الله بطاعته في هذا المسجد ـ **فاشهدوا له بالإيمان**»[(١)]، جعل مجرَّد تردُّدِهِ ومجيئه إلى المسجد مبيحاً للشَّهادة له بالإيمان، وإن كانت سرائر الخلق إلى الله، فالله هو المطَّلع على سرائر العباد، لكن لنا الظَّاهر.

(﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾): هو ما بعد الموت، من سؤال الملكين في القبر، والصِّراط، والميزان، والبعث، والنُّشور، والجنَّة والنَّار، هذا هو اليوم الآخر.

(١) سبق تخريجه.

(﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾): تأمَّل القرآن وانظر؛ فإنَّ الغالب أنَّهُ كلَّما ذُكِرت الصَّلاة ذكرت بلفظ الإقامة، ولم يقل: (وصلى)؛ لئلَّا يدخل من صلَّى الصَّلاة ولم يقمها في هذا، فالله توعَّد من لم يقمها ـ وإن صلَّى ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ٤]؛ لأنَّهم يصلُّون ولكنَّهم لا يقيمونها، ففرقٌ بين من أقام الصَّلاة وبين من صلَّى دون إقامة لها(١).

فليس المراد أنَّهُ صلَّى، بل صلَّى بإقامةٍ، فأدَّى الصَّلاة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها، في أوقاتها، بخشوعٍ وخضوعٍ، على النَّحو الذي أدَّاها رسول الله ﷺ.

(﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾): الزَّكاة قرينةُ الصَّلاة في القرآن، والله ذكر الزَّكاة في القرآن في نحو اثنين وثمانين موضعاً، ممَّا يدلُّ على عظمها، والزَّكاةُ معلومٌ أنَّها حقٌّ في أموال الأغنياء لطائفة مخصوصةٍ، وهم الفقراء ونحوهم من الأصناف الثَّمانية الذين جاء ذكرهم في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ...﴾ الآية [التوبة: ٦٠]، وهي تُنمِّي المال، وتُزكِّيه وتطهِّرُهُ، وتَقيه الآفات.

(﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾): بعدما ذكر صفات عُمَّار المساجد، وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر، المقيمون للصَّلاة، المؤدُّون للزَّكاة، ذكرَ الذين لا يخشون إلَّا الله، لم يخافوا من غير الله، ولم يقع في قلوبهم أجلُّ ولا أعظمُ من خالقهم وباريهم، يأتمرون بأوامره، وينتهون عن نواهيه.

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ قال ابن عبَّاسٍ: «كُلُّ ما في القرآن من قوله: (عسى) فهو واجب»(٢)؛ أي: أنَّهُ سيكون من المهتدين.

---

(١) لاحظ دقَّة الشَّيخ حيثُ أنَّهُ ذكر أنَّ أكثر ما يأتي في القرآن بذكر الإقامة؛ لأنَّهُ ورد مجرَّداً عن ذكر الإقامة على جهة المدح، مثل قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: ٩، ١٠] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] ـ الشَّيخ صالح ـ.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٦).

۞ وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

النَّاس فريقان: مؤمنٌ وكافرٌ، لا ثالثَ لهما، الكافر يرتكب السَّيئات، ويعمل الكفر، فلا حيلة فيه إلَّا بالتَّوبة والرجوع إلى الإسلام، والآية لا تتناول هذا النَّوع.

أمَّا المنتسب للإيمان فهو الذي تتناوله الآية، فالذين يقولون: (آمنا بالله) هم على **حالتين**:

الأولى: مؤمنون بالله بألسنتهم وأعمالهم وأفعالهم، وهذا الإيمانُ الحقيقيُّ.

الحالة الثَّانية: مؤمنون بالله بألسنتهم، ولكن تخلَّف العمل، لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فهم مؤمنون بطرف ألسنتهم، ومن كان هذا حاله: إذا أوذيَ في الله وحلَّ به شيءٌ من المصائب ذهب ذلك الإيمان، بل جعل هذا من عذاب الله، وانحرفَ عن الإيمان؛ لأنَّ الإيمان لم يصادف قلبه، والله يمتحنهم ويختبرهم هل هم مؤمنون حقًّا؟ كما في أوَّل سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

فأصحاب رسول الله ﷺ لما أسلموا امتحنهم الله، بل سيِّدهم محمَّد ﷺ امتحنه الله مع أنَّهُ رسولُ اللهِ، وإمامُ المرسلينَ، وخاتمُ النبيِّينَ، مع هذا امتُحن، وأُوذيَ لكنَّهُ صبرَ ﷺ، ومعلومٌ ما جرى له في بدء دعوته حين أخذ عُقبة بن أبي معيط رأسه وبصق ـ قبَّحه الله ـ في وجه الرَّسول ﷺ ومع هذا صبرَ ﷺ ولم يصدَّهُ ذلك عن الإيمان، بل ثبت(١).

ولما قام لصلاته جاءت قريش وألقت عليه سلا جزورٍ، كان ذلك ابتلاءً وامتحاناً ولم يصدَّهُ ذلك عن دينِهِ، ثُمَّ ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا له: «خذ لنا

---

(١) سبق تخريجه.

من ابن أخيك»، إلى أن قالوا: «إن كان يريد مالاً جمعنا له من أموالنا مالاً، وإن كان يريدُ السُّؤدد سوَّدناه علينا حتَّى لا نقطع أمراً دونَهُ، فقال لهم ﷺ: «**والله لو وضعتم القمرَ في يميني والشَّمسَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته حتَّى يُظهرَهُ اللهُ أو أهلِكَ دونَهُ**»(١)، هذا هو الإيمان الحقيقي.

وأبو بكر ﷺ صدَّق بالرَّسول ﷺ وآمنَ به، وأوذي في الله بسبب إيمانه بالله وتصديقه بالرَّسول ﷺ ومتابعته له، جاءه من الأذى والامتحان ما تعجز أن تحمله الجبال، فقد ضُرِبَ ضرباً مبرحاً في وجهه حتَّى أغمي عليه، فحملته بنو تيم في ثوب لا يشكُّون في موتِهِ، فلمَّا أفاق لم يسأل عن شيء إلَّا عن النبيِّ ﷺ(٢)، وما صدَّهُ ذلك عن دينهِ.

وهكذا بقيَّة من آمن بالله حقّاً، فهم لا يزعزعهم عن إيمانهم أيُّ أذى، ولا يزعزعهم عن إيمانهم أيُّ بلاء.

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ أي: إن أصابتكم حسنة قالوا: نحن معكم، وإن أصابتكم سيئةٌ فرحوا بها، وقالوا: لم نكن معكم.

وقد دلَّت الآية على أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، ففيه الرَّدُّ على المرجئةِ القائلين: إنَّ الإيمان هو مجرَّد التَّصديق بالقلب ـ وإن لم يعمل ـ؛ وأنَّ إيمان العبد كإيمان جبريل، فالأعمال ليست من الإيمان ـ عندهم ـ، والآية تردُّ عليهم، والقرآن كُلُّهُ يردُّ عليهم، بل الإيمان لا بُدَّ أن يكون بالقول والعمل والاعتقاد، فالاعتقاد وتصديق القلب لا يكفي مهما كان.

وكان المعروف عن الحنفيَّة أنَّهم على مذهب المرجئة في الإيمان، فيقولون: إنَّ الإيمان هو مجرَّد التَّصديق، هذا المعروف في كتب الحنفيَّة، والمنسوب إلى مذهب الإمام أبي حنيفة، وهذا القول مخالفٌ للقرآنِ، ومخالفٌ للسُّنَّةِ، وشارح الطَّحاويَّة يعرفُ أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، وهذا هو رأيه، فهو على مذهب أهلِ السُّنَّةِ، لكن لأنَّهُ حنفيٌّ حاول بكُلِّ ما

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

يمكن أن يوفِّقَ بين مذهب أهل السُّنَّةِ وبين القائلين بأنَّ الإيمان هو: التَّصديق، وقال: «إنَّ الخلاف بينهم صوريٌّ؛ فإنَّ من لازم التَّصديق أن يعمل بالجوارح، وأن يقول باللِّسان»، أخذ في هذا وأطال[1]، ولكنَّهُ لم يصنع شيئاً، مع حرصِهِ على أن يجعلَ الخلاف بين الحنفيَّة وبين أهل السُّنَّةِ صوريّاً.

والحنفيَّةُ ذهبوا في الإيمان مذهب المرجئة ـ أي: أنَّ التَّصديق كافٍ ـ، وأهل السُّنَّةِ يقولون: ليس بكافٍ، بل لا بُدَّ من القولِ ولا بُدَّ من العمل؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥﴾ [السجدة: ١٥]، فلم يثبت الله لهم الإيمان إلَّا بالفعل، الذي هو ـ في الآية ـ: السُّجود، وبالقول، الذي هو ـ في الآية ـ: التَّسبيح، وبعدم الاستكبار، وهو: عقيدة القلب، فعقيدة القلب وحدها لا تكفي.

فنجد كثيراً من كفَّار قريش مصدِّقين بالنَّبيِّ ﷺ في قلوبهم لكن تخلَّفت أعمالهم، فلم ينفعهم التَّصديق بقلوبهم؛ كما في تصديق أبي جهل في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣] لاحظ قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أخبر الله بأنَّهم مصدِّقون لما جاء به الرَّسول ﷺ، ومصدِّقون بأنَّ محمَّداً هو رسول الله حقّاً، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]؛ فدلَّ على أنَّ مجرَّد استيقان القلب لا يكفي؛ متى تأخَّر العمل أو القول.

وكذلك قول موسى مخاطباً فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، عرف موسى أنَّ فرعون علم أنَّ موسى رسول الله، وعلم أنَّ هذه الآيات ـ التِّسع ـ التي جاء بها موسى هي من عند الله، ولكنَّهُ جحدَ ولم يقبل، فعلى رأي المرجئة: فرعون مؤمن!؛ لأنَّهُ عَلِمَ واعتقدَ ذلكَ، وإنَّما تأخَّر العمل، هذا على رأيهم، فبهذا تعرف أنَّ الإيمانَ هو: قولٌ باللِّسانِ، واعتقادٌ بالجنانِ، وعملٌ بالجوارح والأركانِ.

ويدلُّ على ذلك ـ أيضاً ـ قصَّة أبي طالب عمِّ النَّبيِّ ﷺ فإنَّهُ مصدِّق بالرَّسول ﷺ بقلبه ولسانه ـ كما في قصائده المشهورة ـ، لكن تخلَّف العمل.

---

(١) ينظر: شرح الطَّحاويَّة (٢/ ٤٦٢) وما بعدها.

۞ وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه مرفوعاً: «**إنَّ من ضعفِ اليقين: أن تُرضيَ النَّاسَ بسخَطِ اللهِ، وأن تحمدَهُم على رزقِ اللهِ، وأن تَذُمَّهُم على ما لم يؤتِكَ اللهُ، إنَّ رزقَ اللهِ لا يجرُّهُ حرصُ حريصٍ، ولا يردُّهُ كراهيةُ كارهٍ**»(١).

(**إنَّ من ضُعفِ اليقين**): بضمِّ الضَّاد، وذلك كالقراءة في قوله ـ تعالى ـ في سورة الرُّوم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً﴾ [الرُّوم: ٥٤]، هذه قراءة، والقراءة الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهما قراءتان مشهورتان(٢)، الفتح: لغة بني تميم، والضمُّ: لغة الحجازيِّين، التي هي لغة الرَّسول ﷺ.

و(**ضعف اليقين**) هو: من ضعف الإيمان، ففيه أنَّ الإيمان يضعف، بمعنى: ينقص، والإيمان ـ أيضاً ـ يزيد، خلافاً للأشاعرة القائلين: إمَّا أن يثبت إيمانُهُ، أو ينخلع نهائيّاً، وشبَّهوه بالثَّوب: إمَّا أن تلبسَهُ كُلَّهُ، أو تخلعَهُ كُلَّهُ، فالإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم، وقالوا في قولِهِ ﷺ: «**لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن**»(٣)، قالوا: عندما يرتكب الزِّنا يذهب عنه الإيمان.

أمَّا أهل السُّنَّةِ والجماعَةِ فيقولون: لا، بل الإيمان يزيدُ وينقصُ، وقد دلَّ على ذلك القرآن في آيات كثيرة، كقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ

---

(١) رواهُ أبو نعيمٍ في الحلية (١٠٦/٥)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٢٠٣) من طريق محمَّد بن مروان، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد، به مرفوعاً.
وإسنادُهُ واهٍ، محمَّدٌ هو السُّدِّيُّ الصَّغيرُ، متروكٌ متَّهمٌ، وعطيةُ هو العوفيُّ، مشهورُ الضَّعفِ.

(٢) ينظر: شرح الطيِّبة (ص٢٤٤).

(٣) أخرجَهُ البخاريُّ (٢٤٧٥)، ومسلمٌ (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، هذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، كُلُّها تدلُّ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ، فإذا عملت طاعة لله زادَ إيمانُك، وإذا ارتكبت معصيةً نقصَ إيمانك بقدر ما ارتكبت، هذا هو مذهب أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، خلافاً للأشاعرة ومن شاكلَهُم، ممَّن زعمَ أنَّ الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينقصُ.

والنَّاس يختلفون في إيمانهم، فإيمانك ليس كإيمان أبي بكر رضي الله عنه، وليس كإيمان جبريل عليه السلام.

وهم يقولون: بل الإيمان واحدٌ، ليس هناك فرق، إيمانُك هو كإيمان أبي بكر؛ لأنَّ الإيمان شيءٌ واحدٌ، إمَّا أن تكون مؤمناً، أو تنخلع من الإيمان، لا زيادة ولا نقص، وهذا قولٌ معلومُ الفسادِ.

(**أن ترضي النَّاس بسخط الله**): هذا من ضعف الإيمان، تتزلَّف للنَّاس بما يُسخِطُ اللهَ، تخطبُ ودَّهم، وتسكتُ عنهم، وتداهنهم، وترضيهم، وإن أدَّى ذلك إلى سخطِ الله!، هذا من ضعف الإيمان، الله أمرك أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؛ قالَ الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصيحةُ**»(١)، فمتى جاملتهم، وسكت عن منكراتهم مستجلباً ودَّهم، مكتسباً رضاهم فلا شكَّ أنَّ إيمانك ضعيفٌ، لو كان إيمانك قويّاً لاعتمدت على الله، وتوكَّلت عليه، وأرضيت اللهَ وإن سخط زيدٌ وعمروٌ.

---

(١) رواهُ مسلم (٥٥) من حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه.

(وأن تحمدَهم على رزق الله): هذا ـ أيضاً ـ من ضعف الإيمان، الله ﷻ يعطيك ويدرُّ عليك النِّعمَ ويسوقها على يدِ هذا الشَّخص ـ مثلاً ـ ثُمَّ تُثني على هذا الشَّخص وتمدحُهُ وتنسى المنعِمَ المتفضِّلَ!، هذا من ضعف الإيمان.

من الذي عطف قلبَ هذا حتَّى أوصل إليك الرِّزق؟! لم نسيتَ الله وجعلت تثني على هذا الشَّخص؟! هذا كُلُّهُ من ضعف الإيمان، بل لاحظ أنَّ الرَّبَّ هو الذي ساق لك هذه النِّعمة وهذا الرِّزق بواسطة هذا الشَّخص، ولا نقول: أنكر الجميلَ، فمن لا يشكرُ النَّاس لا يشكر الله.

(وأن تذمَّهم على ما لمْ يؤتك الله): الله إذا منعك شيئاً جعلت تذمُّ هذا الشَّخص بأنَّهُ بخيلٌ، وأنَّهُ كذا..، وهذا لا ينبغي، الأمور بيدِ الله، سل اللهَ من فضلِهِ دونَ أن تطلِقَ لسانَكَ في زيدٍ وعمروٍ، فهذا من ضعف الإيمان؛ تسبُّ الرَّجلَ وتذكرُ مثالبَهُ لأنَّهُ لم يقضِ حاجتك!

(إنَّ رزق الله لا يجرُّهُ حرصُ حريصٍ، ولا يردُّهُ كراهيةُ كارهٍ): بل ما قدَّرَ اللهُ لا بُدَّ أنَّهُ واقعٌ، مع أنَّك مأمورٌ بتعاطي الأسباب، إن حصل لك بعد فعل الأسباب فاحمد الله، وإن لم يحصل شيء فاحمد الله؛ فهو أعلم بمصالح خلقه.

۞ وعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(من التمسَ رضا الله بسخَطِ النَّاسِ؛ رضيَ اللهُ عنهُ وأرضى عنهُ النَّاسَ، ومن التمسَ رضا النَّاسِ بسخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عليهِ وأسخطَ عليهِ النَّاس)** رواهُ ابنُ حبَّان في «صحيحِهِ»(١).

كتب معاوية إلى عائشة يطلب منها النَّصيحةَ، وأن تُوجزَ ولا تُكثر عليه،

(١) رواهُ ابنُ المبارك في (الزُّهد ١٩٩) - ومن طريقه إسحاق بن راهويه (١١٧٥)، والتِّرمذيُّ (٢٤١٤)، واللَّالكائيُّ (٨/ ١٥٣٣) - من حديث عبد الوهَّاب بن الورد، عن رجلٍ من أهل المدينة قال: «كتب معاوية إلى عائشة أن اكتبي إليَّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه...» الحديث مرفوعاً.
وهذا إسنادٌ ضعيفٌ للإبهام الذي وقع فيه.
ورواه ابن حبَّان (٢٧٦)، والقضاعيُّ في مسند الشِّهاب (٤٩٩ - ٥٠٠) من حديث عثمان بن واقد، عن أبيه، عن محمَّد بن المنكدر، عن عروة، عن عائشة، به مرفوعاً.
وخالف شعبةُ عثمانَ فرواهُ عن واقد بن محمَّد، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم، عن عائشة موقوفاً كما عند الإمام أحمد في (الزُّهد ٩١٠) من طريق **الطَّيالسي، عن شعبة**، وأبي داود في (الزُّهد ٣١٥) - أيضاً - من طريق **غندر، عن شعبة**، والبيهقيِّ في (الأسماء والصِّفات ١٠٥٩) من طريق **عثمان بن عمر، عن شعبة**.
صوَّب أبو حاتم (العلل ٥/ ٥٩) رواية شعبة، والحملُ في رواية الرَّفع على عثمان؛ فإنَّ فيه ضعفاً، ينظر: الميزان (٣/ ٥٩).
وقد اضطَّرب عثمان بن عمر بن فارس في روايته عن شعبة؛ فرواهُ موقوفاً كما عند البيهقيِّ في (الأسماء والصِّفات) - وقد تقدَّم -، ورواه عن شعبة مرفوعاً كما عند عبد بن حميد (١٥٢٢)، والبيهقيِّ في الزُّهد الكبير (٨٩٠)، والحمل في هذا الاضطراب عليه؛ لما تقدَّم من رواية الطَّيالسي وغندر، ولقول البيهقيِّ بعد إخراجه: «رُبَّما رفعه عثمان، ورُبَّما لم يرفعه».
ورواهُ البزَّار (كشف الأستار ٤/ ٢١٨) (٣٥٦٨)، والقضاعيُّ في مسند الشهاب (٤٩٨)، والبيهقيُّ في الزُّهد الكبير (٨٨٧) من طريق قطبة بن العلاء، عن أبيه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، به مرفوعاً. =

بعدما كَبِرَ وطعن في السِّنِّ، فكتبت لَهُ بمعنى هذا الحديث، وهو حديثٌ جليلُ القدرِ، وقاعدةٌ كليَّةٌ من قواعد الإسلام.

(من التمس رضا الله)؛ أي: تقرَّب إلى الله بما يرضيه بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والصَّدع بالحقِّ ـ وإن أدَّى ذلك إلى سخط النَّاس ـ؛ فإنَّ الله يرضى عنه، ويُرضي عنه النَّاس بعد ما كانوا يذمُّونَهُ، لا بُدَّ وأن يثنوا عليه ما دام أنَّ قصدَهُ وجهُ الله، ولم يقُمْ إلَّا لله، غيرَ مبالٍ برئيسٍ أو كبيرٍ؛ لأنَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرَّحمٰن، فهم وإن سخطوا عليه لا بُدَّ أن يرضوا، ويروى عن وهب بن منبِّه أنَّ الله أوحى إلى داود عليه السلام: «**يا داود، ما من عبدٍ يعتصمُ بي دون خلقي أعرف ذلك من نيَّته، فتكيدُهُ السَّماوات والأرض إلَّا جعلت لَهُ من بينهِنَّ فرجاً ومخرجاً، وما من عبدٍ يعتصمُ بمخلوقٍ دوني أعرفُ ذلك من نيَّته إلَّا قطعت الأسباب من بين يديه، وأسختُ الأرضَ من تحت قدميهِ ثُمَّ لا أبالي بأيِّ أوديتها هلكَ**»[1].

ثُمَّ إنَّ النَّاسَ الذين تطلبُ مرضاتهم أيُّ شيءٍ عندهم؟! هم فقراء ليس بأيديهم شيء، الأمر بيد الله، ولكن للأسف رُبَّما يرقِّع المرء دنيا غيرِهِ من ملوك وسلاطين ـ لا دنياه هو ـ بتمزيقِ دينِهِ، كما قيل:

= وهو خبرٌ منكرٌ، قطبة وأبوه ضعيفان، ينظر: الميزان (٣/ ٢٦١ ـ ٣٩٠)، وهذه الرِّواية أنكرها البخاريُّ (التاريخ الكبير ٧/ ١٩١)، وكذلك أعلَّها البزَّار بعد إخراجها، وأبو حاتم (العلل ٥/ ٩٠)، والعقيليُّ (الضُّعفاء ٣/ ٣٤٢).

وبهذا يعلم أنَّ الخبر لا يصِحُّ مرفوعاً، وأنَّ الصَّواب فيه الوقف، قال العقيليُّ (٣/ ٣٤٣): «ولا يصِحُّ في الباب مسنداً، وهو موقوفٌ من قول عائشة»، وكذلك ضعَّف المرفوع وحسَّن الموقوف ابن مفلح (الآداب الشَّرعيَّة ١/ ١٩٧)، وينظر: العلل الكبير (ص٣٣٢)، الكامل (٣/ ٣٤٢).

بقي التَّعريج على شاهدٍ تمسَّك به بعضهم، وهو من مسند ابن عبَّاس رضي الله عنهما، رواهُ الطبرانيُّ (١١٦٩٦) عن شيخه جبرون بن عيسى، عن يحيى بن سليمان، عن الفضيل بن عياض، عن حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، به مرفوعاً.

وإسنادُهُ ضعيفٌ جدّاً، جبرون تالفٌ، وشيخُهُ يحيى بن سليمان الحفري ضعيفٌ، ينظر: الإصابة (٧/ ١٠٢)، اللِّسان (٨/ ٤٥٠).

(١) سبق تخريجه.

نرقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقِّعُ

لم يبقَ الدِّينُ، ولا ما يُرقَّعُ من الدُّنيا ـ لأنَّها زائلةٌ ـ.

ثُمَّ إذا طلبت رضاهم فسيسخطون عليك ولا بدَّ، أمَّا إذا تبعت رضا الله ـ وإن أدَّى إلى سخطهم ـ فلا بُدَّ أن يرضوا عنك، ولا يمكن أن ترضي النَّاس كُلَّهم، هذا مستحيل، وغاية لا يمكن الوصول إليها.

ووجهُ مطابقة الحديث للتَّرجمة: أنَّ خوفهم لا يمنعك من الصَّدع بالحقِّ.

وقد ذكر بعض العلماء قصَّة جرت في أيَّام المعتضدِ العباسيِّ، وهي: أنَّ رجلاً كان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، غير مبالٍ بأحدٍ، فخرج يوماً من بغداد إلى نهر دجلة، فأبصر سفينةً قد أقبلت فوقف ينظرُ حتَّى وصلت، فسأل الملَّاح: ما هذا الذي معك؟

قال: اذهب لشأنك.

قال: بل أخبرني.

قال: هذا خمرٌ لأمير المؤمنين.

فصعد السَّفينةَ، فكسَّرها كُلَّها، والملَّاحُ يستغيثُ، فما بقي إلَّا زجاجة واحدة تركها.

فأُخبر أميرُ المؤمنين فبعث إليه الشُّرطةَ فجيء به وقد انتفخت أوداج أمير المؤمنين، وبيده قضيب حديد، فقال له: ما الذي حملك على هذا؟!

قال: الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكرِ.

قال المعتضد: هل أنت محتسبٌ؟!

قال: نعم.

قال: من الذي ولَّاك؟!

قال: الذي ولَّاك الخلافة.

فقال: لم كسرتَها كلَّها وتركت واحدة؟!

قال: كسرتها لله، فلمَّا بقيت هذه الواحدة أحسستُ أنَّ نيَّتي ضعفت،

وقلت: إنَّ النَّاس سيقولون: «أراق خمرَ أمير المؤمنين، فيه جرأة»، فلمَّا شعرت بهذا تركتها.

فقال له: اذهب، فقد أطلقتُ يدكَ، مُرْ بالمعروفِ، وانهَ عن المنكرِ، واللهِ لا نمنعُكَ.

قال الرَّجلُ: واللهِ لا آمرُ، ولا أنهى.

قال: ولم؟!

قال: إذا أمرتُ بأمركَ صرتُ شرطيًّا لك.

قال: وماذا تريد؟!

قال: أريدُ أن تأذن لي أن أذهب إلى البصرة.

قال: ولم؟

قال: خشية أن يقول النَّاس في بغداد إذا رأوني: «هذا الذي كسر قوارير خمر أمير المؤمنين».

فلمَّا خرج وشكره قال لبعض من عنده: «اذهبوا واتبعوه وانظروا ماذا يقول للنَّاس»، فرأوه لـمَّا خرج جعل يلتقطُ نوى التَّمر من الشَّوارع، فكلَّمه بعضهم فلم يردَّ عليهم، ولم يقل: «أنا كسرتُ وفعلتُ..»، ولم يقل: «قال لي أمير المؤمنين: ...، وقلت لأمير المؤمنين: ...»[١].

فانظر إلى هذا الرَّجل لما كان قصده وجه الله ولم يخالط نيَّته أي شيء انطبق عليه هذا الحديث: (**من التمس رضا الله بسخط النَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأرضى عنه النَّاس**)، فالله رضي عنهُ، وأرضى عنه هذا الأمير، ولم يتعرَّض له بشيء، بل أمره أن يأمر وينهى.

بخلاف من غرَّته نفسه؛ فالتمس رضا النَّاس ـ وإن أدَّى إلى سخط الله ـ، أو خالط قلبَهُ شيءٌ من الكبر والعظمة؛ فإنَّ الله يبتليه في الدُّنيا قبل الآخرة.

(١) ينظر: تاريخ دمشق (٧١/ ٢١١)، تاريخ الإسلام (٦/ ٨٩١).

بابُ
قولِ اللَّهِ تعالى:
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

وقـولُـهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

وقـولُـهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقولُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النَّار، وقالها محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]». رواهُ البخاريُّ والنَّسائيُّ.



بابُ
قولِ اللَّهِ تعالى:
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

هذا الباب عقدَهُ المصنِّفُ في التَّوكُّلِ بعد ذكر الخوف والمحبَّة، فالعبد لا ينبغي له أن يغلِّب جانب الخوف بل عليه أن يخاف الله ـ سبحانه ـ، ويعمل بما يرضي الله ويقرِّبه إليه، مع اعتماده على الله وتوكُّلِهِ عليه.

والتوكُّلُ هو: تفويضُ الأمور إلى الله ﷻ والاعتماد عليه.

تقول: «وكَّلت أمري إلى الله»؛ أي: فوَّضت أمري إليه، واعتمدت عليه لا على غيره.

والتوكُّلُ ثلاثة أنواع:

النَّوع الأوَّلُ: جائزٌ؛ وهو ما يذكره الفقهاء والمحدِّثون في مؤلَّفاتهم بقولهم: (بابُ الوكالة)، وهي: استنابةُ جائزِ التَّصرُّف مثلَهُ فيما تدخله النِّيابة، والنَّاس محتاجون إلى هذا، ولا مانع منه باتِّفاق المسلمين.

ومعنى: (استنابةُ جائزِ التَّصرُّفِ مثلَهُ): هو أنَّ العاقل الرَّشيد ينيبُ عاقلاً رشيداً، فلا يصِحُّ توكيل صبيٍّ أو مجنونٍ أو سفيهٍ.

وقولهم: (فيما تدخله النِّيابة): يُخرِجُ الذي لا تدخله النِّيابة كاليمين، فلو وكَّلت شخصاً ليحلف عنك عند القاضي فلا يصِحُّ، أو وكَّلت إنساناً يُظاهر من امرأتك لا يصِحُّ، أو وكَّلت إنساناً ينذرُ عنك لا يصِحُّ، أو وكَّلت إنساناً يصلِّي عنك لا يصِحُّ؛ لأنَّ هذه الأشياء لا تدخلها النِّيابة، هذا معنى قول العلماء في تعريف الوكالة.

وهذا النَّوع ليس هو القصد من غرضنا، ولا يتضمَّنه هذا الباب.

النَّوع الثَّاني: هو الذي عقد المصنِّفُ لأجله هذا الباب، وهو التوكُّل على الله، **بمعنى**: أن تفوِّضَ أمركَ إلى الله وتعتمدَ عليه، وصرفُ التوكُّل

لغير الله شركٌ أكبرُ، ينافي التَّوحيدَ؛ فإنَّ التَّوكُّل على الله من أعلى مقامات التَّوحيد وأجلِّها، ألا ترى أنَّ الله يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، فهذا الشَّرط دلَّ على أنَّ الإيمان ينتفي بانتفاء التوكُّل، فإذا لم تتوكَّل على الله انتفى عنك الإيمان؛ بدليل هذه الآية، فإنَّ تقديم المعمولِ على عاملِهِ يفيدُ الحصرَ، وقد قرنَ الرَّبُّ التوكُّل عليه بالعبادة فقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] فدلَّ على أنَّ التوكُّل من أعلى مقامات التَّوحيد، ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦] كُلُّ هذا يدلُّ على أنَّهُ متى توكَّلتَ على مخلوقٍ فإنَّك صرفت حقَّ الله لغير الله، ووقعت في الشِّرك الأكبر المنافي للتَّوحيد، فيجب عليك ألَّا تتوكَّل إلَّا على الله، وهذا لا ينافي تعاطي الأسباب، بل فعلُ الأسباب التي تجلب لك النَّفع وتدفع عنك الضَّرر متعيِّنٌ، مع التوكُّل على الله، ولا تقل: «أنا متوكِّلٌ على الله» وتترك الأسباب! فهذا في الحقيقة قدحٌ في الشَّريعةِ، ورداءَةٌ في العقلِ، فاللهُ ربط الأسباب بمُسبَّباتها ورتَّب عليها آثارها، فهل من المعقول أو من المنطق أن تقول: «يا رب ارزقني ذريَّة صالحة» ولم تعمل الأسباب ولم تتزوَّج؟! وتقول: «أنا متوكِّل على الله، لا أريد الزَّوجة بل أريد ذريَّةً صالحة، وأسأل الله أن يعطيني ذريَّةً صالحة!»، هذا ضربٌ من الجنونِ والهوسِ والخبلِ؛ فإنَّ الله ربط الأسباب بمُسبَّباتها، وأمرك أن تتوكَّل عليه مع تعاطي الأسباب، لا بُدَّ أن تتزوَّج، ثُمَّ بعد ذلك سَلِ اللهَ إيجادَ ما تطلبهُ من صلاح الذُّريَّة ـ مثلاً ـ.

أو مثلاً تقول: «أنا لا آكل، أنا لا أشرب، بل أتوكَّل على الله، وأعتمد عليه، ولا أريد طعاماً ولا شراباً!»، فالله ـ سبحانه ـ خلقك لحماً ودماً، وأمركَ بالتَّوكُّل عليه في جميع أمورك، والتوكُّل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله شركٌ أكبر، لكن عدم تعاطي الأسباب خللٌ في العقل، وضربٌ من الجنون؛ ألا ترى أنَّ الله مع أمره بالتَّوكُّل أمر بتعاطي الأسباب فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟!

وهذا يوسف عليه السلام الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: «**هو الكريمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم...**»[(١)]، لما كان في السِّجن توكَّل على خالقِهِ ومع هذا فعل السَّبب في إخراجه من السِّجن: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هذا من تعاطي الأسباب، مع أنَّهُ متوكِّلٌ على الله ومعتمدٌ عليه، وهو نبيُّ الله.

فوِّض أمرك إلى الله واعتمد عليه إن كنت مؤمناً، فالإيمان ينتفي بانتفاء التَّوكُّل، فكُلَّما قوي توكُّلُ العبد قويَ إيمانُهُ، وكُلَّما ضَعف توكُّلُ العبد ضعفَ إيمانُهُ، فإيمانُهُ على قدرِ توكُّلِهِ، كما تقدَّم من أنَّ التَّوكُّلَ هو من أعلى مقامات التَّوحيد، وأنَّهُ لا ينافي تعاطي الأسباب، بل قال المحقِّقون: إنَّ الاعتماد على الأسبابِ شركٌ، وترك تعاطي الأسباب قدحٌ في الشَّريعة.

فلا بُدَّ من تعاطي الأسباب، فاللهُ يقول لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم: ٢٥]، فالله قادرٌ على أن يسقطَ لها الرُّطبَ دون هزِّ جذعِ النَّخلةِ لكن لا بُدَّ من تعاطي الأسباب، فبهذا تعرف أنَّ الله خلق هذا العالم ورتَّب الأسباب والمسبَّبات، ورتَّب الآثار على ذلك، ثُمَّ الرَّبُّ ـ سبحانه ـ يقدِّرُ ما يشاء وما تقتضيه حكمته وإرادته.

وفي الحديث: «**لو أنَّكم توكَّلون على الله حقَّ توكُّلِهِ؛ لرزقكم كما يرزقُ الطَّيرَ؛ تغدو خماصاً** ـ؛ أي: جياعاً ـ، **وتروح بطاناً** ـ؛ أي: ترجع شباعاً ـ»[(٢)].

---

(١) رواهُ البخاريُ (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواهُ ابن المبارك في (الزُّهد ٥٥٩) ـ ومن طريقِهِ الطيالسيُّ (٥١)، والتِّرمذيُّ (٢٣٤٤) ـ والإمامُ أحمد (١/ ٣٣٢) (٢٠٥)، وعبدُ بن حميدٍ (١٠)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١١٨٠٥)، وابن حبَّان (٧٣٠)، والحاكم (٤/ ٣٥٤)، والبيهقيُّ في الشُّعب (١١٣٩) من حديث بكر بن عمرو، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم الجيشاني عبد الله بن مالك، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، به مرفوعاً.
إسنادُهُ جيِّدٌ، وهو عند ابن ماجه (٤١٦٤) من طريق ابن لهيعة، عن ابن هبيرة به.
تنبيهٌ: روى الحديث البزَّارُ (٣٤٠) من طريق ابن هبيرة، عن بكر بن عمرو، عن أبي تميم، عن عمر به مرفوعاً.
=

فالطَّيرُ لا بُدَّ أن يعملَ سبباً في تحصيل رزقِهِ، لا تبقَى في وكرِها، بل تذهب من وكرها جياعاً تتطلَّب الرِّزق، وتعمل السَّبب، وترجعُ بطاناً، فكذلك أنت لا بُدَّ أن تغدو وتروح في طلب الرِّزق مع التَّوكُّل على الله، كما دلَّ عليه هذا الحديث، فالطَّير لا بُدَّ أن يعمل سبباً في تحصيل رزقِهِ وما يملأ به بطنَهُ.

النَّوعُ الثَّالثُ من أنواع التَّوكُّل: أن تعتمدَ على السُّلطان وهو قادر ـ جعلَ الله بيدِهِ سبباً يضرُّك أو ينفعُك ـ، فاعتمدت عليه لهذا السَّبب هذا من الشِّركِ الخفيِّ، بل اعتقِد أنَّهُ سببٌ فقط، والله هو المسبِّب، فهو الذي عطف قلبَهُ عليك، وهو الذي ساقه إليك، وقال بعض العلماء: هذا مكروهٌ، وقيل: بل هو من الشِّركِ الخفيِّ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]: هذا وصف أهل الإيمان الحقيقي؛ فإنَّ الله ـ سبحانه ـ وصفهم بخمس صفات، وقد علمتَ ما دلَّ عليه القرآن من أنَّ المؤمنين لهم الغلبةُ والعزُّ والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة إذا اتَّصفوا بهذه الصِّفات.

= ثُمَّ قال: «أحسب أنَّ بكر بن عمرو لم يسمع من أبي تميم»، وهذا الإسناد غَلَطٌ كما ترى؛ فابن هبيرة هو شيخ بكر كما في رواية الحفَّاظ لا العكس، والله أعلم.

۞ وقولـه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].

في هذه الآية مسألتان:

المسألةُ الأولى: التَّنويهُ بفضلِ النَّبيِّ ﷺ وعظيمِ شرفِهِ؛ فإنَّك إذا تأمَّلت القرآن وجدتَ أنَّ الله يخاطب الأنبياء بأسمائهم: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات، أمَّا الرَّسول ﷺ فيخاطبه ربُّهُ بوصف الرِّسالة أو النُّبوَّة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] إلى غير ذلك، فهذا يدلُّ على التَّنويه بشرف الرَّسول ﷺ، فليس في القرآن ولا في موضع واحد: «يا محمد».

وقد جاء ذكرُه باسمه (محمَّد) مقروناً بالرِّسالة في مقام الإخبار عنه، لا في مقام مخاطبته: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، ومقروناً بذكر إنزال القرآن عليه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، وفي مقام الإخبار عنه مقروناً بما يدلُّ على التَّنويه بفضلِهِ وعلوِّ منزلتِهِ وشرفِهِ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وهذا يدلُّ على فضل الرَّسول ﷺ.

المسألةُ الثَّانيةُ: التَّفسير الصَّحيح لقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين، فهو الذي يكفيك بألَّا يجعل لعدوِّك فيك طمعاً، كما لا يجعل

لأعداء المؤمنين طمعاً فيهم؛ لأنَّ من كفاه الله ووقاه لا يضرُّهُ شيءٌ.

وقيل: إنَّ **المعنى**: يا أيُّها النَّبيُّ حسبك الله وحسبك أتباعك من المؤمنين، فكما أنَّ الله كافيك وواقيك، فأتباعك من المؤمنين ـ أيضاً ـ كافوك وواقون لك، وهذا غلطٌ، وقد ردَّهُ ابنُ القيِّم في أوَّل «زاد المعاد»(١) وغيرُهُ، وقال: «الكفاية والوقاية التي هي تفسير للحسب لا تكون إلَّا من الله».

وممَّا يدلُّ على المعنى الصَّحيح قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢] فجعل التَّأييد حاصلاً من المؤمنين ـ أيضاً ـ بخلاف الحسب فقد انفرد به الله وحده.

ويدلُّ عليه ـ أيضاً ـ قوله ـ تعالى ـ في سورة براءة: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩] فأضاف الحسب إليه وحده والإيتاء إليه وإلى رسولِهِ ﷺ، والرَّغبة إليه وحده، هذا هو مقام التَّوحيد.

۞ وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

المعنى: من يُفوِّض أمره إلى الله ويعتمد عليه فالله كافيه وواقيه وحافظه من أن يصل إليه كيدُ عدوٍّ، أو سوءٌ من أيِّ شخصٍ.

ثُمَّ تأمَّل مسألة أخرى في هذا المقام وهي: أنَّ الله رتَّب الجزاء في هذه الآية على التَّوكُّل فقال: (﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾) [الطلاق: ٣]؛ يعني: توكَّلت عليه، فالله كافيك، بخلاف غير التوكُّل من الأعمال: (من عمل كذا فله أجر كذا)، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] جعل جزاءه أن يحييه حياة طيِّبة يكتسب بها عملاً صالحاً.

أمَّا التَّوكُّل فلم يجعل جزاءه أمراً خارجاً عن معنى التَّوكُّل، بل إذا

(١) (١/٣٧).

توكَّلت على الله، فالله حسبك؛ أي: كافيك وواقيك، فإذا كان الله حسبك حصل لك الخير والحياة الطيِّبة وامتنع عنك الشَّرُّ كُلُّهُ.

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النَّار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]» رواهُ البخاريُّ والنَّسائيُّ[١].

هي كلمة الخليلين عليهما السلام عند الشَّدائد.

(﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾)؛ أي: نعم الموكول إليه أمور عباده والمتوكَّل عليه، وقد ألَّف بعض العلماء[٢] رسالةً تتعلَّق بهذه الكلمة العظيمة: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، سمَّاها: (**السِّرُّ الجليلُ في خواصِّ حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ**)، ذكرَ ما يترتَّب عليها من الفوائد ومعناها وما دلَّت عليه، وهي مطبوعةٌ موجودةٌ.

(**قالها إبراهيم لما أُلقيَ في النَّار**): كما قصَّ الله خبر إبراهيم عليه السلام وما جرى له مع قومِهِ حينما كسَّر أصنامهم التي كانوا يعبدونها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ٥١﴾ [الأنبياء: ٥١] إلى قولِهِ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: ٥٨ ـ ٦٣]؛ لأنَّ هذا الصَّنم الكبير لا يرضى أن يجعلوا معه شركاء فكسَّر بقيَّة الأصنام! ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: ٦٣] يُنبِّههم على أنَّ كبيرَهُم لا ينطق، وينبِّههم على أنَّ كبيرهم لا ينفع ولا يضرُّ، ولو كان ينفعُ ويضرُّ لدافعَ

(١) صحيح البخاري (٤٥٦٣)، سنن النَّسائي الكبرى (١٠٣٦٤).
(٢) وهو: أبو الحسن الشَّاذلي.

عن أصحابه الذين كسَّرهم إبراهيمُ عليه السلام، فلم يستطيعوا مجادلتَهُ ولم يستطيعوا ردَّ ما جاء به، فعمدوا إلى القوَّة وتأخَّروا عن الحُجَّةِ: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨] عند ذلك جمعوا الحطبَ العظيم، وأوقدوا النِّيران، وجاءوا بإبراهيم عليه السلام موثَّقاً بالمنجنيق، فرموهُ فسقطَ في النَّار فقالَ اللهُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩] فما استطاعوا تحريقَهُ، واعترضَ لَهُ جبريلُ في الهواء، فقال: «**ألك حاجة؟**».

قال: «أمَّا إليك فلا، وأمَّا إلى الله فنعم»(١).

مع أنَّهُ جبريلُ شديدُ القوى، وهو قادرٌ على أن ينقلَ إبراهيم ويخرجه من النَّار، أو يحمل النَّار ويلقيها في مكان بعيد، ومع هذا اعتمد إبراهيم على الله وتوكَّل عليه، وقال: «أمَّا إليك فلا، وأمَّا إلى الله فنعم»، هذا قول إبراهيم في تلك الشِّدَّة العظيمة قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ فالله وقاه وكفاه، وأمرَ النَّار أن تكون برداً وسلاماً عليه، فلم يضرَّه شيء.

وقالها محمَّد ﷺ حين قالوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] وذلك بعد انتهاء غزوة أُحد، فقد حصل على المسلمين ما حصل لحكمةٍ بالغةٍ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ أي: بسبب عملكم، وهو أنَّهم خالفوا النَّبيَّ ﷺ حين أمرهم أن يلزموا جهة الرُّماة فلمَّا رأوا المشركين انهزموا ذهبوا للغنيمة وتركوا الثَّغر الذي أمرهم الرَّسولُ ﷺ بالمحافظة عليه، فجاءهم المشركون من هذه الجهة وحصل ما حصل، فقُتِلَ من قُتِلَ مع النَّبيِّ ﷺ وجُرِحَ من جُرِحَ، فعاد المشركون إلى مكَّة، ثُمَّ رأوا أن يعودوا إلى المسلمين، فالرَّسول ﷺ أظهر القوَّة، وخرج ومعه نحو سبعين راكباً من أصحابه، يريد أن يلحق أبا سفيان، ولما وصل إلى حمراء

---

(١) رواهُ ابنُ جريرٍ (١٦/ ٣٠٩) من حديث معتمرِ بن سليمان، عن بعض أصحابه.
ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠) من حديث مقاتل وسعيد من قولهما.
ورواه البيهقيُّ في الشُّعب (١٠٤٥) من حديث بشر بن الحارث من قولِهِ.

الأسد، وهي تبعدُ عن المدينة بنحو ثلاثة أميال، جاء وفدٌ من قيس قابلوا أبا سفيان ـ وكان الله قد ألقى الرُّعب في قلب أبي سفيان وعاد إلى مكَّة بعد عزمه على العودة إلى المدينة لاستئصال بقيَّة المسلمين ـ فقال للوفد: «هل أنتم مبلغو محمَّدٍ رسالةً وإذا رجعتم إلينا نهدي إليكم زبيباً؟».

قالوا: «نعم».

قال: قولوا له: «إنَّا أجمعنا له كرَّةً لنستأصل بقيَّتهم» فبلَّغوا الرِّسالة للرَّسول ﷺ، فقال: (**حسبنا الله ونعم الوكيلُ**)[1]، فهذه الكلمة هي قول الخليلين: إبراهيم ومحمَّد عليهما السلام.



(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٤٦)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٠٠).

بابُ
قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ سُئلَ عن الكبائرِ، فقالَ: «**الشِّركُ باللهِ، واليأسُ من رَوحِ اللهِ، والأمنُ من مكرِ اللهِ**».

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «**أكبرُ الكبائر: الإشراكُ باللهِ، والأمنُ من مكرِ اللهِ، والقنوطُ من رحمةِ اللهِ، واليأسُ من رَوحِ اللهِ**» رواه عبدُ الرزَّاق.



باب
قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

الأمنُ من مكر الله هو ضِدُّ الخوف، ولا يجوز الأمنُ من مكر الله، وهو: أن تستبعد أنَّ الله يعذِّبك، وتستبعد أنَّ الله يسلب نعمَه عنك، هذا من الخطأ، فالإنسان ينبغي أن يكون دائماً على خوف ووجَلٍ، فقد مدح الله الخائفين، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]، فلا ينبغي أن يستبعد الإنسانُ غضب الله عليه، مع تماديهِ بالمعصية وعدم صرف هذه النِّعم في مرضاةِ الله.

ترى الرَّجُلَ مقيماً على المعاصي وعلى ما يُسخِطُ اللهَ، واللهُ يُنعِمُ عليه بالصِّحَّةِ وسعةِ الرِّزقِ، هذا هو المكرُ، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]: الله ينعِمُ عليهم وهم على طغيانهم ومعاصيهم، وعدم التفاتهم إلى الله، هذا هو الأمنُ من مكرِ الله، فالإنسانُ دائرٌ بين الأمرين، إمَّا أن يكون مستقيماً مؤتمراً بأمر الله، منتهياً عن نواهيه، مؤدِّياً ما أوجب اللهُ عليه، مبتعداً عن كُلِّ ما يسخطُ الله، أو أن يكون مائلاً منحرفاً عن الصِّراط المستقيم، وهو في كلتا الحالتين لا بُدَّ أن يكون خائفاً.

إن كان مائلاً عن الحقِّ وفاعلاً لشيءٍ من النَّواهي، أو متساهلاً بعدم القيام بما أوجب الله عليه فيجب أن يخاف من أجل انحرافه وميله عن الصِّراط المستقيم.

وإن كان مستقيماً ومعتدلاً في أموره، ومؤدِّياً لما أوجب الله عليه فينبغي

أن يخاف ـ أيضاً ـ؛ لأنَّه لا يدري بماذا يختم له؟! ولا يعلم هل يبقى على استقامته أو ينحرف؟! فأوجب ذلك له الخوف؛ فالرَّسول ﷺ كان يقول: «**لا ومقلِّب القلوب**»[1].

قال قتادة في تفسير قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: «بغتَ القومَ أمرُ الله، واللهِ ما أخذَ اللهُ قوماً قطُّ إلَّا عندَ أمنِهِم وسَلوَتِهِم»[2].

ثُمَّ هنا أمرٌ آخر وهو: أنَّه لا ينبغي أن يؤدِّي الخوفُ إلى القنوط، فإن أدَّى إلى القنوط هلك العبد، وإن أمن هلك.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٦١٧)، من حديث ابن عمر ﵄.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩١) (٧٢٩٤).

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦].

إبراهيم عليه السلام بعدما طعن في السِّنِّ وكبرَ جاءته الملائكة وبشَّرته بأنَّ الله سيرزقه غلاماً، فقال: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا شكَّ فيه ولا مراء ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: ٥٤، ٥٥]؛ أي: لا تكن من الآيسين، فقال إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦]: المخطئون طريق الحقِّ.

وهذا مثل قول زوجه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣]، فالإنسان لا يقنط من رحمة الله، ولا يأمن من مكر الله، بل يكون دائماً بين الخوف والرَّجاء، إن غلَّب الرَّجاء وقع في الأمن من مكر الله، وإن غلَّب الخوف وقع في القنوط من رحمة الله، بل يجب أن يكون الرَّجاء والخوف في قلبه مثل جناحي الطائر، ألا ترى أنَّ الطَّائر إذا طار في الجوِّ تكون أجنحته متقابلة ومتوازية، والله ذكر في محكم القرآن هذا، فقال ـ تعالى ـ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠] جمع بين الرَّجاء والخوف، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥].

۞ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الكبائرِ، فقالَ: (**الشِّركُ باللهِ، واليأسُ من رَوحِ اللهِ، والأمنُ من مكرِ اللهِ**)[١].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النساء: ٣١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾ [الشورى: ٣٧]، الكبائر: جمعُ كبيرة، وهي: كُلُّ ذنبٍ خُتِمَ بغضبٍ، أو لعنةٍ، أو نارٍ، أو سخطٍ، أو نفي إيمان، كما جاء في الحديث: «**لعن الله السَّارق يسرق البيضةَ فتقطع يده**»[٢].

وفي هذا الحديث: أنَّ أكبر الكبائر الإشراك بالله، ويدلُّ على ذلك حديث أبي هريرة في الصَّحيحين وهو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السَّبع الموبقات**».

قالوا: وما هُنَّ يا رسول الله؟

---

(١) رواهُ البزَّارُ (كشف الأستار ١/ ٧١) (١٠٦)، وابنُ أبي حاتم (٥٢٠١) من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، به مرفوعاً.
ولا يصِحُّ، قال البخاريُّ كما في (العلل الكبير ص٣٩٢): «شبيبُ بنُ بشرٍ منكر الحديث».
وقال أبو حاتم (الجرح والعديل ٤/ ٣٥٧): «ليِّن الحديث، حديثُهُ حديثُ الشيوخ».
وقالَ ـ أيضاً ـ (الجرح والتعديل ٦/ ١٤٠): «ومن تثبُّت عمر ـ يعني: ابن الوليد ـ أنَّ عامَّة حديثه عن عكرمة فقط، ما أقلَّ ما يجوزُ به إلى ابن عبَّاس، لا شبه شبيب بن بشير الذي جعل عامَّة حديثه عن عكرمة عن ابن عبَّاس!».
وذكر ابنُ حبَّان شبيباً في الثِّقات (٤/ ٣٥٩)، ثُمَّ قال: «يخطئُ كثيراً»، وانفردَ ابنُ معين بتوثيق شبيبٍ، ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدُّوري (٤/ ٨٥).
قال ابن كثير (٢/ ٢٧٩): «في إسناده نظرٌ، والأشبه أن يكون موقوفاً».
ورواه الطبرانيُّ (١٣٠٢٣) بسياقٍ طويلٍ موقوفاً على ابن عبَّاس، وإسنادُهُ ضعيفٌ ـ أيضاً ـ.
(٢) رواه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: (**الشِّركُ بالله...**)[١]، الشِّركُ تنقُّصٌ لجانب الرُّبوبيَّة، فالله هو خالق هذا العالم، أوجده وتكفَّل بأرزاق الخلق، المدبِّر لكُلِّ شيءٍ، المستحقُّ وحده للعبادة، والشِّرك لا يغفره الله أبداً إلَّا بالتَّوبة منه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، والله حرَّم على المشركين الجنَّة: ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج: ٣١] إلى غير ذلك.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في النُّونيَّة:

والشِّرك فاحذرهُ فشركٌ ظاهرٌ ... ذا القسمُ ليس بقابل الغفرانِ
وهو اتِّخاذ النِّدِّ للرَّحمـ ... ـن أيًّا كان من حجرٍ ومن إنسان
يدعوهُ أو يرجوهُ ثُمَّ يخافُهُ ... ويحبُّه كمحبَّة الدَّيَّانِ[٢]

وضابط الشِّرك الذي لا يغفره الله هو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله؛ كالذَّبح والدُّعاء والاستغاثة وطلب المدد وسؤال تفريج الكربات وإغاثة اللَّهفات، كُلُّ هذا لا يكون إلَّا لله، فإذا صرفه لغير الله فقد أشرك؛ لأنَّهُ ساوى غير الله به فيما هو من خصائص الله.

وضابط الشِّرك الأصغر: هو ما ورد في النُّصوص تسميته شركاً ولم يصل إلى حدِّ الشِّرك الأكبر.

(**واليأسُ من رَوحِ الله**): استبعاد عفو الله ورحمته وفضله، يقطع بأنَّ الله لا يغفر له لما ارتكبه من جرائم وما فعله من معاصي وخطايا، هذا لا يجوز، وهو من الكبائر، أنسيتَ أنَّ الله هو الغفور الرَّحيم؟! فلا يجوز لك أن تغلِّب جانب الخوف الذي نتيجته اليأس من روح الله، قال الله ـ تعالى ـ حكاية عن يعقوب: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: ٨٧]، فينبغي أن تخاف ذنوبك وترجو عفو ربِّك، هذا الذي يجب، ما دمت صحيحاً

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكافية الشَّافية (ص٢٢٠).

قويّاً فينبغي أن تغلِّب جانب الخوف، وإذا كنت مريضاً ينبغي أن تغلب جانب الرَّجاء وحسن الظَّنِّ بالله ـ تعالى ـ، وأنَّك ستلقى ربّاً كريماً يغفر الذُّنوب ويستر العيوب.

(والأمنُ من مكرِ اللهِ): بتغليب جانب الرَّجاء، يفعل الذُّنوب ويرتكب المعاصي ويفعل الجرائم، ويقول: «الله غفور رحيم»، نعم اللهُ غفورٌ رحيمٌ، ولكن الله قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «**أكبرُ الكبائر: الإشراكُ باللهِ، والأمنُ من مكرِ اللهِ، والقنوطُ من رحمةِ اللهِ، واليأسُ من رَوحِ اللهِ**» رواه عبدُ الرزَّاق(١).

القنوط: بمعنى اليأس، إلَّا أنَّ اليأس أشدُّ من القنوط، فاليأس كفرٌ، والقنوط ضلالٌ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال في اليأس: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧]، كما أنَّ الأمنَ خسارة: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩].



---

(١) رواهُ معمرٌ في جامعه (١٠/٤٥٩) (١٩٧٠١)، وعبد الرزَّاق في تفسيره (١/٤٤٨) (٥٥٦)، والطبريُّ (٦/٦٤٨)، والطبرانيُّ (٨٧٨٤) من حديث وبرة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعودٍ، وإسناده صحيحٌ كما قال ابنُ كثيرٍ (٢/٢٧٩).

بابٌ
من الإيمانِ باللَّه الصَّبرُ على أقدارِ اللَّه

وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: «هو الرَّجلُ تصيبُهُ المصيبةُ فيعلم أنَّها من عند الله فيرضى ويسلِّم».

وفي «صحيحِ مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اثنتانِ في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحَةُ على الميِّتِ**».

ولهما عن ابن مسعودٍ مرفوعاً: «**ليس منَّا من ضَرَبَ الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهليَّةِ**».

وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبدِهِ الخيرَ عجَّلَ له العقوبة في الدُّنيا، وإذا أراد بعبدِهِ الشَّرَّ أمسكَ عنهُ بذنبه حتَّى يُوافى به يوم القيامة**».

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ عِظم الجزاءِ مع عِظم البلاءِ، وإنَّ الله ـ تعالى ـ إذا أحبَّ قوماً ابتلاهُم، فمن رضيَ فلَهُ الرِّضى، ومن سخط فلَهُ السَّخط**» حسَّنَهُ التِّرمذيُّ.





بابٌ
من الإيمانِ باللَّه الصَّبرُ على أقدارِ اللَّه

الصَّبر على أقدار الله هو بحبس النَّفس عن التشكِّي، وحبس اللِّسان عن الجزع، وحبس الجوارح عن شقِّ الثَّوب ولطم الخدِّ، وما أشبه ذلك.

وقد مدح الله ـ سبحانه ـ الصَّابرين في القرآن، بل ذكر الصَّبر في نحو تسعين موضعاً، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل: ٤٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]، والآيات في الحثِّ على الصَّبر والترغيب فيه كثيرةٌ جدّاً.

والصَّبر على ثلاثة أقسام:

الأوَّل: الصَّبر على طاعة الله، كالصَّلاة والصَّوم والحجِّ، فالصَّومُ شاقٌّ، وكذا الصَّلاة تردُّدك إلى المسجد في اليوم واللَّيلة خمس مرات هذا من الصَّبر على طاعة الله، وكذا الإحسان للفقراء؛ فإنَّ النَّفس تشحُّ بالمال فجاهدها، وهذا من الصَّبر على طاعة الله، وكذا الحجُّ وما يعتريه من مشقَّةٍ وكربةٍ ودفعِ مالٍ، هو من الصَّبر على طاعة الله؛ لأنَّ النَّفس من طبعها أن تميلَ إلى التَّرف والكسلِ وطلب الرَّاحة، وطاعة الله جهادٌ لا بُدَّ أن تجاهد نفسك عليه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الثَّاني: الصَّبر عن معاصي الله؛ فالنَّفس تميلُ إلى أن تفعلَ المعصية، وتحبُّ أن تتناولَ ملذَّاتها وشهواتها، فيجب أن تمنعها عمَّا حرَّم الله، تميل النَّفسُ إلى تعاطي الرِّبا طلباً لكثرة المال، أو الزِّنا؛ قد يعرف الإنسانُ امرأةً ويتمكَّن منها، لكن حال بينه وبينها ما قام في قلبِهِ من تعظيمِ الله، واطِّلاع الله عليه، فمنعَ نفسَهُ من ارتكاب هذه المعصية، وصبَّرها رجاءَ الثَّواب والأجر من الله، ولما يترتَّب على ذلك من العذاب، هذا من الصَّبر عن معاصي الله.

الثَّالث: الصَّبر على أقدارِ الله، فإذا قدَّر الله عليك مصيبةً بأن مات

والدُك أو ولدُك أو فقدت مالَكَ بأن سُرِقَ فاصبر، واحتسب الأجر من الله، وقل: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكُن»، فترضى بما قدَّر الله، هذا هو الصَّبر على أقدار الله، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: «لو أنِّي فعلت كذا كان كذا»، ولكن قل: «قدَّر الله وما شاء فعلَ»**»[1].

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

إذا حصلت عليك مصيبة فاعلم أنَّها بقضاء الله وقدره، وإذا علمت أنَّك عبدٌ مربوبٌ مملوكٌ لله، فقل: «أنا عبد لله، هو الذي أوجدني وقدَّر عليَّ هذا، فالحمد لله على ما قضى وقدَّر»، فإذا قلت هذا فالله يهدي قلبك، ويشرح صدرك، ويجعل قلبك مطمئنّاً ممتلئاً إيماناً.

أمَّا إذا أظهرت الجزع والتَّشكِّي والسَّخَط على ما قدَّر الله، فإنَّك تخسرُ مصيبتَكَ والأجرَ والثَّوابَ، وترتكب المعصية، هذا معنى قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، فما قدَّر الله عليك من تلفِ مالٍ أو فقدان عضو من أعضائك أو مرض حلَّ بك فهو بإذن الله؛ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وليظهر صبرك ورضاك على ما قدَّر عليك.

(﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾) لأنَّ القلبَ هو المركز الأساسيُّ للآدميِّ، وهو ملك الأعضاء؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كُلُّهُ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كُلُّهُ، ألا وهي القلب**»[2]، فالقلب إذا صبر وامتلأ إيماناً ظهرت آثار ذلك على الجوارح واللِّسان.

والقلب قطعةُ لحمٍ، والله ـ سبحانه وبحمدِهِ ـ أودعَ في القلب المعرفة،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما.

ولَهُ اتِّصالٌ بالدِّماغ، فالله يقولُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ثُمَّ قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وما سُمِّيَ القلبُ قلباً إلَّا لتُقلُّبِهِ، فالله ـ سبحانه وبحمده ـ خلقَهُ وأوجدَهُ، وجعلَهُ ملك الأعضاء، وجعله يميِّز الأشياء، ويعرف الطَّريق الموصل إلى الله، والطَّريق المبعِّد عن الله، ولهذا إذا سُلب الإنسانُ العقلَ أصبح لا إثمَ عليه ولا عقاب، وأصبح معذوراً في تركِهِ للصَّلوات والعبادات وارتكابه المحرَّمات.

ثُمَّ تأمَّل ختم الآية بقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ولم يقل: (والله على كُلِّ شيء قدير)، ولا: (والله غفورٌ رحيمٌ)؛ لأنَّ المقامَ مقامُ علمٍ، فاللهُ يعلمُ ما في قلبك، هل أنت راضٍ بما حصل لك من المصيبة؟ فيجازيك ويثيبك ويعوِّضك خيراً ممَّا فاتك، أو أنت جازعٌ وساخطٌ على ما قدَّر الله؟! فالله عالم بذلك.

۞ قال علقمة: «هو الرَّجلُ تصيبُهُ المصيبةُ فيعلم أنَّها من عند الله فيرضى ويسلِّم»[1].

قالَ علقمةُ هذا القول مبشِّراً بهذه الآية، آية التَّغابن: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

(١) رواهُ ابنُ جرير (٢٣/ ١٢)، وابنُ أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩١) ـ والبيهقيُّ في السُّنن (٤/ ١١٠)، وفي الشُّعب (٩٥٠٣)، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

۞ وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«اثنتانِ في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحَةُ على الميِّتِ»**[١].

أي: خصلتان في النَّاس هما بهم كفر، والكفر هنا ليس هو الكفرُ المخرجُ من الملَّة، فليس المراد أنَّ من كانت فيه هاتان الصِّفتان لا نغسِّلُهُ ولا نصلِّي عليه ولا يُدفن مع المسلمين في مقابرهم، لا، بل ندعو له ونصلِّي عليه؛ وهذه خصلة من خصال الكفر، وهي مذمومة لكن لا تخرج من الملَّة، فالكفر شعبٌ كالإيمان، فليس وجودُ خصلة من خصال الكفر في الإنسان يجعله كافراً، كما أنَّهُ ليسَ وجودُ خصلة من خصال الإيمان في العبد يجعله مؤمناً.

ومعلومٌ أنَّ شُعَبَ الإيمانِ كثيرةٌ، وألَّف فيها العلماء مؤلَّفات، كالإمام البيهقيِّ[٢]، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، فأعلاها قول «لا إله إلَّا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطَّريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ»**[٣].

فليس من أزال الأذى عن الطَّريق مؤمن، بل فيه خصلةٌ من خصال الإيمان، لكن قد يكون مؤمناً وقد يكون كافراً.

وفي الحديث جاء (الكفر) منكَّراً في سياق الإثبات، وإذا جاء منكَّراً في سياق الإثبات فهو الذي لا يخرج من الملَّة؛ كما في قولِهِ ﷺ: **«سِبابُ المسلم فسوقٌ وقتالُهُ كفرٌ»**[٤]، وكقولِهِ ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم**

(١) صحيح مسلم (٦٧).
(٢) في كتابِهِ عظيم النَّفعِ: (شعب الإيمان).
(٣) رواهُ البخاريُّ (٩)، ومسلمٌ (٣٥).
(٤) رواهُ البخاريُّ (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

رقاب بعض»[١].

والكفر النَّاقلُ عن الملَّة هو الذي يأتي مُعرَّفاً ـ غالباً ـ، مثل قولِهِ ﷺ: «**بين العبد وبين الكفر تركُ الصَّلاة**»[٢]، فجاء فيه معرَّفاً، فإذا ترك الصَّلاةَ صار كافراً حلال الدَّم والمال.

(الطَّعن في الأنساب): هو إظهارُ العيب، كقول القائل: «هؤلاء ليسوا من بني فلان، آل فلان ليسوا من بني فلان» من باب الغضِّ عليهم، «فلان ليس من بني تميم، هو من شكل آخر»، يلمِّح بأنَّهُ ليس أصيلاً، يريدُ إظهار العيب في نسبِهِ، هذا لا يجوز، مع أنَّ النسبَ لا يجدي على المرء شيئاً، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**ومن بطَّأَ بِهِ عملُهُ لم يُسرعْ به نسبُهُ**»[٣]، لا فخرَ إلَّا بالتَّقوى، فمجرَّد النَّسبِ مع تخلُّفِ الإيمان لا ينفع، فأشرفُ النَّاس هم قريش، وأشرفُ قريشٍ: بنو هاشم، وهذا أبو لهب من سادات العرب، ومن سادات بني هاشم ما نفعَهُ ذلك: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

فلا فخر لعربيٍّ على عجميٍّ ولا لأبيضَ على أسود إلَّا بالتَّقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، ولا يجوزُ الطَّعنُ في أنسابِ النَّاس.

(والنياحة على الميِّت): هي شقُّ الثَّوب والجيب، والصُّراخ، ولطمُ الخدِّ، وإظهارُ الجزعِ، كقول الشَّخص: «واعضداه، واناصراه، واكاسياه»، هذا لا يجوز؛ لأنَّهُ ينافي الصَّبر.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٢١ ـ ١٧٣٩ ـ ١٧٤١ ـ ١٧٤٢)، ومسلم (٦٥ ـ ٦٦ ـ ١٦٧٩) من حديث جرير وابن عمر وأبي بكرة رضي الله عنهم.

(٢) رواه مسلم (٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ ولهما عن ابن مسعودٍ مرفوعاً: «**ليس منَّا من ضَرَبَ الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهليَّةِ**»[١].

قوله: (**ليس منَّا**): طريقَةُ النَّوويِّ وغيرُهُ التَّأويل في مثل هذا، فيقول: أي: (ليس من هدينا ولا سُنَّتنا)، لكن الذي عليه الإمامُ أحمدُ وسفيانُ الثَّوريُّ وغيرُهُما من سلف الأُمَّةِ إمرارُ أحاديث الوعيد وعدم التعرُّض لتأويلها؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في الزَّجرِ، وأنكى في الرَّدعِ.

(**ضَرَبَ الخدودَ**): أي: عند المصيبة، يضرب خدَّهُ أو وجهَهُ أو صدرَهُ، وخَصَّ الخدودَ لأنَّ ضربها هو الأغلب، وليس المراد أنَّهُ لو ضرب غير الخدِّ فلا بأس، فلو ضرب الصَّدر أو الفخذ جزعاً بما قدَّر الله فإنَّهُ داخلٌ في ذلك، وقد تبرَّأ النَّبيُّ ﷺ من الصَّالقة والحالقة[٢].

و(**الصَّالقةُ**) هي: التي ترفعُ صوتها عند المصيبة.

و(**الحالقةُ**) هي: التي تحلق شعرها عند المصيبة.

(**ودعا بدعوى الجاهليَّة**): المراد بدعوى الجاهليَّة هنا ما يفعله أهل الميِّت عند وفاته كقولهم: «واناصراه، واجبلاه، واعضداه» وما أشبه ذلك، هذا من دعوى الجاهليَّة؛ لأنَّ الإسلام يأمرُ من ابتُلي بالمصيبةِ أن يصبرَ ويحتسبَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦]، بهذا تحصل له صلاةُ الربِّ عليه وتحصلُ لَهُ الرَّحمةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧].

ويدخلُ ـ أيضاً ـ في دعوى الجاهليَّة: التعصُّبُ للمذاهبِ أو لشيخٍ

---

(١) صحيح البخاري (١٢٩٧)، صحيح مسلم (١٠٣).
(٢) رواه البخاريُّ (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

معيَّن؛ لأنَّ النَّاس مأمورون باتِّباع النَّبيِّ ﷺ، لا بالدَّعوة إلى مذاهبهم، والانتصار لها، وتضليلِ من خالفها؛ فإنَّه جاء في قصَّة المهاجريِّ والأنصاريِّ حين كَسَعَ المهاجريُّ أنصاريّاً فضربَهُ الأنصاريُّ فجعلَ الأنصاريُّ يقول: «يا للأنصار»، والمهاجريُّ يقول: «يا للمهاجرين» قال النَّبيُّ ﷺ: «**أبدعوى الجاهليَّةِ وأنا بينَ أظهُرِكُم؟!**»[1]، مع أنَّ كُلّاً منهم دعا أصحابه بأعلى صفة ذكرها الله بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، لكن لمَّا كانت دعوى للعصبيَّة قال ﷺ: «**أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهُرِكُم؟!**».

وكذلك من دعا إلى مذهبٍ معيَّن، كمن دعا إلى مذهبِ الإمام مالك، وقال: «لا يجوز التمذهبُ إلَّا بمذهب الإمام مالك، ويجِبُ على الأُمَّةِ جميعهم أن يتمذهبوا بمذهب مالك»، هذا ـ أيضاً ـ داخلٌ في دعوى الجاهليَّة، وقد قال هذا القول القاضي عياض، في كتابه: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك»[2]، وقد أخطأ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ؛ فإنَّهُ لا يجب اتِّباع أيِّ شخصٍ ما عدا رسول الله ﷺ؛ فإنَّ النَّاسَ مأمورون باتِّباعه وبما جاء به، لا باتِّباع فلانٍ وفلانٍ.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر ﷺ.
(٢) (٥٩/١).

۞ وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الخيرَ عجَّلَ له العقوبةَ في الدُّنيا، وإذا أراد بعبدِهِ الشَّرَّ أمسكَ عنهُ بذنبِهِ حتَّى يُوافى به يوم القيامة**»(١).

فما يصيب العبد في الدُّنيا من المصائب هي رحمة له، وتخفيف عنه، ومن علامات توفيق الله وإحسانه ورحمته بعبده أن يعجِّل عقوبته في الدُّنيا بابتلائه بشيءٍ من المصائب؛ لأنَّ ذلك تخفيف من سيئاته، وتكفير لذنوبه وخطاياه، وجاء في الحديث: «**أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الصَّالحون ثُمَّ الأمثل فالأمثل، كُلٌّ يبتلى على حسب دينه، فإن كان في دين الرَّجل صلابة ابتلي على قدر ذلك، وإن كان في دينه رقَّة فكذلك، ولا يزال البلاء بالرَّجُل الصَّالح حتَّى يدعه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**»(٢)، فهذا يدل على أنَّ الصِّحَّةَ المستمرَّة الدَّائمة ليست مدحاً ولا خير فيها، «**وإذا أراد بعبده الشَّر أمسك عنه**»، بأن كان في صِحَّةٍ وعافيةٍ ووفورِ أرزاقٍ وسلامةِ أولادٍ وأهلٍ،

(١) رواهُ التِّرمذيُّ (٢٣٩٦)، والحاكمُ (٤/ ٦٥١)، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (٣١٦) من حديث سعد بن سنان، عن أنس، به مرفوعاً.
ولا يصِحُّ؛ سعدٌ قال فيه الإمام أحمد: «روى خمسة عشر حديثاً منكرةً كُلَّها، ما أعرفُ منها واحداً!»، ينظر: الضُّعفاء للعقيلي (٢/ ١١٨).
وقال النَّسائيُّ في الضُّعفاء (ص٥٢): «ليس بثقةٍ»، وذكره الدَّارقطنيُّ في (الضُّعفاء والمتروكين ٢/ ١٥٦)، وقال الجوزجانيُّ: «أحاديثُهُ واهيةٌ، لا تشبهُ أحاديث الناس عن أنس»، وساق ابن عديٍّ هذا الحديث في ترجمته (الكامل ٤/ ٣٩٢)، وللحديث شواهد لا تخلو من ضعف بل ونكارة.

(٢) رواهُ الطَّيالسي (١/ ١٧٤) (٢١٢)، والإمامُ أحمد (٣/ ٧٨) (١٤٨١)، والتِّرمذيُّ (٤/ ١٧٩) (٢٣٩٨)، وابنُ ماجه (٥/ ١٥٢) (٤٠٢٣) من طرقٍ عن عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه، به مرفوعاً.
وإسنادُهُ حسنٌ لأجل عاصم ـ وهو الشَّهير بابن أبي النجود ـ، حُجَّةٌ في القراءات، صدوقٌ في الحديث، ينظر: الجرح والتَّعديل (٦/ ٣٤٠)، ميزان الاعتدال (٢/ ٣٥٧).

فإذا جاء يوم القيامة فإذا عنده من السَّيئات والخطايا والجرائم الشَّيء الكثير، ومع هذا لم يُصَبْ في الدُّنيا بما يقتضي تكفير هذه الذُّنوب، فتبقى عليه، ثُمَّ توزن الحسنات والسَّيئات: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

۞ وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ عِظم الجزاءِ مع عِظم البلاءِ، وإنَّ الله ـ تعالى ـ إذا أحبَّ قوماً ابتلاهُم، فمن رضيَ فلَهُ الرِّضى، ومن سخط فلَهُ السَّخط**» حسَّنَهُ التِّرمذيُّ(١).

أي: كُلَّما عظُم البلاءُ عظُم الجزاءُ وكثر الأجرُ، وكُلَّما خفَّ البلاءُ خفَّ الجزاءُ؛ فالجزاء من جنس العمل، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

والجزاء الذي يجازيك الله به هو في مقابل حسناتك، والله يعطي الخير والثَّواب الجزيل دون حسنات، بل يزيدك، ألا ترى أنَّ الله يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١]، الحسنة بعشر أمثالها بل إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، رحمة منه وفضلاً وجوداً وإحساناً، وأمَّا الخطايا التي يرتكبها العبد فالله لا يزيدها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، السَّيئة لا تتضاعف أبداً بخلاف الحسنة، فإنَّها تتضاعف فضلاً من الله وجوداً.

(**وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم**): حتَّى إذا جاء يوم القيامة ووقفوا

---

(١) رواهُ الترمذيُّ (٢٣٩٦)، وابنُ ماجه (٤٠٣١) من حديث سعد بن سنان، عن أنس، به مرفوعاً.
وقد أشار التِّرمذيُّ إلى إعلالِهِ فقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه».
وينظر: تخريج الحديث السَّابق، وله شاهدُ من حديث محمود بن لبيد، رواهُ الإمام أحمد (٣٩/ ٤٣٥) (٢٣٦٢٣) وإسنادُهُ لا بأس به، أفادَهُ الشيخ سليمان (التيسير ٢/ ١٠٣٣).

بالحساب وإذا البلاء في الدُّنيا قد محَّص خطاياهم: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١].

وفي الحديث دليلٌ على إثبات المحبَّة لله، خلافاً للأشاعرة، فهم ينفون عن الله المحبة، ويقولون: هي ميلُ قلبِ المحبِّ إلى المحبوبِ، واللهُ منزَّهٌ عن هذا.

فنقول: هذه محبَّة المخلوق للمخلوق، أمَّا محبَّة الخالق فنثبتها حقيقةً كما أثبتها الله لنفسه، ونحن غير مكلَّفين بأن نجعلها من جنس محبَّة المخلوقين، بل نثبتها كما جاءت، دون أن نكيِّفَ أو نُمثِّلَ أو نُعطِّلَ، ألا ترى أنَّ الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ويقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، نفى عن نفسه الأصل ونفى عن نفسه الفرع، فلا أصل لَهُ ولا فرع لَهُ ـ سبحانه ـ؛ أي: لا ولد له ولا والد، ونفى أن يكون له مثيلٌ أو نديدٌ في أسمائه وصفاته، و(المحبَّة) من الصِّفات.

(فمن رضي فلَهُ الرِّضا): الرِّضا درجة أعلى من الصَّبر، وقد تكلَّم بعض العارفين عن هذا، كما أشار إليه العلَّامة ابنُ القيِّم[1].

والنَّبيُّ ﷺ لما مات ابنُهُ إبراهيم فاضت عينه وبكى، فقيل له في هذا، فقال: «**إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، وإنَّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلَّا ما يرضي ربَّنا**»[2]، والبكاء لا ينافي الرِّضا، وليس هو من باب الجزع في شيء.

لو قلتَ: الرَّسول ﷺ بكى، ونُقل عن بعض الزُّهَّاد العارفين أنَّهُ لمَّا أُخبر بوفاة ابنه جعل يضحك، ولم يبكِ! رضىً وتسليماً لما قدَّره الله، فما الجواب؟

قيل: إنَّ الرَّسول ﷺ بكى؛ لأنَّ قلبه متَّسعٌ للبكاء والرِّضا جميعاً، وهذا

---

(١) ينظر: عدة الصَّابرين (ص١٠١).
(٢) رواهُ البخاريُّ (١٣٠٣)، ومسلمٌ (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العارف الذي ضحك لم يتَّسع قلبُهُ لما اتَّسع له قلب النبيِّ ﷺ، فلم يستطع أن يجمع بين الأمرين، فلا يكون حينئذٍ أعلى درجة ممَّن بكى عند المصيبة كالنبيِّ ﷺ، هذا معنى ما قالَهُ ابنُ القيِّم وغيرُهُ(١).



(١) ينظر: مدارج السَّالكين (٢/ ٢٠٢)، والذي يظهر أنَّ في هذا الجمع ما فيه؛ فإنَّ البكاء والرِّضا لا يتزاحمان في القلب ليُعلَّل بما ذُكر، وفي الضحك عند المصيبة مصادمةٌ للفطرة، وقد بكى عند المصيبة ولم يضحك سيِّد المرسلين ﷺ؛ بكى على ابنه إبراهيم، وعلى سعد بن عبادة فيما رواهُ البخاريُّ (١٣٠٤) ومسلم (٩٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وبكى ﷺ لمَّا حمل سبطه ونفسه تقعقع، رواه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وخير الهدي هدي محمَّد ﷺ، وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله في الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦٢): «ويستحبُّ البكاء على الميت رحمة له، وهو أكمل من الفرح؛ لقوله ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده**» متفق عليه».

فائدة: قال الجاحظ (البخلاء ص٢١): «وأنا أزعم أنَّ البكاءَ صالحٌ للطبائعِ ومحمودُ المغبَّة إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليلٌ على الرِّقَّة والبعد عن القسوة، وربَّما عُدَّ من الوفاء وشدَّة الوجد على الأولياء، وهو أعظم ما تقرَّب به العابدون، واسترحم به الخائفون».

بابُ
ما جاء في الرِّياء

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

عن أبي هريرة مرفوعاً: «**قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشركَ معيَ فيهِ غيري تركتُهُ وشِركَهُ**» رواهُ مسلمٌ.

وعن أبي سعيدٍ مرفوعاً: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدَّجال؟**»

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «**الشِّركُ الخفيُّ، يقومُ الرَّجُلُ فيصلِّي، فيُزيِّنُ صلاتَهُ لما يرى من نَظَرِ رجلٍ**».





بابُ
ما جاء في الرِّياء

(**الرِّياء**): أن يكون ظاهر العمل لله، ولكن وقر في قلب صاحبه إرادة مدح النَّاس له وثنائهم عليه، من أجل أن يقول النَّاس: «فلان كثير قراءة القرآن، كثير الدُّعاء، كثير الابتهال لله ـ تعالى ـ، والاطِّراح بين يديه»، فإذا وقرَ في قلبه شيءٌ من هذا، فعمله مردودٌ عليه، لا يقبل الله منه شيئاً.

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

هذه الآية هي آخر آية في سورة الكهف، ووجه المناسبة في هذا ـ والله أعلم ـ هو أنَّ سورةَ الكهف تضمَّنت شيئاً من أخبار المغيَّبات التي لا يعلمها إلَّا الله، مثل قصَّة أصحاب الكهف، الذين أووا إلى كهفهم، وقصَّة موسى عليه السلام مع الخَضِرِ، ثُمَّ قصَّة ذي القرنين، وهي من الأمور المغيَّبة التي سأل اليهود عنها رسول الله ﷺ فانقطع الوحيُ عنه، فحزن، ثُمَّ أنزل الله عليه خبرهم؛ لأنَّهُ ﷺ قال: «**سأخبركم غداً**» فجاء الغد وبعد غد فلم يوحَ إليه، فعاتبه الله بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، ثُمَّ بعد أن أخبره الله بهذه المغيَّبات، قال: (﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾): لا علم لي بهذه الأخبار إلَّا من قِبل الله؛ حيث جاءني الوحي بشأنها[١].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]: يعتقد أنَّ الله سيبعثه ويجازيه،

(١) ينظر: تفسير الطَّبري (١٥/ ٢٢٣).

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] خالصاً ممَّا يشوبه ويبطله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] (أحداً): نكرة في سياق النَّهي فتعمُّ.

هذه الآية دلَّت على أصلين عظيمين هما **ركنا العبادة:**

الأوَّل: تجريد الإخلاص لله ـ تعالى ـ، فلا تريد بعملك إلَّا وجه الله.

الثَّاني: متابعة رسول الله ﷺ.

فإن كان عملك خالصاً لله لكن لم يكن على سُنَّة رسول الله ﷺ فهو مردودٌ عليك.

۞ عن أبي هريرة مرفوعاً: «**قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشركَ معيَ فيهِ غيري تركتُهُ وشِرِكَهُ**» رواهُ مسلمٌ(١).

الله غنيٌّ عنك وعن عملك فكيف تجعل هذا المخلوق شريكاً لله في هذا العمل؟! تقصد ثناءه عليك ومدحه لك؟! تجعله شريكاً لمن له الكمال التَّامُّ والرَّحمة التَّامَّة والغنى التَّامُّ؟! تصدَّقتَ من أجل أن يقول النَّاس عنك: «فلانٌ فيه خيرٌ، يُحسنُ ويحبُّ الإحسان، ويعطف على الفقراء»، أو صلَّيتَ فجعلتَ تطيلُ الرُّكوع أو السُّجود لأجل نظر شخص إليك!، هذا إمَّا يبطل العمل أو ينافي كماله على الخلاف الذي أشار إليه الشَّارح(٢).

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢/ ١٠٥٤).

۞ وعن أبي سعيدٍ مرفوعاً: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدَّجَّال؟**»
قالوا: بلى يا رسول الله.
قال: «**الشِّرْكُ الخفيُّ، يقومُ الرَّجُلُ فيصلِّي، فيُزيِّنُ صلاتَهُ لما يرى من نَظَرِ رجلٍ**»(١).

الشِّرك الخفيُّ: هو الذي خافه الرَّسول ﷺ على أُمَّتِهِ وما ذاك إلَّا لعظم البلاء به، والرَّسول ﷺ بيَّنه وفسَّره بقولِهِ: (**يقوم الرَّجلُ فيصلِّي فيُزيِّن صلاته**): يطيل ركوعها وسجودها وقيامها من أجل نظر رجلٍ إليه، لا لأجل ما وقر في قلبه من الخشوع والخضوع لله، واستحضار عظمة من قام بين يديه، وتهيأ لخدمته.

وإذا كان الرَّسول ﷺ خافه على أصحابه مع علمهم وجلالتهم وقوَّة الإيمان في قلوبهم وأخذهم العلم عن الرَّسول ﷺ فما ظنُّك بغيرهم؟!

ففتنة المسيح الدَّجَّال وإن كانت عظيمة، وقد أمرنا النبيُّ ﷺ أن نستعيذ من فتنته في صلواتنا دائماً، ففي «صحيح مسلم»: «**إذا فرغ أحدكم من التشهُّد فليستعذ بالله من أربع: أعوذ بالله من عذاب جهنَّم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة**

(١) رواهُ الإمام أحمد (١٧/ ٣٥٥) (١١٢٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، والطَّحاويُّ في شرح المشكل (٥/ ٣٥)، والحاكم (٤/ ٣٦٥)، والبيهقيُّ مختصراً (الشعب ٦٤١٣) من طريق كثير بن زيد، عن ربيح بن عبد الرحمٰن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جدِّهِ، به مرفوعاً.

كثير بن زيد فيه لينٌ، ينظر: الميزان (٣/ ٤٠٤)، وربيح قال فيه الإمام أحمد: «ليس بمعروف»، وقال البخاريُّ: «منكر الحديث»، ينظر: العلل الكبير (ص٣٣)، الكامل (٤/ ١١٠).

قال الشَّيخ سليمان (٢/ ١٠٥٧): «في سنده ضعفٌ».

المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدَّجَّال»[(١)].

مع هذا خاف الرَّسول ﷺ على أمَّته من الرِّياء أكثر من خوفه عليهم من فتنة الدجَّال؛ وذلك لأنَّ فتنة الدَّجَّال ظاهرةٌ مكشوفةٌ، ومكتوبٌ بين عينيه (كافر)، أمَّا الرِّياء فهو عملٌ خفيٌّ، لا يعلمُ به أحدٌ إلَّا المرائي نفسه، والرَّبُّ المطَّلع على ذلك.

وهكذا في سائر العبادات؛ ـ فمثلاً ـ الإنسان يتعلَّم العلمَ الشَّرعيَّ الذي هو من أجلِّ الطَّاعات وأعظم القربات وهو أفضل من نوافل العبادات، وهو ميراث النبيِّ ﷺ، وقد مدح الله العلماء في القرآن، وقرن شهادتهم بشهادته، لكن إذا وقر في قلبه أن يتعلَّم لأجل ثناء النَّاس، أو ليقال: «فلان متعلِّمٌ، فلان عنده معلوماتٌ كثيرة..» بطلَ عملُهُ، فمجرَّد أن فسدت نيَّته فسد عمله، وأيُّ خسارة أعظم من هذه الخسارة؟! هلَّا أخلصتَ عملك لله؟! فهذا المخلوق لا يدري عنك، ولا يعلم أنَّك تقصده ويتصوَّر أن عملك لله، ومع هذا صرفته له، وخسرت الأجر العظيم، وهذه العبادة العظيمة ذهبت عليك من غير منفعة ومن غير أجر، وذهب عناؤك وتعبك سدىً، لمجرَّد ما وقر في قلبك من إرادة مدح النَّاس والثَّناء عليك، والله ـ سبحانه ـ قال آمراً نبيَّه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فلا بُدَّ من الإخلاص، وإلَّا فعملك لا يقبله الله، وهو ـ سبحانه ـ غنيٌّ عن عبادتك وطاعتك، وإنَّما المصلحة في ذلك لك، ولكنَّك أفسدت ثوابها لما وقر في قلبك من تلك النيَّة السَّوداء، من نيل وظيفة أو دنيا أو صرف وجوه النَّاس إليك.

فعلى الإنسان إذا وقر في نفسه شيءٌ من هذا أن يستحضر دناءة الدُّنيا وخساستها، ويستحضر هذا العمل العظيم كيف يتلفه وكيف يذهب سهر اللَّيل دون أجر؟!

---

(١) رواه مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، ورواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة من فعله ﷺ دون أمره.

فمن أراد مدح النَّاس أو ثناءهم أو رياسة أو غير ذلك، فحكمه حكم من باع جوهرة نفيسة ببعرة، وإذا أراد الإنسان بعمله الدُّنيا فحكمه يأتي في الباب الذي بعد هذا الباب وهو: (**باب من الشِّرك إرادة الإنسان بعمله الدُّنيا**).

وفي الحديث: أنَّ الرِّياء لا يكاد يسلم منه أحد؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ خافه على أفاضل أصحابه، فما ظنُّك بغيرهم؟!

وفيه: أنَّ فتنة الدَّجَّال فتنةٌ عظيمةٌ، وقد تكاثرت النُّصوص في فتنة الدَّجَّال، وأنَّه يخرج آخر الزَّمان، ويقتله عيسى ابن مريم، أو يقتله المهديُّ بمساعدة عيسى عليه السلام.

وخروج المهديِّ في آخر الزَّمان يذكره سلفنا الصَّالح في عقائدهم، ولا عبرة بمن أنكر خروج المهديِّ؛ فإنَّ كثيراً من العصريِّين أنكروا خروج المهدي، وألَّف الشَّوكانيُّ رسالة سمَّاها: «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظَرِ والدَّجَّالِ والمسيحِ»، وذكر أنَّ الأحاديث بلغت حدَّ التواتر المعنوي، وقال: «إنَّ في المهديِّ خمسين حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ وثمانية وعشرين أثراً، كلُّها تدلُّ على خروجه»(١).

وكافَّة أهل العلم من أتباع الأئمَّة الأربعة وسلفنا الصَّالح يقولون بخروج المهدي آخر الزَّمان، وجاءت فيه أحاديث كثيرة، منها: أحاديث صحيحة، وأحاديث حسنة، وأحاديث ضعيفة، لكن بمجموعها تبلغ حدَّ التواتر المعنوي، وإن كان البخاريُّ ومسلمٌ لم يخرجاها، لكن لا يلزم من عدم تخريج البخاريِّ ومسلمٍ لأحاديث المهدي أنَّها ليست صحيحة، فكثير من أحاديث الأحكام

---

(١) ينظر: الإذاعة لما كان ويكون بين يدي السَّاعة (ص١٥٠)، وقد قال السَّفَّارينيُّ:

وما أتى في النَّصِّ من أشراطِ ... فكلُّهُ حقٌّ بلا شطاطِ

منها الإمامُ الخاتمُ الفصيحُ ... محمَّدُ المهديُّ والمسيحُ

قال رحمه الله في شرح البيتين (لوامع الأنوار ٢/ ٨٢): «قد كثُرت الأقوالُ في المهديِّ حتَّى قيلَ: لا مهديَّ إلَّا عيسى، والصَّوابُ الَّذي عليهِ أهلُ الحقِّ أنَّ المهديَّ غيرُ عيسى، وأنَّهُ يخرجُ قبلَ نزولِ عيسى عليه السلام، وقد كثُرتْ بخروجهِ الرِّواياتُ حتَّى بلغتْ حدَّ التَّواترِ المعنويِّ، وشاعَ ذلكَ بينَ عُلماءِ السُّنَّةِ حَتَّى عُدَّ من مُعتقداتِهِم».

وأحاديث العقائد لم يخرجها البخاريُّ ولا مسلمٌ، ومع هذا تلقَّتها الأُمَّةُ بالقبول؛ لأنَّهُ وُجِدَ في القرآن ما يُؤيِّدها، أو لكثرة طرقها، فالبخاريُّ قد يكون الحديث عنده صحيحاً لكن لا يخرجه في «صحيحه»؛ لأنَّهُ ليس على شرطه.

فمن أهمِّ شروط البخاريِّ أن يكون رواة الحديث ثقات لا مغمز فيهم ولا مطعن، وأن يثبت اللِّقاء بينهم، ولا يكتفي بالمعاصرة، بل لا بُدَّ من أن يصرِّح باللِّقاء، أمَّا مسلم فيكتفي بمجرَّد المعاصرة، والله أعلم.



بابٌ

مِنَ الشِّركِ إرادَةُ الإنسانِ بعملِهِ الدُّنيا

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ الآيتين [هود: ١٥ ـ ١٦].

وفي «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعس عبدُ الدِّينار، تعِسَ عبدُ الدِّرهم، تعِسَ عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رضيَ، وإن لمْ يعطَ سخط، تعسَ وانتكسَ وإذا شِيكَ فلا انتقش، طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثَ رأسُهُ، مغبَّرةٍ قدماهُ، إن كان في الحراسة كان في الحراسةِ، وإن كان في السَّاقةِ كان في السَّاقةِ، إن استأذن لم يؤذن لَهُ، وإن شفع لم يشفَّع**».



بابٌ
مِنَ الشِّركِ إرادَةُ الإنسانِ بعملِهِ الدُّنيا

هذه التَّرجمة ليست تكراراً للباب السَّابق؛ فإنَّ الباب السَّابق هو في موضوع الرِّياء، أن يعمل الإنسان عملاً ظاهره لله ويقصد ثناء فلان أو مدحه، وهذا يبطل العمل الذي قارنه، وهذه التَّرجمة هي أن يعمل عملاً لا لله بل لأجل الدُّنيا، ليس لأجل مدح المخلوقين وثنائهم، والمكانة في نفوسهم، بل لأجل الدُّنيا، ففرقٌ بين الترجمتين، وكلا الأمرين محبطٌ للعمل، وصاحبُهُ خاسرٌ؛ لأنَّهُ قد تقدَّم لنا أنَّ العبادة تنبني على أصلينِ: الإخلاص، والمتابعة.

فمن تعلَّم العلمَ لأجل أن يكون مدرِّساً أو لينال وظيفة أو ليكون قاضياً فالله لا يقبل هذا العمل منه؛ لأنَّهُ لم يقصد به وجه الله.

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ الآيتين [هود: ١٥ـ١٦].

من كان يريد بتعلُّمه العلم الحياة الدُّنيا من منصب أو جاه أو وظيفة نعطه ما طلب: (﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾): لا ينقصون، (﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾) لتخلُّف الإخلاص، وورد في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«إنَّ أوَّل من تُسعَّر بهم النَّار يوم القيامة ثلاثة: المجاهدُ في سبيلِ الله، والمتعلِّم العلمَ، والمتصدِّق، يؤتى بالمجاهد فيقول: «يا رب إنَّك أمرت بالجهاد في سبيلك، وقد قاتلتُ حتَّى قُتِلْتُ»**.

فيقول الرَّبُّ: كذبتَ، وإنَّما قاتلتَ ليُقال «هو شجاع»، فقد قيلَ، فيُؤمر به فيُسحب على وجهِهِ في نارِ جهنَّم.

ثُمَّ يؤتى بالمتصدِّق فيقول الربُّ: ألم أوسِّع عليك؟! ألم أدعك لا تحتاج إلى أحد فماذا عملت؟!

فيقول: «يا ربِّ إنَّك أمرت بالصَّدقة فما من سبيل خير إلَّا وأنفقت فيه».

فيقول له الرَّبُّ: كذبتَ، وإنَّما تصدَّقت ليُقال «هو سخيٌّ»، فقد قيلَ، فيُؤمرُ به فيسحب على وجهِهِ في نارِ جهنَّم.

ثُمَّ يُؤتى بالمتعلِّم فيقول: «تعلَّمتُ فيك القرآن، وتعلَّمتُ فيك العلم».

فيقول له الرَّبُّ: كذبت، إنَّما تعلمت ليقال «هو عالمٌ، هو قارئٌ»، فقد قيل، ثُمَّ يؤمر به فيسحب على وجهِهِ في نارِ جهنَّم»(١).

فالعمل لغير وجه الله باطلٌ، ولا يثاب صاحبه عليه، فإن كانت أعماله كُلُّها على هذا فهذا خالدٌ مخلَّدٌ في النَّار، فإن كانت عنده أعمالٌ أخرى أخلصها لوجه الله فهي منجيةٌ له من النَّار.

(١) رواهُ مسلمٌ بنحوِهِ (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ وفي «الصَّحيح» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعِسَ عبدُ الدِّينار، تعِسَ عبدُ الدِّرهم، تعِسَ عبدُ الخميصةِ، تعِسَ عبدُ الخميلةِ، إن أُعطي رضيَ، وإن لَمْ يُعطَ سَخِطَ، تعِسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ فلا انتقش، طوبى لعبدٍ آخذ بعنانِ فرسِهِ في سبيل الله، أشعثَ رأسُهُ، مغبَّرةٍ قدماهُ، إن كان في الحراسةِ كان في الحراسةِ، وإن كان في السَّاقةِ كان في السَّاقةِ، إن استأذن لم يؤذن لَهُ، وإن شفعَ لم يُشفَّعْ»**[(١)] .

(تعس عبد الدِّينار): هذا دعاءٌ عليه، بأنَّ اللهَ يعكسُ عليه أمورَهُ، ولا ييسِّر له من أموره شيئاً؛ لأنَّهُ لم يكن عبداً لله، وإنَّما كان عبداً للدِّينار والدِّرهم؛ أي: إن جاهد لم يكن جهاده لإعلاءِ كلمة الله، إنَّما قصد الدِّرهم والدِّينار، فصار حينئذٍ عبداً للدِّينار والدِّرهم، وإنَّما عبدُ الله على الحقيقة هو الذي يسعى في مراضي الله، ويبتعد عما نهى الله عنه، أمَّا عبدُ الدِّرهم والدِّينار فهو الذي يبذلُ مهجته ويسعى بكُلِّ قواه في تحصيل الدِّرهم والدِّينار حتَّى ولو بالأعمال الصَّالحة التي ظاهرها لله، وهذا وجه مطابقة الحديث للتَّرجمة.

و**(الدِّينار)**: مثقالٌ من الذَّهبِ مضروبٌ، وأوَّلُ من ضرب الدِّينار في الإسلام: عبد الملك بن مروان، وكتب على أحد الوجهين: «ضُرِبَ في عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان»، وفي الوجه الثَّاني: سورة الإخلاص[(٢)]، والدِّينار هو الذي يذكره الفقهاء في كتبهم في الزَّكاة، وفي الكفَّارات؛ كقولهم: «ويحرمُ وطءُ الحائضِ فإن فعل فعليه دينارٌ، أو نصفُهُ»، ومقداره بالجنيه المعروف المتعامل به الذي يسمُّونه: (الجنيه الفرنسي)، أو: (الجنيه السُّعودي): أربعة أسباع جنيه.

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٨٦).
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام (٢/ ٩٧٠).

و(**الدِّرهم**) هو: نقدٌ من الفِضَّةِ، مقدارُهُ: نصفُ دينارٍ وخُمُسٍ؛ أي: سبعة أعشار مثقال.

(**تعس عبد الخميصة**) هي: كساء من خزٍّ مُعلَّم.

قال ـ تعالى ـ في شأن المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢]، لو يحصل لهم عرض من الدُّنيا لبادروا وجاهدوا من أجل تحصيله، وفي الآية الأخرى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٧ ـ ٥٨]، هذا شأن المنافقين، هم عبيدُ الدُّنيا، لم يجاهدوا لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه ظاهراً، ولم يعملوا عملاً صالحاً يقصدون به وجه الله، وإنَّما قصدهم الدِّرهم والدِّينار وعَرَض الدُّنيا.

(**تعس وانتكس**): قلبَهُ اللهُ على وجهِهِ، بل على أُمِّ رأسِهِ، يقال: «انتكس الإنسان»: إذا صارت رجلاه أعلى، ورأسه أسفل، كناية عن أن يقلبَ عليه اللهُ أمورَهُ، ويعكسها عليه، وألَّا يمكِّن له منها شيئاً.

(**وإذا شيك فلا انتقش**): أي: إذا أصابته شوكة في رجله فلا هيَّأ اللهُ ولا يسَّر له من ينقشها من رجله، كناية عن تعسُّر أمورِهِ وعدم تيسُّرها؛ لأنَّهُ يطلب بعمله الدُّنيا.

(**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه**): قيل إنَّ (طوبى) شجرة بالجنَّة، يسير الرَّاكب في ظلِّها خمس مئة عام، وقيل هي: الرَّاحة والطمأنينة، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

(**أشعث رأسُهُ، مغبَّرةٍ قدماهُ**): ديدنه الجهاد في سبيل الله، يقاتل لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، عملاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]، لا يُعرف، عبدٌ تقيٌّ خفيٌّ، بذلَ مهجته لله وقاتل في سبيل الله، لا يعرفه قائدٌ،

ولا يعرفه خليفةٌ، بل أشعث رأسُهُ، مغبَّرةٌ قدماهُ من الجهادِ.

(إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في السَّاقة)؛ يعني: أنَّ هذا الرَّجل الذي هذه حالته يكون في الثُّغور في المقدِّمة أو المؤخِّرة.

(إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفَّع)؛ لأنَّه لا جاهَ لَهُ، هذا عبد الله على الحقيقة، إنَّما كان يقاتل لأجل الله، وهذا مثل قوله ﷺ: **«رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على اللهِ لأبرَّه»**(١)، إنسان عليه ثوب خَلِقٌ، ولا يُعرف ومع هذا لو أقسم على الله لأجابه.



(١) رواه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بابٌ

مَنْ أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَّ اللّهُ أو تحليلِ ما حرَّم اللّهُ فقد اتَّخذهم أرباباً من دون اللّه

وقال ابن عبَّاس: «يوشكُ أن تنزلَ عليكم حجارةٌ من السَّماء، أقول: قالَ رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!».

وقال الإمام أحمد: «عجبتُ لقومٍ عرفوا الإسناد وصحَّته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟! الفتنة: الشِّركُ؛ لعلَّهُ إذا ردَّ بعض قوله أن يقعَ في قلبِهِ شيءٌ من الزَّيغِ فيهلك».

عن عديٍّ بن حاتم: أنَّهُ سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١]، فقلت له: إنَّا لسنا نعبدهم.

قال: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟!**».

فقلت: بلى.

قال: «**فتلك: عبادتُهُم**» رواه أحمدُ والتِّرمذيُّ وحسَّنه.

بابٌ
مَنْ أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَّ اللَّهُ أو تحليلِ ما حرَّمَ اللَّهُ فقد اتَّخذهم أرباباً من دون اللَّه

أراد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه التَّرجمة التَّنبيه على الرُّجوعِ إلى كتابِ اللهِ وإلى سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وألَّا يُقبل قولُ قائلٍ مهما كانت مكانته ومهما كان علمه إلَّا إذا وافق الكتابَ والسُّنَّةَ، وأقوال العلماء في هذا المعنى كثيرة، بل والآيات القرآنيَّة تدلُّ على هذا، قال ـ تعالى ـ في وجوب الرَّدِّ إلى الكتابِ والسُّنَّة وأنَّ من قَبِلَ قول أيِّ شخص لم يدلَّ عليه كتابٌ ولا سُنَّةٌ فإنَّهُ متَّبعٌ لهواه، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، فقسَّم الأمر في هذه الآية إلى قسمين لا ثالث لهما: إمَّا الاستجابة لرسول الله ﷺ، وإمَّا اتِّباع الهوى، والاستجابة للرَّسول ﷺ تتضمَّن الاستجابة للقرآن؛ لأنَّ الرَّسول أُمِرَ باتِّباع القرآن، قال الله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وكان سلفنا الصَّالح إذا سُئلوا جعلوا يتدافعون الفتوى حتَّى ترجع إلى الأوَّل، كُلُّ ذلك توقِّياً من الفتوى؛ لعظم شأنها؛ خشية أن يزلَّ ويغلط فيكون مخالفاً لما دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ، فاتِّباع قول فلان وفلان مع مخالفتهما للقرآنِ والسُّنَّة هو ضلالٌ بعيدٌ، واتِّباعٌ للهوى، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، فسمَّاه شركاً.

۞ وقال ابن عبَّاس: «يوشِكُ أن تنزلَ عليكم حجارةٌ من السَّماء، أقول: قالَ رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»[١].

كان ابن عبَّاس يرى أنَّ متعةَ الحجِّ واجبةٌ، وآخرون يرون أنَّها غير جائزة، وكان يستدلُّ على هذا الرَّأي بالأحاديث الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ حين قدم مكَّة حاجًّاً ومعه أصحابه؛ فإنَّهُ أمر كُلَّ من لم يسق الهديَ أن يتحلَّل بعمرةٍ، فكأنَّهم تأخَّروا، فقال ﷺ: **«لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهديَ، ولأحللت معكم»**[٢]، فحلُّوا، وقالوا: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟

قال: **«بل لأبدِ الأبدِ»**[٣].

وكان أبو بكر وعمر يريان الإفراد؛ لأجل أن ينشئَ سفراً للعمرة وسفراً آخر للحجِّ، فلا يجمع بين نسكين في سفر واحد، فقال ابن عبَّاس: (**يوشِكُ أن تنزلَ عليكم حجارة من السَّماء، أقول: قال رسول الله وتقولون قال: أبو بكر وعمر؟!**).

وقد اختلف العلماء في متعة الحجِّ، فالحنابلةُ يرون أنَّ التمتُّع هو الأفضل[٤]، وابن القيِّم قرَّر في (الهدي) أنَّهُ لا بُدَّ أن يتحلَّل بعمرةٍ، وقال: «أنا إلى قول ابن عبَّاس ـ وهو الوجوب ـ أميل منِّي إلى قول شيخنا ـ يعني:

---

(١) رواهُ بمعناه الإمامُ أحمدُ (٥/ ٢٢٨) (٣١٢١)، والبزَّارُ (٥٠٥٢)، وابنُ حزم في حجَّة الوداع (ص٥٦٤) (٣٩١)، وابنُ عبد البرِّ في جامع بيان العلم (٢/ ١٢١٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٣٧٦)، واشتهر باللَّفظ الذي ذكره المصنِّف عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة وابن القيِّم رحمهما الله.

(٢) رواهُ البخاريُّ (١٧٨٥ ـ ٧٢٢٩)، ومسلمٌ (١٢١١ ـ ١٢١٦) من حديث جابر بن عبد الله وعائشة رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) الإقناع (١/ ٥٦٠)، شرح المنتهى (٢/ ٤٤٦).

ابن تيميَّة ـ»[١]؛ لأنَّ ابن تيميَّة يرى أنَّهُ للاستحباب[٢].

فلا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ، وأمَّا هذه الكتب المؤلَّفة لا نقول لا ينبغي أن تقرأها، لا بأس بقراءتها وحفظها؛ لأنَّها تدلُّك على أحكام المسائل الواقعيَّة، وتدلُّك على استنباط المسائل من الأحاديث، وتدلُّك على قوَّة الفهم، بحيث تستطيع استخراج المسائل والقواعد من الأحاديث، لكن لا يجوز لك أن تجعلها بمنزلة القرآنِ والسُّنَّةِ، وأنَّ ما قالوه يجب اتِّباعه، حتَّى نفس المؤلِّفين لم يريدوا هذا، وإنَّما أرادوا تقريب المسائل، أو تقرير قواعد مذهبهم؛ كما وقع لشارح «الإقناع» وصاحب «الرَّوض المربع» الشَّيخ منصور البهوتي؛ فإنَّهُ قدم إلى مكَّة حاجَّاً وقد فرغ من شرح «الإقناع» و«المنتهى»، فتقدَّم سائلٌ سأل مفتي المالكيَّة بمكَّة فكتب له جواباً، ثُمَّ عرض سؤاله على مفتي الحنفيَّة فكتب جواباً، ثُمَّ عرض سؤاله على مفتي الشَّافعيَّة فكتب جواباً، ثُمَّ عرض سؤاله على الشَّيخ منصور وكان حاجَّاً فكتب جواباً، ثُمَّ عرض ذلك على مفتي الحنابلة بمكَّة فكتب جواباً، وقال ما معناه: «ما أفتى به الشَّيخ منصور بن يونس البهوتي خالف فيه ما قرَّره في «كشَّاف القناع» و«شرح المنتهى»، وخالف فيه مذهبه»، ثُمَّ أعاد السَّائل ذلك إلى الشَّيخ منصور، فلمَّا رأى اعتراض شيخ الحنابلة عليه كتب عبارة ـ في الحقيقة هي لا تليق، لكن هذه عبارته ـ قال: «بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، ألا قُل لثور المدار: أنِّي إذا صنَّفتُ مشيتُ على قواعد مذهبي، وإذا أفتيتُ ذكرتُ الوقوف بين يدي ربي»؛ أي: أنَّ تأليفَهُ ما هو إلَّا على قواعد المذهب، وأصول المذهب.

وأسباب خلاف العلماء معروفة، والعلماء مختلفون في مسائل كثيرة، بل مسائل الإجماع قليلة جدَّاً، ولكن كُلُّهم مجتهدون، إمَّا مصيبون فلهم أجران، وإمَّا مخطئون فلهم أجرٌ واحدٌ على اجتهادهم.

ومن أسباب الخلاف: أنَّ المخالف لم يبلغه الحديث، أو بلغه لكن يرى أنَّهُ غير صحيح، أو يراه صحيحاً ولكن يرى أنَّهُ منسوخٌ، أو يرى أنَّ الحديث

(١) زاد المعاد (٢/ ١٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٣٣ ـ ٤٩).

لا يدلُّ على هذه المسألة ـ وهذا أكثر أسباب الخلاف وقوعاً بين العلماء ـ، فهؤلاء يستدلُّون بالحديث بناءً على أنَّ فيه دلالة على هذه المسألة، والآخرون يقولون: لا دلالة فيه على هذه المسألة، فكُلُّهم مجتهدون، وقد اختلفوا في زمن الرَّسول ﷺ ولم ينكر على أحدٍ منهم؛ فإنَّهُ قال بعد الفراغ من غزوة الخندق: «**لا يصلِّينَّ أحدكم العصرَ إلَّا في بني قريظة**»[(١)]، فبعض الصَّحابة أخذ بظاهر اللَّفظ، فذهب إلى بني قريظة ولم يصلِّ إلَّا في آخر الوقت، والآخرون قالوا: لم يرد الرَّسول ﷺ هذا، وإنَّما أراد الحثَّ على المبادرة إلى الخروج، ولم يُرِدْ إيقاعَ الصَّلاة في بني قريظة، فصلَّوا في الطريق، ثُمَّ أخبروا النَّبيَّ ﷺ بذلك فلم يعنِّف على أحد منهم، فهؤلاء أخذوا بظاهر اللَّفظ، والآخرون أخذوا بالمعنى والقصد.

وكذلك كما في حديث أبي سعيد ﷺ قال: خرج رجلان في سفر فلم يجدا ماء فتيمَّما فصلَّيا ثُمَّ وجدا الماء فأعاد أحدُهُما الصَّلاةَ والوضوءَ ولم يعِد الآخر، فأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال للذي لم يعد: «**أصبتَ السُّنَّةَ**»، وقال للذي أعاد: «**لك الأجر مرَّتين**»[(٢)].

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٩٤٦)، ومسلمٌ (١٧٧٠) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) رواهُ الدَّارميُّ (٧٧١)، وأبو داود (٣٣٨)، والنسائيُّ (٤٣٣)، والدَّارقطنيُّ (٧٢٧)، والحاكمُ (١/ ٣٨٦) ـ ومن طريقه البيهقيُّ (١/ ٣٥٣) ـ من حديث عبد الله بن نافع، عن اللَّيث بن سعد، عن بكر بن سوادة، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، به مرفوعاً.

اختُلف فيه على اللَّيث، فرواه **ابن المبارك** ـ كما عند النَّسائيِّ (٤٣٤)، والدَّارقطنيِّ (٧٢٨) ـ، **ويحيى بن بكير** ـ كما عند الحاكم (١/ ٢٨٦)، والبيهقيِّ (١/ ٣٥٣) ـ عن اللَّيث، عن عميرة بن أبي ناجية، عن بكر بن سوادة، عن عطاء بن يسار، عن النبيِّ ﷺ مرسلاً.

وهما أثبتُ من ابن نافع وأوثق؛ فانكشفت بذلك علَّتان للخبر: الانقطاعُ، والإرسالُ، إلَّا أنَّ رواية الدَّارقطني ليس فيها ذكرُ عميرة، والحديث قد أعلَّهُ أبو داود بعد إخراجه، فقال: «غير ابن نافع يرويه عن اللَّيث، عن عميرة بن أبي ناجية، عن بكر بن سوادة، عن عطاء بن يسار، عن النبيِّ ﷺ، وذكرُ أبي سعيد ليس بمحفوظٍ، وهو مرسلٌ»، وكذلك أعلَّهُ الدَّارقطنيُّ، والبيهقيُّ.

فبهذا يتضح أنَّ الاجتهاد في المسائل الفرعيَّة لا حرج فيه، ما دام أنَّ كُلًّا منهم يطلب الحقَّ، وعندما لا يتَّضح لهم في المسألة دليل لا يقيسون، بل يتوقَّفون ويقولون: (الله أعلم)، كما وقع للقاسم بن محمَّد بن أبي بكر ـ ابن أخي عائشة ـ؛ فإنَّهُ كان جالساً في منى، يسأله النَّاس عن مناسك الحجِّ ـ وهو فقيه الحجاز ـ، فتقدَّم إليه رجلٌ فسألَهُ فقال القاسم: «لا أُحسِنُ مسألتك!».

قال السَّائل: أنت القاسم بن محمَّد بن أبي بكر، فقيه الحجاز، الذي يقول الناس فيه: «لم يبق أحد على وجه الأرض أعلم من القاسم بن محمَّد»، وتقول: لا أُحسِنُ مسألتك؟!

فقال القاسم: «يا ابن أخي، أغرَّك طول لحيتي؟! أغرَّك اجتماع النَّاس حولي؟! واللهِ لا أحسنُ مسألتك!»[1].

---

(١) روى مسلم نحوه في المقدِّمة (١/ ١٢).

۞ وقال الإمامُ أحمدُ: «عجبتُ لقومٍ عرفوا الإسنادَ وصحَّتَهُ، يذهبون إلى رأي سفيان، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟! الفتنة: الشِّركُ؛ لعلَّهُ إذا ردَّ بعض قولِهِ أن يقعَ في قلبِهِ شيءٌ من الزَّيغِ فيهلك»(١).

(**عجبت لقومٍ عرفوا الإسنادَ وصِحَّته**)؛ أي: لا عذر لهم، بل عرفوا الحديث وصحَّته ومعَ هذا يذهبون إلى رأي سفيان بن سعيد الثَّوري!

(**أتدري ما الفتنة؟! الفتنة: الشِّرك**): لأنَّهُ إذا أطاع غير الرَّسول ﷺ في الحلال والحرام دون دليل فقد أشرك، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، فدلَّ على أنَّ طاعتَهُم في التَّحليل والتَّحريم دون دليل شركٌ، وكذلك جاء مثل قول الإمام أحمد عن الإمام الشَّافعيِّ حيث قال: «أجمع العلماء على أنَّ من استبانت له سُنَّةُ رسول الله ﷺ لم يكُن له أن يدعها لقول أحدٍ من النَّاس كائناً من كان»(٢).

والإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ يقول: «ما منَّا إلَّا رادٌّ ومردودٌ عليه إلَّا صاحب هذا القبر» ـ يعني رسول الله ﷺ، ويقول: «لن يصلح هذه الأُمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها»(٣)، وهو: الكتابُ والسُّنَّةُ.

والإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ يقول: «إذا صحَّ الحديث فخذوا به واضربوا بقولي عُرضَ الحائطِ، وإذا صحَّ عن الصَّحابة الأثرُ فخذوا به واضربوا بقولي

(١) نقلَهُ ابن تيميَّة من مسائل الفضل بن زياد في الصَّارم المسلول (ص٥٦).
(٢) الأم (١/ ١٧٧).
(٣) ينظر: الشِّفا (ص٥٨٥).

عُرضَ الحائطِ، وإذا كان عن التَّابعين فهم رجاٌل ونحن رجالٌ»[(١)]، هذا قول الأئمَّةِ الأربعةِ، كُلُّهم يأمرون بردِّ أقوالهم وألَّا يُعتمد شيءٌ منها متى ما خالفت القرآنُ والسُّنَّةَ أو خالفت قول الصَّحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّهم رضي الله عنهم أعلم النَّاس بالتَّنزيل، وأعلم النَّاس بأحاديث رسول الله ﷺ، ولما ورد في فضلهم وفضل علمهم.

لكن قد تقول: ما معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] إذا كان (أولوا الأمر) هم: العلماء والأمراء ـ على ما رجَّحه ابن القيِّم[(٢)] ـ؟

نقول: إذا كان العالم يبيِّن مدلول الكتابِ والسُّنَّةِ فتجب طاعته؛ لأنَّ طاعته مبنيَّةٌ على ما دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَّةُ، أمَّا طاعته دون ذلك فلا.

ومعنى قول الإمام أحمد رحمه الله المتقدِّم: أنَّ مَن ردَّ قول الله أو قول الرَّسول ﷺ لقول فلان أو فلان بناء على أنَّ فلاناً أعلم منَّا بالسُّنَّة وأعلم منَّا بكذا وكذا مع وضوح الأدلَّة، فحريٌّ أنَّ الله يزيغُ قلبَهُ، فإذا زاغَ قلبُهُ إذن لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، فأصبح قلبُهُ مثل الكوزِ المكفيِّ، فإنَّك لو كفأتَ الكوز لم يمسك ماء، فكذلك من وقع في قلبه شيءٌ من الزَّيغ، فحينئذٍ يتحقَّقُ الهلاك.

(١) ينظر: المدخل للبيهقي (٤٠).
(٢) ينظر: مفتاح دار السَّعادة (١/ ٣٨٧).

۞ عن عديِّ بن حاتم: أنَّهُ سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١]، فقلت له: إنَّا لسنا نعبدهم.

قال: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟!**».

فقلت: بلى.

قال: «**فتلك: عبادتُهم**» رواه أحمدُ والترمذيُّ وحسَّنَهُ(١).

عديُّ بنُ حاتم كان نصرانيّاً ثُمَّ أسلم رضي الله عنه، ولما سمع هذه الآية ـ عن النَّصارى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١] فَهِمَ أنَّ الأحبارَ ـ وهم: العلماء ـ والرُّهبانَ ـ وهم: العبَّاد ـ ليسوا محلَّ عبادةٍ، فقال: «يا رسول الله، لسنا نعبدهم»؛ يعني: لسنا نسجدُ ولا نتقرَّب إليهم بشيء.

---

(١) رواهُ التِّرمذيُّ (٣٠٩٥)، والطبريُّ (١١/٤١٧)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٨٤)، والطبرانيُّ (٢١٨) ـ ومن طريقه المزيُّ في (تهذيب الكمال ٢٣/١١٨) ـ والبيهقيُّ (١٠/١٩٨) من طريق عبد السَّلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدي، به مرفوعاً.
غطيف ضعَّفه جماعة، وذكره الدَّارقطنيُّ في الضُّعفاء والمتروكين (٤٣١)، والتِّرمذيُّ أعلَّ الخبر فقال: «هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلَّا من حديث عبد السَّلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».
وروي نحوه موقوفاً على حذيفة رواه الإمام أحمد ـ كما في السُّنَّة للخلَّال (١٣٠٦) ـ، وسعيد بن منصور (١٠١٢)، وابن عبد البر في (الجامع ٢/٩١٨)، والبيهقي (١٠/١٩٨)، ولا يصِحُّ؛ فإنَّ راويه عن حذيفة هو: أبو البختري، كثير الإرسال، ولم يسمع من حذيفة، ينظر: جامع التحصيل (ص١٨٣).
وأخرجه ابن أبي شيبة (١٩/٢٩٣) (٣٦٠٨٤) مقطوعاً على أبي البختري.

فقال الرَّسولُ ﷺ: **(أليسوا يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونَهُ؟!)**.

قال: بلى.

قال: (فتلك عبادتهم).

ففسَّر النَّبيُّ ﷺ عبادة الأحبار والرُّهبان بطاعتهم فيما هو مخالفٌ لكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، فإذا قال قائل: «هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ»، دون أن ينبني قوله على دليلٍ فمن اتَّبعه فقد عبدَهُ؛ لأنَّه أطاعه في ذلك دون دليلٍ، والحلال والحرام لا يُعرفان إلَّا من طريقِ القرآنِ والسُّنَّة، ليس لأحد أن يحرِّم شيئاً ولا أن يبيح شيئاً بغير دليلٍ، والله يقول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، فطاعتهم في التَّحليل والتَّحريم عبادة.

فإن قلت: كيف ذلك؟!

نقول: من الذي يحلِّلُ ويحرِّمُ، أليس الله ورسولُه ﷺ؟

تقول: بلى.

نقول: ألم تكن طاعة الله وطاعة رسوله عبادة؟

تقول: بلى.

نقول: إذن متى أطعت هؤلاء الأحبار في تحليل ما حرَّم الله؛ فقد جعلتهم بمنزلة من تجب طاعته، وهو الله ورسوله ﷺ.

والقول على الله بلا علم في الحلال والحرام أو في أسماء الله وصفاته أعظم من الشِّرك؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه المحرَّمات جاءت من باب التَّرقي، بدأ بالفواحش، وهي أسهل من الشِّرك ـ والمحرَّم ليس سهلاً ـ لكن سهولتها بالنِّسبة لما بعدها، ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: هذا أعظمُ وأشدُّ، ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: هذا

أعظم، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: في شرعه ودينه وفي أسمائه وصفاته ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾: دلالتَهُ من القرآن والسُّنَّة.

وقال بعض المفسِّرين في هذه الآية: (﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا﴾): «استنصحوا الرِّجالَ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم»[(١)].

أمَّا ما نقرأه في كتب الأحكام فليس المراد منه أنَّهُ يجبُ اتِّباعه، وأنَّ كل ما في «الرَّوض المربعِ» أو «كشَّاف القناع» أو «المبسوط» أو «شرح الحطَّاب» أو «المجموع» يجب اتِّباعهُ، لا، إنَّما هذا من باب التَّقريب، يبيِّن لك المسألة ويوضِّحها، ثُمَّ يبيِّن استنباطها من القرآنِ أو السُّنَّة، فإن كان لها دليلٌ وليس له معارضٌ فنعم، وإلَّا فكُلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلَّا رسول الله ﷺ.

وأنت إذا اجتهدت وطلبت الدَّليل وبذلت وسعك واستفرغت كُلَّ جهدك فقد أدَّيت الذي عليك، فإن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك أجر واحد، فأنت مثاب على اجتهادك، ولكن ليس كُلُّ أحد يحقُّ له الاجتهاد، فالعاميُّ ليس أهلاً للاجتهاد، وإنَّما الذي يجتهد هو من كان يعرف الأدلَّة ومدلولها، وهل لها ناسخ أو مخصِّص؟ فإن كان يستطيع على ذلك فنعم، أمَّا غيره فلا ينبغي له الاجتهاد، بل عليه أن يسأل من يعتقد أنَّه أعلم وأوثق، هذا الواجب على العاميِّ، فالله يقول: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: ٧]. فإذا جاء شخص لم يتعلَّم وقال: «أنا لا أقبل قول فلان في هذه المسألة، بل أستنبطها من القرآن والسُّنَّة!».

نقول: لستَ بعالمٍ، ولم تعرف القرآنَ ولا السُّنَّةَ، بل ولا تعرف لغة العرب، ولا تدري هل مسألتك تلك تندرج تحت ذلك الحديث أو هذه الآية، وهل لهذا مخصِّصٌ، وهل هو مبهمٌ وله ما يفسِّره؟

العاميُّ فرضه التَّقليد، ولا يجوز له أن يسأل إلَّا من يعرف ثقته وعلمه وأمانته، ومن لا يستهين بالفتوى، أمَّا طالب العلم الذي يستطيع استخراج

---

(١) قالَهُ السُّديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٥).

الدَّليل من الكتابِ والسُّنَّة، فهذا لا يجوز له أن يعتمد على كتابٍ دون دليلٍ، لا مانع أن يقرأ الكتب وينظر ما قرَّره أهل العلم، لكنَّهُ مع هذا لا بُدَّ أن يطلب الأدلَّة من مظانِّها.



بابُ

قولِ اللَّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١]

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمنُ أحدكم حتَّى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به**».

قال النَّوويُّ: «حديثٌ صحيحٌ، رُوِّيناهُ في كتاب «الحجَّة» بإسنادٍ صحيحٍ».

وقال الشَّعبيُّ: «كان بين رجلٍ من المنافقين ورجلٍ من اليهود خصومةٌ؛ فقال اليهوديُّ: نتحاكم إلى محمَّد ـ لأنَّهُ عرف أنَّهُ لا يأخذ الرِّشوةَ ـ، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود ـ لعلمه أنَّهم يأخذون الرِّشوةَ ـ، فاتَّفقا أن يأتيا كاهناً

في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠]».

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدُهُما: نترافع إلى النَّبيِّ ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثُمَّ ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدُهُما القِصَّةَ.

فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: «أكذلك؟!».

قال: نعم.

فضربَهُ بالسَّيفِ فقتلَهُ.



بابُ
قولِ اللّه تعالى:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

عقد المصنِّف هذه التَّرجمة بياناً لوجوب التَّحاكم إلى كتاب الله وإلى سُنَّة رسوله ﷺ، وهذا هو معنى شهادة: «أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله»، فمتى تحاكم النَّاس إلى غير كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ فقد اتَّخذوا ما تحاكموا إليه إلهاً، ولهذا قالوا: الطَّواغيت خمسة ـ ومنهم ـ: من حكم بغير ما أنزل الله؛ فإنَّ من حكم بغير ما أنزل الله لا شكَّ أنَّهُ طاغوتٌ، وليس المتحاكمون إليه ممَّن آمن بما أنزل الله على رسوله ﷺ، وإن زعموا ذلك فهذا الزَّعم ليس بصحيح، قالوا: «آمنا بالله وبما أنزل الله على رسوله» بألسنتهم، وخالفوا في أفعالهم حيث تحاكموا إلى القوانين الوضعيَّة، وهي ما صنعه الرِّجال، يأتون بقوانين ويكتبونها ويضعونها موادَّ ويقولون: «من فعل كذا فعقوبته كذا، ومن فعل كذا فله كذا، المادَّة الأولى كذا، المادَّة الثَّانية كذا»، وهذا القانون لم يتأيَّد لا بالقرآنِ ولا بالسُّنَّة، بل هو فلسفة آراء الرِّجال، من زُبالة أذهانِهم، ونحاتةِ أفكارهم، وهذا ليس بشيء.

والتَّحاكم إلى القانون الوضعيِّ هو تحاكم إلى الطَّواغيت، وهو داخلٌ في الفساد المنهيِّ عنه في قوله ـ سبحانه وبحمده ـ: (﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾)؛ لأنَّ إصلاح الأرض بطاعة الله، ومن طاعة الله التَّحاكم إلى الكتاب وإلى سُنَّة رسوله ﷺ، فمتى عدلوا عن ذلك صاروا مفسدين في الأرض.

(﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾): ناقضوا هذا الزَّعم وأبطلوه بأفعالهم حيث

تحاكموا إلى الطَّاغوت، كيف يدَّعون أنَّهم آمنوا بما أنزلَ اللهُ ومع هذا يتحاكمون إلى الطَّواغيت؟! فالقول باللِّسان مع مخالفة الفعلِ ما هو إلَّا نفاقٌ.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾: فهم مأمورون بأن يكفروا بالطَّواغيت، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، من آمن بالطَّاغوت لا يمكن أن يكون مستمسكاً بالعروة الوثقى، والواو في قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟﴾ للحال؛ يعني: والحالُ أنَّهم مأمورون بالكفر بالطَّاغوت.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾: في الآية **أربعة أمور**:

أوَّلاً: أنَّ التَّحاكم إلى القوانين الوضعيَّة أمرٌ يريدُهُ الشَّيطان، والشَّيطانُ لا يريد لك إلَّا الشَّرَّ.

ثانياً: أنَّ هذا التَّحاكم إلى الطَّواغيت ضلالٌ.

ثالثاً: أكَّدَهُ بالمصدر بقولِهِ: ﴿ضَلَٰلًۢا﴾ ممَّا يدلُّ على شِدَّةِ ذلك الضَّلال.

رابعاً: أكَّد المصدر وهو الضَّلال بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ بعيداً عن الحقِّ، وبعيداً عن الله، وبعيداً عن طاعة رسول الله ﷺ.

فالآية تدلُّ على أنَّ النَّاس وإن زعموا أنَّهم مؤمنون بالقرآن والسُّنَّة فإنَّا نزنهم بأفعالهم، فإذا قالوا: «نحن مؤمنون بالكتاب والسُّنَّة»، نقول لهم: «لا بأس، هذا قولٌ طيِّبٌ ولكن نزنه بالفعل»، هل الفعل مطابق للقول؟!

فلمَّا وزنَّا أفعالهم بما يقولون وجدناهم كاذبين، إذ لو كانوا صادقين لتحاكموا للكتابِ والسُّنَّة.

وكذلك قوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]: نزلت الآية ـ على قول بعض المفسِّرين ـ في قضيَّة الزُّبير بن العوَّام، مع رجل من الأنصار ـ قيل: إنَّهُ حاطبُ بن أبي بلتعة[1]، والقصَّة هي: أنَّ الزُّبير اختصم مع حاطب في مجرى السَّيل، فقال

---

(١) الحديث رواهُ البخاري (٢٣٥٩)، ومسلمٌ (٢٣٥٧) من حديث عبد الله بن الزُّبير ﵄، وينظر: تفسير الطَّبري (٧/ ٢٠١)، تنبيه المعلم لسبط ابن العجمي (ص٤٠٠).

النَّبيُّ ﷺ: «**اسقِ يا زُبير ثُمَّ أرسله إلى جارك**»، فقال لَهُ الأنصاريُّ: أن كان ابن عمَّتك يا رسول الله؟!

فـأنـزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥].

وفي هذه القصَّة: التَّسليةُ للقضاةِ، فعليهم أن يحكموا بما يظهر لهم من الحقِّ، وعليهم أن يطلبوا الحقَّ، وأن يبتعدوا عن الهوى والحكم النَّاشئ عن جهل، بل يجتهد ويتطلَّب الحقَّ من مظانِّه ثُمَّ يحكم، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ مع اجتهاده وتطلُّبه للحقِّ فلهُ أجرٌ، وخطؤه مغفورٌ له.

فكُلُّ ما وقع فيه الخلاف بين النَّاس وصارت فيه خصومة وتنازعٌ عليهم أن يرجعوا إلى تحكيم رسول الله ﷺ في حياته وسُنَّته بعد وفاته، ومتى تحاكموا إلى القوانين الوضعيَّة التي وضعوها لأنفسهم فقد نفى القرآن عنهم الإيمان؛ لتحاكمهم إلى غير القرآنِ والسُّنَّةِ، فيكون القاطع للنِّزاع هو التَّحاكم إلى الرَّسول ﷺ في حياته، وإلى سُنَّتِهِ بعد وفاتِهِ.

﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾؛ أي: يذعنوا إذعاناً وينقادوا انقياداً، فلا يكفي مجرَّد التَّحاكم، بل هناك أمرٌ آخر: وهو ألَّا يجد المتحاكم في نفسه حرجاً من الذي حكم به الرَّسول ﷺ، فإذا تحاكموا ووجدوا في أنفسهم حزازة فالإيمان منتف عنهم، بل لا بُدَّ أن لا يكون في صدر الإنسان أيُّ حزازةٍ وأيُّ حرجٍ من حكم الشَّرع، عليه أن يذعن وينقاد ويسلِّم تسليماً.

قـال ـ تـعـالـى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] المعنى: أنَّ هذه الأُمَّة أُمرت بالتَّحاكم إلى كتاب الله وإلى سُنَّة رسولِهِ ﷺ، وهذا أيسر وأسهل ممَّا أُمرت به بنو إسرائيل، فلو أنَّ هذه الأمَّة أُمرت بمثل ما أُمرت به بنو إسرائيل لم يمتثل منهم إلَّا القليل؛ فإنَّ بني إسرائيل لمَّا أمرهم الله بالتَّوبة لم يقبل منهم إلَّا أن يقتل بعضهم بعضاً، حتَّى قُتلَ نحو سبعين ألفاً هذه توبتهم!، أمَّا نحن فلم يكلِّفنا الرَّبُّ بهذا.

ثُمَّ قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من التَّحاكم للقرآن والسُّنَّة، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، فالتَّحاكم إلى الكتابِ والسُّنَّةِ عند موارد النِّزاع مع الإذعان والقبول والانقياد وسلامة الصَّدر وانشراح القلب لحكم الله ورسوله ﷺ يزيدك خيراً إلى خير، ويزيدك تثبيتاً، لئلَّا تكون مائلاً فتنحرف يميناً وشمالاً، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

۞ وقـولـه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١].

معنى الآية: أنَّ الله ـ سبحانه ـ ينهى عباده عن الفساد في الأرض ـ وإن زعموا أنَّهم مصلحون ـ، فالفسادُ والصَّلاح لا يرجع إلى رأي فلان أو رأي الرَّئيس الفلاني، يقول: «أنا أريد الإصلاح»، كم من مريدٍ للإصلاح ـ على حدِّ زعمه ـ والواقع أنَّهُ يُفسدُ؟!

ولكن الميزان في معرفة الفساد والصَّلاح هو القرآنُ والسُّنَّةُ، فما دلَّ على طاعة الله ورسوله ﷺ فهو الصَّلاح، وما خالفهما فهو الفساد.

فمن الفسادِ في الأرضِ: معصيةُ اللهِ؛ فإنَّ معصية الله بارتكاب نواهيه وترك أوامره فسادٌ كبيرٌ.

فمثلاً: لو أنَّ شخصاً يريد أن يُبيح الرِّبا!، **وقال**: هذا من المصلحة التي تجلب تنمية المال وكثرته حتَّى أنَّ النَّاس يترفَّهون، والله لم يحرِّم الكسب، بل كُلُّ ما من شأنه أن ينمِّي المال ويقيم المصالح فهو أمرٌ مطلوبٌ شرعاً؛ لأنَّهُ من المصلحة.

نقول له: بل هذا من الفساد في الأرض، فما دام أنَّ الشَّريعة نهت عن الرِّبا ـ وإن زعمتَ أنَّهُ مصلحةٌ ـ فهو في الحقيقة مفسدةٌ، والعبرة بالحقائق لا بالأسماء، فما من صلاح في الأرض ولا في السَّماء إلَّا وسببه طاعة الله، وما من فساد فيهما إلَّا وسببه مخالفة أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، فالأرض لا تصلح ولا يستقيم أهلها ولا تنتظم أحوالهم ولا يصلح مجتمعهم إلَّا بتحكيم القرآنِ والسُّنَّة أمراً ونهياً واعتقاداً في المجتمع وفي الأفراد، هذا هو الصَّلاحُ الحقيقيُّ، وما عدا ذلك فهو فسادٌ، والفسادُ يختلف باختلاف الشيء الذي ارتكبه العبد، تارة يكون فساداً كليّاً وتارة جزئيّاً.

۞ وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٥٦].

(﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾) كانت الأرض فاسدة قبل مبعث النبيِّ ﷺ، كما في الحديث: «**إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتَهُم عرَبَهُم وعجمَهُم إلَّا بقايا من أهل الكتاب**»[1]، ولكن الله أصلحها ببعثة محمَّد ﷺ، دعا النَّاس إلى التَّوحيد، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيَّن لهم الصِّراط المستقيم، فأصبح الإسلام منتشراً في كُلِّ مكان، هذا هو صلاح الأرض: (﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾)، ومن إفساد الأرض بعد إصلاحها: التَّحاكمُ إلى القوانين.

وقيل: المعنى: لا تفسدوا في الأرض بمعصية الله بعد إصلاحها بطاعة الله.

(١) رواهُ مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

۞ وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ إضافة الحكم إلى الجاهليَّة إضافةُ عيبٍ وذمٍّ؛ كالقوانين الوضعيَّة التي تُجمعُ من آراء الرِّجالِ، ونحاتة الأفكارِ، وزبالة الأذهانِ، يُعارضون بها حكم الله ورسوله ﷺ، ويقولون: هذا أصلح للنَّاس، وهذا أضبط لحقوقهم وأنفع!

نقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾؛ أي: لا أحسن حكماً من حكم الله، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾؛ أي: يؤمنون حقيقة بما جاء به الرَّسول ﷺ من القرآنِ والسُّنَّةِ، فحكم الجاهليَّة هو من الفساد في الأرض، وذلك كما قال ابن كثيرٍ[1] في نظام جنكيز خان والي التَّتار؛ فإنَّهُ جمع نظاماً من الإسلام وغيره وشيئاً من آرائه، فدوَّنه فجعلت ذريَّتُهُ يتداولون الحكم به، ويقدِّمونه على حكم الله ورسوله ﷺ.

ومثله ـ أيضاً ـ: ما يُسمَّى بالنُّظم، العبرة بالحقيقة، لا تظنَّ أنَّ الممنوعَ هو ما يُسمَّى بـ(القوانين الوضعيَّة) فقط، بل رُبَّما يُسمُّونها (نظاماً)؛ كـ(نظام العمل والعمَّال)، وغيره، فانظر في النِّظام، إن كان نظاماً إداريَّاً فلا حرجَ ولا مشاحَّةَ، يُنظِّم العمل، دواماً، ووقتاً، ورئيساً ومرؤوساً، وكلُّ إنسان يسند إليه عملٌ يخصُّهُ، هذا لا مانع منه.

أمَّا إن كان قد دخل في أحكام الله وشرعه، فهو ممنوعٌ، وهو حكم الجاهليَّة، سواء بسواء، والتَّحاكم إليه من التَّحاكم إلى الطَّواغيت الذي تقدَّم معناه في آية النِّساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ الآية [النساء: ٦٠].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣١).

۞ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»**.
قال النَّوويُّ: «حديثٌ صحيحٌ، رُوِّيناهُ في كتاب «الحجَّة» بإسنادٍ صحيحٍ»(١).

(لا يؤمن أحدكم): هنا قاعدة ينبغي أن نتنبَّه لها، وهي: أنَّ كثيراً من الأحاديث تأتي بهذا اللَّفظ: «لا يؤمن أحدكم..» وما في معناه، فهل هذا نفيٌ للإيمان بالكليَّة بحيث من انطبق عليه يكون غير مؤمن؟

النَّوويُّ رحمه الله وأمثاله يقولون: هذا نفيٌ لكمال الإيمان، نفيٌ للقدر المستحبِّ، وإلَّا فالإيمان الواجب لا يزال معه.

وشيخ الإسلام ابن تيميَّة قال: «القاعدة: أنَّ الله ورسوله ﷺ لا ينفيان عن المسمَّى الاسم الشَّرعيَّ إلَّا لترك بعض واجباته»(٢)، فيكون هذا ليس نفياً لكمال الإيمان، ولا للإيمان كلِّه، وإنَّما نفيٌ للقدر الواجب.

---

(١) رواهُ ابن أبي عاصم (١٥)، والبيهقيُّ في (المدخل ٢٠٩)، وابن بطَّة (٢٧٩)، والبغويُّ في (شرح السُّنَّة ١/ ٢١٢) من حديث نعيم بن حمَّاد ـ تفرَّد به ـ، عن عبد الوهَّاب الثَّقفي، عن هشام بن حسَّان، عن محمَّد بن سيرين، عن عقبة بن أوس، عن ابن عمرو، به مرفوعاً.
نعيمٌ إمامٌ في السُّنَّةِ منكرُ الحديثِ، وفي إسنادِهِ اضطِّرابٌ، وقد أعلَّهُ البيهقيُّ، وقال الحافظ ابن رجب (جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٣): «تصحيحُ هذا الحديث بعيدٌ جدًّا».
ثُمَّ إنَّ عقبة بن أوس قيل أنَّهُ لم يسمع من ابن عمرو، ينظر: جامع التحصيل (ص٢٣٩).
قال العلَّامة سليمان بن عبد الله (التَّيسير ٢/ ١١٢١): «ومعناه صحيحٌ قطعاً وإن لم يصِحَّ إسنادُهُ، وأصلُهُ في القرآن كثيرٌ...».
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤ ـ ١٨/ ٢٦٨).

(حتَّى يكون هواه): (الهوى): هو ما يُحبُّه الإنسان ويميل إليه، حقّاً كان أو باطلاً، فالحديث نفى الإيمان عن الذي يكون هواه يخالف ما جاء به الرَّسول ﷺ، إذا كان عندك شيءٌ من الميل إلى ما يسخطُ اللهَ وإن كنت تعتقدُ تحريمَهُ فقد نقص إيمانك؛ وما نشأت المعاصي والبدع إلَّا من الهوى[1]، ومن أمثلة ذلك: التَّلفظ بالنِّيَّةِ: «نويت أن أصلِّي لله!»، يرى من يرى هذا الرَّأي أنَّهُ دينٌ، وأنَّهُ خيرٌ.

قل له: هذه بدعة.

يقول: لا، هذا خير.

فقل له: الرَّسول ﷺ يقول: **(لا يؤمن أحدكم حتَّى يكون هواه تبعاً لما جئت به)**، فبالله عليك أعطني ما جاء عن الرَّسول ﷺ في هذه المسألة حتَّى أتَّبعه، فلا يستطيع أبداً أن يعطيك حرفاً يدلُّ على مشروعيَّة ذلك عن الرَّسول ﷺ، ولا عن أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ، ولا عن أحد من التَّابعين ﷺ، إنَّما يعطيك أقيسة وتعليلات، لا أقلَّ ولا أكثر، فمن ثَمَّ صارَ متَّبعاً لهواه في هذه المسألة؛ حيث لم يستند في ذلك على نصٍّ من كتابِ اللهِ، ولا سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم (ص٧٢٧).

۞ وقال الشَّعبيُّ: «كان بين رجلٍ من المنافقين ورجلٍ من اليهود خصومةٌ؛ فقال اليهوديُّ: نتحاكم إلى محمَّد ـ لأنَّهُ عرف أنَّهُ لا يأخذ الرِّشوة ـ، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود ـ لعلمه أنَّهم يأخذون الرِّشوة ـ، فاتَّفقا أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠]»[(١)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدُهُما: نترافع إلى النَّبيِّ ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثُمَّ ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدُهُما القِصَّةَ.

فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: «أكذلك؟!».

قال: نعم.

فضربَهُ بالسَّيفِ فقتلَهُ[(٢)].

الشَّعبي: هو عامرُ بن شراحيل الهمدانيُّ، من حُفَّاظ هذه الأُمَّة وفضلائها، وكان يقول: «ما كتبتُ سوداء في بيضاء»[(٣)]، من شدَّة حفظه لا يحتاج إلى كتابة.

ومن كلماته المأثورة عنه قوله: «**يعود العلمُ جهلاً، والجهلُ علماً**»، نقله عنه العلَّامة ابن القيِّم[(٤)]، والواقع يشهد لهذا.

«**يعود العلم جهلاً**»: العلم الحقيقيُّ الذي يُورِثُ الخشية من الله يعود في آخر الزَّمان جهلاً، يجهله النَّاس ويتضاءل ويذهب.

(١) أخرجَهُ ابن جرير (٧/ ١٨٩)، وابن المنذر (٢/ ٧٦٩)، ورجالُهُ ثقاتٌ إلَّا أنَّهُ مرسلٌ.

(٢) رواهُ ابنُ وهب (١٦٠)، وابن أبي حاتم كما في (تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥١) من حديث ابن لهيعة، عن أبي الأسود، وهو ضعيفٌ مرسلٌ.
وعلَّقه الثَّعلبيُّ (٣/ ٣٣٧)، والواحديُّ (ص١٠٧)، والبغويُّ (١/ ٤٤٦) عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، به، وإسنادُهُ ضعيفٌ جدًّا.

(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٩). (٤) إعلام الموقعين (١/ ١٩٥).

«ويعودُ الجهل علماً»: الكتابة والقلم والإنشاء يعودُ هو العلم يتعلَّمه النَّاس، شقشقةُ الكلام، وإطلاق اللِّسان، وسبك الكلمات إلَّا أنَّها جوفاء!، تقرأ صفحات كثيرة لا تخرج منها بفائدة، فهم يتعلَّمون الإنشاء وسبك الكلام لكن لا معنى ولا روح فيها، ولا تمتُّ إلى العلم الدِّينيِّ بل ولا إلى العلوم الدنيويَّة بصلة.

(كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومةٌ، فقال اليهوديُّ: نتحاكم إلى محمَّد): لأنَّ الرَّسول ﷺ لا يأخذ الرِّشوة، وقد استقرَّ في قلوب اليهود أنَّ محمَّداً نبيٌّ، وأنَّهُ لا يحكم إلَّا بالحقِّ، لكنَّهم جحدوا عناداً وتكبُّراً، وحسداً وبغياً.

أمَّا المنافق الذي يُظهر الحقَّ والإيمان ويبطن الكفر فلم يرض بحكم رسول الله ﷺ.

و**(الرِّشوةُ)**: مبلغٌ يدفعه أحد الخصمين للحاكم ليجور في الحكم لصالحه.

وقد لعن رسول الله ﷺ الرَّاشي والمرتشي[(١)]، فمتى دفع أحد الخصمين للقاضي أو لمن بيده حلٌّ وعقد شيئاً من المال لأجل أن يميل معه، وأن ينصر باطله، فهو ملعون على لسان رسول الله ﷺ، فالمنافق لم يقبل بحكم رسول الله ﷺ؛ لعلمه أنَّهُ مُبطِلٌ ظالمٌ لليهوديِّ، فطلب التَّحاكم إلى كعب بن الأشرف، وكعب بن الأشرف هذا من علماء اليهود ورؤسائهم، وأصلُهُ عربيٌّ، ولكن أُمَّهُ يهوديَّةٌ، وقد تهوَّد واختار الدِّين اليهوديَّ، وعنده علمٌ من الكتاب، وهو شاعر مُجيدٌ، آذى النَّبيَّ ﷺ في أشعاره، وفضَّل طريقة قريش على طريقة النبيِّ ﷺ هو وحييُّ بن أخطب، فهذان العالمان الجاحدان الكاذبان فضَّلا ما كانت عليه قريشٌ من عبادة الأوثان على ما عليه الرَّسول ﷺ، واليهوديُّ امتنع من التَّحاكم إلى كعب وطلب التَّحاكم إلى الرسول ﷺ، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ

---

(١) سبق تخريجه.

إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١].

نأخذ من هذا: أنَّ الذين يتحاكمون إلى النُّظم والقوانين كالقانون الفرنسيِّ أو المصريِّ أو اللُّبنانيِّ وما أشبه ذلك بدلاً من الكتابِ والسُّنَّة لا شكَّ أنَّهم أخبثُ وأشرُّ ممَّن سبقهم، يقول: «النِّظام لا يقضي أنَّا نرفع الأمر إلى الشَّرع»، أو: «النِّظام يقتضي أنَّك تُسلِّم غرامة»، هل النِّظام مُستمدٌّ من الكتابِ والسُّنَّةِ؟!

إن كان كذلك فعلى الرَّأس والعين، أم هو من كناسةِ الآراءِ، وزبالةِ الأذهانِ، ونحاتة الأفكار؟! فلا خير فيه.

وقد قال ابنُ القيِّم في «البدائع»[1]: «حذارِ حذارِ من **أمرين لهما عواقب سوء**:

أحدُهما: ردُّ الحقِّ لمخالفته هواك، اقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والأمر الثَّاني: التَّهاون بالأمر إذا حضرَ وقتُهُ، وتذكَّر قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨٣]، عاقبهم الله بأن قلَّب قلوبهم، ولم يقبل أن يقاتلوا مع الرَّسول ﷺ حينما استأذنوا أوَّلاً دون عذرٍ».

فأنت إذا رددت الحقَّ ولم تقبل ما جاء به النَّبيُّ ﷺ فحريٌّ ألَّا يتيسَّر لك قبول الحقِّ بعد هذا، وأن يُقال لك: «لم تقبل الحقَّ أوَّل مرَّة فاقعد مع القاعدين».

(١) (٣/ ١٨٠).

(وقيل: نزلت في رجلين اختصما فقال أحدُهما: «نتحاكم إلى رسول الله»، وقال الآخر: «إلى كعب بن الأشرف»، ثُمَّ اتَّفقا أن يتحاكما إلى عمر): لمَّا استثبت عمر عن هذا الذي لا يريد حكم الرَّسول ﷺ، وأنَّهُ يفضِّل حكم كعب، قال: مكانكُمَا حتَّى أرجع إليكما، فجاء بالسَّيف فقتله.

فاستعظم النَّبيُّ ﷺ ذلك، ولكنَّ الله أنزل عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٦] إلى آخر الآية[1].

والرَّسول ﷺ لو رُفع إليه الأمر لم يقتله؛ خشية أن يَتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه، وبهذا نعرف أنَّ كُلَّ من دعا إلى غير الكتابِ والسُّنَّةِ، أو رضي بذلك؛ فإنَّهُ منافقٌ، وينبغي أن يكون هذا مصيرَهُ إن أمكنَ؛ فإنَّ الله يقول: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ـ يعني: في أحكامهما ـ ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٢].



(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).

بابُ
مَن جحد شيئاً من الأسماء والصِّفات

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

وفي «صحيح البخاريِّ» قال عليٌّ: «حدِّثوا النَّاس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُهُ؟!».

وروى عبد الرزَّاق، عن معمرٍ، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس: أنَّهُ رأى رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ في الصِّفات، استنكاراً لذلك ـ فقالَ: «ما فَرَقُ هؤلاء؟! يجدون رقَّة عند محكمِهِ، ويهلكونَ عند متشابهِهِ» انتهى.

ولما سمعت قريشٌ رسولَ اللهِ ﷺ يذكرُ: «**الرَّحمٰن**» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].



باب
مَن جحد شيئاً من الأسماء والصِّفات

توحيد الأسماء والصِّفات أمرٌ دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ، وأجمع عليه سلف الأُمَّةِ، وهذا الكتاب اشتمل على أقسام التَّوحيد الثَّلاثة، فذكر المصنِّفُ فيه: بيان التَّوحيد وما ينافيه من الشِّرك الأكبر، وما ينافي كماله من الشِّرك الأصغر، وبيَّن فيه البدع القادحة في التَّوحيد، وبيَّن الذَّرائع إلى الشِّرك أو المقرِّبة منه، وبيَّن فيه المعاصي المنقِّصة لثواب التَّوحيد.

وتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ أقرَّ به المشركونَ، ولم ينكرْهُ أحدٌ إلَّا شُذَّاذٌ من بني آدم، وإلَّا فالنَّاس كُلُّهم معترفون أنَّ الله هو الذي يخلقُ ويرزقُ، ويعِزُّ ويذلُّ، ويخفضُ ويرفعُ، ويصلُ ويقطعُ، ويتصرَّفُ في خلقه بما تقتضيه إرادتُهُ وحكمتُهُ.

وتوحيد العبادة هو الغرض الأساسيُّ الذي لأجله وُضِعَ هذا الكتاب؛ فإنَّ توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات وسيلة لتوحيد العبادة.

وقوله: (**باب من جحد شيئاً من الأسماء والصِّفات**): أي: فهو كافرٌ؛ لأنَّهُ استدلَّ بهذه الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

والأسماءُ والصِّفاتُ النَّاسُ فيها طرفانِ ووسطٌ: طرفٌ أنكروها وجحدوها، وجعلوها كالأسماء المحضة المترادفة، وهم: الجهميَّةُ والمعتزلةُ، فاسم (الرَّحمٰن) دلَّ ـ عندهم ـ على ما دلَّ عليه (السَّميع)، و(السَّميع) دلَّ على ما دلَّ عليه (العليم)، و(العليم) دلَّ على ما دلَّ عليه (الرَّحيم)، فالرَّحيم ـ عندهم ـ لا يدلُّ على صفة، والعليم كذلك وهكذا بقيَّة الأسماء، ما هي إلَّا مجرد أسماء لا معنى لها، ولا شكَّ أنَّ هذا ضلالٌ، أيوجد في لغةِ العربِ أو في غير لغة العرب أنَّ (السَّميع) بمعنى (العليم)؟! أو أنَّ (العليم) بمعنى (الرَّحيم)؟!

لا، بل كلُّ اسمٍ يدلُّ على صفةٍ لم يدلَّ عليها الاسم الآخر إلَّا بطريق الالتزام أو التَّضمُّن، هذا هو مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ.

ودلالة الالتزام من أمثلتها: إذا أثبتَّ أنَّ الله ـ سبحانه ـ رحيمٌ، فالرَّحيمُ دلَّ على ذات الرَّبِّ دلالة التزام، فهل يمكن أن يوجد رحيم دون ذات؟! لا يمكن، فلا نعرف وجود سمع ولا بصر دون ذات، ولا رحمٰن ورحيم دون ذات، فدلالة الرَّحمٰن والرَّحيم والسَّميع والبصير على الذات دلالة التزام.

ودلالة التَّضمُّن: إذا أثبتَّ أنَّ الله رحيمٌ دلَّ على صفة الرحمة مفردة دلالة تضمُّن.

الطرف الثَّاني: أثبتوا الأسماء والصِّفات لكن جعلوها كصفات المخلوقين، فقالوا: إنَّ الله أثبت أنَّهُ سميعٌ وبصيرٌ ويتكلَّم، وأنَّ له يداً، وأنَّهُ يرحمُ، وهذه الصِّفات لا نعرفها في لغة العرب إلَّا كصفات المخلوقين؛ لأنَّهُ وصف نفسه بأنَّهُ رحيمٌ، ووصفَ بعض خلقه بأنَّهُ رحيمٌ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، ووصف نفسه بأنَّهُ سميعٌ بصيرٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨]، ووصف عبدَهُ بأنَّهُ سميعٌ بصيرٌ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، فالسَّمعُ كالسَّمعِ، والبصرُ كالبصرِ!

والوسط: بريءٌ من الطَّرفين، من هؤلاء ومن هؤلاء، بريءٌ من هاتين الفرقتينِ الضَّالَّتين المنحرفتين عن الصِّراط المستقيم، فنثبت لله ما أثبتَهُ لنفسه، وما أثبتَهُ لَهُ أعلمُ الخلقِ بهِ: رسولُهُ ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ونبرأ إلى الله من تشبيهه بخلقه، ونبرأ إلى الله من أن نقول إنَّ أسماءه كالأعلام المحضة المترادفة.

بل نقول: إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ، عزيزٌ حكيمٌ، قويٌّ رحيمٌ، إلى غير ذلك من الأسماء والصِّفات، نثبتها دون أن نشبِّهها بصفاتنا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهذه نفت مشابهته لخلقه، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وإذا شبَّهته بخلقه جعلت له مثيلاً ونظيراً ونديداً.

وكذلك لك ـ أيضاً ـ أن تحاجَّ الجهميَّة والمعتزلة وغيرَهُم من الذين ينفون عن الله الصِّفات الثَّابتة، ويقولون: لو أثبتناها لأدَّى إلى مشابهته لخلقه، تقول لهم: هل تثبتون لله ذاتاً؟

يقولون: نعم، نثبت لله ذاتاً.

قل لهم: هل هي من جنس ذوات المخلوقين؟

يقولون: لا، بل ذاتهُ مختَّصةٌ به، ولا تشبه ذوات المخلوقين.

قل لهم: كيف لا تقولون في الصِّفات نظير ما قلتم في الذَّات؟! أثبتوا لله صفاتاً لا تشبه صفات المخلوفين؛ فإنَّ الصِّفات فرعٌ عن الذَّات.

فتنقطع حجَّتُهم ولا يستطيعون أن يجيبوا بشيء، والأسماء تدلُّ على الصِّفات[١].

والجهميَّةُ كفَّرهم خمس مئة عالم من علماء المسلمين؛ لأنَّهم ينكرون ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسولُهُ ﷺ، قال ابن القيِّم في «الكافية الشَّافية»[٢] في هذا المعنى:

ولقد تقلَّد كفرَهُم خمسونَ في ... عشرٍ من العلماء في البلدانِ
واللَّالكائيُّ الإمامُ حكاهُ عنهم ... بل حكاهُ قبلَهُ الطبراني

إذا ضربت عشرة في خمسين فالناتج: خمس مئة، **أي**: خمس مئة من علماء الإسلام كفَّروهم بسبب جحودهم تلك الصِّفات التي أثبتها الله لنفسه، والذي حكى هذا هو: الطبرانيُّ، واللَّالكائيُّ صاحب «شرح اعتقادِ أهلِ السُّنَّةِ»، وغيرُهُما.

وما أحسن وما أهدى طريقة السَّلف: آمنَّا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنَّا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

وكما قال الإمام أحمد: «لا يُوصفُ الله إلَّا بما وصف به نفسَهُ في

---

(١) وفي هذا أنشد العلَّامة محمد سالم بن عبد الودود:
أسماؤه الحسنى على الصِّفاتِ ... دلَّت فذلَّت أوجهُ النُّفاة

(٢) (ص٤٢).

كتابه، وبما وصفَهُ به رسولُهُ ﷺ، لا يُتجاوزُ القرآنُ والحديثُ».

وهذا خالد القسريُّ أميرُ العراقِ لبني أُميَّةَ لما أظهر الجعدُ بن درهم بدعتَهُ ـ وهو شيخُ الجهميَّة وإمامُهم ـ، وزعم أنَّ الله لم يكلِّم موسى تكليماً، وأنَّ الله لم يتَّخذ إبراهيم خليلاً، قام خالد خطيباً يوم عيد الأضحى، وقال في خطبته ـ وكانَ الجعدُ من جملة المصلِّين ـ: «يا أيُّها النَّاس ضحُّوا تقبَّل الله ضحاياكم، فإنِّي مضحٍّ بالجعدِ بن درهم ـ وهو يسمع ـ؛ فإنَّهُ زعمَ أنَّ الله لم يكلِّم موسى تكليماً، ولم يتَّخذ إبراهيمَ خليلاً»، فنزل فذبحَهُ[1].

قال ابنُ القيِّم في (النُّونيَّة):

شكرَ الضحيَّةَ كُلُّ صاحبِ سنَّةٍ ... لـلَّـه درُّك من أخي قربانِ

والجعد بن درهم أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأبان بن سمعان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وطالوت أخذها عن خالِهِ لبيد الذي سحر النبيَّ ﷺ[2]، هذا سند مذهب الجهميَّة!

---

(١) روى القصَّة البخاريُّ في خلق أفعال العباد (ص٢٩)، وينظر: تاريخ الإسلام (٣/ ٢١٨)، البداية والنِّهاية (١٢/ ١٤٨).

(٢) ينظر: الفتوى الحمويَّة الكبرى (ص٢٣٤).

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

سبب نزول الآية أنَّه لما جاء النَّبيُّ ﷺ إلى مكَّة معتمراً ومنعته قريشٌ ثُمَّ وقعَ الصُّلحُ بينَهُ وبينهم في الحديبية على أن يرجعَ هذا العام ويعتمر في العام المقبلِ، اتَّفقوا على هذا، وجاء سهيلٌ ليكتب كتاب الصُّلح، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**اكتب: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم**»، قال سهيلٌ: لا نعرف الرَّحمٰن إلَّا رحمن اليمامة، ولكن اكتب: باسمك اللَّهُمَّ[(١)].

و(رحمن اليمامة) هو: مسيلمة، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠].

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٧٣١) من حديث المسور ومروان، ومسلمٌ (١٣٨٤) من حديث أنس رضي الله عنهما.

۞ وفي «صحيح البخاريِّ» قال عليٌّ: «حدِّثوا النَّاس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُهُ؟!»[(١)].

إذا كنت عند العامَّة إيَّاك أن تحدِّثهم بأحاديث لا تبلغها عقولهم، ولا يصلون إليها فتكون عليهم فتنة؛ كأحاديث الصِّفات إذا كانوا لا يفهمونها، وإلَّا فالتَّحديث بأحاديث الصِّفات لا مانع منه، تقرِّرُ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، لكن كونك تخوض في مذهب الجهميَّة وتبيِّنُهُ ولو على سبيل الرَّدِّ لا ينبغي عند من لا يفهم من العامَّة ونحوهم، فرُبَّما تصوَّروه ولم يتصوَّروا الرَّدَّ عليه، كما جاء عن ابن مسعود: «إنَّك لست بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلَّا كان لبعضهم فتنةً»[(٢)].

ومثله شُبَهُ اليوم التي يوردها الملحدون من أتباع النَّصارى وأفراخ الملاحدة للنيل من الإسلام؛ مثل قولهم: «ما أحسن الإسلام، إلَّا أنَّهُ يقول: للرَّجل الذي تزوَّج امرأة واتَّفق هو وهي في المبدأ أن يطلِّقها دون رضاها! ما دام أنَّ الابتداء لا يكون إلَّا بالتَّراضي فلا يجوز الفسخ إلَّا بالتراضي؛ كعقد الإجارة وعقد البيع والعقود الأخرى»، ربما لو شرحت هذا للعامَّة فهموا الإشكال ولم يفهموا الجواب والفرق بين هذا وهذا.

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٧) (١٢٧).
(٢) أخرجه مسلم في مقدِّمة الصَّحيح (١/ ١١).

۞ وروى عبد الرزَّاق، عن معمرٍ، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس: أنَّهُ رأى رجلاً انتفض ـ لمَّا سمع حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ في الصِّفات، استنكاراً لذلك ـ فقالَ: «ما فَرَقُ هؤلاء؟! يجدون رقَّة عند محكمِهِ، ويهلكون عند متشابهِهِ» انتهى[1].

ولما سمعت قريشٌ رسولَ اللهِ ﷺ يذكر: «**الرَّحمٰن**» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][2].

(وروى عبد الرزَّاق): عبد الرزَّاق بن همَّام الصنعانيُّ، شيخ الإمام أحمدَ ويحيى بن معين، وإمامته وجلالته معروفةٌ، وهو ثقةٌ مأمونٌ، له مصنَّفٌ طُبِعَ.

(عن معمر): معمرُ بن راشد الأزديُّ، شيخ عبد الرزَّاق، وهو بصريٌّ ولكنَّهُ انتقل إلى اليمن وبقي في صنعاء يحدِّث النَّاس، ولمعمر قصَّةٌ مع أهل صنعاء حينما حلَّ بدارهم ونزل عندَهُم ففرحوا به والتفَّ عليه الطلَّاب وجعلوا يكتبون عنه الحديثَ، ولما أرادَ أن يسافرَ من صنعاء ويرجعَ إلى بلده أشارَ أهلُها عليه بألَّا يغادر بلادهم وأن يبقى عندهم فأبى، فحاولوا بكُلِّ ممكنٍ فأبى، فاجتمع أعيانُ أهل صنعاء لينظروا في أمرهم؛ لأنَّهم لا يسمحون لمثل هذا المحدِّث العالم الكبير أن ينتقلَ من بلادهم فجلسوا يتشاورون، فقال أحدُهُم: «قيِّدوه!».

قالوا: ويحك كيف نقيِّده؟! عالمٌ من علماء المسلمين نقيِّدُهُ؟!

قال: نعم، قيِّدوه بتزويجه؛ فإنَّهُ إذا تزوَّج وهو غريبٌ لم يرحل.

فقبلوا رأيه، فذهبوا وقالوا: «إنَّك حللتَ ببلادنا ولا بُدَّ أن نزوِّجَك، ثُمَّ إذا تزوَّجت فإن شئتَ فاجلس، وإن شئت فارحل»، فأبى فحاولوا حتَّى

---

(١) رواهُ معمرٌ في جامعِهِ (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السُّنَّةِ (٤٨٥) وإسنادُهُ قويٌّ.

(٢) رواهُ ابن جرير (١٣/ ٥٣١) من طريق ابن جريجٍ، عن مجاهد، به.

أجابهم، فتزوَّج بنتاً صالحة، فدخل عليها ورغب فيها فبقي[١].

هذا هو القيدُ، بقيَ عندهم، هذا يدلُّك على أنَّ أهل البلاد فيما سبق كانوا يبذلون كُلَّ ما يستطيعون لبقاء من يرشدُهم ويعلِّمُهم ويكتبون عنه الحديثَ.

(عن ابن طاووس، عن أبيه): طاووس بن كيسان اليماني، أحد أصحاب ابن عبَّاس، وهو من الموالي.

وللزُّهريِّ قصَّةٌ شهيرةٌ مع عبد الملك بن مروان، ذكرها الحافظ المزيُّ في كتابه: «تهذيب الكمال»[٢]، وهي: أنَّ الزُّهريَّ لما قدم الشَّام على عبد الملك بن مروان، قال: من أين قدمت يا زهريُّ؟

قال: قدمت من مكَّة.

قال: ومن خلَّفت؟

قال: عطاء بن أبي رباح.

قال: أهو من العرب أم من الموالي؟

قال: من الموالي.

قال: ويحك بم سادَ أهل مكَّة وفيهم أشراف قريش؟!

قال: بالدِّينِ والعلمِ والتُّقى.

فقال: حقٌّ في أهل العلم والدِّين أن يُسوَّدوا.

ثُمَّ قال: ومن يسود أهل اليمن؟

قال: طاووس بن كيسان.

قال: أهو من العرب أم من الموالي؟

قال: من الموالي.

قال: بم سادهم؟!

---

(١) ذكر العجليُّ القصَّة في ثقاته (ص٤٣٥) ونقلها عنه جماعةٌ.
(٢) (٢٠/ ٨١).

قال: بمثل ما ساد به عطاء أهل مكَّة - يعني: بالدِّينِ والعلمِ والتُّقى -.

ثُمَّ ذكر من يسود مصر والشَّام والجزيرة وخراسان والبصرة وكُلُّهم من الموالي، حتَّى وصل إلى الكوفة، فقال: ومن يسود أهل الكوفة؟

قال: إبراهيم النَّخعي.

قال: أهو من العرب أم من الموالي؟!

قال: من العرب.

قال: فرَّجت عنِّي يا زهريُّ، ويحك يخطب الموالي فوق المنابر والعرب تحتها؟!

قال الزُّهريُّ: يا أمير المؤمنين، هذا دينٌ من تمسَّك به سادَ، ومن ضيَّعه ضاعَ[1].

هذا هو الحقُّ.

(عن ابن عبَّاس: أنَّهُ رأى رجلاً انتفض لمَّا سمع حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ في الصِّفات استنكاراً لذلك، فقالَ: ما فَرَقُ هؤلاء؟! يجدون رقَّةً عند محكمِهِ، ويهلكون عند متشابهِهِ؟!): هو متشابه بالنِّسبة إلى هذا الرَّجل الذي انتفض، وإلَّا فآيات الصِّفات لا تُلحَقُ بالمتشابه بل هي من المحكمِ، فقوله - جلَّ وعلا -: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] هذا من المحكم ليس من المتشابه، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤] من المحكم ليس من المتشابه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨] من المحكم، إلى غير ذلك من صفات الذَّات وصفات الأفعال، كُلُّها من المحكم لا من المتشابه، - وإن كان موفَّقُ الدِّين ابنُ قدامة جعلها من المتشابه في عقيدته المعروفة بـ(اللُّمعة)[2] -، لكن لا يسلَّم له، بل الصَّوابُ أنَّ آيات الصِّفات كُلُّها من المحكم؛ لأنَّ معنى المحكم هو الذي أريدت حقيقته، فنحن نعتقد أنَّ لآيات الصِّفات حقيقة،

(١) قال الحافظُ الذَّهبيُّ (السِّير ٥/ ٨٥): «الحكايةُ منكرةٌ، والوليد بن محمَّد راويها واهٍ، ولعلَّها تمَّت للزُّهريِّ مع أحد أولاد عبد الملك».

(٢) لمعة الاعتقاد (ص٦)، وينظر: فتاوى الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم (١/ ٢٠٢).

وأنَّ لله ـ تعالى ـ صفات وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ، لا نؤول، ولا نقول هذا من المتشابه؛ لأنَّا إذا قلنا: «هذا من المتشابه» لم نُثبت أنَّ الله يتكلَّم، ولا نقول كما قالت المفوِّضة: «نفوِّض معناها إلى الله»، نعم نفوِّض الكيفيَّة، أمَّا حقيقتها فلا شكَّ أنَّها معلومة؛ لأنَّ الله خاطبنا بلغة العرب التي نفهمها، لكن نفوِّض الكيفيَّة إلى الله.

قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾؛ أي: شكٌّ ومرضٌ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧]: اختلف المفسِّرون: هل يقف القارئ عند ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ مبتدأ؛ أي: أنَّهم لا يعلمون تأويله، أم يصل فيقرأ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ فيكون المعنى: أنَّ الرَّاسخين يعلمون تأويله؟

ابن عبَّاس قال: «أنا من الرَّاسخين في العلم»(١).

وليس هذا من باب التَّزكية، وإنَّما من باب الإخبار بالنِّعمة التي أنعمها الله عليه.



(١) رواه الطبريُّ (٥/ ٢٢٠) من حديث ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

بابُ
قول اللّه تعالى:
﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

[النحل: ٨٣]

قال مجاهدٌ ما معناه: هو قولُ الرَّجلِ: «هذا مالي، ورثتهُ عن آبائي».

وقال عون بن عبد الله: يقولون: «لولا فلان لم يكن كذا».

وقال ابن قتيبة: يقولون: «هذا بشفاعة آلهتنا».

وقال أبو العبَّاس ـ بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: إنَّ الله ـ تعالى ـ قال: «**أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافر..**» الحديث ـ وقد تقدَّم ـ: «وهذا كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّة، يذمُّ ـ سبحانه ـ من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به».

قال بعض السَّلف: هو كقولهم: «كانت الرِّيح طيبة، والملَّاح حاذقاً» ونحو ذلك ممَّا هو جارٍ على ألسنة كثير.



بابُ
قول اللَّه تعالى:
﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

قصد المصنِّف بهذه التَّرجمة أنَّ الله ينعم على عباده، ثُمَّ إنَّ المنعَمَ عليهِ يضيفُ النِّعمَ إلى غير الله، فيكون قد جحدَ هذه النِّعمة وأنكرها حيث لم ينسبها إلى الله، ولم يشكر الله عليها، بل ادَّعى أنَّها وصلت إليه من أبيه أو من جدِّهِ، ورثها عنهم، أو بسبب فلان وفلان، هذا هو الغرض من هذه التَّرجمة، فكأنَّ المصنِّف يريد بهذه التَّرجمة: أنَّ ما تقدَّم من الأبواب التي بحثت في أسماء الله وصفاته، والتَّحاكم إلى كتابِ الله وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه الذي يليق بجلاله، وما سبق ذلك من إخلاص العمل لله، فينبغي الآن أن تشكر هذه النِّعم وأن تنسبها لله، فهو الذي هيَّأ لك ويسَّر معرفة ما سبق، وأعطاك الفهم، وأوصلك إلى هذا العلم، فاشكر الله عليه؛ كأنَّ المصنِّف يريد هذا، وإن كانت التَّرجمة عامَّة في النِّعم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

(﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾) قال بعض المفسِّرين: هي بعثة النَّبيِّ ﷺ، يعرفون أنَّ الله أرسل إليهم رسولاً يخرجهم به من الظُّلمات إلى النُّور، ثُمَّ هم مع هذا أنكروا نبوَّته وجحدوها وهم في باطن الأمر يعرفون أنَّهُ رسول الله ﷺ، فإرسال الرُّسل نعمة من الله، لكن قابلوا هذه النِّعمة بالجحود والإنكار حيث لم يقبلوا ما جاء به رسولهم.

۞ قال مجاهدٌ ما معناه: هو قولُ الرَّجلِ: «هذا مالي، ورثتهُ عن آبائي»(١).

الآية عامَّة، وفسَّرها مجاهد صاحب ابن عبَّاس بهذا التَّفسير؛ يعني: أنَّ الله أنعم عليك بهذا المال وساقه إليك فأنت ورثته من أبيك وجدِّك، فمن الذي خوَّله جدَّكَ وأباكَ، ثُمَّ من الذي أبقاه في أيديهم حتَّى وفاتهم، ومن الذي نقله إليك منهم؟ ألم يكن الله؟! فكيف تنسب هذه النِّعم إلى أبيك وجدِّك؟! فكان ينبغي أن تقابل هذا بالشُّكر؛ حيث منَّ عليك وتفضَّل عليك وعلى آبائك وأجدادك قبلك، فيكون ذلك أحرى للشُّكر ولصرف هذه النِّعم في مرضاة الله، بدلاً من أن تنسبها إلى أبيك وجدِّك أو إلى فلان وفلان، هذا هو المعنى، وهو مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]: «أنا محقوق به، هذا بعملي، أنا جديرٌ به، هذا بفضل ذكائي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وما ينبغي شراؤه وما لا ينبغي»، هذا من كفر النِّعمة، ثُمَّ على سبيل التنزُّل: لو كان هذا بذكائك، من الذي أعطاك هذا الذَّكاء؟! ومن الذي عرَّفك بوجوه المكاسب؟!

فينبغي أن تشكر الله على تلك النِّعم؛ فإنَّ هذه النِّعم إمَّا أن تكون أجراً لك، أو وزراً عليك، على حسب ما تصرفها فيه، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ أي: نختبرهم بما نسدي إليهم من حسنات الدُّنيا هل يشكرونها؟ وهل يصرفونها في مرضاة الله؟ كما نبلوهم بالمصائب والبلايا هل يصبرون على ما حلَّ بهم؟ فالمؤمن إن أعطي نعمة شكرَ، وإن أصابته ضرَّاء صبرَ.

والشُّكر مبنيٌّ على **ثلاثة أركان**:

الأوَّل: التحدُّث بالنِّعم ظاهراً.

الثَّاني: الاعتراف بها باطناً.

الثَّالث: صرفها في مرضاة مسديها ومُوليها.

(١) أخرجَهُ ابن جرير (١٤/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم (١٢٦٢١).

۞ وقال عون بن عبد الله: يقولون: «لولا فلان لم يكن كذا»[(١)].

يقول: «لولا أنَّ فلاناً أشركني في هذه المساهمة لما حصل لي مال»، لا مانع أن تشكره، فمن لا يشكر النَّاسَ لا يشكر الله، لكن اشكر الله أوَّلاً، فالله الذي أمره وهيَّأه أن يشير عليك، ثُمَّ الرَّبُّ رتَّب الأسباب ليحصل لك هذا الخير.

۞ وقال ابن قتيبة: «يقولون: (هذا بشفاعة آلهتنا)»[(٢)].

كالمشركين عندما يرتفع عنهم الضَّرر يقولون: «هذا بسبب أصنامنا»، ولم يعلموا أنَّهم هم وأصنامهم في جهنَّم جميعاً، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، العابد والمعبود ما عدا الملائكة والصَّالحين استثناهم الله ـ كما هو معلومٌ ـ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١].

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٣٢٦)، وابن أبي حاتم (١٢٦٢٢).
(٢) تفسير الطبري (١٤/٣٢٦)، شفاء العليل (ص٣٦).

۞ وقال أبو العبَّاس ـ بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: إنَّ الله ـ تعالى ـ قال: «**أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر..**» الحديث ـ وقد تقدَّم ـ: «وهذا كثيرٌ في الكتاب والسُّنَّة، يذمُّ ـ سبحانه ـ من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به»(١).

النَّبيُّ ﷺ لمَّا فرغ من صلاة الصُّبح بالحديبية على إثر مطرٍ كان من اللَّيل، قال لأصحابه: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: (**قال الله: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، أمَّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمنٌ بي كافر بالكوكب، وأمَّا من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافرٌ بي مؤمن بالكوكب**)(٢).

فإضافة المطر إلى النُّجوم من إضافة النِّعم إلى غير الله، وإن كان الله رتَّب الأشياء على حسب ما تقتضيه حكمته وإرادته، لكن هي أسباب، تارة لا يأتي شيء وتارة يأتي في غير وقته؛ لأنَّ الأمرَ بيده ـ سبحانه ـ وهو المتصرِّف في خلقه، وهو الذي إذا قال للشَّيء: (كن) يكون، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣).
(٢) سبق تخريجه.

۞ قال بعض السَّلف: هو كقولهم: «كانت الرِّيح طيبة، والملَّاح حاذقاً»، ونحو ذلك ممَّا هو جارٍ على ألسنة كثير.

لا ينبغي أن يُنسبَ جريانُ السَّفينةِ إلى الملَّاح أو إلى الرِّيح بل إلى الله، فإذا كنت راكباً سيَّارة وحصل اصطدام ولكن الله سلَّم فلا تقل: «سائقنا جيِّدٌ، هو الذي أنقذنا، وهو الذي فعل كذا» بل اشكر الله أوَّلاً ثُمَّ لا مانع أن تقول بعد ذلك: «السَّائق جيِّدٌ»، لكن الذي أوجد هذا كلَّه هو الله، فالله هو الذي هيَّأ لك وحفظك ونجَّاك بما حصل، لا مهارة سائق السَّيارة، ثُمَّ من الذي علَّمَهُ؟! ومن الذي أدراه بهذا؟! لولا العناية من الله لم يستطع لا هو ولا غيره قيادة السيَّارة، فلا ينبغي أن تضيف نجاتك وسلامتك إلى السَّائق بل أضفها إلى الله.



بابُ
قول اللَّه تعالى:
﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

قال ابن عبَّاس في الآية: «الأنداد: هو الشِّرك، أخفى من دبيب النَّمل على صفاة سوداء في ظلمة اللَّيل؛ وهو أن تقول: «والله وحياتكِ يا فلانة وحياتي»، وتقول: «لولا كُليبة هذا لأتانا اللُّصوصُ، ولولا البطُّ في الدَّار لأتانا اللُّصوصُ»، وقول الرَّجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئتَ»، وقول الرَّجل: «لولا الله وفلان»، لا تجعل فيها فلاناً هذا كُلُّهُ به شركٌ».

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» رواهُ التِّرمذيُّ وحسَّنَهُ، وصحَّحَهُ الحاكمُ.

وقال ابن مسعودٍ: «لأن أحلفَ بالله كاذباً أحبُّ إليَّ من أن أحلفَ بغيرِهِ صادقاً».

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثُمَّ شاء فلان**» رواه أبو داود بسندٍ صحيحٍ.

وجاء عن إبراهيم النخعيِّ، أنَّهُ يكرَهُ أن يقولَ الرَّجلُ: «أعوذُ بالله وبك»، ويجوِّز أن يقول: «بالله ثُمَّ بك».

قال: ويقول: «لولا الله ثُمَّ فلان»، ولا تقولوا: «لولا الله وفلان».



بابُ
قول اللَّه تعالى:
﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: وحِّدوا ربّكم، وأفردوه بالعبادة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من العدم كما أوجد آباءكم ومن كان قبلكم.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: فالله هو الذي أوجد الأرض وجعلها بهذه السَّعة، وأرساها بالجبال، وجعل الأنهار سارحة من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، وما فيها من أشجار ونباتات وبحار، كلُّها تدلُّ على كمال قدرته ـ سبحانه ـ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: رفعها وبناها وزيَّنها بما جعل فيها من نجوم وأفلاك.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: أنزل الأمطار فأخرج بها من الثَّمرات فواكه مختلفة؛ فإنَّ الأرض واحدةٌ، والماءُ واحدٌ، ومع هذا تجدُ النَّباتَ مختلفاً، هذا مرٌّ وهذا حُلوٌ، وهذا أصفر وهذا أخضر، وهذا مرتفعٌ على ساق وهذا منبسط على الأرض، والمادَّة واحدة ـ وهي: الأرض والماء والشَّمس ـ، فمن الذي كوَّن هذا ومن الذي أوجده؟! ألم يكن الله؟!

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: بعدما ذكر هذه المقدِّمات أمرك ألَّا تجعل له شريكاً ولا نظيراً، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: أنَّهُ الخالق لهذه الأشياء كُلِّها فهو المستحقُّ للعبادة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]: هل خُلقنا من غير خالقٍ أم نحن الذين خلقنا أنفسنا؟!

لم يكن شيءٌ من ذلك، إذن يتعيَّن أنَّ للخلق خالقاً خلقهم وأوجدهم، كما قيل:

تأمَّل سطور الكائنات فإنَّها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

ويقول الشَّاعر:

فواعجباً كيف يعصى الإلٰهُ؟! ... أم كيف يجحدُهُ الجاحدُ؟!
وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تدلُّ على أنَّهُ واحدُ

الأرض وما فيها من نبات وجبال آيات، والسَّماء وما فيها من نجوم آيات، بل ابن آدم نفسه آية: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] من الذي أوجد هذا الآدميَّ من العدمِ وجعل له عقلاً ثابتاً، وسمعاً وبصراً، ولساناً ناطقاً؟!

۞ قال ابن عبَّاس في الآية: الأنداد: هو الشِّرك، أخفى من دبيب النَّمل على صفاة سوداء في ظلمة اللَّيل؛ وهو أن تقول: «والله وحياتكِ يا فلانة وحياتي»، وتقول: «لولا كُليبة هذا لأتانا اللُّصوص، ولولا البطُّ في الدَّار لأتانا اللُّصوص»، وقول الرَّجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئتَ»، وقول الرَّجل: «لولا الله وفلان»، لا تجعل فيها فلاناً هذا كُلُّهُ به شركٌ»(١).

الله يحذِّرنا أن نجعل له ندّاً، فهذا هو الشِّرك، والشِّرك أخفى من دبيب النَّمل على صفاة سوداء في ظلمة اللَّيل، فهل تدركُ أثرَ النَّمل إذا مشى؟! هل تدرك أثره إذا مشى على صفاة سوداء ـ وهي الحجارة الملساء ـ؟! هل تدرك أثرَهُ إذا مشى على صفاة سوداء في ظلمة اللَّيل؟!

لا تستطيع أن تميِّز ذلك، والشِّرك أخفى من ذلك، فقد يتكلَّم الإنسان بالكلمة الشِّركيَّة لا يلقي لها بالاً، ولا يدري نتيجتها وماذا تُوصل إليه من الشِّرك، ولهذا قيل للنَّبيِّ ﷺ: يا رسول الله قلتَ: «**إنَّ الشِّرك أخفى من دبيب النَّمل**»، فكيف نجتنبه؟!

قال: «**قولوا: اللَّهُمَّ إنا نعوذُ بك أن نشركَ بك ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم**»(٢).

---

(١) رواهُ ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٩)، وإسنادُهُ جيِّدٌ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٧٩) (٣٠١٦٣)، والإمام أحمد (٣٢/ ٣٨٣) (٨٩٦٠٦)، والطبراني في الأوسط (٣٤٧٩) من حديث عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي عليٍّ ـ رجلٍ من بني كاهل ـ، عن أبي موسى، به مرفوعاً.
ولا يصِحُّ؛ أبو عليٍّ لا يعرف.
ورواه البخاريُّ في (الأدب المفرد ٧١٦)، وابن السُّنيِّ (٢٨٦)، وأبو يعلى (١/ ٦٠ ـ ٦٢)، وابن بطة (٢/ ٧٢٣) من حديث أبي بكر ﷺ وإسناده ضعيفٌ؛ تفرَّد به ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، وفي بعض طرقه جهالة واضطراب. =

قد يقول قائل: ابن عبَّاس فسَّر الآية بالشِّرك الأصغر، والآية نزلت في الشِّرك الأكبر؟

نقول: نعم، لهذا نظائر في القرآن؛ والسَّلف يستدلُّون على النَّهي عن الشِّرك الأصغر بالآيات التي نزلت في الشِّرك الأكبر بجامع أنَّ الجميعَ شركٌ، فالشِّركُ الأكبر ينافي التَّوحيد بالكليَّة، والأصغرُ ينافي كمالَهُ الواجب، فجاز تفسير الآية التي نزلت في الشِّرك الأكبر بما يقع من الإنسان من الشِّرك الأصغر.

(هو أن تقول: والله وحياتك): هذا لا يجوز؛ فالحلف لا يصلح إلَّا بالله.

(ولولا كليبة هذا لأتانا اللُّصوص)؛ أي: أنَّ اللِّصَّ لما جاءَ نبحَت الكلبةُ فانتبه صاحب البيت وأخذ سلاحه يحمي مواشيه وبيته، فنسبَ الفضل إلى الكليبة، لكن من الذي علَّمها؟!

الله ـ سبحانه وبحمده ـ، وهذا يندرج تحت تفسير الآية السَّابقة في الباب السَّابق، فالله ينعم على العبد فينسب تلك النِّعمة إلى غيره.

والكلب فيه مصلحةٌ ومنفعةٌ، وفيه دناءةٌ ومضرَّةٌ وخسَّةٌ، والله جعل مثل من حمل العلم ولم يعمل به كمثل الكلب: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

= ولطريق ليث متابعة عند أبي نعيم في الحلية (٧/ ١١٢)، وإسنادُ أبي نعيم ساقطٌ؛ فيه: محمَّد بن كثير، منكرُ الحديث، ينظر: المطالب العالية (١٣/ ٤١٨)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٤).

وله شاهدٌ من حديث عائشة أخرجه البزَّارُ (كشف الأستار ٣٥٦٦)، والعقيليُّ (الضعفاء ٣/ ٦٠) من حديث عبد الأعلى بن أعين ـ تفرَّد به ـ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، به مرفوعاً.

ولا يصِحُّ، عبد الأعلى ضعيف الحديث، وقد أنكره عليه العقيليُّ.

وقال الدارقطنيُّ: «الحديث ليس بثابتٍ»، ينظر: العلل المتناهية (٢/ ٣٤٠).

فالكلب من أخسِّ الحيوانات وأدناها وأرذلها؛ فلا يوجد في الحيوانات من إذا تقيَّأ عاد يأكلُ قيئَهُ إلَّا الكلب، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**العائد في هبته كالكلب يقيء ثُمَّ يعود في قيئِهِ**»[1].

والكلب ـ أيضاً ـ إذا جلس فانظر إلى رأسه يجعله تحت دبره، وهذا لا يوجد إلَّا فيه لخسَّتِهِ.

والكلبُ فيه نهايةُ الشَّرَهِ؛ فإنَّك لو ألقيتَ عليه ولو حجراً ذهبَ يعضُّهُ يظنُّهُ شيئاً يؤكل، من شِدَّةِ شَرَهِهِ.

وهو دائماً ينظر إلى الأرض يتطلَّب شيئاً.

إلَّا أنَّ فيه هذه المصلحة التي ذكرها ابن عبَّاس، وهي: أنَّهُ رُبَّما حمى أهله إذا جاء رجلٌ غريبٌ، ورُبَّما افترس من أراد أن يأخذ مال أهله من غنمٍ أو نحو ذلك.

(**ولولا البطُّ في الدَّار لأتى اللُّصوص**): هو طائرٌ يجعلُهُ النَّاسُ في بيوتهم إذا دخلَ البيت رجلٌ غريبٌ صوَّت ينبِّهُهُم بأنَّه دخلَ رجلٌ غريبٌ فينتبَّهوا هل هو لصٌّ أم لا؟ ثُمَّ هم يضيفون النِّعمة إليه وهذا من الشِّرك الأصغر.

(**لا تجعل فيها فلاناً، هذا كُلُّهُ بِهِ**)؛ أي: بالله (**شركٌ**)؛ لأن الرَّبَّ هو المنعمُ المتفضِّلُ، وأنت تنسب النِّعم إلى غيره!، هو الذي أوجد هذه الأسباب، وهو الذي ربط الأسباب بمُسبَّباتها، فينبغي أن تشكره ـ سبحانه ـ، وألَّا تشرك معه غيره في نعمه.

(١) أخرجهُ البخاريُّ (٢٥٨٩)، ومسلمٌ (١٦٢٢)، من حديث ابن عبَّاسٍ ﷺ.

۞ وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفرَ أو أشركَ**» رواهُ التِّرمذيُّ وحسَّنَهُ، وصحَّحَهُ الحاكمُ[(١)].

هذا مرويٌّ عن ابن عمر لا عن عمر رضي الله عنهما[(٢)]، ومعناه يتلخَّص في **مسائل**:

---

(١) أخرجَهُ الطيالسيُّ (٣/ ٤١٢)، ومن طريقِهِ ابن الجعد (٨٩٥)، والإمامُ أحمدُ (٨/ ٥٠٣) (٤٩٠٤)، وعبد الرزَّاق (١٥٩٢٦)، والحاكم (١/ ١١٧) من طريق منصور بن المعتمر والأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن ابن عمر، به مرفوعاً.
ورواه الإمام أحمد (١٠/ ٢٤٩) (٦٠٧٢)، وأبو داود (٣٢٥١)، والتِّرمذيُّ (١٥٣٥)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤)، وابن حبَّان (٤٣٥٨)، والحاكم (٤/ ٣٣٠)، والبيهقيُّ (١٠/ ٥١) من طريق الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة، به.
ورواه البزَّار (٥٣٩٠)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤)، والطحاويُّ في (شرح المشكل ٢/ ٢٩٩) من حديث شعبة، عن منصور بن المعتمر، عن سعد، به.
ورواهُ الحاكم (١/ ١١٧) من طريق سعيد بن مسروق، عن سعد، به.
ثُمَّ اختلف فيه على منصور، فرواهُ عنه **شعبة** كما عند الإمام أحمد (٩/ ٤٢٢) (٥٥٩٣)، ومن طريقه البيهقيُّ (١٠/ ٥٢).
وجرير بن عبد الحميد كما في (شرح المشكل ٢/ ٣٠٠).
وشيبان بن عبد الرحمٰن كما في (الحلية ٩/ ٢٥٣).
الثَّلاثة عن منصور، عن سعد بن عبيدة، عن رجل من كندة، عن ابن عمر، به مرفوعاً.
وبهذه الرِّواية أعلَّ الحديثَ الطحاويُّ والبيهقيُّ، وردَّ ذلك الإعلال ابن الملقِّن في البدر (٩/ ٤٦٠)، وينظر: علل الدَّارقطني (١٣/ ٢٣٣).
تنبيه: قد تعقَّب الشُّرَّاح والمخرِّجون والمحقِّقون المصنِّفَ في قولِهِ: «عن عمر» وقالوا: بل هو عن ابن عمر.
ثُمَّ إنِّي ـ بفضل الله وحده ـ وقفتُ على الحديث من مسند عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده (ط. الرسالة ١/ ٤١٣) (٣٢٩) و(ط. المكنز ١/ ١١١) (٣٣٥) وظاهر إسنادِهِ الصِّحَّة إن سلم من الاختلاف، إلَّا أنِّي أستظهرُ أنَّهُ غير محفوظ، وأنَّ أصلَهُ ما في الصَّحيحين: «**إنَّ الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**».

(٢) ينظر: التَّنبيه الذي سبق في تخريج الحديث.

المسألة الأولى: حكم الحلف بغير الله، وفيه تفصيل: إن كان الحالف حلف بغير الله ممَّا يجري على لسانه بأن قال: «وحياة فلان»، «وحياة الرَّسول» وما أشبه ذلك، فهذا كفرٌ أصغر لا يخرج من الملَّة، إذا كان جرى على لسانه يريد تأكيد المحلوف عليه، وهو ينافي كمال التَّوحيد.

أمَّا إذا قصد بمحلوفه تعظيماً مثل تعظيم الله فهذا من الشِّرك الأكبر الذي يخرجُ صاحبَهُ من الملَّةِ، فيُستتاب فإن تاب وإلَّا قتل، ذكر هذا التَّفصيل الإمام النَّوويُّ وغيره(١).

المسألة الثَّانية: قد تقول: ما الجواب عمَّا جاء في بعض الأحاديث كقوله ﷺ: «**أفلحَ وأبيه إن صدقَ**»(٢)؟

نقول: تنوَّعت أجوبة العلماء عن هذا، فمن قائلٍ: إنَّ هذا لا يُراد به القسم؛ وإنَّما هو جار على اللِّسان، وكانت العرب تعتاده، فإذا أُريد القسم فهذا الذي لا يجوز، لكن هذا جواب ليس بمستقيم.

وقال بعضهم: أراد التَّأكيد لا القسم.

والقول الصَّحيحُ: أنَّ هذا كان يُقال قبلُ وكان جائزاً، لكنَّهُ نُسِخَ، وجاءت الأحاديث في النَّهي عن الحلف بغير الله، مهما كانت الحالة، كما في حديث ابن عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ بركبٍ وفيهم عمرُ وكانوا يحلفون بآبائهم جرياً على عادتهم، فقال الرَّسول ﷺ: «**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف فليحلف بالله أو ليصمت**»(٣).

المسألة الثَّالثة: قد تقول: ذكر الحنابلة في كتبهم جواز الحلف بالنَّبيِّ ﷺ، ويروون في ذلك حديثاً عن النبيِّ ﷺ، وهذا القول هو المشهور من مذهب أحمد(٤)، فما الجواب؟!

---

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم (١١/ ١٠٤).

(٢) رواهُ مسلم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٢٦٧٩)، ومسلمٌ (١٦٤٦).

(٤) وهو من مفردات المذهب، ينظر: الفروع (١٠/ ٤٣٧)، الإنصاف (٢٧/ ٤٦٦)، شرح المنتهى (٦/ ٣٧٦)، المنح الشَّافيات (٢/ ٧٥٨).

نقول لك: هذا مرويٌّ عن الإمام أحمد، وهو موجود في كتب المتأخرين، لكن الصَّحيح أنَّهُ لا يجوز الحلف إلَّا بالله، لا بالنَّبيِّ ﷺ ولا بغيره كما هو قول جمهور العلماء، وكما هي الرِّواية الثَّانية عن أحمد، وكما تدلُّ عليه الأحاديث الكثيرة، ولا التفات إلى ما قاله صاحب «كشَّاف القناع»، أو صاحب «المنتهى»، أو غيرُهُما من متأخري الحنابلة المجوِّزين للحلف بالنَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الحقَّ أحقُّ أن يتَّبعَ، والدَّليلُ هو الواجب اتِّباعُهُ واعتمادُهُ، كيف وفي الحديث: **(من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)**، وكما في قول ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»(١).

فالحلف لا يكون إلَّا بالله، والإمام أحمد لم يقل بجواز الحلف بالنَّبيِّ ﷺ كما قرَّره ابن تيميَّة(٢)، وغيرُهُ من المحقِّقين.

المسألة الرابعة: قد تقول: أقسمَ الرَّبُّ بمخلوقاته في القرآن؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ①﴾ [الذاريات: ١]؛ أي: الرِّياح، ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ①﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ [النجم: ١]، ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ①﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ①﴾ [البروج: ١]، ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ①﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ①﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪﴾ [الطارق: ١١]، وغير ذلك من الآيات، أليس في هذا دليل على جواز الحلف بغير الله؟

نقول لك: لا، ليس فيه دليلٌ على ذلك؛ فإنَّ الله يحلف بما شاء من خلقه؛ ليعرِّفنا عظيم قدر هذا المحلوف به من الرِّياح والشَّمس واللَّيل والنَّهار، وأنَّه آية من آيات الله، أمَّا نحن المخلوقين فلا نحلف إلَّا بخالقنا.

هذا كُلُّهُ مستفاد من حديث: **(من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)**، ولكن ترى كثيراً من عُبَّاد القبورِ عندما تقول له: «احلف بالله» فإنَّهُ يبادر إلى الحلف، ولو أردت أن يحلفَ لك خمسين يميناً لم يتوقَّف، ولو قلت له:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٤، ٣٣/ ١٣٦).

«احلف بعبد القادر، أو بمشهد أبي حنيفة، أو علي» فإنَّهُ لا يمكن أن يحلف أبداً وهو كاذب؛ ظنَّاً منه أنَّ المحلوف به يوقع عليه الشَّرَّ والبلاء في ماله وبدنه وأهله إذا حلف به كاذباً!، يُعظِّم المخلوق أعظم من تعظيمه لله!، قد وقر في قلبه الشِّرك بالله.

وإذا جرى على لسان الإنسان شيءٌ من هذا من غير قصد، فينبغي أن يجدِّد توحيده، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**من حلف باللَّات والعزَّى فليقل: لا إله إلَّا الله**»[1]؛ لأنَّ «لا إله إلَّا الله» تُبطل وتنفي الحلف باللَّات والعزَّى، فكلمة التَّوحيد تثبت العظمة والألوهيَّة لله وحده لا شريك له.

(١) رواهُ البخاريُّ (٤٨٦٠)، ومسلمٌ (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ وقال ابن مسعودٍ: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»(١).

الحلف بالله كاذباً هو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النَّار، وهي من الكبائر؛ ولهذا ليس لها كفَّارة؛ لأنَّ جرم هذه اليمين الكاذبة أعظم وأكبر من أن تكفِّرها الكفَّارة، وإنَّما على الإنسان أن يتوب ويستغفر؛ لأنَّ أمرها عظيمٌ، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذابٌ أليمٌ** ـ وذكر منهم ـ: **ورجلٌ جعل الله بضاعتَهُ لا يشتري إلَّا بيمينه ولا يبيع إلَّا بيمينه»**، دائماً يحلف ويعلم أنَّه كاذب، إذا كان هذا حال من حلف بالله كاذباً فإنَّ ابن مسعود يقول: (**لأنْ أحلف بالله كاذباً** ـ على ما في ذلك من الجرم العظيم ـ **أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً**) لماذا؟!

لأجل أنَّ اليمينَ بالله تعظيمٌ له فهو توحيدٌ ـ وإن شانَهُ الكذبُ ـ، والحلف بغيره صادقاً شركٌ ـ وإن كانت فيه حسنة الصِّدق ـ، لكن حسنة الصِّدق مغمورة في سيئة الشِّرك، وسيئة الكذب مغمورة في حسنة التَّوحيد، هذا معنى قول ابن مسعود رضي الله عنه، فليس في قلبه أعظمُ ولا أجلُّ من الله.

---

(١) رواهُ عبد الرزَّاق (١٥٩٢٩) من حديث أبي سلمة.
وابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٩) (١٢٤١٤)، والطبرانيُّ (٨٩٠٢) من حديث مسعر بن كدام.
كلاهما عن وبرة، عن عبد الله، به موقوفاً.
رجاله ثقات إلَّا أنَّ في سماع وبرة من عبد الله بُعْداً.
واختلف فيه على مسعر فرواه أبو نعيم في (الحلية ٧/ ٢٦٧) من حديث محمَّد بن معاوية ـ تفرَّد به ـ، عن عمر بن علي المقدَّميِّ، ثنا مسعر، عن وبرة، عن ابن مسعود، به مرفوعاً.
وهو خبرٌ منكرٌ، ومحمَّد بن معاوية هو العتكيُّ كما جاء مصرَّحاً به في (تاريخ أصبهان ٢/ ١٧٧)، وليس هو ابن أعين الكذَّاب فذاك لا يروي عن المقدَّميِّ ولا يروي عنه عبد الله بن محمَّد بن زكريا، ورواية الرَّفع أعلَّها أبو نعيم في (تاريخ أصبهان).

۞ وعن حذيفة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثُمَّ شاء فلان»** رواه أبو داود بسندٍ صحيحٍ(١).

(**«لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثُمَّ شاء فلان»**): لك مشيئة، لا نسلبك المشيئة خلافاً للجهميَّة المجبرة الذين يرون أنَّ ليس للعبد تصرُّف وليس له مشيئة، وإنَّما أفعاله مجبورٌ عليها من الله، من جنس الشَّجرة التي تقلِّبها الرِّياح، هذا قول الجهميَّة الجبريَّة، وهذا كما هو معروفٌ من أبطل الباطل، كما يأتي بيانه في آخر الكتاب ـ إن شاء الله ـ.

فالحديث يدلُّ على أنَّ لك مشيئة، وأنَّك تفعل الشَّيء بإرادتك، وتترك الشَّيء بإرادتك، غير أنَّ مشيئتك تابعة لمشيئة الله، قالَ الله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن

---

(١) أخرجَهُ الطيالسيُّ (١/ ٣٤٤) ـ ومن طريقه أبو داود (٤٩٨٠) ـ، والإمامُ أحمدُ (٣٨/ ٢٩٩) (٢٣٢٦٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٧٧) (٢٧٢٢٦)، والنسائيُّ في (الكبرى ١٠٧٥٥)، وابن السُّنِّي في (عمل اليوم والليلة ٦٦٦)، والطحاويُّ في (شرح مشكل الآثار ١/ ٢١٨)، والبيهقيُّ (٣/ ٣٠٦) من طريق شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة، به مرفوعاً.
ورجالُهُ ثقاتٌ إلَّا أنَّ ابنَ معين قال في عبد الله: «لا أعلمه لقي حذيفة»، ينظر: تاريخ ابن معين للدَّارمي (ص١٦٠).
وقد اختلف فيه على عبد الله بن يسار، فرواه ابن راهويه (٥/ ٢٥٤)، والإمام أحمد (٤٥/ ٤٣) (٢٧٠٩٣)، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني ٣٤٠٨)، والنسائيُّ (٣٧٧٣)، والطحاويُّ في (شرح المشكل ١/ ٢١٩)، والطبرانيُّ (٢٥/ ١٣ ـ ١٤)، والحاكم (٤/ ٣٣١)، والبيهقيُّ (٣/ ٣٠٦) من طريق معبد بن خالد ـ وهو الجدلي ـ، عن عبد الله بن يسار، عن قتيلة امرأة من جهينة، به مرفوعاً.
قال البخاريُّ رحمه الله (العلل الكبير ص٢٥٣): «هكذا روى معبد بن خالد: عن عبد الله بن يسار عن قتيلة.
وقال منصور ـ يعني: ابن المعتمر ـ: (عن عبد الله بن يسار عن حذيفة)، وحديث منصور أشبه عندي وأصحُّ».

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]، فإذا فعلت جرماً فأنت مؤاخذٌ به؛ لأنَّك فعلته باختيارك ومشيئتك، هذا مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ كما يأتي بيانه في موضعه ـ إن شاء الله ـ.

لكن الغرض من هذا هو قول: «ما شاء الله وشاء فلان»، فإنَّ الرَّسول ﷺ نهى عنه، وإن كان لفلان مشيئة ـ كما قلنا ـ لكن النَّهي هو لأجل الواو؛ لأنَّ الواو في لغة العرب تقتضي مطلق الجمع والاشتراك، فكأنَّ مشيئة فلان من جنس مشيئة الله ـ سبحانه ـ، فلمَّا كانت الواو تفيد ذلك المعنى نهى عنه الرَّسول ﷺ، كلُّ ذلك من أجل حماية التَّوحيد.

(**«ولكن قولوا: ما شاء الله ثُمَّ شاء فلان»**): لأنَّ (ثُمَّ) لا تقتضي الجمع والاشتراك، بل تقتضي التَّرتيب والتَّأخير، فمشيئة فلان متأخِّرةٌ عن مشيئة الله.

وبهذا نعرف أنَّ الألفاظ التي تؤدِّي إلى نقص التَّوحيد ينبغي التحرُّز منها.

۞ وجاء عن إبراهيم النَّخعيِّ، أَنَّهُ يكرَهُ أن يقولَ الرَّجلُ: «أعوذُ بالله وبك»، ويجوِّز أن يقول: «بالله ثُمَّ بك».
قال: ويقول: «لولا الله ثُمَّ فلان»، ولا تقولوا: «لولا الله وفلان»[1].

الواو تقتضي مساواة الثَّاني بالأوَّل، بخلاف (ثُمَّ) فهي تقتضي أنَّ الثَّاني غير مساوٍ للأوَّل بل متأخرٌ عنه.



(١) رواه معمر في جامعه (١٩٨١١ ـ ١٩٨١٢)، وابن أبي الدُّنيا في الصَّمت (٣٤٤).

بابُ
ما جاء فيمن لم يقنعْ بالحلف باللَّه

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم، مَن حلفَ بالله فليصدُقْ، ومن حُلِفَ له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله**» رواه ابن ماجه بسندٍ حسنٍ.



بابُ
ما جاء فيمن لم يقنعْ بالحلف بالله

أي: ما يترتَّب على ذلك من الوعيد، فمن حُلف له بالله فعليه أن يرضى وينقاد ويسلِّم؛ لأن من حُلف له بالله ولم يرض دلَّ فعله على نقص الإيمان في قلبه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم، مَن حلفَ بالله فليصدُقْ، ومن حُلِفَ لَهُ باللهِ فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله**». رواه ابن ماجه بسندٍ حسنٍ[(١)].

النَّبيُّ ﷺ مرَّ بركبٍ يحلفون بآبائهم، فقال: (**لا تحلفوا بآبائكم**)؛ أي: ولا بغير آبائكم من سائر المخلوقين.

(**من حلفَ بالله فليصدُقْ**): هذا يدلُّ على وجوب الصِّدق فيما يقوله المسلم دائماً، فالله حثَّ على الصِّدق، ورغَّب فيه، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، وفي الحديث: «**إنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار**»[(٢)]، فيحرم على الإنسان أن يكذب

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٠١)، والبيهقيُّ (١٠/ ٣٠٥) من حديث محمَّد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر، به.
وظاهر إسنادِهِ الحُسن، وابن عجلان صدوقٌ؛ وقد رواه اللَّيث بن سعد ومالك بن أنس عن نافع، عن ابن عمر كما عند الشَّيخين بلفظ: «**إنَّ الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»، ولفظ ابن عجلان تتداعى الهممُ على نقله، فالله أعلم.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مطلقاً، سواءٌ حلف أو لم يحلف، فإن اقترن كذبه باليمين فهو أشدُّ وأعظم، وهذه هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النَّار، كما أنَّه يجب عليه أن يصدق في جميع أموره وإن لم يحلف، فإن حلف كان أوجب، فلا يجوز لأحد أن يحلف بالله وهو كاذب، ولكن مهما أمكن أن تدفع عن نفسك اليمين ولو كنت صادقاً فهو المتعيِّن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقد فُسِّرت الآية على **وجهين**:

الوجه الأوَّل: أي: لا تبذلوا اليمين في كُلِّ شيء، وقِّر اللهَ وليكن الله أجلَّ في قلبك وأعظم من أن تحلف به عند عدم الحاجة.

الوجه الثَّاني: احفظوا أيمانكم إذا صدرت منكم بالتَّكفير، ولا تتركها بلا تكفير، بل إذا حلفت وحنثت فعليك أن تكفِّر، هذا هو حفظ اليمين، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن حلفَ على يمينِ صبرٍ هو فيها كاذب يقتطع بها مال امرئٍ مسلمٍ لقيَ اللهَ وهو عليه غضبان**».

قالوا: يا رسول الله، وإن كان شيئاً يسيراً؟

قال: «**وإن كان قضيباً من أراك!**»[1]، فاليمين مهما كانت الحالة لا ينبغي للإنسان أن يبذلها دائماً في أقواله ومعاملاته، وإذا اضطرَّ إليها عند القاضي والمحاكمات فعليه أن يتَّقي الله ولا يحلف إلَّا وهو صادق، فمتى حلف وهو كاذب فحريٌّ أن يلقى الله وهو عليه غضبان؛ لأنَّه بيمينه الفاجرة الكاذبة يقتطع مال امرئٍ مسلم، وهذا هو الظُّلم بعينه؛ كما في الحديث: «**من ظلم قِيد شبرٍ من الأرض طوَّقه الله إيَّاه يوم القيامة من سبعة أرضين**»[2]، سواء اقتطعه بيمينه الظَّالمة، أو ببيِّنته الفاجرة؛ بخلاف ما إذا اقترنت أقواله بالصِّدق وتعظيم الله فإنَّها تمنعه من أن يحلف بالله وهو كاذب؛ لعلمه أنَّ الله مطَّلع عليه، سامعٌ لما يقول، عالمٌ بما يفعل، فيكون خائفاً من عقوبة الله أن يغمسه الله في النَّار أو أن يعجِّل له العقوبة في الدُّنيا.

---

(١) رواهُ مسلم (١٣٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(**ومن حُلف له بالله فليرض**): يعني: ينقاد ولا يكون في قلبه شيء، ولا سيَّما في الخصومات إذا لم يكن عند المدَّعي بيِّنة فليس له سوى اليمين على المدَّعى عليه؛ لقضاء النبيِّ ﷺ باليمين على المدَّعى عليه[(١)].

و(**البيِّنة**): اسمٌ لما بيَّن الحقَّ ووضَّحه، سواءٌ كان بشاهدين، أو شاهد ويمين، أو شاهد وامرأتين، أوغير ذلك، فالبيِّنة أعمُّ ممَّا اصطلح عليه الفقهاء[(٢)].

جاء في «الصَّحيح» عن عيسى عليه السلام أنَّه رأى رجلاً يسرقُ فحلف السَّارق بالله أنَّه ما سرق، فقال عيسى: «**آمنتُ بالله، وكذَّبتُ عيني**»[(٣)]؛ وذلك لأنَّ عيسى لا يتصوَّر أنَّ أحداً يحلف بالله كاذباً لعظمةِ الله في قلبه، مع أنَّهُ رآه بعينه، لكن اتَّهم عينه، فقال: «**آمنت بالله وكذَّبت عيني**».



(١) رواه البخاريُّ (٢٥١٤)، ومسلم (١٧١١) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.
(٢) وهذا اختيارُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة، والعلَّامة ابن القيِّم، وشيخ المالكيَّة القاضي ابن فرحون، والحافظ ابن حجر ـ رحمهم الله ـ، ينظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٩٤)، الطُّرق الحكميَّة (١/ ٢٤ ـ ٦٥)، إعلام الموقِّعين (١/ ٧١)، تبصرة الحكَّام (١/ ٢٤٠)، الفتح (١٣/ ١٦٠).
(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٤٤٤)، ومسلمٌ (٢٣٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بابُ

قولِ: (ما شاءَ اللّهُ وشِئتَ)

عن قُتيلةَ، أنَّ يهوديّاً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: إنَّكم تشركون، تقولون: «ما شاءَ اللهُ وشئتَ»، وتقولون: «والكعبة!»، فأمرهم النَّبيُّ ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «وربِّ الكعبةِ»، وأن يقولوا: «ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شئتَ»، رواه النسائيُّ وصحَّحَهُ.

وله ـ أيضاً ـ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ ﷺ: «ما شاءَ اللهُ وشئتَ»، فقال: «**أجعلتني لله نِدّاً؟! ما شاءَ الله وحدَهُ**».

ولابن ماجه عن الطُّفيل أخي عائشة لأُمِّها قال: رأيتُ كأنِّي أتيتُ على نفرٍ من اليهود، فقلتُ: إنَّكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون: عزيرٌ ابن الله.

قالوا: وإنَّكم لأنتم القوم لولا أنَّكم تقولون: ما شاءَ اللهُ وشاء محمَّد.

ثُمَّ مررت بنفرٍ من النَّصارى فقلتُ: إنَّكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون: المسيحُ ابنُ الله.

قالوا: وإنَّكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمَّد.

فلمَّا أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت، ثُمَّ أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فأخبرته. قال: «**هل أخبرت بها أحداً؟**»

قلتُ: نعم.

قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «**أمَّا بعد؛ فإنَّ طفيلاً رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنَّكم قلتُم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمَّد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحدَهُ**».





بابُ
قولِ: «ما شاء اللّه وشئتَ»

۞ عن قُتيلة، أنَّ يهوديّاً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: إنَّكم تشركون، تقولون: «ما شاءَ الله وشئتَ»، وتقولون: «والكعبة!».
فأمرهم النَّبيُّ ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «وربِّ الكعبة»، وأن يقولوا: «ما شاءَ الله ثُمَّ شئتَ». رواه النسائيُّ وصحَّحَهُ(١).

دلَّ هذا الحديث على ما دلَّت عليه الأحاديث السَّابقة من النَّهي عن الشِّرك الأصغر، فاليهوديُّ عرف أنَّ قول: **(ما شاء الله وشئتَ)** شركٌ، وقد أقرَّهُ النَّبيُّ ﷺ ولم ينكر عليه، بل نهى عن ذلك؛ لأنَّ الواو تقتضي مطلق الجمع والاشتراك، وأنَّ مشيئة المخلوق مثل مشيئة الله، والمخلوق له مشيئة لكنَّها تابعة لمشيئة الله ـ كما تقدَّم ـ، لكن النَّهي إنَّما هو لوجود الواو المقتضية لمطلق الجمع بين مشيئة المخلوق ومشيئة الله، فما ظنُّك بمن قال: «أنا تائبٌ إلى الله وإليك»؟! أو: «أرجو الله وأرجوك»؟! هذا أشدُّ.

(ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شئت): قد تقول: **«ثُمَّ»** أليست مثبتة للاشتراك في المشيئة بين العبد وبين الله؟

نقول: بلى، لكنَّها تقتضي التَّرتيب والتَّأخير لا الجمع، فمشيئة الله مقدَّمة على مشيئة العبد، كما تقول: «جاء زيدٌ ثُمَّ عمروٌ»، هذا الكلام يقتضي تأخُّرَ مجيءِ عمروٍ عن مجيءِ زيدٍ، وسَبْقَ مجيءِ زيدٍ على مجيءِ عمروٍ، بخلاف ما لو قلت: (جاء زيدٌ وعمروٌ).

(١) ينظر تخريجه في الكلام على حديث حذيفة في باب: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

في الحديث فوائد:

أوّلاً: فيه أنَّ اليهوديَّ عرف الحقَّ، ومع هذا لم ينفعه؛ لأنَّهُ لم يعمل به، خلافاً لغلاة المرجئة القائلين أنَّ التَّصديق يكفي، فإذا صدَّق الإنسان حصل له الإيمان وإن تخلَّف العمل.

ثانياً: فيه دليلٌ على قبول الحقِّ ممَّن جاء به، فكلُّ من جاءك بحقٍّ فينبغي أن تقبله وإن كان عدوَّك، وإن كان كافراً، لا ينبغي أن تردَّهُ، بل تتلقَّاه بالقبول والإذعان والتَّسليم؛ فإنَّ رسول الله ﷺ قَبِلَ قول اليهوديِّ مع كونه كافراً.

ثالثاً: أنَّ الحلفَ بغير الله شركٌ ـ كما تقدَّم ـ؛ لأنَّ اليهوديَّ قال: (**إنَّكم تشركون**)، وأقرَّه الرَّسولُ ﷺ، ولم يقل: (كذبتَ).

رابعاً: أنَّ الحقَّ متى علمته ينبغي أن تعمل به مباشرة؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ نهاهم مباشرة عن أن يحلفوا بغير الله، ونهاهم عن أن يقولوا: (**ما شاء الله وشئت**)، وأمرهم أن يقولوا: (**ما شاء الله ثُمَّ شئت**)، ونهاهم عن قول: (**والكعبة**)، وأمرهم بقول: (**وربِّ الكعبة**).

۞ وله ـ أيضاً ـ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ ﷺ: «ما شاء الله وشئتَ»، فقال: «أجعلتني لله نِدّاً؟! ما شاءَ الله وحدَهُ»[(١)].

(وله): أي: النَّسائي.

---

(١) هذا الحديث جاء من حديث الأجلح، عن يزيد بن الأصمِّ، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.
وفيه لينٌ؛ فإنَّ الأجلحَ ـ وهو عبد الله بن حُجيَّة الكوفيُّ الشِّيعيُّ ـ وثَّقه ابن معين (تاريخ ابن معين للدُّوري ٣/ ٢٦٩)، والعجليُّ (ثقاته ص٥٧)، وقال ابن عديٍّ (٢/ ١٤٠): «هو عندي مستقيم الحديث صدوقٌ»، ورمز له الحافظ في التَّجريد من اللِّسان (٩/ ٢٥٢) بأنَّه ممَّن اختلف فيه والعمل على توثيقِهِ.
لكن ضعَّفه أبو داود (سؤالات الآجرِّي ص١٧٩)، والنَّسائيُّ (الكبرى ٣/ ٤٠٢)، وابن سعد (الطبقات ٦/ ٣٥٠)، وأبو حاتم (الجرح والتعديل ٢/ ٣٦٤)، وابن حبَّان (المجروحين ١/ ١٧٥)، وأسرف الجوزجانيُّ (أحوال الرِّجال ص٥٩) فقال: «مفتري»، وهذه عادته في المبالغة في الحطِّ على الرُّواة الشِّيعة، نبَّه على ذلك الحافظ، ينظر: بذل الماعون (ص١١٧).
ثُمَّ إنَّه قد اختُلِفَ عليه: فرواه من هذا الوجه عن الأجلح:
ابنُ المبارك في مسنده (١٨١).
وهشيمٌ عند الإمام أحمد (٣/ ٣٣٩) (١٨٣٩).
وأبو معاوية عند الإمام أحمد ـ أيضاً ـ (٣/ ٤٣١) (١٩٦٤).
والثَّوريُّ عند الإمام أحمد (٤/ ٣٤١) (٢٥٦١)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧٨٣)، وابنِ عديٍّ (٢/ ١٤٠)، وابنِ السُّني في عمل اليوم والليلة (٦٦٧)، والطبرانيِّ (١٣٠٠٥)، وأبي نعيم في الحلية (٤/ ٩٩).
ويحيى القطان عند الإمام أحمد (٥/ ٢٩٧) (٣٢٤٧).
وعيسى بن يونس عند النَّسائيِّ في الكبرى (١٠٧٥٩).
وعلي بن مسهر عند ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٧٨) (٢٧٢٢٧).
وجعفر بن عون عند البيهقيِّ (٣/ ٣٠٧).
وشيبان بن عبد الرَّحمٰن النَّحوي عند الطَّحاويِّ في شرح مشكل الآثار (١/ ٢١٨).
كُلُّهم عن الأجلح، عن يزيد، عن ابن عبَّاس.
وخالف التسعةَ: القاسمُ بن مالك ـ وهو صدوقٌ ـ، فرواه عن الأجلح، عن أبي الزُّبير، عن جابر، به، كما عند النَّسائيِّ في الكبرى (١٠٧٥٨).
=

انظر في هذا الحديث إلى حماية الرَّسول ﷺ للتَّوحيد، بل وحمايته حِمى التَّوحيد؛ فإنَّهُ أنكر عليه أشدَّ الإنكار لما قال له: «ما شاء الله وشئت»، ولا شكَّ أنَّ للرَّسول ﷺ مشيئة، ولكن مشيئته تابعة لمشيئة الله، فحسم ﷺ مادَّة الشِّركِ بهذا الإنكارِ الشَّديدِ.

= قال أبو حاتم (العلل لابن أبي حاتم ٥/٦٠٩): «هذا حديثٌ منكرٌ، إنَّما يرويه الأجلح، عن يزيد بن الأصمِّ، عن ابن عبَّاس، عن النبيِّ ﷺ».

۞ ولابن ماجه عن الطُّفيل أخي عائشة لأُمِّها قال: رأيتُ كأنِّي أتيت على نفرٍ من اليهود، فقلت: إنَّكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون: عزيرٌ ابن الله.

قالوا: وإنَّكم لأنتم القوم لولا أنَّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمَّد.

ثُمَّ مررت بنفرٍ من النَّصارى فقلت: إنَّكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون: المسيح ابن الله.

قالوا: وإنَّكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون: ما شاءَ الله وشاء محمَّدٌ.

فلمَّا أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثُمَّ أتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته، قال: «**هل أخبرت بها أحداً؟**»

قلت: نعم.

قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «**أمَّا بعد؛ فإنَّ طفيلاً رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنَّكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمَّد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحدَهُ**»(١).

(**إنكم لأنتم القوم**)؛ أي: نعمَ القوم أنتم فإنَّكم أهل كتاب، إلَّا أنَّ فيكم

---

(١) رواهُ ابنُ أبي شيبة في مسنده (٦٥٢)، والإمامُ أحمد (٣٤/ ٢٩٦) (٢٠٦٩٤)، وابن أبي عاصم (الآحاد والمثاني ٢٧٤٣)، والطبرانيُّ (٨٢١٤)، والحاكم (٣/ ٥٢٣) من طريق **حمَّاد بن سلمة**.

والإمام أحمد (٣٨/ ٣٩٦) (٢٣٣٨٢)، والدَّارميُّ (٢٧٤١)، والطبرانيُّ (٨٢١٤)، وأبو يعلى (٨/ ١١٨) من طريق **شعبة**.

وابن ماجه (٢١١٨) ـ وساق إسناده دون متنه ـ من طريق **أبي عوانة اليشكري**.

والحاكم (٣/ ٥٢٣)، والبيهقيُّ (الأسماء والصِّفات ٢٩٢) من طريق **عبيد الله بن عمرو**.

=

خصلة قبيحة شركيَّة يُنزَّهُ الرَّبُّ عنها حيث تقولون: (**عزيرٌ ابن الله**).

فردَّ عليه اليهود فقالوا: يا أصحاب محمَّد نِعم القوم أنتم، إلا أنَّكم تقولون: (**ما شاء الله وشاء محمَّد**).

(**ثُمَّ مررتُ بنفرٍ من النَّصارى**)؛ أي: بجماعة من النَّصارى، قال لهم مثل ما قال للنَّفر من اليهود، وردَّ النَّفرُ من النَّصارى على الطفيل بمثل ما ردَّ به النَّفر من اليهود.

وفي الحديث دليلٌ على أنَّ الرُّؤيا قد تكون سبباً لتشريع بعض الأحكام؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ نهى عن هذه الكلمة بسبب ما جاء في رؤيا الطفيل، وكذلك الأذان لما أراد النَّبيُّ ﷺ أن يُعْلِمَ النَّاسَ بالصَّلاة قال بعضهم: «لو اتَّخذت بوقاً مثل بوق اليهود» ـ وبوق اليهود مثل القرن يُنفخ فيه فيصير له صوتٌ ـ فكرهه.

وقيل له: «لو اتَّخذت ناقوساً مثل ناقوس النَّصارى» ـ وهو شيءٌ يُضرب بعصاً أو بحديدة فيصير له صوتٌ عالٍ ـ فكرهه، حتَّى رأى عبد الله بن زيد رؤيا، قال: «طاف بي وأنا نائمٌ رجل عليه ثوبان أخضران...» الحديث فعلَّمه الأذان، فأخبر النَّبيَّ ﷺ بما رأى من الأذان، قال: «**ألقه على بلال؛ فإنَّهُ**

= والطبرانيُّ (٨٢١٥) من طريق **زيد بن أبي أنيسة**.
الخمسة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعيِّ بن حراش، عن الطفيل، به.
وخالفهم **سفيان بن عيينة** كما عند الإمام أحمد (٣٨/ ٣٦٤) (٢٣٣٣٩)، والبزَّار (٢٨٣٠)، والنسائيِّ (عمل اليوم واللَّيلة ٩٨٤)، وابن ماجه (٢١١٨)، والبيهقيِّ (الأسماء والصفات ٢٩٢) فرواه عن عبد الملك، عن ربعيٍّ، عن حذيفة بن اليمان به مرفوعاً.
ورواه **معمرٌ** عن عبد الملك فاضطرب فيه فأرسله مرَّة عن عبد الملك، كما في رواية عبد الرزَّاق عنه (جامع معمر ١٩٨١٣)، ورواه في الأخرى عن عبد الملك، عن جابر بن سمرة، به، كما في رواية هشام بن يوسف عنه عند الطحاويِّ (شرح المشكل ١/ ٢١٩)، وابن حبَّان (٥٧٢٥)، و«هشام أتقنُ من عبد الرزَّاق وأجلُّ» قالَهُ الذَّهبيُّ في السِّير (٩/ ٥٨٠).
صوَّب الوجه الأوَّل البخاريُّ (التَّاريخ الكبير ٤/ ٣٦٤)، والبزَّارُ (٧/ ٢٥١)، والمزيُّ (جامع المسانيد ٤/٣٩٩)، ونقله ابنُ حجر عن الحفَّاظ (الفتح ١١/ ٥٤٠).

أندى صوتاً منك»[(١)]، فصار سبب تشريع الأذان هي تلك الرُّؤيا.

و«الرُّؤيا الصَّالحة جزءٌ من سِتَّةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة»[(٢)]، فأوَّل ما بُدئ به الرَّسولُ ﷺ قبل الوحي: الرُّؤيا الصَّالحة، ومعنى أنَّ الرُّؤيا جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة: أنَّ زمن النُّبوَّة ثلاث وعشرون سنة، فيكون نصفها ستَّة أشهر، والرَّسول ﷺ بُدئ بالرُّؤيا نحو ستَّة أشهر قبل أن ينزل عليه الوحي، فصارت الرُّؤيا بمنزلة ستَّة أشهر من ثلاث وعشرين سنة.

وللرُّؤيا طرق وعلامات تُعرف بها صحَّتها، وهي مذكورةٌ في كتب القوم.

وفي الحديث: أنَّهُ ينبغي عندما يريد الإمام أن ينهى عن شيءٍ أو يأمر بشيءٍ مهمٍّ، أن يخطب بالنَّاس؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ حمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: **(أمَّا بعد..)** الحديث.

وأنواع الحمد أربعة:

الأوَّل: حمدُ قديمٍ لقديمٍ، وهو: حمدُ الله لنفسِهِ.

الثَّاني: حمدُ حادثٍ لحادثٍ، وهو: حمدُ بعض الخلق لبعضهم.

الثَّالثُ: حمدُ حادثٍ لقديمٍ، وهو: حمدك الله ـ سبحانه ـ.

الرَّابع: حمدُ قديمٍ لحادثٍ، وهو ما يحمده الله من أعمال خلقه التي يؤدُّونها فتكون موضع الرِّضا منه ـ سبحانه ـ.

وقد تنوَّعت عبارات العلماء في تعريف (الحمد)، فقيل:

هو: «فعلٌ يُنبي عن تعظيم المنعِم»، وهذا تعريف الحنابلة وغيرهم، لكن

---

(١) رواهُ الإمام أحمد (٢٦/٤٠٢) (١٦٤٧٨)، والدارميُّ (١٢٢٤)، وأبو داود (٤٩٩)، وابن ماجه (٧٠٦)، وابن الجارود (١٥٨)، وابن خزيمة (٣٧١)، وابن حبَّان (١٦٧٩)، والدَّارقطنيُّ (٩٣٥)، والبيهقيُّ (١/٦٢٨) من طريق ابن إسحاق، قال: حدَّثني محمَّد بن إبراهيم التيميُّ، عن محمَّد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربِّه، عن أبيه، به.
وإسنادُهُ جيِّدٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٩٨٧ ـ ٦٩٨٨)، ومسلمٌ (٢٢٦٤ ـ ٢٢٦٣) من حديث عبادة بن الصَّامت وأبي هريرة رضي الله عنهما.

القول الصَّحيح في تعريف الحمد هو أنَّهُ: «الثَّناء على المحمود مع حُبِّهِ وتعظيمِهِ وإجلالِهِ».

وفرق بين الحمدِ والمدحِ؛ فإنَّ المدحَ هو: مجرَّد الثَّناء على الممدوح، فإن اقترنَ الثَّناءُ بالمحبَّةِ والتَّعظيم صار حمداً، وأمَّا إن كان ثناءً فقط فهو مدح، فكُلُّ حمدٍ هو مدحٌ، وليس كُلُّ مدحٍ حمداً.

(أمَّا بعد): كثيراً ما يستعملها النَّبيُّ ﷺ في خطبه وفي مراسلاته، و**(أمَّا)** حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ، و**(بعدُ)**: ظرفٌ مبنيٌّ على الضَّمِّ لقطعِهِ عن الإضافة، ويجوز نصبُه: **(أمَّا بعدَ)**؛ بتقدير: «أمَّا بعدَ ما تقدَّم من حمدِ الله والثَّناء عليه»، على نيَّة حذف المضاف إليه، والمعروفُ الضَّمُّ، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ [الروم: ٤]، وهي للانتقال من أسلوب إلى آخر.

واختلف العلماءُ في أوَّل من نطق بها، فقيل: إنَّ أوَّل من نطق بها هو: هو آدم عليه السلام.

وقيل: يعقوب عليه السلام.

وقيل: داود عليه السلام.

وقيل: قسُّ بن ساعدة.

وقيل: سُحبانُ بن وائل، الخطيب المعروف، واستدلُّوا على هذا بقوله:

لقد عَلِمَ الحيُّ اليمانون أنَّني إذا قلتُ: أمَّا بعدُ أنِّي خطيبها

وأقرب الأقوال أنَّ أوَّل من نطق بها هو داود عليه السلام، وهو الذي رجَّحَهُ الحافظ ابن حجر وغيرُهُ[١].

والأقوال في هذا ثمانية، نظمها بعضهم[٢] بقولِهِ:

جرى الخُلف «أمَّا بعد» من كان بادئاً بها عُدَّ أقوال وداودُ أقربُ
ويعقوبُ أيُّوبُ الصَّبورُ وآدمٌ وقسٌّ وسُحبان وكعبٌ ويعربُ

---

(١) ينظر: فتح الباري (٢/ ٤٠٤).

(٢) وهو: الشَّمس الميداني، ينظر: غذاء الألباب للسَّفَّاريني (١/ ٣٤)، إحراز السَّعد للجوهري (ص٣٣).

وليست هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ٢٠]؛ لأنَّ الذي في الآية هو: الفصل بين الحقِّ والباطلِ.

(إنَّكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا): يعني: الحياء، كما جاء في رواية الطبرانيِّ(١)، والله لم ينه عنها، ولكن لما رأى الطُّفيل هذه الرُّؤيا أمر الله رسولَهُ ﷺ بأن ينهى عنها، فكانت رؤيا الطُّفيل كالمقدِّمة والإرهاص للنَّهي عن قول: **(ما شاء الله وشاء محمَّد)**، و**(ما شاء الله وشئتَ)**.



(١) المعجم الكبير (٨٢١٤).

بابٌ
مَنْ سبَّ الدَّهرَ فقد آذى اللَّه

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

في «الصَّحيح» عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم، يسبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ**».

وفي رواية: «**لا تسبُّوا الدَّهر؛ فإنَّ الله هو الدَّهرُ**».





بابٌ
مَنْ سبَّ الدَّهرَ فقد آذى اللَّه

(الدَّهر) هو: اللَّيل والنَّهار، وسبُّهُ فيه نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ سابَّهُ ينسبُ الأشياء إليه، فكأنَّ المتصرِّف هو الدَّهرُ، ولم يعلم أنَّ الله هو المتصرِّف في هذا العالم كما تقتضيه حكمته وإرادتُهُ، وما الدَّهرُ إلَّا محلٌّ وزمنٌ لتصرُّف الله في خلقه بما يريد، فسبُّ الدَّهرِ منافٍ للتَّوحيد؛ كقولهم: «يا خيبة الدَّهر»، و«هذه سنةُ سوء»، ومثله قول العامَّة: «هذه سَنَةٌ قشرا»، عندما يحِلُّ بهم شيءٌ من المصائب، «هذا يومٌ أقشر»، هذا لا يجوز، وهذا مِن سبِّ الدَّهر، فاليوم ما هو إلَّا زمن ومحلٌّ لما يقدِّر اللهُ فيه.

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

(﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾) هذا قول مشركي العرب؛ فإنَّ مشركي العرب يرون أنَّ هذا العالم لا ابتداء له ولا نهاية، وهذا رأي بعض الفلاسفة، وممَّن رأى هذا الرَّأي: ابن سينا ـ المشهور ـ، فهو يرى قِدم العالم وأنَّ هذه الأجسام لا تعاد!

ومعنى «**قدم العالم**»: أنَّ هذا العالم لا مبدأ لَهُ، بل هو قديمٌ ليس له أوَّلٌ، فيُنكِرُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، ويُنكِرُ: «**كان الله ولم يكن شيءٌ قبلَهُ وكان عرشُهُ على الماءِ**»(١)؛ لأنَّهُ يرى أنَّ هذا العالم ليس محدثاً، ولأجل هذا كفَّرَهُ العلماء.

قال أبو حامد الغزَّالي: يُكفَّر ابن سينا بثلاثة أمور ـ أمَّا التي حاد فيها

(١) رواه البخاريُّ (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ﵄.

عن الحقِّ من المسائل نحو عشرين، لكن التي يكفَّر بها ثلاثة ـ:

الأوَّل: قوله بقدم العالم؛ يعني: أنَّ الله لم يحدث هذا العالم.

الثَّاني: قوله بإنكار معاد الأجسام، أنَّها لا تعاد ولا تحيى.

الثَّالث: قوله: إنَّ الله غير عالم بالجزئيات، فالجزئيات لا يعلمها الله، وإنَّما يعلم الكليَّات.

من أجل هذا جعلوه إمام الملحدين، وكفَّروه(١).

وقال العلَّامة ابن القيِّم في «إغاثة اللَّهفان»(٢): «ابن سينا يحكي عن نفسِهِ أنَّهُ هو وأبوه من دعاة الحاكم»، والحاكم هذا يزعم أنَّهُ هو الخالق، ويزعم أنَّهُ هو المتصرِّف بهذا العالم، وأمر أن يُكتبَ لعنُ أبي بكر وعمر على أبواب الجوامع، هذا شأنه!، قال ابن القيِّم في ابن سينا: «هو إمامُ الملحدين، وإمامُ الكفرةِ».

وتكلَّم الذَّهبيُّ عن ابن سينا فقال: «هو رأس الفلاسفة، يتمشَّى مع المعقول تاركاً ما جاء به الرَّسول ﷺ»(٣)؛ لأنَّهُ يرى رأي الفلاسفة الدَّهريِّين، وقيل: إنَّهُ تاب في آخر حياتِهِ، والله أعلمُ بذلكَ(٤).

(﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾) لا يوجد بعث ولا بدء لهذا العالم، ولا تنتهي الدُّنيا، ولا قيامة، ولا حساب وجزاء، ولا جنَّة ونار.

(﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾) الأيَّام واللَّيالي هي التي تُبلي النَّاس وتذهبهم، كلَّما ذهب أقوامٌ خلفهم آخرون إلى ما لا نهاية له، تذهب بأقوام وتجيء بآخرين، والفلاسفة يرون أنَّ كُلَّ ستٍّ وثلاثين ألف سنة، يعود البرُّ بحراً والبحر برّاً، وهلُّم جرّاً، بزعمهم أنَّ الشَّمس تحلُّ في كُلِّ برجٍ ثلاثةَ آلاف سنة، والبروجُ عدَّتها: (اثنا عشر)، ـ فمثلاً ـ تبقى في برج الحمل ثلاثة آلاف، ثُمَّ في برج الثَّور ثلاثة آلاف، فإذا انتهت المدَّة وهي: ستة وثلاثون ألف سنة، أصبحت البراري هذه كلُّها بحاراً، وأصبحت البحار براري، ودار الزَّمن عدَّة

(١) ينظر: المنقذ من الضلال ص(١٤٤).
(٢) (٢/ ٢٦١، ٢٦٦ ـ ٢٦٨).
(٣) تاريخ الإسلام (٩/ ٤٣٨).
(٤) ينظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٦٠).

أدوار!، وهذا من أبطل الباطل، وهو مخالفٌ لما جاءت به الرُّسل من البعث والمعاد والنُّشور.

ردَّ عليهم الله ـ سبحانه وبحمده ـ بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ من الله ولا من رسله، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ قولاً غير متيقَّن، بل مجرَّد ظنونٍ.

۞ في «الصَّحيح» عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**قال الله ـ تعالى ـ: يؤذيني ابنُ آدم، يسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ**»[1].

وفي رواية: «**لا تسبوا الدَّهرَ؛ فإنَّ الله هو الدَّهرُ**»[2].

في «الصَّحيح»؛ أي: «صحيح البخاري»[3].

(**يؤذيني ابن آدم**): كما هو جارٍ على ألسنة بعض العامَّة: (يا خيبة الدَّهر)، (هذه ساعة قشرا)، (هذا يوم أقشر)، (هذه ساعة غير مباركة التي جمعت بيني وبينك) هذا فيه إيذاء لله؛ كأنَّك تنسبُ الضرَّ والنَّفع والإصلاح إلى السَّاعة واليوم والزَّمن، ناسياً أنَّ المتصرِّف هو الله ـ سبحانه ـ.

والإيذاء: هو ما قلَّ أثرُهُ وسهلَ أمرُهُ؛ فالله غنيٌّ عن العباد، لكن هذا سوء أدب مع الله؛ حيث نسب الضرَّ والنَّفع إلى الدَّهرِ، سواء اعتقد أنَّ الدَّهرَ هو المؤثِّر والفاعلُ لذلك، أو اعتقد أنَّ اللهَ هو الذي فعل ذلك في الدَّهر، الدَّهر خلق من خلق الله فلا تسبَّهُ، ما هو إلَّا زمنٌ ومحلٌّ لما يقدِّره اللهُ ويقضيه، لا أنَّ الدَّهرَ هو الذي يوجِدُ القدرَ والقضاء، ما الدَّهر إلا أيَّام وليالي، وأنت وعملك، كما قال أبو تمَّام:

أحلامُ ليلٍ أو كظلٍّ زائلٍ ... إنَّ اللَّبيب بمثلها لا يخدعُ[4]

وقال:

(١) رواهُ البخاريُّ (٤٨٢٦)، ومسلمٌ (٢٢٤٦).

(٢) رواها البخاريُّ (٦١٨٢) بلفظ: «**لا تقولوا: يا خيبة الدَّهرِ؛ فإنَّ الله هو الدَّهرُ**»، ومسلمٌ (٢٢٤٦) باللَّفظ الذي ذكره المصنِّف رحمه الله.

(٣) هو في الصَّحيحين كما سبق، وإنما تبع الشَّارحُ في ذلك الشَّيخ سليمان ـ رحم الله الجميع ـ، ينظر: التَّيسير (٢/ ١٢٠٤).

(٤) لم أجد هذا البيت في ديوان أبي تمَّام، ونُسب إلى عمران بن حطَّان، ينظر: خزانة الأدب (٥/ ٣٦١)، شعر الخوارج (ص١٥٥).

ثُمَّ انقضت تلك السُّنون وأهلها فكأنَّها وكأنَّهم أحلامُ[١]

(وفي رواية: «لا تسبُّوا الدَّهرَ؛ فإنَّ اللهَ هو الدَّهر»): لا تظن أنَّ الله هو الدَّهر بذاته لكن المعنى: «لا تسبُّوا الدَّهر؛ فإنَّ الله هو خالق الدَّهر»، ومكوِّن الكائنات.

وغلط ابنُ حزمٍ في هذا؛ حيثُ زعمَ أنَّ (الدَّهرَ) اسمٌ من أسماء الله، وهذا غلطٌ منه ومن أمثاله، وابنُ حزمٍ في باب الأسماء والصِّفات من أضعف النَّاس، بل سلك مسلك المعتزلة؛ لأنَّهُ لم يتيسَّر له من يدلُّهُ على مذهب أهل السُّنَّةِ كما قالَهُ ابن تيميَّة في كتابه «منهاج السُّنَّة»[٢].

فابن حزم كُلُّ فعلٍ من أفعال الله يَشتقُّ له منه اسماً أو صفة منه، فمثلاً: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣] يقول: إنَّ الله هو الفاتن! والله هو المستهزئ والماكر؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وأنت تعرف أنَّ هذا من أكبر الغلطِ، وأنَّ الله يُجَلُّ وينزَّهُ عن هذا.

والقاعدة الشَّرعية في هذا: أنَّ باب الإخبار عن الله ـ سبحانه ـ أوسع من باب الأسماء والصِّفات، فنسمِّيه بما سمَّى به نفسه أو سمَّاه به رسوله ﷺ، ونصفه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، أمَّا أن نشتقَّ له من كُلِّ فعلٍ اسماً فهذا غلطٌ، وقد ذكر هذه القاعدة وأطال فيها ابن القيِّم في كتابه: «بدائع الفوائد»[٣]، وهو بحثٌ نفيسٌ.



---

(١) ينظر: شرح ديوان أبي تمَّام للتبريزي (٢/ ٧٣).

(٢) (٢/ ٥٨٤).

(٣) (١/ ٢٨٠) وما بعدها.

بابُ
التَّسمِّي بقاضي القضاة ونحوِهِ

في «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **«إنَّ أخنعَ اسمٍ عند الله: رجلٌ تسمَّى «ملك الأملاك»، لا مالك إلَّا الله»**.

قال سفيانُ: مثل (شاهان شاه).

وفي رواية: **«أغيظُ رجلٍ على الله يوم القيامة وأخبثُهُ»**.

قوله: **(أخنع)**؛ يعني: أوضع.



بابُ
التَّسمِّي بقاضي القضاة ونحوِهِ

كملك الأملاك، وسلطان السَّلاطين، وحاكم الحكَّام، وما أشبه ذلك، عقد المصنِّف هذه التَّرجمة ليُنبِّهك أنَّ هذا لا يصلح إلَّا لله، وأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ هو حاكم الحُكَّام، وهو قاضي القضاة، فهذه ألقاب ضخمة لا يتحمَّلها المخلوقُ، أمَّا: (رئيس القضاة)، أو: (رئيس الملوك) فهذا ليس فيه مانع.

۞ في «الصَّحيح» عن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ أخنعَ اسم عند الله: رجلٌ تسمَّى «ملك الأملاك»، لا مالك إلَّا الله**».
قال سفيانٌ: مثل (شاهان شاه)[١].
وفي رواية: «**أغيظُ رجلٍ على الله يوم القيامة وأخبثُهُ**»[٢].
قوله: «**أخنع**»؛ يعني: أوضع[٣].

(**إنَّ أخنعَ**)؛ أي: أوضعَ وأسخطَ وأحطَّ اسمٍ من تسمَّى: (**ملك الأملاك**)، أو: (سلطان السَّلاطين).

يقال: (فلان وضيعٌ)؛ أي: ساقط ورذيل، وكذلك أوضع النَّاس من تسمَّى بهذه الأسماء التي لا تصلحُ إلَّا لله ـ سبحانه ـ.

و(**شاهان شاه**): هذا في لغة فارس، وإن كان هذا اللَّفظ غير عربيٍّ إلَّا أنَّهُ في اللُّغةِ العربيَّة بمعنى: (**ملك الأملاك**)، سواء بسواء.

وقد ذكر العلماء حكم الأسماء، وما هي أحسن الأسماء، وما هي الأسماء التي ينبغي تغييرها، فمعلوم أنَّ النبيَّ ﷺ غيَّر أسماء رجالٍ من

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٢٠٧)، ومسلمٌ (٢١٤٣).
(٢) رواها مسلم (٢١٤٣).
(٣) قالَهُ سفيانُ كما عند مسلم.

الصَّحابة؛ كرجل اسمه: (غاوي)، سمَّاه: (راشداً)، وكذلك ما فيه تزكية غيَّره كصحابيَّة اسمها: (برَّة) غيَّرها الرَّسولُ ﷺ إلى (زينب)[١]، وقد قال الرَّسولُ ﷺ: «**أحبُّ الأسماء إلى الله ما عُبِّدَ وحُمِّدَ**»[٢]؛ أي: ما كان عبداً لله: عبد الله، وعبد العزيز، وعبد الصَّمد، وعبد الباسط، أو ما يدلُّ على التَّحميد؛ كمحمَّد، وحامد، وحمَّاد، لكثرة صفاته الحميدة تفاؤلاً، هذا أحسنها.

وهناك أسماء تجوز التَّسمية بها؛ كعمر، وعثمان، وعليٍّ وما أشبه ذلك.

وهناك أسماء تُكره التَّسمية بها؛ كحرب، قال الحنابلة: «تكره التَّسمية بحرب وما أشبهه»[٣].

وأما الألفاظ الضَّخمة مثل: و(تقيِّ الدِّين)، و(شمس الدِّين)، و(برهان الدِّين)، و(بهاء الدِّين) فهل نقول: هي منهيٌّ عنها؛ لأنَّ فيها شيئاً من التَّزكية، والله يقولُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢]؟

يلقَّب: (شمس الدِّين)؛ لأنَّهُ جعلَ الدِّين بمنزلة الشَّمس في الوضوح، أو أنَّ الدِّين شرَّفه وجعله كالشَّمس، على كلا التقديرين هل يجوز ذلك؟

أو: (محيي الدِّين)؛ أحيا الدِّين بعد وفاته أو قريباً منها، أو أنَّ الله أحياه بالدِّين، أو: (قمر الدِّين)، أو: (نور الدِّين)، وما أشبه ذلك، كثيراً ما نقرأ في كتب أهل العلم مثل هذه الألقاب الضَّخمة فما حكم هذه الألقاب؟

المسألة تحتاج إلى بحثٍ، فبعض العلماء يرى التَّحريم، وأنَّها من الألقاب التي فيها تزكية للملقَّب بها، وهو خالٍ منها[٤]، ونُقل عن النَّوويِّ أنَّه قال: «لا أجعلُ في حلٍّ من لقَّبني بـ(محيي الدِّين)»[٥].

---

(١) رواهُ مسلم (٢١٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هو بهذا اللَّفظ ـ على شهرته ـ لا أصلَ لَهُ، وفي صحيح مسلم (٢١٣٢) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله عبدُ الله وعبدُ الرَّحمٰن**».

(٣) ينظر: كشَّاف القناع (٦/ ٤٤٤).

(٤) وفي هذا أنشد الأمير الصَّنعاني رحمه الله (ديوان الأمير ص٢٥٦):

تسمَّى بـ«نور الدِّين» وهو ظلامُهُ ... وهذا بـ«شمس الدِّين» وهو له كسفُ
وذا «شرف الإسلام» يدعوهُ قومهُ ... وقد نالهم من جَوره كلِّهم عسفُ

(٥) ينظر: المنهل العذب الروي (ص١١).

وقيل: هي مكروهة كراهة تنزيه[١].

أمَّا الذي في «الإقناع»[٢]: أنَّهُ إن كان اللَّقب صدَّقه الفعلُ فلا مانع، وإن كان لقباً لا حقيقة له فلا يجوز.

لكن هذا لا يجوز مطلقاً، حتَّى ولو قلنا بتوسُّط الحجاويِّ؛ من هو الذي حقَّق بفعله لقب: (شرف الدِّين)، أو: (عز الدِّين)، أو: (محيي الدِّين)؟!

الحقيقة أنَّ النَّفس لا ترتضي هذا، وإن كان اشتهر في كثير من علماء العرب والعجم والشَّرق والغرب والقديم والحديث، لكن السَّلف لم يكونوا يعرفون شيئاً من هذا، والقصد من هذا معرفة الحكم وأن يكون الإنسان على بيِّنةٍ من أمره، ولا سيَّما في الشَّيء الذي يجري بكثرة على الألسن، والموجود في الكتب، فالذي يترجَّح لديَّ المنع مطلقاً، النَّفس تميل لهذا؛ لأنَّهُ خلافُ الواقع في الغالب، وتزكيةٌ للنَّفس، وقولهم: (إنَّها أصبحت كالأعلام المحضة)، ليس بصحيح، ليست كالأعلام المحضة؛ لأنَّ اللَّفظ جُعل دلالة على المعنى.

وابن القيِّم تكلَّم في «إعلام الموقِّعين»[٣] عن دلالة اللَّفظ على ما وُضِعَ له، نوى المعنى أم لم ينوه، إذا لم ينو وكان منهيَّاً عنه فهو محرَّمٌ، وإذا نوى فهو أشدُّ في التَّحريم؛ كمن تكلَّم بما لا ينبغي ثُمَّ قال: «أنا قصدي كذا وقصدي كذا»، ما ينفعه هذا، نُحمِّله مدلولَهُ ونيَّته له، سواء قصد أو لم يقصد، مثل ما يفعله بعض النَّاس عندما يغلط وترد عليه يقول: «أنا قصدي كذا وقصدي كذا»، فابن القيِّم يقول: قصدك لك؛ كلامك هذا لا يجوز؛ لأنَّ هذا مدلول كلامك.

وأمَّا قولهم: (صاحب الجلالة)؛ أي: صاحب العظمة، فإطلاقها لا يصلح إلَّا لله؛ لأنَّ الجلالة بمعنى العظمة، والعظمة حيث أُطلقت لا تصلح إلَّا لله[٤].

---

(١) معجم المناهي اللفظية (ص٤٩٧). (٢) (١/ ٤١٠).

(٣) (٣/ ١٨٥).

(٤) (صاحب الجلالة): تفيد الاختصاص، فمنع منها جماعة من علماء قطرنا، بخلاف: (جلالة الملك) فليست بممنوعة، قال الشَّيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الفتاوى ١/ ٢٠٦): «قولهم: (جلالة الملك المعظَّم) لا يظهر لي أنَّ فيها بأساً؛ لأنَّ له جلالة تناسبُهُ».

بابُ
احترامِ أسماءِ اللَّهِ وتغييرِ الاسمِ لأجلِ ذلكَ

عن أبي شريح: أنَّهُ كان يُكنى (أبا الحكم)؛ فقال لَهُ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكْمُ**».

فقال: إنَّ قومي إذا اختلفوا في شيءٍ أتوني، فحكمتُ بينهم، فرضيَ كلا الفريقين.

فقال: «**ما أحسنَ هذا، فما لك من الولدِ؟**».

قلت: شريحٌ، ومسلمٌ، وعبدُ الله.

قال: «**فمن أكبرهم؟**».

قلت: شريح.

قال: «**فأنت أبو شريح**». رواه أبو داود وغيرُهُ.





بابُ
احترام أسماء اللَّه وتغيِّير الاسم لأجل ذلك

لا ينبغي للمخلوق أن يتسمَّى باسمٍ من أسماء الله، أو يتكنَّى بوصفٍ مختصٍّ بالله، هذا من كمال التَّوحيد بل من تحقيق التَّوحيد ومن تعظيم الله - سبحانه -.

۞ عن أبي شريحٍ: أَنَّهُ كان يُكنى (أبا الحكم)؛ فقال لَهُ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله هو الحَكَمُ، وإليه الـحُكْمُ**».

فقال: إنَّ قومي إذا اختلفوا في شيءٍ أتوني، فحكمتُ بينهم، فرضيَ كلا الفريقين.

فقال: «**ما أحسنَ هذا، فما لك من الولدِ؟**»

قلت: شريحٌ، ومسلمٌ، وعبدُ الله.

قال: «**فمن أكبرهم؟**».

قلت: شريح.

قال: «**فأنت أبو شريح**» رواه أبو داود وغيرُهُ[1].

ما أحسن أن تحكمَ فيرضى الفريقان، ولا يكون في نفس المحكوم عليه حزازة؛ لأنَّ الرِّضا من كلا الفريقين نادرٌ، بل لا بُدَّ أنَّ أحد الخصمين لا سيَّما

(١) رواهُ البخاريُّ في (الأدب المفرد ٨١١)، وأبو داود (٤٩٥٥)، والنسائيُّ (٥٣٨٧)، وابن حبَّان (٥٠٤)، والحاكم (١/ ٧٥)، والبيهقيُّ (١٠/ ٢٤٣) من حديث يزيد بن المقدام بن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن جدِّه شريح، عن أبيه هانئ أبي شريح، به. إسنادُهُ جيِّدٌ، وقد ذكره أبو الحسن الدَّارقطنيُّ في الإلزامات (ص١٨٨).

المحكوم عليه يجدُ في نفسه ما يجد، حتَّى في حقِّ النَّبيِّ ﷺ وقع هذا، حين وقعت الخصومة بين الزُّبير وبين الأنصاريِّ قال: «**اسقِ يا زُبير ثُمَّ أرسله إلى جارك**».

فقال الأنصاريُّ: أن كان ابن عمَّتك يا رسول الله!

فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥][(١)]؛ إذ إنَّ رضا النَّاس غاية لا تدرك.

واستفدنا من هذا الحديث فوائد:

الأولى: أنَّهُ لا ينبغي أن يتكنَّى الإنسانُ بصفةٍ خاصَّة لله؛ كأبي الحكم، وأبي العدل، وأبي القسط وما أشبه ذلك؛ فإنَّ الله هو العدلُ والحكمُ بين عباده: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٥٧].

الثَّانية: الكنية هي: ما صُدِّر بأبٍ أو أُمٍّ، مثلُ: أبي سعد، أبي عليٍّ، أبي محمَّد، أُمِّ معبدٍ، أُمِّ هانئٍ.

و(اللَّقب) هو: ما أشعرَ بمدحٍ أو ذمٍّ؛ كزين العابدين، وأنف النَّاقة[(٢)].

والعرب كانت تكنِّي حتَّى الصِّغار؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى طفلاً صغيراً معه عصفور يلعب به، فقال: «**يا أبا عمير ما فعل النُّغير؟**»[(٣)]، هذا يدلُّ على أنَّ الكنية لا تختصُّ بالكبيرِ، بل حتَّى الصَّغير يكنى، وكان النَّبيُّ ﷺ يكنى أبا القاسم ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لقبٌ لبطنٍ من تميم، وفيهم قال الحطيئةُ:

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهُمُ ... ومن يساوي بأنف النَّاقة الذَّنبا؟!

ينظر: البيان والتبيُّن (٣/ ٢٦٩)، العقد الفريد (٣/ ٣٠٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٦١٢٩)، ومسلمٌ (٢١٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ويقول بعضهم: إذا تأمَّلت اللَّقب وجدتَ بين اللَّقب وبين الملقَّب به نوعُ مشابهة(١)، ولذا قال الشَّاعر(٢):

وقلَّ إن أبصرت عيناك ذا لقبٍ ... إلَّا ومعناه إن فكَّرت في لقبه

الثَّالثة: أنَّ من الأمور المستحسنة حصول الرِّضا من المتخاصمين، أو أن يصلح بينهم القاضي، هذا من أحسن الأشياء، قطعاً لدابر الضَّغائن، فقد قال عمرُ: «ردُّوا الخصوم حتَّى يصطلحوا؛ فإنَّ الخصومة تورث بين الرِّجال الضَّغائن»(٣)، والله يقولُ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨].

و(**الصُّلح**) هو: التَّوفيق بين متخاصمين، يرضى أحدُهُما بإسقاط بعض الحقِّ وإلزام الآخر بالبقيَّة، وما أشبه ذلك من أوجه المصالحة، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**الصُّلح جائزٌ بين المسلمين، إلَّا صلحاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً**»(٤).

الرَّابعة: فيه دليلٌ على أنَّ من صلُح للقضاء وتحاكم إليه المتخاصمان ورضياه حَكَماً فإنَّ حكمَهُ ينفذُ، وإن لم يولِّه الإمامُ؛ ولذا قال الحنابلة في هذا

(١) ينظر: زاد المعاد (٢/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: المجموع اللفيف لابن هبة الله (ص٢٠٨)

(٣) رواهُ عبد الرزَّاق (٨/ ٣٠٣) (١٥٣٠٤)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٧٧) (٢٣٣٤٩)، والبيهقيُّ (١١/ ٥٢٩) (١١٤٧٢) من طريق محارب بن دثار، عن عمر.
وأخرجه البيهقيُّ (١١/ ٥٣٠) (١١٤٧٤) من طريق عليِّ بن بذيمة، عن عمر.
وكلاهما منقطعٌ كما قال البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) رواهُ الترمذيُّ (١٣٥٢)، والبزَّار (٣٣٩٣)، والطبرانيُّ (١٧/ ٢٢)، والحاكمُ (٤/ ١١٣) من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جدِّه، به مرفوعاً.
وإسناده واهٍ، كثير متروك كذَّبه بعضهم، وللحديث شواهد، قال الحافظ في تغليق التَّعليق (٣/ ٢٨١): «روي من حديث أبي هريرة، وعمرو بن عوف، وأنس بن مالك، ورافع بن خديج، وعبد الله بن عمر، وكُلُّها فيها مقالٌ، لكن حديث أبي هريرة أمثلها».
وقال ابن العربيِّ (العارضة ٣/ ٣٢٣): «ومقتضى القرآن وإجماع الأُمَّة على لفظه ومعناه».

المعنى: «وإذا حكَّم اثنان بينهما رجلاً يصلحُ للقضاء نفذَ حكمُهُ في المال واللِّعان والحدود وغيرها»(١).

الخامسة: فيه أنَّ الكنية تكون بأكبر الأولاد؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ قال: **(ما لك من الولد؟)**.

(قال: شريح ومسلم وعبد الله).

(قال: من أكبرهم؟)

(قال: شريح).

قال: (أنت أبو شريح)، فدلَّ على أنَّ الإنسان يُكنى بأكبر أولاده، وكذلك المرأة تُكنى بأكبر أولادها أو بأكبر بناتها.



(١) المبدع (٨/ ١٥٩).

بابٌ
مَن هزلَ بشيءٍ فيه ذكرُ اللَّهِ أو القرآنِ أو الرَّسولِ

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمرَ، ومحمَّدِ بنِ كعبٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وقتادةَ ـ دخلَ حديثُ بعضِهِم في بعضٍ ـ: أنَّهُ قالَ رجلٌ في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغبُ بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبنُ عند اللِّقاء ـ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القرَّاء ـ، فقالَ لَهُ عوفُ بن مالكٍ: كذبتَ، ولكنَّك منافقٌ، لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ.

فذهب عوفٌ إلى رسول الله ﷺ ليخبرَهُ فوجد القرآن قد سبقَهُ، فجاء ذلك الرَّجُلُ إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنَّما كنَّا نخوض ونتحدَّث حديث الرَّكب، نقطعُ به عنَّا الطريق.

قال ابن عمر: كأنِّي أنظرُ إليه متعلِّقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإنَّ الحجارةَ تنكبُ رجليهِ، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فيقول له رسول الله ﷺ: «**أبالله وآياتِهِ ورسولِهِ كنتم تستهزئون؟!**»، ما يلتفتُ إليهِ، وما يزيدهُ عليهِ.



بابٌ
مَن هزلَ بشيءٍ فيه ذكرُ اللَّهِ أو القرآنِ أو الرَّسولِ

أي: فهو مرتدٌّ حلال الدَّمِ والمالِ.

ومن سبَّ الله ورسولَهُ قالوا: لا تُقبل توبتُهُ في الظَّاهر، ولا بُدَّ من قتله، وقد صنَّف ابن تيميَّة كتاباً مفيداً في هذا المعنى سمَّاه: «الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول».

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]: دلَّ على أنَّ لهم إيماناً قبل مقالتهم تلك، وبمجرَّد كلمتهِم هذه ذهبَ عنهم الإيمانُ الذي كانوا متلبسين بهِ.

۞ عن ابن عمرَ[١]، ومحمَّدِ بنِ كعبٍ[٢]، وزيدِ بنِ أسلمَ[٣]، وقتادةَ[٤] ـ دخلَ حديثُ بعضِهِم في بعضٍ ـ: أنَّهُ قالَ رجلٌ في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغبُ بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبنُ عند اللِّقاء ـ يعني/ رسول الله ﷺ وأصحابه القرَّاء ـ، فقالَ لَهُ عوفُ بن مالكٍ: كذبتَ، ولكنَّك منافقٌ، لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ.

فذهب عوفٌ إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقَهُ، فجاء ذلك الرَّجُلُ إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنَّما كنَّا نخوض ونتحدَّث حديث الرَّكب، نقطعُ به عنَّا الطريق.

قال ابن عمر: كأنِّي أنظر إليه متعلِّقاً بنسعة[٥] ناقة رسول الله ﷺ، وإنَّ الحجارة تنكبُ رجليه، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ما يلتفت إليه وما يزيدهُ عليهِ[٦].

(أرغب بطوناً): يأكلون كثيراً، ما لهم همٌّ إلَّا بطونهم.

---

(١) حديثُ ابنِ عمرَ رواهُ ابنُ جرير (١١/ ٥٤٣)، وابنُ أبي حاتم في التفسير (٦/ ١٨٢٩) من حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، به.
إسنادُهُ جيِّدٌ؛ هشامٌ فيه ضعف إلَّا أن أبا داود ذكر أنَّهُ من أثبت النَّاس في زيد بن أسلم، ينظر: تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٠٨).

(٢) أثرُ محمَّدِ بنِ كعبٍ أخرجَهُ ابنُ جرير (١١/ ٥٤٥)، وإسنادُهُ ضعيفٌ.

(٣) رواهُ ابن جرير (١١/ ٥٤٣) وإسنادُهُ جيِّدٌ.

(٤) رواهُ ابن جرير (١١/ ٥٤٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩) وإسنادُهُ جيِّدٌ.

(٥) حبلٌ يجعلُ زماماً للبعير، ينظر: النِّهاية (٥/ ٤٨).

(٦) ذكرَهُ بهذا السِّياق شيخُ الإسلام في الصَّارم (ص٣١)، وعنه نقلَهُ المصنِّفُ رحمه الله.

(ولا أكذب ألسناً): يكذبون علينا، يقولون: «محمَّدٌ سيفتح الشَّام ويملك قصورها ومروجها!».

(ولا أجبن عند اللِّقاء): لأنَّ الرَّسول ﷺ خرج لمجالدة بني الأصفر ومقاتلتهم في تبوك، قالوا: كأنَّ محمَّداً لا يعرف قوَّة بني الأصفر، ولا جلد الرُّوم؛ كأنَّا ننظر إلى هؤلاء وقد ذهبوا إلى رؤوس الجبال هاربين، أو نراهم مسلسلين، ذُهب بهم إلى الرُّوم.

فالنَّاس في هذه المقالة ثلاثة أقسام:

قسم قالوا، وقسم سكتوا، وقسم أنكروا وهؤلاء سلموا، منهم: عوفُ بن مالك؛ فإنَّهُ قال لمن قال هذا القول: (**كذبتَ ولكنَّك منافقٌ، لأخبرنَّ رسول الله بما قلتَ**)، فذهب عوف ليخبر الرَّسول ﷺ بما قال هؤلاء المنافقون، فوجد القرآن قد سبقَهُ.

فجاء الرَّجُلُ معتذراً وقد ركب الرَّسول ﷺ ناقته وارتحل، قال ابن عمر: كأنِّي أنظر إليه متعلِّقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وهو يقول: (**إنَّما كنَّا نخوض ونلعب ونتحدَّثُ حديث الرَّكب نقطعُ به عنَّا الطريقَ**)، من شأن المسافرين أنَّهم يتحدَّثون بما يُسلُّون به أنفسهم، ويقطعون به المسافة، والرَّسول ﷺ يقول: (**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟!**)، ما يلتفتُ إليه وما يزيدُهُ عليه، وأنـــــزل الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] منهم: مخشيُّ بن حميِّر، هو حضر لكن لم يوافق ولم ينكر، لم يقل مثلما قالوا، ولم ينكر كما أنكر عوف بن مالك، لمَّا نزلت هذه الآية وعلم بنزولها تاب واستغفر وسأل الله أن يُقتل شهيداً وألَّا يوقف له على عينٍ ولا أثرٍ، فأجاب الله دعاءه، فقُتل يوم اليمامة ولم يوقف له على جثَّةٍ، ولا يعرف من قتلَهُ، ولا أين ذهب(١).

استفدنا من هذا: أنَّ الإنسان عليه أن يحفظ لسانه، فرُبَّما تكلَّم بالكلمة فوقع في الجرم من غير ما يشعر، ورُبَّما لا يقصد معناها، كما يقع من بعض

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٨١).

العامَّة المنحرفين المستهترين عندما يرون من تمسَّك بسُنَّةِ رسول الله ﷺ محافظاً عليها مقتدياً به ﷺ، وبما عليه الخلفاء الرَّاشدون، معفياً لحيتَهُ، يقولون: «أهل اللِّحى»، «أبو لحية» من باب العيب والتَّهكُّم به؛ يعني: كأنَّ من حلقَ لحيته هو أفضل، وهو الرَّجُلُ، وهذا يعيبونه، من يقول هذا أخشى أن يكون مثل هؤلاء: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة: ٦٥]؛ لأنَّ من استهزأ بسُنَّةِ رسول الله ﷺ فقد استهزأ بالرَّسول ﷺ، وكذلك من يقول: «المطاوعة[١] يفعلون كذا وكذا» من باب التَّهكُّم بهم، والعيب لهم، فرُبَّما تكلَّم الإنسان بالكلمة فيبلغ بها من سخط الله إلى يوم القيامة ما يبلغ إلَّا أن يتداركَهُ الله برحمةٍ منهُ، وأيُّ بلاءٍ أشدُّ من أن يعيِّروك بتمسُّكِكَ بالسُّنَّةِ؟! النَّبيُّ ﷺ قال: «**قل آمنت بالله ثُمَّ استقم**»[٢]؛ أي: استقم على معنى آمنت بالله، ومن لازم الإيمان بالله: الإيمانُ بما جاء به رسول الله ﷺ، فأصبحتَ غير مستقيم حيث تتهكَّم وتستهزيء بمن تمسَّك بسُنَّةِ رسول الله ﷺ!، إنِّي أخشى أن يكون من يصنع ذلك مثل هؤلاء الذين نزلت فيهم الآية، وإن أصبحَ مثل هذا دارجاً على ألسنة النَّاس، لا يقيمون له وزناً، ولا يعرفون له معنى.

فالموضوع مهمٌّ جدّاً، يتكلَّم الإنسان بكلام لا يعرف له معنى، ولا يقيم له وزناً فيصير به كافراً حلال الدَّم والمال وهو لا يشعر! مثل أن يقول ـ من

---

(١) مفردها (مطوَّع)، وهو: وصفٌ شائعٌ في الجزيرة العربيَّة لمن استمسك بالسُّنَّةِ فأظهر شعائر الدِّين ـ الشَّيخ صالح ـ.

(٢) رواهُ مسلمٌ (٣٨) من حديثِ سفيانَ بنِ عبد الله الثَّقفيِّ رضي الله عنه، وفي النُّسخ المطبوعَةِ من الصَّحيح: (فاستقم)، إلَّا أنِّي رأيتُ في نسخة الحافظ الكبير أبي بكر ابن خير الإشبيلي رحمه الله من صحيح مسلم المحفوظة بخزانة جامع القرويِّين بفاس العتيقة برقم (٣/ ٣٤٥ب): (**ثُمَّ استقم**).

قال شيخ شيوخنا العلَّامة عبد الحي الكتَّاني رحمه الله (فهرس الفهارس ١/ ٣٨٥): «وبمكتبة القرويِّين بفاسٍ إلى الآن نسختُهُ من صحيح مسلم، التي قابلها مراراً وسمِعَ فيها وأسمع، بحيث يعدُّ أعظم أصلٍ موجود من صحيح مسلم في أفريقيا».

وبهذا يظهرُ ضعفَ تعقُّبِ بعضهِم واستدراكِهِ على أبي زكريا النَّوويِّ؛ حيث أوردَهُ في (الأربعين) وغيرها بلفظ: (**ثُمَّ استقم**).

باب المزح والسُّخرية ـ في آية قرآنيَّة أو في من تمسَّك بسُنَّةِ رسول الله ﷺ مستخفًّا به بسبب تمسُّكِهِ ـ: «هذا في القرون الوسطى، لم يعرف ما عليه النَّاس»، هذا شأن الكثيرين في هذه الأزمنة؛ لبعدهم عن دينهم؛ وعدم معرفتهم بخطورة هذا الأمر العظيم، فأصبح المتمسِّك بالقرآن والسُّنَّةِ مثل المضغة في الأفواه، تلوكه الألسن البذيئة، وفَّقنا الله لمعرفة دينه، والثَّبات عليه إلى أن نلقاه.

بابُ

ما جاء في قول اللّه تعالى:
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ الآية [فصلت: ٥٠]

قال مجاهدٌ: «هذا بعملي، وأنا محقوقٌ به».

وقال ابن عبَّاس: «يريدُ من عندي».

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، قال قتادة: «على علمٍ منِّي بوجوه المكاسب».

وقال آخرون: «على علمٍ منَ الله أنِّي لَهُ أهلٌ».

وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرفٍ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّهُ سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ ثلاثةً من بني إسرائيل: أبرصَ، وأقرعَ، وأعمىَ أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال: أيُّ شيءٍ أحب إليك؟**

قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، ويذهب عنِّي الذي قد قَذَرَني النَّاسُ به.

قال: فمسحَهُ، فذهب عنه قذرُهُ، وأُعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً.

قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟

قال: الإبل أو البقر ـ شكَّ إسحاقُ ـ، فأُعطي ناقةً عُشَرَاءَ، وقال: باركَ اللهُ لكَ فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟

قال: شعرٌ حسنٌ، ويذهب عنِّي الذي قد قذرني النَّاس به، فمسحَهُ، فذهَبُ عنهُ، وأُعطي شعراً حسناً، فقال: أيُّ المال أحبُّ إليك؟

قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرةً حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى، فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟

قال: أن يردَّ الله إليَّ بصري؛ فأُبصر به النَّاس، فمسحه، فردَّ الله إليه بصرَهُ.

قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟

قال: الغنم، فأُعطي شاةً والداً؛ فأنتجَ هذان، وولدَ هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبلِ، ولهذا وادٍ من البقرِ، ولهذا وادٍ من الغنمِ.

قال: ثُمَّ إنَّهُ أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثُمَّ بك، أسألك بالذي أعطاكَ اللَّونَ الحسنَ، والجلدَ الحسنَ، والمالَ، بعيراً أتبلَّغُ بهِ في سفري.

فقال: الحقوقُ كثيرةٌ.

فقال له: كأنِّي أعرفك، ألم تكن أبرصَ يقذرك النَّاس، فقيراً، فأعطاك الله ﷻ المالَ؟!

فقال: إنَّما ورثتُ هذا المال كابراً عن كابرٍ.

فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ.

قال: وأتى الأقرعَ في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا.

فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ.

وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثُمَّ بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلَّغ بها في سفري.

فقال: كنتُ أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذْ ما شئتَ ودعَ ما شئتَ، فوالله لا أجهَدُكَ اليومَ بشيءٍ أخذتَهُ لله.

فقال: أمسك مالك، فإنَّما ابتليتم، فقد رضيَ اللهُ عنك، وسَخِطَ على صاحبيك» أخرجاه.



بابُ
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ الآية [فصلت: ٥٠]

الإنسان متى أنعم الله عليه جحدَ المنعِمَ، ونسب ذلك إلى نفسه، يزعم أنَّهُ مستحقٌّ لها، وجديرٌ بها.

قال مجاهدٌ: «هذا بعملي وأنا محقوقٌ به»[1].

يعني: أنا جديرٌ بهذا المال، الله أنعم عليك بنعمة المال والبدن ونعمة الأولاد وجعلت تتقلَّب في النِّعم، وتنسى المنعِم وتقول: «أنا أهلٌ لهذا المال وأنا جديرٌ به»؟!

وقال ابن عبَّاس: «يريد من عندي».

أي: يريدُ أنَّ هذا المال أو هذه النِّعمة هي مِن قِبَلِهِ لا مِن قِبَلِ الله.

(١) علَّقه البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٧)، ووصله ابن جرير (٢٠/ ٤٥٨)، وإسنادُهُ صحيحٌ.

۞ وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، قال قتادة: «على علمٍ منِّي بوجوه المكاسب»(١).

أي: هذا من حذاقتي ونباهتي ومعرفتي بوجوه المكاسب، أعرفُ كيف أبيع، وكيف أشتري، وكيف أتوقَّف وما أشبه ذلك، نسيتَ المنعم المتفضِّل مَن هو؟! هذا من جنس ما تقدَّم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

۞ وقال آخرون: «على علمٍ من الله أنِّي لَهُ أهلٌ»(٢).
وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرفٍ»(٣).

يعني: أنِّي من أشراف النَّاس وأعيانهم، وقد علم الله أنِّي أهل للمال؛ لأنَّ لي مكانة، وهذا من الأمور الباطلة، الرَّبُّ ينعم عليك وأنت تكفرُ بنعمته؟! الرَّبُّ يتفضَّل عليك ثُمَّ تنسب الفضل إلى نفسك؟!

(١) رواهُ ابنُ جرير (١٨/ ٣٢٥)، وابنُ أبي حاتم (١٧١٢٣)، وإسنادُهُ حسنٌ.
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٧١٢٥) عن السُّديِّ.
(٣) رواه ابن جرير (٢٠/ ٢٢١)، وإسناده جيِّدٌ.

۞ وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّهُ سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ ثلاثةً من بني إسرائيل: أبرصَ، وأقرعَ، وأعمىَ أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرصَ، فقالَ: أيُّ شيءٍ أحب إليك؟

قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، ويذهب عنِّي الذي قد قَذَرَني النَّاسُ بهِ.

قال: فمسحَهُ، فذهبَ عنهُ قذرُهُ، وأُعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً.

قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟

قال: الإبل أو البقر ـ شكَّ إسحاقُ ـ، فأُعطي ناقةً عُشَرَاءَ، وقال: باركَ اللهُ لكَ فيها.

قال: فأتى الأقرعَ، فقالَ: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟

قال: شعرٌ حسنٌ، ويذهب عنِّي الذي قد قذرني النَّاس به، فمسحَهُ، فذهَبُ عنهُ، وأُعطي شعراً حسناً، فقال: أيُّ المال أحبُّ إليك؟

قال: البقرُ، أو الإبلُ، فأعطي بقرة حاملاً، وقال: باركَ اللهُ لكَ فيها.

فأتى الأعمى، فقالَ: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟

قال: أن يردَّ الله إليَّ بصري؛ فأُبصرُ بهِ النَّاسَ، فمسحَهُ، فردَّ الله إليه بصرَهُ.

قال: فأيُّ المال أحبُّ إليكَ؟

قال: الغنمُ، فأُعطي شاةً والداً.

فأنتجَ هذان، وولدَ هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبلِ، ولهذا وادٍ من البقرِ، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثُمَّ إنَّهُ أتى الأبرصَ في صورتِهِ وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثُمَّ بك، أسألك بالذي أعطاك اللَّونَ الحسنَ، والجلدَ الحسنَ، والمالَ، بعيراً أتبلَّغُ بهِ في سفري.

فقال: الحقوقُ كثيرةٌ.
فقال له: كأنِّي أعرفك، ألم تكن أبرصَ يقذرك النَّاس، فقيراً، فأعطاك الله ﷻ المالَ؟!
فقال: إنَّما ورثتُ هذا المال كابراً عن كابرٍ.
فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرَكَ اللهُ إلى ما كنتَ.
قال: وأتى الأقرع في صورتِهِ، فقالَ لَهُ مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا.
فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرَكَ اللهُ إلى ما كنتَ.
وأتى الأعمى في صورتِهِ، فقالَ: رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثُمَّ بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلَّغ بها في سفري.
فقال: كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئتَ ودعَ ما شئتَ، فوالله لا أجهَدُكَ اليومَ بشيءٍ أخذتَهُ للهِ.
فقال: أمسك مالك، فإنَّما ابتليتم، فقد رضيَ اللهُ عنك، وسَخِطَ على صاحبيك» أخرجاه(١).

ساق المصنِّف حديثَ أبي هريرة المشهور، وهو حديثٌ عظيمٌ.

قوله: (**شكَّ إسحاق**) هو: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، راوي الحديث عن عبد الرحمٰن ابن أبي عمرة، عن أبي هريرة.

(**انقطعت بي الحبال**)؛ أي: الأسباب والوسائل.

(**قال الملَك: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ**): فذهب مالُهُ، وعاد أبرص كما كان؛ لأنَّهُ لم يشكر الله على هذه النِّعمة، ولم يعترف بها

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٦٤)، صحيح مسلم (٢٩٦٤).

للمنعِمِ المتفضِّلِ، ولم يصرفها في مرضاة مسديها، **فثلاثة أمور وقعت منه:**

الأوَّل: جحدَ نعمةَ الله ونسبها إلى أجدادِهِ كابراً عن كابر.

الثَّاني: لم يصرفها في مرضاة الله، بإعطاء هذا المسافر المسكين الذي انقطعت به الأسباب، بل اعترضَ قائلاً: «الحقوق كثيرة».

الثَّالث: لم يتحدَّث بهذه النِّعمة، ويشكر الله عليها.

فلمَّا فقد الشُّكر دعا عليه الملَكُ.

قوله: **(والله لا أجهدك)**: أي: لا أمنعك.

في هذا الحديث عبرةٌ عظيمة، وهي: أنَّ الإنسانَ إذا لم يعترفْ بنعمة الله ولم يشكر الله عليها ولم يصرفها في مرضاة مسديها فقد فاته الشُّكر وأخطأ، فهذان الاثنان نسبا المال إلى آبائهما وأجدادهما، ونسيا أنَّ الله هو الذي أعطاهم وأنعم عليهم، نسيا ما كانا عليه من القذارة والمنظر السَّيئ، وجحدا هذا بأنَّهما على هذه الحال منذ زمن طويل، فلمَّا لم يشكرا نعمة الله سلبهما الله النِّعمة، وردَّهما إلى ما كانا عليه من القبحِ.

أمَّا الذي اعترف بأنَّ الله ردَّ عليه بصرَهُ، واعترف بأنَّهُ كان أعمى وفقيراً، وقال: **(خذ ما شئتَ ودع ما شئتَ)**، قال الملك: **(لا حاجة لنا في مالك، أمسك عليك مالك فإنَّما ابتليتم)** ـ أي: اختُبرتم ـ **(فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك)**، فيه: إثبات صفة الرِّضا لله، وأنَّ الله يرضى حقيقة، وفيه: إثبات صفة السُّخط، خلافاً للأشاعرة ومن ضاهاهم.



بابٌ

قول اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠]

قال ابنُ حزم: «اتَّفقوا على تحريم كُلِّ اسم معبَّدٍ لغيرِ الله؛ كعبدِ عمرَ، وعبدِ الكعبةِ، وما أشبَهَ ذلك، حاشا عبد المطَّلب».

وعن ابن عبَّاسٍ ﷺ في الآيةِ قال: لما تغشَّاها آدمُ حملَتْ، فأتاهُمَا إبليس فقال: إنِّي صاحبُكما الذي أخرجتكما من الجنَّةِ، لَتُطيعاني أو لأجعلنَّ لَهُ قرنَي أيِّل، فيخرجُ من بطنكِ فيشقُّهُ، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ ـ يخوِّفُهُما ـ؛ سَمِّياهُ: (عبدَ الحارثِ)، فأبيا أن يطيعاهُ، فخرجَ ميِّتاً، ثُمَّ حملَتْ، فأتاهُمَا، فقالَ مثلَ قولِهِ، فأبيا أن يطيعاهُ، فخرجَ ميِّتاً، ثُمَّ حملَتْ، فأتاهُمَا، فذكر لهما، فأدركَهُمَا حبُّ الوَلَدِ، فسمَّياهُ: (عبدَ الحارثِ)، فذلك قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

ولَهُ بسندٍ صحيحٍ عن قتادةَ قال: «شركاء في طاعتِهِ، ولم يكن في عبادتِهِ».

ولَهُ بسندٍ صحيحٍ عن مجاهدٍ في قولِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قال: «أشفقا ألَّا يكون إنساناً».

وذُكِرَ معناه عن الحسنِ، وسعيدٍ، وغيرِهِمَا.

بابُ
قول اللَّه تعالى:
﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ الآية

أوَّل الآيـــة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ يعني: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ نطفة، ثُمَّ مضغة، ثُمَّ علقة، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: بهذا الحمل، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ وقاربت الولادة ﴿دَّعَوَا﴾: آدم وحواء ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: ولداً صالحاً ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾؛ أي: سمَّوه (عبد الحارث)؛ لأنَّ الشَّيطان أمرهما بذلك، كما في حديث ابن عبَّاس ﵄ الآتي.

۞ قال ابنُ حزمٍ: «اتَّفقوا على تحريمِ كُلِّ اسمٍ معبَّدٍ لغيرِ الله؛ كعبدِ عمرَ، وعبدِ الكعبةِ، وما أشبَهَ ذلك، حاشا عبدَ المطَّلب»(١).

يحرم أن يتسمَّى الإنسانُ باسمٍ معبَّد لغيرِ الله؛ كعبد شمسٍ، وعبد الدَّار، وعبد الكعبة، وعبد المسجد، وما أشبه ذلك؛ العبوديَّة لله، والعبوديَّة تقتضي الخضوع والتذلُّلَ لله، فلا خضوع ولا تذلُّل من أحدٍ لأحدٍ إلَّا من العبد لباريه وخالقه.

(حاشا عبد المطَّلب): فإنَّهُ جائزٌ(٢)، والمطَّلب هو جدُّ النَّبيِّ ﷺ، جاء في الحديث المعروف في ارتجاز النبيِّ ﷺ:

أنــا الــنَّــبــيُّ لا كــذب ... أنـا ابـن عـبـد الـمـطَّـلـب(٣)

---

(١) مراتب الإجماع (ص١٥٤).
(٢) ويحتمل أن يكون التَّقدير: (حاشا عبد المطَّلب؛ فإنَّهُ مختلَفٌ فيه).
(٣) رواهُ البخاريُّ (٢٨٦٤)، ومسلمٌ (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب ﵄.

فهذا يحتملُ أحد أمرين:

الأوَّل: أنَّهُ يدلُّ على الجواز، قالوا: ليس هو عبدٌ للمطَّلب بمعنى: أنَّهُ عابدٌ لَهُ، إنَّما هو عبدٌ يعني: مملوك، اشتراهُ المطَّلب، وذلك أنَّ جدَّ النَّبيِّ ﷺ شيبةَ كان عند أخواله بالمدينة، فجاء به عمُّهُ إلى مكَّة بعد وفاة أبيه، وقد غيَّرَ السَّفَرُ لونه فصار أسود من أثر الشَّمس، فلمَّا قدم عمُّهُ المطَّلب به على أهل مكَّة، قالوا: هذا عبد المطَّلب، ظنُّوهُ مملوكاً رقيقاً، لما فيه من السَّواد، وإلَّا فهو ابن أخيه، فعَلِقَ هذا الاسمُ بهِ؛ فسُمِّي: (عبد المطَّلب)، فلهذا لا يدخل في حكم: (عبد الكعبة)، و(عبد عمر) ونحوها.

ولكن بعض العلماء يمنع حتَّى (عبد المطَّلب)، فما الجواب عن قول الرَّسول ﷺ:

أنا النَّبيُّ لا كذب أنا ابن عبد المطَّلب

الجواب: هو في الاحتمال الثَّاني، وهو: أنَّ هذا كان على سبيل الإخبارِ، وفرقٌ بين الإنشاء والإخبار، فهو يخبر عن أمر مضى.

حكايتك عن عبد المطَّلب وعبد شمس وعبد الدَّار وما أشبه ذلك أنت لم ترض به، ولم تسمِّهم بهذا الاسم، وإنَّما تخبر عن شيء مضى وصار لهم عَلَمَاً معروفاً عند العرب.

۞ وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في الآيةِ قال: لما تغشَّاها آدمُ حملَتْ، فأتاهُمَا إبليس فقال: إنِّي صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنَّةِ، لَتُطيعاني أو لأجعلنَّ لَهُ قَرنَي أيِّل، فيخرجُ من بطنكِ فيشقُّهُ، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ ـ يخوِّفُهُما ـ سَمِّياهُ (عبدَ الحارثِ)، فأبيا أن يطيعاه، فخرجَ ميِّتاً، ثُمَّ حملَتْ، فأتاهُمَا، فقالَ مثلَ قولِهِ، فأبيا أن يطيعاهُ، فخرج ميِّتاً، ثُمَّ حملت، فأتاهُمَا، فذكر لهما فأدركَهُمَا حبُّ الوَلَدِ، فسمَّياهُ: (عبدَ الحارثِ)؛ فذلك قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ(١).

(الأيِّل): الذَّكر من ذكور الوعل؛ يعني: يجعل للولد قرني وعلٍ ليشقَّ بطنها عند الخروج، ولكن لم يطيعاه، غير أنَّ حبَّ الولد بعدما تكرَّر الأمر أدركَهُما فسمَّياه: **(عبد الحارث)**؛ شفقةً عليه، فلم يشكرا النِّعمة؛ لأنَّ حقيقة الشُّكر كما مرَّ هي: صرف النِّعم في مرضاة الله.

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٥/ ١٧٣) (٩٧٣) من طريق عتَّاب بن بشير، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٤٣) من طريق شريك ـ كلاهما ـ عن خُصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، به موقوفاً.
تابع سعيداً مجاهدٌ عند سعيد بن منصور.
وهو خبرٌ ضعيفٌ؛ لضعف خُصيف بن عبد الرَّحمٰن الجزري، ولما عُلم من الكلام في شريك ـ وهو ابن عبد الله النَّخعي ـ؛ ولأنَّ عتَّاباً لا بأس به إلَّا في روايته عن خُصيف، فحديثهُ عنه منكرٌ، ينظر: الميزان (١/ ٦٥٣ ـ ٣/ ٢٧).

۞ ولَهُ بسندٍ صحيحٍ عن قتادةَ قال: «شركاء في طاعتِهِ، ولم يكن في عبادتِهِ»[١].

لم يعبدوه وإنَّما أطاعوه.

۞ ولَهُ بسندٍ صحيحٍ عن مجاهدٍ في قولِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قال: «أشفقا ألَّا يكون إنساناً»[٢].

بأن يكون بهيمة فسمَّياه عبد الحارث[٣].

۞ وذُكِرَ معناه عن الحسنِ[٤]، وسعيدٍ[٥]، وغيرِهِمَا.

الحاصل: أنَّ كُلَّ اسمِ معبَّدٍ لغيرِ الله لا تجوزُ التَّسمية به، والحكاية المرويَّة عن ابن عبَّاس علَّق عليها محمَّد رشيد رضا في «مجموعة التَّوحيد الأولى» التي طبعها فقال: «هذه خرافة من أخبار بني إسرائيل، وكيف تكتب في مثل هذا؟!»[٦].

ولكن القصَّة صحيحة، ومعناها جاء عن قتادة، والحسن، وسعيد، وابن عبَّاس، كُلُّهم قال بهذا القول، وحينئذٍ لم تكن من الإسرائيليَّات.



(١) رواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤)، وابن جرير (١٠/ ٦٢٥) بنحوه.
(٢) رواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).
(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣). (٥) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).
(٦) ينظر: تفسير المنار (٩/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

بابُ

قول اللَّه تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **الآية** [الأعراف: ١٨٠]

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ يشركون.

وعنهُ: «سمَّوا اللَّات من (الإلٰه)، والعُزَّى من (العزيز)».

وعن الأعمشِ: «يُدخلون فيها ما ليس منها».





باب

قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠]

دلَّت الآيةُ على أنَّ أسماء الله حسنى، وأنَّنا مأمورون بأن نسأله بها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨]، وفي الحديث: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنَّة**»[(١)]، والإحصاء هنا **ثلاثة مراتب**:

أوَّلها: عدُّها وحفظها.

الثَّاني: معرفةُ معانيها وما دلَّت عليه.

الثَّالث: الدُّعاء بهذه الأسماء.

هذا هو الإحصاء، وليس هو العدُّ فقط.

ولا شكَّ أنَّ أسماء الله حسنى، وهي أعلى الأسماء وأكملها، وأنَّ الأسماء توقيفيَّة، لا يجوز لأحدٍ أن يزيد فيها أو ينقص منها، فما جاء في القرآن والسُّنَّة نثبتُهُ، وما لا فلا.

وسبق بيان أنَّ ما جاء في القرآن والسُّنَّة هو على **طريقين**:

منها: ما أثبته الرَّبُّ لنفسه بطريق الاسم، مثل: (الرَّحمٰن): ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٢]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٢٢].

الثَّاني: ما كان على طريق الإخبار، وهذا لا نشتقُّ منه اسماً، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٣] لا يجوز أن نسمِّيه: (الفاتن)، وكذا (الماكر)، و(المستهزئ)، و(الكائد)، و(المخادع): ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿إِنَّهُمْ

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلمٌ (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، فهذا جاء على طريق الإخبار؛ فلا نشتقُّ له منه اسماً، وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصِّفات، قال العلَّامة ابن القيِّم ما معناه في مثل هذا: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]: «هذا في مقابلة ما فعلوا، مجازاتهم على وجه المقابلة»[1]، والله يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وينبغي أن تدعو الله بالأسماء التي تناسبُ حاجتك، فمثلاً تقول: «يا عليم علِّمني»، «يا غفور اغفر لي»، «يا رحيم ارحمني».

ثُمَّ إذا كان لهذه الأسماء مقابل فلا يجوز لك أن تسأل الله بأحدها فقط، فمن أسماء الله: (المعطي المانع)، (النَّافع الضَّار)، فلا تقل: «يا مانع يا مذلُّ يا ضارُّ ارحمني».

والدُّعاء بالأسماء متضمِّن لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

دعاء العبادة: أن تعظِّم الله وتقدِّسَهُ: «لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر»، هذا دعاء عبادة.

دعاء المسألة: تقول: «يا رزَّاق ارزقني، يا غفَّار اغفر لي»، هذا دعاء مسألة.

ودعاء العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، ودعاءُ المسألة متضمِّنٌ لدعاء العبادة، إذا سبَّحت وعظَّمت الله لا شكَّ أنَّك تريد شيئاً وهو: رضاه عنك، وأن يثيبك، فدعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة.

وما يجري على ألسنة النَّاس من قولهم: (الصَّانع) لا ينبغي، بل نقول: (الخالق)؛ لأنَّ (الخالق) أوسع في المعنى من (الصَّانع) والله ـ جلَّ وعلا ـ لم يسمِّ نفسَهُ (الصَّانع)، إنَّما هو (الخالق البارئ)، إنَّما جاء (الصَّانع) على طريق الإخبار: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] يأتي مقيَّداً لا مطلقاً.

---

(١) إعلام الموقِّعين (٣/ ١٧١).

۞ ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] يشركون(١).

وعنه: «سمَّوا اللَّات من (الإله)، والعُزَّى من (العزيز)»(٢).

أسماء الله على ثلاثة أقسام:

الأوَّل: ما أنزله في القرآن؛ كالسَّميع والبصير والرَّحمٰن الرَّحيم إلى غير ذلك.

الثَّاني: ما أطلع الله عليه ملائكته ومن شاء من خلقه.

الثَّالث: استأثرَ الله بعلمه، لم يُطلع عليه مَلَكاً مقرَّباً، ولا نبيَّاً مرسلاً، هذا معنى ما جاء في حديث ابن مسعودٍ: «**أسألك بكُلِّ اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري...**» الحديث»(٣).

والإلحاد لغة: الميل، ومنهُ سمِّي لحدُ القبر لحداً؛ لأنَّهُ مائلٌ، ألا ترى أنَّك إذا حفرت القبرَ وانتهيت منه حفرت لحداً مع جانب القبلة من القبر تضع فيه الميت، سمِّي (لحداً) لأنَّهُ مائل، وذلك أنَّك لم تدفن الميت وسط قعر القبر، بل حفرت له مع الجانب، هذا اشتقاقه.

والإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع، منه: تعطيلُ معانيها، وإنكارُ ما

---

(١) الذي في النسخة التي بين أيدينا من تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣): عن ابن عبَّاس ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾: «يكذبون».
وإنَّما قولُهُ: (يشركون) هو عن قتادة، ذكره ابن أبي حاتم بعد قول ابن عبَّاس بأسطر، والله أعلم.

(٢) رواهُ ابن جريرٍ (١٠/ ٥٩٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣) بسلسلة العوفيِّين، وهي مشهورة الضعفِ.

(٣) سبق تخريجه.

دلَّت عليه، هذا إلحاد، ووقع فيه الجهميَّة؛ فالجهميَّةُ لم يثبتوا لله حياة، ولا علماً، ولا كلاماً، ولا سمعاً، ولا بصراً، ولا محبَّة، ولا سخطاً، ولا غضباً، ويقولون: الله أجلُّ وأعظمُ من أن يوصف بهذه الصِّفات!

نقول لهم: هذا هو الإلحاد بعينه، عطَّلتم ما أثبته الله لنفسه.

وقابلَ الجهميَّةَ المشبِّهةُ، فقالوا: إنَّ الله لَهُ يدٌ وسمعٌ وبصرٌ وكلامٌ من جنس صفات المخلوقين، سواءً بسواءٍ، فهو يتكلَّم بلسانٍ وشفتينِ، ويبصرُ بعين مركَّبة من جفنين، ولَهُ يدٌ جارحة كأيدينا؛ لأنَّ الله أثبتها لنفسه، وعند الإطلاق لا نعرف إلَّا اليدَ المعروفة، والبصرَ المعروف.

نقول لهم: شبَّهتم الله بالمخلوق.

والسَّلف يقولون: «**المعطِّلُ يعبدُ عدماً، والمشبِّهُ يعبد صنماً، والموحِّد يعبد إلهاً واحداً صمداً**»[1].

ثُمَّ المعطِّلة يقولون: لو أثبتنا أنَّ الله يتكلَّم لزم أن يكون له لسانٌ، ولزم أن يكون له شفتانِ؛ لأنَّا لا نعرف الكلامَ إلَّا من شفتينِ ولسانٍ وأضراسٍ!

نردُّ عليهم ونقول: أخطأتم، بل نثبتُ له كلاماً على وجه يليقُ بجلاله، ونقولُ كما قال الإمام الشَّافعيُّ: «**آمنَّا بالله، وبما جاءَ عن الله على مرادِ الله، وآمنَّا برسولِ الله، وبما جاء عن رسولِ الله على مرادِ رسول الله**»[2].

ثُمَّ إلزامكم هذا بأنَّ الكلام لا بُدَّ أن يكون من لسانٍ وشفتينِ وأضراسٍ غلطٌ؛ فنجد بعض المخلوقات تتكلَّم وليس لها شفتان ولسان، قال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٦٥] هل لها لسان؟! هل لها شفتان؟! هل لها لثة؟!

إذا كان هذا في المخلوقين فكيف تلزموننا ذلك في حقِّ الله؟! تعالى الله عن ذلك عُلوَّاً كبيراً.

(١) ينظر: مقدِّمة الكافية الشَّافية.

(٢) لمعة الاعتقاد (ص٧).

فنحن نصفُ الله بما وصف به نفسَهُ، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ولا نتجاوز القرآن والحديث، ولا يلزمنا ما ألزمتمونا به من شفة ولسان، فالله أعلم بنفسه وصفاته إلَّا أنَّا نثبتها كما أثبتها لنفسه، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

ومن الإلحاد في الأسماء والصِّفات: نفيُ الصِّفات عن الله، يقولون: إنَّ الله موجِبٌ بذاته، بمعنى: أنَّ هذا العالم قام في ذات الله، تكوَّن هذا العالم بناءً على ذات الله، فذات الله هي الموجِبة، لا يثبتون أنَّ الله خالقٌ رازقٌ مقدِّرٌ محيي مميت، لا، هذا رأي الفلاسفة.

ومن الإلحاد في الأسماء والصِّفات: ما فعله المشركون، حيث سمَّوا آلهتهم بأسماء اشتقُّوها من أسماء الله، فسمَّوا اللَّات من **(الإلٰه)**، والعُزَّى من **(العزيز)**، و**(اللَّات)** صخرة منقوشةٌ، تعبدها ثقيف بالطَّائف ومن التحق بهم.

و**(العزَّى)** شجرةُ سمرٍ كانت بوادي نخلة، تعبدها قريش ومن التحق بها من العرب، والرَّسولُ ﷺ أزال هذين الصَّنمين كما هو معلوم.

ولما وقعت أُحد وحصل للمسلمين ما حصل جعل أبو سفيان يقول: أفيكم محمَّد؟

فقال الرَّسولُ ﷺ: **«لا تجيبوه»**.

قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟

قال الرَّسولُ ﷺ: **«لا تجيبوه»**.

قال: أفيكم ابن الخطَّاب؟

قال الرَّسولُ ﷺ: **«لا تجيبوه»**.

فقال أبو سفيان: هؤلاء قُتِلوا، اعلُ هُبل.

لما وصل للتَّوحيد قال الرَّسولُ ﷺ: **«أجيبوه»**.

قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟

قال: **«قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ»**.

فقال: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم!

فقال الرَّسولُ ﷺ: «**أجيبوه**».

قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟

قال: «**قولوا: اللهُ مولانا ولا مولى لكُم**»[١].

نستفيد من هذا: أنَّهُ لا بأس لو تركتَ الرَّدَّ على المبطِلِ الملحِدِ، لكن إذا خاض في التَّوحيد وفي حقِّ الله فيجب أن تشمِّر عن ساعدك، وأن تردَّ عليه باطلَهُ، ولا ينبغي أن تسكت، فمتى انتُهِكَتْ محارمُ اللهِ أو أُلحِدَ في أسماء الله وصفاته فلا يجوز لك أن تسكت، بل رُدَّ الباطلَ وبيِّن الخطأ.

(١) رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

۞ وعن الأعمشِ: «يُدخِلُون فيها ما ليس منها»[١].

هذا ـ أيضاً ـ من الإلحاد؛ كتسميتهم له بالماكر والفاتن والمستهزئ.

والحاصل: أنَّ مذهب سلف الأُمَّة وأئمَّتها هو إثبات الصِّفات حقيقة على وجه يليق بجلاله، نثبت يقيناً أنَّ الله له سمعٌ وله بصرٌ، ويقيناً أنَّهُ يحبُّ ويرضى، ويغضب ويسخط، ويرحم، وأنَّهُ هو الودود والكريم، لا نقول أنَّها من جنس صفات المخلوقين، بل نثبتها ونثبت معانيها وما دلَّت عليه على وجه يليق بجلاله من غير تعطيلٍ ولا تحريفٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، على حدِّ قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، هذا هو مذهب أهل السُّنَّة، وهو الذي درج عليه أئمَّة السَّلف من المالكيَّة والحنابلة والشَّافعيَّة والحنفيَّة وأهل الحديث.

أمَّا الصَّحابة فلم يختلفوا في العقيدة أبداً، لا يمكن أن تجد بينهم خلافاً فيها، وقع خلافٌ بينهم في المسائل الفرعية، أمَّا العقائد فهم متَّفقون فيها، وإنَّما وقع الخلاف في أوائل القرن الثَّاني بسبب الجعد بن درهم الذي نشر مقالته وأخذها عنه الجهم بن صفوان، ثُمَّ نشرها، فنُسب هذا المذهب الخبيث إلى جهم، وهو وراثة يهوديَّة ـ كما سبق بيانه ـ.

وهيَّأ اللهُ أهلَ السُّنَّة وردُّوا على جهم وأبطلوا مذهبَهُ، ثُمَّ جاء بعده واصلُ بنُ عطاء وعمرو بنُ عبيد، فدعوا إلى القول بخلق القرآن، وجاءت فتنةُ المأمون، وانتشرَ الشَّرُّ بسببِهِ، ودعا إلى الكلام، ودعا إلى ترجمة كتب الأوائل، ودعا إلى المنطق، وإلى القول بخلق القرآن، وإلى الشَّرِّ والبلاء، حتَّى قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة: «ما أظنُّ أنَّ الله يغفَلُ عن المأمون»[٢].

---

(١) أخرجَهُ ابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣) ويرويه عن الأعمش: مبشِّرُ بنُ عبيدٍ، وهو متروكٌ بل متَّهمٌ، ينظر: الميزان (٣/ ٤٣٣).

(٢) نقلها الصَّلاح الصَّفدي (الغيث المسجم ١/ ٧٩) ولم يسمِّ الواسطة بينه وبين أبي العبَّاس، وينظر: لوامع الأنوار البهيَّة (١/ ٩).

بابٌ
لا يُقال: السَّلامُ على اللَّهِ

في «الصَّحيح» عن ابن مسعودٍ ﵁ قال: كُنَّا إذا كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في الصَّلاة قلنا: السَّلامُ على الله من عبادِهِ، السَّلامُ على فلانٍ وفلانٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: **«لا تقولوا «السَّلام على الله»؛ فإنَّ الله هو السَّلامُ»**.

بابٌ
لا يُقال: السَّلامُ على اللَّهِ

الله هو المسلِّم، والعبد المسلَّم، فلا يناسب أن تقول: «السَّلام على الله»، من الذي يسلِّم الله؟! الله لا يحتاج إلى أن يسلِّم عليه أحد، بل هو المسلِّمُ والغنيُّ الذي بيده كُلُّ شيءٍ.

۞ في «الصَّحيح» عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: كُنَّا إذا كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في الصَّلاة قلنا: السَّلامُ على الله من عبادِهِ، السَّلامُ على فلانٍ وفلانٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تقولوا «السَّلام على الله»؛ فإنَّ الله هو السَّلامُ**»[1].

(**فإنَّ الله هو السَّلام**): هو الذي يسلِّمُ عبادَهُ من كُلِّ ما يؤذيهم، قال ابن القيِّم في (النُّونيَّة)[2]:

وهو السَّلام على الحقيقة سالمٌ   من كلِّ تمثيلٍ ومن نقصانِ

فهو سالمٌ من كُلِّ عيبٍ ونقصٍ، وهو المسلِّم لعبادِهِ من كُلِّ ما يؤذيهم، ألا ترى أنَّك إذا انصرفت من الصَّلاة كما في حديث ثوبان[3] تقول: «**اللَّهُمَّ أنت السَّلام، ومنك السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»، فالسَّلام هو الله ـ جلَّ وعلا ـ.



(١) رواهُ البخاريُّ (٨٣١)، ومسلمٌ (٤٠٢).
(٢) (ص١٨١).
(٣) رواهُ مسلم (٥٩١).

بابُ
قولِ: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئتَ

في «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقُل أحدُكُم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئتَ، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئتَ، ليعزِم المسألةَ؛ فإنَّ اللهَ لا مُكرِهَ لَهُ**».

ولمسلمٍ: «**وليعظِّم الرَّغبةَ؛ فإنَّ الله لا يتعاظَمُهُ شيءٌ أعطاهُ**».





بابُ
قولِ: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئتَ

۞ في «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقُل أحدُكُم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئتَ، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئتَ، ليعزِمِ المسألةَ؛ فإنَّ اللهَ لا مُكرِهَ لَهُ**»(١).

ولمسلمٍ: «**وليعظِّم الرَّغبةَ؛ فإنَّ الله لا يتعاظَمُهُ شيءٌ أعطاهُ**»(٢).

نُهي عنه لأنَّه يدلُّ على الفتور من قِبَلِ الدَّاعي؛ كأنَّه غير مبالٍ بحصول المغفرة، إن حصلَت فحسنٌ وإلَّا فلا بأس؛ يعني: وإن شئتَ فلا تغفر، إن أجاب دعاءه أو لم يجب كُلُّ ذلك عنده على السَّواء، فهذا لا يجوز، ويدلُّ على استغناء العبد وعدم حاجته إلى عفو الله ورحمته ومغفرته، بل هو الفقير إلى الله، والله هو الغنيُّ عنه، العباد كُلُّهم فقراء إلى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، دلَّت الآية على أنَّ العبادَ كُلَّهُم فقراء إلى باريهم وخالقهم، وهو الغنيُّ عنهم، فلا ينبغي أن تعلِّق طلب المغفرة بالمشيئة، بل ادع الله واسأله وأنت موقن بالإجابة.

(وليعزم المسألة): أي: بتَّ في المسألة واجزم دون تعليق بالمشيئة، ومعلومٌ أنَّ العبد مطلوبٌ منه الإكثار من الدُّعاء، وأنَّ من علامات توفيق الله للعبد توفيقه للدُّعاء؛ فإنَّ عمر يقول: «إنِّي لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكنِّي أحمل همَّ الدُّعاء؛ لأنِّي إن وُفِّقتُ للدُّعاءِ تيقَّنتُ الإجابةَ»(٣).

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٣٣٩)، ومسلمٌ (٢٦٧٩).
(٢) صحيح مسلم (٢٦٧٩).
(٣) لم أقف عليه مسنَداً، وقد ذكره ابن تيميَّة في الاقتضاء (٢/ ٢٢٩)، وابن القيِّم في الجواب الكافي (ص٢٩).

قد تقول: ها نحن ندعو ولكن لا يستجاب لنا، واللهُ يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ويقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل: ٦٢]: أما تتذكَّرون ولو تذكُّراً قليلاً ترجعون به إلى ربِّكم، فلماذا لا يستجاب لنا؟

نقول: قد تتأخَّر الإجابة بسبب أكل الحرام، فهو من أعظم الأسباب لمنع قبول دعاء الدَّاعي، كما قال سعدٌ: يا رسول الله ادع الله أن أكون مجاب الدَّعوة.

قال ﷺ: «**أطِب مطعمك تكن مجاب الدَّعوة**»(١)، وكذلك الحديث المعروفُ ذكر: «**الرَّجل يمدُّ يديه: «يا ربِّ يا ربِّ»، ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وغُذِّي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك؟!**»(٢).

والحاصل: أنَّهُ إذا لم يكن ثَمَّ مانعٌ من الدُّعاء فإنَّ الله يجيبُ دعاءك ويعطيك طِلبتك، أو يصرفُ عنك من البلاء ما لا تعلمه، أو يدَّخرُ لك في الآخرة ما هو أنفع وأصلح ممَّا طلبته.

(**وليعظِّم الرَّغبة**) بالِغْ في تعظيم الرَّغبة؛ بمعنى: أن يكون مطلوبك عظيماً ينفعك في الدُّنيا والآخرة، ولا تكن همَّتك فيما تطلبه من الله همَّة دنيئة؛ كشيء من الدُّنيا وملذَّاتها، بل اطلب أعلى ما يمكن أن تطلبه، وهو نعيم الجنَّة والنَّجاة من عذاب الآخرة.

(**فإنَّ الله لا مكرِهَ له**) أنت تسأل الله وتطلبه دون تعليق؛ فإنَّ الله هو الذي يعطي ويمنعُ، ويصلُ ويقطعُ، ويعزُّ ويذلُّ، بيده التصرُّف على حسب حكمته وإرادته، يعطي لحكمة ويمنع لحكمة.

وغرض المصنِّف من هذه التَّرجمة بعدما تقدَّم من بيان الأسماء والصِّفات التي تدعو الله بها: أن يكون دعاؤك صحيحاً؛ كأنَّ المصنِّف يقول:

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

سقتُ لك ما ينبغي أن تدعو الله به، وإذا عرفته فلا ينبغي أن تعلِّق دعاءك بالمشيئة، بل اعزم المسألة، واطلب أعظم شيءٍ، وهو: دخول الجنَّةِ، والنَّجاة من النَّارِ.



بابٌ
لا يقول: عبدي وأَمَتِي

في «الصَّحيح» عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقُل أحدُكُم: أطعِم ربَّك، وضِّئ ربَّك، وليقُل: سيِّدي ومولاي، ولا يقُل: عبدي وأَمَتِي، وليقُل: فتايَ وفتاتي، وغلامي**».



بابٌ
لا يقول: عبدي وأَمَتِي

۞ في «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقُل أحدُكُم: أطعِم ربَّك، وضِّيء ربَّك، وليقُل: سيِّدي ومولاي، ولا يقُل: عبدي وأَمَتِي، وليقُل: فتايَ وفتاتي، وغلامي**»(١).

وذلك لِما في هذا اللَّفظ من الإيهام بمشاركة الله ـ سبحانه ـ، وهذا تأدُّبٌ مع جناب الرُّبوبيَّة، فالعباد كُلُّهم مملوكون لله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، فإذا قلت: «هذا عبدي» حصل شيءٌ من الاشتراك اللَّفظي، بأنَّ لك عبداً، ولله عبيداً، وإن كان المراد المِلْكُ، ولكن نُهيَ عن هذا من باب التأدُّب.

ويُفرَّق بين المكلَّف وبين غيرِهِ، فالمكلَّف لا ينبغي أن تقول عنه: «عبدي»؛ لأنَّهُ عبدُ الله مأمورٌ بفعل طاعة الله، وترك معصية الله، أمَّا غير المكلَّف فلا مانع من إضافته إلى ربِّهِ؛ كأن تقول: «ربُّ الإبل، ربُّ الغنم، ربُّ الدَّار»، وكما يقول العلماء: «ادَّعى ربُّ الدَّار»، و«أُخذَ من ربِّ الغنم زكاته»، وما أشبه ذلك.

ثُمَّ اختلف العلماء في قول: «هذا عبدي»، فقيل: محرَّمٌ؛ لأنَّ النَّهي يقتضي التَّحريم، ولأنَّ الإنسان مأمورٌ بحماية التَّوحيد؛ ولأنَّ الحديثَ (**لا يقل أحدكم: عبدي**).

وقيل: مكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ، فهو جائزٌ إلَّا أنَّ الأولى والأفضل خلافه.

---
(١) رواهُ البخاريُّ (٢٥٥٢)، ومسلمٌ (٢٢٤٩).

مال ابن مفلح في «الفروع»[(١)] إلى أنَّهُ محرَّمٌ، وإضافة العبوديَّة إلى الله إضافة ملك إلى مالكه وصفة إلى موصوفها؛ أي: تارة تقتضي الإضافة التَّكريم والتَّشريف، وتارة تقتضي الملك، فما جاء على طريق التعميم كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣] هذا للمِلك، الجميع كلُّهم عباد الله، وأمَّا إضافة التَّكريم والتَّشريف: مثل: «بيت الله» للكعبة، فإضافتها هي تشريفٌ وتكريمٌ، وإن كانت كُلُّ الأرض لله، وكذا إضافة ناقة صالح إلى الله[(٢)]، إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ.

(**ولا يقل أحدكُم: أطعم ربَّك، وضِّئ ربَّك**): النَّهي عن قول: «ربَّك»؛ للعلَّة المذكورة في قولِ: (**عبدي وأَمَتي**).

(**وليقل: سيِّدي ومولاي**): فإطلاق السَّيِّدِ على مالك العبد لا بأس به.

وبقي بحثٌ وهو: هل يجوز إطلاق السَّيِّد على غير الله بناءً على هذا الحديث؟

إن قلتَ: جائز، فما الجواب عن حديث عبد الله بن الشخِّير حين جاء وفد بني عامر فقالوا للرَّسول ﷺ: يا رسول الله، أنت سيِّدنا، وابنُ سيِّدنا، وخيرنا، وابن خيرنا، فقال: «**السَّيِّد الله ـ تبارك وتعالى ـ، يا أيُّها النَّاس قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشَّيطان**»[(٣)]؟

هذه مسألة اختلف العلماء فيها، فمن قائل بالمنع؛ لحديث عبد الله بن الشخِّير، ومن قائلٍ بالجواز؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**أنا سيِّدُ ولدِ آدم ولا فخر**»[(٤)]؛ أي: ولا أتعاظم وأتبجَّح بهذا، وقال لليهود: «**قوموا إلى سيِّدكم**»[(٥)]؛ يعني:

---

(١) (٦/ ١١٥).

(٢) أي: «ناقة الله»، ففي التَّنزيل العزيز: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣﴾ [الشمس: ١٣].

(٣) يأتي تخريجه في باب ما جاء حماية النَّبيِّ ﷺ حمى التَّوحيد، وسدِّهِ كُلَّ طريق يوصل إلى الشِّرك.

(٤) رواه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

سعداً، قالوا: هذا يدلُّ على جواز إطلاق السَّيِّد على غير اللهِ، وأجابوا عن حديث عبد الله بن الشخِّير بأنَّهُ إنَّما أنكر عليهم ﷺ تأدُّباً مع جناب الرُّبوبيَّة، وحمايةً للتَّوحيد، لما قابلوه بهذا القول، وإلَّا فهو لا شكَّ أنَّهُ سيِّدنا، وسيِّد الخلق أجمعين، لكن نهاهم خشية أنَّ الشَّيطان يستجرَّهم وينقلَهُم لما هو أعظم من ذلك، وبهذا يتَّضح أنَّهُ لا مانع من إطلاق السَّيِّد عليه ﷺ وإن كان في المسألة خلافٌ، ذكره العلَّامة ابن القيِّم في «بدائع الفوائد»[١].

المسألة الثَّانية: هل السَّيِّدُ من أسماء الله؟

ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى عدم ثبوت هذا الاسم، وإطلاقه من باب الخبر لا حرج فيه؛ لأنَّ باب الإخبار أوسع من باب الأسماء كما سبق تقريرُهُ.

المسألة الثَّالثة: هل يجوز للعبد المملوك أن يقول: «مولاي»؟ أم أن المولى هو الله ـ سبحانه ـ؟

أجاز هذا طائفة من أهل العلم بدليل هذا الحديث، وقالوا: إنَّ لفظة المولى مشتركٌ تنطبقُ على نحو ستَّة عشر اسماً[٢]، فالنَّاظرُ يُسمَّى: (مولى)، والعتيقُ يُسمَّى: (مولى)، فلو أعتقتَ عبداً كنت أنت مولاهُ، وليُّ نعمتِهِ؛ إذ أنت الذي حرَّرته من الرِّقِّ.

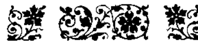


---

(١) (٣/ ١١٧٥).
(٢) ينظر: النِّهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢٦)، تهذيب الأسماء واللُّغات (٤/ ١٩٦).

بابٌ
لا يُرَدُّ من سألَ باللَّهِ

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن استعاذَ بالله فأعيذوهُ، ومن سألَ بالله فأعطوهُ، ومن دعاكم فأجيبوهُ، ومن صنعَ إليكم معروفاً فكافئوهُ، فإن لم تجدوا ما تكافئُوهُ فادعوا لَهُ حتَّى تُرَوا أنَّكُم قد كافأتموه**». رواهُ أبو داود والنَّسائيُّ بسندٍ صحيحٍ.



بابٌ
لا يُردُّ من سألَ باللَّهِ

۞ عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَن استعاذَ باللهِ فأعيذوهُ، ومن سألَ باللهِ فأعطوهُ، ومن دعاكُم فأجيبوهُ، ومن صنعَ إليكُم معروفاً فكافئوهُ، فإن لم تجدوا ما تكافئُوهُ فادعوا لَهُ حتَّى تُرَوا أنَّكُم قد كافأتمُوه»**. رواهُ أبو داود والنَّسائيُّ بسندٍ صحيحٍ[1].

هذا الحديث تضمَّنَ أربعَ مسائل:

المسألة الأولى: قوله ﷺ: **(من استعاذَ بالله فأعيذوه)**، كما لو قال لك

---

(١) رواهُ الطيالسيُّ (٣/ ٤١١) ـ ومن طريقه البيهقيُّ (٤/ ٣٣٤) ـ، والإمامُ أحمدُ (٩/ ٢٦٦) (٥٣٦٥)، وعبدُ بنُ حميدٍ (٨٠٦)، والبخاريُّ في (الأدب المفرد ٢١٦)، وأبو داود (٥١٠٩)، والنَّسائيُّ (٢٥٦٧)، والطبرانيُّ (١٣٤٦٦)، والحاكمُ (٢/ ٧٣) من طريق **أبي عوانة، الوضَّاح بن عبد الله اليشكُريِّ**.
ورواهُ أبو داود (١٦٧٢)، وابنُ حبَّان (٣٤٠٨) من طريق **جريرِ بنِ عبد الحميد**.
ورواهُ الطبرانيُّ (١٣٤٦٥) من طريق **حبَّانُ بن عليٍّ**.
ورواهُ الحاكمُ (١/ ٥٧٢) من طريق **عمَّار بن رُزيق**.
الأربعةُ، عن الأعمشِ، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، به، رجاله ثقاتٌ.
خالفَهم:
عبد الملك بن معن ـ وهو ثقةٌ ـ، فرواهُ عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيميِّ، عن مجاهدٍ، عن ابن عمر، أخرجَهُ ابنُ حبَّان (٣٣٧٥).
ومغيرة بن مسلم ـ سلك الجادَّةَ ـ؛ فرواه عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به مرفوعاً، أخرجَهُ البزَّارُ (٩٢٧٢).
عبد الملك لا تُحتمل مخالفتُهُ للأربعة ـ وإن صوَّب ابن حبَّان روايتَهُ ـ، وأمَّا رواية مغيرة بن مسلم فمنكرةٌ، أعلَّها البزَّارُ بعد إخراجها، وصوَّب رواية الجماعة أبو الحسن الدَّارقطنيُّ (العلل ٦/ ٣٧٤)، وأبو عبد الله الحاكم (المستدرك ١/ ٥٧٢).

إنسان: «أستعيذ بالله ثُمَّ بك أن تكفَّ شرَّ فلان عنِّي»؛ كأن تكون عندك سلطة وقدرة تستطيع بها أن تناصره، فهذا يجب عليك أن تناصره كما في الحديث الآخر: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»[١]، إن كان ظالماً تمنعه من الظُّلم، وإن كان مظلوماً فتساعده وترفع الظُّلم عنه.

المسألة الثَّانية: (من سأل بالله فأعطوه): إذا سألك رجل بالله ينبغي أن تجيب سُؤلَهُ تعظيماً لله وإجلالاً له، مثاله: لو قال شخص: «أسألك بالله أن تعطيني كذا وكذا»، فينبغي لك أن تعطيه، لكن هل يجب أم لا؟

أكثر العلماء على أنَّهُ لا يجب[٢]، وقوله: **(فأعطوه)**، هذا أمرٌ، والأمرٌ يقتضي الوجوب، فهو على الوجوب، ذهب إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيميَّة[٣].

المسألة الثَّالثة: قوله ﷺ: **(ومن دعاكم فأجيبوه)**: لو صنع أخوك المسلم وليمة ثُمَّ دعاك، فينبغي أن تذهبَ إليهِ، وأن تجيبَ دعوته، وقد قال رسول الله ﷺ: «**حقُّ المسلم على المسلم ستٌّ: إذا لقيتَهُ فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبهُ، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فشمِّته، وإذا مرض فعدهُ، وإذا مات فاشهد جنازتَهُ**»[٤]، هذه من حقوق المسلم، ولا سيَّما إذا كانت الدَّعوة لوليمة العرس؛ فإنَّهُ إذا دعاك مسلم يحرم هجرُهُ لوليمة عرس وجب عليك الحضور، ولا يجوز لك التأخُّر، بل تفطر لو كنت صائماً صوم نفلٍ، لما في ذلك من إدخال الأُنس والسُّرور عليه، وهذا خاصٌّ بوليمة العرس ـ عند طائفة من أهل العلم ـ، أمَّا بقيَّة الولائم كوليمة الختان، أو وليمة حضور غائب ونحوها فيستحبُّ أن تحضر ولا يجب، أمَّا إن كان صاحب بدعة وصاحب معاصي فلا ينبغي أن تحضر إلَّا إذا كنت تستطيع أن تمنعَهُ من هذه المعصية؛ كأن يدير على طعامه كؤوس خمر ـ مثلاً ـ وأنت تستطيع منعَهُ ينبغي

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٣) من حديث أنس ﷺ.
(٢) ينظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (١٤/ ٣٢)، الفتح (١٢/ ٤٣٥).
(٣) ينظر: الفروع (٦/ ٣٤٢).
(٤) رواه مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أن تحضر وتمنعه من هذا المحرَّم، أما إذا كنت لا تستطيع فلا تحضر.

وقال الخطابيُّ: «دُعي بعض العلماء إلى وليمةٍ فأبى الحضور، فقيل له: إنَّ سلفنا الصَّالح كانوا يُدعون فيُجيبون، والرَّسول ﷺ يقول: «**أخوكم تكلَّف لكم فأجيبوهُ**»[١].

فقال: السَّلفُ كانوا يدعون للأخوَّة والمواساة، ونحن ندعى للمكافأة والمباهاة، فلا نحضر»[٢].

المسألة الرَّابعة: قوله ﷺ: (**ومن صنع لكم معروفاً فكافؤه**)؛ أي: إذا أسدى إليك إنسان معروفاً ينبغي أن تكافأه، فتعطيه من جنس ما أعطاك أو أكثر؛ وذلك أنَّك إذا صنعت لشخص معروفاً فهو ولا بُدَّ سيميلُ قلبُهُ إليك مقابل معروفك، ويذلُّ لك، فينبغي أن يكافأك حتَّى يكون قلبه كلَّه لله، فينقطع القلب عن جميع الخلائق ويتَّصل بالخالق.

(**فإن لم تجدوا ما تكافئُوهُ فادعوا له حتَّى تروا أنَّكم قد كافأتموهُ**): (تُروا)؛ أي: تظنُّوا، ويصِحُّ (تَروا) أي: تعلموا أنَّكم قد كافأتموه؛ كأنَّ المعنى أنَّك تقول: «يا ربِّ أنا عاجزٌ عن مكافأته فكافئه أنت يا ربِّ»، فتدعو له بالرَّحمة والمغفرة والرِّزق الواسع مقابل إحسانه إليك، وفي هذا المعنى يقول الشَّاعر:

إذا أفادك إنسانٌ بفائدةٍ ... من العلوم فأدمن شكرَهُ أبداً
وقل: فلانٌ جزاهُ اللَّهُ صالحةً ... أفادنيها وألْقِ الكبرَ والحسَدَا

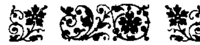
---

(١) أخرجَهُ الطبرانيُّ في (الأوسط ٣٢٤٠) من حديث حمَّاد بن أبي حميد، عن ابن المنكدر، عن أبي سعيد الخدري.
وابن أبي حميد ضعيف اضطرب في هذا الحديث، فرواه كما عند الدَّارقطنيِّ (٢٢٣٩) عن إبراهيم بن عبيد مرسلاً.
وتابعه على الرِّواية الأولى: أبو أويس، كما عند البيهقيِّ (٤/ ٤٦٢) إلَّا أنَّ أبا أويس فيه لينٌ ـ أيضاً ـ.
وللحديث شاهد من حديث جابر عند الدَّارقطنيِّ (٢٢٤١) وإسنادُهُ ضعيفٌ جدَّاً.
(٢) معالم السُّنن (٤/ ٢٣٧).

بابٌ

لا يُسألُ بوجهِ اللهِ إلَّا الجنَّة

عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُسأل بوجه الله إلَّا الجنَّة»**.





بابٌ
لا يُسألُ بوجهِ اللَّهِ إلَّا الجنَّة

۞ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُسأل بوجه الله إلَّا الجنَّة**»(١).

المصنِّفُ عقد الباب بلفظ الحديث، فقال: (بابٌ لا يسأل بوجه الله إلَّا الجنَّة)، والحديث اشتمل على **مسألتين**:

المسألة الأولى: في الحديث دليلٌ على أنَّ لله وجهاً يليقُ بجلاله، ومذهبُ أهل السُّنَّة والجماعةِ: إثباتُ الصِّفات التي أثبتها الله لنفسِهِ في كتابِهِ، أو أثبتها له رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، **لا نقول**: «إنَّ لله وجهاً كوجوه خلقه»، فكما أنَّ ذاته لا تشبه ذوات خلقِهِ، فكذلك صفاته لا تشبه صفات خلقِهِ، أمَّا المنكرون للصِّفات ففسَّروا الوجه بالذَّات، وقالوا المعنى: (**لا يُسأل بذات الله إلَّا الجنَّة**)، وهذا هو مذهبُ الجهميَّةِ والأشاعرةِ والمعتزلةِ ونظائرهم.

فنقول: لا، بل الوجه معنى حقيقي، قال الله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾**﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

وفي لغة العرب لا تسمَّى اليد: (وجهاً)، ولا الذَّات: (وجهاً)، ولا الرِّجل: وجهاً، إنَّما الوجه إذا أُطلق فهو الوجه المعروف، إلَّا أنَّا لا نشبِّه الله

(١) رواهُ أبو داود (١٦٧١)، وابن عديٍّ (٤/ ٢٤١)، والبيهقيُّ (٤/ ٣٣٣) من حديث سليمان ابن معاذ، عن محمَّد بن المنكدر، عن جابر، به.
وهو حديثٌ ضعيفٌ، سليمان هو: ابن قرم، ومعاذٌ جدُّهُ، وقد أورد ابن عديٍّ هذا الحديث في جملة ما أُنكرَ عليه، وينظر: الميزان (٢/ ٢١٩).

بخلقه، هذا هو الحقُّ، لا نحرِّف، ولا نكيِّف، ولا نمثِّل، ولا نعطِّل، وإثبات الوجه لله هو من باب إثبات الصِّفات الذَّاتيَّة؛ كاليدِ والبصرِ والسَّمعِ وما أشبه ذلك.

المسألة الثَّانية: دلَّ الحديثُ على أنَّهُ لا يُسألُ بوجه الله إلَّا غاية المطالب ونهايتها وأعلاها ألا وهي: الجنَّة، فعظمة الله وكبرياؤه وجلاله أجلُّ وأعظمُ من أن يُسألَ بوجهه أمرٌ من أمور الدُّنيا التي هي لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولا بأس أن تسأل بوجه الله ما يستلزم دخول الجنَّة، كما لو سألت الله العظيم بوجهه الكريم أن يُعيذك من النَّار؛ لأنَّ من لازم السَّلامة من النَّار، أن تدخل الجنَّة، أو تسأل الله بوجهه الكريم السَّلامة من غضبه.



بابُ
ما جاء في اللَّو

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨].

في «الصَّحيحِ» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزنَّ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقُل لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: «قَدَرُ اللهِ وما شاءَ فعلَ»؛ فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشَّيطانِ»**.





بابُ
ما جاء في اللَّو

أي: النَّهي عن «لو»، وهو أن تقول إذا قدَّر الله قدراً وقضى أمراً: (لو فعلت كذا لكان كذا وكذا)، هذا غلط، وهذا يخدش كمال التَّوحيد، فما قدَّره الرَّبُّ ـ سبحانه ـ وقضاه لا بُدَّ أنَّهُ واقعٌ، سواءٌ قلتَ: (لو) أم لم تقل، بل قل: (قدرُ الله وما شاء فعل)، ما شاء الله كانَ وما لم يشأ لم يكن، فالله ـ جلَّ وعلا ـ إذا حكم وقدَّر قدراً فلا مناص من وقوعه.

۞ وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ هذه الآية نزلت في وقعة أُحد، وذلك أنَّ المشركين لما جاءوا بجمعهم الكبير لحرب رسول الله ﷺ بالمدينة، خرج الرسول ﷺ ومعه المسلمون، وأمرَ الرُّماة أن يثبتوا، وأن لا يبرحوا مكانهم، فتقاتل المسلمون والكفَّار، فانهزم الكفَّار، فجاء الرُّماة لأخذ الغنيمة، فبقي مكانهم خالياً، فهجمت خيلٌ لقريش من هذه الجهة فقتلوا المسلمين، وحصل على الصَّحابة ما حصل، وكان من جملتهم أناس من المنافقين، فقالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: لو كنَّا على حقٍّ وهدى ما قُتلنا ها هنا، فلمَّا حصل ما حصل دلَّ على أنَّنا لسنا على حقٍّ، فقال الله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

فالله الذي قدَّر آجالهم في هذا المكان وقضى عليهم القتل، فلا بُدَّ أن يبرزوا لوقوع قضاء الله وقدره.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: بسبب هذه الواقعة ظهر ما ظهر ممَّا كانت تخفيه الصُّدور من النِّفاق، أمَّا مَن كَمُلَ إيمانُهُ فثبتَ على إيمانِهِ ولم يزعزعهُ شيءٌ من ذلك، كما قال الله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠]، حكمة من الله بأن يتَّخذ من المؤمنين شهداء، وحكمة من الله بأن يظهر من في قلبه نفاق، ويثبت من كان قلبه ممتلئاً إيماناً، ففتح باب (لو) لا ينفع.

۞ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨].

لم يكونوا مع الرَّسول ﷺ وقالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ ولم يخرجوا مع محمَّد ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾، وإنَّما قُتلوا بسبب خروجهم، ها نحن لم نخرج فلم يحصل علينا شيءٌ، ردَّ عليهم الرَّبُّ بقوله: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨]؛ أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت إذا جاءكم، هذه آجالهم، قضى اللهُ عليهم أن تنتهي حياتهم، وأن تكون على هذه الكيفيَّة في الجهاد في سبيل الله، الـمُحِقُّ منهم والـمُخلصُ يُجازى بالخير، والعكس بالعكس، ثُمَّ قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

والحاصل: أنَّهُ إذا حصل عليك مصيبة لا ينبغي أن تقول: «لو فعلت كذا لكان كذا وكذا»، بل إذا حصل ما لا تحبُّه قل: «قَدَرُ اللهِ وما شاء فعلَ»، الله الذي قدَّر وقضى وحكم، وما شاء فعله الرَّبُّ ـ سبحانه ـ.

۞ في «الصَّحيحِ» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزنَّ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقُل لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: «قَدَر اللهِ وما شاءَ فعلَ»؛ فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشَّيطانِ»**[(١)].

(في «الصَّحيح»): أي: صحيح البخاريِّ.

وهذا حديثٌ عظيمٌ، جليلُ القدر، اشتمل على **فوائد كثيرة**:

الفائدة الأولى: دلَّ الحديث على تفاوت المحبَّة؛ فإنَّ الله يُحِبُّ أقواماً أكثر ممَّا يُحِبُّ آخرين ـ وإن اشتركوا في أصل المحبَّة ـ، كما أنَّ عكسها ـ أيضاً ـ متفاوت كذلك وهو الغضب؛ فإنَّ الله يغضب على قوم أكثر ممَّا يغضب على آخرين؛ كما في قوله ﷺ: **«اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(٢)]، وكما في حديث الشَّفاعة الطَّويل: **«إنَّ ربِّي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلَهُ مثلَهُ»**[(٣)].

الفائدة الثَّانية: دلَّ الحديثُ على أنَّ الله يُحِبُّ القويَّ، والمراد بالقوَّة هنا هي: القوَّة المعنويَّة، ليست القوَّة الجسميَّة، فالبعير أقوى من الإنسان بكثير، يحمل ما لا يحمله الإنسان، لكن المراد القوَّة المعنويَّة في دينِ اللهِ وشرعِهِ، يستطيع بقوَّةِ الإرادةِ أن يأمرَ وينهي، ويُنفِّذ أمرَ الله، وينهى عن محارمِ اللهِ باللِّسانِ واليدِ ـ على حسبِ قدرتِهِ كما جاءت به الشَّريعَةُ ـ، فقد يكون المؤمنُ ضعيفُ البنيةِ لكنَّهُ أقوى في دينِ اللهِ وشرعِهِ من قويِّ البنية.

(احرص على ما ينفعك): بفتح الرَّاء، ويجوز كسرها، والحرص: غاية الاجتهاد في ما من شأنه أن يجلب لك النَّفع ويدفع عنك الضَّرر، هذا هو

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢٦٦٤). (٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحرص، ولا ينبغي أن تميل إلى الكسل وإلى البطالة، بل اجتهد لتدرك الغاية في تحصيل ما ينفعك، ويدفع عنك الضَّرر، طالباً العون في ذلك من الله - تعالى -.

(**واستعن بالله**): اطلب العون من الله، وهذا معنى قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، فالحرص على ما ينفعك عبادة، وهذا يدلُّ على أنَّ الله أمر بتعاطي الأسباب.

(**وإن أصابكَ شيءٌ فلا تقُل: لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قَدَرُ اللهِ وما شاءَ فعلَ**): بعدما تفعل الأسباب، إن حصل لك مقصودك فاشكر الله، وإن كانت الأخرى بأن صرفه الله عنك لأمر اقتضته حكمته، فقل: (**قَدَرُ اللهِ وما شاءَ فعلَ**)، ولا تقُل: (**لو أنِّي أتيت فلاناً لكان كذا وكذا**)، ما دام أنَّك فعلت الأسباب وبلغت النِّهاية في الاجتهاد، ولم يحصل لك مرادك، فهذا أمرٌ بيد الله، قل: (**قَدَرُ اللهِ وما شاء فعلَ**).

(**فإنَّ لو تفتح عمل الشَّيطان**) يعني: كأنَّك جعلت الأمور مرتَّبة على فعلك أنتَ، وأنَّ الله لم يأمر ويقدِّر، وهذا من أكبر الخطأ، وأعظم الجُرم.

لكن ما الجواب عن الأحاديث التي جاءت فيها: (**لو**)؛ كقول النبيِّ ﷺ: «**لولا أن أشقَّ على أُمَّتي لأمرتهم بالسِّواك**»[١]، و«**لولا أنَّ قومَكِ حدثاءُ عهدٍ بكفرٍ لهدمتُ الكعبةَ ولجعلت لها بابين**»[٢]؟

الأوَّل: حثٌّ على استعمال السِّواك عند كُلِّ صلاةٍ وعند كلِّ وضوءٍ، وليس فيه ما يدلُّ على الوجوب[٣]، وأمَّا الحديث الثَّاني فكأنَّهُ ﷺ يُنبِّه النَّاس إلى أنَّه ينبغي أن يكون كذا ليفعلوه، وقد فهم ابن الزُّبير أنَّ الرَّسول ﷺ ما منعه من بناء الكعبة على قواعد إبراهيم إلَّا خشية أن يُفتتن هؤلاء المسلمون

---

(١) رواه البخاريُّ (٨٨٧)، ومسلمٌ (٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ (١٢٦)، ومسلمٌ (١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) لمَّا كان السِّواك مأموراً به، وقال ﷺ: «**لولا أن أشقَّ على أُمَّتي لأمرتهم بالسِّواك...**» دلَّ على أن التَّقدير (لأمرتهم): أمرَ إيجابٍ؛ لأن أمر الاستحباب ثابت، ينظر: شرح مختصر الرَّوضة (١/ ٣٥٦).

الذين أسلموا حديثاً، فتركها حتَّى ينغرز الإسلام في قلوبهم حقيقة، وتنقلع جذور الشِّرك من قلوبهم، وقد ترجم البخاريُّ في «صحيحه» على هذا الحديث بقوله: (باب: من تركَ بعض الاختيار مخافةَ أن يقصرَ فهمُ بعض النَّاس عنه فيقعوا في أشدَّ منه)[1]، فإذا زال المحظور فيفعل الأحسن، لذا هدمها ابن الزُّبير وجعل لها بابين، لكن لما جاء الحجَّاج هدمها وردَّها على ما كانت بنتها عليها قريش، ولما جاء الرَّشيد أراد أن يهدمها وأن يردَّها على بناء ابن الزُّبير لمقتضى هذا الحديث، فمنعه الإمام مالك خشية أن يكون هذا البيت ملعبة للأمراء، فذكرُ: (لو) في هذه الأحاديث وغيرها ليست من (**لو**) التي تفتح عمل الشَّيطان؛ لأنَّ المقام مقام تشريعٍ.



(١) صحيح البخاري (١/ ٣٧).

بابُ
النَّهي عن سبِّ الرِّيح

عن أبيٍّ بن كعبٍ ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبُّوا الرِّيحَ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نسألك من خير هذه الرِّيح، وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمرت به، ونعوذُ بك من شرِّ هذهِ الرِّيح، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرت بهِ**». صحَّحَهُ التِّرمذيُّ.



بابُ
النَّهي عن سبِّ الرِّيح(١)

۞ عن أبيِّ بن كعبٍ ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تسبُّوا الرِّيحَ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ من خيرِ هذه الرِّيح، وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمرت به، ونعوذُ بك من شَرِّ هذه الرِّيح، وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُمرت بِهِ». صحَّحَهُ التِّرمذيُّ(٢).

هو: أُبيُّ بن كعبِ بن قيس بن عبيد بن زيد الأنصاريُّ الخزرجيُّ، أبو

(١) هذا الباب تفضَّل بشرحه معالي الشَّيخ الدكتور/ صالح بن عبد الله بن حميد ـ متَّع الله به وكثَّر فوائده ـ.

(٢) أخرجَهُ ابن أبي شيبة (٢٩٨٢٩)، وعبد الله في (زيادات المسند ٢١١٣٨)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٩)، والتِّرمذيُّ (٢٢٥٢)، والنَّسائيُّ (١٠٧٠٤)، والطحاويُّ في شرح مشكل الآثار (٢/ ٣٨٠)، والحاكمُ (٢/ ٢٩٨)، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (٢/ ٣٩٢) من طرقٍ عن سعيد بن عبد الرَّحمٰن بن أبزى، عن أبيه، عن أبيِّ بن كعب، به.
وقع في أسانيده اضطرابٌ شديدٌ؛ فإنَّهُ يرويه عن سعيدٍ: حبيبُ بن أبي ثابت وقد اختُلف عليه فيه، ويرويهِ عن حبيبٍ: الأعمشُ وشعبةُ واختُلف عليهما فيه، ويرويهِ عن الأعمش جماعة منهم: محمَّد بن فضيل وأسباط بن محمَّد واختلف عليهما فيه، وذلك الاختلاف هو في الوقف والرَّفع، وفي شيخ حبيب هل هو سعيد أم بينهما ذرُّ بن عبد الله؟
ولا يسع المقام لبسط ذلك كُلِّهِ، إلَّا أنَّ الصَّوابَ من طرقِهِ ـ والله أعلم ـ هو: ما رواه النسائيُّ (عمل اليوم واللَّيلة من الكبرى ١٠٧٠٦)، والحاكم (٢/ ٢٩٨) من طريق جريرُ بن عبد الحميد، عن الأعمش.
وما رواه النسائيُّ (١٠٧٠٨ ـ ١٠٧٠٩) وعنه الطَّحاويُّ (٢/ ٣٨٠) من طريق محمَّد بن أبي عدي والنَّضر بن شميل عن شعبة.
كلاهما ـ شعبة والأعمش ـ عن حبيب، عن ذرٍّ، عن سعيد، عن أبيه، عن أُبيٍّ موقوفاً.

المنذر، صحابيٌّ بدريٌّ، من قرَّاء الصَّحابة وفقهائهم وعلمائهم، له مناقب مشهورة ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، مات سنة تسع عشرة في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: سنة ستٍّ وثلاثين، وقيل غير ذلك[١].

والسَّبُّ: هو الشَّتم، وقد جاء اللَّفظان في حديث في «الصَّحيحين» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وفيه: قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرَّجل والديه؟ قال: «**نعم، يسبُّ أبا الرَّجل فيسبُّ أباه..**» الحديث[٢].

وقد يفرَّق بينهما بأنَّ بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، فالسَّبُّ أعمُّ من الشَّتم، فكلُّ شتم سبٌّ، وليس كل سبٍّ شتماً.

والحاصل: أنَّ السَّبَّ والشَّتم واللَّعن والعيبَ والقدح ألفاظ يفسِّر بعضها بعضاً.

والرِّيح هو: الهواء الذي يصرِّفه الله ـ سبحانه ـ كيف يشاء، وجمعُهُ: رياح.

والرِّياح تكون لواقح، وتكون عقيماً، **فاللَّواقح**: هي التي تحمل الماء؛ كاللَّقحة من الإبل، يقول ـ عزَّ شأنه ـ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

والعقيم: التي لا ماء فيها، قال ـ عزَّ شأنه ـ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: ٤١]؛ أي: لا مطر فيها.

ويقول أبو بكر ابن عيَّاش: لا تقطر من السَّماء قطرة حتَّى تعمل فيها أربع رياح: فالصَّبا تهيِّجه، والشَّمال تجمعه، والجنوب تبدِّده، والدَّبور تفرِّقه، ذكره البغويُّ عنه في تفسيره[٣].

ويقول جريرٌ:

مطاعيمُ الشَّمالِ إذا استُحِنَّتْ ... وفي عُرواءِ كُلِّ صباً عقيمِ[٤]

---

(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٦٥)، الإصابة (١/ ٥٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).
(٣) معالم التَّنزيل (٤/ ٣٧٥).
(٤) ديوان جرير (ص٤٠٠).

أي: مطاعيم الشِّتاء، والعراة: البرد الشَّديد[(١)]، واستحنان الشَّمال: هيجانها.

ويقول الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن آياته الباهرات هذا الهواء اللَّطيف المحبوس بين السَّماء والأرض...، إلى أن قال: فإذا شاء ﷻ حرَّكه بحركة الرَّحمة، فجعله رخاء، ورحمة، وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسَّحاب يلقحه كما يلقح الذَّكر الأنثى بالحمل، وتسمَّى رياح الرَّحمة: المبشِّرات، أو: النشر، أو: الذَّاريات، أو: المرسلات، أو: الرَّخاء، أو: اللَّواقح.

ورياح العذاب تسمَّى: العاصف، أو: القاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البرِّ»[(٢)].

قالوا: وأمهات الرِّياح أربع: الصَّبا وتقابلها الدَّبور، والشَّمال وتقابلها الجنوب، وفي الحديث الصَّحيح المرفوع: «**نُصرت بالصَّبا، وأهلكت عادٌ بالدَّبور**»[(٣)].

قوله: (**لا تسبُّوا الرِّيح**): أي: تسندوا الفعل إليها فتشتموها، فهي لا فعل لها، بل هي مدبَّرةٌ مأمورةٌ، والله هو مرسلها ومدبِّرها، وسبُّ المخلوق سبٌّ لخالقه ـ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ـ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ينبغي لأحدٍ أن يسبَّ الرِّيح؛ فإنَّها خلق لله مطيع، وجند من أجناده، يجعلها رحمة ونقمة إذا شاء سبحانه»[(٤)].

قوله: (**فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللَّهمَّ إنَّا نسألك من خير هذه الرِّيح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرت به**):

---

(١) ينظر: الصحاح (٦/ ٢٤٢٣). (٢) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٥٧٢).
(٣) رواه مسلم (٩٠٠) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) معرفة السُّنن والآثار (٥/ ١٩٠).

أرشدهم النَّبيُّ ﷺ في ذلك لما ينفعهم، ونهاهم عمَّا يضرُّهم، وقد أضاف الخير والشَّرَّ إليها إضافة سببيَّة؛ أي: أنَّ الله جعلها سبباً لذلك الخير أو الشَّرِّ الذي أُمرت به، وليست مستقلَّة في ذلك، وفي قوله: **(ومن شرِّ ما فيها)** جعلها ظرفاً لذلك؛ لأنَّ الله جعل الشَّرَّ فيها تحمله إلى حيث أُمرت.

وفي قوله: **(وما أمرت به)**: جعل الأمر في السُّؤال كلِّه لله ـ تعالى ـ، وفي كلِّ ذلك أثبت الأسباب التي أثبتها مرسلها ـ تبارك وتعالى ـ، فهو ـ سبحانه ـ يرسلها مبشِّراتٍ، ومخوِّفاتٍ، ونقماتٍ؛ أي: بما يكره الإنسان، وبما يحبُّ.

وقد روى أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الرِّيح من روح الله، تأتي بالرَّحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرِّها**»(١).

وجاء في «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الرِّيح قال: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أرسلت به**»(٢).

وفي ذلك كلِّه دليلٌ على أنَّ ما استجلبت نعم الله بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمة بمثل الإلتجاء إليه بالتَّوبة والاستغفار من الذُّنوب.

وفي هذا ـ أيضاً ـ تبيُّن العبوديَّة لله، والطاعة له ولرسوله ﷺ، واستدفاع الشُّرور، والتَّعرُّض لفضله ونعمته، وهذا حال أهل التَّوحيد والإيمان، خلافاً لأهل الجهل بالله وبدينه وبما شرعه لعباده، وخلافاً لأهل الفسوق والعصيان الذين قد يحرمون ذوق طعم التَّوحيد وتحقيقه الذي هو حقيقة الإيمان.

---

(١) أخرجه معمرٌ في جامعه (١١/ ٨٩) (٢٠٠٠٤)، والإمامُ أحمدُ (١٣/ ٦٩) (٧٦٣١)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧٢٠)، وأبو داود (٥٠٩٧)، وابنُ ماجه (٣٧٢٧)، وابنُ حبَّان (١٠٠٧)، والبيهقيُّ (٧/ ١١٨) (٦٥٣٧)، من طريق الزُّهري قال: حدَّثني ثابت بن قيس ـ وهو الزُّرقي ـ عن أبي هريرة، به، ورجاله ثقاتٌ.

(٢) صحيح مسلم (٨٩٩).

وسبُّ الرِّيح نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ سابَّها ينسب ما جاءت به وما تحملُهُ إليها، فكأنَّها هي المتصرِّفة، ولم يعلم بأنَّ الله هو المتصرِّف في هذا العالم بما تقتضيه حكمته وإرادته وتدبيره وتصريفه، والرِّيح من خلق الله تجري على مقتضى أمره وإرادته وتدبيره وتصريفه.

وعلاقة هذا الباب بالتَّوحيد أنَّ سبَّ الرِّيح إذا كان يعتقد أنَّ الرِّيح هي التي تصنع الأشياء وتوجِدها أو تحدثها فهو شركٌ في الرُّبوبيَّة، وهو شركٌ أكبر.

وإذا كان لا يعتقد ذلك، بل يعتقد أنَّ الله هو الخالق المدبِّر، وإنَّما نسب هذه الأشياء إلى هذه المملوكات كقوله: الريح طيبة، وكان المسير حسناً، والملَّاح حاذقاً فوصلنا بأمان فهذا محرَّم، إذ المتعيِّن شكر الله ونسبة كلِّ خير إليه ـ سبحانه ـ، فهو الذي سخَّر الرِّيح، وهو الذي وفَّق الملَّاح وعلَّمه وفهَّمه.

وممَّا يستدعي التَّنبيه ما ساد في هذا العصر من الحديث عن الأحوال الجويَّة، والظَّواهر الكونيَّة، ونسبة الأمطار إلى المنخفض الجويِّ، أو أنواع الرِّياح، وما شابه ذلك، فكلُّ هذا ممَّا ينبغي الاحتراز فيه، والحرص كل الحرص على الأدب مع الله ـ سبحانه ـ، وأنَّه سبحانه ربُّ الأرباب، ومسبِّب الأسباب.

ولا مانع من الاستدلال بما وضعه الله من أسباب؛ كمعرفة الخسوف والكسوف، ومواعيد المطر ـ بإذن الله ـ، وأحوال درجات الحرارة، لكن لا ينسب ذلك إلى الأسباب، بل إلى الله ـ سبحانه ـ، وتقديره ومشيئته، فهو ـ سبحانه ـ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.



بابُ

قولِ اللَّهِ تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤]

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قال ابنُ القيِّم في الآية الأولى: «فُسِّرَ هذا الظَّنُّ: بأنَّهُ ـ سبحانَهُ ـ لا ينصرُ رسولَهُ، وأنَّ أمرَهُ سيضمحِلُّ.

وفُسِّرَ: بأنَّ ما أصابهم لم يكنْ بقدرِ الله وحكمته، وفُسِّرَ بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتِمَّ أمر رسولِهِ، وأن يظهرَهُ الله على الدِّين كُلِّهِ، وهذا هو ظنُّ السَّوءِ الذي ظنَّهُ المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنَّما كان هذا ظنَّ السَّوءِ؛ لأنَّهُ ظنُّ غير ما يليق به ـ سبحانه ـ، وما يليق بحكمتِهِ وحمدِهِ ووعدِهِ الصَّادقِ، فمن ظنَّ أنَّهُ يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرَّةً يضمحِلُّ معها الحقُّ، أو أنكرَ أن يكون ما جرى بقضائِهِ وقدرِهِ، أو أنكرَ أن يكون قدَّرَهُ بحكمةٍ بالغةٍ يستحقُّ عليها الحمد، بل زعم أنَّ ذلك لمشيئةٍ مجرَّدةٍ، فذلك ظنُّ الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النَّار.

وأكثرُ النَّاسِ يظنُّون بالله ظنَّ السَّوء فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُهُ بغيرِهِم، ولا يسلَمُ من ذلك إلَّا مَن عرفَ اللهَ وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللَّبيب النَّاصح لنفسِهِ بهذا، وليتبْ إلى الله ويستغفره من ظنِّهِ بربِّهِ ظنَّ السَّوءِ، ولو فتَّشتَ من فتَّشت لرأيت عنده تعنُّتاً على القَدَرِ وملامةً لَهُ، وأنَّهُ كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌّ ومستكثرٌ، وفتِّش نفسك: هل أنت سالمٌ؟!

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ   وإلَّا فإنِّي لا إخالُكَ ناجياً»



بابُ
قولِ اللَّهِ تعالى:
﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤]

إضافةُ الظنِّ للجاهليَّة إضافة ذمٍّ وعيبٍ، والآية في وقعةِ أُحدٍ، لما حصل على المسلمين ما حصل، فكانت الهزيمة أوّلاً على المشركين، جاء الرُّماة الذين أمرهم الرَّسول ﷺ بأن يثبتوا مكانهم مبادرين لأخذ الغنيمة، فبقيَ مكانُهُم خالياً ليسَ فيهِ أحدٌ[1]، فحصل على المسلمين ما حصل، وقُتل من قُتل من المسلمين، فالجهلة المنافقون ظنُّوا أنَّهُ لن تقومَ دائرةٌ للمسلمين بعد هذا، وأنَّ الإسلامَ انتهى وبادت خضراؤه، هذا ظنُّهم!

(﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾): فالله ـ سبحانه ـ له الحكمةُ البالغةُ، والتَّقدير التَّامُّ، وهو الذي قدَّر ذلك، فمن الحِكَم في ظهور المشركين على المسلمين: أنَّ بعض النَّاس تعلَّق بالرَّسول ﷺ وظنُّوا أنَّ عندهُ شيئاً من النَّصر فأعلمهم الله بأنَّ محمَّداً ﷺ ليس بيدِهِ شيء: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الأمر بيد الله ـ سبحانه ـ؛ فحصل ما حصل لأجل أن تنصرفَ القلوبُ إلى الله وتتعلَّق به، وألَّا يبقى في القلبِ أيُّ تعلُّق لا بالرَّسول ﷺ ولا بغيره.

ومن الحِكَم: ما ذكرَهُ الله في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] من أين جاءت هذه المصيبة؟!

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ المصيبة والهزيمة جاءتا مِن قِبَلِ عملِكُم، وهو أنَّهم: خالفُوا أمرَ نبيِّهم ﷺ؛ فتركُوا الثَّغرَ الهامَّ.

---

(١) أي: أحدٌ يسدُّ الخلَّةَ، ويحمي الثَّغرَ؛ فإنَّ قوماً من الرُّماةِ ثبتوا فقُتلوا ـ رضي الله عن الجميع ـ، منهم: أميرُهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وينظر: الطَّبقات لابن سعد (٢/ ٤١)، الرَّوض الأنف (٦/ ٤٩)، وأصلُهُ في البخاريِّ (٤٠٤٣).

وهذا فيه: الرَّدُّ على القدريَّة الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم الأشياء إلَّا بعد وقوعها، فالرَّبُّ غيرُ عالمٍ بما سيقعُ، وهو خارجٌ عن قدرتِهِ، والأمرُ أُنُفٌ؛ أي: جديدٌ، لم يكن في سابقِ علم اللهَ.

أمَّا المسلمون فيقولون: ما شاء الله كان، فالله إذا أراد شيئاً لا بُدَّ من وقوعه، شاء النَّاسُ أم لا، وما لم يشأ الله لم يكن، شاء النَّاسُ أم لا؛ لأنَّ مشيئَتَهُ غالبةٌ نافذةٌ على كُلِّ مشيئةٍ، رضي النَّاسُ أم سَخِطُوا.

۞ وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ الآية [الفتح: ٦].

حُسنُ الظَّن بالله واجبٌ من واجبات التَّوحيد، فلا يجوز لك أن تسيءَ الظَّنَّ بالله، بل أحسن الظَّنَّ بالله؛ فإنَّ الله بعبادِهِ غفورٌ رحيمٌ ودودٌ، يغفرُ الذُّنوبَ ويسترُ العيوبَ، وهو الرزَّاق ذو القوَّة المتين، ولكن ليس معنى هذا أنَّك تغلِّب جانب الرَّجاء بأن ترتكبَ المعاصي وتتركَ المأمورات بناءً على حسن الظنِّ بالله، وبناءً على أنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، بل تذكَّر أنَّ الله قال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، فجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب، فلا تأمن من مكرِ اللهِ، بل ابتعد عن كل ما يُغضبُهُ ويؤسفُهُ[(١)].

ثُمَّ تأمَّل قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧]: جمع بين العقاب والرَّحمة حتَّى إذا ذكرتَ عفوَ اللهِ ومغفرتَهُ ورحمتَهُ أحسنتَ الظَّنَّ بِهِ، وإذا ذكرت عذابَهُ وذنوبَكَ وما يفعل بالعصاة جعلت تبتعد عن المعاصي؛ فإنَّ الله يقول: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩]، هذا في حقِّ من غلَّب جانب الرَّجاء، وفي حقِّ من غلَّبَ جانبَ الخوف قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: ٥٦]، فعليك أن لا تغلِّب جانبَ الرَّجاء وحسنَ الظَّنِّ بالله، ولا تغلِّب جانب الخوف فتقنط من رحمة الله، بل سِر بين هذا وهذا؛ كجناحي طائر؛ فالطَّائر عندما يطيرُ ويُحلِّق في الجوِّ فإنَّ جناحيه متساويان، وقد ذكر العلماء أنَّهُ ينبغي للإنسان في مرض الموت أن يغلِّبَ جانبَ الرَّجاء وحسنَ الظَّنِّ بالله.

---

(١) الأسف: شدَّةُ الغضب، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

۞ قال ابنُ القيِّم في الآية الأولى: «فُسِّرَ: هذا الظَّنُّ بأنَّهُ ـ سبحانَهُ ـ لا ينصرُ رسولَهُ، وأنَّ أمرَهُ سيضمحِلُّ.

وفُسِّرَ: بأنَّ ما أصابهم لم يكن بقَدَرِ الله وحكمتِهِ، وفُسِّرَ بإنكارِ الحكمةِ، وإنكارِ القدرِ، وإنكارِ أن يُتِمَّ أمرَ رسولِهِ، وأن يظهرَهُ الله على الدِّين كُلِّهِ، وهذا هو ظنُّ السَّوءِ الذي ظنَّهُ المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنَّما كان هذا ظنُّ السَّوءِ؛ لأنَّهُ ظنُّ غير ما يليق به ـ سبحانه ـ، وما يليق بحكمتِهِ وحمدِهِ ووعدِهِ الصَّادقِ، فمن ظنَّ أنَّهُ يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرَّةً يضمحِلُّ معها الحقُّ، أو أنكرَ أن يكونَ ما جرى بقضائِهِ وقدرِهِ، أو أنكرَ أن يكونَ قدَّرَهُ بحكمةٍ بالغةٍ يستحقُّ عليها الحمدَ، بل زعمَ أنَّ ذلك لمشيئةٍ مجرَّدةٍ، فذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا مِنَ النَّارِ.

وأكثرُ النَّاسِ يظنُّون بالله ظنَّ السَّوء فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُهُ بغيرِهِم، ولا يسلَمُ من ذلك إلَّا من عرفَ اللهَ وأسماءه وصفاته، وموجب حكمتِهِ وحمدِهِ.

فليعتن اللَّبيبُ النَّاصحُ لنفسِهِ بهذا، وليتبْ إلى الله ويستغفره من ظنِّهِ بربِّهِ ظنَّ السَّوءِ، ولو فتَّشتَ مَن فتَّشتَ لرأيتَ عندَهُ تعنُّتاً على القَدَرِ وملامةً لَهُ، وأنَّهُ كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌّ ومستكثرٌ، وفتِّش نفسكَ: هل أنتَ سالمٌ؟!

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ ... وإلَّا فإنِّي لا إخالُكَ ناجياً»(١)

كمن ظنَّ أنَّ الله ـ سبحانه ـ يعاقبُ المطيعينَ، وينعِمُ على العاصينَ، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء.

(١) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٣١٠ ـ ٣١١).

ومَن ظنَّ أنَّهُ ـ سبحانه ـ يعذِّب محمَّداً ﷺ ويرضي أبا جهلٍ بأعلى عِلِّيين، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ أنَّ الله ـ سبحانه ـ حالٌّ في كُلِّ مكان فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء، بل قال بعضهم: «سبحان ربي الأسفل»، فلا فرق ـ عنده ـ بين العلوِّ والسُّفل!

ومن اعترضَ على قَدَرِ اللهِ وحكمتِهِ وتصرُّفِهِ فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء؛ فإنَّ العقولَ قاصرةٌ لا تصلُ إلى معرفةِ حكمةِ اللهِ ـ جلَّ وعلا ـ، فمنها ما قد يظهر للإنسان حكمتُهُ وغايتُهُ المحمودةُ، ومنها ما لا يظهر، فعلى الإنسان الاستسلامُ والإذعانُ والانقيادُ لما قدَّر الله؛ فهو أعلمُ بمصالحِ خلقِهِ.

وكذلك من ظنَّ أنَّ الله خاطبنا بالقرآن وأنَّ له معاني باطنة غير ما دلَّت عليه تلك الظَّواهر فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء؛ كمن يقول: إنَّ الله أمرنا أن نُكِدَّ عقولنا وأن نفكِّرَ، لا نأخذ ما دلَّت عليه ظواهر القرآنِ والسُّنَّةِ بل لها معنى باطن! ـ كما تقوله القرامطة ـ.

(ولو فتَّشتَ مَن فتَّشتَ): من العلماء والعوامِّ والعقلاء لرأيت أنَّهم يعترضون على الله ويعترضون على حكمته، فالله يعطي هذا ويمنع هذا، فيقول قائل: لم أُعطيَ هذا بل أنا أقرب منه، كما قال ابن الرَّاوندي(١):

ربي أعطيتني ورَقاً ولم تعطني ورِقاً فما لي بهذا الورَق؟!

أو كمن يقول: أيُّ مصلحة لله في أن يخلق ما فيه مضرَّة على الإنسان؛ كالحيَّات والعقارب، أو ما لا مصلحة فيه كالخنفساء، ما هي المصلحة في إيجاد الله لها؟!

نقول لك: عقلك قاصر، بل فيها من الحكم ما الله به عليم، سواء

---

(١) أحمدُ بنُ يحيى بن إسحاق، أبو الحسين ابن الرَّاوندي، اشتُهر بالزَّندقةِ، وعُرف بالإلحادِ، صنَّفَ مصنَّفاتٍ مرذولةٍ في الطَّعنِ على الشَّريعةِ، كان من أذكياء الخلقِ، إلَّا أنَّهُ حُرِمَ التَّوفيقَ، وحادَ عن سواءِ الطَّريقِ، نعوذُ بالله من حالِ أهلِ الضَّلال، توفي سنة ٢٩٨هـ، ينظر: لسان الميزان (١/ ٦٩٥).

وصل عقلك إلى معرفتها أو قصُر، اعزل هذا العقل واستسلم لخالق العقل، وانقد وأذعن لله.

قال ابن الجوزيِّ: «دخلتُ على صدقة بن الحسين الحدَّاد ـ وهو من الفقهاء ـ وإذا هو مصابٌ بالجربِ، فجعل يعترضُ على الله، يقول: ما معنى هذا الذي عذَّبني الله به؟!»(١).

مع أنَّ فيه مصلحة لَهُ، وهي: تخفيفُ ذنوبِهِ، وحطُّ سيئاته؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«إنَّ عظمَ الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضيَ فلَهُ الرِّضا، ومن سَخِطَ فلَهُ السُّخْطُ»**(٢).

إن كنت عاقلاً فينبغي أن تنصحَ نفسكَ وأن توقفها عند حدِّها، والله ـ سبحانه ـ يعطي لحكمةٍ، ويمنع لحكمةٍ، وأسماؤه وصفاتُهُ كُلُّها تدلُّ على ما تقتضيه المصلحةُ والرَّحمةُ والحكمةُ، فالرَّبُّ ـ جلَّ وعلا ـ لا يظلم أحداً أبداً، والسَّفَّاريني قال في منظومتِهِ:

وجازَ للمولى يعذِّب الورى ... من غير ذنبٍ ولا جرم جرى
فكلُّ ما منه تعالى يجملُ ... لأنَّهُ عن فعلِهِ لا يُسألُ

أنكر عليه بعض المحقِّقين(٣)، وقالوا: الله لا يعذِّب أحداً بغير ذنب، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، وربُّك يقول: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].



(١) ينظر: الآداب الشَّرعيَّة (٢/ ٣٠٢).
(٢) سبق تخريجه في (باب من الإيمان الصَّبر على أقدار الله).
(٣) ينظر: تعليق الشَّيخ عبد الله أبابطين رَحِمَهُ اللهُ على (لوامع الأنوار البهيَّة ١/ ٣٢٠)، وشرح الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ على العقيدة السَّفَّارينيَّة (ص٣٤٠).

بابُ
ما جاءَ في منكري القدر

وقال ابنُ عمر: «والذي نفسُ ابنِ عمرَ بيدِهِ، لو كان لأحدِهِم مثلُ أُحدٍ ذهباً، ثُمَّ أنفقَهُ في سبيل الله ما قَبِلَهُ اللهُ منهُ حتَّى يؤمنَ بالقَدَرِ»، ثُمَّ استدلَّ بقول النَّبيِّ ﷺ: «**الإيمانُ: أن تؤمنَ بالله، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ**».

وعن عبادة بن الصَّامت أنَّهُ قال لابنِهِ: «يا بُنيَّ إنَّكَ لَن تَجِدَ طعمَ الإيمانِ حتَّى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكُن ليصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ القلمَ، فقالَ لَهُ: اكتُب.**

فقال: ربِّ، وماذا أكتب؟

قال: اكتُب مقاديرَ كُلِّ شيءٍ حتَّى تقوم السَّاعةُ»، يا بُنيَّ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ماتَ على غيرِ هذا فليسَ منِّي**».

وفي روايةٍ لأحمد: «**إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ تعالى القلمَ، فقالَ لَهُ: اكتُب، فجرى في تلك السَّاعَةِ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامَةِ**».

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «**فمن لم يؤمن بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ أحرقَهُ اللهُ بالنَّارِ**».

وفي المسندِ والسُّننِ عن ابنِ الدَّيلميِّ قالَ: «أتيتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ، فقلتُ: في نفسي شيءٌ من القدرِ، فحدِّثني بشيءٍ لعلَّ اللهَ يذهبُهُ من قلبي، فقال: **«لو أنفقتَ مثلَ أُحدٍ ذهباً ما قبلَهُ اللهُ منكَ حتَّى تؤمنَ بالقدرِ، وتعلم أنَّ ما أصابكَ لم يكُن ليخطئكَ، وما أخطأكَ لم يكُن ليصيبكَ، ولو متَّ على غير هذا لكنتَ من أهل النَّار»**.

قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكُلُّهم حدَّثني بمثل ذلك عن النَّبيِّ ﷺ». حديثٌ صحيحٌ رواه الحاكمُ في صحيحه.

بابُ
ما جاءَ في منكري القدرِ

الإيمانُ بالقَدَرِ أحدُ أركان الإيمان السِّتَّةِ، ثبتَ أنَّ جبريل حين سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان قال: «**أن تؤمنَ بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ**»(١)، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، ومعنى هذا: أنَّك تعتقد أنَّ ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشأ لم يكن، ما شاء الله وقوعَهُ لا بُدَّ أن يكون شاء النَّاسُ أم لا، وما لم يشأ وقوعه ولم يقدِّره لا يقع، شاء النَّاس أم لا.

وقد اختلف النَّاس في القدر، فمن قائل: لا قَدَرَ مطلقاً، والله لا يعلم الأشياء إلَّا بعد وقوعها، فالرَّبُّ لا يعلم ما سيكون، وماذا يؤول إليه أمرك!، وهذا قولٌ باطلٌ، والقرآن يكذِّبُهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢﴾ [الحديد: ٢٢]، وهذا قول غلاة القدريَّة، حدث في البصرة بعد انقضاء عهد الخلفاء الأربعة، وذلك في عصر بني أُميَّة، بدأه معبدُ الجهنيُّ وغيلانُ القدريُّ، وقالا: «الأمرُ أُنُفٌ»؛ يعني: جديدٌ مستأنَفٌ، لا يعلمه الله إلَّا بعد وقوعِهِ، ثُمَّ انتشر هذا في غير العراق ـ أيضاً ـ، وكان حُميد بن عبد الرَّحمٰن ويحيى بن يعمر يريدان الحجَّ أو العمرةَ وأن يسألا عن هذه المسألة، فقالا: لو وُفِّق لنا أحدُ أصحابِ رسول الله ﷺ فنسأله، فلقيا عبد الله بن عمر داخلاً المسجدَ، قال يحيى: فاكتنفتُهُ أنا وصاحبي، وظننتُ أنَّ صاحبي سيكِلُ الكلام إليَّ، فقلتُ: أبا عبد الرَّحمٰن، إنَّهُ قد ظهر قِبَلنا أناسٌ يتقفَّرون العلمَ، ويزعمون أن لا قدرَ وأنَّ الأمرَ أُنُفٌ.

فقال: «إذا لقيتهم فأخبرهم أنِّي بريءٌ منهم، وأنَّهم بُرآءُ منِّي، والذي يحلفُ

---

(١) رواه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

به عبد الله بن عمر: لو أنَّ لأحدِهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبلَ اللهُ منهُ حتَّى يؤمن بالقدرِ»، ثُمَّ استدلَّ بقول النَّبيِّ ﷺ: **«وأن تؤمن بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ»**(١).

وإذا تأمَّلت وجدتَ أنَّ القدر على **أربعة أقسام** ـ كما جاءت به النُّصوص ـ:

الأوَّلُ: تقديرٌ أزليٌّ.

الثَّاني: تقديرٌ عمريٌّ.

الثَّالثُ: تقديرٌ حوليٌّ.

الرَّابعُ: تقديرٌ يوميٌّ.

أمَّا التَّقديرُ الأزليُّ فهو مكتوب في اللَّوح المحفوظ، مقادير كلِّ شيءٍ إلى قيام السَّاعة.

وأمَّا التَّقديرُ العمريُّ فهو: ما جاء في حديث ابن مسعودٍ: **«إنَّ أحدكَم يُجمعُ خلقُهُ في بطنِ أُمِّهِ أربعينَ يوماً نطفة، ثُمَّ أربعين يوماً علقة، ثُمَّ أربعين يوماً مضغة** ـ هذه أربعة أشهر ـ **ثُمَّ يرسل إليه الملك فينفخُ فيه الرُّوح ويُكتَبُ أجلُهُ ورزقُهُ وعملُهُ وشقيٌّ أم سعيدٌ»**(٢).

وأمَّا التَّقديرُ الحوليُّ فهو في كُلِّ سنةٍ في ليلةِ القدرِ، يُقدِّرُ اللهُ ما سيقعُ في تلك السَّنةِ، يموت هذا، ويُرزق هذا، ويُعطي هذا، ويُمنع هذا، يخفِضُ ويرفَعُ، ويصلُ ويقطعُ، ويعطي ويمنعُ، وهي في ليلة سبعٍ وعشرين من رمضان كما دلَّت عليه النُّصوصُ(٣).

وأمَّا التَّقديرُ اليوميُّ فهو أنَّ الله ـ سبحانه ـ ينظرُ كُلَّ يومٍ ثلاثاً وستِّين نظرة في اللَّوح المحفوظ فيقضي ما يشاء، يحيي ويميتُ ويعزُّ ويذلُّ إلى غير ذلك(٤).

والحاصل: أنَّ القولَ بأنَّ الله لا يعلَمُ بالأشياء إلَّا بعد وقوعها لا شكَّ أنَّهُ إلحادٌ وخروجٌ عن دينِ الإسلامِ.

---

(١) رواه مسلم مفتتحاً به كتاب الإيمان (٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٣) لعل الشَّيخ رحمه الله يريد أنَّها أرجى اللَّيالي وأحراها، وقيل: لا تقع إلَّا في سبعة وعشرين، وقيل غير ذلك.

(٤) لم أقف عليه، وروي نحوه في خبر مختلقٍ مصنوعٍ، وينظر: إرواء الغليل (٨/ ٢٨٧).

۞ وقال ابنُ عمرَ: «والذي نفسُ ابنِ عمرَ بيدِهِ، لو كان لأحدِهِم مثلُ أُحُدٍ ذهباً، ثُمَّ أنفقَهُ في سبيلِ الله ما قَبِلَهُ الله منهُ حتَّى يؤمنَ بالقَدَرِ».
ثُمَّ استدلَّ بقول النَّبيِّ ﷺ: **«الإيمان: أن تؤمنَ بالله، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ»**[1].

القَدَرُ ممَّا يجبُ على المسلم أن يؤمنَ بخيرِهِ وشرِّهِ، والأمرُ بيدِ الله ـ سبحانه ـ، ومن أنكرَ القَدَرَ فهو كافرٌ حلالُ الدَّمِ والمالِ؛ أي: من ينكر أنَّ الله قدَّر هذه الأشياء.

والقدرُ على أربعة مراتب:

المرتبةُ الأولى: علمُ الله ـ سبحانه ـ بما كان وبما هو كائنٌ.

المرتبةُ الثَّانيةُ: كتابته لذلك.

المرتبةُ الثَّالثةُ: مشيئتُهُ العامَّةُ بإيجاد ما كتبَهُ وما علمَهُ، وما شاء وقوعَهُ.

المرتبةُ الرَّابعةُ: خلقُهُ لما شاءَهُ وقدَّرَهُ وكتبَهُ.

أمَّا العلم: فالرَّب ـ سبحانه ـ لا يعزُب عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، ولا تحتَ أطباقِ الجبالِ، وهو عالمٌ بما كان وما يكون، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

وأمَّا الكتابةُ: فإنَّهُ كتبَ ما كانَ وما يكونُ، كتبَهُ في الأزلِ، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

(١) صحيح مسلم (٨).

فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢]؛ أي: من قَبلِ أن نخلقها ونوجدها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

وأخطأ من زعمَ أنَّ الكتابةَ هي: العلم، فسَّرها بالعلم؛ فإنَّ الله عالمٌ بمقاديرِ الخلقِ قبلَ أن تُكتبَ.

وأمَّا المشيئة فإنَّ الله ـ سبحانه ـ له المشيئةُ الكاملةُ، والقدرةُ العامَّةُ، ما شاء الله كانَ، وما لم يشأ لم يكُنْ.

وأمَّا الخلق، فالله ـ سبحانه ـ خلقَ العبادَ، وخلق أفعالهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، هذه مراتب القدر، وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر، عن أبيه رضي الله عنهما في حديث جبريل قال الرَّسول ﷺ: «**هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم أمرَ دينكُم**»، وعلى هذا الحديث تدور عقيدةُ المسلمين، ومن ذلك: الإيمانُ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، فالقدَرُ فيه خيرٌ وشرٌّ، لكن الشَّرَّ لا يُنسب إلى الله بل يُنسَبُ إلى العبد، والشَّرُّ من مفعولاته ـ سبحانه ـ، والسَّبب عملك وما ارتكبته، وهذا معنى قوله ﷺ: «**والشَّرُّ ليسَ إليكَ**»(١).

ومن أمثلتِهِ التي تقرِّبُهُ: لو أنَّ مَلِكاً عادلاً من شأنه أنَّ كُلَّ من ارتكبَ جريمةً أدَّبه، فالسَّارق يقطع يدَهُ ـ عملاً بالشَّرع ـ، والزَّاني يرجمه إذا كان محصناً، ويجلده ويغرِّبه عاماً إذا كان غير محصن؛ كذلك شارب الخمر يجلده ـ على وفق ما جاءت به الشَّريعة ـ، والقاتل يقتله، هذا الشَّرُّ الذي حصل فقُطعت يدُ هذا الشَّخص بسبب سرقتِهِ، هو شرٌّ عليه بسببِ جُرمِهِ، لكن من جهة الملِك الذي أمرَ بقطعِ يدِ السَّارق هو عدلٌ وخيرٌ، ولولا هذا لفسد النَّاس، فالملِك يُشكر عليه ويحمد ويُدعى له، وعملُهُ هذا عدلٌ وليس بشرٍّ من قِبَله، إنَّما هو شرٌّ من قِبَلِ الذي سرقَ أو شربَ أو قتلَ، ولله المثل الأعلى.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه في الاستفتاح الطويل.

۞ وعن عبادة بن الصَّامت أنَّهُ قال لابنِهِ: «يا بُنيَّ إنَّك لَنْ تَجِدَ طعمَ الإيمانِ حتَّى تعلمَ أنَّ ما أصابكَ لم يكُن ليخطئكَ، وما أخطأك لم يكُن ليصيبكَ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّل ما خلقَ اللهُ القلمَ، فقالَ لَهُ: اكتُب.**

فقال: ربِّ، وماذا أكتب؟

قال: اكتب مقاديرَ كُلِّ شيءٍ حتَّى تقوم السَّاعةُ»، يا بُنيَّ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من ماتَ على غيرِ هذا فليسَ منِّي**»[(١)].

وفي روايةٍ لأحمدَ: «**إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ تعالى القلمَ، فقال له: اكتُب، فجرى في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطيالسيُّ (١/ ٤٧١)، ومن طريقه التِّرمذيُّ (٢١٥٥ ـ ٣٣١٩)، وابن أبي عاصم (١٠٥) من طريق عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به مرفوعاً.
وإسناده ضعيف جدّاً؛ قال الإمام أحمد في عبد الواحد (العلل ٣/ ٣٢٢): «حديثُهُ منكرٌ، أحاديثُهُ موضوعةٌ»، وضعَّفه ـ أيضاً ـ النَّسائيُّ (الضعفاء ص٦٨)، وقال الذَّهبيُّ (الميزان ٢/ ٦٧٤): «له حديث منكرٌ في القدرِ وخلقِ القلم».
تابع عطاءً يزيدُ بن أبي حبيب كما عند الإمام أحمد (٣٧/ ٣٨١) (٢٢٧٠٧)، وابن أبي عاصم (١٠٣) إلَّا أنَّ في إسناده ابن لهيعة.
وأخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والطبرانيُّ (مسند الشَّاميين ٥٩)، والبيهقيُّ (١٠/ ٣٤٤) من طريق رباح بن الوليد، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة قال: قال عبادة... الحديث.
رباح صدوقٌ، وأبو حفصة هو حبيش بن شريح ليس بالمعروف، وثَّقَهُ العجليُّ (الثِّقات ص٤٩٦)، وابن حبَّان (٤/ ١٩٠).
قد اضطرب فيه رباح؛ فرواه كما في (مسند الشَّاميين ٥٨) عن إبراهيم، عن أبي يزيد الأزدي، عن عبادة، وأبو يزيد لا يعرف، وسماع حبيش من عبادة محلُّ شكٍّ.
(٢) أخرجها الإمامُ أحمدُ (٢٢٧٠٥)، والبزَّارُ (٢٦٨٧)، والطبرانيُّ في (مسند الشاميين ١٩٤٩) من حديث أيوب بن زياد، عن عبادة بن الوليد بن عبادة، عن أبيه، عن جدِّهِ، به مرفوعاً.
ولا يصِحُّ؛ أيوب لم يُؤثَرْ توثيقُهُ عن غير ابن حبَّان، ينظر: الثِّقات (٦/ ٥٨).

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «**فمن لم يؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ أحرقَهُ اللهُ بالنَّارِ**»(١).

هذا الحديث جاء من طريق الوليد بن عبادة، قال: دخلتُ على أبي وأنا أتخايلُ فيه الموتَ، فقلتُ لَهُ: يا أبتي أوصني، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يجِدَ طعمَ الإيمان عبدٌ حتَّى يعلمَ أنَّ ما أصابَهُ لم يكُن ليخطئَهُ، وما أخطأهُ لم يكُن ليصيبَهُ**»، يا بنيَّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**أوَّل ما خلقَ اللهُ القلمَ قال لَهُ: اكتُبْ...**) الحديث، وهذا الحديث دلَّ على وجوب الإيمان بالقدر، وأنَّه ـ كما تقدَّم ـ ركنٌ من أركانِ الإيمانِ السِّتَّةِ، تعتقد أنَّ الله عالمٌ بأفعال العباد قبل وقوعها، فإذا آمنتَ بالقدر استراح قلبُك، وانشرح صدرُك، واطمأنَّ ضميرُك؛ لأنَّك تعلم أنَّ المصيبة التي وقعت عليك لم تكن جديدة، بل قدَّرها الله قبل أن يخلقك، كما قال بعض المستشرقين: «إنَّ من دلائل صواب دين الإسلام، ومن محاسن ما يقوله المسلمون: أنَّ ما أصابكَ لا يخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فيكون الإنسانُ مرتاحَ الضَّميرِ، ومطمئنَّ البالِ».

ودلَّ الحديثُ على أنَّ العلمَ بأنَّ ما أخطأك لم يكُن ليصيبك، وما أصابك لم يكُن ليخطئك: من حلاوة الإيمان، فالإيمان له في قلبك حلاوة وبشاشة، ومن حلاوة الإيمان أنَّ المصيبة التي وقعت يخفُّ ضررها عليك متى اعتقدت أنَّ الله قدَّرها عليك قبل أن تخلق، فإنَّك تجد شيئاً من الرَّاحة، ولهذا تقدَّم في الحديث: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُما...**»(٢).

---

(١) أخرجها ابن وهب في القدر (٢٦) من حديث الأعمش قال: قال عبادة، وبين الأعمش وعبادة مفاوز تنقطع دونها أعناق الإبل.
وأخرج نحوه ابن أبي عاصم (١١١) من طريق عثمان بن أبي العاتكة، حدَّثني سليمان المحاربي، عن الوليد بن عبادة عن أبيه، وعثمان ليِّن الحديث.
(٢) رواهُ البخاريُّ (١٦)، ومسلمٌ (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

إذا امتلأ قلبك من محبَّة الله رضيت بما قدَّر الله، وإذا امتلأ قلبك بمحبَّة رسول الله ﷺ صدَّقته فيما يقول، ومن جملة ذلك: الإيمان بالقدر.

قوله: (**أوَّل ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة**): القلم خلقه الله وبعدما خلقه أمرَهُ أن يكتب، فكتب مقادير الخلق متى تُولَد، متى تموت، وما يجري عليك في حياتك، وما يجري عليك بعد وفاتك، كلُّ ذلك مكتوبٌ، وجاء في الحديث: «**كان الله ولا شيء قبلَهُ، وكان عرشُهُ على الماء**»[1]، ومن ثَمَّ اختلف العلماءُ هل خَلَقَ اللهُ العرشَ قبل القلمِ أم القلمَ قبل العرشِ؟

ذهب بعض أهل السُّنَّةِ كابن جريرٍ[2] إلى أنَّ القلمَ خُلِقَ قبلَ العرشِ، ولكن الصَّواب: أنَّ الذي خُلق أوَّلاً هو العرشُ، كما في الحديث: «**كان الله ولا شيء قبلَهُ، وكان عرشُهُ على الماءِ**»، فدلَّ على أنَّ أوَّلَ مخلوقاتِ اللهِ: العرشُ.

أمَّا حديثُ: (**أوَّلُ ما خلقَ اللهُ القلمَ**)؛ يعني: من هذا العالم الموجود، فأوَّل ما خلقَ اللهُ في هذا العالم القلمَ، وقد أشار إلى الخلاف العلَّامة ابن القيِّم في «النُّونيَّة» فقال:

والنَّاسُ مختلفونَ في القلمِ الذي ... كُتِبَ القضاءُ بهِ من الدَّيَّان
هل كانَ قبلَ العرشِ أو هو بعدَهُ ... قولانِ عندَ أبي العلا الهمذاني

ثُمَّ رجَّح فقالَ:

والحقُّ أنَّ العرشَ قبلُ لأنَّهُ ... قبلَ الكتابةِ كانَ ذا أركَانِ

هذا الذي ذهب إليه ابنُ تيميَّة[3]، وابنُ القيِّم[4].

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.
(٢) تاريخ الطَّبري (١/ ٣٢). (٣) الصَّفديَّة (٢/ ٧٩).
(٤) الكافية الشَّافية (ص٦٧)، وذكر رحمه الله معنى حديث (**أوَّل ما خلقَ اللهُ القلمَ..**) بقوله:

وكتابةُ القلمِ الشَّريفِ تعقَّبت ... إيجادَهُ من غيرِ فصلِ زمانِ
لما براهُ اللَّهُ قالَ اكتبْ كذا ... فغدا بأمرِ اللَّهِ ذا جريانِ
فجرى بما هو كائنٌ أبداً إلى ... يومِ المعادِ بقُدرةِ الرَّحمنِ

۞ وفي المسندِ والسُّننِ عن ابنِ الدَّيلميِّ قال: «أتيتُ أُبيَّ بن كعبٍ، فقلت: في نفسي شيءٌ من القدرِ، فحدِّثني بشيءٍ لعلَّ الله يذهبَهُ من قلبي، فقال: «**لو أنفقتَ مثلَ أُحدٍ ذهباً ما قبلَهُ اللهُ منكَ حتَّى تؤمن بالقدرِ، وتعلمَ أنَّ ما أصابكَ لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، ولو متَّ على غير هذا لكنت من أهل النَّار**».

قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكُلُّهم حدَّثني بمثل ذلك عن النَّبيِّ ﷺ» حديثٌ صحيحٌ رواه الحاكمُ في «صحيحه»[1].



(١) رواهُ ابنُ أبي شيبة (١/ ١٠٥)، والإمامُ أحمدُ (٢١٥٨٩)، وعبدُ بنُ حُميدٍ (٢٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابنُ ماجه (٧٧)، وابنُ أبي عاصم (٢٤٥)، وابنُ حبَّان (٧٢٧)، والطبرانيُّ (٤٩٤٠)، والبيهقيُّ (١٠/ ٣٤٣) من حديث أبي سنان سعيد بن سنان، عن وهب بن خالد، عن ابن الديلمي به، وإسنادُهُ حسنٌ، والمرفوع منه هو من مسند زيد بن ثابت رضي الله عنه.

بابُ

ما جاءَ في المصوِّرينَ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ـ تعالى ـ: ومن أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلقُ كخلقي؟!، فليخلقُوا ذرَّةً، أو ليخلقُوا حبَّةً، أو ليخلقُوا شعيرةً**».

ولهما عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ الذين يضاهونَ بخلقِ الله**».

ولهما عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ مصوِّرٍ في النَّارِ، يُجعَلُ لَهُ بكُلِّ صورةٍ صوَّرها نفسٌ يعذَّبُ بها في جهنَّم**».

ولهما عنهُ مرفوعاً: «**من صوَّرَ صورةً في الدُّنيا كُلِّفَ أن ينفخَ فيها الرُّوح، وليس بنافخٍ**».

ولمسلم عن أبي الهيَّاجِ قال: قال لي عليٌّ: «ألا أبعثكَ على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟

ألَّا تدعَ صورةً إلَّا طمستَها، ولا قبراً مُشْرِفاً إلَّا سَوَّيتَهُ».





بابُ
ما جاءَ في المصوِّرينَ

أي: في الوعيد الشَّديد لمن تعاطى ذلك.

ووجهُ إدخالِ هذا الباب في «كتاب التَّوحيد» هو: أنَّ مقصودَ «كتابِ التَّوحيدِ»: بيانُ التَّوحيدِ الذي خلقَ الله العبادَ لأجلِهِ، وبيانُ ما ينافي التَّوحيدَ من الشِّرك الأكبر، وبيانُ ما ينافي كماله الواجب من الشِّرك الأصغر، وبيان الذَّرائع المقرِّبة للشِّرك، وبيان الوسائل الموصلة إليه، وبيان البدع القادحة في التَّوحيد، وبيان المعاصي المنقِّصة لثواب التَّوحيد، فأدخل هذا الباب لأنَّ التَّصوير معصية.

فإن قلتَ: المعاصي كثيرة، الخمرُ معصيةٌ، والزِّنا معصيةٌ، وقتلُ النَّفسِ معصيةٌ، وكُلُّها كبائر، فما وجه ذكر معصية التَّصوير ـ على وجه الخصوص ـ في «كتاب التَّوحيدِ»؟

نُجيبك بأن نقول: موضوعُ الكتابِ هو: أن لا يُعبد إلَّا الله، وأنَّ من عبدَ غيرَ الله فقد جعلَهُ شريكاً لله ومضاهياً لله، والتَّصوير مشابهة لخلق الله، وإذا كان الوعيد جاء فيمن عمل عملاً شابه به خلق الله، فما ظنُّك بمن اتَّخذ شريكاً شبَّه به الله؟!؛ بأن صرف له شيئاً من العبادة؛ كالذَّبح والنَّذر وغير ذلك.

۞ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ومَن أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلقُ كخلقي؟!، فليخلقُوا ذرَّةً، أو ليخلقُوا حبَّةً، أو ليخلقُوا شعيرةً**»[١].

ولهما عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ الذين يضاهون بخلقِ الله**»[٢].

«**يضاهون**»؛ أي: يماثلون ويشابهون بخلق الله، فإذا كانت هذه حالهم فما ظنُّك بمن ساوى غير الله بالله؟!

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٩٥٣)، ومسلمٌ (٢١١١).

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٤)، وصحيح مسلم (٢١٠٧).

۞ ولهما عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ مصوِّرٍ في النَّار، يُجعَلُ لَهُ بكُلِّ صورةٍ صوَّرها نفسٌ يعذَّبُ بها في جهنَّم**»(١).

ولهُما عنهُ مرفوعاً: «**من صوَّرَ صورةً في الدُّنيا كُلِّف أن ينفخَ فيها الرُّوحَ، وليسَ بنافخ**»(٢).

ولمسلمٍ عن أبي الهيَّاجِ قال: قال لي عليٌّ: «ألا أبعثكَ على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟

ألَّا تدعَ صورةً إلَّا طمستَهَا، ولا قبراً مُشْرِفاً إلَّا سَوَّيتَهُ»(٣).

(**ألَّا تدعَ صورةً**): نكرةٌ في سياقِ النَّفي فتفيد العموم.

(**إلَّا طمستها**): المجسَّمَةُ لا بُدَّ من إتلافها، وإنَّما الطَّمس يكون فيما يقولون: إنَّه حبسٌ للظِّلِّ.

فتضمَّن هذا الحديثُ مسألتين:

المسألة الأولى: حكم التَّصوير، وقد تقدَّم الكلام عليها، وأنَّ القولَ الصَّحيحَ الذي عليه المحقِّقون من أهلِ العلمِ والذي تشهَدُ لَهُ الأدلَّةُ من نصوصِ رسول الله ﷺ: تحريمُ الصُّوَرِ، سواءٌ كان لها ظلٌّ أو لم يكن لها ظلٌّ؛ لعُمومات الأحاديث، ولما يدلُّ عليه هذا الحديث: (**ألَّا تدعَ صورةً إلَّا طمستَهَا**)؛ إذ إنَّ الطَّمس لا يكون إلَّا في ما لَهُ ظلٌّ، فلا يُلتفت إلى قولهم: «التَّصوير ما هو إلَّا حبسٌ للظِّلِّ»، وقد سبق أن قلنا: نطالبُ هذا القائل بالدَّليل، فنقول له: وإن كان حبساً للظِّلِّ فهل عندك دليل يُجوِّز هذا من

(١) صحيح البخاري (٢٢٢٥)، صحيح مسلم (٢١١٠)، واللَّفظ لمسلمٍ.
(٢) صحيح البخاري (٥٩٦٣)، وصحيح مسلم (٢١١٠).
(٣) رواه مسلم (٩٦٩).

كتابٍ أو سُنَّةٍ أو قولِ صحابيٍّ؟! لا يستطيع أن يأتي بشيء.

المسألة الثَّانية: قولُهُ: **(ولا قبراً مُشرِفاً)**؛ أي: مرتفعاً **(إلَّا سوَّيته)**: أصل شرك العالم هو: الافتتان بالقبور، بالذَّبح لها، ودُعائها، والنَّذر لها، والبناء عليها؛ فإنَّك إذا تأمَّلت سُنَّةَ رسولِ الله ﷺ وتأمَّلت ما عليه أكثر النَّاس تجِدُ حالهم متناقضاً متنافياً مع سُنَّة رسول الله ﷺ، هذا رسول الله ﷺ يقولُ: **«لا تصلُّوا إلى القبور»**[1] وهؤلاء يصلُّون إليها!

ورسول الله ﷺ نهى عن اتِّخاذ القبورِ مساجدَ، وهؤلاء يبنون على القبور مساجد، ويرون أنَّ المسجدَ الذي يُبنى على القبر أفضل من غيره!

ورسولُ الله ﷺ نهى عن أن يبنى على القبر، وهؤلاء يبنون عليها القِبابَ، ويشيِّدون المباني عليها، بل يزيِّنونها بحليٍّ نفيسةٍ، ويجعلون أناساً على خيولهم مقابلين لهذا القبر أربعاً وعشرين ساعة، كُلَّما مضت ساعات جاء آخرون على خيولهم، كما هو واقع الآن في قبور بعض العظماء!

ورسول الله ﷺ نهى عن أن يُجصَّصَ القبرُ، وهؤلاء يُجصِّصون القبورَ، ويرصِّفونها، ويضعون لها المداخل!

ورسول الله ﷺ نهى أن يُتَّخذ قبرُهُ عيداً، و(العيد): اسمٌ لما يعود ويتكرَّر مجيئُهُ، سواء كان في اليومِ أو السَّنةِ أو الأسبوعِ، وهؤلاء يأتون إليها في أيَّام معيَّنة، ويقولون: (هذا ميلاد أحمد البدوي)، (هذا ميلاد عبد القادر الجيلاني)، وما أشبه ذلك، فانظر إلى منابذتهم ومباينتهم للسُّنَّةِ!

والرَّسول ﷺ نهى عن دعاء صاحب القبر وأن يُسألَ من دون الله، وهؤلاء يأتون إلى القبر ويقولون: (المدد المدد يا فلان)، (أغثني أغثني يا فلان)!

أيبقى لهؤلاء إسلامٌ مع مخالفتِهم لصحيحِ وصريحِ سُنَّةِ رسول الله ﷺ؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «من جعل بينَهُ وبين الله واسطة، يرجوهُ ويظنُّ أنَّهُ يرفعُ الحوائجَ إلى الله، فهو كافرٌ إجماعاً»[2]، فانظر إلى ما عليه أكثر

(١) رواهُ مسلمٌ (٩٧٢) من حديث أبي مرثدٍ الغنويِّ ﷺ.
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٢٤).

النَّاس اليوم، هو بعينه من جنس شرك الأوَّلين الذين بُعث فيهم النَّبيُّ ﷺ؛ فإنَّ قوماً منهم يعبدون الأشجار، وآخرون يعبدون القبور، وآخرون يعبدون الصَّخر، هكذا فرَّقوا دينهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢١]، كانت (العُزَّى) لأهل مكَّةَ ولغيرهم ممَّن التحق بهم من قبائل العرب، وهي شجرة سمرٍ، كانوا يعظِّمونها ويقولون: إنَّ لها مكانة عند الله، تنفعهم وتضرُّهم، وتجلبُ الخير لهم، وتكشفُ الضُّرَّ عنهم، وقد بَعَثَ النَّبيُّ ﷺ خالدَ بنَ الوليدِ لقطعها لما فتح مكَّة، فذهب خالد وقطع الشَّجرة، فجاء إلى الرَّسول ﷺ فقالَ لَهُ: «**ارجع؛ فإنَّك لم تصنع شيئاً**»، فذهب فهدم البيتَ الذي بُني، فخرجت منه امرأةٌ ناشرةٌ شعرها تولول، فشملها خالد بالسَّيف فقتلها، ثُمَّ رجع إلى الرَّسول ﷺ فقال: «**تلك العُزَّى، ولا عُزَّى بعد اليوم**»[1].

كذلك (مناة) هي: لبني كنانة وبني هلال، سُمِّيَتْ (مناة) لكثرةِ ما يُمنى عندها من الدِّماء.

وكذلك (اللَّات)، قيل: إنَّها صخرةٌ بيضاءُ بالطَّائف، وقيل: إنَّهُ رجلٌ صالحٌ يلتُّ السَّويقَ للحاجِّ، مات فعكفوا على قبرِهِ يعبدونَهُ من دونِ الله، وهكذا كُلُّ قبائلِ العرب على هذا المنوال، كان في نجد صنمٌ كبيرٌ يحجُّ إليه النَّاسُ، ويسألونَهُ من دُونِ الله، يُسمَّى: (ذو الكعبات)، وبنو حنيفة في هذه الدِّيار كانوا يأتون بشيءٍ من التَّمر فيعجنونه بالسَّمن فيعبدونَهُ، فإذا جاعوا أكلوهُ!

قال الشَّاعرُ:

أكلتْ حنيفةُ ربَّها ... زمنَ التَّقحُّم والمجاعه
لم يحذروا من ربِّهم ... سوءَ العواقبِ والتباعه[2]

وكانت لأهل نجران نخلةٌ كبيرةٌ يعبدونها، يذبحون لها، والنَّبيُّ ﷺ أبطل

(١) سبق تخريجه.
(٢) ينظر: المعارف لابن قتيبة (ص٦٢١).

هذا كُلَّهُ، وجاهدَ النَّاسَ كُلَّهُم من أجل أن لا يُعبد إلَّا الله وحده لا شريك له، ورحم اللهُ الإمامَ مالكاً حيثُ يقول: «لن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلَّا ما صلح به أوَّلها»[١]، ولكن عاد الشِّركُ كما كان بالأمس؛ فإنَّهُ قلَّ بلدٌ أو قطرٌ إلَّا وفيهِ قبورٌ يبنون عليها، ويذبحون وينذرون لها، ويطوفون بها، ويسألونها تفريج الكربات، حتَّى آل الحالُ ببعضهم إلى أن ألَّف كتاباً سمَّاه: «مناسك حجِّ المشاهد»[٢]، قرَّر فيه أن يُطاف بقبرِ الحُسين بالعراق، ويُحلقَ الرَّأسُ تعظيماً له؛ أيُّ شركٍ أعظمُ من هذا الشِّركِ؟!

وأيُّ بلاء أكبر من هذا البلاء؟!

ولكن كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلَكُم حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ حتَّى لو دخلوا جحرَ ضَبٍّ لدخلتمُوهُ**».

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنَّصارى؟

قال: «**فمن؟!**»[٣]؛ أي: فمن المعنيُّون إلَّا أولئك، وقد ترجم البخاريُّ في «صحيحه» قائلاً: «**بابُ: تغيُّر الزَّمان حتَّى تُعبد الأوثانُ**»، يريدُ بهذه التَّرجمة: بُعدَ تعاهدِ النَّاسِ السُّنَّةَ، وبعدَهُم عمَّا جاءت به الرُّسُلُ، فلا بُدَّ وأن يعودوا إلى وثنيَّتهم، وأن يعبدوا الأوثان، ويطلبوا منها ما لا يقدر عليه إلَّا الله، وساق بسنده حديث: «**لا تقوم السَّاعةُ حتَّى تضطرب أَلياتُ نساءِ دوسٍ على ذي الخَلَصَةِ**»[٤].

---

(١) ينظر: الشِّفا (٢/ ٤١ ـ ٨٨).

(٢) قال شيخ الإسلام في منهاج السُّنَّة (١/ ٤٧٦): «وقد صنَّف شيخهم ابن النُّعمان، المعروف عندهم بالمفيد، ـ وهو شيخ الموسوي والطوسي ـ كتاباً سمَّاه: (مناسك المشاهد)، جعل قبور المخلوقين تُحجُّ كما تُحجُّ الكعبةُ البيتُ الحرامِ الذي جعله الله قياماً للناس، وهو أوَّلُ بيت وُضع للنَّاس فلا يطاف إلَّا به، ولا يُصلَّى إلَّا إليه، ولم يأمر الله إلَّا بحجِّه...».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح البخاري (٩/ ٥٨).

بابُ

ما جاء في كثرةِ الحلفِ

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحلفُ منفقةٌ للسِّلعَةِ، ممحقَةٌ للكسْب**».

وعن سلمان رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهُم اللهُ ولا يُزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ: أُشيمطٌ زانٍ، وعائلٌ مستكبرٌ، ورجلٌ جعلَ اللهَ بضاعتَهُ، لا يشتري إلَّا بيمينِهِ، ولا يبيعُ إلَّا بيمينِهِ**» رواهُ الطبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ.

وفي «الصَّحيح» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ أُمَّتي قرني، ثُمَّ الذين يلونهم ثُمَّ الذين يلونهم** ـ قال عمرانُ: فلا أدري أذكرَ بعد قرنِهِ مرَّتين أو ثلاثاً؟ ـ **ثُمَّ إنَّ بعدَكُم قوماً يَشهدونَ ولا يُستشهدونَ، ويخونونَ ولا يُؤتمنونَ، وينذرونَ ولا يُوفونَ، ويظهَرُ فيهم السِّمَنُ**».

وفيه عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**خيرُ النَّاسِ قرني، ثُمَّ الذين يلونَهُم، ثُمَّ الذين يلونَهُم، ثُمَّ يجيءُ قومٌ تسبِقُ شهادةُ أحدِهِم يمينَهُ، ويمينُهُ شهادتَهُ**».

قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشَّهادةِ والعهدِ ونحنُ صغارٌ».

بابُ
ما جاء في كثرةِ الحلفِ

أي: في النَّهي عن ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يُكثرَ الحلفَ.

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قيلَ المرادُ: إذا وقعَت منكَ يمينٌ وحنثتَ فينبغي أن تحفظها بالتَّكفيرِ، هذا هو رأيُ ابنِ جريرٍ(١).

وقيلَ: لا تحلف أصلاً، فأنت إذا حلفتَ بكثرةٍ لم تكُن حافظاً ليمينِكَ ولو كفَّرتَ.

وقيل: إذا حلفت فبرَّ بقسمِكَ، ولا تحنث، لكن القولان الأوَّلان متلازمان، **فالمعنى**: أنَّك تتحفَّظ في اليمين بأن لا تبذلها ولا تُعوِّد لسانك على الحلف، سواءٌ كفَّرت أم لم تُكفِّر، فإذا وقع شيءٌ من ذلك وحنثت فلا بُدَّ من التَّكفيرِ، ومراد المصنِّف في هذه التَّرجمة هو: أنَّ الإنسان في حالة بيعِهِ وشرائِهِ ومخالطتِهِ للنَّاس ينبغي أن يتحفَّظ في يمينه، وألَّا يبذلها، وألَّا ينتهك حرمة الله؛ فإنَّ المحلوف به ـ وهو: الله ـ أجلُّ وأعظمُ من أن تحلفَ به وأنت كاذبٌ، أو تحلفَ به على أمورٍ تافهةٍ، أو تحلفَ بهِ ثُمَّ تحنثُ(٢).

---

(١) جامع البيان (٨/ ٦٥٥).

(٢) أو تحنث في يمينك به ولا تكفِّر.

۞ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحلفُ منفقةٌ للسِّلعَةِ، ممحقَةٌ للكسْب**»(١).

(منفقَةٌ للسِّلعَةِ): إذا حلفت تسبَّب ذلك في شراء سلعتك منك، كما لو سألك المشتري: بكم اشتريت هذه الأرض؟

فقلت: «والله اشتريها بمئة ألف»، صدَّقك، فاشتراها منك بمكسب مئة وعشرة، والواقع أنَّك اشتريتها بخمسين ألف، فبسبب يمينك راجت أرضك أو سلعتك أو سيَّارتك ولكن هذا المكسب الذي تحصَّل مآله إلى الذَّهاب والتَّباب وعدم انتفاعك به، فهي ممحقَةٌ للكسْبِ؛ لأنَّهُ لم يأتِ على الوجه الشَّرعيِّ، بل أتتك هذه الزِّيادة وهذا الكسب بسبب أيمانك الفاجرة، فهذه اليمين الفاجرة التي حلفت فيها بالله، فانتقصت المحلوف به ـ وهو: الله عز وجل ـ؛ حيث حلفتَ وأنتَ كاذبٌ، وغررتَ هذا الذي حلفت له بأن صدَّقك واشتراها منك على حسب ما قلت، واتَّضح أنَّ الأمرَ غيرُ صحيحٍ، فما توصَّلت إليه من هذا الكسب بسبب هذه اليمين الفاجرة مآله إلى المحق والذَّهاب وعدم الانتفاع به، هذا معنى قولِهِ ﷺ: (**الحلفُ منفقةٌ للسِّلعَةِ، ممحقةٌ للكسْبِ**).

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٠٨٧)، ومسلمٌ (١٦٠٦).

﴿ وعن سلمانَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهُم اللهُ ولا يُزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ: أُشيمطٌ زانٍ، وعائلٌ مستكبرٌ، ورجلٌ جعلَ اللهَ بضاعتَهُ، لا يشتري إلَّا بيمينِهِ، ولا يبيعُ إلَّا بيمينِهِ**» رواهُ الطبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ(١).

سلمانُ: هو سلمانُ الفارسيُّ، من أفاضل الصَّحابة وأجلَّائهم وعلمائهم، وقصَّة إسلامِهِ مشهورةٌ معلومةٌ، ذكرها ابنُ هشامٍ في «السِّيرة»(٢)، أسلم في مقدم النبيِّ ﷺ للمدينة، وكان عبداً اشتُري، وكان يعمل في نخل سيِّدِهِ، والقصَّةُ معروفةٌ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ في حقِّه: «**سلمانُ منَّا أهل البيت**»(٣)؛ فدلَّ على فضله، بخلاف عمِّ النبيِّ ﷺ أبي لهب الذي هو من أشراف العرب، ومن صميم بني هاشم، ومع هذا لم يقبل ما جاء به الرَّسول ﷺ، وصار من أشقى هذه الأُمَّة، وأخبر الله أنَّهُ سيصلى نار جهنَّم، كما أنزل الله فيه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، قال الشَّاعر:

لقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ كما وضع الشِّركُ الشَّقيَّ أبا لهبِ

(**ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله يوم القيامة**) فيه: إثباتُ صفة الكلام لله ـ سبحانه ـ،

---

(١) أخرجَهُ الطبرانيُّ (٦١١١) من طريق حفص بن غياث، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان، عن سلمان، به مرفوعاً.
رواتهُ ثقاتٌ، وقد روى البخاريُّ (٢٣٥٨) ومسلم (١٠٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يُزكِّيهم، ولهم عذاب أليم، رجلٌ على فضل ماء يمنعه من ابن السَّبيل، ورجلٌ بايع إماماً لا يبايعه إلَّا لدنيا فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدَّقه رجلٌ وهو على غير ذلك**».
كما روى مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذَّاب، وعائلٌ مستكبرٌ**».
(٢) (١/ ٢١٤)، وأصلها في البخاري (٣٩٤٦).
(٣) سبق تخريجه.

وأنَّ الله يكلِّم من أطاعَهُ واتَّبع سبيلَهُ، ولا يكلِّم من عصاهُ وخالفَ أمرَهُ، وكلام الله ـ جلَّ وعلا ـ يُثبتُهُ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، فاللهُ يتكلَّم حقيقةً على وجهٍ يليقُ بجلالِهِ، كما دلَّ عليه القرآنُ العزيزُ والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فهذا القرآن المتلوُّ بألسنتنا، المكتوبُ في مصاحفنا، المحفوظُ في صدورنا هو: كلامُ اللهِ، تكلَّم به حقيقةً على الوجه الذي يليق بجلالِهِ.

ولا نقول: إنَّ كلامَهُ مثل كلام المخلوقين، حاشا، ليس كلامه ككلامنا الذي هو مركَّبٌ من اللِّسانِ والشَّفتينِ واللِّثَةِ، فكما أنَّ ذاتَهُ لا تشبهُ ذواتَ المخلوقينَ فكذلك صفاتُهُ لا تُشبهُ صفاتَ المخلوقينَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ألا ترى أنَّ الله يكلِّمُ النَّاس يوم القيامة: «**ما منكُم من أحدٍ إلَّا وسيكلِّمُهُ ربُّهُ، ليس بينَهُ وبينَهُ تُرجمانٌ**»[(١)]، ويقول ـ سبحانه ـ: «**يا آدمُ، فيقول: لبَّيك وسعديك، فيقول: أخرج بعث النَّار**»[(٢)]، إلى غير ذلك، وكلام الله قديمُ النَّوعِ ـ كغيره من صفات الأفعال ـ حادثُ الآحاد، وعدم الكلام صفةُ نقصٍ وليست صفة كمال، فالذي لا يتكلَّم هو ناقصٌ، ألم تر ما قالَهُ إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢].

(**ولا يُزكِّيهم**) أي: ولا يطهِّرهم بسبب جرمهم ومعاصيهم.

(**ولهم عذابٌ أليمٌ: أُشَيمطٌ زانٍ**): تصغيراً واحتقاراً له، الأُشيمط هو: الذي لاحَ البياضُ في لحيتِهِ وفي شعرِهِ، هذا هو الأُشيمط، ومع هذا تتوقُ نفسُهُ إلى الزِّنا؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الشَّرَّ متغلغلٌ في قلبِهِ، ولم يكُن نشأ عن

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٧٤٤٣) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٣٤٨)، ومسلمٌ (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

شهوةٍ وقوَّةِ دافعٍ، ودلَّ ذلك ـ أيضاً ـ على: ضعفِ إيمانِهِ، وعدمِ مراقبتِهِ لربِّهِ، إذ لو كان إيمانُهُ قويّاً، ومخافتُهُ من الله قويَّةً لغلبت ما يريدُهُ.

قال بعضهم: «إنَّ الإنسانَ إذا ابيضَّ شعرُهُ يجدرُ بِهِ أن لا يدنِّسَ بياضَهُ؛ لأنَّ البياضَ يدنِّسُهُ أقلُّ شيءٍ؛ كالثَّوب الأبيض أقلُّ وساخة تدنِّسه..».

(وعائلٌ مستكبرٌ)؛ أي: الفقير الذي لا مالَ لَهُ ولا جاه ومع هذا يتعاظمُ ويتكبَّرُ على النَّاس!

وإن كان الزِّنا ممنوعاً وقبيحاً في حقِّ الشَّباب وغير الشَّباب، والكِبْرُ ممنوعاً وقبيحاً في حقِّ الفقيرِ وغيرِ الفقيرِ، لكن قد يكون هذا الشَّابُّ أو الغنيُّ عندَهُ شيءٌ من الدَّاعي للزِّنا أو الكبرِ، فمع ضعف الدَّاعي يكون ذلك أقبح.

(ورجلٌ جعل الله بضاعتَهُ؛ لا يشتري إلَّا بيمينِهِ، ولا يبيعُ إلَّا بيمينِهِ): هذا هو الشَّاهد من الحديث للتَّرجمة، فهذا الذي دائماً يبيعُ بقوله: «والله ما أبيعها إلَّا بكذا»، «والله اشتريتها بكذا»، «والله شراها منِّي فلان بكذا»، «والله أُعطيتُ فيها كذا»، وكُلُّهُ كذبٌ، فهذا لا يكلِّمه اللهُ يوم القيامة؛ لأنَّهُ استخفَّ بالمحلوف به ـ وهو: الله ﷻ ـ في سبيل إيجاد ما يصلُ إليه من قليل حطامِ الدُّنيا.

۞ وفي «الصَّحيح» عن عمرانَ بنِ حصينٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ أُمَّتي قرني، ثُمَّ الذين يلونَهُم، ثُمَّ الذين يلونَهُم** ـ قال عمرانُ: فلا أدري أذكرَ بعد قرنِهِ مرَّتين أو ثلاثاً؟ ـ، **ثُمَّ إنَّ بعدَكُم قوماً يَشهدونَ ولا يُستشهدونَ، ويخونونَ ولا يُؤتمنونَ، وينذرونَ ولا يُوفونَ، ويظهَرُ فيهم السِّمَنُ**»(١).

هذا حديثٌ عظيمٌ، أخبر فيه النَّبيُّ ﷺ بأنَّ خيرَ القرونِ هو: القرنُ الذي بُعث فيه ﷺ؛ فإنَّ الإسلامَ بهم انتشر، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ونزل عليهم القرآنُ، وتعلَّموا العلمَ من الرَّسول ﷺ، وجاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ، هذا كُلُّهُ في القرن الذي كان فيه ﷺ، واتَّسعت ممالك الإسلام؛ فإنَّ المسلمين ملكوا من البحر الأطلنطي غرباً إلى الصِّين شرقاً على تباعد هذه الأمم واختلاف أعراقها، وتباين لُغاتها، يحملون جوازاً واحداً، ألا وهو: شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله، كلُّ هذا في القرن الذي بُعث فيه الرَّسول ﷺ، فأخضعوا الأمم لأوامر القرآن ونواهيه، وأزالوا من الوجود ملكَ أُمَّتين عظيمتين هما أقوى أمم الأرض وأشدِّها بأساً: فارس والرُّوم، قومٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فأنجزَ لهم ما وعدهم، مجداً في الدُّنيا، وأجراً في الآخرة.

(**ثُمَّ الذين يلونَهُم**): أي: القرن الثَّاني بعد انقراض الأوَّل؛ فإنَّ الإسلام كان لا زال طريَّاً؛ لأنَّ التَّابعين تعلَّموا من الصَّحابة، والإسلامُ ظاهرٌ، والأمانةُ موجودةٌ، والدِّينُ قائمٌ، وإن وُجِدَ شيءٌ من البدع كبدعة الخوارج والرَّوافض لكنَّهم ذليلون، والمسلمون يردُّون عليهم.

ثُمَّ القرن الثَّالث ـ والرَّاوي شكَّ فقال: لا أدري أذكر بعد قرنِهِ مرَّتين أو ثلاثاً ـ، والظَّاهر أنَّهُ ذكر ثلاثاً كما في حديث ابن مسعود الآتي، والقرنُ الثَّالثُ

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

ظهرت فيه بدعَةُ الجهميَّة، وبدعة المعتزلة، وتفرَّق النَّاسُ، ولكن هناك علماء يردُّون هذه الأباطيل، ويبيِّنون زيفها، ويوضِّحون معالمَ الحقِّ وإن كانت البدعُ موجودةً.

ثُمَّ في القرن الرَّابع قال: (**ثُمَّ إنَّ بعدهم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون**)؛ لبُعدهم عن عهد النُّبوَّةِ، ولم يأخذوا عن الصَّحابة، ولا عمَّن أخذ عن الصَّحابة، بل اشتغلوا بالدُّنيا.

يشهدون ولا يستشهدون؛ لضعفِ الأمانة، وقلَّة الدِّيانة، يأتي ويشهد قبل أن يُسأل الشَّهادة، وقد يكون مُحِقَّاً وقد يكون مُبطلاً، فلا ينبغي أن تشهدَ قبل أن تُطلب منك الشَّهادةُ، ولكن يَرِدُ على هذا: الحديثُ الآخرُ: «**ألا أخبركم بخيرِ الشُّهداء؟ هو: من يأتي بالشَّهادة قبل أن يسألها**»[1]، فدلَّ هذا على أنَّ أداء الشَّهادة قبل أن تُطلب مِنَ الخيرِ، ومن أجلِّ الطَّاعات، وفي الحديث الأوَّل ذمُّ ذلك، فما الجمع بينهما؟

الجمعُ ـ والله أعلم ـ أنَّ حديثَ: «**خير الشُّهداء الذي يأتي بها قبل أن يسألها**» هو: فيما إذا كان عند المرء شهادة ولم يعلم المشهود لَهُ أنَّ عنده شهادة له، فينبغي أن يخبرَهُ إذا خشيَ من ضياع حقِّهِ، أمَّا إذا كان يعلم بها فلا يجوز أن يشهد المرء قبلَ أن يُستشهد، وهذا إذا كانت شهادة حقٍّ، فما ظنُّك إذا كانت شهادة زورٍ؟! قال الله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**»

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «**ألا وقول الزُّور**»، قال: فما زال يُردِّدها حتَّى قلنا ليتَهُ سكتَ[2].

(**وينذرون ولا يُوفون**): لا يبالون بالوفاء؛ لضعف إيمانهم، وعدم مبالاتهم بما هو واجبٌ في ذمَّتهم.

(**ويظهرُ فيهم السِّمنُ**): لكثرة شهواتهم ومأكولاتهم، ممَّا يؤدِّي إلى كثرة اللَّحم والشَّحم في الجسم؛ لأنَّهُ لا يهمُّه إلَّا ما يدخله في بطنِهِ؛ لقلَّة دينِهِ، وضعفِ إيمانِهِ، فظهور ذلك في الأمَّة من علامات الشَّرِّ والبلاءِ.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٩) من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ.

۞ وفيه عن ابن مسعودٍ ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«خيرُ النَّاسِ قرني، ثُمَّ الذين يلونَهُم، ثُمَّ الذين يلونَهُم، ثُمَّ يجيءُ قومٌ تسبِقُ شهادةُ أحدِهِم يمينَهُ، ويمينُهُ شهادتَهُ»**[1].

(تسبقُ شهادةُ أحدِهِم يمينَهُ): يحلف ويشهد غير مبالٍ بعظمِ الشَّهادة، ولا بالمشهود به، ولا المشهود عليه، ولم يبال قبل ذلك بالله! إذ لم يعلم بأنَّ الله سيحاسبه، فيحلف على كذبٍ وباطلٍ، هذا شأن بعض هذه الأُمَّةِ؛ لبعد العهد عن النُّبوَّةِ، ولقلَّة الأمانة، وضعف الدِّيانة، فالدُّنيا أحبُّ شيءٍ إليهم، فإذا أمرتهم بأوامر الشَّرع تجدُ المرء كسلاناً لا يبالي، وإذا كان في أمور دنياه صار كالحيَّةِ الرَّقطاءِ! مجدٌّ ومجتهدٌ، يسعى في طلبها، ويبذل في تحصيلها كلَّ غالٍ ونفيسٍ، من شهادةٍ فاجرةٍ، ويمينٍ كاذبةٍ...

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلمٌ (٢٥٣٣).

۞ قال إبراهيمُ: «كانوا يضربوننا على الشَّهادة والعهدِ ونحنُ صغارٌ»[١].

انظر إلى تربية السَّلف لأولادهم عندما يسمعون الصَّغير يحلفُ أو يشهَدُ يضربونَهُ؛ إكباراً لله وتعظيماً له في قلبه، لينشأ نشأةً صالحةً، وإن كانت يمينُهُ لا تنعقدُ، وشهادتُهُ لا تُقبلُ، لكن كُلُّ هذا تربيةً لَهُ على الخيرِ، ونهياً له عن ما لا ينفعُهُ، وهذا من أعظم التَّربية للصِّغار؛ فإنَّ الإنسانَ إذا لم ينشأ بالتَّربيةِ الدِّينيَّةِ ولم يقم بقلبه تعظيمُ الله؛ فإنَّ الموتَ خيرٌ لَهُ من حياتِهِ، ولو كان يحملُ شهادةً جامعيَّة أو شهادةَ ماجستير أو شهادةَ دكتوراه! ماذا يُنتفعُ بشهاداتِ أقوام ساءت أخلاقُهُم، وفسدت أحوالهُم، وقويَ عاملُ الشَّرِّ فيهم؟!

فلا بارك الله فيهم، ولا في علومهم ـ ما داموا على هذه الحالة ـ، متنكِّرين لدينهم، ويفتخرون بما حملوا من شهادة؛ لأنَّهُ تخرَّج من الجامعة الفلانيَّة، أو يحمل شهادة كذا وكذا، إذا كان التَّعليم لم يورِّثْهُ خشيةَ الله، ولم يقدْهُ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ، ولم يعرِّفْهُ بربِّهِ، ولا بمصالح دينه ودنياه فالموتُ خيرٌ لَهُ من حياتِهِ، والجهلُ خيرٌ لَهُ من علمِهِ.



(١) صحيح البخاري (٣/ ١٧١) (٢٦٥٢).

بابُ
ما جاء في ذمَّةِ اللَّهِ وذمَّةِ نبيِّهِ ﷺ

وقولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ الآية [النحل: ٩١].

عن بُريدَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا أمَّرَ أميراً على جيشٍ أو سريَّةٍ أوصاهُ بتقوى اللهِ ومن معَهُ من المسلمينَ خيراً، فقال: «**اغزوا بسمِ الله، في سبيلِ الله، قاتِلُوا مَن كفرَ بالله، اغزُوا، ولا تغلُوا، ولا تغدرُوا، ولا تُمثِّلُوا، ولا تقتلُوا وليداً.**

وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعُهُم إلى ثلاثِ خصالٍ ـ أو: **خلالٍ** ـ **فأيَّتُهُنَّ ما أجابوكَ فاقبَلْ منهُم، وكُفَّ عنهُم، ثُمَّ ادعُهم إلى الإسلامِ فإن هم أجابوكَ فاقبَل منهُم، ثُمَّ ادعهُم إلى التَّحوُّل من دارِهِم إلى دارِ المهاجرينَ، وأخبرهم أنَّهُم إن فعلوا ذلك فلَهُم ما للمهاجرينَ، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنَّهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكمُ اللهِ تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمةِ والفيءِ شيءٌ إلَّا أن يجاهدوا مع المسلمينَ، فإن هم أبوا فاسألهُم الجزية، فإن هم أجابوكَ فاقبَل منهُم وكُفَّ عنهُم، فإن هُم أبوا فاستعن بالله وقاتلهُم.**

وإذا حاصرتَ أهلَ حصنٍ فأرادوك أن تجعلَ لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه، فلا تجعَل لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّهِ، ولكن اجعَل لـهُم ذمَّتك وذمَّة أصحابِك؛ فإنَّكم إن تخفروا ذِممكُم وذمَّةَ أصحابِكُم أهونُ من أن تخفروا ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّهِ.

وإذا حاصرتَ أهلَ حصنٍ فأرادوك أن تُنزلـهُم على حكم الله فلا تُنزلـهُم على حكمِ اللهِ ولكن أنزلهم على حكمِكَ؛ فَإنَّك لا تدري أتصيبُ حكمَ اللهِ فيهم أم لا؟!» رواهُ مسلمٌ.





بابُ
ما جاء في ذمَّةِ اللَّهِ وذمَّة نبيِّه ﷺ

أراد المصنِّفُ بهذه التَّرجمة: أنَّ من واجباتِ التَّوحيدِ الوفاءُ بالعهودِ، إذا أبرمت عهداً وأكَّدتَهُ فيجبُ المحافظة عليه، وقد أمرَ الله بالوفاء بالعهود فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

۞ وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية [النحل: ٩١].

(﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾)؛ أي: بعد إبرامها وإحكامها، وهو أنَّ الإمامَ إذا أبرمَ عهداً مع الكفرة فإنَّهُ لا يجوزُ نقضُهُ إلَّا إذا خاف منهم ريبةً أن ينقضوا العهد، فلا بأس أن يبعث إليهم بنقض العهد(١).

(١) على حدِّ قول الحقِّ ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

۞ عن بُريدَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا أَمَّرَ أميراً على جيشٍ أو سريَّةٍ أوصاهُ بتقوى اللهِ ومن معَهُ من المسلمينَ خيراً، فقال: «اغزوا بسم اللهِ، في سبيلِ اللهِ، قاتِلُوا مَن كفرَ باللهِ، اغزُوا، ولا تغلُوا، ولا تغدرُوا، ولا تُمثِّلُوا، ولا تقتلُوا وليداً.

وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعُهُم إلى ثلاثِ خصالٍ ـ أو: خلالٍ ـ فأيَّتُهُنَّ ما أجابوكَ فاقبَلْ منهُم، وكُفَّ عنهُم، ثُمَّ ادعُهم إلى الإسلامِ فإن هم أجابوكَ فاقبَل منهُم، ثُمَّ ادعهُم إلى التَّحوُّل من دارِهِم إلى دارِ المهاجرينَ، وأخبرهم أنَّهُم إن فعلوا ذلك فلَهُم ما للمهاجرينَ، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنَّهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكمُ اللهِ تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمةِ والفيءِ شيءٌ إلَّا أن يجاهدوا مع المسلمينَ، فإن هم أبوا فاسألهُم الجزية، فإن هم أجابوكَ فاقبَل منهُم وكُفَّ عنهُم، فإن هُم أبوا فاستعن بالله وقاتلهُم.

وإذا حاصرتَ أهلَ حصنٍ فأرادوك أن تجعلَ لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه، فلا تجعَل لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّهِ، ولكن اجعَل لهُم ذمَّتك وذمَّة أصحابِك؛ فإنَّكم إن تخفروا ذِممكُم وذمَّةَ أصحابِكُم أهونُ من أن تخفروا ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّهِ.

وإذا حاصرتَ أهلَ حصنٍ فأرادوك أن تُنزلهُم على حكم الله فلا تُنزلهُم على حكمِ اللهِ ولكن أنزلهم على حكمِكَ؛ فإنَّك لا تدري أتصيبُ حكمَ اللهِ فيهم أم لا؟!» رواهُ مسلمٌ[١].

(إذا أَمَّر أميراً على جيشٍ): فيه دليلٌ على أنَّ الإمامَ يُشرَعُ له أن يؤمِّرَ

(١) صحيح مسلم (١٧٣١).

على الجيوشِ والسَّرايا، و(السَّريَّةُ) أقلُّ من (الجيشِ)، فما كان أربع مئة فأقل فهو (سريَّةٌ)، وإذا تجاوزوا ذلك صار (جيشاً).

وذكر العلماء أنَّهُ يجبُ على الإمام الجهادُ في كُلِّ سنةٍ مرَّةً، هذا أقلُّ ما يكون، فواجبٌ عليه أن يبعث جيشاً في كلِّ سنةٍ ليغيروا على الكفَّار؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وإظهاراً لعزِّ الإسلام والمسلمين، فيجبُ على الإمام وجوباً أن يبعث جيشاً كُلَّ سنةٍ لقتالِ الكفَّار؛ لأنَّ الجهادَ فرضُ كفايةٍ، وفرض الكفاية لا بُدَّ أن يؤدَّى في كُلِّ سنةٍ مرَّةً، إلَّا إذا كان بالمسلمين ضعفٌ ولم يستطيعوا على ذلك، ولا قدرةَ لهُم على عدوِّهم، فلا مانع من تأجيله لحين الاستطاعة، لكن لا يجوز لَهُ أن يهادن الكفَّار أكثر من سنة إذا كان عنده قدرة، وأمَّا إذا لم يكن عنده قدرة جازت المهادنة إلى نحو عشرِ سنين، على تفصيل مذكورٍ في كتب أهل العلم.

(أوصاهُ بتقوى الله): دلَّ على أنَّ الإمامَ يوصي أمراء الجيش بتقوى الله، وهي: أن تجعل من طاعة الله وقاية لك من معصيته، فتحتزر بطاعة الله عن ارتكاب معاصيه، و(التَّقوى) كلمةٌ جامعةٌ لخصالِ الخيرِ كُلِّهِ، فهي وصيَّةُ اللهِ للأوَّلينَ والآخرينَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وحقيقة التَّقوى: امتثالُ أوامرِ اللهِ، واجتنابُ نواهيهِ.

(وبمَن معَهُ من المسلمين خيراً): يوصيهِ بتقوى الله فيمن معه من المؤمنين؛ أن يرفق بهم، ويخفض الجناح لهم، ويحرص على دفع الشُّرور عنهم، ويبعث العيون لأجل التعرُّف على حالة العدو، وألَّا يوقع المسلمين في المهالك، أو ينزلهم أمام الأعداء في مكان لا يصلح لهم، ليس فيه ماء، أو لا مجال للقتال فيه.

(اغزوا باسم الله)؛ أي: اشرعوا في الغزو لقتال الكفَّار؛ لتكون كلمة الله هي العليا، باسم الله مستعينين بالله، معتمدين عليه، فنعم المولى هو ونعم النَّصير.

(قاتلوا من كفر بالله)؛ أي: العلَّة في قتالهم هي: الكفر، فليس السَّبب في قتالهم هو طلبُ الأموال، أو السَّيطرة والهيمنة على بلادهم وعليهم، بل

سبب قتالهم هو كفرهم، وفي الحديث دليلٌ لمن قال: «إنَّ الكفَّار يُقاتَلُون لكفرهم، لا لدفع شرِّهم»، والمسألةُ خلافيَّةٌ، فبعض النَّاس يرى أنَّ قتال الكفَّار هو لدفع شرِّهم.

والقول الصَّحيحُ الذي عليه المحقِّقون: أنَّ قتالهم هو لكفرِهِم؛ كما يفيدُهُ هذا الحديث، وكما يدلُّ عليه القرآن.

فإن قلتَ: ما الفرق بين القولين؟ وما فائدة الخلاف؟

نقول: من قال: «يقاتلون لكفرهم» فعنده: يُقاتَلُون حتَّى يكون الدِّين كُلُّهُ لله، ومن قال: «يقاتلون لدفع شرِّهم» فعنده: إن غزونا في بلادنا فنحن نقاتلهم، وإن سكتوا عنَّا فنحن لا نقاتلهم.

ويدلُّ على القول الصَّحيح قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أمَّا القائلون بأنَّهم يقاتلون لدفع شرِّهم ـ كما عليه أكثرُ العصريِّين اليوم ـ فيستدلُّون بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦]، وقد أجاب المحقِّقون عن هذا، فقالوا: إنَّ قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ هو فيما إذا بذلوا لنا الجزية؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقيلَ: إنَّ الآية منسوخةٌ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ في سورة براءة، وقالوا: إنَّ من تتبَّع سيرة النبيِّ ﷺ عرف أنَّهُ كان يقاتل الكفَّار لكفرهم؛ فإنَّ له في ذلك **مقامات**:

أوَّلاً في بدء الدَّعوة كان يدعو النَّاس إلى عبادة الله، ولم يأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يقاتلوا أحداً، فهم المقاتَلون، فلمَّا هاجر إلى المدينة لم يقاتل أحداً، ثُمَّ أُذِنَ لَهُ أن يقاتِلَ من قاتلَهُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾ [الحج: ٣٩]، ولم يؤذَنْ لَهُ أن يقاتِلَ النَّاسَ ابتداءً، ولما قوي الإسلامُ وكثر المسلمون صار يُقاتِلُ لأجل الإيمان، وظهور الإسلام، والمبيحُ للقتال هو: الكفر والشِّرك بالله، ولهذا كان يبعث السَّرايا، فقاتل أهل الطَّائف، وقاتل أهل مكَّة ودخلها، وكذلك قاتل الرُّوم في تبوك، وفهم أصحابه مقصده ﷺ فبعثوا الجيوش إلى فارس والرُّوم، حتَّى أخضعوا الأُمم لأوامر القرآن ونواهيه، مع أنَّ الكفَّار لم يغزوا المدينةَ، وأمَّا العصريُّون اليوم مثل: محمَّد رشيد رضا[1]، ومحمَّد عبده[2] وطبقتهم فذكروا أنَّ الكفَّار يُقاتلون لدفع شرِّهم، وإلى هذا ذهب كثيرٌ من أهل العلم قبلهم كما أشار إليه النَّوويُّ وغيرُهُ، ولكن الصَّواب أنَّهم يُقاتلون لكفرهم، كما قرَّرَهُ ابنُ تيميَّةَ وابنُ القيِّمِ[3]، وهو المعروفُ عند

---

(١) فتاوى رشيد رضا (ص٨٩٢). (٢) التَّوحيد لمحمد عبده (ص٢٣٥).

(٣) لم أجد هذا القول مصرَّحاً به فيما اطَّلعتُ عليه من مصنَّفات الشَّيخين، ووجدت ما يوافق القول الثَّاني:

قال ابن تيميَّة (النُّبوَّات ١/ ٥٧٠): «الكُفَّار إنَّما يقاتلون بشرط الحراب، كما ذهب إليه جمهور العلماء، وكما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّةُ، كما هو مبسوط في موضعه».

وقال في السِّياسة الشَّرعيَّة (ص١٥٨): «لأنَّ القتالَ هو لمن يُقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]».

وقال في الصَّارم (ص٢٨٢) في تحريم قتل النِّساء: «إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول في كتابِهِ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾، فأمر بقتال الذين يُقاتِلُون، فعُلِمَ أنَّ شرطَ القِتالِ كونُ المقاتَلِ مُقاتِلاً».

وقال ابنُ القيِّم في تقرير مشروعيَّة الجزية (أحكام أهل الذِّمَّة ١/ ١١٠): «ولأنَّ القتلَ إنَّما وجبَ في مقابلة الحرابِ لا في مقابلة الكفرِ، ولذلك لا يُقتلُ النِّساءُ، ولا الصِّبيان، ولا الزَّمنى، ولا العميان، ولا الرُّهبانُ الذين لا يُقاتِلُون، بل نُقاتِلُ من حارَبَنَا، وهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في أهل الأرض، كان يقاتِل من حاربَهُ إلى أن يدخل في دينه أو يهادنَهُ أو يدخل تحت قهرِهِ بالجزية».

وقال ـ أيضاً ـ (هداية الحيارى ص٢٩ ـ ٣٠): «ولم يُكرِهْ ﷺ أحداً قطُّ على الدِّين، =

أئمَّة الدَّعوة النَّجديَّة(١)، وتدلُّ عليه نصوص الكتابِ والسُّنَّةِ.

(ولا تغلُوا): (الغلول) هو: الأخذُ من الغنيمة قبل قسمتها، وهو حرامٌ، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]؛ لأنَّهُ حقُّ المسلمينَ، وهم مشتركون في هذه الغنيمة، المجاهدون وغيرهم، وسئل سالم بن عبد الله بن عمر فقال رجلٌ: إنِّي أخذتُ غلولاً وتبتُ، فما أصنعُ؟

فأمره أن يتصدَّق به؛ لأنَّهُ مشترك بين جميع المسلمين، وليس له مالكٌ معيَّنٌ حتَّى يرسلَهُ إليهِ، وكذا قال معاويةُ كما أشار إليه ابنُ كثيرٍ في «تفسيره»(٢)، والعلَّامة ابنُ القيِّمِ(٣).

(ولا تغدرُوا)؛ أي: لا تنقضُوا العهدَ ـ هذا الشَّاهد من الحديث ـ؛ بأن تعطيهم عهداً ثُمَّ تأخذهم على غِرَّةٍ، بل أوف بالعهدِ وحافظ عليه ولو كانوا كفَّاراً، فكيف لو أعطيت عهداً بالله؟! الله أجلُّ وأعظمُ من أن تعطي عهدَهُ وتنقضَهُ.

= وإنَّما كان يقاتِلُ من حاربَهُ وقاتلَهُ، وأمَّا من سالمهُ وهادنَهُ فلم يقاتلْهُ ولم يكرهْهُ على الدُّخول في دينِهِ؛ امتثالاً لأمر ربِّهِ ﷻ حيث يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومن تأمَّل سيرة النَّبيِّ ﷺ تبيَّن أنَّهُ لم يُكْرِهْ أحداً على دينِهِ قط، وأنَّهُ إنَّما قاتل من قاتلَهُ، وأمَّا من هادنَهُ فلم يقاتلهُ ما دام مقيماً على هدنتِهِ لم ينقضْ عهدَهُ، بَل أمرَهُ الله ـ تعالى ـ أن يَفِيَ لهمْ بعهدِهِمْ ما استقاموا لهُ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٧]».

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالةٌ مطبوعةٌ بعنوان: (قاعدة مختصرةٌ في قتال الكفَّار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرَّد كفرِهم)، وقد أنكر نسبتها الشَّيخان الجليلان: سليمان بن سحمان وسليمان بن حمدان رحمهما الله وغيرُهُما، وأثبتها بعض الباحثين.

وينبغي التَّنبُّه إلى أنَّهُ لا ارتباط بين القولِ بأنَّ الكفَّارَ يُقاتَلُون لدفع شرِّهم ولحربهم وبين القول المحدَثِ بإنكار جهاد الطلب؛ فإنَّ منعَ إيصالِ الرِّسالةِ المحمَّديَّة هو من العداوة والشَّرِّ المبيحِ لقتالهِم عند الجميع، والله أعلم.

(١) ينظر: الدُّرر السَّنيَّة (١١/ ٣٧٤)، فتاوى الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم (٦/ ١٩٩)، فتاوى ابن باز (٣/ ١٩٤).

(٢) (٢/ ١٥٢).

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢٨).

(ولا تمثِّلوا): المسلمون عندما يقاتلون الكفَّار ويقتلون منهم لا يجوز أن يمثِّلوا بهم؛ كقطعِ الأنفِ، أو الأذنِ، أو الشَّفَةِ.

(ولا تقتلوا وليداً): إذا قاتلنا الكفَّار ودخلنا بلادهم فلا يجوز لنا أن نقتلَ الأطفال، ولا النِّساءَ، ولا الصِّبيانَ الذين هم دون البلوغِ، ولا الشُّيوخ المسنِّين، ولا الرُّهبانَ الذين في الصَّوامعِ؛ لأنَّهم لم يحملوا علينا سلاحاً، ولا الرَّجُلَ الأعمى إلَّا أن يكونَ لَهُ رأيٌ وتدبيرٌ في الحربِ فهذا يُقتل؛ لأنَّ رأيَهُ أبلغُ من سلاحِهِ، كما قال المتنبي:

الرَّأيُ قبل شجاعةِ الشُّجعانِ ... هو أوَّلٌ وهي المحلُّ الثَّاني

إلى أن قال:

ولرُبَّما طعن الفتى أقرانَهُ ... بالرَّأي قبل تطاعنِ الأقرانِ(١)

قد تكون شجاعاً وبطلاً وغيرك ليس لديه شجاعة، ولكن عنده حسنُ تدبيرٍ ورأي وإلقاء المكائد بالعدو، فإن كان من أهل الرَّأي فهذا يُقتل ـ وإن كان لا يحمل السِّلاح كالأعمى والشَّيخ الفاني والرَّاهب ـ، أمَّا إذا لم يكن ممَّن يحملُ السِّلاح وليس له رأيٌ فلا يُقتل.

(وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين: فادعُهُم إلى ثلاثِ خصالٍ، فأيَّتُهُنَّ أجابوكَ فاقبَل منهُم وكُفَّ عنهم): يدعوهم أوَّلاً إلى الإسلام، إذا حاصر بلادهم، فأوَّل شيءٍ يفعلُهُ هو دعوتهم إلى الإسلام؛ لأنَّ القصدَ من الجهادِ هو أن يدخلوا في دين الإسلام، فإذا دخلوا وجبَت حمايتهم والرِّفق بهم، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا، ثُمَّ يطلب منهم أن يتحوَّلوا إلى بلاد الهجرة بلاد المسلمين ـ إلَّا إن أسلموا كُلُّهم فيبقوا في بلادهم ـ، أمَّا إذا كانوا أفراداً أو جماعات والبلاد كافرة فلا بُدَّ عليهم أن يتحوَّلوا من بلاد الشِّرك إلى بلاد الإسلام؛ لأنَّ الهجرةَ واجبةٌ، وفي بقائهم في بلادِ الشِّرك وهم حديثوا عهد بإسلامٍ ما يسبِّبُ عودتهم إلى الكفرِ، فلا بُدَّ أن ينتقلوا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فإن أبوا التَّحوُّل أو كانوا في بادية ـ مثلاً ـ فيخبرهم أنَّهم يكونون

(١) شرح ديوان المتنبي للواحدي (ص٢٩٦).

كأعراب المسلمين يجري عليهم حكمُ الله من إقامة الحدود كُلِّها، ومن أداء الزَّكاةِ، ووجوب الحجِّ، والصَّومِ، ولا يكون لهم من الغنيمةِ أو الفيءِ شيءٌ إلَّا إن جاهدوا مع المسلمين، وقد قالَ عمرُ: «استوصُوا بالأعرابِ خيراً؛ فإنَّهُم مادَّةُ الإسلامِ»(١)؛ يعني: يتقوَّى بهم الإسلام.

(فإن أبوا فاسألهم الجزية): إذا أبوا الإسلام فاطلب منهم الجزية، والفقيرُ والمرأةُ والعبدُ والصَّبيُّ لا جزيةَ عليهم، وإنَّما على الرِّجالِ البالغينَ.

والجزيةُ تؤخَذُ من اليهود والنَّصارى ـ فقط ـ، والمسألة خلافيَّة، هذا قولُ الجمهورِ، أمَّا مشركوا العرب فإمَّا الإسلام أو السَّيف، وكذلك الوثنيُّون، هذا قول جماهير العلماء سَلَفاً وخَلَفاً، بدليلِ الآية: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]، وكذلك المجوس تؤخذ منهم الجزية مستدلِّين بأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخذ الجزية من مجوسِ هَجَرَ، وقالَ: «**سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم**»، وذهب شيخ الإسلام إلى أنَّها تؤخذ من مشركي العرب كما تؤخذ من أهل الكتابِ(٢)، لكن الجمهور على خلاف ذلك، وهذا القولُ(٣) قويٌّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ ما كان يأخذها من العرب أبداً، بل كان يقاتلهم كبني المصطلق، وخزاعة، وأهل مكَّة، وأهل الطَّائف وغيرهم من قبائل العرب، وكذا الصَّحابة ما كانوا يأخذونها من العرب.

(وإذا حاصرتَ أهلَ حصنٍ فأرادوك أن تجعلَ لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّهِ فلا تجعل لهم ذمَّةَ الله وذمَّةَ نبيِّهِ ولكن اجعل لهم ذمَّتَك وذمَّةَ أصحابِك، فإنَّكُم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمَّةَ الله): (الذِّمَّةُ) التي يذكرها العلماء في الزَّكاة والمعاملات هي: وصفٌ يكون فيه المكلَّفُ من أهل الإلزامِ والالتزامِ.

لو قالوا: أعطونا ذمَّة الله.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٧٠٠).
(٢) منهاج السُّنَّة (٨/٥١٦ ـ ٥١٧).
(٣) أي: قول الجمهور.

يقول: لا، بل أعطيكم ذمَّتي، أمَّا ذمَّة الله، فلا؛ لأنَّه إن نقضَ ذمَّته فذلك أهون من نقض عهد اللهِ.

(وإن أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله؛ لأنَّك لا تدري أتصيبُ حكم الله أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك): هذا يدلُّ على أنَّ حكم الله واحدٌ، وإنَّما أنت مجتهدٌ قد تصيبُ حكمَ اللهِ وقد لا تصيبُهُ.

وقول بعض المنتسبين للعلم: «ما عندي إلَّا حكم الله» غلطٌ، فهو لا يعرف هل يصيب حكم الله أم لا؟!

والمسألة مذكورة في كتب الأصول: «هل حكمُ اللهِ واحدٌ في كُلِّ قضيَّة أو متعدِّدٌ حسب اجتهادِ المجتهدِ؟».



بابُ
ما جاء في الإقسامِ على اللَّه

عن جُنْدَبِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قالَ رجلٌ: واللهِ لا يغفرُ اللهُ لفلانٍ، فقالَ اللهُ عز وجل: من ذا الذي يتألَّى عليَّ ألَّا أغفرَ لفلانٍ؟! إنِّي قد غفرتُ لَهُ وأحبطتُ عملَكَ»**.

وفي حديثِ أبي هريرة أنَّ القائلَ رجلٌ عابدٌ، قال أبو هريرة: «تكلَّم بكلمةٍ أوبقَتْ دُنياهُ وآخرتَهُ».



بابُ
ما جاء في الإقسامِ على اللّهِ

أي: من النَّهي عن ذلك، وهو أنَّ الرَّجُلَ يحلفُ على أنَّ الله لا يغفر لفلان، هذا محرَّمٌ، فرحمةُ اللهِ لا نهاية لها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

۞ عن جُنْدَبِ بنِ عبدِ الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالَ رجلٌ: واللهِ لا يغفرُ اللهُ لفلانٍ، فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألَّى عليَّ ألَّا أغفرَ لفلانٍ؟! إنِّي قد غفرتُ لَهُ وأحبطتُ عملَكَ**»(١).

وفي حديث أبي هريرة أنَّ القائلَ رجلٌ عابدٌ، قال أبو هريرة: «تكلَّمَ بكلمةٍ أوبقَتْ دنياهُ وآخرتَهُ»(٢).

(**يتألَّى**): يحلف؛ فإنَّ الأليَّة هي: الحلف، وهي المقصودة في كتب الفقهاء بقولهم: «كتاب الإيلاء».

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢٦٢١).

(٢) أخرجَهُ ابن المبارك (٩٠٠)، والإمامُ أحمدُ (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠١)، وابن حبَّان (٥٧١٢) من طرقٍ عن عكرمة بن عمار، عن ضمضم بن جوس، عن أبي هريرة، به.
إسنادُهُ لا بأس به.
ثُمَّ اختُلف فيه على عكرمة؛ فرواه البزَّار (٩٤١٨) من طريق موسى بن مسعود، عن عكرمة، عن ضمضم، عن أبي هريرة، وجعل قوله: «تكلَّم بكلمة...» إلخ من المرفوعِ، وروايةُ الجماعةِ عن عكرمة هي الصَّواب، فالجملة هي من كلام أبي هريرة؛ وموسى بن مسعود أبو حذيفة فيه لينٌ، قال الإمام أحمد (سؤالات المرُّوذي ٢٢٩): «كان من أكثرِ النَّاسِ خطأً».

قالَ كُثيِّرُ عزَّةَ[(١)]:

قليلُ الألايا حافظٌ ليمينِهِ إذا صدرَتْ منهُ الأليَّةُ برَّتِ

(**فإنِّي غفرتُ لَهُ وأحبطتُ عملَكَ**): هذا يدلُّ على أنَّ الإنسان ينبغي أن يحفظ لسانَهُ وألَّا يطلقَهُ، فهذا الرَّجُلُ تكلَّم بكلمة أوبقَت دنياه وآخرته ـ كما قال أبو هريرة ـ؛ أي: أهلكت عليه دنياه، وأفسدت عليه آخرته، كُلُّ ذلك بسبب اللِّسان، فعلى الإنسان أن يلاحظ لسانَهُ، وألَّا يطلقَهُ فيما لا يجوز لَهُ، لا من جهة الله، ولا من جهة الآدميِّين؛ كما في حديث: «**وهل يكبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهِم إلَّا حصائدُ ألسنَتِهِم؟!**»[(٢)].

فاللِّسان هو الكلبُ العقورُ، رُبَّما تكلَّم الإنسان بكلمة الكفر التي تخرجُهُ من الإسلام، أو بكلمةٍ تفسدُ عليه دنياه وآخرته، كما في قصَّة هذا الرَّجُلِ، كيف يقول: (**والله لا يغفرُ اللهُ لفلانٍ**)، والله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤]؟!

هل خزائن السَّماوات والأرض والجنَّة بيدك؟!

هذا الذي حلف أعجبه اجتهاده في العبادة، فكأنَّهُ استشعرَ أنَّهُ سيدخل الجنَّة بعبادتِهِ، وأنَّ هذا العاصي لن يدخلها!

ويقول الشَّاعر في شأن اللِّسان:

لسانُك لا تذكر به عورةَ امرئٍ فكلُّك عوراتٌ وللنَّاس ألسنُ[(٣)]

---

(١) البيت من قصيدة له في رثاء عبد العزيز بن مروان، ينظر: ديوان كُثيِّر (ص٣٢٥).

(٢) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٢٢٠١٦)، والتِّرمذيُّ (٢٦١٦)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ رضي الله عنه.
وأسانيدُهُ ضعيفةٌ، للانقطاع والاضطراب، والكلامُ عليه يطول، وينظر: علل الدَّارقطني (٦/٧٧)، جامع العلوم والحكم (ص٥٠٧).

(٣) البيت منسوب للإمام الشَّافعي، ينظر: ديوان الشافعي (ص١١٥).

ففيك من العيوب أكثر ممَّا انتقدته على أخيك.

بقي سؤالٌ: ما نقول في قصة الرُّبيِّع حينما كَسَرَتْ سِنَّ جاريةٍ فحكم النَّبيُّ ﷺ بأن تكسرَ ثَنِيَّتُها قصاصاً، فقال أنسُ بنُ النَّضرِ أخوها: «والله لا تُكسرُ ثنيَّةُ الرُّبيِّعِ»، فقال الرَّسول ﷺ: **«إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّهُ»**[1]، وفي الحديث الآخر: **«رُبَّ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ»**[2]، فهذا فيه القسم على الله؟

الجواب: لو أقسم على الله فيما فيه خيرٌ وصلاحٌ، فالله يبرُّ قسمَهُ، أمَّا لو أقسم على الله بما لا مصلحة فيه ولا خير للعباد فيه، فهذا لا يجوز، كما في حديث الباب، ففرقٌ بين هذا وذاك.



(١) رواهُ البخاريُّ (٢٧٠٣)، ومسلمٌ (١٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بابٌ
لا يُستشفَعُ باللَّهِ على خلقِهِ

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله نُهِكَتِ الأنفسُ، وجاعَ العيالُ، وهلكَتِ الأموالُ، فاستسقِ لنا ربَّك، فإنَّا نستشفعُ بالله عليك، وبك على الله.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «**سبحان الله! سبحان الله!**»، فما زالَ يسبِّح حتَّى عُرِفَ ذلك في وجوهِ أصحابِهِ؛ ثُمَّ قال النَّبيُّ ﷺ: «**ويحكَ، أتدري ما الله؟! إنَّ شأنَ الله أعظمُ من ذلك، إنَّهُ لا يُستشفَعُ بالله على أحدٍ...**» وذكر الحديث، رواه أبو داود.



بابٌ
لا يُستشفَعُ باللَّهِ على خلقِهِ

۞ عن جبيرِ بنِ مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله نُهِكَتِ الأنفسُ، وجاعَ العيالُ، وهلَكَتِ الأموالُ، فاستسقِ لنا ربَّك، فإنَّا نستشفعُ بالله عليك، وبك على الله.
فقال النَّبيُّ ﷺ: «**سبحان الله! سبحان الله!**»، فما زالَ يسبِّح حتَّى عُرِفَ ذلك في وجوهِ أصحابِهِ؛ ثُمَّ قال النَّبيُّ ﷺ: «**ويحكَ، أتدري ما الله؟! إنَّ شأنَ الله أعظمُ من ذلك، إنَّهُ لا يُستشفَعُ بالله على أحدٍ...**» وذكر الحديث، رواه أبو داود(١).

(١) هذا حديثُ الأطيطِ، روي من طريق وهب بن جرير، عن أبيه، عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن جبير بن محمَّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جدِّه، به مرفوعاً.
وقد اختُلف فيه على وهب؛ فرواه من هذا الوجه:
أحمد بن سعيد الرِّباطيُّ كما عند أبي داود (٤٧٢٦).
ويحيى بنُ معين كما عند الدَّارقطنيِّ في الصِّفات (٣٩)، والطبرانيِّ (١٥٤٧).
وعليُّ ابنُ المديني كما عند الدَّارقطنيِّ في الصِّفات (٣٩)، والطبرانيِّ (١٥٤٧).
وأبو الأزهر أحمد بن الأزهر النيسابوري كما عند ابن أبي عاصم (٥٧٦)، وأبي عوانة في المستخرج (٢٥١٧)، والبيهقيِّ في الأسماء والصِّفات (٢/٣١٧)، واللَّالكائي (٦٥٦).
وسلمة بن شبيب كما عند البزَّار (٣٤٣٢).
ومحمَّد بن علي بن وضَّاح كما عند البزَّار ـ أيضاً ـ (٣٤٣٢).
ومحمَّد بن يزيد الواسطي كما عند الدَّارقطنيِّ في الصِّفات (٣٨).
خالفَ السَّبعةَ فرواه عن وهب، عن أبيه، عن ابن إسحاق، **عن يعقوب وجبير**، عن محمَّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، به مرفوعاً:
=

= عبدُ الأعلى بن حمَّاد النَّرسي كما عند البزَّار (٣٤٣١)، وأبي داود (٢٧٢٦)، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصِّفات (٢/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم (٥٧٥).
ومحمَّدُ بن المثنى كما عند أبي داود (٢٧٢٦)، والبزَّار (٣٤٣١).
ومحمد بن بشَّار كما عند أبي داود (٤٧٢٦)، والبزَّار (٣٤٣١)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٣) ـ في طبعة الزُّهيري، وأمَّا نسخة الشهوان (١/ ٢٣٩) فوقع فيها «عن جبير» وهذا من جملة الأخطاء في هذه الطبعة ـ.
والظَّاهر من الوجهين: الأوَّلُ؛ فإنَّ ابن إسحاق لا تُعرف لَهُ رواية عن جبير بن محمَّد، ورواة الوجه الأوَّل أتقنُ وأكثرُ، صوَّب الوجه الأوَّل: البزَّارُ، وأبو داود، والدَّارقطنيُّ (الأسماء والصِّفات ص٣١)، والمزيُّ (تهذيب الكمال ٤/ ٥٠٦)، وابنُ كثير (البداية والنِّهاية ١/ ١٨)، والذَّهبيُّ (العلو ص٤٤).
فإن قيلَ: ما الجواب عن اجتماع الثِّقات الثَّلاثة على روايته على الوجه الثَّاني؟
فيقال: قد أجاب عنه الحافظ البزَّار (٨/ ٣٥٤) فقال: «هكذا حدَّثناهُ أبو موسى [محمد بن المثنى]، وبندار، وعبد الأعلى بن حمَّاد. . . فاتَّفقوا كُلُّهم على هذا الإسناد؛ لأنَّ نسخة وهب بن جرير، عن أبيه، عن ابن إسحاق، كانت لعبد الأعلى بن حمَّاد، فكان في كتابه هكذا، ونسخَ أبو موسى وبندارٌ من كتاب عبد الأعلى؛ فوقع في كتبهم هكذا».
وقال أبو داود بعد إخراجه: «كان سماعُهُم من نسخةٍ واحدةٍ فيما بلغني».
وما مضى هو في بيان الصَّواب من طرق الحديث، ولما تبيَّن أقول: هذا حديثٌ غريبٌ، وابن إسحاق لم يصرِّح بالسَّماع، وفي متنهِ ما لا يُحتمل تفرُّد ابن إسحاق به، وجبير بن محمَّد فيه جهالة، وهو من طبقة يَغلب عليها السِّتر والعدالة، وقد أعلَّه بعنعنة ابن إسحاق البزَّار (٨/ ٣٥٤)، وضعَّف البيهقيُّ الحديثَ (الأسماء والصِّفات ٢/ ٣١٧).
وصنَّف أبو القاسم ابن عساكر جزءاً سمَّاه: (بيان الوهم والتَّخليط الواقع في حديث الأطيط).
وقال الحافظ أبو عبد الله الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (العلو ص٤٤): «هذا حديث غريبٌ جدَّاً، فردٌ، وابن إسحاق حُجَّةٌ في المغازي إذا أسندَ، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقالَ النَّبيُّ ﷺ هذا أم لا؟!».
واستغربَهُ ـ أيضاً ـ ابن كثير (التفسير ٢/ ٢٤٩).
وأنشد ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

واذكر حديثاً لابن إسحاقَ الرِّضى ... ذاك الصَّدوق الحافظ الربَّاني
في قصَّة استسقائهم يستشفعو... ن إلى الرَّسول بربِّه المنَّانِ =

(جاءَ أعرابيٌّ): (الأعرابيُّ) هو: ساكن البادية، وهو في الغالب لا يعرف شيئاً، بل هو على فطرتِهِ، وكان الصَّحابة يحبُّون أن يأتيَ الأعراب إلى النَّبيِّ ﷺ فيسألونه فيستفيد الصَّحابة.

والحديث تضمَّن ثلاث مسائل:

الأولى: أنَّ الاستشفاعَ باللهِ على خلقِهِ منكرٌ؛ فإنَّ اللهَ أجلُّ وأعظمُ من أن يُستشفَعَ بِهِ على أحدٍ، فكُلُّ الخلقِ فقراءُ إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]، فليس من اللَّائق أن تستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، لا نبيٍّ مُرسَلٍ، ولا مَلَكٍ مُقرَّبٍ، ولا سلطانٍ، ولا حاكمٍ، ولذا تغيَّر وجهُ النَّبيِّ ﷺ، وأخذ يعظِّمُ اللهَ ويسبِّحُهُ، فمتى انتُهِكَتْ عظمةُ اللهِ ينبغي أن تبادرَ بالتَّسبيح والتَّعظيم، كما في حديث: «**إذا قالَ المشركون: «واللَّات والعُزَّى» فقولوا: «لا إلهَ إلَّا الله»**»(١).

الثَّانية: لا بأس بالاستشفاع بأحدٍ من الخلق على الله؛ أي: تستشفعُ بالمخلوق على الخالق، هذا لا بأس به، إذا كان الاستشفاعُ من حيٍّ فيدعو لك؛ لأنَّ الشَّفاعة تُطلق ويراد بها: (الدُّعاء)، فالرَّجُلُ إذا كان حيًّاً صالحاً من أهل التَّقوى والخير فلا مانع أن تقولَ لَهُ: «ادعُ اللهَ لي»، وهذه شفاعة منهُ إلى الله، كما قال النبيُّ ﷺ لعمر: «**لا تنسنا يا أُخيَّ من صالحِ دعائِكَ**»(٢)، هذا معنى الاستشفاع بالمخلوق على الله ﷻ.

= فاستعظم المختارُ ذاك وقال شأن — اللَّـه ربُّ العرشِ أعظمُ شانِ
اللَّـهُ فوقَ العرشِ فوق سمائِهِ — سبحانَ ذي الملكوتِ والسُّلطانِ
ولعرشِهِ منهُ أطيطٌ مثل ما — قد أطَّ رحلُ الرَّاكبِ العجلانِ
للَّه ما لقيَ ابن إسحاق من الـ — ـجهميِّ إذ يرميهِ بالعدوانِ
ويظلُّ يمدحُهُ إذا كان الذي — يروي يوافقُ مذهبَ الطغَّانِ
كم قد رأينا منهم أمثالَ ذا — فالحكمُ للَّه العليِّ الشَّانِ
هذا هو التَّطفيفُ لا التَّطفيفُ في — ذرعٍ ولا كيلٍ ولا ميزانِ!

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) مضى تخريجه.

والنَّوعُ الثَّاني من المسألة الثَّانيةِ: طلبُ الاستشفاع من الأموات والغائبين، وهذا هو الشِّرك بعينه، لا يجوز أن تطلبَ من الميِّت أن يدعوَ لكَ، أو يشفع لك عند الله؛ فإنَّ الشَّفاعةَ ملكٌ لله، وهذا ميِّتٌ انقطع عملُهُ، بل نحن الذين نشفعُ لَهُ، ألا ترى ما جاء في حديث ابن عبَّاس أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال: «**ما من مسلم يموتُ فيقوم على جنازتِهِ أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلَّا شفَّعهم اللهُ فيه**»[1]، فأخبرَ الرَّسولُ ﷺ بأن دعاءنا لهذا الميِّت وصلاتنا عليه هي شفاعة عند الله له، فكيف نعكسُ القضيَّة ونطلب من الميِّت أن يشفع لنا؟! كما عليه أكثر النَّاس في غير هذه البلاد، يبنونُ القبابَ والأبنية على القبور، ويطلبون من الميِّت المدد، وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، ويصرفون للميِّت ما هو حقٌّ لله ـ تعالى ـ بزعمهم أنَّهُ واسطةٌ بينهم وبين الله، وأنَّهُ يشفع لهم عند الله، وهذا من الباطل.

قد يقول قائل: أنا أعتقدُ أنَّ النَّافعَ الضارَّ هو الله، وأنَّ اللهَ يجيبُ دعاءَ من دعاه، لكن هذا رجلٌ صالحٌ من الأولياء، فأنا أقفُ عند قبرِهِ وأقول لَهُ: «يا فلان اشفع لي، أنت واسطة بيني وبين الله؛ لأنِّي مقصِّرٌ، فارفع حاجتي إلى الله».

نقول له: هذا هو الشِّرك بعينِهِ، فالله لم يجعل بينك وبينه واسطة أبداً، بل أمرك أن تدعوه، ألم تقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولم يقل: «وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي جعلتُ بيني وبينهم وسائط!»، بل قال الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وبهذا نعرف أنَّ دعاءَ الأموات والغائبين وبناءَ الأبنية على قبورهم، وطلبَ المددِ منهم أنَّ هذا ينافي التَّوحيدَ بالكليَّةِ، وأنَّهُ من الشِّركِ الأكبرِ الذي لا يغفرهُ اللهُ إلَّا بالتَّوبةِ منهُ.

ألا ترى أنَّ عمرَ رضي الله عنه عام الرَّمادة لما أجدبت الأرض ـ حتَّى إنَّ الوحوش جاءت للمدينة لعدم وجود ما تأكله ـ، قام يستسقي قائلاً: «**اللَّهُمَّ إنَّا**

(١) مضى تخريجه.

كُنَّا نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا، قم يا عبَّاس فادع الله»[١]، ففسَّر التَّوسُّلَ بالدُّعاءِ، ولو كان التوسُّل بالميِّت جائزاً فكيف يعدلُ عمرُ عن سيِّد الخلقِ ﷺ إلى العبَّاس؟!

لو كان جائزاً لذهب إلى قبر النَّبيِّ ﷺ، ولكن لعلمِهِ أنَّ الميِّتَ لا يُتوسَّلُ به ولا يُدعى توسَّل بالحيِّ، والتَّوسُّلُ هنا ليس بذاتِهِ بل بالدُّعاءِ، فأنتَ إذا قمتَ تدعو فهذه وسيلةٌ، وإذا قرأت القرآن فهذه وسيلةٌ.

المسألة الثَّالثة التي دلَّ عليها الحديث: ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ من أنَّ الله على عرشِهِ، وهذه مسألةٌ مهمَّةٌ زلَّت بها أقدام، وضلَّت بها أفهام، ولها بحوث طويلة بين أهل السُّنَّة والجماعَةِ أتباعِ الرُّسُلِ، وبين أتباعِ جهمِ بنِ صفوان، بينهم معتركٌ طويلٌ، لكنَّ القوم لم يصنعوا شيئاً، ولم يصلوا إلى نتيجة، بل ضلُّوا عن الحقِّ، وعن الصِّراطِ المستقيمِ، فالقرآن يدلُّ على أنَّ اللهَ مستوٍ على عرشِهِ، وهم يفسِّرون الاستواء بالاستيلاء، وذكر ابنُ تيميَّةَ وابنُ القيِّمِ أنَّ الاستواءَ ذُكر في القرآن في سبعة مواضع، فهلَّا ذُكر بلفظ (الاستيلاء) مرَّةً واحدةً؟![٢].

ثُمَّ لفظة (الاستيلاء) تقتضي أنَّ هناكَ من يغالِبُ الله على العرشِ ثُمَّ استولى اللهُ عليه، كما يقال: «استولى السُّلطانُ على البلدة»، لا يمكن الاستيلاء عليها إلَّا بعد مغالبة بينه وبين ندِّه، لكن أهل السُّنَّةِ يقولون بما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ استواء يليقُ بجلالِهِ، والله أعلم بذلك، إلَّا أنَّا نعتقدُ أنَّ الله على عرشِهِ يقيناً.

قالت الجهميَّةُ ومن وافقَهُم: نستدلُّ عليكم بأدلَّةٍ عقليَّةٍ.

قلنا: ما هي؟

قالوا: إذا أثبتُّم أنَّ الله على عرشِهِ فيلزم: أنَّهُ لو كان العرشُ مربَّعاً ـ مثلاً ـ كان الله مربَّعاً، أو كان مثلَّثاً كان الله مثلَّثاً، أو كان واسعاً كان الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحمويَّة (ص٥٠٦)، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة (٢/ ١٤٤).

واسعاً، أو ضيِّقاً كان الله ضيِّقاً، أو لم يستو عليه؛ لأنَّ من ذات الله قدراً زائداً على العرش.

نقول: ما لنا ولهذه الإلزامات؟!

نحن لا نقول بقولكم، ولا نشبِّه الله بخلقِهِ فتُوردوا علينا هذا، بل نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] هذه الإلزامات لا تلزمنا، بل تلزمكم أنتم؛ لأنَّكم تشبِّهون الله بخلقه.

قالوا: إن أثبتُّم أنَّ اللهَ مستوٍ على عرشِهِ، لزمكم أن يكون الله جِسماً؛ فلا يمكن تصوُّر الاستواء إلَّا من جسمٍ، فالجسمُ يكون لَهُ عَرْضٌ وطولٌ وحدٌّ ونهايةٌ.

نقول: لا يلزمنا شيءٌ من هذا، وإنَّما نقول بما في القرآنِ والسُّنَّة، لكن على سبيل التنزُّل معكم نقول لكم: هل تثبتون لله ذاتاً أم لا؟!

كُلُّهم مجمعون ـ من الجهميَّة والمعطِّلة والمعتزلة ـ على أنَّ لله ذاتاً.

فنقول لهم: هل هذه الذَّات لا بُدَّ أن يكون لها حدٌّ وطولٌ وعرضٌ من جنس ذواتنا؟!

يقولون: لا، لا تشبهُ ذواتَنا.

نقول: ـ أيضاً ـ اللهُ مستوٍ على عرشه دون أن يشبَهَ استواءَ المخلوقِ، نُلزِمُكُم بقولِكُم سواء بسواءٍ.

وقد بسط العلَّامة ابن القيِّم مسألة الاستواء في كتابه: «الصَّواعق»، وردَّ قولهم بنحوِ أربعين وجهاً، وألَّف العلماء في ذلك المؤلَّفات.



بابُ

ما جاءَ في حمايةِ النَّبيِّ ﷺ حِمى التَّوحيدِ، وسدِّهِ طُرُقَ الشِّركِ

عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه، قال: انطلقتُ في وفدِ بني عامر إلى النَّبيِّ ﷺ فقلنا: «أنت سيِّدُنا»، فقال: «السَّيِّدُ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ».

قلنا: «وأفضلُنا فضلاً، وأعظمُنا طَولاً».

فقال: «قولوا بقولِكُم، أو بعضِ قولِكُم، ولا يَستجرينَّكُم الشَّيطانُ» رواه أبو داودَ بسندٍ جيِّدٍ.

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ ناساً قالوا: يا رسولَ الله: يا خيرَنا وابنَ خيرِنا، وسيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، فقال: «يا أيُّها النَّاسُ، قولوا بقولِكُم، أو بعضِ قولِكُم، ولا يَستهوينَّكُم الشَّيطانُ، أنا محمَّدٌ، عبدُ اللهِ ورسولُهُ، ما أُحبُّ أن ترفعوني فوقَ منزلتي التي أنزلني اللهُ عز وجل» رواهُ النَّسائيُّ بسندٍ جيِّدٍ.



باب
ما جاءَ في حمايةِ النَّبيِّ ﷺ حِمى التَّوحيدِ، وسدِّهِ طُرُقَ الشِّركِ

تقدَّم نظير هذه التَّرجمة: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التَّوحيدِ، وسدِّهِ كُلَّ طريقٍ يُوصِلُ إلى الشِّركِ)، فهل البابان مُكرَّران أم بينهما فرقٌ؟

بينهما فرقٌ؛ فالتَّرجمة السَّابقةُ هي: في حماية جناب التَّوحيد، و(الجناب) هو: المتَّصلُ بالشَّيء، وهنا: **(حماية حمى التَّوحيد)**، فهو ﷺ: حَمَى التَّوحيدَ، ثُمَّ حَمَى جنابَ التَّوحيدِ، ثُمَّ حَمَى حِمَى التَّوحيدِ.

(وسدِّه طُرُقَ الشِّركِ)؛ أي: كُلَّ طريقٍ يوصِلُ إلى الشِّرك قولاً أو عملاً فقد سدَّهُ النَّبيُّ ﷺ، والتَّوحيدُ هو موضوع هذا الكتاب، والمصنِّف ألَّف هذا الكتاب مبيِّناً فيه توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد العبادة ـ وهو المقصود بوضع الكتاب وتألِيفهِ ـ، وبيَّن فيه توحيد الأسماء والصِّفات ـ ضِمناً ـ، وبيَّن فيه: ما ينافي التَّوحيد بالكليَّةِ من الشِّركِ الأكبرِ، وما ينافي كمالَهُ الواجبَ من الشِّركِ الأصغرِ، وبيَّن فيه الذَّرائعَ الموصلة إلى الشِّرك المقرِّبة إليه، وبيَّن فيه البدعَ القادحةَ في توحيد العبدِ، والمعاصي المنقِّصة لثواب التَّوحيد، هذا موضوع الكتاب.

ولما ذكر هذه الأبواب ذكر: **(حماية حمى التَّوحيد)**؛ لأنَّهُ آخرُ الكتاب؛ كأنَّهُ يقولُ لكَ: ذكرتُ لك التَّوحيد وما ينافيهِ بالكليَّة، وذكرتُ لك الوسائلَ الموصلةَ إلى الشِّركِ، وذكرتُ لك البدعَ القادحةَ في التَّوحيدِ، وذكرتُ لك المعاصي المنقِّصةَ لثواب التَّوحيدِ، وذكرتُ لك حماية النَّبيِّ ﷺ جنابَ التَّوحيدِ، وها أنا أذكرُ لك في آخر الأبواب باباً في حماية النبيِّ ﷺ حِمَى التَّوحيدِ، وسدِّهِ كُلَّ طُرُقِ الشِّركِ.

۞ عن عبد الله بنِ الشِّخِّير رضي الله عنه، قال: انطلقتُ في وفدِ بني عامرٍ إلى النَّبيِّ ﷺ فقلنا: «أنت سيِّدُنا»، فقال: «**السَّيِّدُ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ**».
قلنا: «وأفضلُنا فضلاً، وأعظمُنا طَولاً».
فقال: «**قولوا بقولِكُم، أو بعضِ قولِكُم، ولا يَستجرينَّكُم الشَّيطانُ**» رواه أبو داودَ بسندٍ جيِّدٍ[1].

(**لا يستجرينَّكم الشَّيطانُ**)؛ أي: لا يتدرَّج بكم فيوقعكم في الشِّركِ.

ولا شكَّ أنَّهُ ﷺ سيِّدُنا، وسيِّدُ العالمينَ، وإنَّما نهاهم عن ذلك لأنَّهُ خشي أن يتدرَّج الشَّيطان بهم، فيرفعوه فوق منزلتِهِ التي أنزلَهُ الله إيَّاها، فهذا يدلُّ على أنَّ المدحَ في مواجهة الإنسان لا يجوز، وقد قطعتَ عنقَ صاحبك إن فعلتَ، فرُبَّما يتكبَّرُ ويتعاظمُ بذلك، أو يؤدِّي إلى أنَّهُ يُعجَبُ بنفسِهِ، هذا إن كنت صادقاً، وإن كنت غير صادقٍ في مدحك فأصبحت كاذباً في قولك، وغررتَهُ.

---

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٢٦/ ٢٣٤)، والبخاريُّ في (الأدب المفرد ٢١١)، وأبو داود (٤٨٠٦)، والنسائيُّ في (عمل اليوم واللَّيلة من الكبرى ١٠٠٠٤ ـ ١٠٠٠٥)، والبيهقيُّ في (الأسماء والصِّفات ١/ ٧٨) من طرقٍ عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن أبيه، به.
وإسنادُه جيِّدٌ، وهو حديثٌ ثابتٌ.

۞ وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ ناساً قالوا: يا رسولَ الله: يا خيرَنا وابنَ خيرِنا، وسيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، فقال: «**يا أيُّها النَّاسُ، قولوا بقولِكُم، أو بعضِ قولِكُم، ولا يَستَهوينَّكُم الشَّيطانُ، أنا محمَّدٌ، عبدُ الله ورسولُهُ، ما أُحبُّ أن ترفعوني فوقَ منزلتي التي أنزلني اللهُ** عز وجل» رواهُ النَّسائيُّ بسندٍ جيِّدٍ(١).

قال: (**ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** عز وجل) مع أنَّهم لم يقولوا إلَّا: «يا خيرَنا وابنَ خيرِنا، وسيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا»، لكن خشي ﷺ أن يتدرَّجَ الشَّيطانُ بهم إلى الشِّركِ، كما في حديث: «قوموا بنا نستغيث برسول الله»، فقال ﷺ: «**إنَّهُ لا يستغاثُ بي، وإنَّما يُستغاثُ بالله**»(٢)، مع أنَّ الاستغاثةَ بالحيِّ القادرِ الحاضرِ جائزةٌ.

وأشرف مقامات الرَّسول ﷺ هي العبوديَّة؛ فإنَّ اللهَ قال في مقام إنزال القرآن الذي هو أشرف الكتب: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ [الكهف: ١]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، فقارن بين قول الرَّسول ﷺ في هذا الحديث وبين قول البوصيري:

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ بهِ ... سواكَ عندَ حُلولِ الحادثِ العممِ

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٢٠/٢٣) (١٢٥٥١)، وعبدُ بنُ حميدٍ (١٣٣٧)، والنَّسائيُّ (الكبرى ١٠٠٠٦)، والبيهقيُّ (الشُّعب ٤٥٢٩)، من طريق حمَّاد بن سلمة، عن ثابت وحميد، عن أنس، به.
إسنادُهُ على رسمِ مسلمٍ.

(٢) سبق تخريجه.

إلى أن قالَ:

إن لـم تكُن في معادي آخذاً بيدي ... فـضـلاً وإلَّا فـقُـل: يـا زلَّـةَ الـقـدمِ

وقال:

فـإنَّ مـن جـودِكَ الـدُّنـيـا وضـرَّتـهـا ... ومن علومِكَ علمُ اللَّوحِ والقلمِ

ماذا بقي لله؟!

أيُّ شركٍ أعظمُ من هذا؟!

أنسيَ الشَّاعر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]، (شيئاً) نكرة في سياق النَّفي، والبوصيري يقول: لا، بل الدُّنيا والآخرة هي من جودك، و(من) هي للتبعيض، والله يقولُ لنبيِّه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، والرَّسول ﷺ لا شكَّ أنَّهُ أشرف الخلق على الإطلاق، ولكن لا تجوز تسويته بالله، أو صرف شيءٍ من حقِّ الله له.

لكن هل يجوز أن تقول: «يا سيِّدي فلان، سيِّدي فلان»، أو كما يقول بعض العامَّة: «سِيدي فلان»؟

نقول: هذه المسألة فيها خلافٌ بين العلماء، منعها قومٌ، وهو المرويُّ عن الإمام مالك، أنَّ هذا لا ينبغي؛ لأنَّ السَّيِّدَ الله ـ تبارك وتعالى ـ[١].

وأجازها آخرون، وقالوا: لا مانع منه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالها عن نفسِهِ: «**أنا سيِّدُ ولد آدم ولا فخر**»[٢]، وقال ﷺ لما أقبل سعد بن معاذ ليحكمَ في بني قريظة حين نزلوا على حكمه: «**قوموا إلى سيِّدكم**»[٣].

وتوسَّط آخرون فقالوا: إذا لم يُقابَل بهذا ولم يُواجَه بهِ كما فعل

(١) يُشكل عليه أنَّهُ قيل لمالك رحمه الله: يقولون: (السَّيِّدُ هو الله تعالى).
فقالَ: «أين هذا في كتاب الله؟!، إنَّما في القرآن (ربَّنا.. ربَّنا)»، ينظر: المنتقى شرح الموطأ (٧/٣٠٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

الرَّسول ﷺ مع سعد فهذا لا بأس به، وأمَّا إذا قُوبل الشَّخص بهذا فلا، جمعاً بين الحديثين، لكن الظَّاهرُ أنَّهُ إذا كان لا يؤدِّي إلى الكبرِ والعظمةِ، وصارت كلمة شائعة بين النَّاس وجودها كعدمها، فالظَّاهر: أنَّهُ لا بأس بها، ويُنهى عنها إذا كانت تؤدِّي إلى العظمةِ والكبرِ.



بابُ

ما جاءَ في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]

عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمَّد إنَّا نجدُ أنَّ الله يجعل السَّماواتِ على إصبعٍ، والأرضينَ على إصبعٍ، والشَّجرَ على إصبعٍ، والماءَ على إصبعٍ، والثَّرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبعٍ، فيقول: «أنا الملكُ».

فضحك النَّبيُّ ﷺ حتَّى بدت نواجذُهُ؛ تصديقاً لقول الحبرِ، ثُمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧].

وفي رواية لمسلم: «**والجبالَ والشَّجرَ على إصبعٍ، ثُمَّ يهزُّهُنَّ فيقولُ: أنا الملِكُ، أنا اللهُ**».

وفي رواية للبخاريِّ: «**يجعل السَّماواتِ على إصبعٍ، والماءَ والثَّرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبعٍ**».

ولمسلم عن ابن عمرَ مرفوعاً: «**يطوي اللهُ السَّماواتِ يوم القيامةِ، ثُمَّ يأخذُهُنَّ بيدِهِ اليُمنى، ثُمَّ يقول: أنا الملك، أينَ الجبَّارون؟! أين المتكبِّرون؟!**

ثُمَّ يطوي الأرضينَ السَّبعَ ثُمَّ يأخذُهُنَّ بشمالِهِ، ثُمَّ يقولُ: أنا الملك، أين الجبَّارون؟! أين المتكبِّرون؟!».

ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: «**ما السَّماواتُ السَّبعُ والأرضونَ السَّبعُ في كفِّ الرَّحمٰنِ إلَّا كخردلةٍ في يدِ أحدِكُم**».

وقال ابنُ جريرٍ: حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدَّثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما السَّماواتُ السَّبعُ في الكرسيِّ إلَّا كدراهم سبعةٍ أُلقيت في ترسٍ**».

قال: وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسيُّ في العرشِ إلَّا كحلقةٍ من حديدٍ أُلقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرضِ**».

وعن ابن مسعودٍ قال: «**بين السَّماء الدُّنيا والتي تليها خمسُ مئةِ عام، وبين كُلِّ سماءٍ وسماءٍ خمسُ مئةِ عام، وبين السَّماء السَّابعة والكرسيِّ خمسُ مئةِ عام، وبين الكرسيِّ والماءِ خمسُ مئةِ عامٍ، والعرشُ فوقَ الماءِ، واللهُ فوقَ العرشِ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِكُم**».

أخرجَهُ ابنُ مهديٍّ، عن حمَّادِ بن سلمة، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن عبدِ الله.

ورواهُ بنحوه عن المسعوديِّ، عن عاصم، عن أبي وائلٍ، عن عبد الله، قالَهُ الحافظ الذَّهبيُّ رحمه الله، قالَ: «ولَهُ طُرُقٌ».

وعن العبَّاسِ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السَّماء والأرض؟»

قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ.

قال: «بينهما مسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ، ومن كُلِّ سماءٍ إلى سماءٍ مسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ، وكِثَفُ كُلِّ سماءٍ خمسُ مئةِ سنةٍ، وبين السَّماءِ السَّابعَةِ والعرشِ بحرٌ بينَ أسفلِهِ وأعلاهُ كما بين السَّماءِ والأرضِ، واللهُ تعالى فوقَ ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمالِ بني آدم» أخرجَهُ أبو داودَ وغيرُهُ.



باب
ما جاءَ في قولِ اللَّهِ تعالى:
﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]

أي: ما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه؛ فإنَّهم نفوا عنه شيئاً من صفاته الذَّاتيَّة؛ كالسَّمعِ والبصرِ واليدِ والوجهِ وغير ذلك هرباً من التَّشبيه، نقول لهم: الله أثبتها لنفسِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥]، فكيف ننفي ما أثبته الله لنفسِهِ؟!

من نفى هذا ما قدرَ اللهَ حقَّ قدرِهِ، ومن جعل واسطة بينَهُ وبينَ الله أو طلب منه المدد، أو قال: «يا سيِّدي فلان أغثني أغثني وأزل الشدَّة عنِّي» ما قدرَ اللهَ حقَّ قدرِهِ، وما عظَّمَهُ حقَّ تعظيمِهِ، والله ـ سبحانه ـ بعث رسوله ﷺ بإثباتٍ مفصَّلٍ ونفيٍ مجملٍ، وهذا في القرآن كثير: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

ومن دقيق فهم المصنِّف وذكائه أنَّهُ ختمَ كتابَهُ بهذا الباب الدَّالِّ على إثبات أسماء الله وصفاته ـ سبحانه ـ، والدَّالِّ على أنَّ العبادةَ لا تصلح إلَّا لله، وأنَّ من صرف شيئاً من العبادة لغير الله ما قدرَ اللهَ حقَّ قدرِهِ، ومَن شبَّهَ الله بخلقِهِ أو نفى عنه شيئاً من الصِّفات ما قدرَهُ حقَّ قدرِهِ، فالكتاب متضمِّنٌ لتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، وتوحيدِ العبادةِ، وختمُ الكتاب بهذه الآية فيه: أنَّ من أخلَّ بشيءٍ من أنواع التَّوحيدِ الثَّلاثة فإنَّهُ ما قدرَ اللهَ حقَّ قدرِهِ.

۞ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمَّد إنَّا نجدُ أنَّ الله يجعل السَّماواتِ على إصبعٍ، والأرضينَ على إصبعٍ، والشَّجرَ على إصبعٍ، والماءَ على إصبعٍ، والثَّرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبعٍ، فيقول: «أنا الملكُ». فضحك النَّبيُّ ﷺ حتَّى بدت نواجذُهُ؛ تصديقاً لقول الحبرِ، ثُمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧].

وفي رواية لمسلم: «**والجبالَ والشَّجرَ على إصبعٍ، ثُمَّ يهزُّهُنَّ فيقولُ: أنا الملكُ، أنا اللهُ**».

وفي رواية للبخاريِّ: «**يجعل السَّماواتِ على إصبعٍ، والماءَ والثَّرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبعٍ**»(١).

(حَبر): بالفتح، وبعضهم ضبطها بالكسر: (حِبر) هو: عالم اليهود.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على عظمة الله وكمال قدرتِهِ.

وفيه ـ أيضاً ـ: إثبات الأصبع لله على وجه يليق بجلاله، لا كصفة المخلوقين.

وفيه دليلٌ على إثبات الكلام، في قوله: «**أنا الملك، أين الجبَّارون؟!، أين المتكبِّرون؟!**»، والنَّبيُّ ﷺ ضحك مصدِّقاً للحبر، ومؤيِّداً لما قال، ومستدلّاً على صحَّة ما قال الحبر بهذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ تأمَّل ختم الآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨] فمناسبة ختم الآية بهذه الجملة: أنَّ من صرف شيئاً من حقِّ الله لغيرِهِ فإنَّهُ مشركٌ وما قدرَ اللهَ حقَّ قدرِهِ، والذي ينفي صفةً من صفات الله التي هي صفات كمالٍ انتقصَ قَدْرَ الله بهذا النَّفي، فكأنَّهُ ماثلَ المشركينَ.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٤٨١١)، ومسلمٌ (٢٧٨٦).

۞ ولمسلم عن ابن عمرَ مرفوعاً: «يطوي اللهُ السَّماواتِ يوم القيامة، ثُمَّ يأخذُهُنَّ بيدِهِ اليُمنى، ثُمَّ يقول: أنا الملك، أين الجبَّارون؟! أين المتكبِّرون؟!
ثُمَّ يطوي الأرضينَ السَّبعَ ثُمَّ يأخذُهُنَّ بشمالِهِ، ثُمَّ يقولُ: أنا الملك، أين الجبَّارون؟! أين المتكبِّرون؟!»(١).
ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: «ما السَّماواتُ السَّبعُ والأرضونَ السَّبعُ في كفِّ الرَّحمٰنِ إلَّا كخردلةٍ في يدِ أحدِكُم»(٢).

هذا يدلُّ على عظمة الله؛ فكُلُّ المخلوقات بيد الله ـ جلَّ وعلا ـ، وقد تضمَّن الحديثُ وأثرُ ابن عبَّاس: إثبات الصِّفات لله، أنَّهُ مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، والمعطِّلون يقولون عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]: (هذه فوقيَّة القهرِ والقدرِ، لا فوقيَّة الذَّات).

ومثل ذلك يقولون في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] أنَّهُ علوُّ القهرِ والقدرِ، وأنَّ اللهَ موجودٌ في كُلِّ مكانٍ.

نقول: أخطأتم؛ فإنَّ الله لَهُ علوُّ الذَّاتِ، والقهرِ، والقدرِ، وقولكم

(١) رواهُ الإمامُ مسلم (٢٧٨٨) من طريق عمر بن حمزة ـ تفرَّد به ـ، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه.

وعمر هو: عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ضعَّفَهُ الإمام أحمد، وقال: «أحاديثهُ مناكير» (العلل ٢/ ٥٠٦)، وكذلك ضعَّفه ابن معين (تاريخ ابن معين للدارمي ص١٤٢)، والنَّسائيُّ (الضعفاء له ص٨٣)، وابنُ شاهين (الضعفاء له ص١٢٣)، ومحلُّ الإشكال في هذا الحديث قوله: «ثُمَّ يأخذُهن **بشمالِهِ**»؛ فهذا ممَّا لا يحتمل من عمر بن حمزة، وقد أوردَ هذا الحديث في سياق ما أُنكر على عمر ابن حمزة العقيليُّ (الضعفاء ٣/ ١٥٣)، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٢٤٦) من حديث عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس ﵄، وإسنادُهُ حسنٌ.

يحتاج إلى دليلٍ، أعطونا دليلاً على أنَّ الله حالٌّ في كُلِّ مكانٍ، وأنَّهُ ليس على العرشِ.

فإذا قال: الدَّليلُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

نقول له: هذه الآية دلَّت على أنَّ المرادَ بذلك علمُ اللهِ؛ لأنَّ الله ختمها بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣].

ثُمَّ نقول: ما تقولون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] جاءت الفوقيَّة مجرورة بـ(مِن) فلا تستطيعون أن تقولوا في هذه الآية: (إنَّها فوقيَّة القهرِ والقدرِ)، بل هي فوقيَّةُ الذَّاتِ، وهذا الذي تدلُّ عليه نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ، وهو الذي عليه أئمَّةُ السَّلفِ، وحتَّى جاهليَّةُ العربِ تعرفُ أنَّ اللهَ على عرشِهِ، كما هو موجودٌ في أشعارهم، قال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلت:

مـجِّدُوا الـلَّـهَ فـهـو لـلـمـجـدِ أهـلٌ ... ربُّـنـا فـي الـسَّـمـاء أمـسـى كـبـيـراً[1]

وكذلك أشعارُ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شـهـدتُ بـأنَّ وعـدَ الـلَّـه حـقٌّ ... وأنَّ الـنَّـارَ مـثـوى الـكـافـريـنـا
وأنَّ الـعـرشَ فـوقَ الـمـاءِ طـافٍ ... وفـوقَ الـعـرشِ ربُّ الـعـالـمـيـنـا[2]

وقد أنشد هذه الأبيات بين يدي رسول الله ﷺ، ولم يقل له الرَّسول ﷺ: «أخطأتَ»، بل أقرَّهُ، وذلك حينما وقع على جارية لَهُ، فعلمت زوجته، فغضبت، فقالت له: وقعت عليها؟

قال: لا.

قالت: إن كنت صادقاً فاقرأ القرآن ـ لعلمها أنَّ الجنبَ لا يقرأ القرآن ـ.

فأنشد البيتين المشار إليهما.

فقالت: «صدَّقتُك وكذَّبتُ عيني».

---

(١) تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧).
(٢) ينظر: الرَّدُّ على الجهميَّة للدَّارميِّ (ص٥٦).

فذهب إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبرَهُ، فضحك ﷺ[(١)].

وهذا أمرٌ مفطورةٌ عليه القلوب، حتَّى البهيمة عندما تحتاج شيئاً ترفع بصرها للسَّماء، هذا مذهب أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، لا كما يقول المبتدعة: أنَّ الله حالٌّ في خلقه!

وفي ذلك ألَّف العلماء المؤلَّفات، الإمامُ الذَّهبيُّ ألَّفَ كتاباً سمَّاه: «كتاب العلوِّ»، وابن القيِّم ذكر طرفاً من ذلك في: «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة على غزو المعطِّلةِ والجهميَّةِ»، وهو كتابٌ مطبوعٌ معروفٌ.

فالمصنِّف أراد أن يبيِّن أنَّ اللهَ مستوٍ على عرشِهِ من القرآنِ والسُّنَّةِ، وقد ذكر الله الاستواء في سبعة مواضع من القرآن، وقد بسط العلَّامة ابن القيِّم هذه المسألة بسطاً لا مزيد عليه في كتابه: «الصَّواعق المرسلة»، وبيَّن فساد ما عليه الجهميَّة القائلين: إنَّ الله في كُلِّ مكانٍ، فالجهميَّة يرون أنَّ الله حالٌّ في كُلِّ مكانٍ، لا يخلو منه مكانٌ دون مكانٍ.

قل لهم: ما دمتم تقولون ذلك فهل الله حالٌّ في الكُنُفِ والأماكن القذرةِ التي يتنزَّهُ عنها حتَّى أراذل النَّاس وسقطهم؟!

اللهُ أجلُّ وأعظمُ من أن يكون على هذه الصِّفة التي ذكرتم ـ هذا من جهة الرَّدِّ العقليِّ ـ.

ومن قال بقول الجهميَّةِ فهو كافرٌ عند أهل السُّنَّة والجماعةِ، فالجهميَّةُ سلبوا الصِّفات عن الله فجعلوه كالمعدوم، وإنَّما أثبتوا لله ذاتاً مجرَّدة عن الأسماء والصِّفات!

---

(١) قال أبو عمر ابنُ عبد البر رَحِمَهُ اللهُ في القصَّة المذكورة (الاستيعاب ٣/ ٩٠٠): «مشهورةٌ، رُوِّيناها من وجوه صحاح».
وأنشد أبو عبد الله ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ (الكافية الشَّافية ص١٠٢):

واذكر حديثَ الصَّادق ابنِ رواحةٍ ... في شأنِ جاريةٍ لدى الغشيانِ
فيه الشَّهادةُ أنَّ عرشَ اللَّهِ فو ... ق الماءِ خارجَ هذه الأكوانِ
واللَّهُ فوقَ العرشِ جلَّ جلالُهُ ... سبحانَهُ عن نفي ذي البهتانِ
ذكرَ ابنُ عبدِ البرِّ في استيعابِهِ ... هذا وصحَّحَهُ بلا نكرانِ

۞ وقال ابنُ جريرٍ: حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدَّثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما السَّماواتُ السَّبعُ في الكرسيِّ إلَّا كدراهم سبعةٍ أُلقيت في ترسٍ»**(١).

قال: وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما الكرسيُّ في العرشِ إلَّا كحلقةٍ من حديدٍ أُلقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرضِ»**(٢).

وعن ابن مسعودٍ قال: **«بين السَّماء الدُّنيا والتي تليها خمسُ مئةِ عامٍ، وبين كُلِّ سماءٍ وسماءٍ خمسُ مئةِ عامٍ، وبين السَّماء السَّابعة والكرسيِّ خمسُ مئةِ عامٍ، وبين الكرسيِّ والماءِ خمسُ مئةِ عامٍ، والعرشُ فوقَ الماءِ، واللهُ فوقَ العرشِ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِكُم»**.

أخرجَهُ ابنُ مهديٍّ، عن حمَّادِ بن سلمة، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن عبدِ الله.

ورواهُ بنحوه عن المسعوديِّ، عن عاصم، عن أبي وائلٍ، عن عبد الله، قالَهُ الحافظ الذَّهبيُّ رحمه الله، قال: «ولَهُ طُرُقٌ»(٣).

وعن العبَّاسِ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«هل تدرون كم بين السَّماء والأرض؟»**

---

(١) أخرجه الطبريُّ (٤/ ٣٩)، وإسنادُهُ ضعيفٌ؛ فابن زيد ضعيفٌ سواء كان هو: أسامة أم عبد الرَّحمٰن، كلاهما ضعيفان، وكلاهما يروي عنهما ابن وهب، والخبر مرسلٌ.

(٢) هو بإسناد الخبر السَّابق عند الطَّبريِّ، ولا يصِحُّ؛ لما سبق؛ ولأنَّ زيداً لم يسمع من أبي ذرٍّ، وله طرقٌ أخرى عن أبي ذرٍّ لا يصِحُّ منها شيءٌ.

(٣) رواهُ الدَّارميُّ في الردِّ على الجهميَّة (٨١)، وابن خزيمة في التَّوحيد (١/ ٢٤٤)، والطبرانيُّ (٨٩٨٧)، والبيهقيُّ في (الأسماء والصِّفات ٢/ ٢٩١)، واللَّالكائيُّ (٦٥٩)، من حديث عاصم بن بهدلة، عن زرِّ بن حبيش، عن ابن مسعود، به موقوفاً.
إسنادُهُ حسنٌ، وكلام الحافظ الذَّهبيِّ هو في (العلوِّ ص٤٦).

قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ.
قال: «**بينهما مسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ، ومن كُلِّ سماءٍ إلى سماءٍ مسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ، وكِثَفُ كُلِّ سماءٍ خمسُ مئةِ سنةٍ، وبين السَّماءِ السَّابعَةِ والعرشِ بحرٌ بينَ أسفلِهِ وأعلاهُ كما بين السَّماءِ والأرضِ، واللهُ ﷻ فوقَ ذلك، وليسَ يخفى عليهِ شيءٌ من أعمالِ بني آدم**» أخرجَهُ أبو داودَ وغيرُهُ[1].

(كِثَفُ)؛ أي: غلظ كُلِّ سماء خمس مئة سنة، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من بني آدم، يبصر دبيب النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الملساء في سواد اللَّيل، ويسمع ـ جلَّ وعلا ـ مجاري أصول الأوردة في أجواف الأجنَّة في بطون أُمَّهاتها، لا يخفى عليه شيء.

ونحن نثبت لله ما أثبته لنفسه من الصِّفات حقيقةً، ولا نسلك مسلك التَّفويض، نعم نفوِّض كُنهَها وكيفيَّتها إلى الله لكن نثبتُ معناها، ونقول كما

(١) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ (٣/ ٢٩٢) (١٧٧٠)، والبزَّارُ (١٣١٠)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والتِّرمذيُّ (٣٣٢٠)، وابنُ ماجه (١٩٣)، والدَّارميُّ (الرَّد على الجهميَّة ٧٢)، وابن أبي عاصم (٥٧٧)، وابن خزيمة (التوحيد ١/ ٢٣٤)، وابن منده (التوحيد ١٩)، والحاكم (٢/ ٣١٦ ـ ٤١٠ ـ ٥٤٣)، والبيهقيُّ (الأسماء والصِّفات ٢/ ٢٨٥)، وأبو يعلى في مسنده (٦٧١٣)، واللَّالكائي (٦٥٠) من طرق عن سماك بن حرب ـ تفرَّد به ـ، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العبَّاس، به مرفوعاً.
وهذا هو حديث «الأوعال» المشهور، ولا يصحُّ، لأمور منها:
أنَّهُ لا يحتمل تفرُّد سماكٍ ـ وهو صدوقٌ ـ بهذا الحديث بل بما دونَهُ!
وعبد الله بن عميرة مجهولٌ (الميزان ٢/ ٦٩٦)، ثُمَّ إنَّ البخاريَّ قال (التَّاريخ الكبير ٥/ ١٥٩): «لا نعلم لَهُ سماعاً من الأحنف».
وقد أشار التِّرمذيُّ إلى إعلاله فقال: «حديث حسن غريب»، وضعَّفه الذَّهبيُّ (العلو ص٦٠)، وينظر: الضُّعفاء للعقيلي (٢/ ٢٨٤)، الكامل لابن عدي (٩/ ٢٧).
وأمَّا إعلال عبد الحقِّ في الأحكام الكبرى (١/ ٢٦٥) للحديث بعدم سماع الأحنف من العبَّاس ففيه نظرٌ؛ فإنَّ الإمامَ أحمدَ قال (العلل ٢/ ٥٢١): «ذكرَهُ النبيُّ ﷺ ولم يلقَهُ، وأدرك عمرَ فمن دونَهُ».

قال الإمامُ الشَّافعيُّ: «آمنَّا بالله وبما جاءَ عن الله على مرادِ الله، وآمنَّا برسولِ الله وبما جاءَ عن رسولِ الله على مرادِ رسولِ الله»[١]، لا نزيد ولا ننقص، لا نغيِّر ولا نحرِّف، ولا نعطِّل ولا نبدِّل، وهذه الصِّفات هي حقيقة إلَّا أنَّها لا تشبه صفات المخلوقين.

وكما قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلَّا بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث»[٢]، ونقول كما قال نعيم بن حمَّاد شيخ الإمام البخاريِّ: «المعطِّل يعبدُ عدماً، والمشبِّه يعبد صنماً، والموحِّد يعبد إلهاً واحداً صمداً»[٣]، وأقوالُ الأئمَّة في هذا الباب كثيرةٌ جدَّاً.

وهذه العقيدة هي التي يجب علينا اعتقادها، وأن نعضَّ عليها بالنَّواجذ، لكن يقول لك بعضهم: إذا أثبتُّم أنَّ اللهَ على عرشِهِ يلزمكم أن تثبتوا أنَّ الله في جهة ـ وهي جهة العلو ـ، فتزعمون أنَّ الجهة تحوزه!، وأنَّهُ يشار إليه في جهة! ـ والله منزَّهٌ عن هذا ـ.

نقول: لا، بل آمنَّا باللهِ وبما جاء عن اللهِ على مرادِ اللهِ، وآمنَّا برسولِ اللهِ وبما جاء عن رسولِ اللهِ على مرادِ رسولِ اللهِ، وكما قال الإمام أحمد: «لا يوصَفُ الله إلَّا بما وصف به نفسَهُ، لا يُتجاوز القرآن والحديث»، أخْبِرني أنت، هل الجهة موجودة في القرآنِ والسُّنَّة فأنا أثبتها.

يقول: لا، ليست موجودة.

نقول: ماذا تريد بالجهة إذن؟!

يقول: أريد بالجهة: العلو؛ أي: أنَّ الله على عرشِهِ.

نقول: المعنى صحيح لكن لفظك بدعة؛ لا ننطق إلَّا بما نطق به

---

(١) لمعة الاعتقاد (ص٧).
(٢) الحمويَّة (ص٢٦٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦١)، مقدِّمة النُّونيَّة.

القرآن، أمَّا إثبات لفظ الجهة أو نفيه فهذا غلطٌ، نسكتُ حيث سكتَ القرآنُ والسُّنَّةُ.

أمَّا إن فسَّرتها بمعنى التَّحيُّز وما أشبهه، فنقول: اللَّفظ والمعنى كلاهما بدعة.

هكذا تسلك هذا المسلك في كُلِّ ما يردُ عليك من شبهات أهل التَّعطيل.

قد يقول المخالف: إذا أثبتُّم أنَّ الله على عرشه وأنَّهُ ينزل كُلَّ ليلةٍ لزمَ أن يخلوَ منه العرشُ إذا نزلَ.

نقول له: هذه المسألة بحثها العلماء، فعبد الغنيِّ صاحب «عمدة الأحكام» **يقول**: «لا نقول إنَّهُ يخلو، ولا أنَّه لا يخلو، نقول: الله على عرشه وينزل».

لا يلزم من النُّزول أن يخلو العرش، ولا يلزم من الاستواء على العرش أنَّهُ لا ينزل، بل نقول: آمنَّا باللهِ وبما جاءَ عن اللهِ على مرادِ اللهِ، ولا نثبت إلَّا ما أثبتَهُ القرآنُ والسُّنَّةُ، وننفي ما نفاه القرآنُ والسُّنَّةُ، ونسكتُ حيث سكت الكتابُ والسُّنَّةُ، هذا رأي عبد الغنيِّ في «عقيدته»[(١)].

وآخرون من أهلِ السُّنَّةِ قالوا: إنَّ الله ينزلُ ولا يخلو منه العرشُ.

وقيل: بل العرش يخلو، وهذا الذي مال إليه بعضهم.

والحاصل: أنَّ إيراد هذه المسائل ونظائرها إنَّما هو لتعرف شبه المخالفين، ويكون عندك جواب تسكتهم به، تقول: كما ثبت عن رسول الله ﷺ، وكما دلَّ عليه القرآن، لا أقول: يخلو، أو: لا يخلو.

وشيخ الإسلام ابن تيميَّة قد بحث هذه المسألة وقرَّرها في كتابه «شرح حديث النُّزول»[(٢)] مع اختلاف اللَّيل في البلدان الأخرى، والمسألةُ معروفةٌ،

---

(١) عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (ص٥٥).
(٢) (ص٣٢).

واللهُ أعلمُ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ[١].



(١) الحمدُ للهِ الذي يسَّرَ وأعانَ، الحمدُ للهِ على نعمِهِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، الحمد لله كثيراً كما أنعم كثيراً.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة


دار ابن الجوزي 8428146
113349